جامعة صنعاء

مجلّة كلّية الآداب

العـــدد ١٨ السنـــة ١٩٩٥م

جامعة صنعاء

مجلّة

كليّة الآداب

العدد ١٨ السنة ١٩٩٥

رئيس هيئة التحرير

الدكتور حسين أحمد الباكري

عميد كلية الآداب

مدير التحرير

أ.د. شاكر خصباك

هيئة التحرير

أ.د. عبدالرحمن الشجاع

أ.د. عبد علي الجسماني

د. عبده علي عثمان

د. محمد شرف الدين

د. أحمد عقبات

د. طارق نجم عبدالله

محمد السنباني

قواعد النشر

في مجلة كلية الآداب

مجلة كلية الآداب محكّمة دورية تنشرها عمادة الكلية، وهي تهدف الى أتاحة الفرصة للباحثين لنشر نتائج أبحاثهم. تنظر هيئة التحرير – من خلال هيئات التحرير الفرعية- في نشر مواد في جميع فروع المعرفة. تقدم البحوث الأصلية التي لم يسبق نشرها بالإنجليزية أو بالعربية، وفي حالة القبول يجب ألا تنشر المادة في أي دورية أخرى دون أذن كتابي من رئيس هيئة التحرير.

تنقسم المواد التي تقبلها المجلة الى الأنواع الآتية:

١- بحث: ويشتمل على عمل المؤلف في مجال تخصصه، ويجب أن يحتوي على إضافة للمعرفة في مجاله.

٢- مقالة أستعراضية : وتشمل على عرض نقدي لبحوث سبق أجراؤها في مجال معين أو أجريت في خلال فترة زمنية محددة.

٣- بحث مختصر.

٤- المنبر (منتدى) : خطابات الى المحرر- ملاحظات وردود- نتائج أولية.

٥- نقد الكتب.

تعليمات عامة

١- تقديم المواد: يُفضل أن يقدم الأصل مطبوعاً على الآلة الكاتبة- ومعه نسختان- على مسافتين وعلى وجه واحد من ورق مقلس (٢١×٢٩,٧سم)، ويجب أن ترقم الصفحات ترقيماً متسلسلاً بما في ذلك الجداول والأشكال. تقديم الجداول والصور واللوحات وقائمة المراجع على صفحات مستقلة.

٢- الملخصات: يرفق ملخصان بالعربية والإنجليزية للبحوث والمقالات الأستعراضية والبحوث المختصرة على ألا يزيد عدد كلمات كل منهما على ٢٠٠ كلمة.

٣- الجداول والمواد التوضيحية: يجب أن تكون الجداول والرسومات واللوحات مناسبة لمساحة الصف في صفحة المجلة. ويتم إعداد الأشكال بالحبر الصيني الأسود وعلى ورق كلك، ولاتقبل صور الأشكال عوضاً عن الأصول. كما يجب أن تكون الخطوط واضحة ومحددة ومنتظمة في كثافة الحبر ويتناسب سمكها مع حجم الرسم، ويراعى أن تكون الصور الظلية- الملونة أو غير الملونة- مطبوعة على ورق لماع.

٤- الأختصارات: يجب استخدام اختصارات عناوين الدوريات العلمية كما هو وارد.

تستخدم الأختصارات المقننة دولياً بدلاً من كتابة الكلمات كاملة مثل : سم ، مم ، م ، كم ، مجم ، كجم ، ق ، / ،....الخ.

٥- الحواشي: تستخدم لتزويد القارىء بمعلومات توضيحية. يشار الى التعليق في المتن بأرقام مرتفعة عن السطر بدون أقواس. وترقم التعليقات متسلسلة داخل المتن ويمكن الإشارة الى مرجع داخل الحاشية- وفي حالة الضرورة – عن طريق استخدام رقم المرجع بين قوسين مربعين بنفس طريقة استخدامها في المتن.

تقدم التعليقات على صفحات مستقلة علماً بأنها ستطبع أسفل الصفحات المعنية ويفصلها عن المتن خط .

٦- تعبّر المواد المقدمة للنشر بالمجلة عن آراء ونتائج مؤلفها فقط.

٧- المراسلات : توجه جميع المراسلات الى مجلة كلية الآداب / جامعة صنعاء، ص.ب:١٢٤٧ صنعاء، الجمهورية اليمنية.

٨- عدد مرات الصدور : نصف سنوية.

٩- سعر النسخة الواحدة: ٢٥ ريالاً يمنياً، ٥ دولارات أمريكية (بما في ذلك البريد).

الفهرس

		صفحة
١- الذاكرة المفقودة (القسم الثاني)	أ.د. عبدالعزيز المقالح	٧
٢- حركة القوى العاملة اليمنية المهاجرة	د. احمد شجاع الدين	٣١
٣- حالة الشك واليقين في التعبيراللفظي والصوري	د. احمد عقبات	٥٤
٤- السينما الأمريكية	د. جبار العبيدي	٧٣
٥-الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانيا على الكويت	د.سعد ابو ديّة	٨٩
٦- المناهج الشمولية والاختزالية في الجغرافية	ترجمة أ.د. شاكر خصباك	١١٥
٧-الجر على الجوار في التراث النحوي	د. طارق نجم عبدالله	١٣٤
٨- فخار العراق القديم	د.غسان طه وعبدالعزيز سلطان	١٦٦
٩-الليبرالية المتوحشة	مراجعة د.عبدالباري الشرجبي	١٩١
١٠-القلق والتوتر واثرهما في الابداع عند الأدباء	د. عبد علي الجسماني	٢٣٧
١١- الاستشراق والدراسات الجغرافية عند المسلمين	د. عبدالقهار العاني	٢٧١
١٢-المكررات اللفظية معياراً وزنياً	د. عبدالرضا علي	٢٨٠
١٣-مقدمة في تدوين السنّة	د. عبدالرحمن أحمد الأبي	٢٨٩
١٤- أصوات الذلاقة في البحث اللغوي	د. علي حسين مزبان	٣١٥
١٥- المعارضات الشعرية ونشأتها في الأدب العربي	د. مزاحم احمد البلداوي	٣٣٩
١٦- تطور آليات وسائل الاتصال	د. محمد عبدالجبار سلاّم	٣٦٧
١٧- يمنيات ابن قلاقس	د. محمد أحمد النهاري	٣٨٩
١٨-تصورات المشرفين التربويين لمؤهلات مدير المدرسة	د. نصر يوسف مقابلة	٤١٦

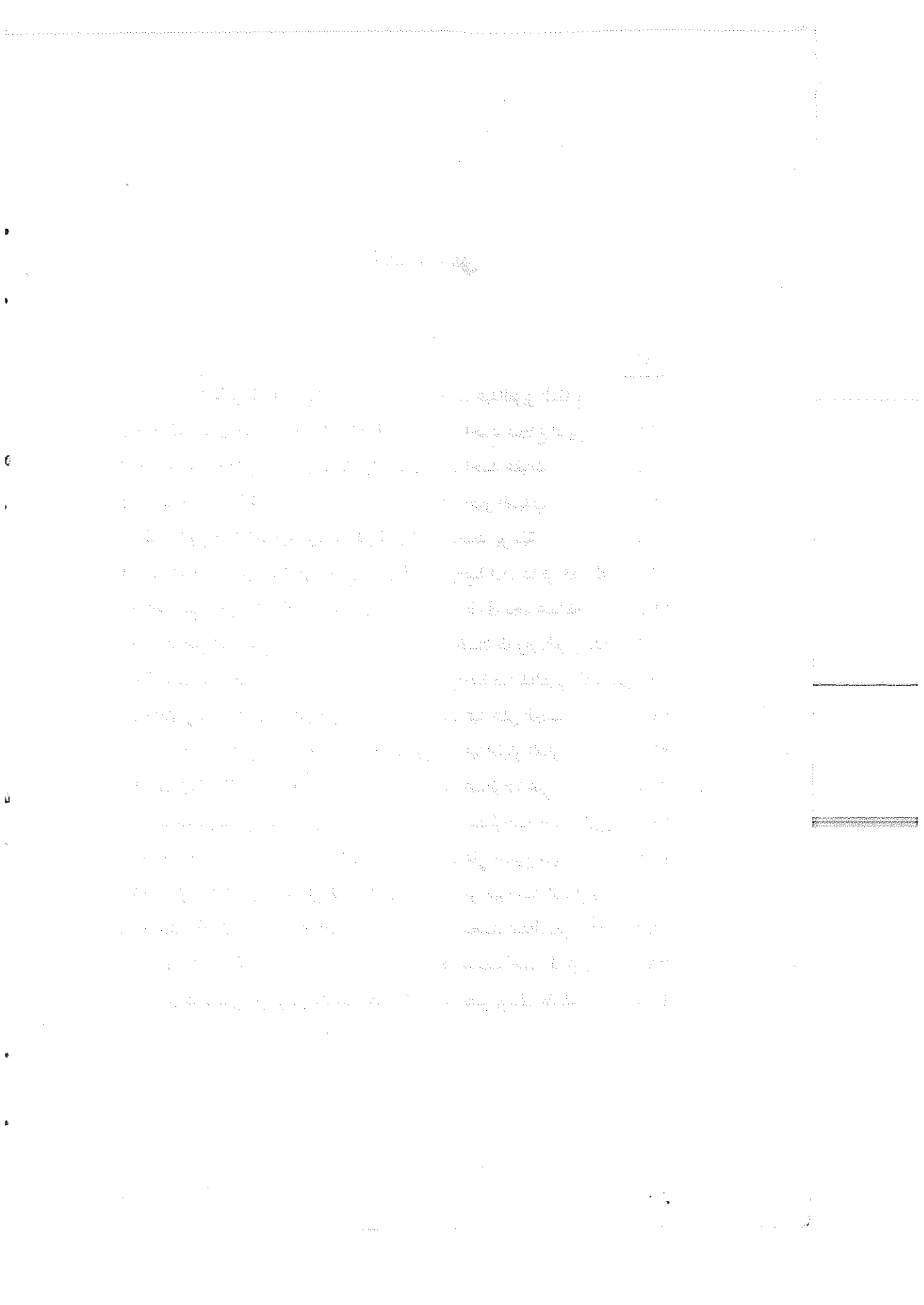

الذاكرة المفقودة
دراسة في شعر عبداللطيف الربيع
- القسم الثاني -

بقلم الأستاذ الدكتور عبدالعزيز المقالح

-٣-

قال لي أحد الاساتذة الأصدقاء : لم ابدأ فهم الشعر الجديد إلا بعد جهد دام عشرين عاماً ، وقلت له : أما أنا فلم أبدأ كتابة القصيدة الجديدة إلا بعد محاولات دامت عشرين عاماً. وهذا الكلام موجه الى اولئك الذين يعلنون حربهم وتذمرهم على هذا النوع من الأدب والفن بمجرد نظرة عابرة أو قراءة غير متأنية ، وقد قيل كثيراً عن تأثير الثقافة التقليدية وضرورة تحرير القارىء من وطأتها ، بل توجهت سهام كثيرة الى المثقفين التقليديين الجامدين على سنن القديم الأدبي والشعري خاصة. لكن أحداً لم يتحدث عن التربية الجمالية والفنية ، وعن تطوير الذوق لاستقبال الابنية الجديدة في الفنون والآداب.

كيف يتسنى لقارىء أو حتى لأديب ثقافة لا تتعدى تذوق التطوير الشعري في نطاق لا يبتعد عن الموشح ، ولايرى - في حدود ثقافته الشعرية التقليدية - سبباً ثقافياً أو اجتماعياً أو فنياً لهذا التغير الذي لحق بالشعر ، أقول كيف يتسنى له أن يستوعب الخروج الصارخ على كل ما تعارف عليه الناس في مجال فهم الشعر ومقوماته. ويمكن القول في هذا الصدد - ان تسعين في المائة من أعداء القصيدة الجديدة أو من المنصرفين عنها ، هم من الذين لم تتح لهم ثقافة شعرية واسعة نابعة من روح العصر ومن تجربته التعبيرية ، لذا يستعصى عليهم فهم الجديد وتنغلق عليهم دلالاته.

وفي كتب الشعر القديمة اخبار كثيرة عن الصراع بين "المحدثين" وانصار القديم، وقد خلق ذلك الصراع وعياً متغيراً ، وفرض على انصار القديم انفسهم . اعادة النظر في الموروث. وفي اساليب المواجهة ، اذ صاروا لا يرفضون التحديث وانما يرفضون التمرد الكامل ، فقد استجابوا للخروج الذي مثلته الموشحات ، وظلت في اعتبارهم الشعر بينما قاوموا اشكال الخروج الاخرى كنظام "البند" الذي اندثر ولم تتسع صدور الكتب الا لنماذج لا تشفي غليل الباحث فضلاً عن القارىء ، وذلك لأن نظام "البند"

في الشعر العربي القديم لم يكن - في القرن الثالث الهجري - مجرد مغايرة في بعض العناصر الشكلية ، كما هو الأمر مع الموشحات ، وانما كان مغامرة شكلية ومضمونية وانتقالية بالشكل الشعري من نظام البيت الى نظام القصيدة المدورة، وما في ذلك من إلغاء للقافية وما يتبعها من وقفات رتيبة مفروضة سلفاً.

ان التوق الى تجاوز المألوف والمتعارف عليه ضرورة غائرة في وعي الانسان وفي لا وعيه ايضاً ، وبفضل هذه الضرورة استطاع الانسان ان يخوض المعارك المختلفة ضد القديم وان يؤسس ابعاد هذا التحول المدهش والمثير في الحياة ، وقد استطاعت الفنون والآداب - بما لها من طاقات الحدس والكشف - ان تتقدم مواكب الوعي الجديد منذ كان الانسان اسير الكهوف المظلمة وعبر الغابات والصحاري الى ان اتخذ له اماكن مؤقتة على سطح الكواكب البعيدة. والفنون والآداب التي ساعدت الانسان على تجاوز كل مألوف لابد ان تساعد نفسها على تجاوز الموقف الثابت والمراوحة والصعود من ذروة الى ذروة في ايقاعات قد تبدو أحياناً مفاجئة وحادة ثم تصبح قديمة ومطروقة.

واذا كان الوعي بالشعر ما زال حتى الآن - في الوطن العربي طبعاً - قاصراً على فهم الجانب المباشر وغير المباشر من الموروث وللمحاكي للموروث، فان النص الجديد برؤيته وبعينيه المعقدة وبمحاولته الابتعاد عن المناسبات الاحتفالية سيظل بعيداً عن غالبية المتلقين ، الى ان يتطور الوعي الشعري وتتسع منافذ الثقافة ، وعندئذ سيفهم القارىء ان للشعر وظيفة اخرى غير المدح والهجاء ، وغير الوصف والرثاء وان قيمة الانسان لا تكمن في لغة الابهار واللمعان الخارجي وانما كيفية رؤيته للعصر ونفاذه الى ابعد حدود تذكر الفرح والحزن والتأمل والى اقصى مناخ التعرف والاكتشاف.

وقد حاولت هذه القراءة في الجزئين السابقين منها ان تقترب من الكتاب الشعري الاول للشاعر عبداللطيف الربيع ، وهو " كتاب الكفن ... والجسد " وكانت النصوص القليلة موضوع التناول من النوع النثري الخالي من الغنائية لاسباب تمت الإشارة إليها في حينه وفي الكتاب نفسه عدد من القصائد الغنائية المحافظة على تفعيلة البحور الشعرية ، وفيه أيضا عدد آخر من القصائد المزاوجة بين النثري والغنائي، كما في قصيدة "ملاحظات عني" ومنها هذان المقطعان المتتابعان ، الأول نثري والآخر غني بالإيقاع :

مصابيح المطر
تلمع في غرف الأشجار الداكنة
مطر ومصباح
يكفيان لتلمع عيون
القطط المبللة بالليل
.....
هذا زمن يملك فيه القاتل
حق العفو عن المقتول
فمتى يملك نفس الحق
المقتول (١١)

يختزن المقطع الأول كمية من الشعر تفوق ما تختزنه عشرات القصائد المحسوبة على الشعر ، وفي تعبير "القطط المبللة بالليل" صورة شعرية عميقة الإيجاز باللغة الشعرية ، كما يختزل المقطع الآخر وبقدر عميق من التكثيف حكمة ساخرة جادة المفارقة ، فالقاتل هو صاحب الحق الأول في هذا الزمان الذي يملك العفو عن القتيل، وكان المرحوم صلاح عبد الصبور قد حاول في قصيدة له في ديوان "الفارس القديم" أن يقرر أننا نعيش في زمن لايدري فيه مقتول من قاتله ومتى قتله ، وجاء عبداللطيف الربيع لكي يقرر أن ذلك الزمن قد تطور فأصبح القاتل المجهول معلوما وصار من حقه وحده أن يمنح ضحيته العفو .

وفي الديوان أو بالأصح في الكتاب أياه القصائد تصل الغنائية فيها إلى ما يتقرب من نظام العمودية كما في قصيدة "مدد" المستوحاه من أغاني المتصوفة والدراويش ، وإذا كان الإيقاع يساعد المتلقى على الإستيعاب والحفظ فإن قراءة هذه القصيدة ثلاث مرات كفيل بأن يحفرها في صدر القارئ :

نعم للزبد
نعم للعناصر
في كيمياء الأبد
مدد . .
مدد سيدي البحر
دعني ...
أمد جسور المسافة

نحو إبتداء البدر

مدد ..

مدد سيدي الصفر

قدني إلى حيث

لا ينتهون في العدد

مدد . .

مدد سيدي العقل

أعطيك لغـــوا

واحجب ملكة من جسد

مدد . . .

مدد سيدي الوهم

إني أنا مفرد

يتجمع من لا أحد(١٢)

إن الشاعر الحقيقي لا يبحث عما يثير الغرابة أو يبعث على الدهشة ، وإذا كان الإنفعال النفسي الحاصل عن الأعجاب قد يبعث في نفس القارئ قدرا يسيراً أو كبيراً من الدهشة فإن ذلك ينبغي أن يكون تعبيرا عفويا بعيدا كل البعد عن الإثارة والإستدراج ، ومن بين القضايا التي يطرحها النص الشعري المعاصر رفض الدخول في قواعد اللعبة المتفق عليها سلفا ، ومنها إثارة الدهشة الخارجية من خلال المهارات اللفظية وشد الإنتباه باستخدم الصيغ الجاهزة التي توحي للقاريء بطريقة غير مباشرة أنه قادر على مشاركة الشاعر في الكتابة .

إن القصيدة "مدد" وقد أوردناها كاملة تثبت أن الشاعر عاجزٌ عن كتابة القصيدة البيتية وفي الوقت تتبين أن أساليب الشاعر تتنوع وتتطور بتنوع وتطور ثقافته الشعرية وبقدرته على المحافظة على إستقلالية صوته الشعري في مختلف الأساليب ، وتقليدية الشكل في هذه القصيدة لم يجعلها تسقط في تكرار المعاني والصور القديمة ، باستثناء "مدد سيدي" وهو التعبير الذي يمكن أن يقال عنه أنه تعبير جاهز ومتداول فإن بقية التعابير والجمل الشعرية من صنع صاحبها ومن تكويناته ولا يتسع الوقت لكي نسترجع هذه التعابير واستكناه مدلولاتها الطازجة ، ونكتفي بالاشارة الى الاسطر الأخيرة التي تؤلف بيتاً مستقلاً يلتقي عنده الموروث والمعاصر معكوساً في صيغة جديدة : الموروث من خلال " وفيك انطوى العالم الاكبر " والمعاصر في " مفرد في

صيغة الجميع " انه مفرد في صيغة نفسه ولا ينطوى فيه شيء غير ذاته ، واثر الثقافة الصوفية واضح في القصيدة باكملها ، واخطر ما في هذا البيت ليس في تأكيد الاستقلالية التي تصل الى درجة العدم وانما هو في توجيه الخطاب الى " الوهم " وهو توجيه ناجح ومثقل الدلالات الايحائية الاعمق شعرياً.

ومن القصائد الغنائية التي تضج بالمفارقات وبالشعر معا قصيدة " رسالة المسافة: الى ...." وقد تجلت فيها قدرة الشاعر على السخرية والعبث غير المباشر باصحاب العقول " الغليظة " وانصار الجهل العلمي الذين يمتلكون قدراً كبيراً من " يقين البهائم " ولا ينظرون الى ابعد من انوفهم :

المسافات وقفة بيننا
انت تعرف
انك ابعد منك
وتعرف اني
قريب الى
اذن ....
لا طريق إليك
يؤدي إليّ
اذن لا طريق إليّ
يؤدي إليك
المسافة واقفة بيننا
.....
وهكذا تتشتت في نقطة
حين يجمعنا " علف الاذن " ؟؟
.....
عفواً اردت اقتحام تضاريس صمتك
لكن صوتك كان حجاباً
تراجعت .. نحو صدى حجر
اعزلاً من " يقين البهائم "
منتصباً صدق هذا الجنون الحميم ..... (١٣)

التعبير الساخر " علف الاذن ، وهو كناية عن الكلام – وحتى عن الادب – ك والجذور والممتد على سطح الحياة كالاوراق الصفراء التي لا تصلح في احسن الاحوال سوى علف للحيوانات ، لقد اختار الشاعر لفظ " علف " لكي يعطي من الايحاءات ما يثرى المعنى الساخر وما يضاعف تأثيره ويجعله مع اطلاقه وبعده المباشر اكثر ايلاماً ووخزاً ، وان الاشتباك الدائر في كثير من الاوساط الادبية العربية يعود الى المستوى المتدني للاعلاف التي يتداولونها دون تمييز أو تمحيص.

في هذه القصيدة – كما في قصائد اخرى – تأخذ هذه التعابير الحادة – وهي عادة تعابير محفوظة أو متداولة – دور الايقاظ لا الاثارة ، ودور التحدي والدعوة الى اعادة النظر في الاشياء ، والشعراء المحدثون شأن الفنانين المحدثين (يريدون من القارىء الا يندمج اندماجاً كاملاً في القصيدة بحيث ينسى انه يقرأ قصيدة. وهم لذلك ما يفتأون يصدمونه بعبارات لا معنى لها – ربما كانت اجنبية ، وعير نحوية ، أو خارجة عن السياق – بحيث يتوقف القارىء ويتساءل– ماهذا ؟ ومثلما يفعل الرسام الحديث في لوحاته ، نجد الشاعر الحديث حريصاً على الا يلقى القارىء نظرة على العمل ويقول : ما أجمله ! ثم يمضي في سبيله. انهم يريدون منه ان ينظر إليه مرات ومرات ، بحيث يرى فيه كل مرة شيئاً جديداً ، وبحيث يتولى هو اقامة المعاني التي يراها.

ومعنى هذا انهم يطالبون المتذوق بأن يكون واعياً بانه يتطلع الى عمل فني يمثل لوناً من التحدي الصارخ لحياته النمطية (ولا شك ان حياتنا نمطية شئنا أم أبينا) ، فهم يقولون له تعال واعمل فكرك فيما ترى) [١٤].

وفي قصائد الديوان كثير من المفردات الاجنبية والاسماء المستخدمة لنفس القصد الذي يتحدث عنه الاستاذ الناقد وفي قصيدة واحدة هي " ملاحظات عني" توجد الكلمات التالية "الفواتير" و"البورتسلان" و"البلاستيك" وفيها كلمة "سفن آب" بالحروف اللاتينية ، وأرقام مليون سنة هكذا ( ) ان الشاعر حريص لا على كسر النمطية وحدها وانما هو حريص كذلك على كسر الرتابة في التعبير والرتابة في التشكيل والرتابة في رسم الكلمة وفي تحديد موقعها من الصفحة.

الحديث عن الرسم يذكرنا بما كنا قد وعدنا به القارىء في الجزء الثاني من هذه القراءة عن الاقتراب من وضوح تأثير ثقافة الشاعر التصويرية على قصائده، فهو فنان تشكيلي انتقلت قدراته الفنية في تصوير الناس والاشياء بالالوان الى الكلمة التي صارت قادرة على استيعاب روح الفنون التشكيلية وتضمين الصورة في المعنى أو تضمين

المعنى في الصورة كما في المقاطع التالية من قصيدة " أقول وأستغفر الله ... " وقد أهداها الى نفسه والى صديقه الشاعر عبدالكريم الرازحي :

تعتادنا النار .. نعتادها
فابتكرنا الجحيم الاضافي
ثم ابتكرنا سماء نغير الوانها
كلما ابتعدت اقتربنا - احترقنا
ونهطل من دمعنا
كلما اشتاقت الأرض للحزن
.....
(بين قوسين أو بين قيدين)
بحر لنطفوا .. ويجمعنا الريش
تعرف أعرف مايفصل البحر والبحر -
بحر
وما يفصل الريش والريش
..... ريش
وقلت - وقلت - ولكنه بحرنا
بحر يابس
قشنا مالح مثل لحم الأرانب ..
منفتح موقد القلب ، فلتطفو حجر صدري .
أقول أرى الدم ملء فم
الصولجان
أرى الناب يعوى على جسد الفقراء
أرى القيمين على جنة
عرضها نقطة
يكرمون خيول الغزاة
يحفون أوطانهم[١٥] .

ان صورة الجحيم الاضافي وصورة السماء القابلة لأن يقوم الشعراء بتغيير ألوانها على هواهم الابداعي ، ثم هذا الجهد الفني في تصوير حالة الخواء العام للانسان الذي يحيا بين قوسين أو بين قيدين طافياً على بحر يابس من الريش والقش ، بحر لا ماء فيه

ولا موج ، هذه الصورة الصادقة من وحي الفنون البصرية وخصائصها التصويرية تؤكد أننا أمام لوحة لاقصيدة ، وفي المقطع الأخير ثلاثة أفعال للرؤية ، " أرى الدم " " أرى الناب " " أرى القيمين " وهي تشكل لوحة أخرى يبدو فيها وجه الخيانة الضالع في تمزيق الأوطان واخضاعها لسيطرة الخزاة .

وهنا تجدر الاشارة الى أن عبداللطيف الربيع قد نجح في استيعاب المهنة الحديثة للشعر ، وفي كسر الايهام والاندماج مع القصيدة على حد التعبير السالف الذكر ، لكنه تمادى في هذا المجال ، وحاول أن تكون معظم قصائده سائرة في هذا الاتجاه التعبيري الصارم ، فكان الرسم أو اللون هو الذي حفظ لهذه القصائد توازنها الفني واحاطتها بالضوء المضاد للتجريدية والكلمات المتحدية الصادقة ، وقد ساعدته حاسة البصر – وهي الرسم " على التحرك في مجال الرؤية وتتبع الأشياء كما هي في الواقع من خلال تجليات الألوان وانعكاساتها الثرية والمتنوعة لا على شبكة العين وانما على شبكة المشاعر والأحاسيس ، فكانت القصائد صوراً تتراءى أكثر منها أصوات تسمع، وقد تكون هذه الخصوصية الفنية وراء الاختيار النثري وخفوت الايقاع الموسيقي .

وفي نهاية حديثنا عن الكتاب الشعري الأول للشاعر عبداللطيف الربيع ، تجدر الاشارة الى أن الشعر قد كان ومازال يمثل الارادة الوجدانية العميقة للتعبير عن الانسان العربي في زمن التناقص والتداخل ، زمن تكاثر محاولات استبدال الأحلام واستبدال الأوطان ، ولكي يظل للشعر قدرته على تصوير حالات التمزق والضياع ورسم رؤيا وطنية وقومية وانسانية صاعدة ينبغي في هذا المنعطف الغامض والمعقد والمريب .

ان اللغة أداة توصيل مهمة وأساسية ، لكنها في الآونة الأخيرة قد أصبحت أداة تعتيم ووصلت الى مرحلة من الفوضى والاختلاط يستوي في ذلك الشعر والفكر ولم يكن هذا الذي حدث للغة ناتجاً عن تعدد الخطاب اللغوي واختلاف مستويات المتلقين وانما كان ناتجاً عن التحريف والتلاعب اللفظي وعن ضياع القاموسية القديمة وتأخر ولادة قاموسية جديدة وعلى الشعر أن يتحمل دوره في لحظة الاختلاط هذه، وأن يحافظ على قيمة التعبير وقيمة الفن .

قد يكون مناسباً في بداية الحديث عن هذه السيرة الشعرية أو القصيدة الطويلة، أن أشير الى أن صاحبها – هو نفسه صاحب كتاب " الكفن .. والجسد " الذي تناولناه في أحاديثنا السابقة ، ينفي عن نفسه تهمة أن يكون شاعراً وانما في أحسن الأحوال انسان يحب الكتابة وينظر اليها باعتبارها ظاهرة فنية يصعب قولبتها أو سجنها في

أشكال أو في نظم بعينها . وهذا الاعتراف لابد أن يكون صادراً عن أحد موقفين اثنين هما : اما موقف التواضع العنيد واما موقف الغرور الخلاق ، غير الغرور المرضي ، والتواضع مهما كان وصفه معروف أما الغرور الخلاق فان الشاعر – في حالة اتخاذه موقفاً – يرى أن كثيراً من أنواع الشعر وأشكاله الراهنة خالية عن الابداع الحقيقي وليست سوى استمرار غير خلاق للتراث الشعري القديم أو للتراث الشعري الجديد . لأن الشعر الحقيقي يستدعي أن يظل المبدع في حالة تطور مستمر وفي حالة تواصل مع الابداع الحقيقي لايقف عند حد ، فالحياة – لو استرجعنا بعض فصولها الماضية والحاضرة – نهر لايتوقف ، نهر دائم الجريان تدريجي التصاعد .

ولأن الشعر الحقيقي ابداع متميز مقتحم ينطلق من القديم الى الراهن ، ومن الراهن الى الجديد ، فان الشعراء الآن – وفقاً لهذا التصور – غير شعراء ، لأنهم يعيشون حالة الراهن ، ولا يعيشون حالة الجديد ، ومن الأفضل لهم جميعاً أن يعترفوا بتواضع عنيد أنهم ليسوا شعراء وأن هذا الذي يمتلكونه من وسائل الشعر الحقيقي ليس الا التساؤلات وان القاموس اللغوي وقاموس اللون وقاموس الايقاع مستمدة جميعها – من الموروث ومن الراهن وليس من الجديد. والحديث عن سيرة شعرية – على سبيل المثال – حديث سابق لأوانه ، والقصيدة الغنائية – القصيدة ذات الصوت الواحد والبعد الواحد – هي القصيدة الخارجة من القديم الى الراهن وليس الى الجديد.

وكما نستطيع أن نمنع الشاعر – أي شاعر – عن التواضع فنحن لانستطيع كذلك أن نمنع عنه الغرور الخلاق فالغرور الخلاق موقف من الذات المبدعة ، وبعض علماء النفس يرونه جوهر هذه الذات وأحد الدوافع الى الابداع وارتياد المجهول . ولست أنوي أن أغوص في مجادلات عن التواضع والغرور لكنني أسعى الى استخراج مدخل الى موقف من الأشكال الجديدة للابداع ومن الصيغ الشعرية الجديدة الذي جاء ظهورها في اطار ردود الفعل على الجمود وفي محاولات لاعادة الحياة الى الشعر بعد أن اختنق في اطار نظامه التقليدي الخاص ، ويبدو أن الوعي بهذه القضية قد سبق مرحلة التجسيد الفني والمضموني للشاعرية المعاصرة ، وان المسرح الشعري هو أقصى ماوصلت اليه مرحلت الوعي بقضية الابداع في حين ظلت القصيدة الغنائية الشكل المقبول والمتداول . وكأنما الانتقال من " البيتية " الى " السطرية " ومن الايقاع الصاخب الى الايقاع الهامس انتقالة كيفية لانوعية وانتقالة من تراكم شعري

قائم على القصيدة الغنائية الى تراكم شعري قائم على نفس القصيدة دون خلق أنواع أخرى مستفيدة من الشكل التعبيري الجديد الأكثر مرونة وقدرة على التنوع والارتقاء.

ولعل السيرة الذاتية - بعد المسرح الشعري - تشكل في طموحها - الانتقالية الأخرى ومحاولة للخروج عن القصيدة الغنائية ، وكل شعرنا العربي - لمن لايعرف معنى القصيدة الغنائية - قصائد غنائية مهما تعددت أغراض بعضها وتنوعت خواطرها وتأملاتها ، والسيرة الذاتية في الشعر نمط من التأملات الداخلية يختلف عن المذكرات الشخصية أو سيرة الحياة وأن كانت أقرب الى الذكريات الفكرية والروحية، وهي - وان خضعت أحياناً للتسلسل الزمني - لاتخضع للتحليل والتعليل ولا تطرح الواقع في اطاره الجامد كما تطرحه السيرة الذاتية النثرية أو المذكرات الشخصية ، وقد ظهرت في السنوات الأخيرة بعض الدراسات عن السيرة الذاتية النثرية لكن الحديث عن سيرة ذاتية شعرية مايزال في البداية . وفي مقال عميق وبديع عن " السيرة عملاً فنياً " يتساءل ثم يجيب " اندريه موروا " : " هل يمكن لسيرة الحياة أن تتوفر على قيمة شعرية ؟ انني أراها كذلك .. انني أتصور الشعر بمعناه الواسع تحويلاً للطبيعة الى شكل جميل معين بات بفضل الايقاع شكلاً مفهوماً . " وفي السيرة الشعرية يتجرع العقل - كما يقول - كآبة شعرية في ذلك المسح السريع للماضي . ثم يقول (هنا كاتب السيرة في مصاف الموسيقي العظيم والشاعر الكبير) (١٦)

وكان لابد أن يمر وقت طويل على الأدب العربي قبل أن تبدأ السيرة الذاتية الشعرية في الظهور على صفحته الجديدة ، و " فازعة " الكتاب الثاني للشاعر عبداللطيف الربيع محاولة جريئة في هذا الاتجاه ، اتجاه السيرة الذاتية الشعرية ، اتجاه استرجاع الماضي في تأملات تصنعها حاسة شعرية ترفض " النموذجية " وترفض الدوران في مجال تقليدي يفتقر لرحابة الابداع ويفتقر الى الانسجام مع الخصيصة الفنية الكامنة في روح العصر ومتغيراته .

و " فازعة " اسم جدة الشاعر ، وقد يكون استعار هذا الاسم كمعادل موضوعي ينسجم من خلال اسقاطاته المجسمة لحركة الثورة ولملامح " اليمن الأم " هذه التي يعود معها الى طفولته ويتذكر أحداثاً تختلط فيها السيرة الذاتية بسيرة الوطن ويمتزج فيها الخاص بالعام ، ويبدو أنه اختار لحظة البداية لتكون شديدة الارتباط وبمصرع الثورة الدستورية في عام ١٩٤٨ عندما تحولت اليمن الى حطام بائس والى مقبرة للأحزان والمخاوف .

ولبست البلاد حداد عليك ،
لي الآن مقبرتان أرى بهما
ولي الآن عمران
عمر أموت به كل يوم
وعمر أخاف عليه من العيش
هذا أنا :
نمل خوفي ينخر في جسدي
والقصيدة تنخل حزني
ولم يبق لي الحبر ...
إلا دمي ...
كيف أكتب والموت نبضي
وقلبي دواة تجف بها الكلمات

هذا هو المقطع الأول في قصيدة " فازعة " لقد آثر الدخول اليها من باب المأساة من ذكريات الحزن التي علقت في سنوات الطفولة واختفت في شقوق الأيام ، ولاتبرح الذاكرة ، ولا تغادر تلافيف الوجدان . كل شيء في البلاد - كان يومئذ - يلبس الحداد على البلاد ، الخوف ينخر الأجساد الهزيلة الضامرة، واعمار الناس لاتساوي شيئا سوى الخوف ، وفي زحمة هذا الموت العام تموت شقيقة الطفل الذي سيصبح شاعرياً فنياً بعد ، ويخترق المنزل ويومئذ بنار الكآبة ، وتظل النار دفينة في القلوب الى بداية الثمانينات حين تم استحضارها والتعبير عنها وتجسيدها في دموع من الشعر:

قيل مات
قيل كانت له طفلة
أسئلة .....
كيف ؟ قيل
تلقى الرصاصة بصدر
تضج به
السنبلة .
أين ..... كان المكان
مساء

متى ؟
قلت في البلد المقبرة
أين ؟؟
جاء المكان من الحزن
جاء الزمان من الموت
جاء الجواب
من اللبن الحجري
من الأغنيات "
من الفتيات
اللواتي يقطعن أيامهن
ويحملن أحلامهن الى البئر ..

ليس غريباً أن يقترن الحديث عن موت الطفلة بالحديث عن " البلد المقبرة " وعن الفتيات اللواتي يمزقن الأيام عبثاً ويحملن الأحلام الى البئر ، انه ضرب من العزاء ، فهل لو عاشت تلك الطفلة وكتبت لها الحياة بدلاً من الموت ، هل كان حالها يختلف عن بقية الفتيات اللواتي يحتضرن طوال العمر ويلقين كل يوم بأحلامهن الى البئر التي يستقين منها ماء التعاسة والألم ؟ ؟ وحقاً أن الشمس لم تكن تطلع في الأربعينات على بقعة من الأرض أكثر تعاسة وشقاء من هذه البقعة التي شهدت مولد " فازعة " وعانت من مرارة أحزانها وبؤس عجزها ، أطفالها يحصدهم الموت وأذكياؤهم يحصدهم السيف ، وتحت وطأة هذا القرن الى مابعد قيام الثورة ، وهي مفارقة أساسية ينبغي أن يتوقف أمامها الباحثون طويلاً ، وأن يستخلصوا منها منطلقاً لدراساتهم الموضوعية البعيدة عن الشعر والشعراء .

ويتوالى رصد الأحداث في " فازعه " من غير تسلسل ظاهر ولا منطق تأريخي يتحكم في الأسلوب سوى منطق الشعر الذي يتوسل أحياناً للوصول الى هدفه البعيد بالتعبيرات الريفية أو بأبيات من الشعر الشعبي ، كما هو الحال في المقطع التالي الذي يبدأ " بمغرد " والمغرد صوت فردي ينطلق في الأرياف ويكثر في فصول الحصاد " والشريفة " ويتخلله " مهجل " و " المهجل " صوت جماعي يردده العمال في أوقات العمل المشترك ، وينتهي المقطع بأبيات من مأثورات حكيمي اليمن الزراعيين " علي ولد زايد " و " الحميد بن منصور " بعد تغييرها بما يتناسب والموقف :

/ مغرد /
أينع الرأس
حان القطاف
النساء " يشريفن " مثل البنادق
/ مهجل /
الحكايات جفت
و" خاو " التي ولدتني
" خاو " التي وأدتني .. جفت
// يقول علي ولد زايد ..
لاتمطر السبع ..
لاتمطر التسع ..
كل الفصول سكاكين ..//
// قال الحميد //
// رأيت بلادي احتمت بالرمال
" تريد من الحي حامي " //

ولا يكتفي الشاعر في اغناء قصيدته المطولة بهذه المقتطفات المستعارة من عناصر التعبير الشعبي اذ يلجأ الى توظيف مقتطفات أخرى من بعض الكتابات المترجمة ويغنيها بالاشارات الى بعض الأسماء والكتابات الأدبية والشعرية أنه يرغب في أن يكون لعمله الفني هذا من الدراسة ماينهض به ويبتعد به عن أن يكون قصيدة غنائية طويلة تعبر عن أفكاره ومشاعره الخاصة ، لذلك نراه بعد المقتطفات السابقة مباشرة يطور الموقف باقتباس مقتطفات أخرى من الأساطير اليونانية القديمة ويتحول بهذه المقتطفات الى ادارة تعبير تلتحم في سياق المعنى العميق للسيرة :

(بنات زيوس لابس الدرع خاطبنه ،
خاطبن أيجيس بهذه الكلمات :
أيها الرعاة ساكنوا الحجارة
الآكام والصوف -
أنتم بطون شرهة
أما نحن فنعرف كيف نلبس الأكاذيب
كثيرة ،

ونعرف كيف نتغنى بالحقيقة عندما نريد) ..

" أغنية هيسوروس "

... ...

أين أنتم ياصانعي الغضب
وأنتم ياشعب أزمير لماذا تغمضون
أعينكم عن احتقار الجيران لكم
تنامون في بيوتكم آمنين والأرض
كلها حولكم تشتعل بنار الحقد
تحبون الجلوس الى المآدب
تملأ أفواهكم ابتسامات بلهاء
وقد جردتكم بطونكم من سلاح
الغضب ..

" كاللينوس "

ويتوقف الاقتباس بعد أن يكون قد أدى الوظيفة المطلوبة فنياً حين يكسر بنثرية حدة الغنائية والايقاع الرتيب وموضوعياً باشعال نار الغضب في الصدور بما توحي السطور به وبما تعبر عنه من سخرية عميقة ، وكيف يسكت الناس ووطنهم ضائع وأشلاء الدستور يلعب بها الأطفال كمن يلعبون برؤوس أبطال الدستور ، ان شعباً يحب الجلوس الى المآدب ، وتملأ أفواه أبنائه البسمات البلهاء يستحق أن يظل بعيداً عن العصر ، ويستحق أن يبقى تابعاً وخاضعاً للطغاة والظالمين :

طاردني في يريم زقاق
وشاهدت رأس أبي
كرة تتقاذفها صبية الحي

وذلك هو رأس "الدستور" رأس الحلم الذي طاف برؤوس الطلائع التي رفضت الجلوس الى المآدب ، ورفضت البسمات البلهاء وكان القبر مصيرها والبكاء الصامت رثاءها :

قلت للقرية الحجرية
شاهدنا القبر
اشهد ان القصيدة
جاهزة للبكاء

واشهد ان الطريق اليك
يمر من الجن .. حتى الجنون
تمهل .. تقول لي الكلمات
تمهل .. ولا تسفح الحزن
ان المدى قانع بالسكوت
المدى خائف كالبلاد التي في العيون.
العيون انطفت كل احلامها
الساهرة ..

.....

تمنيتني شجرا
حجرا
ارتدى صمته
وارى ما سيأتي
تمنيتني جبلا
من مياه
فاوغل حتى القرار
تمنيتك الآن
ترسم فازعة .. وسعيدا
سعيد "الذي قاوم الترك جدى"
تمنيك الآن ترسمنا
فوق حصن من الطلقات
زهوراً .. عيوناً من الضحك الآدمي
وجوها من القبلات
لتوغل في الشعر

نحن لانخوض في فنية هذه السيرة الذاتية ، ولا نقف بين حين وآخر لكي ننبه الى هذا المستوى من الحوار والتداخل ، حوار الشاعر مع الكلمات وتداخل البحور والخروج من البحور كما هو الحال في المقطعين النثريين السابقين المستعارين من الاساطير اليونانية القديمة ، ولا نريد ان يشغل القارىء نفسه بشيء سوى استيعاب

التسجيلة التاريخية واسترجاع الجوانب المأساوية في حياة طفل افقده الطغيان الجارف طعم الطمأنينة والامان ، تهرب منه وتهرب منه قريته :

تغادرني /خاو/
تهرب ليلاً الى الليل
"خاو" مشردة
في ثيابي
وساكنة في دمي
و "خاو" تعرت
و "خاو" تنام
مبعثرة في الدكاكين
"خاو" تبيح بكارتها
ثم تهوى على عنقي
بالمباخر
والحفلات[١٦].

ان "خاو" وهي قرية الشاعر قدتحولت هنا الى معادل موضوعي ليمن الاربيعينات، وصار لها من القابلية الرمزية ما صار للجدة "فازعة" التي اكتسبت بعدها الرمزي الواسع من خلال تجسيدها للثورة ولملامح الوطن " الام " ومن الناحية الموضوعية البحتة يبدو لنا ان الاعتناء بهذا النوع من الاشكال الشعرية كفيل بان يحفظ الذاكرة الوطنية حية ، وان يفتح مجالات جديدة للمراجعة التاريخية غير كتب التاريخ والمذكرات السياسية بكل ما فيها من جفاف التعبير وجمود الوقائع.

قال لي صديق بعد ان قرأ الجزء الأول من هذه القراءة في كتاب " فازعة":

ليتك اطلت الحديث عن تنوع الاجناس الادبية زمن القصيدة الغنائية والقصيدة الملحمية والدرامية فالمفهوم الشائع للقصيدة الغنائية انها تلك التي يشدو بها المطربون.

وفي أحسن الاحوال يصل المفهوم الشائع بها حتى عند كثير من الشعراء الى انها القصيدة ذات الايقاع في مقابل القصيدة النثرية او الخالية من موسيقى البحور.

واتذكر انني ألمحت في الجزء السابق من هذه القراءة الى ان الشعر العربي ابتدأ من جاهليته الاولى والى بداية العصر الحديث قدظل شعراً غنائياً تعبر القصيدة فيه عن افكار الشاعر الخاصة ، وتبقى القصيدة مهما طالت مجموعة من الابيات المتراكمة

ذات المعاني المختلفة والصور العديدة وقد تخرج بعض القصائد فيه الى دائرة الحكاية لكنها لا تنتمي الى دائرة الفن القصصي اوالملحمي حيث يسعى الشاعر الى الافادة من عناصر الفن الدرامي وفيها الحوار والصراع وتعدد الاصوات.

وحتى لا يفهم القارىء اننا نسيء الى القصيدة الغنائية وهي كل تراثنا الشعري تقريباً - لابد من الإشارة الى ان هذا النوع من القصيد الغنائي المعبر عن ذات قائله والذي يصل الى القلب قد خلق في الشعر مدرسة متميزة تميزاً فنياً واضحاً ، وهو في الشعر العربي قد وجد - عبر العصور الزاهية - هذا الكم من القصائد الغنائية المنظمة والمكثفة والمحركة للوجدان من خلال نظام بنائها القائم على التعبير الذاتي ايضاً - فانه من المفيد الاشارة هنا - الى ان الذاتية الخالصة في العمل الأدبي امر في غاية الصعوبة وبالمقابل فان الموضوعية الخاصة اجد منها صعوبة وذلك لان العمل الادبي الجيد - فضلا عن الفريد - يخضع لكثير من التوترات النفسية والتاريخية والاجتماعية.

لكن الآداب والشعر بخاصة بالرغم من هذا التداخل والتشابك ترفض في احيان كثيرة هذا التوفيق في مستويات التعبير وتضع القارىء - في نطاق من التعارض غير المطلق - امام اشكال تعبيرية يتميز بعضها بالذاتية والتعبير عن المشاركة الحميمة ويتميز بعضها الآخر بالموضوعية والابتعاد عن صوت الذات، وقد ظل الشعر العربي لاسباب مبدعة او منتجة ولم ينتقل الى المجال الدراسي او يحاول الدخول الى دائرة التركيب الملحمي الا مع المحصلات الجديدة للعصر الحديث فقد اختلفت ايقاعات التطور الحضاري وتشابكت فنون التعبير وتنكشف امامنا الان مناحي واشكال شعرية لا علاقة لها بأساليب البناء المألوفة في القصيدة الغنائية ومن هذه الاشكال غير المألوفة شكل السيرة الذاتية التي تجمع بين المقاطع الغنائية والمقاطع الدرامية وبين النثر والشعر والحكاية والاسطورة.

وقد يرى بعض الدراسين في هذه الاشكال ما يؤكد ضعف الوظيفة الشعرية من ناحية وضعف الشعر ذاته من ناحية اخرى ونحن لا نرى فيه الا وتدة جديدة للشعر افادت من محصلة لقاء الثقافات ومن خبرات الشاعر العربي المعاصر وتجاربه الابداعية التي لا تريد ولا تستطيع ان تقطع علاقاتها بالموروث الشعري ولا تريد او لا تستطيع ان تظل اسيرة قوالبه ومحاكاته. كما ان الشاعر العربي يرفض ان يظل شاعراً غنائياً : "فالشاعر الغنائي اساساً يبدو كما لو كان لا يعرف شيئاً عن هذا العالم. فهو بعيد نسبياً عنه احياناً يهزه هذا الجانب واحياناً اخرى يهزه شيء مختلف حتى ولو لم

يستطع ان يحيط بعلوم شتى مما يهزه كما لو كان بوسع أي عالم ان ينفتح له وهو لا يتساءل عن جموع الاشياء ولا عن علاقاتها الممكنة. اما الشاعر الملحمي فيمكن مقارنته بالملاح او بالمسافر او بتنقل مع بطله من مكان الى آخر كي يرى اناساً وأقطاراً غريبة يمضي في أرض الله حتى يعثر دائماً على الغرائب والطرائف ويخلف وراءه الاشياء القديمة المألوفة كانها مدائن تختفي من وراء الافق لكنه لما كان ينظر لجميع الاشياء من وجهة نظره هو فانه يجدها دائماً تنتمي لنفس الكون بغرائبه ومفاجآته ... وعلى العكس من ذلك فالشاعر الدراسي لا يعنيه ان يرى اشياء جديدة واهتمامه لا يقع على الاشياء في حدود ذاتها على ما رآه فيها فهو ياخذها كرموز وعلامات، كضمانات او توضيحات للمشكلة الماثلة امامه ... أي للمشروع المطروح له بالمفهوم الحرفي للكلمة التي تعني كل ما يشرع فيه استهدافاً لنتيجة محددة[١٧].

لقد اتسعت ثقافة الشاعر اذن واتسعت ابعاد احاطته لم يعد اسير الصحراء ولا حبيس المدينة ، ولم يعد مشدوداً الى علم واحد من علوم الحياة او الى فن واحد من فنونها اصبح يحيط بعلوم شتى وبفنون شتى واصبح العالم كتاباً مفتوحاً بين جفنيه ولكي يستوعب هذا العالم ويكون قادراً على التعبير عنه ينبغي ان يرتفع الى مستوى الابداع المعاصر باشكاله المختلفة وان يسعى الى امتلاك ادوات الرؤية الفنية المتطورة.. وفي هذا السياق برزت جملة اعمال ابداعية تعكس هذا التحول في انماط التعبير وكانت السيرة الذاتية الشعرية واحدة من اشكال الكتابة الجديدة يرى الشاعر فيها نفسه من خلال الآخرين ومن خلال علاقته الدينامية بالاشياء.

ارجو ان يكون ذلك الصديق قد رضي بعض الشيء عن هذا التمهيد النظري الذي يأتي في مقدمة القراءة الثانية لكتاب (فازعة) بناء على طلبه ، وفي محاولة للتعريف النظري بهذا اللون من العطاء الذي كان وما يزال بحاجة الى الفحص الاعمق من ذوي الخبرة الادبية.

وقد بينت في الجزء الأول من هذه القراءة في كتاب "فازعة " من أوائل المحاولات في كتابة السيرة الشعرية وانه يتناول سيرة الشاعر مختلطة بسيرة الاحداث التي واكبها على مدى السنوات التي شهدها النصف الثاني من هذا القرن ، ولم يكن الشاعر حاكياً أو مراقباً ولكنه كان طرفاً منفعلاً يرقب ويشارك في التغيير الجذري في حياة البلاد والناس ، ويرى – من خلال ذاته العامة والخاصة – كيف يواجه الشعب التحديات المختلفة ، تحديات العصر ، وتحديات المعوقات الهائلة لابقائه في دائرة

الظلام المنغلقة ، ولانه يكتب شعراً يسعى الى الايحاء بالاحداث لا الى وصفها او الاشارة الى تفاصيلها ، فقد جاءت الوقائع في بعض المواقف باهتة وشديدة الغموض، ومن الطبيعي ان يستقبل هذا العمل بالحيرة وربما بالاستنكار ، فهو لم يتعود في الشعر هذا التنقل من النثر الى الشعر ومن الشعر الى التاريخ ومن المباشرة الى الرمز ، كيف يستطيع - على سبيل المثال - ان يفهم هذا الخليط المتنافر من الشعر والرمز والحروف والعناوين والاسماء ، وما التصق بها من شعر شعبي :

فازعة :

اجلس الآن
حين داهم "جربتها" السيل
كانت هي السد
مدت تضاريسها
ثم سمّت باحزانها
جبلا ..
فنمي حصن كحلان
.....
نهراً جرى دم "م.ص"
طيناً فاورقت الارض
"عودة وضاح " "لينا"
و "حوة" ..... "عبدالودود".
.....
جدى سعيد
(هو مالي السد ذي يشرب
من الجانبين
يشرب خريفين ويشرب
صيف ذي الحلتين)
والمال ذي ما تشوفه من الجبا والله
انه !!! (١٨)

في الجزء الأول من هذا المقطع بداية شعرية استمر الشاعر في الاستسلام لتداعياتها الداخلية ولم يستسلم للتدعيات الخارجية وما حملته من اسماء وعناوين

قصائد ودواوين شعرية وابيات من الفلولكلور الزراعي ، اقول لو حدث ذلك لكنا قد ربحنا قصيدة غنائية رائعة ولكنا في نفس الوقت قد خسرنا هذا البناء الدرامي المتناثر الاجزاء المتفاوت المستويات ، الذي يحاول به صاحبه ان يجمع اطراف الحلم باطراف الواقع وان يلم اطراف المتناقضات ليخلف عالمه المثير للمنهجية الشعرية وللمنهجية النقدية ايضاً.

والحاقاً بالاطار النظري السابق حول مفهوم مصطلح القصيدة الغنائية يمكن رصد معيار آخر للتميز بين الغنائي والملحمي ، ذلك بالاستشراف والاستشكاف، بينما الملحمي يحفل اكثر بالماضي المستمر في الحاضر ربما لتأمين المستقبل من المخاطر التي تكمن في الماضي وتسبب تعويق استمرار الحياة ونمائها:

تذكرت فاطمة
ولدت بعد عام من الموت
عاشت ثلاثاً
وماتت ثلاثاً
.....
"١٩٥٧ // ماتت امي //
// وتزوج ابي //
نفاني ابي
فتعلمت مصر
تعلمت ناصر
والثورة العربية
"لكنني لم أعد"
قلت هذا .....
" فأفل "
فتشت في جسدي عن مكان
اقيم عليه بلادا " فافلت "
وجهت وجهي نحو الرفاق
فكانوا بلا وجه مثلي ..... (١٩)

في البداية يتذكر الشاعر شقيقته التي ماتت في سن الطفولة وهو لا يفتأ يتذكرها حتى كادت تتحول الى مدخل للحديث عن كل شيء يموت في البداية كما هو

الحال مع الثورة الدستورية التي ماتت في مهدها ، والحركة الانقلابية في ١٩٥٥ التي ماتت هي الاخرى في مهدها موت الطفولة يمكن ان يكون معادلاً فنياً لموت الاشياء الجميلة بعد عمر قصير ، والربط هنا في هذا المقطع بين موت الطفلة فاطمة ثم موت الام ومغادرة البلاد ، هذا الربط يعطي العمل جرعة كبيرة من الايقاع المكثف الحزين ويضع الشاعر على ابواب الانتماء انه انتماء مبكر للثورة العربية هذا الحلم العربي الذي يتجسد ثم يغيب ، وفكرة الانتماء السياسي تجعل الشاعر يواجه نفسه والآخرين ويسترجع بذكاء وبايجاز مكثف حكاية ابي الانبياء ابراهيم عليه السلام وكيف تدرج ايمانه من النجم الى القمر الى الشمس ثم الى الواحد الأحد ، ومشكلة الانتماء السياسي انه ليس فيه أي معنى من معاني التوحيد الا اذا اعتبرنا حب الوطن ضرباً من التوحيد :

فازعة :

اخرجت دهنة العمر
من وجهها
ثم قالت
لك الآن
هذا الفضاء
لك المستحيل
لك الآن مملكة الاكتشاف
المحرم
فادخل وضع فوق رأسك
تاجاً من الحلم
يتبعك الحرف
والخارجون على .....
(اقصد الخارجين على كل شيء عظيم) (٢٠)

هكذا عندما ينتمي انسان – أي انسان – الى وطنه ينسى كل شيء سوى هذا الوطن لا سيما حين يكون الوطن جريحاً ممزقاً ، ومتخلفاً وضائعاً بين الولاءات القبلية والخارجية ، وفي المقطع الاسبق وفي مقاطع اخرى من "فازعة" اشارات الى الانتماءات الضيقة ، انتماءات مرحلة المراهقة تلك التي تحاول ان تضع عقل الشاب الصغير في قوالب جامدة كهذه القوالب التي وضعها شعراء غير مبدعين للقصيدة

العربية لتكون وعاء ابدياً وثابتاً للابداع الشعري ، لقد ضاق بتلك الانتماءات قبل ان يضيق بالقوالب الشعرية.

١٩٦٧ وقبل الاحداث ....
كان وجهي صديقي
وكنت اكاشفه
بالخلايا وبالحزب
كنا رفاقاً
يجمعنا رحم الحلم
في جسد واحد
نتنفس بالوردة المستحيلة
قد نتصالح في الحزن
او نتصالح في الحزن
او نتخاصم .... لا فقر // (٢١)

ولا يستمر الامر على ماهو عليه ويتأكد من امكانية القيام باختيار معاكس يحرره من الوهم والثرثرة ، مسكين هذا العربي الذي يتوهم انه قادر على التفكير في تغيير مفردات الحياة من خلال لعبة الالوان ، هذه اللعبة الجميلة البارعة في بلاد الآخرين والتي تتحول في بلاد العرب الامجاد الى نموذج قذر يستفرغ اقبح ما في جوف الانسان القبلي الطائفي العنصري المريض من مخلفات واوهام :

// كان وجهي //
مكتفياً بتضاريسه الابدية
فاجأني زمني
فاجأتني ثياب مراهقتي
فلجأت الى ....
ذكرياتي التي لم تكن
وتفكرت بالملكوت الذي لم يكن
فاجأتني ملامح صوتي
مبعثرة نظراتي
فوق الزجاج
بثور من الشهوات تطالعني كل يوم

// اغير وجهي . اناسبه بالتوقع
والاحتمال //
بعد الميلاد ....وقبل الماء
// ثرثرة لا نهائية
تتقاذف
مملكة من هباء .....//
// لا لزوم لاعضائي الان ....//
١٩٧٤ عاطل عن العمل
١٩٧٦ غادرتني الامكنة
١٩٧٩ اكتشفت المرآة
وضيعت وجهي
١٩٨٤ ..... انا لست اعرفه
// معذرة كلما قلت
اسخف مما توقعت
لكنه رغبة البوح
بالنطفة الميتة .... // (٢٢)

هذه القراءة غير وافية لكتاب " فازعة " وهو الجزء الثاني في كتابين من الشعر حاولت ان اتبين فيهما ملامح الانعطافة البطيئة في القصيدة العربية الجديدة وربما تكون هذه القراءة غير المستوفاة قد اثبتت ان عملية الابداع ليست لها قواعد مقننة وصارمة لا يمكن الخروج عليها وليس لها ايضاً خطوات منظمة ومرتبة لا يمكن تجاوزها في سهولة ويسر احياناً وفي صعوبة وتعقيد احياناً اخرى.

والملاحظ ان حركة الابداع في الشعر ليست سوى جزء من جوهر الفعل اليومي للانسان الواعي والمدرك لدورات التطوير وقفزات التغيير ، اما ذلك الانسان الجامد المنغلق المحافظ على نوع من التوازن الهش بين نفسه والاشياء فانه يظل اسير اللغة السائدة والمفاهيم الشعرية والفنية السائدة.

الهوامش

١- مجلة الانسان والتطور العدد الثاني : ص١٥٩ ١٩٨٧.
٢- الديوان ص٥.
٣- الديوان ص٣٦.
٤- الديوان ص٥٢.
٥- ابن رشيق القيرواني : كتاب العمدة ص٥٣.
٦- نفسه ص٥٢.
٧- ديوان : الكفن ... الجسد ص ٣.
٨- نفس الديوان ص ٣٨.
٩- نفس الديوان ص ٥٨.
١٠- نفس الديوان ص ١١.
١١- نفس الديوان ص ١٥.
١٢- نفس الديوان ص ٩٢.
١٣-نفس الديوان ص ٩٤.
١٤- مجلة فصول : العدد الثاني المجلد الخامس ١٩٨٥.
١٥-نفس الديوان ص ١١٢.
١٦- مجلة الثقافة الاجنبية : العدد الرابع ١٩٨٤.
١٧- فازعة : ص٥.
١٨- نفسه ص٦.
١٩- نفسه ص٧.
٢٠- نفسه ص٨.
٢١- نفسه ص٩.
٢٢- نفسه ص٢٤.
٢٣- نفسه ص١٣.
٢٤- نفسه ص١٦.

حركة القوى العاملة اليمنية المهاجرة *
المشاكل ، المعوقات ، سبل معالجتها

بقلم الدكتور احمد محمد شجاع الدين
الاستاذ المشارك في قسم الجغرافية

لقد اصبحت ظاهرة الهجرة اليمنية للعمل خارج اليمن من الظواهر العامة وبالذات الى دول الخليج وبصفة خاصة الى المملكة العربية السعودية منذ بداية السبعينات وحتى منتصف الثمانينات حيث بدأت الهجرة اليمنية الى هذه الدول بالتناقص بسبب محدودية فرص العمل التي تتفق مع مهارات وخبرات اليمنيين في الدول المستقبلة وعودة بعض المغتربين بسبب عدم توفر فرص العمل . أما الهجرة الداخلية فقد اتسع نطاقها وبالذات منذ بداية الثمانينات وحتى اليوم الى المدن الرئيسية والثانوية وشكلت ولازالت الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والصحية التعليمية والخدمات . لقد أصبحت حركة القوى العاملة في حد ذاتها من الظواهر الاجتماعية الرئيسية وامتد تأثيرها الى الجوانب الاقتصادية والثقافية والسياسية . وأثارت ظاهرة الهجرة للقوى العاملة اليمنية سواء الداخلية أو الخارجية العديد من الآمال وأصبحت تمثل حلاً للعديد من المشاكل التي تواجههم من وقت الى آخر .

لقد اتسمت ظاهرة حركة القوى العاملة اليمنية سواء الداخلية أو الخارجية بخاصية وهي أن جزءاً من دخلهم كان يصرف من أجل اعالة أسرهم وتحسين مستوى المعيشة لأفراد أسرهم وهذه الخاصية كانت بمثابة النظام المستقر لهم ولأفراد أسرهم.

سنحاول من خلال البحث الاجابة عن الأسئلة التالية :-

- ما الأسباب التاريخية للهجرة الخارجية؟
- ما المناطق التي يهاجر إليها اليمانيون؟
- ماخصائص القوى المهاجرة؟
- ما الآثار السلبية والايجابية لظاهرة الهجرة الخارجية؟
- وما أثرها في البناء الاقتصادي والاجتماعي والسياسي؟

(*) قدم هذا البحث الى الندوة الوطنية حول سياسة الهجرة وحركة القوى العاملة التي انعقدت من ١٢-١٤ ديسمبر من عام ١٩٩٣م تحت رعاية وزارة التأمينات والشؤون الاجتماعية والعمل ومنظمة العمل الدولية بصنعاء.

- ما حجم الهجرة الداخلية و خصائصها ؟
- ما حجم العمالة الوافدة في اليمن وموقعها وخصائصها ؟
- ما القوانين التي تنظم العمالة الوافدة وسياسة تنظيمها وتشغيلها ؟
- ما الآثار المترتبة على عودة المهاجرين اليمنيين بعد أزمة الخليج ؟

الجذور التاريخية للهجرة الخارجية اليمنية :-

لاتهدف هذه الدراسة الى الذهاب بعيداً في عرض الجذور التاريخية للهجرة اليمنية الى مختلف دول العالم ولكنها ستكتفي بسرد هذا من باب اظهار أن مايجري اليوم من تنقل للأيدي العاملة اليمنية ليس وليد اليوم ولكن يعود هذا الى فترات تاريخية قديمة . بعض الباحثين يعيد ظاهرة الهجرة اليمنية الى صدر الاسلام والآخر يعود بها الى ما قبل الاسلام بفترات طويلة ، وأحسب أن الصواب عند معالجة الجذور التاريخية للهجرة اليمنية في موضوعنا هذا أن نعود بها الى العصر الحديث وذلك عندما انهزمت السفن الشراعية اليمانية والعمانية التي كانت تعتمد على الرياح بحركتها وكانت تجول البحر العربي والأحمر والمحيط الهندي أمام السفن التجارية الأوربية التي ارتبط وجودها ومنافستها للسفن بالانقلاب الصناعي في أوربا. وقد عملت حركة السفن التجارية الأوربية على تغيير طبيعة العلاقات التجارية واتجاهاتها ودفعت باليمنيين الى البحث عن أسلوب جديد من أجل الحصول على عمل فكانت الهجرة الى بلدان مختلفة وخاصة بلدان القرن الأفريقي لمواجهة الوضع الجديد .

بأمكاننا تقسيم الهجرة اليمنية في العصر الحديث الى ثلاث مراحل الأولى من ١٩١٩ م الى ١٩٤٨ م والمرحلة الثانية من ١٩٤٨ م الى ١٩٦٢ م والمرحلة الثالثة منذ ١٩٦٢ م وحتى اليوم . لقد ارتبطت كل مرحلة من المراحل السالفة الذكر بالأحداث السياسية وأثرها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والصحية والثقافية . وكانت هذه الأحداث من الأسباب الرئيسية لدفع القوى العاملة اليمنية للبحث عن فرص عمل وخاصة عند اشتداد الظلم الاجتماعي من الأنظمة السياسية المتعاقبة على اليمن . وقد ذكر محمد أنعم غالب أن طريقة فرض الضرائب الجائر من قبل الأنظمة التي تعاقبت على اليمن منذ عام ١٩١٩ م الى ١٩٦٢ م كانت من أهم الأسباب التي دفعت باليمنيين للهجرة خارج وطنهم أضف الى ذلك الجفاف وعزلة اليمن السياسية

خلال نفس الفترة حيث كان من العوامل التي عملت على طرق اليمنيين بـاب الهجـرة الخارجية .

أما منذ ١٩٦٢ م وحتى ١٩٧٠ م فقد بدأت ظاهرة الهجرة اليمنيـة تغير مسـارها فقد اتجهت الى دول الخليج ولكنها لم تكن بنفـس الحجـم خـلال الفـترة منـذ بدايـة السبعينات وحتى منتصـف الثمانينـات . لقـد كـانت معظـم دول الخليـج بحاجـة الـى القوى العاملة اليمنية بجانب العربية من أجل البناء التحتـي لهيـاكل التنميـة الاقتصاديـة والاجتماعية والتعليمية والصحية والتي لاتحتاج الى أيد عاملة مـاهرة . وعندمـا بـدأت هذه الدول تستكمل البناء التحتي للتنميـة وفقـاً لخططهـم التنمويـة بـدأت تبحـث عـن الأيدي العاملة الماهرة وهذا مما قلل فـرص العمـل أمـام الأيـدي العاملـة اليمنيـة ودفـع بعضهم للعودة وبالذات بعد منتصف الثمانينات .

ومـن الواضـح أن التحقيـب للهجـرة اليمنيـة والمذكـورة آنفـاً مرتبطـة بـالأحداث السياسية التأريخية التي مرت بها اليمن وتأثير هذه الأحداث على الأوضاع الاقتصاديـة والاجتماعية والسياسية والصحية والثقافية وأن اشتداد الظلم الاجتماعي السياسي خلال فترة التحقيب للهجرة اليمنية المتدفقة في العديد من الدول يجعلها أحدى فترات المـد في تأريخ الهجرة اليمنية الحديثة . ولقد لعب الركود الاقتصادي الذي ترتب عليه عدم قدرة الموارد على سد حاجـات النـاس الأساسية مـن العوامـل الرئيسـية لطـرق بـاب الهجرة في حقب تاريخية مختلفة من قبل المهاجرين اليمنيين.

المناطق التي يهاجر اليها اليمانيون :-

لقد كانت الهجرات اليمنية محدودة ولكن منذ بداية هذا القرن بـدأ سيل الهجـرة يتدفق من كثير من محافظات الجمهورية صوب مدينة عدن التـي كـانت تمثـل حلقـة الوصل بين اليمن والعالم الخارجي حيث كـانت معظـم الهجـرات اليمنيـة تتدفـق الـى المستعمرات الانجليزية وغيرها وكانت تسمى هذه الهجرات طويلة المدى .

وأظهرت الاحصائيات أن أثيوبيا كانت تمثل المركـز الأول لأسـتقبال المهـاجرين اليمنيين ويلي ذلك الولايات المتحدة الأمريكية . والجدول التالي يبين توجه الهجـرات اليمنية طويل المدى : -

جدول يبين تقديرات الهجرات اليمنية طويلة المدى، ١٩٧٥م

البلد	العدد
اثيوبيا	٥٠,٠٠٠
السودان	٣٠,٠٠٠
الولايات المتحدة الامريكية	٢٠,٠٠٠
مصر	١٥,٠٠٠
المملكة المتحدة البريطانية	١٢,٠٠٠
جيبوتي	١٠,٠٠٠
الصومال	١٠,٠٠٠
فرنسا	٨,٠٠٠
الاردن	٥,٠٠٠
بلدان أخرى	٥٠,٠٠٠
المجموع	٢١٠,٠٠٠

المصدر : البنك الدولي: تنمية القوى العاملة في الجمهورية اليمنية ، واشنطن د.ي.سي تم الاقتباس من كتاب حركة السكان للمؤلف ستبمغن ، سويسرا، ١٩٧٥م.

أما منذ بداية السبعينات وحتى اليوم فقد أصبحت الهجرة اليمنية عبارة عن هجرة قصيرة المدى واتجهت صوب بلدان الجزيرة والخليج وخاصةً نحو المملكة العربية السعودية وأصبح الجزء الأكبر من هذه العمالة غير ماهرة ومارس معظم المهاجرين اليمنيين أعمالاً لاتتطلب مهارات واعداداً وتأهيلاً . ومعظم المهاجرين اليمنيين عملوا في البناء وشق الطرقات والخدمات ، المطاعم ، الحياكة ، الباعة وخدم في المنازل.

منذ منتصف الثمانينات بدأ وبصورة ملحوظة جزء من الشباب المؤهل يتجه نحو دول الخليج بسبب عدم توفر فرص العمل في اليمن ورغبة الشباب من أجل تحسين الدخل وبناء حياته الخاصة والممثلة ببناء سكن وزواج وغيره وقد أوضحت الاحصائية الصادرة عن الجهاز المركزي للأحصاء أن مجموع المهاجرين بناء على التعداد العام للمساكن والسكان الذي تم عام ٨٦ ، ١٩٨٨ م وصل الى ١,٢٣٤,٠٠٠ مهاجر بنقص عما كان عليه في تعداد ٧٣ - ١٩٧٥ م بحدود ٦٦ ألف مهاجر .

لقد كانت اتجاهات الهجرة سواء القصيرة أو طويلة المدى عبارة عن مخرج من العوز والفقر للعمالة الزائدة وفي نفس الوقت غير المدربة وعدم توفر فرص العمل داخل الوطن . ومنذ منتصف السبعينات اجتذبت الهجرة قصيرة المدى الجزء الأكبر من قوة العمل ليس تحت وطأة الحاجة ، بل بدافع تلبية متطلبات الاستهلاك الكبير . وبذا قدمت اليمن جل قوة العمل بها لسوق العمل لبلدان النفط .

الآثار السلبية والايجابية للهجرة اليمنية على البنيان الاقتصادي والاجتماعي والسياسي:-

أي صراع اجتماعي واقتصادي وسياسي وثقافي تشهده اليمن من أجل البناء لا يمكن أن يكون محل تقدير واحترام طالما بقيت أعداد كبيرة من اليمنيين خارج وطنهم ويمارس عليهم أصناف الامتهان من قبل بعض الدول المستقبلة . وان تحويلات المهاجرين اليمنيين في مختلف الفترات وبالذات منذ بداية السبعينات وحتى اليوم لاتمثل الا عقاراً مسكن ومخدر لعدد كبير من أبناء البلد لايستهان به . وهذا مما يدفع الدولة للاعتماد على تحويلات المهاجرين في توفير العملة النقدية الأجنبية في بعض الفترات وهذا ما يجعلها بعض الوقت تحت رحمة الدولة المضيفة وتخسر جزءاً كبيراً من القوى البشرية المنتجة مما يحرم الدولة من امكانية قيام ازدهار قطاع منتج في الزراعة والصناعة في المدى المتطور . مما ترتب على ذلك ان الانتاج المحلي لايستطيع تلبية حاجات المستهلكين مما يؤدي الى المزيد من الاستيراد وهذا بدوره يعمل على انخفاض سعر العملة المحلية وبالتالي شح في التصدير ولا يمكن بأي حال من الأحوال تشجيع الهجرة كي تعالج ميزان المدفوعات بل ان ذلك يؤدي الى تدهور خطير في ميزان المدفوعات (السقاف ٥) .

ان من الآثار الاقتصادية والاجتماعية الضارة لظاهرة الهجرة تغلغل وانتشار عادات استهلاكية من المهجر " ان المواطنين يقتنون أدوات منزلية ترفيهية بأعداد هائلة : العطور ، وأدوات التجميل ، الزينة والحلي بأنواعها وتؤثر هذه الأساليب في الانفاق العام. أيضاً الادارات والوزارات وتكدس السيارات واستهلاك الأثاث بسرعة قياسية وزيادة الانفاق الحكومي الذي يعاني منه الاقتصاد الوطني يفسح مجالاً واسعاً لبدل السفر وغيره من البدلات ويرسخ هذا الانفاق في نفوس المواطنين احساساً قوياً بأن الجهد ليس شرطاً للحصول على المنفعة . ولقد غدت السلعة الصناعية الحديثة زينة ودليلاً على المركز الاجتماعي (السقاف) وهكذا فتحويلات المهاجرين تذهب الى

الدول الصناعية ويبرز تبادل غير متكافئ وخاصة اذا أدركنا أن المنتجات التي تبيعها البلدان الصناعية تباع عادة بسعر أعلى من قيمتها بكثير بحكم احتكارها للأسواق . والنتيجة الحتمية من وراء ذلك هو عدم وجود ادخار وطني وهذا يعتبر من أكبر العوائق أمام تحقيق تنمية اقتصادية حقيقية في البلد بسبب عدم وجود تراكم وهذا مما أضعف الاقتصاد الوطني بشكل مضطرد.

بجانب هذه السلبيات نجد ان تحويلات المغتربين بالرغم من أهميتها لكنها مصدر غير ثابت ومعرض للتقلب والتقلص معاً في الفترات المختلفة من توجه المهاجرين بأعداد كبيرة بحثاً عن عمل أفضل ورفع مستوى الحياة المعيشية خارج الوطن أو نقصاً وان تدفقها على بلد المهجر بحكم محدودية فرص العمل أو التشريعات التي تصدرها الدول المستقبلة التي تحد من استقبال المهاجرين. وهذا التقلب أو التقلص يؤثر بدرجة كبيرة على الأوضاع الاقتصادية وتؤدي الى كوارث اجتماعية لايمكن بأي حال من الأحوال الاستهانة بها . ولقد شهد التاريخ اليمني الحديث مأساتين من جراء الاعتماد على تحويلات المغتربين لقد حصل أثناء الحرب العالمية الثانية انقطاع التحويلات من قبل المهاجرين وكذلك عودة أكثر من ٧٣١٨٠٠ مغترب من دول الخليج والجزيرة أثناء أزمة الخليج ١٩٩٠م. هاتين المأساتين أدت الى احداث الكثير من المشاكل التي هزت البنيان الاقتصادي والاجتماعي حيث باع الأثرياء الحلي والأحجار الكريمة والأثاث والعربيات بحكم إنقطاع التحويلات في الحرب العالمية الثانية. ومنهم من عاش على الديون الجائرة والهبات الحكومية والمعونات الدولية والمحلية من الأثرياء والمنظمات الاجتماعية بسبب أزمة الخليج التي أثرت على مسار البنيان الاقتصادي والاجتماعي للبلد. " المخلافي ١ ، شجاع الدين وآخرون ٦ " أما المزارعون الملتصقون بالأرض فلم تصبهم هاتان المأساتان بأذى كبير حيث عاش المزارعون والصيادون وذوو الحرف الصغيرة وأرباب المواشي بعيدين عن التأثيرات الكبيرة للهجرة الخارجية وما جرته من متاعب على اليمن .

أما الجوانب الايجابية فقد ارتبط تيار الهجرة الكبيرة من اليمن بازدهار الحقبة النفطية ونمت تحويلات المغتربين في تلك الفترة بشكل ملحوظ حتى وصل الأمر في عقد السبعينات وبداية الثمانينات أن التحويلات كانت تمثل أهم قطاع اقتصادي والمصدر الرئيسي لتدفق العملات الأجنبية . ولقد سجل الميزان التجاري خلال تلك الفترة فائضاً متزايداً من النقد الأجنبي وما من شك من ان التحويلات النقدية الكبيرة

والمتزايدة خلال منتصف السبعينات وبداية الثمانينات قد أثرت ايجابياً على اقتصاد الجمهورية آنذاك ونتج عن ذلك الارتفاع الى حد ما الاستثمار الداخلي وتمكنت الدولة من تغطية العجز في الميزان التجاري . وبجانب هذا ساهمت الهجرة آنذاك من تخفيف عبء البطالة وساهم المهاجرون مساهمة متواضعة في المشاريع الخدمية وبالذات في المناطق الريفية .

الاطار المؤسسي للهجرة اليمنية

قبل الدخول في مناقشة السياسة العامة التي تتبعها حكومة الجمهورية اليمنية والخدمات التي تقدمها للمغتربين اليمنيين يجدر بنا أن نشير الى هدفين أساسين كما ذكرها بونيج لاي سياسة تنتهجها أي دولة أزاء اتجاهات العمالة الى مناطق مختلفة من هذا العالم هذان الهدفان هما أن تهدف سياسة الهجرة الى توثيق أواصر الأخوة والتعاون فيما بين مواطني الدولة العربية وذلك من خلال منح العمالة المهاجرة حق المعاملة المتساوية والعمل على تعويض الدول المصدرة للعمالة لما فقدته من مهارات. أما الهدف الثاني أن تهدف سياسات الهجرة الى انشاء سوق موحدة للعمالة العربية وذلك من خلال التطور التشريعي من مرحلة الاتفاقات الثنائية الى مرحلة الاتفاق الجماعي . (علي عبدالقادر) .

وقد أصبح لزاماً كل من سياق العمل الاقتصادي القومي واستراتيجية العمل العربي المشترك أن تعمل أيضاً بهذه المبادئ فيما يخص سياسة انتقال العمالة العربية . ولكن هناك بون شائع بين التوجه السياسي وما يمارس على أرض الواقع سواء أكانت الدول المرسلة أو المستقبلة .

ومما سبق نجد أنه من الضروري تناول التوجهات العامة لسياسة الهجرة التي كانت تتبع في اليمن قبل قيام الوحدة اليمنية . اختلفت السياسة المتبعة أزاء الهجرة اليمنية فقد كان فيما يسمى اليمن الشمالي لايفرض أي ، قيود على هجرة القوى العاملة اليمنية الى مختلف دول العالم التي تتوفر فيها فرص عمل بما يتفق مع المهارات التي يحملها المهاجرون اليمنيون في حين نجد أن مايسمى باليمن الجنوبي كان يفرض بعض القيود على حركة القوى العاملة الى خارج الوطن بالذات منذ ١٩٧٣ م ولكن النظام أعاد النظر في تلك القيود عام ١٩٨٠ م وهذا ما شجع هجرة أكثر من ثلث القوى العاملة النشطة من المحافظات الجنوبية الذين تتراوح أعمارهم مبين ١٥ - ٣٤ عاماً ومعظم هذه الهجرات اتجهت صوب المملكة العربية السعودية .

لقد عنيت العديد من الأطر والمؤسسات بظاهرة حركة القوى العاملة واتجاهها نحو الهجرة الى خارج البلدان والدور الذي قامت به هذه الأطر المؤسسية التشجيع والدعم الذي حصلت عليه من الدولة سواء قبل الوحدة أو بعدها يعد بمثابة سياسة الدولة نحو الهجرة واتجاهاتها ولكنها ليست معلنة ولا واضحة بتعاملها مع الدولة التي تستقبل الهجرة اليمنية ومن هذه الأطر المؤسسية التي اهتمت بظاهرة حركة القوى العاملة اليمنية :-

الاتحاد العام للمغتربين اليمنيين " اليمن الشمالية " فقد صدر قرار جمهوري رقم (٣) لسنة ١٩٨٤م بشأن تنظيم الأمانة العامة لاتحاد المغتربين اليمنيين وتبع ذلك اصدار اللائحة الداخلية والتنفيذية للاتحاد . وقد حددت نشأة الاتحاد على ضرورة تنشيط دوّر المغتربين في التنمية الوطنية وحل المشاكل التي يواجهها العمال اليمنيون في المهجر . وبناء على ذلك قام الاتحاد بانشاء شبكة ممتدة من الفروع والهيئات والمندوبين من أجل تقديم المساعدات للعمال اليمنيين المهاجرين عدا المملكة العربية السعودية حيث لاتسمح أنظمتها بانشاء فروع للاتحاد ذات الصبغة القانونية بالقيام بأي نشاط تحت هذه المسميات وتم أيضاً تأسيس الادارة العامة لشئون المغتربين بالمحافظات الجنوبية بموجب قرار رقم (٤) لسنة ١٩٨٦م صادر عن رئيس مجلس الوزراء في عدن وقد اهتمت هذه الادارة بجمع المعلومات واعداد الاحصاءات وتقديم الدراسات والتقارير حول الأوضاع الاقتصادية والصحية والثقافية والسياسية للعمال المهاجرين خارج الوطن .أما بعد قيام الوحدة في ٢٢مايو ١٩٩٠م فقد تقرر انشاء وزارة سميت بوزارة شئون المغتربين وحددت مهامها بمساعدة المهاجرين العائدين من المهجر ويتمثل ذلك في الحصول على العمل المناسب والحاق البعض منهم بالمدارس والمعاهد المتخصصة والجامعات والعمل على تأهيل العمال المهاجرين سواء كانوا داخل الوطن أو خارجه وحدد للوزارة مهمة تقديم مساعدات مالية وعينية للمهاجرين الذين يواجهون مشاكل سواء الذين عادوا الى الوطن أو الذين لازالوا خارج الوطن والعمل على اجراء التسهيلات للمهاجرين والمتمثلة بالجوانب الاقتصادية والسكانية والاستثمارية وحدد للوزارة مهمة بحث أوضاع اليمنيين في المهجر وذلك من خلال تشجيعهم على استثمار أموالهم في الوطن والمطالبة بحقوقهم التي فقدوها لدى بعض المؤسسات والشركات التي يعملون لديها وهم خارج الوطن .

أما الهجرة الداخلية وحركة القوى العاملة داخل اليمن فنجد ان انفتاح اليمن على العالم الخارجي قد أدى جملة من النتائج الاقتصادية والثقافية والصحية والسياسية

والاجتماعية وهذه النتائج كان لها التأثير المباشر على الهجرة الداخلية الى المدن الرئيسية والثانوية في اليمن . ومن هذه النتائج :- تراجع الانتاج الزراعي وخاصة انتاج الحبوب لصالح زراعة المحاصيل النقدية الأمر الذي ترتب عليه اعتماد على استيراد الموارد الغذائية الأساسية من الخارج من أجل تغطية استهلاك المواطنين، دخول التكنولوجيا الصناعية والخدمية وخاصة الى المدن الرئيسية وهذه بدورها أوجدت فرص عمل محدودة في هذه المدن ولكنها شجعت حركة القوى العاملة على الهجرة من الأرياف والمدن الرئيسية ، بروز ظاهرة التحظر السريع بالاقتصاد التجاري والحرفي والذي أدى بدوره الى إتساع حجم المدن بشكل سريع وهذا الاقتصاد ليس انتاجياً الأمر الذي صبغ الهجرة الداخلية بهيمنة الكم وليس الكيف ، وجود حالة من الاستقطاب الجديدة بين مجموعة من الأغنياء الذين امتصوا فائض القيمة والمساعدات والعمولات وآلاف الفقراء الذين يعيشون في المدن وأصبحوا يتركزون في أحياء معينة في المدن الرئيسية ، تدمير الصناعات الحرفية المنزلية المحلية وكذلك قوة العمل المرتبطة والحيلولة دون تحويلها تحولاً طبيعياً الى صناعات كبيرة وآلية في نفس الوقت .

مما ذكر آنفاً حول النتائج السلبية التي ترتبت على ظاهرة الهجرة الداخلية لابد من النظر لموقف الدولة والجهات المسئولة عن ظاهرة الهجرة الداخلية وما الدراسات التي تمت بهذا الصدد . لقد قام الجهاز المركزي للاحصاء بوزارة التنمية مابين عامي ١٩٨٢/٨١م بمسح ديموغرافي على أساس العينة وكانت العينة ٢٠،٠٠٠ ألف أسرة، مسح الخصوبة الذي نفذ ١٩٧٩م ، المسح الديموغرافي لمدينة صنعاء ونفذته اللجنة الاقتصادية لغرب آسيا بالتعاون مع الجهاز المركزي للاحصاء عام ١٩٧٢م بالاضافة الى التعدادات العامة للمساكن والسكان التي تمت عام ٧٥ ، ١٩٨٦، ٧٣-١٩٨٨م . ان مايمكن قوله حول هذه المسوحات والتعدادات التي تمت من قبل الجهات الرسمية في الدولة ومشاركة بعض المنظمات الدولية والتي أعطتنا فكرة عن الحركة الداخلية للقوى العاملة اليمنية هو ضعف الوعي لدى المواطنين بأهمية الاحصاء بمن فيهم المنفذ وكذلك ظاهرة عدم الثقة بين الناس والسلطة الحاكمة مما جعل هذه المسوحات والاحصاءات تفتقر الى الدقة الكبيرة . ولابد أن ندرك أن المسوحات والتعدادات التي تمت لم تضع بحسابها مسألة الهجرة الداخلية بوصفها أشكالية اجتماعية وينبغي على هذه الدراسات فهم تحديد الأبعاد المكانية والزمانية والبشرية والآثار المختلفة على كل من الريف والحضر لظاهرة حركة القوى العاملة داخل اليمن

عدا الدراسة التي قام بها الاستاذ الدكتور محمد أحمد الزعبي لظاهرة الهجرة الداخلية في ديسمبر ١٩٨٨م وركزت على مدينة صنعاء ونشر ملخص للدراسة في مجلة مركز الدراسات . ولقد كانت نسبة الزيادة السكانية في عواصم المحافظات ومراكز بعض القضوات والمديريات أكثر بكثير من معدل الزيادة السكانية الطبيعية للجمهورية اليمنية والتي بلغت ٣,١٥٪ وحيث بلغ المعدل الوسطي للزيادة السنوية لمعظم عواصم المحافظات ومراكز الأقضية والمديريات حوالي ٨,٥٪ وهذا ما يؤكد زيادة حجم الهجرة الداخلية من سنة الى أخرى الى المدن الرئيسية والثانوية.

هذا يعني أن معدل الزيادة الصافية لهذه المركز الحضرية ٥,٤٠٪ وهو يجعلنا نعتقد أن للهجرة الداخلية دوراً كبيراً في هذا الرقم . وقد دلت الاحصائيات أن أمانة العاصمة حققت زيادة قدرها ١٠,٩٩٪ أي بفارق ٧,٧٪ عن الزيادة الطبيعية وهذا يعطينا ان العاصمة أصبحت مركز جذب كبير لحركة الهجرة الداخلية من جميع محافظات الجمهورية . أما اذا عدنا الى الفترة مابين تعداد ١٩٧٥م ، ١٩٨٦م لنقف على حجم التغييرالسكاني فسنجد أنه قد وصل الى ١٤٢٪ في حين أن هذا التغيير قد وصل في المحافظات الى ٢٦٣٪ .

لقد أوضحت الدراسة التي قام بها الأستاذ الدكتور محمد الزعبي على أمانة العاصمة لمعرفة حجم وخصائص واتجاهات الهجرة الداخلية لمدينة صنعاء أن أكثر من نصف المهاجرين تقع أعمارهم بين ١٥-٣٤ سنة وأن أكثر من ٣/٢ من المهاجرين الى مدينة صنعاء تقع أعمارهم بين ١٥-٤٥ سنة . وقد كان عامل مصاحبة الأسرة وراء هجرة ٧٠,٢٪ من الاناث مقابل ٣٥,١٪ من الذكور . ويقابل ذلك أن ٤٦,٣٪ من الذكور ، مقابل ١,٤٪ من الاناث ويقابل هذا الارتفاع بنسبة الذكور من أجل البحث عن عمل أو الانتقال الى عمل جديد وهذا يعني أن العامل الاقتصادي لعب الدور الرئيسي بحركة القوى العاملة من الريف الى العاصمة صنعاء بحثاً عن العمل (الزعبي) .

أما خصائص الهجرة اليمنية فهي عديدة :- ان الطابع العام للهجرة الداخلية ريفياً وحدوثها من مدينة الى أخرى محدود ، المهاجر الذي ينتقل من الريف للعيش في الحضر يعيش فترة طويلة وهي عبارة عن مرحلة انتقالية وهو الصراع بين القديم والحديث ، تأصيل العادات القبلية الريفية لم تسمح بحلول القيم الحضرية محل نظام القيم الريفية. لقد لعب الجانب الاقتصادي دوراً مهماً في عملية الجذب والطرد من محافظة الى أخرى ، تغلغل رأس المال الخدمي وليس الانتاجي هو وراء خلق فرص

عمل في المدن الرئيسية والثانوية وهو الذي حفز الكثير من الفلاحين على التحرك من قراهم والتوجه نحو المدن للبحث عن فرص عمل . وهذا مما يؤكد أن التوجه التنموي عبارة عن توجه تبعي للدول الرأسمالية والمؤسسات الدولية وهذا التطور لايستند الى القوى المنتجة المحلية سواء كانت مادية أو بشرية ولهذا نرى بعد استعراض خصائص الهجرة الداخلية في اليمن بصفة عامة وما كان لها من دور أساسي في حركة القوى العاملة من محافظة الى آخر ومن المدن الرئيسية الى الثانوية نرى ان أية هزة اقتصادية مهما كانت بسيطة فانها تهبط بتوفر فرص العمل في المدن حينئذ يجد المهاجرون أنفسهم في فك البطالة السافرة وتبدأ الهجرة الداخلية في مختلف مرافق الحياة وهذه هي المخاطر الحقيقية وراء ظاهرة الهجرة الداخلية وستؤدي الى التفكك الاجتماعي وتخلق هذ الظاهرة الكثير من المصاعب أمام الدولة للقيام بواجبها على مستوى الريف والحضر.

العمالة الأجنبية في اليمن :-

قبل البدء في مناقشة العمالة الوافدة الى اليمن لابد من التأكيد على أن هذه العمالة لم تكن تشكل خطورة تذكر على المدى القريب ولكن في ظل العشوائية وغياب التخطيط من أجل تنمية الموارد البشرية في البلد فمن المؤكد أن تصبح العمالة الوافدة مشكلة في المستقبل وتواجدها في اليمن سيكون له تأثير سلبي على مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وغير ذلك من المجالات الحيوية وخاصة اذا أدركنا أن العمالة الوطنية تفتقر الى المهارات التي تعمل على تلبية السوق وخاصة في القطاع الخاص . ان قياس تأثير العمالة الوافدة ليس بأعدادها ولكن بما تشغله فرص العمل المحدودة وتأثيرها على تنمية الموارد البشرية المحلية وباستنزاف العملات الصعبة وخاصة أنها محدودة . اذاً لماذا الانتظار حتى تستفحل مشكلة العمالة الأجنبية في اليمن ويستعصي حلها ؟ لماذا أيضاً لم نبدأ في تشخيص هذه المشكلة مبكراً والعمل بكل الطرق دون الحيلولة لحدوث هذه المشكلة ؟ وهناك العديد من الأسئلة ولكن من المسلم به أن مسألة استقدام العمالة الأجنبية الى اليمن وتشغيلها في مختلف مرافق الحياة في البلد والقوى العاملة المحلية عموماً لا تلعب دوراً أساسي وفاعل بدرجة كبيرة على تنمية الاقتصاد السائد وعلى طبيعة الأنشطة الاقتصادية في مختلف الفروع والقطاعات الحكومية والخاصة المختلفة وعلى ظرف وحوافز العمل وعلى نوع التكنولوجيا المستخدمة في فروع الاقتصاد وسيؤثر هذا على مسار التنمية في

اليمن. ولابد من التنويه بأن الاحصائية المتعلقة بالعمالة الأجنبية التي حصلنا عليها من الجهات الرسمية تفتقر الى الدقة والتصنيف الاحصائي التفصيلي .

وهنا يجدر بنا أن نقف على نقطة هامة فيما يخص استقدام العمالة الوافدة وتشغيلها في مختلف القطاعات الاقتصادية في البلد وزيادة حجمها من سنة الى أخرى. ان قلة المعاهد الفنية المتخصصة سواء المتوسطة أو العليا التي تعمل على تدريب الأيدي العاملة المحلية في مختلف مجالات الأنشطة هو السبب في دفع القطاع الخاص في البحث عن عمالة تحمل مهارة معينة ولايجدها الا في الأيدي العاملة الوافدة . ولاننسى أن العمالة الوافدة يتوفر فيها عدة خصائص لاتتوفر في الأيدي العاملة المحلية وهذا ما يبحث عنها رأس المال الخاص ومنها :- عنصر الطاعة، تحملها ظروف العمل القاسية، سيادة بعض المفاهيم لدى العمالة المحلية عن ممارسة بعض المهن الخدمية في حين لا يتردد العامل الوافد في أدائها ، عدم مطالبتها بعض الأحيان لحقوقها من أصحاب العمل عندما تحصل على مضايقات وتترك العمل بحكم غياب عدم التطبيق للقوانين والتشريعات الخاصة باستقدام العمالة الأجنبية وكيفية معاملتها أثناء وبعد ترك العمل.

اذاً ماهي السياسة التي تتبعها الجمهورية اليمنية ازاء العمالة الوافدة وكيفية استقدامها ؟

في سبيل الوقوف على القوانين والقرارات الصادرة من قبل الدولة ازاء العمالة الوافدة حتى نتبين هل لدى الدولة سياسة واضحة ولكنها لم تطبق من قبل الجهات المسئولة في الواقع . لقد صدر قانون رقم ٢١ لسنة ١٩٨١م للجمهورية العربية اليمنية سابقاً وحدد في هذا القانون نظام التعاقد مع الخبراء والموظفين غير المدنيين بمادة رقم ٥١ مايلي :- ان كل أجنبي يرغب في مزاولة أي عمل في ج.ع.ي عليه أن يحصل على ترخيص بالعمل يخوله هذا الحق . ويقصد بكلمة العمل هنا كل عمل صناعي أو تجاري أو مالي أو غيره وكذلك أية مهنة بما في ذلك الخدمة المنزلية " يحي صالح محسن " أما القرارات فقد سعت حكومة الجمهورية اليمنية الى تقليص مسألة استخدام العمالة الوافدة وأكدت ضرورة احلال العمالة المحلية محلها .

لقد صدر قرار مجلس الوزراء " ماقبل الوحدة " الذي يعتبر المتعاقدين من الخبراء أو العاملين غير اليمنيين هو الحد الأقصى لاستخدام العمالة الأجنبية . وحدد القرار أن أي تعاقد هو التجديد أو الاحلال فقط . وأي زيادة في القوى العاملة الوافدة لابد أن تكون بموافقة مجلس الوزراء . أما بعد قيام الوحدة فقد صدر قرار رقم ٢٧٣ لسنة

١٩٩١م يقضي منع الوزارات ومؤسسات القطاع العام والمختلط والخاص والتعاوني والجمعيات من تجديد عقود العمل لأي شخص غير يمني قد قضى خمس سنوات وما فوق بعد انتهاء مدة العقد كما يمنع التعاقد مع أي شخص تم الاستغناء عنه من قبل المرافق الحكومية . (يحي مصلح محسن).

من خلال ماسبق يلاحظ أن الدولة أصدرت العديد من القرارات سواء قبل الوحدة أو بعدها لتنظيم استخدام العمالة الوافدة وذلك في برنامج الاصلاح السياسي والاقتصادي والمالي الذي لم ير النور بعد حيث أشار الى ضرورة تقليص الانفاق على العمالة غير اليمنية كاجراء من أجل تخفيض الانفاق في ميزانية الدولة لعام ١٩٩١م . أما تحويلات العمالة الوافدة من العملات الصعبة الى الخارج فقد تناقضت الاجراءات التي اتخذتها الدولة ازاء ذلك. حيث نجد أن مجلس الوزراء قرر أن تصرف ٥٠٪ على الأقل من راتب الخبراء والعمالة غير اليمنية بالريال اليمني في حين يحدد برنامج الاصلاح المالي والسياسي والاقتصادي النسبة من ٣٠٪ الى ٥٠٪ من اجمالي المستحقات . أما قانون الاستثمار الذي صدر عام ١٩٩١م فقد سمح بتحويل ٦٠٪ للعمالة غير اليمنية ويبقى ٤٠٪ من دخلهم يجب صرفها بالريال اليمني .

ويلاحظ أن هناك تناقضاً في مسألة النسبة التي يجب أن يحولها العامل الوافد من دخله بالعملة الصعبة الى خارج الوطن . ولم ينحصر هذا التناقض في مسألة التحويلات بل أيضاً في الاختصاصات . لقد أشار قرار مجلس الوزراء رقم ٢٧١ لعام ١٩٩١م بأنه لايجوز لغير وزارة العمل والتدريب المهني منح ترخيص عمل للقوى العاملة غير اليمنية . في حين نجد أن المادة ٢٢ من قانون الاستثمار ينص على أن اللائحة التنفيذية للقانون ستبين كل ما يتعلق بالاعلان عن الوظائف واصدار تصاريح العمل والاقامة وتجديدها بالنسبة للأجانب . من هنا يتضح أن حكومة الجمهورية اليمنية ليس لديها سياسة واضحة ومحددة فيما يخص اصدار الاقامة ورخص العمل واستقدام العمالة الوافدة ونسبة ماتقوم بتحويله من دخلها من العملة الصعبة الى خارج الوطن .

من خلال استعراض السياسات التي تتبعها حكومة الجمهورية اليمنية ازاء العمالة الوافدة وعدم وجود رؤية واضحة لدى الدولة في كيفية التعامل مع هذه العمالة نرى أنه من الضروري الوقوف على الواقع الحالي لوضع العمالة الوافدة في اليمن.

حجم وخصائص القوى العاملة الوافدة :-

سوف نتطرق الى حجم القوى العاملة الوافدة منذ عام ١٩٨٨م الى عام ١٩٩١م من أجل الوقوف على واقعها من حيث الحجم وهل فعلاً أثرت الظروف الاقتصادية الصعبة التي تمر بها البلد على حجم استقدام العمالة الوافدة ؟ وهل بدأت بالفعل العمالة اليمنية تحل محل الوافدة وبالذات بعد حرب الخليج وعودة مليون مهاجر من دول الخليج والعديد منهم يحملون مؤهلات فنية جيدة ؟ لقد أظهرت الاحصائيات أن هناك زيادة مستمرة في عدد العمال الوافدين حيث كان عددهم في عام ١٩٨٩م ٢٦,٠٠٠ ألف ولكن العدد زاد في عام ١٩٩٠م حيث أصبح ٢٨,٠٠٠ ألف . أما بعد أزمة الخليج وعودة نسبة كبيرة من المهاجرين اليمنيين الذين كانوا يعملون في مختلف القطاعات بدول الخليج وارتفاع نسبة البطالة في اليمن ومرورها بظروف اقتصادية صعبة فان العمالة الوافدة واستخدامها في العديد من مرافق الدولة خاصة في القطاع . خاص استمر الحال على ماهو عليه ، حيث وصل عدد العمال الوافدين الى ٠٠٠, عامل في عام ١٩٩١م (وزارة العمل والتدريب المهني) .

هذه أرقام كما تشير وثائق الدولة الرسمية ولكننا نعتقد أن النسبة أكبر من ذلك بحكم عدم التنسيق بين الأجهزة الرسمية عند منح تراخيص العمل أو الأقامة وبالذات بين مصلحة الهجرة والجوازات ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل.

أما نسبة القوى العاملة الوافدة التي تعمل في مختلف المؤسسات سواء كان ذلك في قطاع خاص أو في بعض أجهزة الدولة فقد بلغت نسبة المدرسين ٦٦,٤٪ الذين يعلمون في مراحل التعليم الأساسية والتعليم الخاص والسبب يعود الى أن العديد من كليات التربية غير قادرة على توفير الاحتياجات للتخصصات العلمية وبالذات في الفيزياء والكيمياء والرياضيات والأحياء والموسيقى والتربية الرياضية . مما دفع وزارة التربية والتعليم الى البحث باستمرار عن مدرسين من أجل تغطية ما تحتاج اليه المدارس من هذه التخصصات النادرة . أما النسبة التي تلي المدرسين فهي كما تسمى من قبل وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري عمال الانتاج والمهن الاجتماعية والمقصود بذلك العاملات في المنازل ومعظمهم من الهند والصومال وأثيوبيا وصلت النسبة الى ١١,٥٪ وهذه الفئة من العاملات يعملن في المنازل لدى أصحاب الدخل المتوسط أو العالي حيث وصل عددهن لدى بعض المنازل من ٢-٣ عاملات وبجانب ذلك عمال النظافة الذين يعملون في وزارة البلدية والتخطيط الحضري .أما بالنسبة للعمالة الوافدة ويعتبرون كفنيين فقد بلغت نسبتهم ٨,٣٪ من اجمالي القوى العاملة

الوافدة . ومعظم هذه العمالة تعمل في ورش السمكرة ونسبة كبيرة منهم من أبناء سوريا والعمال الذين يعملون في القطاع الخاص وخاصة في المصانع الصغيرة وغير ذلك من الأعمال التي تحتاج الى عمالة فنية ونسبة كبيرة من هذه العمالة الوافدة الفنية تعمل لدى القطاع الخاص . (وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري).

أما مناطق العمل التي تعمل فيها القوى العاملة الوافدة فقد أظهرت الاحصائيات الرسمية أن أمانة العاصمة تعتبر أول مناطق الجمهورية حيث بلغت النسبة ٤٥,٨٪ وهذا بسبب تركز الكثير من الأعمال فيها وخاصة في مجال النظافة وفي المنازل ، والمدرسين وبعض مؤسسات الدولة التي تستقدم العمالة الوافدة كخبراء . وأيضاً تركز الكثير من الخدمات والاعمال التجارية في العاصمة وإنفاق الدولة جزء كبير من دخلها في العاصمة. مما جعل نسبة كبيرة من العمالة الوافدة يتم استقدامها للعمل في صنعاء.

ويلي الأمانة تعز حيث وصلت النسبة الى ١٠,١٪ من اجمالي القوى العاملة الوافدة ، وهذه القوى تعمل بدرجة أساسية في مصانع التعبئة لكثير من المواد الغذائية وغير ذلك من الأعمال التابعة للقطاع الخاص . أما المحافظة الثالثة فهي عدن حيث وصلت النسبة الى ٩,٦٪ وهي تقارب النسبة في محافظة تعز . لكن معظم العمالة الوافدة التي اتجهت الى عدن وتعمل في القطاع الخاص وبعض مشاريع الدولة من بعد قيام الوحدة اما قبل تحقيقها فكانت الحكومة لا تشجع استقدام العمالة الوافدة وتشغيلها في مختلف القطاعات وبالذات القطاع الخاص. أما أقل المحافظات في تشغيل العملة الوافدة فهي محافظة البيضاء حيث وصلت النسبة الى ٠,٥٪ وهذا بالطبع يعود بدرجة اساسية الى عدم وجود مشاريع تنموية كبيرة يتم تنفيذها في هذه المحافظة وتحتاج بالتالي الى ايدي عاملة ماهرة من العمالة الوافدة. (وزارة العمل والتدريب المهني).

الآثار السلبية للعمالة الوافدة :-

ان من السلبيات الكبيرة للعمالة الوافدة تزايد طلبات القطاع الخاص وبعض الدوائر الحكومية لاستقدام العمالة الوافدة من مختلف البلدان العربية والاجنبية هي تقليص فرص العمل امام ابناء البلد وخاصة القطاع الخاص وهذا الوضع سيكون له نتائج سلبية على مسألة نمو المهارات لدى القوى العاملة المحلية وخاصة القوى العاملة التي اصبحت لديها مهارات كسبتها من المهجر وعادت للعمل في البلد فستعود تطرق

باب الهجرة من جديد اذا توفرت لها فرصة للهجرة من جديد لعدم تمكنها من الحصول على عمل في بلدها بسبب احلال العمالة الوافدة محلها في مختلف قطاعات الانتاج الاقتصادي. اما السلبية الاخرى التي حلت بسبب استقدام العمالة الوافدة لم تكن هناك الجدية لدى الجهات المسؤولة من اجل العمل على تحسين وتدريب وتأهيل ورفع الكفاءات والمهارات الفنية للقوى العاملة المحلية اللازمة لعملية التنمية الاقتصادية والاجتماعية في مختلف مرافق الدولة سواء في القطاع الخاص او العام. على اعتبار أن العمالة الوافدة طيعة وتأتي وهي مدربة وجاهزة للعمل في نفس الوقت تتقاضى اجوراً أرخص مما سيدفع لابن البلد وهو يحمل نفس المؤهل من التدريب والكفاءة والخبرة وهذه المميزات في العمالة الوافدة يستفيد منها القطاع الخاص بصفةٍ أساسية. وهذا هو ما وصل إليه الحال في مسألة تدريب وتأهيل الكادر المحلي في الوقت الحاضر. حيث لاتجد عناية او اهتمام بفتح المزيد من المعاهد المتوسطة من قبل الجهات المعنية بالدولة من اجل تأهيل وتدريب الايدي العاملة لمواجهة طلبات القطاع الخاص وبعض مؤسسات الدولة وتتمكن الدولة كذلك من امتصاص البطالة سواء كانت سافرة او مقنعة من العمالة اليمنية وكذلك الحد من التدفق للطلاب الحاصلين على المؤهلات الثانوية ونسبتهم متدنية على الجامعات اليمنية التي تخرج بدورها قوى عاطلة الى المجتمع حيث لا تسهم في رفع وتيرة الانتاج ولكنها تبحث عن أعمال إدارية في مختلف مرافق الدولة وهذا مما يقلل من فرص العمل المتاحة أمام هذه المخرجات للجامعات اليمنية.

اضف الى كل ما سبق من السلبيات التي ترافق استقدام العمالة الوافدة استنزاف للعملة الصعبة والتي هي بالأساس شحيحة بسبب ضعف التصدير وقلة موارد الدولة من العملات الاجنبية. وسواء قامت هذه العمالة الوافدة بتهريب العملة الصعبة عن طريق شرائها من السوق السوداء أو بتحويلها رسمياً. هذا الى سلبيات كبيرة ستواجهها الدولة من مسألة استقدام العمالة الوافدة هي تعميق حالة التبعية الاقتصادية للبلد بشكل كبير وتزداد حدتها على المدى البعيد يوماً بعد يوم. حيث تنتشر وتعمق مفاهيم وقيم اجتماعية نعتقد انها خاطئة وتتمثل في الاتكالية : الاعتماد على الغير وزيادة حدة نمط الاستهلاك الترفي من سنة الى اخرى من قل فئة معينة في البلد وهذا مما يعمق الفوارق الاجتماعية بين أبناء البلد الواحد.

الهجرة اليمنية العائدة بعد أزمة الخليج

اظهرت نتائج تعداد ١٩٨٦م الذي تم اجراءه في المحافظات الشمالية أن عدد المغتربين العائدين وصل ٦٦,٨٠١ مقارنة بنتائج تعداد ١٩٧٥م. ان بداية عودة المهاجرين اليمنيين منذ منتصف الثمانينات يعود لسببين هما :- ان فرص العمل تحسنت في البلد وبالذات في القطاع الخاص ، وتمكن بعض المهاجرين من استثمار اموالهم في شراء بعض المزارع والاراضي في المدن الرئيسية وتحقيق ارباح كبيرة من وراء الاتجار بها . وبالتالي اصبحت الهجرة لبعض اليمنين غير ذات جدوى مقارنة بما يحصل عليه من البلد. والبعض من المهاجرين بدأ يستثمر امواله في بناء المنازل وغير ذلك من الانشطة الاقتصادية والتجارية التي عملت على تشجيعهم على البقاء في بلدهم بدلاً من طرق باب الهجرة. أما السبب الثاني فهو الاجراءات التي اتخذتها الحكومة السعودية قبل بدأ أزمة الخليج بخمس سنوات وتتمثل ذلك بمضايقة اليمنيين الذين لديهم محلات تجارية بسيطة وذلك من خلال الاجراءات التي تتمثل بضرورة ان يقوم بهذه الأعمال ابناء السعودية وايضاً منافسة اليمنيين في الخدمات العامة من قبل العمالة الآسيوية التي كانت تنفذ اعمالها باتقان وتأخذ أجوراً أقل من اليمنيين.

لقد اتخذت حكومة المملكة العربية السعودية عدة اجراءات ضد العمالة اليمنة في عام ١٩٩٠م ومنها تطبيق شروط العمل كما ينطبق على المهاجرين الغير يمنيين. وهذا الأجراء قلل الفرصة لبقاء العمال اليمنيين في السعودية للعمل وفق الظروف التي كانت سائدة قبل اتخاذ هذا القرار. وكان لاتخاذ هذا القرار من قبل الحكومة السعودية من اجل ايجاد فرص عمل أمام العمال السعوديين ومواجهة البطالة التي بدأت ترتفع نسبتها من سنة الى أخر وخاصة بعد زيادة حجم الهجرة الداخلية وتخرج العديد من ابنائها من المدارس ولم يجدوا فرصة عمل أمامهم . وقد كان لهذا الاجراء الذي اتخذ من قبل السعودية أثره السلبي على المهاجرين اليمنيين في المملكة العربية السعودية وخاصة العاملين في حقل التجارة . حيث أضطر العديد منهم الى بيع محلاتهم التجارية وبالفعل بدأ المهاجرون اليمنيون بالعودة بأعداد ملحوظة. وعندما بدأت أزمة الخليج في أغسطس ١٩٩٠م أتخذت الحكومة السعودية قراراً يقضي بضرورة ان يكون لدى المهاجرين اليمنيين تصاريح عمل مثلهم مثل بقية المهاجرين الاجانب والذين ليس لديهم تصاريح عمل وإلا عليهم مغادرة المملكة العربية السعودية. ولم يكن امام أغلبية المهاجرين اليمنيين أي خيار إلا العودة الى وطنهم

على اعتبار أن شروط العمل لم تطبق على اليمنيين قبل اتخاذ هذا القرار. وحددت الحكومة السعودية فترة لليمنيين الذين لا تتوفر لديهم تصاريح اقامة لبيع محلاتهم التجارية او ممتلكاتهم الى تجار سعوديين أو غيرهم. ولم يأت منتصف سبتمبر ١٩٩٠م إلا ومعظم المحلات التجارية التي كان يمتلكها اليمنيون أو المنازل أو الشاحنات قد تم بيعها من قبل المهاجرين اليمنيين لأبناء السعودية بأرخص الأثمان وعادوا الى اليمن.

وتوالت اعداد المهاجرين اليمنيين بالتدفق والعودة الى اليمن من قطر والبحرن والكويت متأثرين بالاجراءات التي اتخذت من قبل حكومات هذه الدول ضد المهاجرين وبالذات ان حكومة الجمهورية اليمنية تعاطفت مع الحكومة العراقية أثناء أزمة الخليج.

أما المهاجرون اليمنيون في القرن الأفريقي فقد بدأت عودتهم بسبب اضطراب لأوضاع السياسية في هذه البلدان وخاصة في الصومال وأثيوبا وقد قدر عدد المهاجرين اليمنيين العائدين من القرن الأفريقي بحوالي خمسين ألف مهاجر. "Hamid El-Khawad" وقد اتخذت الحكومة اليمنية العديد من الاجراءات من اجل مواجهة هذه الاعداد الهائلة العائدة من القرن الافريقي أو المتأثرة بأزمة الخليج سواء بإقامة المعسكرات لإيوائهم أو تقديم المساعدات العينية من قبل وزارة شؤون المغتربين والعمل على توفير فرص عمل لهم في أجهزة الدولة المختلفة. ولكن القدرة الاستيعابية كانت محدودة.

لقد وصل عدد المهاجرين العائدين من الجزيرة العربية والخليج والمتأثرين بأزمة الخليج حوالي ٧٣١,٨٠٠ ألف مهاجر. حيث بين الحصر الذي تم من قبل الجهاز المركزي للإحصاء بوزارة التخطيط والتنمية أن نسبة المرافقين للمهاجرين ٥٦,٥٪ وهؤلاء المرافقين هم من الأطفال والنساء والشيوخ ويحتاجون الى كل أنواع الدعم.

أما نسبة المغتربين العائدين قد شكلت المملكة العربية السعودية حوالي ٩١,٨٪ من مجموع المهاجرين العائدين والمتأثرين بأزمة الخليج وتبين من خلال الحصر ان محافظة الحديدة تمثل المرتبة الأولى من حيث عددهم وتليها محافظة إب. أما أقل المحافظات استقبالاً للمهاجرين العائدين من الجزيرة والخليج فهي محافظتا مأرب والجوف.

الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للمهاجرين العائدين

لقد اظهر الحصر الذي قام به الجهاز المركزي للاحصاء أن نسبة كبيرة من المهاجرين العائدين استقروا بدرجة اساسية في محافظة الحديدة وتليها محافظة إب وتعز. أما اقل المحافظات فهي مأرب والجوف. ان تركز عودة المهاجرين في محافظة الحديدة يعود كونها متاخمة لحدود المملكة العربية السعودية وأصبحت في أثناء الازمة عبارة عن محطة انتقال من هذه المحافظة الى بقية محافظات الجمهورية هذه من ناحية أما الجانب الآخر فالكثير من المهاجرين انقطعوا عن مناطقهم لسنوات عدة لذا فضلوا البقاء في المجمعات التي اعدتها المنظمات الدولية والمحلية والحكومة لإيواء المغتربين والبحث لهم عن عمل قبل التفكير بعودتهم الى مناطقهم وخاصة ان وضعهم الاقتصادي كان صعباً. اما محافظات إب وتعز فكثافة السكان العالية في هاتين المحافظتين كان لها دور كبير في النسبة العالية لهجرة اليمنيين الى دول الجزيرة والخليج وفي نفس الوقت عودة نسبة كبيرة منهم أثناء أزمة الخليج.

أما التركيب لعمري للمهاجرين العائدين من دول الخليج والجزيرة والقرن الافريقي يعتبر مؤشراً هاماً على مقدار قوة العمل في صفوف المغتربين العائدين. لقد اظهر الحصر الاحصائي ان نسبة المهاجرين الذين اعمارهم أقل من ١٥ سنة ٢٨,٩٪ والذين اعمارهم اكثر من ٤٥ سنة ٢٣,٦٪ أما الذين في سن العمل وأعمارهم تنحصر ما بين ١٥-٤٥ سنة فهم لا يمثلون إلا ٤٧,٥٪ من جملة المغتربين العائدون من الخليج والجزيرة والقرن الافريقي. ان هذه المؤشرات الاحصائية تعطي صورة واضحة على حجم العبء الذي تتحمله الحكومة اليمنية في سبيل ايواء هذه الاعداد وكذلك توفير فرص العمل ومحاولة دمجهم في المجتمع لتوفير الاستقرار لهم ولأسرهم. أيضاً هذه الارقام تعطي صورة واضحة ان المدن الرئيسية والثانوية تعاني من ضغوط كبيرة على الخدمات الصحية والتعليمية وبقية الخدمات بجانب ان هذه المدن كانت في الأصل تعاني ولا تزال من نقص الخدمات العامة وتدنيها بسبب سوء التخطيط والاهمال نتيجة لعدم توفر الصيانة المستمرة لهذه المرافق فكيف سيكون الحال على هذه الخدمات بعد أن توجهت نسبة كبيرة من المهاجرين العائدين للبحث عن عمل في المدن الرئيسية والثانوية والاستقرار بها.

أما حالات الزواج والطلاق والعزوبية والترمل في صفوف لمغتربين العائدين فقد اظهرت نتائج الحصر أن نسبة المتزوجين وصلت ٨٦,٦٪ وأن نسبة غير المتزوجين ١١,٧٪ أما المطلقون فقد أظهرت النتائج ان النسبة بين صفوفهم ضئيلة حيث وصلت

الى ١٪ فقط. وهذا يعود بدرجة أساسية الى ارتفاع نسبة الشباب الذي يقابله انخفاض في كبار السن. أما الأمية فقد دلت الاحصائيات ان نسبة الأمية وصلت الى ٤٥٪ من مجموع المغتربين العائدون والذين يلمون بالقراءة والكتابة ٣٧,٣٪. أمّا المؤهلون تأهيلاً علمياً فلم تصل نسبتهم من مجموع المغتربين العائدين إلا ١٧,٦٪ أما طول الفترة التي مكث فيها المغتربون اليمنيون في دول الجزيرة والخليج والقرن الافريقي فقد تبين ان الذين مكثوا اكثر من خمس سنوات لا يزيدون عن ١٧,٧٪ أما الذين مكثوا أكثر من عشر سنوات فقد دلت الاحصائيات ان نسبتهم وصلت الى ٦١,١٪ والنسبة الباقية مكثوا في المهجر من ٥-٩ سنوات.

أما الاعالة في صفوف المغتربين العائدين فقد اوضحت نتائج الحصر ان نسبة المغتربين الذين يعولون أسراً ٨١٪ والذين لا يعولون ١٩٪ وبلغت نسبة الذين يعولون خمسة افراد فاكثر ٨٢٪ والذين يعولون من ٢-٤ أفراداً ١٢٪. أما الذين يعولون من ١-٢ فقد وصلن نسبتهم ٦٪ ومن الملاحظ ان نتائج الحصر تتفق الى حد كبير مع نتائج تعداد ١٩٨٦ في المحافظات الشمالية ، ١٩٨٨م في المحافظات الجنوبية وارتفاع نسبة الاعالة تعطي لنا صورة واضحة عن اسباب تدني مستوى المعيشة للافراد وهذا بالطبع ما يرفع نسبة الاعالة الاقتصادية على مستوى الاسر في ظل محدودية الموارد وقلة المدخرات وبروز ضيق كبير في سوق العمل في اليمن.

هذا فيما يتعلق بالجانب الاجتماعي اما النتائج الاقتصادية لعودة المغتربين من الخليج والجزيرة بسبب أزمة الخليج وأحداث القرن الافريقي فقد كان معظم نشاط المغتربين اليمنيين متركزاً على النشاط التجاري وخاصة في المملكة العربية السعودية. وقد استخدم معظم تحويلات المغتربين اليمنيين في تغطية الاستيراد للمواد الاساسية وغير الاساسية من الخارج حيث كان معظم دخل المغتربين ينفق على نفقاتهم الشخصية . ومن الملاحظ انه كلما زادت ارساليات المغتربين زادت نسبة الاستيراد والاعتماد على الخارج وبالذات منذ منتصف السبيعينات وبداية الثمانينات.

وعن طريق هذه الارساليات تمكنت الحكومة اليمنية في السبيعنيات والثمانينات ان توجد نوعاً من الاستقرار الاقتصادي وبالذات فيما يخص العملة الأجنبية. وقد وصلت قمة تحويلات المغتربين من دول الخليج والسعودية ومن البلدان الأخرى التي طرقها المغتربون اليمنيون بشكل عام في سنة ١٩٨٣م حيث وصلت الى ١,٧٣٣ مليون دولار وتناقصت تدريجياً حتى وصلت قبل بداية أزمة الخليج عام ١٩٨٨م الى ٥٦٧ مليون دولار. واستمر انخفاض ارساليات المغتربين حتى وصل في عام ١٩٩٠م

الى ٥٠٠ مليون دولار واستمر الحال في انخفاض الارساليات مما أثر على ارتفاع نسبة التضخم وتدهور قيمة العملة اليمنية وانخفاض مستوى الحياة المعيشية لدى الافراد والأسر ومحدودية فرص العمل في البلد وانتشار البطالة السافرة والمقنعة.

لقد اظهرت نتائج حصر المغتربين الذي تم من قبل الجهاز المركزي للاحصاء بوزارة التخطيط والتنمية ان النسبة الداخلة في قوة العمل بلغت ٨٩,٧٪ أما النسبة الباقية وهي ١٠,٧٪ فهي تمثل ربات البيوت وكبار السن والطلبة. أما التوزيع المهني للمغتربين فسنجد ان اكثر من نصفهم كانوا يعملون قبل ان يهاجروا في الزراعة والرعي والصيد. وعندما كانوا في دول المهجر أظهرت نتائج الحصر أن ٩٧,٤٪ كانوا يعملون في دول المهجر والبطالة في صفوفهم كانت محدودة وفي نفس الوقت مؤقتة أما النسبة الباقية هي عبارة عن طلاب وربات منازل وكبار السن. أما المهارات التي اكتسبها المغتربون من دول المهجر فقد تبين أن أكثر من ٦٠٪ من جملة العادين يعتبرون عمالة غير ماهرة ويليهم العمال الذين لديهم بعض المهارات وتصل نسبتهم الى ٢٨٪ فقط من مجموع القوى العاملة العائدة. أما العمالة الماهرة فلا تمثل سوى ٥٪ وهذه النتائج تعطي مؤشراً واضحاً وهو ان حركة القوى العاملة اليمنية كانت انتقائية وان الذين طرقوا باب الهجرة هم من القادرين على العمل وهؤلاء في العادة يكونون في مرحلة الشباب وأكثرهم يكونون غير مدربين أو مؤهلين وليس لديهم مهارات أو خبرات في مجال الأعمال المختلفة.

وأخيراً فإن حركة القوى العاملة اليمنية من أجل طرق باب الهجرة ستستمر من اجل مواجهة المشكلات الاقتصادية والاجتماعية التي تعاني منها القوى العاملة اليمنية وتتفاقم من سنة الى أخرى. وستستمر ظاهرة حركة القوى العاملة اليمنية سواء من الريف الى المدن الرئيسية او الثانوية او من مدينة الى اخرى أو من البلد الى خارجه طالما أن اسبابها ودوافعها لا تزال موجودة وطالما ظلت تدهور الظروف الاقتصادية والاجتماعية بشكل مستمر ولم يتم تحقيق ارتفاع مستوى المعيشة للأفراد والحد من التضخم.

وعلى ضوء مما تقدم التوصيات التالية:-

١- لابد من الاهتمام بالتعليم التقني والمهني الذي سيعمل على رفد قطاع الانتاج بما تحتاجه محلياً من الكفاءات الفنية والكوادر المتوسطة وهذا سيحقق الاستقرار النسبي لقطاع الانتاج وبالتالي يقلل من حركة القوى العاملة صوب الخارج أو التنقل بين محافظة وأخرى بحثاً عن فرص العمل.

٢- تنظيم عملية السفر للعمالة اليمنية المهاجرة وبالذات العمالة الماهرة وذلك من خلال النظر في قيود وقواعد السفر بغرض العمل على التخفيف من حركة القوى العاملة الماهرة لما ذلك من أهمية في تحقيق الاستقرار الاقتصادي.

٣- ايجاد القنوات السليمة من اجل ايصال المعلومات والاحصاءات عن حركة القوى العاملة اليمنية سواء داخل الوطن أو خارجه من أجل معرفة اتجاهات حركة القوى العاملة اليمنية والاسباب الدافعة لذلك.

٤- إلزام أصحاب المشاريع الخاصة بضرورة تدريب العمالة المحلية والعمل بكل الوسائل والامكانيات المتاحة من اجل رفع مهارات وكفاءات العمالة اليمنية والحد من الاعتماد على اليد العاملة الوافدة.

٥- اعداد برامج زمنية من اجل إحلال العمالة المحلية بدلاً من الوافدة في مختلف المؤسسات وخاصة القطاع الخاص الذي يحبذ اليد العاملة الوافدة المجهزة بالخبرة. ويجب ان يراعى في هذا البرنامج الدقة وعدم التسرع مراعات مختلف الظروف سواء في العلاقة مع اصحاب العمل اومع العمال الوافدين.

٦- لابد من توفر المعلومات لدى وزارة الشؤون الاجتماعية عن حجم العمالة الوافدة من حيث وضعها التعليمي والصحي والخبرة التي تحملها حتى تتمكن الدولة من احلال العمالة اليمنية محل الوافدة معتمدة على بيانات سليمة بعيدة عن اتخاذ القرارات الفوقية او المتسرعة حتى نستطيع ان نوفر مستقبلاً افضل للاجيال القادمة.

٧- ضرورة التنسيق بين أجهزة الدولة المختلفة في كيفية استخدام العمالة الوافدة والحد من التداخل في الاختصاص فيما يتعلق بأستخدام العمالة الوافدة وكيفية التعامل معها أثناء اقامتها في البلد.

المراجع

١- د. محمد احمد على المخلافي "الآثار الاجتماعية والاقتصادية للهجرة الدولية في الجمهورية اليمنية" مجلة دراسات يمنية ، يناير ، فبراير ، مارس ١٩٩٠م ، الجمهورية اليمنية ص ٢٣٠.

٢- وزارة التنمية "الجهاز المركزي للاحصاء، كتاب الاحصاء السنوي ، صنعاء ١٩٨٧م ، الجمهورية اليمنية ، ١٩٨٨م.

٣- جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية " الجهاز المركزي للاحصاء " كتاب الاحصاء السنوي لعام ١٩٨٨م العد السادس ، ١٩٩٠م.

٤- د.عباس السيد ابراهيم " الآثار الاقتصادية والاجتماعية للهجرة اليمنية " مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، العدد ٣٤، ابريل ١٩٨٣م الكويت ، ص١٢٥-١٣٩.

٥- د. ابوبكر السقاف ، "مشكلة الهجرة في الجمهورية اليمنية " دراسات يمنية العدد الرابع ، يوليه ١٩٨٠، الجمهورية العربية اليمنية ص ٦١-٧٠.

٦- د. احمد محمد شجاع الدين ، د. عبدالله سعيد باحاج " الهجرة اليمنية:- الابعاد ، النتائج ، منظمة العمل الدولية ، مشروع دعم سياسة الهجرة في المنطقة العربية ١٩٩٢م ص ص ١٣، ١٨ ، ٢٨.

٧- الجمهورية اليمنية ، وزارة التخطيط والتنمية : الجهاز المركزي للاحصاء ، وثائق المؤتمر الوطني الأول للسياسة السكانية في الجمهورية اليمنية ، الهجرة اليمنية وطبعتها ، أسبابها ، نتائجها ، بحث مقدم الى المؤتمر من قبل الدكتور محمد الزعبي، د. احمد محمد شجاع الدين ، ١٩٩١م ص١٤٧-١٦٧ ، ١٦٧-١٧٩.

٨- منظمة العمل الدولية " دعم سياسات الهجرة في المنطقة العربية " حول الهجرة الخارجية واطرها التنظيمية والقانونية في السودان ، بحث قدم لندوة سياسات الهجرة في البلدان العربية المصدرة للنفط مقدم من قبل د. علي عبدالقادر ، منظمة العمل الدولية ، مايو ١٩٩٢م ص٧-٨.

٩- الجمهورية اليمنية ، وزارة العمل والتدريب المهني ، البيانات الاحصائية عن حجم وحركة تشغيل القوى العاملة الفعلية للعمالة المحلية في الجمهورية اليمنية ، ١٩٩١/٩/٣٠م.

١٠-وزارة الخدمة المدنية والاصلاح الاداري ، البيانات الاحصائية عن حجم العمالة الاجنبية في الجمهورية اليمنية ، صنعاء ١٩٩١م.

١١- د. يحيى صالح محسن " أثر تشغيل العمالة الاجنبية في اليمن وسبل معالجتها" مجلة قضايا العصر ، عدد ستمبر واكتوبر ، السنة الثانيةعشر ، ١٩٩٢م ، ص ص١٣٤-١٣٦ ، ١٤٢، ١٤٥، ١٦٥ ، ١٦٧.

حالة الشك واليقين
في التعبير اللفظي والصوري

بقلم : الدكتور احمد عقبات
الاستاذ المشارك في قسم الاعلام

تشكل وسائل الاعلام الجماهيرية بصورة عامة ، والتلفزيون بصورة خاصة، القنوات الرئيسية لتلقى الاخبار والمعلومات ونشر الثقافة والوعي والترفيه بكل أنواعه.

وهذه المصادر تحمل في طياتها الكثير من الحقائق والثوابت ازاء المتغيرات اليومية في كل ارجاء المعمورة. وتستطيع املاء رغباتها من المعلومات عن طريق البرامج المختلفة سواء الاخبارية منها ، أو التعليمية أو الترفيهية ....الخ. وهذا الكم الهائل من الأنباء والمعارف قد يعبر عن اليقين ، أو ربما تشوبه ملامح الشك في المحتوى ، ولذلك فقد سعت كل وسيلة اعلامية الى مخاطبة الناس بالشكل الذي تريد من خلاله اثبات مصداقيتها في مانقدمه من مواد. ولكن بعض هذه الوسائل الاعلامية تظل عاجزة عن التدليل على جزئيات فقراتها لغياب التعبير الصوري ، باستثناء المرئية منها ، التي تستطيع وضع حداً لهذا التساؤل باستعراض الحقائق بطبيعتها كما هي أمام المشاهد ، وبمساعدة عدسات التصوير ، التي ميزتها عن بقية الوسائل الاعلامية الأخرى ، ولا يحدث ذلك في الغالب إلا في حالة الوصول الى تلك الثوابت المصورة وسردها بموضوعية تامة. وهذا لا يعني ان وسائل الاعلام المختلفة لا تستطيع تقديم أخبارها في طبق شهي وتلوين الاحداث كما يحلو لها ، ولكنها بالمقابل لا تتمكن أحياناً من التدليل على مصداقية كل محتوياتها. ولذلك يسعى هذا البحث لكشف أوجه نشاط هذه الوسائل في هذا الاطار بتفحص حالات الشك واليقين في الكلمات الملفوظة وفي الكوادر المصورة ، لمعرفة الى أي مدى تستطيع كل وسيلة اعلامية خلق الثقة مع المستقبل وايجاد لغة مشتركة معه تقنعه بتداخل الأمور وتشابكها من منظور معدي ومقدمي المواد المستهدفة. ولكي نصل الى هذه النتيجة يجب الوقوف امام نشاطات وسائل الاعلام في القيام بوظائفها ، انطلاقاً من

طبيعتها وقدرتها على تلبية احتياجات المستقبل ، وبمقارنة امكانياتها في تنفيذ هذا الهدف.

وبوضع المعطيات الضرورية في ميزان التحكم في التأثير والواقعية ، تلتصق بوسيلتي الاعلام المكتوب والمسموعة بعض الصفات والمميزات ، التي تعكس ذاتها، ولكنها قد لا ترقى الى مستوى التعبير الصوري الذي ارتكز على قواعده البث التلفزيوني ، بمتابعة الظواهر وتقديمها الىالمستقبل في اطار صوري واضح . وهذه الورقة هي التي كسبت بها وسيلة الاعلام المرئية الرهان ، التي اقتربت به من حيازة ثقة المشاهد. وهذا ماسيثبته هذا البحث ، وما ستتمخض عنه النتائج المرجوة من هذه الدراسة.

-١-

ان التعبير اللفظي والصوري هما وسيلتان لايصال المعلومات بكل اشكالها الى المتلقي عبر وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية. ولكل وسيلة طابع خاص وايقاع مميز وطريقة محددة في القيام بهذه المهمة ، بالاسلوب الذي يعكس جوهرها وقدرتها في تحمل الوظائف المناطة بها ، لتترك في نهاية المطاف الفرصة للقارىء والمستمع والمشاهد في طرح انطباعاته من خلال ايجاد لغة مشتركة بينه وبين الوسيلة الاعلامية عبر الثقة ومصداقية التعبير عن الاحداث المختلفة ، ولن يتسنى ذلك إلا بقناعة المستقبل بحقيقة وقوعها.

ونظراً لتفاوت تنفيذ الواجبات العملية لكل وسيلة اعلامية على حدة باستخدام الوسائل المعبرة عنها ، بما يتفق وطبيعة وجودها ، فإن النتائج المرجوة من نشاطاتها تختلف بتنوع إعداد وتقديم الوجبة الاعلامية ، التي تمكنها من خلق حالة اليقين وازاحة الشكوك التي تعترض طريق الاحداث ، بالتدليل على مصداقية مجريات الأمور بحسب القدرة على إيجاد الأرضية المناسبة لذلك.

فوسيلة الاعلام المكتوبة منذ نشأتها وحتى اليوم اعتمدت الكلمة واحياناً الصورة الساكنة الى جانبها للتعبير عن ذاتها. فهي تحاول وصف الاحداث في كلمات ، ليتولى القارىء بدوره تكوين لوحة مرئية في ذهنه يحول تلك الكلمات في صور بناءاً على خبراته ومعارفه إزاء الموضوع المتناول. ويختلف الناس في تخيل الأحداث انطلاقاً من مستوى ما تمكنهم ثقافاتهم من استيعاب الكلمات المكتوبة بكل ماتحويه من ابعاد ، ولذلك تتشكل لوحات متنوعة بين القراء. وبالرغم مما تقوم به الصحافة من جهود في شرح تفاصيل الحدث في إطار يقترب من وعي عامة الناس والتدليل

على حدوثها بمعطيات يعتقد المحررون انها ثابتة ـ إلا أنها لا تتجاوز مرحلة الثقة المطلقة ، فقد يدور الشك في امكانية حدوث بعضها ، أو وجود مبالغات في البعض الآخر. ولذلك تلجأ مختلف الصحف الى عرض لقطات توضيحية لجانب من الاحداث ، لكي تتعدى خطوط الشكوك إزاء الحدث ، أو التأكد من لفت انتباه القارىء الى عمق الواقعة. وهذا الاسلوب يؤتي بثماره احياناً ، لكنه لا يستطيع بلوغ نهاية الأقناع ، باعتبار ان امكانية الصحافة تظل محدودة في نقل احداثها في الوصف المكتوب بالتعبير الصوري الساكن أحياناً. وتختلف الاحداث بإختلاف المواضيع التي تحتاج الى اهمية المصداقية ، او ايجاد شكوك في عملية التقبل . فإعتماد الصحافة شخصيتها في تولي عرض الأحداث عبر الكلمة المكتوبة ، لا تجد صعوبة في الغالب في جانب تحليل وجهات النظر المختلفة إزاء الوقائع ، أو محاورة القارىء حول المتغيرات اليومية بتناول قضايا المجتمع المختلفة ، وذلك لأن الصورة العامة لهذه المواضيع قد اتضحت في ذهن القارىء لمعايشته هذه الاحداث ، أو لأطلاله على طبيعتها من تجاربه الخاصة ، أو من وسائل الاعلام المختلفة. فيأتي محرروا الصحف هنا لمناقشتها وايجاد حلول لمعالجتها ، أو الأدلاء بالآراء والنصائح لبلورة الأفكار الصحيحة والمعبرة في ايجاد القيمة الفعلية لدراستها ونشر المعرفة في أوساط شرائح المجتمع المختلفة. ولذلك فإن القارىء لا يحتاج الى اكثر من الكلمات المكتوبة المعبرة عن الاحداث بكل انواعها والتي جسَّد معانيها الباحث محمود ادهم بالقول بأنها " وصف موضوعي دقيق تطلع به الصحيفة أو المجلة قرائها في لغة سهلة واضحة وعبارات قصيرة على الوقائع والتفاصيل والأسباب والنتائج المتاحة والمتابعة لحدث حالي أو رأي أو موقف جديد لافت للنظر أو فكرة أو قضية أو نشاط هام تتصل جميعها بمجتمعهم وافراده ومافيه ، أو بالمجتمعات الأخرى ، كما تساهم في توعيتهم وتسليتهم . "[1] . ويتفنن الصحفيون في صياغة الحروف وبلورة الفكرة بالصورة التي تتناسب وامكانية كل محرر ، بحيث يجد المقال أو التقرير قبولاً لتلاوته من متابعي الأحداث ، أما المواضيع الاجتماعية الهادفة الأخرى التي تتطلب مواصلة مستمرة مع القارئ ، فقدرة الصحفي لاتخفي نفسها في خلق العلاقة الوطيدة وتبادل الآراء مع القراء المستهدفين . وبهذا تستطيع الصحافة على الدوام ايجاد لغة مشتركة في هذه الجوانب ، مما يثبت مكانتها وخبراتها الطويلة كأقدم وسيلة اعلام جماهيرية حديثة .

أما الجانب الآخر من كتابة الأخبار الفورية والتعليق عليها في حينه ومحاولة ابرازها بشكل مقنع ، فان الصحافة هنا تستطيع نشرها وابداء الرأي ازاءها ومتابعة تطوراتها ، ولكنها عاجزة عن انتزاع ثقة القارئ كاملة بمصداقية حقيقة حدوثها بتشكيل لوحة متكاملة وطبيعية لوقوع الأحداث ، وذلك لغياب التعبير الصوري الحي والمباشر لمجريات الأمور ، وكل ماتستطيع الصحافة أن تفعله في هذا الشأن هو أن تنشر صورة واحدة أو صورتين فوتوغرافيتين لجزء أو لزاوية من الأحداث . وهذه أيضاً غير قادرة على لمس سطح قناعة القارئ ، اللهم الا دفع الفضول لديه لمتابعة الصور الحية التي يقدمها التلفزيون والتي ربما قد أذاعها في وقت سابق ، ولكن في المقابل عندما يتأكد مشاهدو التلفزيون من وقوع الأحداث ، ولاحظوا جزئيات المشاهد المختلفة لها ، فانهم يتعطشون شوقاً لأقتناء الصحف والمجلات للاطلاع على تفاصيل وجهات النظر ومتابعة الحدث . وذلك واضح لأن مساحة الصحافة واسعة لمعالجة القضايا ، باعتبار أن الحدث المكتوب لايتطلب دعمه بالصور الكثيرة الا في حالات نادرة . ولذلك فاتساع صفحات الجرائد والمجلات تتيح فرصة لارآء المحللين في وضع بصماتهم حول القضايا والأحداث الجاري بحثها ، وفي هذه الحالة لايستطيع المحررون اضافة معطيات جديدة لقناعة المشاهد بجوهر الحدث ، لأن الصورة التي انطبعت في ذهنه من وسيلة الاعلام المرئية تبقى هي الثابتة في عقله ، ماعدا احتمال تصديق بعض الانطباعات والآراء والأبعاد التي كتبها المعلقون حول تلك الأحداث ، التي قد تفتح آفاق جديدة لمعرفة بعض الحقائق التي يؤكدها المطلعون والمراقبون ، ولكنها أيضاً بدورها لاتصل الى درجة الاقناع الكامل للقارئ بمصداقيتها . اضافة الى ذلك فان وسيلة الاعلام المكتوبة تتأخر عادة في نشر أنبائها عن وسيلتي الاعلام المسموعة والمرئية ، مما يتيح فرصة للمستقبل أن يكون أفكاراً وانطباعات أولية حول الأحداث ، ليتوقع صدور تفاصيل مثيرة من خلال الصحف ، وحينها تبقى بعض الثوابت المدعمة بالصورة والصورة التي اكتسبها من وسائل الاعلام المختلفة هي التي يقارن بها مايتلوه من آراء وتعليقات ، وليست كلها تتجاوز فلتر الثقة واليقين ، الا في حالات التكرارات المطلوبة لتأكيدها ، ولاسيما تلك التي تعزز الدور الذي قامت به المشاهد الحية ، ودعمتها آراء المحللين الذين يثق بهم القارئ في طرح وجهات نظرهم بموضوعية كاملة وتقصي دقيق لمجريات الأحداث .

أما بقية المواضيع الاجتماعية والاقتصادية المختلفة ، فيبحث الصحفيون فيها بناءاً على مايمكن أن تمليه عليهم طبيعة وسيلة الاعلام المكتوبة ، والتي لاتتيح الفرصة الا

بصب المعلومات عن طريق الكلمة . ولكي يصلون الى درجة اقناع المشاهد بمصداقية مايقدمونه من مواد ودراسات حول الظواهر المختلفة ، فانهم يتبعون السبل التي تمكنهم من معرفة ضروف المجتمع ، ومستوى وعيه وثقافته وعاداته وتقاليده وسلوكياته ودياناته ، وماشابهها ، وبالتالي يكتبون مقالاتهم ، ومقترحاتهم وآرائهم في هذا الاتجاه ، لينتزعون بذلك ثقة الرأي العام في مايقدمونه من مواد . ويرى النقاد بأن الكاتب عندما يكتب يحاول أن ينقل الى من يكتب له أفكاراً ومعلومات ومشاعر ... والمتلقي عندما تصله أفكار ومعلومات ومشاعر الكاتب فانه يتلقاها بالطريقة التالية :-

١- يستعيدها على ضوء الوعي الكامل .
٢- يستعيدها على ضوء اللاشعور أو اللاوعي أو العقل الباطن .
٣- ينظر اليها من وجهة نظر التقاليد التي نشأ عليها .
٤- يفحصها في ضوء المعتقدات الدينية التي يؤمن بها .
٥- يوائمها مع نوع الحياة التي يحياها والثقافة التي يسلكها .
٦- يزنها من ناحية التطلعات التي يسعى الى تحقيقها .
٧- يربطها بالنواحي الانسانية التي يتوخاها في سلوكه الخاص[٢] .

وهذه ليست سوى ركائز أساسية يبني عليها الصحفي اللبنات الضرورية لأكتمال هرم الموضوع الذي يتناوله ، والذي تلعب فيه شخصيته الدور الرئيسي والهام في بلورة الفكرة التي صاغها بناءاً على بحث ومتابعة وتدقيق كامل ، ليعرضها بأسلوب موضوعي وبطريقة سهلة وبلغة يتمكن من فهمها كل المتعلمين ، واذا استطاع أن يجد صورة ثابتة لأي جانب من الموضوع المتناول يعرضها بجانب الموضوع ، فانه بهذه المحاولات مجتمعة سيتقرب من عقلية القارئ وسيتيح فرصة أكبر لمحاورته وازالة الشك والغموض في عرض الفكرة وايجاد جزء من الثقة والتصديق والايمان بمحتويات الموضوع المستهدف . وبهذا يكون المحرر قد استغل كل مقومات العمل الصحفي تقريباً ، أو الحد الأقصى فيما يمكن أن يقدم للقارئ اعداداً وعرضاً بمسئولية تامة ليقبله برضاء وبقناعة ، ليظمن متابعة القراء لما تحويه المواد المختلفة ، التي تجسد أهمية ومكانة وسيلة الاعلام المكتوبة .

وتأتي وسيلة الاعلام المسموعة لتخطو خطوة الى الأمام باضافة الصوت الى الكلمة ، فبدلاً من قرائتها ، يتم اذاعتها عبر الأثير . وبالتعبير اللفظي المذاع يستطيع الراديو ادراج مؤثرات صوتية مختلفة تزيد من امكانية معايشة الأحداث والاقتراب من

واقعها ، لتؤدي دوراً أكثر مصداقية من الكلمة المكتوبة. فسماع أصوات الأغاني والموسيقى والحفلات ، وايقاعات الكرة وتشجيع الجمهور للفرق في التقارير الرياضية ، ودوي العيارات النارية والمتفجرات في احداث الحروب الأهلية ، مثلاً ، تجعل المستمع يدنو اكثر من ملامح الواقعية لتقبل حقائق مجريات الأمور ، إذا وضعنا في الاعتبار هذا الانجاز الصوتي مقارنة بوسيلة الاعلام المكتوبة " ولو ان الحال لم يتغير بينهما في ازاحة العبىء عن القارىء والمستمع بخلق صورة معبرة عن تلك الأحداث ، لأن التعبير اللفظي هنا ، سواء كان مكتوباً أو مذاعاً ، فإنه يستدعي من المستقبل ترجمته في ذهنه الى لوحة مرئية. وبالتالي فالراديو هنا قرَّب المسافة فقط عن طريق مؤثر صوتي لالقاء المذيع ، وحديث الضيف ، ونبرات الاحداث " ولكنه لم يصل الى نهاية المطاف في وضع المستمع في الاطار الواقعي المتكامل ، بل تركه يسبح بعيداً في خياله للعثور على القيمة الفعلية لصورة الوقائع استناداً الى ما يمتلك من معلومات ومعارف حول الموضوع المستهدف.

وبرغم حالة الشك التي قد تعترض الخبر أو الحادثة التي يذيعها الراديو ، إلا ان سرعة إعلانها عبر الأثير له قيمة وتأثير لا توازيه أية وسيلة إعلام أخرى ، لأنه أوصل الفكرة على الأقل في زمن قياسي من حدوثها ، والى مسافات بعيدة ونائية في مختلف بقاع العالم ، ليترك بذلك الفرصة للمستقبل لمتابعة التفاصيل للأحداث المختلفة من اذاعات متنوعة ، ومن وسائل اعلامية اخرى ، ولاسيما المرئية منها ، التي ستضيف طابعاً صورياً متميزاً للمادة المعلنة.

ويجدر الاشارة هنا الى ان الراديو يستطيع الاقتراب من الحقائق والتعبير عنها ، بحيث يمحي بعض الشكوك حول حدوثها وتطورها لدى المستمع في حالة امتلاك معدي الاخبار والبرامج خبرات ممتازة في اعداد المواد ومعاشرة المستمع بالاسلوب والطريقة التي تكوّن صورة ذهنية متكاملة ، والتي بدورها قد لا ترقى الى مستوى التعبير الصوري في التلفزيون ، إلا أنها بحكمة الاعداد والمتابعة ، وطريقة الالقاء ، واضافة المؤثرات الصوتية الممكنة ، سواء للمشاركين في الاحداث ، او للمعلقين عليها ، ستلعب دوراً كبيراً في استمالة المستمع وايجاد ثقة نسبية في تقبلها وتصديق محتوياتها . وذلك واضح عند اذاعة بعض الاخبار الساخنة ، حيث نلاحظ ان المستمعين يتابعون اذاعات معينة ممن يمتلك القائمون عليها امكانات بشرية ومادية جيدة ، وخبرات طويلة وشهرة دولية ، للتأكيد من تلك الوقائع ، واستقصاء آثارها وانعكاساتها.

الى جانب هذا فان اذاعة العناوين الرئيسية للصحف وتعليقات الافتتاحيات فيها عبر الأثير له دلالاته في التعرف على وجهات النظر المختلفة ، وإثارة القضايا المتنوعة التي تلفت انتباه المستمع وتربطه بمتابعة التعبير اللفظي اللامحدودوتجعله يغوص في عالم الاحداث. وهذا يعني وجود تكامل بين الصحافة والاذاعة ، بغض النظر عن بعض الفوارق والمميزات بينهما ، طالما وعرض الاحداث المكتوبة يمكن قرائتها وتعميمها على كل الناس من خلال برامج الاذاعة ، ففي اجتماع لاتحاد محرري الصحف الامريكية قال ديفيد برنكلي ، وهو من كبار رجال الاذاعة الأهلية الامريكية، قال موجهاً حديثه لمحرري الصحف " ان الشواهد تشير بقوة الى ان الصحافة والاذاعة تكمل كل منهما الآخرى اكثر مما تتنافس معها بالنسبة لميدان الاخبار. اننا نحن الاذاعيون نتفوق عليكم بميزتين او ثلاث قد لا تتاح لكم انتم رجال الصحافة ، وكذلك فإنكم تتفوقون علينا بميزتين أو ثلاث لا تتاح للاذاعيين. ويكون الشيء المنطقي والمعقول بالنسبة لنا نحن الاذاعيين ان نقتنع بما اتيح لنا من مميزات وان نستغلها ونقبل ان نتعايش معكم بما فينا من جوانب ضعف ، وبالنسبة لكم فعليكم أيضاً ان تطرقوا ميدان التنافس ضدنا ، وكذلك من الخطأ ان نقول ان في امكاننا ان نحل محل الصحف لاننا لا نستطيع ذلك ولن نفعل ذلك لو كنا نستطيع"[٣] ومن هذا يتضح ان وظائف الراديو والصحف تتشابه في صياغة المعلومات ، وتختلف فقط في اسلوب العرض. أما في الاطار العام ، فهي توجه احداثها ، وشخصياتها الى قارىء ومستمع لا يراهما " ولكن المحررين يحاولون ايصال التعبير اللفظي بما يتناسب وطبيعة كل وسيلة . ولذلك فالاذاعة تحسن ، استغلال بث الصوت في نقل محتويات الصحف لدعم فقراتها البرامجية ، مما ينتج احياناً من ذلك وجود تكامل بين الوسيلتين ، ولا سيما في مجال الاخبار ولتعليق عليها.

أما بقية البرامج فالراديو يميل الى التلفزيون في التعبير عن ذاته بمساندة التأثير الصوتي والايقاع الموسيقي سواء للبرامج الوثائقية او الفنية او الدرامية . لكن الهوة بين هاتين الوسيلتين لا تزال قائمة ، بإعتبار ان الراديو يجسد أعماله بالصوت فقط بكل ماتحتويه هذه الكلمة من معنى. فمثلاً نلاحظ ان طلقات العيارات النارية المسجلة ، وفتح الباب تقليد للأصل ، وإبداء الاعجاب والأسى والحزن والفرح والكآبة ، يتم التعبير عنها بلفظ صوتي وبموسيقى معبرة. أي ان وسيلة الاعلام المرئية تعبر عن هذه المواقف بشكلها الطبيعي ، وبالتالي فان المهام الموكلة لتنفيذ هذه الاعمال عظيمة ، حيث تحتاج الى الكثير من الامكانات والمهارات والوقت لأعداد

ابسط الاعمال الدرامية والوثائقية ، لأن المشاهد يرى أمامه الأصل ، وليس تقليده كما في الاذاعة. ولذلك فالاقتراب من مراقبة الحقائق في طبيعتها وتصويرها ، أمر يحتمه التعبير المرئي التلفزيوني ، فالصورة - كما يراها المهتمون - " هي تسجيل للحقيقة وليست الحقيقة ذاتها ، وهي تختلف عن الكلمة المكتوبة أو المسموعة ، لأن الكلمة رمز لا يحوى شيئاً من عناصر هذه الحقيقة ، ولا يماثلها ، أما الصورة فرمز يحتوي على خطوط ومساحات تشبه الواقع في شكلها الظاهري ، فهي لذلك بوجه عام اسهل فهماً من اللفظ المكتوب "[٤] . وكذلك الأمر فيما يتعلق بالتقديم ، حيث يتطلب التلفزيون الامكانات الفنية الضرورية من ديكورات وإضائة وماشابهها، وكذلك شكل المذيع واسلوب أدائه يلعب دوراً وتأثيراً في شكل البرنامج وتقبله ، الى جانب قضاء الوقت الكفيل بإعداد المادة على اكمل وجه. أما الاذاعة فتختصر هذه المعطيات لتكتفي بالاعداد اللفظي المعقول واسلوب الاداء الجيد ، لأن المذيع شخص غير مرئي، وبالتالي لا يحتاج الى اكثر من تعبير لفظي للأحداث الذي لا يصادف في الغالب أية عقبات في الاعداد له مقارنة بالوسيلة الاعلامية المرئية. وقد اشارت المذيعة الأمريكية دينا شور Dina shore الى تجربتها العملية في توضيح بعض هذه الاختلافات في الاداء فقالت "ان الفرق بين الاذاعة والتلفزيون هو حوالي عشرين ساعة في الاسبوع !!! إذ انني أتمرن صباح كل يوم ماعدا يوم الجمعة على برنامجين أقدمهما في التلفزيون كل اسبوع ، ويستمر التمرين طوال يوم إذاعة البرنامج. أما بالنسبة للبرامج التي أقدمها في الاذاعة ، فانني أذهب قبل موعد اذاعتها بساعة أو نحوها ، وأراجع النص والأغنيات وأقوم بدوري ، وبعدها أعود الى المنزل "[٥] .

وبهذا فان الاذاعة تحاول نقل مايحدث من فعاليات الى مستمع أشبه بالأعمى ، فهو لايرى المذيع ولايشاهد الأحداث ، ولكنه يتلقى تعبير لفظي وصفي لها . ويصف دونالد ماكوين هذه الحالة بالقول " ان تجربة الاستماع أشبه بالرجل الأعمى ، الذي يدرك العالم من حوله من خلال حاسة السمع ، الا أن الفرق بين تجربة المستمع والمكفوف هو أن الأخير يتلقى عبر أذنيه أصواتاً تم اعدادها بدقة ، ليثير كل صوت في داخله معاني متعددة مقصودة ، وتم الاعداد لها مسبقاً . فالأصوات التي يتلقاها المستمع لاتعني شيئاً ! الا اذا كساها المستمع في خياله لحماً ودماً ومشاعر وأفكار"[٦]. ولذلك فالمستمع يتخيل مجريات الأمور ، بناءاً على طرق اعداد وعرض المادة ، التي لاتؤهلها الى بلوغ درجة اقناع المستمع بحقائق المواد ، اللهم الا محاولة التدليل على الوقائع ، بأحاديث وتعبيرات لفظية تبقى على الدوام بين الشك

واليقين، ولكنها قد تتجاوز أحدهما ، عندما تصيب المستمع الذي جهز ذاته للقناعة من خلال ثقافته وادراكه واستعداده النفسي ، ووضعيته الاجتماعية وسلوكياته وعقيدته وايمانه ومفاهيمه ازاء جوهر الموضوع المتناول . وهذه الاصابة قد تكون ايجابية أو سلبية ، بناءاً على هذه المعطيات .

ومن هذا المنطلق تظل حالة الشك واليقين تتأرجح بين شخص وآخر ، والتي يحاول التعبير اللفظي أن يضع حداً لنقص القناعات حول المواضيع المتنوعة ، التي يهتم بها المستمع ، الا أن هذه المحاولات تظل قاصرة ، اذا وضعنا في الاعتبار وسيلة الاعلام المرئية التي استطاعت اختصار المسافات في وضع المشاهد أمام أصل الحدث.

-٢-

يعتبر عامل الرؤية الدليل القاطع للتأكد من حدوث الأشياء ، ذلك لأن حاسة البصر أقوى مجسد للصور التي تتراءى أمام العين . فمثلاً يشكل عادةً شهود العيان الأساس في تبني مواقف القضاة في المحاكم باصدار القرارات اللازمة والمصيرية في حياة الناس ، فما بالك بالأمور العادية ومجريات الحياة اليومية والأحداث الداخلية والخارجية . وبهذا فان المرء عندما يشاهد الظواهر بعينه ، ويسمع من الآخرين نقيض رؤيته لها ، فانه حتماً سيشك في مصداقية ماقيل ، ويتحيز الى ماشاهده في المقام الأول . وهذا مايؤكد أولوية الرؤية وأهميتها ، بالمقارنة مع السمع ومكانته منها ، فقد كتب الفنان والمفكر ليوناردو دافنشي " ان العين التي تسمى نافذة الروح والنفس ، هي القناة الأساسية التي يستطيع المرء أن يدرك بواسطتها المخلوقات السرمدية للطبيعة في أبها صورة وأكثر تنوعاً ، حيث تلعب الأذن دوراً ثانوياً[٧].

ووسيلة الاعلام المرئية تستند في الأساس على المشاهدة ، ومتابعة الأحداث بعين الكاميرا ، لتقدم اللقطات كما هي على الطبيعة . فهي تصور الوقائع بأشكالها المختلفة صوتاً وصورة . فعندما تسجل حدوث حريق مثلاً ، فان اللهب يتراءى أمام المشاهد عندما يأكل الأخضر واليابس ، ويسمع المستقبل ضجيج سيارات الاطفاء ، وصراخ النساء والأطفال ، ويبين ملامح مكان وقوع الحادثة ، وتعابير وجوه الناس وردود أفعالهم ازاء الحدث ...الخ وهذه الصفة الصورية هي التي أوصلت نتائج الدراسات التي كرست لمعرفة مكانة هذه الوسيلة ومكانتها الى هذا المستوى من المصداقية ، بتمركزها في مقدمة وسائل الاعلام الجماهيرية ، باعتبار ان الصورة وحدها أحياناً تكفي لنقل الأخبار دون تعليق ، أما اذا تزامنت مع تفسير مجريات

الأحداث ، فان اللوحة تتشكل في صورة متكاملة ، ويؤكد الباحثون بأن التلفزيون في هذه الحالة يعتبر أهم وأكمل وسائل الاتصال ، حيث تظهر الوقائع والأحداث على الشاشة في شكل مشاهد بكل ماتتضمنه من مؤثرات صوتية (تصفيق ، ضجة ، صوت الأمواج ، صوت الانفجار ، صوت المحركات ...الخ) ، وكذلك اذا ماكان هناك ضرورة من كلام وحديث وموسيقى . ان نقل الأحداث من خلال الشاشة ، وعلى عكس الصحافة والاذاعة هو أقرب الطرق لنقل الأصل ، أي لنقل الحدث الحي . ونقل الأحداث في التلفزيون ليس فقط موضوعياً ، بل هو أيضاً وبطبيعته الطريقة الأكمل والأشمل ، وفضلاً عن ذلك فان الذاتية من وجهة نظر المشاهد تكون هنا أكثر مصداقية . والرؤية هي اساس الاقتناع seeing is beleiving ، مما حدى بمعظم الناس الى متابعة هذه الوسيلة الاعلامية الجذابة وهذا ماأثبتته الدراسات، التي أشارت الى أن هناك ٨٦٪ من الجمهور يفضلون الكلمة المسموعة والمرئية كما في التلفزيون، بينما يفضل ٧١٪ منهم الاستماع الى الكلمة المذاعة ، ويفضل ٧٠٪ منهم الكلمة المقروءة (المكتوبة) في الصحف[٨].

ومادامت وسيلة الاعلام المرئية تمتلك هذه الصفات في تجسيد الوقائع ، فأين تكمن حالة الشك واليقين في التعبير اللفظي والصورة للبرامج التلفزيونية ؟

تشكل الصورة والنص اللفظي أركان العمل التلفزيوني بصورة عامة ، ولذلك فان اختفاء الصورة المعبرة عن النص تعني عزوف المشاهد عن المتابعة ، وبعبارة أخرى فان التلفزيون يتحول الى اذاعة .

واعداد الصورة الحية أو الثابتة في الشاشة تختلف بناءاً على طبيعة الموضوع المتناول ، الذي يتطلب قدراً كافياً من التحري بما يتناسب وطبيعة المادة المتناولة التي يمكن أن يتقبلها المشاهد .

فقصص الوقائع والأحداث لنشرات الأنباء والبرامج الأخبارية ، تحتاج الى اعداد لفظي وصوري وثائقي في عرض الأحداث ليس فقط لأثبات مصداقيتها ، بل وأيضاً لأثارة الجمهور للمتابعة ، لاسيما تلك المتعلقة بالوقائع الجسام التي تلفت انتباه الناس في مختلف الدول . واذا كان هناك من دليل يثبت قدرة التلفزيون على تبني هذا العمل بعرضه للأحداث العظيمة بتأثير ملاحظ جذب اليه فئات المجتمع المختلفة للتحقق من الأخبار والاثارة في المتابعة ، ماتم مثلاً في يوم ٢٢ نوفمبر ١٩٦٣ عندما أغتيل الرئيس كينيدي في دالاس بتكساس . ففي خلال دقائق معدودة بدأت الشبكة تغطي أربعة أيام انتهت بدقة في أرلينجتون ، وسمع كثيرون الرصاصة الأولى في الراديو ، ثم

أسرعوا لمشاهدة المأساة التي لم يكشف عنها السر بعد ، والاستماع الى ملخصات الأخبار في التلفزيون . وكشف مسح لمشاهدي التلفزيون في نيويورك أن مشاهدة التلفزيون ارتفع من ٢٥٪ الى ٧٠٪ في يوم الجمعة بعد أن عرفت أنباء الاغتيال . ورأى المشاهدون الرئيس وجاكلين كنيدي والتابوت يعود الى واشنطن ، ورافقوا الكاميرات وهي تدخل البيت الأبيض ورأوا احتفالات الأحد في الكابيتول ، وشاهد الناس يوم الأحد صورة حية للخطة الرهيبة عندما اندفع " جاك روبي " الى الأمام في مركز بوليس بدالاس ليقتل على الأثر قاتل الرئيس كنيدي " هارفي أوزلد " وسمعوا المندوب الصحفي وهو يصف الحادثة التي لاتصدق . وارتفع عدد مشاهدي التلفزيون في نيويورك الى ٨٠٪ ، عندما عرضت الشبكات الفلم . وأعادت عرضه مراراً . وفي يوم الاثنين لجنازة الرئيس كنيدي ارتفع نسبة المشاهدين الى ٩٣٪[٩] ، علماً بأن مشاهدة التلفزيون اليمني بقناتيه الأولى والثانية بلغت في عام ١٩٩٠ نسبة ١٠٠٪ ، وبالتالي فهي تمثل المعدل الكلي بحسب الاعتماد على رأي العينة [١٠] ولعل هذه النسبة هي نموذجية لمعظم الدول النامية بسبب ارتفاع نسبة الأمية وانتشار نفوذ التلفزيون الملاحظ .

واذا كان المثل الأمريكي السابق في اثارة الجمهور لمشاهدة التلفزيون ، قد عبر عن فترة زمنية سابقة توالت بعدها الأحداث ليستحوذ التلفزيون على اهتمامات الجمهور ، خاصةً بعد توسيع الشبكات التلفزيونية عبر الأقمار الصناعية ، فان هناك أمثلة أخرى كثيرة أثبتت قدرة التلفزيون في مواصلة وظائفه في هذا المضمار ببث الأحداث مدعمة بأدلة مرئية مثيرة في الوقت الحاضر ، منها مثلاً ، حرب الخليج والحرب الأهلية في يوغسلافيا السابقة ، والفيضانات والزلازل التي تحدث في أماكن متفرقة من العالم . كل هذه الوقائع وغيرها بتجسيدها المرئي تجتاز تلك العقبات التي وقفت أمام وسائل الاعلام الأخرى ، ولاسيما تلك المتعلقة باثبات الحقائق واقتناع المشاهد بما يعرض أمامه من أخبار . فحالة الشك هنا تخسر أمام مشاهدة تفاصيل الأنباء كما هي في الواقع ، لصالح نسبة التقبل بيقين واضح ، لأمكانية حدوثها بذلك الشكل وتلك الصورة ، اضافة الى مالاحظه الباحثون الى أن الجمهور يمكنه أن يشاهد على الطبيعة صوراً واقعية لحياة الشعوب الأخرى ، وللنشاطات السياسية المختلفة ، بدلاً من أن تكون الصورة الموجودة في ادراكه هي الأنماط الجاهزة الجامدة Stereo Types عن الآخرين . ولقد أصبحت المعاني الحقيقية لمعسكرات أسرى الحرب ، والقنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما في نهاية الحرب العالمية الثانية ،

ولبطالة العمال الذين استغنت عنهم المصانع ، ولعمليات الغزو العسكري عبر الشواطئ، ولمناقشة زعماء الدول واجتماعاتهم ، وللعمليات الدقيقة الحساسة للعين أو في القلب ... الخ لقد أصبح لدى جمهور المشاهدين بهذا كله ادرك حسي وتصور مختلف لهذه الاشياء ، نظراً لأن الجمهور يراها بطريقة لم يسبق أن قدمتها وسيلة اخرى من وسائل الاعلام الجماهرية . فقد تنقل الصحيفة إليه ذلك ، ولكنه سوف لا يصدق – احياناً – ماتكتب له الصحيفة ، كما ان إدراكه الحسي لما في الصحيفة سوف لا يصل الى مستوى هذا الادراك الحسي الأكثر واقعية حين يشاهد الشاشة الصغيرة ... أي ان المجتمع يستطيع ان يشكل نوعية جديدة من المواطنين في الحياة الاجتماعية ، بالاستعانة بما يقدمه التلفزيون من الحقائق والوقائع والمعلومات[١١].

وتلعب الصورة في نشرة الاخبار أدوار شتى في التعبير عن الكلمات المكتوبة وفي التعبير الصوري الى جعل الحقائق ماثلة أمام الجمهور. فالتعبير اللفظي هنا يمكن ترجمته عن طريق المذيع الذي يتلو الخبر باسلوب بسيط ولغة مفهومة ينقل المشاهد الى موقع الحدث للتجول في ربوعه وفي زوايا مختلفة لا تعرفه فقط بطبيعة الواقعة ، بل وبمعلومات كثيرة لم يدرجها المذيع في الخبر ، فتأتي خارجه عن النص المكتوب، وهي تلك المتعلقة برسم لوحة متكاملة ، يظهر فيها الناس بملامحهم ، وردود أفعالهم ، وملابسهم ، وجزء من عاداتهم وسلوكياتهم ، واشكال المنازل ، والطرق والشوارع... الخ – وهذا التعبير أحياناً يلفت انتباه المشاهد بمستوى لا يقل أهمية عن الحادثة ذاتها. وتلعب كذلك الخرائط والكبشنات التوضيحية والصور الثابتة دوراً موازياً للفلم المستعرض في الشاشة لأهداف تفسير الظواهر المختلفة – وهذه جميعها تكون مَشَاهِدْ تمكن الجمهور من المعايشة الواقعية لمجريات الأحداث في شكل درامي . أو بحسب تعبير بعض النقاد بأن المشاهدون يفضلون نشرات التلفزيون نتيجة لاهتمامها بالسمات البصرية للوسيلة ما يسمى بمشاهد الحركة Action Scenes ، التي تؤدي بالضرورة الى تركيز الاهتمام على الشكل المباشر للحدث ، وتجاهل مايعنيه والنتائج المترتبة عليه. ويذكر احد الرؤساء السابقين لشبكة التلفزيون الامريكية (CBS) أن التلفزيون وسيلة درامية Television is drama ، وأن ما ينطبق على الكل ، ينطبق على الجزء أيضاً. فنشرات الاخبار بدورها دراما[١٢]. وعندما يتوازن التعبير اللفظي والصوري في التوثيق الاخباري ، يبدو جلياً أن الشكوك تبتعد عن الكوادر المصورة في الغالب ، باعتبارها تعبر عن نفسها ، وقد لاتحتاج بعضها الى تعليق . أما التعبير اللفظي فيقوده الصحفيون الذين يصفون الأحداث ،

ويفسرون محتوياتها ، في الاتجاه الذي يحاولون من خلاله ايهام المستقبل بصحة المعلومات الواردة ظمن اللوحة المصورة ، أو بعبارة أخرى فان طبيعة التلفزيون بتعبيره الصوري يجسد الكثير من الوقائع التي تنقلها الكاميرا كما هو موضح بالكادر بشكله الآني ، الا أن ضرورة الواقع ، وملابسات الأحداث لاتوضحها الكاميرا ، فيأتي دور الصحفي (المراسل) ليتولى شرح انطلاقة الحدث ، ويفسر عملية حدوثه ، ويبين طبيعة الموقف وأبعاده ، وحقائقه الموضوعية ، ويقترح الرأي اذا اقتضى الأمر ذلك[١٣]. والنظرة العامة لعملية الشك واليقين هنا تميل نحو المصداقية في حالة تثبيت الأقوال بالصور ، وخاصةً عندما لاتتناقض معها ، أو على الأقل وجود بعض الوثائق الدالة على حديث الصحفي ، تمكنه من انتزاع مصداقية الحكم على الموضوع المتناول ، حتى وان استطاع تلوين الخبر والتعليق عليه كما يريد .. الا أن هناك نسبة من اليقين يشير اليها التعبير الصوري ، الذي يبقى على الدوام الورقة الرابحة المساعدة في قبول المشاهد للتعبير اللفظي المكمل له . وعلى هذا الأساس تتبلور البرامج الاخبارية بشكل عام في اتجاه توثيق المعلومات بالصورة الجادة والواقعية ، لتتناسب مع ضرورة اقناع المشاهد بوقوعها .

أما البرامج الفنية الأخرى فهي تتجاوز هذا الفهم التوثيقي في أسلوب العرض ، حيث يظهر المجال واسعاً لتدعيم النصوص بالكوادر المصورة الحية لأهداف مختلفة في اطار التثقيف والتعليم والترفيه ، وما شابه ذلك . وهنا يجد القائمون على هذه البرامج امكانية كبيرة في تلبية احتياجات المشاهد من المواد المصورة المعبرة ، التي تتفاوت فيها نسب الشك واليقين ، بناءاً على طبيعتها وعلم المشاهد المسبق بذلك .

ففي البرامج الاجتماعية والتثقيفية والتعليمية بشكل عام يتطلع المشاهد الى متابعة المادة بهدف توضيح الفكرة ، ولايهتم هنا بالغوص في حقيقة مدلولاتها ، الا بالقدر الذي لايتناقض مع جوهر الموضوع ، ولكنه يعرف مغزى أسلوب العرض مسبقاً ، سواء بطريقة التمثيل أو استخدام الوسائل السمعبصرية المعبرة ، أو باجراء التجارب العلمية ..الخ فهنا تظهر ملامح المادة على أساس توضيحي بمعنى أن حالة الشك واليقين لاتدخل في المعيار الوثائقي المتكامل ، كما في البرامج الاخبارية التي سبق ذكرها ، بقدر ماتكتفي من توسيع التفسير المرئي لتفحص أهمية وطبيعة الفكرة. وكذلك الحال فيما يتعلق ببرامج الأطفال وبقية البرامج ، حيث يولي القائمون على هذه البرامج ، الاهتمام بضرورة تعميم الحقائق الصورية المعبرة باستخدام أساليب

التمثيل والخدع السينمائية ، والارتكاز الى الأرشفة والتصوير الآنـي ، لتوضيح معالم المادة بأقصى قدر ممكن من المصداقية .

ودخولاً في بعض تفاصيل أهم الطرق المتبعة في بلورة الفكرة لهذا اللون من البرامج صوتاً وصورة لكسب ثقة المستقبل في تقبل المحتوى العام ، يمكن الاشارة الى التصنيفات التالية :-

أولاً - البرامج التي تحتاج الى الصورة الوثائقية بمزجها مع التعبير المرئي بكل أشكاله :-

ويدخل في هذا الاطار البرامج الاجتماعية والشبابية والتعليمية ، وهنا يتم التعامل مع المشاهد على أساس تناول جوانب المادة بموضوعية وبتغطية صورية كاملة ، سواء باستخدام الكبشنات والمواد السمعبصرية ، أو بتصوير الوقائع والاستعانة بالصور الثابتة والخرائط ، أو اللجوء الى الأرشفة التلفزيونية في حالة وجود تعبير صوري متلائم مع المادة المستهدفة . والوثائق هنا بكل أنواعها تلعب دوراً معرفياً ارشادياً أو تثقيفياً ، ولذلك فان سبل اثبات حقائق الموضوع وأبعاده وأهميته وتطبيقاته العملية لاتجد عائقاً في معظم الأحوال ، باعتبار أن الصحفيين التلفزيونيين، القادرين على استيعاب الوضعية الاجتماعية بسلوكياتها وعاداتها وتقاليدها ، ومستوى الوعي العام ، وأنماط التعامل اليومي بين الناس ، يتمكنون من الخوض في تفاصيل فكرة البرامج في هذا الاطار ، مدعوماً بتعبير صوري مناسب . والمشاهد بدوره لن يحاول التدقيق في تفاصيل جزئيات مصداقية الأحداث ، طالما والفكرة العامة للموضوع قريبة من مفاهيمه ، ومتناولة في صورة لاتميل الى الشك في حقيقة وجودها . فمثلاً : تعمق برامج الأسرة ، والبرامج التنموية والزراعية والدينية في انعكاس وصفية الحالة التي يبحثها معدو البرامج في تلك القضايا الاجتماعية الهامة ، كحالات غلاء المهور ، والمنجزات الصناعية ، وتوعية المزارعين حول السبل التي تتطلب الاهتمام بالزراعة ...الخ - ستجعل من المشاهد متابعاً للبرامج ليس كأخبار يومية طازجة يجب التحري من حدوثها في شكل مصور ، بل كبرنامج اجتماعي أو ترفيهي بلوحة مرئية ، يثير الاهتمام في جوانب المعالجة الواقعية لطبيعة المجتمع ، ونشر المعرفة . الى جانب أن قدرة معدي ومخرجي هذا النوع من البرامج في حسن تناوله الموضوع باسلوب استعراضي ممتع ومن مختلف جوانبه ، ودراسته بطريقة مقنعة وواقعية ، ووضع الحلول الممكنة في تخطي الصعاب التي تعترض مساره ، ستضيف الى البرامج ثقة المشاهد لتقبله بيقين واضح .

ثانياً- البرامج التي تحتاج الى التعبير المرئي المدعم بالرسوم المتحركة وأسلوب التمثيل والخدع السينمائية :-

ويشمل هذا الجانب برامج الأطفال والفقرات التمثيلية ، وبعض أجزاء الأفلام العلمية والتعليمية . والتعبير المرئي هنا لايهدف في الأساس الى اقناع المشاهد بمصداقية الأحداث فقط ، بل يقربه من معايشة الوقائع ، باستخدام الوسائل الممكنة للتوعية والتثقيف . فبرامج الأطفال مثلاً بقدر مايضع القائمون عليها نصب أعينهم هدف التربية ، الا أن تنفيذها السمعبصري يطرق أكثر من باب ترفيهي ، ولذلك يتطلب توصيل الفكرة لهذا النوع من المشاهدين مسايرة سنهم ، وتناولة الموضوع باسلوب استعراضي يقترب من مفاهيمهم نحو المجتمع والحياة والواقع والخيال . ومن هذا المنطلق فان حالة الشك واليقين في التعبير اللفظي والصوري تستند الى نوع جديد من المصداقية ، وهو الحركة المستمرة ومعاشرة مايحيط بالأطفال من أشياء وحيوانات وأحداث ، بغض النظر عن تفحص ادراك الواقع ، لأن الخبرة الحياتية للمشاهد الصغير ، لم تبدأ الا بالقدر اليسير لاستيعاب كل الوقائع للحكم عليه ، فعندما تتحدث الطيور ، ويحتدم الصراع بين الخير والشر في أوساط الحيوانات والبشر ، لينتصر الخير في النهاية .. الخ هذه كلها أحداث مثيرة للطفل يتعرف عليها ويتأثر بها ، ولكن مع تقدم الأطفال في السن تبدأ وجهات نظرهم تتفحص مصداقية الواقع ، كي لايقعون في حبال الشك والمغامرات الزائفة . وعادة مايضع القائمون على هذه البرامج نصب أعينهم الفئات العمرية في تحديد هدف الموضوع ومعالجة الفكرة . وفي كل الأحوال ، فان الرسوم المتحركة والخدع السينمائية والتمثيليات التي يقوم بأدوارها الصغار والكبار ، تبقى مرتكزاً اساسياً للتعبير الصوري ، الذي يدرك الجميع أنها تحاول تقريب وجهات النظر حول أساليب التربية الصحيحة وترفيه الأطفال ، وبالتالي فان مستوى حالة الشك واليقين في مصداقية ما يقدم والاقتناع بالطريقة الاستعراضية ، لايمتلك المشاهدون ازائها سوى مايؤكد القدرة من عدمها في استيعاب الموضوع ومعالجة الفكرة من الناحية الفنية ، التي تتمكن غالباً من احتراف استخدام الصور الكرتونية المعبرة ، والمواقف التمثيلية التي تعكس الأداء المتميز ، واستعمال الخدع السينمائية بما يدعم فكرة المادة ، بحيث تخدم تقبل الموضوع والاقتراب من واقعيته وليس التمادي في نسج الخيال .

أما الأفلام العلمية والفقرات التمثيلية الارشادية ، فهي توحي للمشاهد للوهلة الأولى بأنها تتحدث حول حقائق علمية وقضايا اجتماعية تتطلب الوقوف بجدية

أمامها ومعالجتها ونشر الوعي ازائها ، ولذلك فان المستقبل ، سواء كان مستوعباً جوهر الموضوع وأبعاده ، أم عرف بعمومياته فقط ، فهو ينتظر في كلتا الحالتين من هذا النوع من البرامج توضيح المادة والوقوف أمام حقائق وجودها بأي شكل مرئي سواء بتصوير المادة العلمية ، أو الاستعانة بالرسوم التوضيحية والفقرات التمثيلية في تجسيدها أمام المشاهد ، ليأتي التعبير اللفظي ليس فقط مطابقاً للتعبير المرئي ، بل ومتزامناً مع جوانب الموضوع وتناوله بموضوعية كاملة . وانطلاقاً من تجارب المشاهدين الحياتية والثقافية بالرغم من تفاوت مستويات ادراكهم للظواهر المستعرضة ، الا أنهم يستطيعون الحكم على مجريات الأحداث ، بناءاً على التعبير الاستعراضي وتفحص محتوياته سواء بالاقتناع الكامل أو بالتشكيك حول الموضوع بصورة عامة أو بعض أجزائه . وهذه البرامج شديدة الحساسية في الاختيار والمتابعة في البحث ، فهي تحتاج الى قدرة حرفية عالية في اعداد المادة وتصويرها والعثور على الوثائق المرئية والاستعانة بأسلوب التمثيل في معايشتها ، ليتمكن معدو هذه البرامج من تقليص نسبة الشكوك التي قد تعترض استقبالها ، مؤكدين قبولها بيقين عن طريق اختيار سبل الاعداد ويعرض الأفضل .

ثالثاً :- برامج الدعاية والاعلانات التجارية :-

أما هذا النوع من البرامج فيعرف المشاهدون مسبقاً أن الغرض من اذاعتها هو الترويج لأفكار معينة ، أو لسلعة تجارية محدودة ، يحاول معدوها استخدام التقنيات الفنية المختلفة لأذاعتها في شكل جذاب . وهنا تلعب دوراً كبيراً خلفية المشاهد حول المادة المستعرضة وايمانه المسبق بجوهرها ، أو بعبارة أخرى فان الاستعداد الفكري للمشاهد سيحدد مستوى تقبلها من الجانب الفكري . أما الجانب السلعي، فبالرغم من محاولة المعلن انتاجها في شكل مرئي جذاب ، الا أن المشاهد يساوره الشك في جودتها ، وبالتالي تتحكم في الغالب التجارب الشخصية في الحكم على المادة المعلنة . ومع هذا لايخلو التعبير المرئي في التلفزيون من أية تأثير في الترويج للسلع المختلفة التي تدر أرباحاً كبيرة على أصحابها ، ولذلك يرى بعض الباحثين أن تأثير التلفزيون يمكن ملاحظته على العادات الشرائية للجمهور .. ومن المؤكد أن المعلنين مرتاحون الى ماينفقونه على الاعلانات من أموال طائلة ، نظراً لما ينتج منها من زيادة في المبيعات والخدمات[١٤]. وتبقى حالة الشك واليقين في هذه الفقرات غير قابلة للتحكم ، وذلك لدغدغتها العواطف في شكلها الاستعراضي الممتاز لأعلان قبولها . ومع ذلك طالما والهدف الأساسي قد أدركه المشاهد ، فان أسلوب عرضها

الجذاب قد يتقبله المستقبل ، أما المحتوى فقد يتخلله الشكوك ، وقد يلقى الاستحسان والاقتناع لدى البعض .

وبقى الاشارة الى تلك الثوابت التي تضع حالة الشك واليقين في كفتي الميزان ، والمتمثلة في تطابق النص اللفظي والصوري للبرامج المختلفة بكل أنواعها ، بحيث لاتتناقض الصورة مع المعلومات المنطوقة في أي فقرة ، بل تبقى على الدوام مفسرة لخبايا الأمور بناءاً على التعبير المرئي المستعرض . الى جانب أن الذات في عملية تقديم المادة تدعم المصداقية في الحديث اللفظي والصوري ، ولاسيما تلك التي تعود عليها المشاهد في تقصي الحقائق وحسن القائها ، وبساطة معاشرتها مع الواقع - وهذه مجتمعة ترجح كفة الميزان نحو ايجاد حالة يقين ، وخلق ثقة المستقبل ازاء مايقدم له من مواد .

وتلعب المعالجة الفنية دوراً لايستهان به في اعداد المادة ، وخاصةً في تلك الجوانب المتصلة بعملية التوليف للقطات المصورة ، ومزج بعضها ، وتداخلها وجودتها ..وماشابه ذلك ، باعتبار أن هذه المعالجة تقرب الهدف الرئيسي من التقاطها ، وتوازي النص اللفظي ، بالافصاح عن حقائق الأمور بصورة مقربة ومجسمة لجزئيات الأحداث ، بحيث تلعب دوراً تكاملياً في الصوت والصورة والحركة . وهنا لايخدم هذا الأسلوب اقناع المشاهد بما يحدث فقط ، بل ويوحي بالمعايشة الحقيقية لواقعها . الى جانب أن نباهة معدي ومقدمي البرامج ، وحسن ادراكهم ، ولباقتهم في الحديث ، وقدرتهم على الانتقال المنطقي بين الأفكار ، وتقديرهم للأمور بطريقة صحيحة ، تجعل من المستقبل أكثر ايماناً بما يرى أمامه من أحداث ، وتبقى حالة اليقين أكثر بروزاً من غيرها .

وهكذا تعتبر حالة الشك واليقين في التعبير اللفظي والصوري من الأمور الضرورية التي يجب أن تتخلل وظائف وسائل الاعلام المختلفة ، لكي تحقق أهداف وجودها في تقبل مستقبل الأخبار ، ومتابعة البرامج الاجتماعية والثقافية والتعليمية والترفيهية المختلفة . ولكن هذه الوسائل لاتستطيع أن تتعامل مع هذه المسألة الا بالقدر الذي يؤهلها لذلك ، بناءاً على ماتمتلك من امكانيات ، وما يستطيع الصحفيون من ترجمة قدراتهم الذاتية في بلورة الموضوع وتقديمه بشكل مرضي .

وتحاول الصحافة المكتوبة على الدوام تفسير الظواهر والأحداث والتعليق عليها بالكلمة المكتوبة ، والتدليل على الموضوع المستهدف بدلائل مختلفة قد لاتصل الى

مستوى التعبير اللفظي والصوري في وسائل الاعلام الأخرى ، ولذلك تسعى أحياناً الى عرض صورة ثابتة متعلقة بالموضوع ، لتساعد القارئ من التعرف أكثر على طبيعة الحدث . وبالرغم أن هذا التعبير المرئي يبقى مقيداً في شكل ثابت ، وبكمية محدودة من الصور ، ولكنه يقدم بعض الشواهد التي لاغنى عنها في ترك انطباع أولي وعام عن الأحداث .

وتشترك وسيلتي الاعلام المكتوبة والمسموعة في جوهر طريقة استعراض موادها ، فعندما تعتمد الأولى على الكلمة المكتوبة ، تستند الثانية على اللفظ المسموع ، لتعميم الكلمة الى كل الناس عن طريق حاسة السمع ، التي لاتحتاج الى القدرة على القراءة والكتابة . وهاتين الوسيلتين الاعلاميتين تحاولان دائماً رسم لوحة للأحداث من خلال الكلمات المقروءة والملفوظة ، ليحولها القارئ والمستمع الى صورة حية متحركة في خياله ، استناداً الى ما يمتلك من معلومات ، وثقافة ، وخلفيات حول الموضوع المتناول ، ولهذا فان حالة الشك تحتل الكثير من المواقع في هذا المضمار.

أما وسيلة الاعلام المرئية فقد أبعدت عن المستقبل هذا العناء ، بوضعها الأحداث أمام المشاهد ليستطلع طبيعتها كما هي في الواقع ، اضافة الى ماتقدمه من تعبير لفظي يشرح الحقائق بأبعادها المختلفة . وبهذا يقترب التلفزيون من ازالة حالة الشك بملامسة أرض الواقع وتصويره كدليل مرئي على صحة الأقوال ، ليترك الحكم للمشاهد ، الذي يستطيع تولي هذه المهمة ، بناءاً على ماتستعرضه الشاشة الصغيرة من دلائل واثباتات ، والتي غالباً ماتصل الى درجة اليقين ، اذا اتسمت بالموضوعية وعدم التناقض بين التعبير اللفظي والصوري ، وحنكة المقدم في بلورة الفكرة وتوصيلها باسلوب جذاب وممتع ، اضافة الى أن الكيفية الحرفية في معالجة المواضيع المختلفة من الناحية الفنية تلعب دوراً كبيراً في تقريب ملامح اليقين للتعبير اللفظي والصوري .

الهوامش

١- محمد أدهم . فن الخبر . دار الشعب. القاهرة .١٩٧٩ . ص٤٢.

٢- انظر مثلاً :

- عبدالقادر حاتم . الاعلام والدعاية . الأنجلو - المصرية . القاهرة . ١٩٧٢. ص١٠٦.
- يوسف مرزوق . فن الكتابة للاذاعة والتلفزيون. دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٨٨. ص ١٣٢.

٣- ابراهيم وهبي . الخبر الاذاعي . دار الفكر العربي . ١٩٨٥. ص٦٧.

٤- فتح الباب عبدالحليم . ابراهيم حفظ الله . وسائل التعليم والأعلام . عالم الكتب ١٩٧٦. ص٢٤١.

٥- كينجسون وكاوجيل ورالف ليفي. الاذاعة بالراديو والتلفزيون . ترجمة نبيل بدر . المؤسسة المصرية للتأليف ١٩٦٥. ص٤.

٦- دونالد ماكويني . فن الراديو . ترجمة صلاح عويس . في مجلة الفن الاذاعي. اتحاد الاذاعة والتلفزيون المصري . يناير ١٩٦٥.

٧- د. أ. بوريتسكي . الصحافة التلفزيونية . ترجمة ونشر اديب خضور . دمشق ١٩٩٠. ص٣٥.

٨- راجع :

- محمد عوض . التلفزيون جهاز اخباري . في مجلة الفن الاذاعي . اتحاد الاذاعة والتلفزيون المصري . العدد ١٠٨ يناير ١٩٨٦ . ص٨٨.
- د. أ. بوريتسكي . الصحافة التلفزيونية ، مرجع سابق . ص٢١.

٩-وارن ك. اجي. وآخرون . وسائل الاعلام . صحافة . اذاعة . تلفزيون . ترجمة ميشيل . مكتبة الوعي العربي . ١٩٨٤ . ص ٢٦٢، ٢٦٣.

١٠- منشور استبيان لآراء المشاهدين حول برامج التلفزيون اعدته مؤسسة الاذاعة والتلفزيون اليمنية للدورة البرامجية اكتوبر - ديسمبر ١٩٩٠. ص٥٩ (لم ينشر) .

١١- احمد بدر . الاتصال بالجماهير بين الاعلام والدعاية والتنمية . وكالة المطبوعات . الكويت . ١٩٨٢. ص١٣٣.

١٢- سعيد السيد . انتاج الاخبار في الراديو والتلفزيون . عالم الكتاب ١٩٨٨. ص١٩.

١٣- انظر بالتفصيل حول هذا الموضوع:

- احمد عقبات . التقرير الصحفي في البرامج التلفزيزنية . مجلة كلية الآداب. جامعة صنعاء . العدد (١٥) ١٩٩٣. ص٧٥-٧٦.

١٤- احمد بدر . الاتصال بالجماهير بين الاعلام والدعاية والتنمية . مرجع سابق . ص١٣٥.

السينما الأمريكية وأساليبها في المعالجات الفكرية والإجتماعية والثقافية
١٩٥٠ - ١٩٩٣ م

بقلم : الدكتور جبار العبيدي
أستاذ مشارك بقسم الإعلام

١- المدخل:

في البدء لا بد من الإشارة إلى أمر مهم ، كثيراً ما يغفله النقاد والمحللون والدارسون للسينما الأمريكية ، وهو أنها كوسيلة إتصال جماهيري على مستوى المجتمع الأمريكي ووسيلة اتصال شبه جماهيري فيما يتعلق بجمهورها خارج الولايات المتحدة إنما تستند في حركة إنتاجها كصناعة واختياراتها كفن وطروحاتها كمضمون ، وأساليبها في المعالجات لمختلف الموضوعات ، على ذات النظرية الإعلامية الإتصالية التي تتبعها بقية الوسائل الإعلامية والإتصالية المقروءة والمسموعة والمرئية ، وهي نظرية ليبرالية تزعم الحرية المطلقة واحترام حقوق الإنسان وذوقه وتوجهاته ، لكنها في حقيقتها تروج للقسوة والعنف والجريمة . بحجة التعبير الطبيعي والمشروع عن طبائع الإنسان والمجتمع . كما أن تلك النظرية تعد إنعاكساً مباشراً للمنهج السياسي الأمريكي الجمهوري والديمقراطي .

فكلا الحزبين يقولان بمبدأ عدم التدخل الحكومي في الكيفية التي تتحرك فيها وسائل الإعلام الأمريكي ، أو بطبيعة الرسالة وأدائها ومصادرها ومدخلاتها الفكرية والإجتماعية والثقافية ، غير أن الواقع التطبيقي يشير إلى غير ذلك ، وأن مبدأ عدم التدخل المباشر أو غير المباشر قد تمت إذابته بمبدأ أكثر عمومية .. ذلك هو مبدأ الإلتزام بالمصلحة الشعبية أو ما يطلق عليه أحياناً بمبدأ حماية مصالح المجتمع الأمريكي بكافة فئاته .. وهو المبدأ الذي تم إقراره في عام ١٩٣٤ م وتضمنته لائحة التعديل الدستوري الأول . وبطبيعة الأمر أن حماية مصالح المجتمع الأمريكي تقررها الحكومة الأمريكية والشركات الاقتصادية الكبرى التي تتحكم بدورات العجلة الاقتصادية والسياسية على حد سواء .

إذ أنه من خلال تلك الشركات و شبكاتها الاقتصادية والإنتاجية داخل الولايات وخارجها قد تم إنشاء المؤسسات الإعلامية الصحفية والإذاعية والتلفزيونية وإقامة الشركات السينمائية في عموم الولايات الأمريكية . فضلاً عن أن هذه المؤسسات لم تقبل لنفسها التخصص الواحد بل ذهبت لتوسع دوائر عملها الإعلامي والتجاري والصناعي . فمثلاً نجد أن شركة يونيفيرسال للإنتاج السينمائي تمتلك محطة للتلفزيون ودار للنشر والطباعة ، وشركة لأشرطة الفيديو ، وفروع للإنتاج الموسيقي والمنوعات . ويضعنا هذا المثل على بساطته في جوهر طبيعة توجهات الشركات المسئولة عن الإنتاج السينمائي وتأسيس مشرع هوليوود في مدينة لوس أنجلوس في ولاية كاليفورنيا .

٢- الخلفية التاريخية:

إن مقاطعة هوليوود التي تبعد بحدود ثلاثين ميلاً عن مركز مدينة لوس أنجلوس والتي وجد فيها أصحاب رؤوس الأموال موقعا متميزا لصناعة الفيلم تعتبر من أكبر المراكز في الإنتاج السينمائي العالمي . وخاصة وأن شركات هوليوود السينمائية تعتقد بأن الفيلم تجارةً قبل أن يكون فناً .. ونستدرك هنا بالقول أن السبب الرئيسي الذي دفع بعض الشركات للانتقال إلى هذه المقاطعة كان رغبة منها في التخلص من الاضطهاد والمضايقات الانتاجية التي مارستها الشركات الكبرى الانتاجية على مثيلاتها من الشركات السينمائية الأصغر من حيث الامكانيات الفنية والانتاج وتوفر رأس المال. وفي حينها قد تجاوز الاضطهاد حدوده الاقتصادية والمنافسة التجارية وتحول الى نوع من الصراعات الدموية وممارسة التصفيات الجسدية وخاصة في مركزي نيويورك ونيوجرسي . فكان العنف على أشده مما اضطر البعض على تعيين رجال الشرطة الخاصين بحماية دور السينما والاستديوهات ومرافقة اصحاب الشركات والمنتجين.

وهكذا في عام ١٩٠٩م بدأت هجرة الشركات الصغيرة الى ولاية كاليفورنيا وبالتحديد الجزء الجنوبي منها ، وتشييد الاستديوهات في مقاطعة هوليوود المتخصصة بالانتاج السينمائي . وفي عام ١٩١٣م اطلق النقاد تسمية سينما هوليوود على الافلام التي يتم انتاجها في تلك المقاطعة. ومن بين أهم الأسباب الأخرى التي رشحت هوليوود لتكون مركزاً مهما في الانتاج السينمائي ما يأتي:-

١- المناخ والطقس المناسب للانتاج والتصوير خلال جميع فصول السنة.

٢- التكافؤ الجغرافي للمنطقة ففيها السهول والوديان والتلال والجبال والمحيطات والأنهار والبحيرات والشواطىء.

٣- رخص أجور القوى العاملة حينئذ والمتكونة من المهاجرين في المنطقة.

٤- انخفاض حدة المنافسة التجارية في مجال صناعة الفلم.

من ذلك يتبين حجم الصرع والمنافسة بين الشركات السينمائية وأصحابها الأثرياء بأموالهم والأقوياء بنفوذهم السياسي والاقتصادي والاعلامي.

وفي المباحث القادمة سنسلط الضوء على كيفية انعكاس طبيعة ذلك الصراع على اساليب الانتاج السينمائي الأمريكي والمعالجات الفكرية والاجتماعية والثقافية خلال الفترة الممتدة من عام ١٩٥٠م وهو عام استقرار الانتاج السينمائي الأمريكي ولغاية عام ١٩٩٣م وبروز التيارات والاتجاهات المختلفة في الشكل والمضمون. ولعمل ذلك اهتدى الباحث بالمنهج الوصفي وبالتركيز على النماذج الأكثر شهرة وذلك وفقاً لما جاء في دليل الأفلام العالمية السنوي. وبناء على المشاهدات الفعلية لتلك النماذج السينمائية.

٣- الصراع والمنافسة :-

تاريخياً يجد الباحث أن الولايات المتحدة قد تشكلت وتطورت على اساس الصراع بين السكان الأصليين من الهنود الحمر والقوميات الأخرى القادمة من القارات الأخرى. وقد كبرت قاعدتها الاقتصادية من خلال وجود مبدأ المنافسة الحرة بين أطرافها الشمالية والجنوبية والانتقال الحر لرأس المال وحرية الانتاج والاستثمار.

وتبلور هذا الصراع في اتجاهات سياسية واقتصادية أخرى أخرج الولايات المتحدة من الظل الى النور ، ومن الخمول السياسي الى أن تصبح قوة كبرى بعد الحرب العالمية الثانية. وتحول ذلك الصراع من داخلي الى صراع خارجي وخاصة مع الاتحاد السوفيتي سابقاً ومجموعة أوربا الشرقية واستعار الحرب الباردة بين القوتين الكبريين ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. بل ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي على حد سواء صارا يبحثان عن مصالحهما في عموم العالم. غير ان الولايات المتحدة صارت تبحث عن تأمين خاص لما تسميه بمصالحها الحيوية في عموم العالم والوطن العربي في المقدمة منه نظراً لوجود الثروة النفطية.

ولضمان تهيئة الرأي العام العالمي وقبوله بهذا القادم الأمريكي الجديد فقد اهتمت الولايات المتحدة بتطوير إمكاناتها في مجال الاعلام والاتصال الجماهيري والدبلوماسي. ولكن الملفت للنظر أنها قد أعتنت بشكل خاص بالانتاج السينمائي وبادرت الى إغراء الكبار من المنتجين والمخرجين الأوربيين والروس وسحبهم للعمل في شركات هوليوود. وبذلك حدث مجال الاختراق الأول للأسواق الايطالية والبريطانية والألمانية. لأن الذي قبل العمل في هيولوود ، أقر بنفس الوقت مسألة التنافس مع زميله المنتج في بلاده الأصلية أو البلدان الأوربية المجاورة لبلده الأصلي ، للحصول على اكبر قدر ممكن من الربح والذي كلما كبر زادت فرص العمل لذلك المخرج أو المنتج. فضلاً عن أن المخرج الفرنسي أو الروسي الذي يعالج موضوعاً ما خاصاً ببلده الأصلي يستطيع الإتيان بأشياء تحرك الجمهور أفضل بكثير من زميله المخرج الأمريكي. وفي أتون ذلك الصراع وتلك المنافسة برزت الىالوجود السينمائي عدة أساليب واتجاهات في الإنتاج السينمائي الأمريكي وذلك منذ مطلع الخمسينات وحتى عام ١٩٩٣م[١].

٤- الأساليب والاتجاهات :-

من خلال مشاهدة الأفلام السينمائية الأمريكية قديمة الانتاج وحديثها يخرج الباحث بتصور مبني على الوصف التحليلي لعناصر الشكل ولمضامين الأفلام التي أخضعت للدراسة بالتقسيمات التالية:

أولاً : الأسلوب التخديري لخلق حالة ما يشبه الموقف المضاد الداخلي ، وهو أسلوب يتضح فيه التوجه المناسب لمزاج الجماهير ومراعاة حاجته في تقديم المشكلة الاجتاعية أو الفكرية ومناقشة معظم جوانبها بحرية وطلاقة وابداع في الاخراج والتقديم. والمخرج أو المنتج في عمله هذا يشبه من يجلب مريضاً الى غرفة العمليات الصغرى أو الكبرى ويزعم بأن المباضع وأدوات الجراحة قد نالت ذلك العضو الذي قد تم تعريضه للتخدير من اجل الاستئصال .. فالأمور التي تناقشها أفلام الأسلوب التخديري تنجح في ابرازالايحاء بالهجوم على السياسة الداخلية والاوضاع الاجتماعية والصعوبات الاقتصادية بالغة التعقيد والقضايا الفكرية والثقافية ، لكنها تفشل في تقديم الحلول السياسية بإطارها الفني وتترك النهايات مفتوحة للتفكير والاستنتاج . ومثل هذا الاسلوب قد تجدد عبر تاريخ الانتاج السينمائي الامريكي فمثلاً في فلم (احتكار القمح) الذي أخرجه جريفيت في عام ١٩٠٩م[٢] والذي أظهر

للمشاهد الأمريكي المضاربة في بورصة القمح والامتهان الذي أصاب الفلاح الامريكي والمواطن المستهلك على حد سواء. ظل كذلك دون مستوى تقديم الحل ودونما اثارة الجدل المطلوب لإيقاف مثل تلك الحالات فالمتحكم التاجر مستمر بسياسته الاقتصادية منذ ذلك الوقت وحتى الوقت الحاضر .. فالقمح الامريكي يرمى في مياه المحيط بدلاً من ذهابه الى ملايين الجياع في العالم ، أو حتى الى آلاف من يحتاجونه في الولايات المتحدة نفسها.

ولنبق مع جريفث في فلمه المشهور (مولد أمة) الذي قد أكمل اخراجه وانتاجه في أواخر عام ١٩١٩م والذي صور فيه الحرب الأهلية والعنف والاقتتال بين السود والبيض وتجارة الرقيق. وأكد فيه على سوء المعاملة التي يتلقاها الاسود الامريكي على يد بعض البيض ، واستغلال الأخير لقدرات الأول في مجال العمل والانتاج وتقديم الخدمات المجانية سوى ما يسد رمق الجوع.

ومن خلال المثالين الأول والثاني يلاحظ ان الاسلوب التخديري وخلق ما يشبه الموقف المضاد قد نجح في تحقيق غرضين أساسين[٣]:

أ- حصول قناعة لدى الرأي العام الامريكي بجدوى المناقشات الفنية على شاشة السينما والارتياح الشعوري المؤقت على مدى ساعتين أو أكثر أو أقل من المشاهدة.

ب- ظهور اتفاق نسبي لدى الرأي العام خارج الولايات المتحدة بالقدرات الفكرية والتقنية للسينما الامريكية والتي مكنتها فعلاً على مناقشة الموضوعات التي قد لا تسمح تلك البلدان بتناولها من قبل صانع الفلم المحلي ، وخاصة الموضوعات ذات الحساسية والمهمة جداً ، كالحرية الشخصية والفكرية والممارسات الديمقراطية والنقد السياسي للحكومات والعادات والتقاليد والتوجهات الدينية والقيم السائدة. وهذه نقطة تحتسب لطالح الفلم الامريكي الذي انتقل بسرعة لتلك الساحات المتعطشة لذلك النوع من الطروحات السياسية والثقافية والاجتماعية والفكرية.

والمدهش في الأمر ان الاسلوب التخديري قد تم تقبله من قبل الجمهور غير الامريكي (الاجنبي في داخل امريكا أو في البلدان المختلفة في العالم) وقد اكثر من طلباته على الافلام الامريكية بواسطة وكلاء الاستيراد المحليين . بينما حدثت فجوة مشهورة بين المتفرج الامريكي ودور السينما في مطلع الستينات والتي أدت الى اعلان إفلاس العديد من شركات الانتاج وإغلاق لدور السينما والمسارح. مما دفع المورد

الامريكي الى شراء الافلام الاجنبية وخاصة الانجليزية والايطالية والفرنسية والالمانية بهدف استقطاب الجمهور. الأمر الذي حدا بالناقد السينمائي الامريكي بوزلي كراوذر الذي كان يعمل لحساب جريدة نيويورك تايمز لأن يكتب في عام ١٩٩م " ان قائمة أفضل عشرة أفلام عرضت في الولايات المتحدة عام ١٩٩٦م[٤] اشتملت على ثلاثة أفلام أمريكية فقط وهي "الروس قادمون" و" من يخاف فرجينيا وولف" وفلم " رجل لكل الفصول" ، أما السبعة الأخرى فكانت أجنبية سويدية وايطالية وبريطانية .. وسبب ذلك الاقبال يعود الى ان معظم الافلام الأجنبية كانت تناقش موضوعات أكثر جاذبية وحيوية بالنسبة لقطاع الشباب المحروم من العمل وغير القادر على مواكبة الحياة الاستهلاكية الامريكية. ولغرض مواكبة هذه الحاجة سارع المخرج الامريكي مايك نيوكولس الى اخراج فيلم "الخريج ١٩٦٨" والذي ناقش فيه الانتماءات والعلاقات العائلية معتمداً في ذلك على الاستعراضات الغنائية والموسيقى الفلكلورية والتراثية والايقاعات الصوتية السريعة. وبذلك تتحول القضايا الجدية في المجتمع ... ة البطالة الى نوع من الهزل وعدم المبالاة وبطريقة أدت فعلاً الى ايهام الشباب ... خديرهم بحلول شكلية ودعوتهم الى العبث واللهو. وبهذا الصدد يشير بروفيسور فرانك بيفر مؤلف كتاب " الفلم : تاريخ الصورة المتحركة " ان السينما الأمريكية في السبعينات اتجهت الى الموسيقى والأفلام الاستعراضية الغنائية مبتدئة بسلسلة أفلام الروك الوثائقية التي اعتمدت عناصر الرقص والايقاع واللحن والغناء والموسيقى ، لأنها وجدت أن الشباب قد وجد نفسه في مثل تلك الأفلام . وأن فلم " الخريج " قد أخرج الفلم الأمريكي من حالة الخمول الى حالة الانطلاق والانقضاض على جمهوره من جديد وبأسلوب تقني متقدم، وجدل فكري واجتماعي غير مترابط من حيث التوجه الواقعي والمعالجات المنطقية لكنه يتواءم مع تلك المرحلة التي اتسمت بما يلي :

- ثبات السياسة الأمريكية الداخلية والخارجية تجاه مواطنيها وتجاه علاقاتها بالمجتمعات الأخرى الصديقة أو غير الصديقة ، وتجاهلها المطلق لكل الفعاليات المناوئة لتلك السياسة من قبل الأمريكان أنفسهم أو من قبل مواطني البلدان الأخرى.

- الجيشان الاجتماعي نتيجة التوجهات الأثنية الضيقة وترجمة ذلك عبر الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والأفلام الوثائقية القصيرة .

- التورط في الحرب الفيتنامية وفقدان الأمل السياسي حينها بتحقيق الانتصار أو الخروج منذ تلك الأزمة وما تلاها دونما خسائر اضافية في السياسة والعناصر البشرية والمادية .

- تفاعل الشباب الأمريكي مع معطيات المرحلة ولكن بطريقة سلبية تجسمت فيها المعارضة الحادة للقيم الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية وكسر قواعد المفاهيم السياسية والثقافية والفكرية والتمسك بالأشياء التي تعيد الانسان الى الطبيعة غير المنظمة أو غير الخاضعة لمنطق التنظيم التكنولوجي المعاصر ... فانتشرت نتيجة لتلك الأفلام السينمائية وأسلوبها الهروبي موضات اطلاق الشعر الطويل جداً ، وارتداء الملابس الرثة القذرة والتطرف في ممارسة الحرية الشخصية الى حد التلذذ في ممارسة الانتحار الجماعي أو الثنائي بين حبيبين أو صديقين ، وترك الرسائل القصيرة التي تعبر عن الشعور العميق بالقنوط والضياع والفشل وفقدان الأمل بجدوى الحياة واستمرارها .

- اللجوء الى ممارسة العلاقات الغرامية والجنسية الشاذة كرد فعل مباشر على سقوط القيم وتفكك المجتمع ونواته الأسرية ... وأفلام مثل " هذه أمريكا .. أمريكا " .. America Amreica و " مطعم أليس " Alic'es Restaurant لمخرجه " آثر بين " الذي ركز فيه على قضية تمرد الشباب الأمريكي في مدينة شيكاغو عام ١٩٧٦ .. وأفلام مثل " بوني وكلايد " و " الدم البارد " و " سائق التاكسي " لمارت سكورسن وبطولة " روبرت دي نورو " والذي تتوضح فيه العلاقات الانسانية بين ذلك السائق والمجتمع النيويوركي المكتظ بالمشكلات والصراعات والتنافس على ارتكاب الجرائم والاتجار بالممنوعات وغيرها من المرفوضات الاجتماعية والثقافية والفكرية[٥] .

وهكذا تبلور تشكيل الأسلوب التخديري منذ خمسينات هذا القرن وتطور في الستينات ليشتمل على الموسيقى والغناء والتفتيش عن الغرائب والاستثناءات ... وليتحول في السبعينات الى نوع من الهروبية أو ما سمي بالأسلوب التخديري الهروبي والذي أطلق عليه بعض النقاد تسمية أسلوب " جنار الهروبي " والذي يقوم على جعل المشاهد يشعر بأن ما يحدث أمامه على الشاشة هو لأعظم وأشد خطورة وأعنف وطأة مما هي عليه الحالة في الواقع اليومي المعاش .. فيقبل بواقعه ويرضى بظروفه .. وبضوء هذه النظرية الهروبية والاسقاطات الانفعالية عمدت هوليود الى الاسراع بانتاج سلسلة من الأفلام السينمائية ذات الطابع الهروبي كما في " روكي " و " روكي " و "

الانفصال " (١٩٧٩) ، وفلم " رجل المطر "[٦] في أوائل الثمانينات بطولة داتسن هوفمان .. والذي يبين للجمهور أنه حتى ذلك المتخلف عقلياً انما هو يفوق في قدراته العقلية والفكرية الانسان السوي .. فهو (أي المتخلف عقلياً) يتعامل بلغة الحاسوب ويتنبأ باللحظة القادمة .. وبالتالي فان الأسلوب التخديري قد جمع بين الواقع والخيال ليس بهدف تعميق الواقع وايجاد المعالجات لاختناقاته وانما فقط لاحداث نوع من المقارنة بين خيال الواقع الفعلي والواقع الممثل، وترك المشاهدة الذي استهلكه الواقع بالقول في حيرة ودوامة من التفكير الذي تنتصر فيه عناصر الهروبية والتشاؤم على عناصر التفاعلية والتفاعل مع معطيات الحياة بشيء من الحرص والجدية .

٥- السينما السوداء والأسلوب الأول :

لقد حاولت السينما السوداء ، نسبة الى منتجها ومخرجها المواطن الأمريكي الأسود أن تنهض من خلال الركام الذي تركته عليها العجلة الكبيرة لانتاج السينما البيضاء التي جعلت من الأمريكي الأسود موضوعاً للمزحة والتندر ومثاراً للضحك والمواقف المسلية ... فهو دائماً السارق والخارج عن القانون والجالب للعار والمتهور في المواقف المختلفة ... الا أن الأخوين الأمريكيين الشابين غويل وايتان كوهين استطاعا في عام ١٩٩٠م أي بعد مرور أكثر من ثلاثين سنة من استقرار الانتاج السينمائي الهوليودي ، من انتاج فلمهما الشهير بعنوان " بارتو فينل " الذي فاز بالسعفة الذهبية وجائزة الاخراج لمهرجان " كان " السينمائي الدولي . وهذا الثنائي السينمائي بحسب قول الصحفي العربي عبدالسلام خزار[٧] ، الثاني من نوعه بعد الأخوين الايطاليين باولو وفيتوريو تاخياني ، يمثل ظاهرة جديدة ومختلفة في السينما الأمريكية مع جيم جاروش والمخرج الأسود سبايك كي ، حيث يقدمون أنفسهم كخلفاء مبكرين لجيل ستيفن سبيليرغ .. وقد أدهشا الوسط السينمائي عام ١٩٨٢م بباكورتهما " دم بسيط " الذي قدما فيه فضاء كتابتهما السينمائية المؤلفة من عناصر الشاعرية والرعب من جهة والبلاغة البصرية والتمكن الابداعي من جهة ثانية[٨] . وقد أدهش بطل الفيلم " تورتورو " بارتون فينك المشاهدين بتماهيه مع هذا الدور الكافكاوي (كافكا) والبحث عن الذات ومحاولة الالتحاق بالمصادر الواقعية . وقد تقصد المخرج أن يجعل من فلمه مشوشاً بعض الشيء ليمتع المشاهد بشيء من

التفكير والتجوال مع بطل الفلم الضائع في بيئة غريبة شبه عدوانية ودون معرفة دقيقة بما سيقع له بعد حين من الوقت .

ثانياً : الأسلوب التشويهي المناهض للشعوب الأخرى :

لاشك أن السينما الأمريكية قد لعبت وتلعب دوراً مهماً لجهة تسليط الأضواء على المدارس الفكرية والاتجاهات الثقافية والاجتماعية الخاصة بشعوب العالم وقضاياه المختلفة . وقد اعتمدت كثيراً لتحقيق هذا الهدف على الدراسات والبحوث الخاصة وتحويل الأفكار الى سيناريوهات (نصوص سينمائية) محكمة الصنع وصالحة للانتاج السينمائي مع اجراء التحويرات المناسبة عند التنفيذ . وهي تعديلات توائم ، عادة سياسة الانتاج وأهدافها وأغراضها . ومن بين أهم الأساليب الفنية التي تطوعها هذه السينما من أجل خلق مايسمى بالانطباع الثاني الزائف المغاير للحقيقة الاجتماعية أو الثقافية والفكرية ، وبالتالي تسهم كثيراً في تشويه الصورة الخاصة بشعب من الشعوب نجد . الطعن في الرموز التاريخية ، واعادة ترتيب تشكل التاريخ، التشكيك في مصداقية الشعوب ، واثارة الضحك على الشخصية الاعتيادية[٩] ، وتصوير العدو غير المرئي والمتوقع ، والتطرف الديني ، والرغبة في الارهاب وسفك الدماء ، وحب المال والنساء ، وغيرها من الطرق الأخرى . وفي هذا المجال تبرز أهمية الاشارة الى علاقة السينما الأمريكية بالبطل السينمائي ولعبة الحرب في الثقافة الشعبية الأمريكية[١٠] . وبخصوص هذا الموضوع يقول " توم انلجهاردت .. " حاول أن تتصورني كطفل في السابعة من عمره في عام ١٩٥١م ، والولايات المتحدة الأمريكية متورطة في الحرب الآسيوية الثانية في القرن العشرين ، ضد عدو بالنسبة لطفل ، يشكل خاصب ، يبدو هذا العدو له ميزة خاصة .. ومن صور الجنود المتسخين التي تطالعني في الصمت كنت أدرك أن العدو مرعب . وبأي حال من الأحوال تستمر تلك المعارك في بلد بعيد أسمه " كوريا " . ولكن الانتصار الذي يحلم به وينتظره الأمريكيون لم يحصل[١١] ويستمر الباحث الأمريكي انجلهاردت على وصف الحالة بقوله .. ولكن ماهو مرعب جداً ، انني لم أكن أعرف بالضبط أن من يسمى بالشيوعية قد يكونون الروس أو الصينيين . ومع ذلك لم أكن خائفاً ، ولكني مؤرق ، لأني أعرف أنه ، هناك وفي مكان ما ، يوجد عدو ، ومن السهل جداً أن نتعرف عليه ثانية من اليابانيين أو النازيين ، أو ربما الهنود، ولكن طالما نحن مسلمون فليس لذلك أهمية كبرى ..." [١٢] .

وبعد التراجعات الكبيرة التي لحقت في الآلة العسكرية خلال حرب فيتنام تداعى " جون وين " و " ري كيلوج " بالاتفاق لاخراج فلم بعنوان The Green Berets والذي تناول البطولات الخارقة للقوات الأمريكية الخاصة في فيتنام ، مع التركيز على مواصفات حرب المرتزقة Guerilla Warfar ، ولكنه بطريقة كوميدية لتستخدم الفعل ونقيضه المسبب لاثارة الدهشة ومن ثم الاسترخاء المباشر باطلاق قهقهة طويلة. ولانجد سبباً لشرح أكثر ، فالفعل القويم محسوب لصالح البطل السينمائي الأمريكي ، وذلك الناقص الذميم من حصة الطرف الآخر الذي يفتقد عادة الى مواصفات البطولة وتجرده هوليوود حتى من صفاته الانسانية والبشرية الاعتيادية ، وبذلك يتحقق العنصر الأول من عناصر الأسلوب التشويهي ، الا وهو عنصر السلب الصوري لفعل الانسان المقابل والذي يؤدي بالمشاهد الى الاستمرار بالضحك واغفال جانب التحقق من الحدث أمامه بشخوصه وأفعاله . ومن خلال مشاهدة فام " عقول وقلوب " Hearts and Minds للمخرج بيرت شنايدر وبيتر ديفس نلاحظ تأكيد لعنصر آخر من عناصر الأسلوب التشويهي ذلك هو عنصر العاطفة والرحمة التي يمتلكها قلب البطل الهوليودي ويفتقر لها الطرف المقابل . وشريط مثل " صائد الغزلان " The Dear Hunter لمخرجه مايكل كيمينو دينيرو والممثلة جين فوندا يعيد الى الأذهان العنصر الثالث من عناصر الأسلوب التشويهي.. وهو عنصر البطولة السوبرمانية الفردية والقدرات الخارقة للجانب الهوليودي. وافتقاد الجانب الآخر لها، إن لم يكن جباناً أو حملاً وديعاً أما ذئب بارع في الهجوم والافتراس. وعنصر الانشطار الذهني تمثل في شريط كوبلا "سفر الرؤيا الآن " الذي هدف الى تخفيف شدة الكابوس المخيف والانهيار النفسي الذي اصاب الشخصية الامريكية في حرب فيتنام(١٣).

ولا غرابة في هذه الحالة من التشتت والتشويه ، أن يخرج المخرج الامريكي والكاتب العالمي إيليا كازان (من أصل يوناني) بالتصريح التالي : " إن السينما الامريكية لم تعد ملك أمريكا فقط بل هي ملك العالم كله. ولهذا لم تعد هناك السمات الخاصة بالسينما الامريكية وهي الصفة التي زادت منذ مأساة هيروشيما وتضخمت أثناء حرب فيتنام ، ثم الموقف الواضح من العرب نتيجة حروب الشرق الأوسط".

وبمشاهدة فلمي "الصليبيون" (١٩٣٥) لمخرجه سيسيل دي جيل ، وفلم "الملك ريتشارد والصليبيون" (١٩٥٤) لصانعه ديفيد بتلر ، يستطيع المرء أن يدرك عمق

تجني الأفلام الامريكية على الشعوب وغنستنيتها وتاريخها وحضارتها. فمثلاً في الشريط الذي قدمه بتلر ، يقرن فيه اسم ريتشارد قلب الأسد بالبطل العربي صلاح الدين الأيوبي .. والذي أظهره بتلر باحثاً عن الحسناوات ، مغروراً بنفسه ، ومحكوماً بنزاوته ، وانتهازياً بمواقفه. وعلى نفس النهج يقدم المخرج فرانكلين شافنر فلمه "باتون" (١٩٦٩)، ويظهر فيه انهيار اهل المغرب بالجنرال الأمريكي جورج باتون ومواقفه البطولية ضد الألمان في شمال أفريقيا (الأحداث في عام ١٩٤٣). لأنه شجاع ومقدام فإن المغاربة يقدمون النساء له ، بل ان النساء أنفسهن يتسابقن على تقديم الخدمات المختلفة لجنده. وجدير بالذكر أن عملية الانهيار البصري التي تركز عليها الافلام مثل (باتون) تقود بالتكرار المدروس الى تحقيق رموز ما يسمى ببطولة الاتصال التي يمثلها المشاهد بسلوكه بعد مرور فترة من الزمن. وتوجد عشرات الأفلام التي ركزت على تشويه صورة العرب والنضال الفلسطيني ، والموقف من السامية ، والاساءة الى الدين الاسلامي.

إن المسار الذي يركز على التشويه وخلق المواقف المضادة والمناهضة اعتمد ومن خلال تحليل العديد من الأفلام[١٤] ، على ما يأتي :

- جذب الانتباه.
- خلق الغرابة.
- اثارة الرغبة.
- تعميق الاقناع.
- التركيز على الاستجابة العاطفية .
- التشجيع على السلوك والتمثل والتمثيل لسلوك الممثلين في الشريط.
- التثبيت في الذاكرة.
- التركيز على الملخصات التاريخية والاجتماعية والدينية وكل ذلك يتم عبر ما يأتي :
  - تمجيد القوة والسيطرة على المواقف الصعبة والاستثنائية.
  - التدخل العسكري السريع.
  - التفوق العقلي .
  - المناورة السياسية وكسب المواقف.
  - التعبئة النفسية (ضد/مع).
  - الحرية المطلقة.

•• سيادة القانون والنظام.
•• العدو غير المرئي والمحتمل.

ثالثاً : المغامرة وأسلوب الصدمة:

إن السينما وعبر مسيرتها الطويلة ولمتطورة فنياً وتقنياً قد ابرزت العديد من اتجاهات الانتاج الهوليوودي مثل : "الأكشن" الذي يعتمد السرد المنحني والفعل ورد الفعل ، والكوميديا التي وصفت مواقف الشخصية وشخصية المواقف والميلودراما ، والرعب والاتيان بمصادر القلق والخوف والاحتماء بالآخر ، والعاطفي الرومانسي المنفتح على مديات من التفاؤل الوهمي أو نصاعة صورة الماضي لجهة انسان ما قبل الصناعة ، والبوليس ومطاردات الواقع بكياناته البشرية الانسانية ، أو الحيوانية ، الطبيعية والبيئية ، والتاريخ السياسي الذي يبشر بصناعة عالم جديد ، ونظام جديد وربما انسان جديد بوعيه ومفاهيمه وإدراكه ، والسيرة الذاتية التي "تحبب" النموذج الشخصاني الغربي و"تدين" أو "تشكك" بالنموذج خارج الانماط الغربية ، وأخيراً الانتاج المغامراتي بأسلوب الصدمة Shock (شوك) لصالح النموذج الغربي. وقد برز هذا الاسلوب الصادم للمتلقي بشكل خاص في نتاجات التسعينات وربما تركز في عام ١٩٩٢م حيث اتجهت هوليوود الى صناعة الافلام التي تقطف لها الارباح الكبيرة والسريعة والتي يصل معدلها السنوي العام الى أربعة ملايين دولار. فخرجت في عام ١٩٩٣م بانتاج فلم (سلاح قاتل -٣) الذي يقوم على المغامرة والعنف ونصب الفخاخ والمصائد والاحتماء باسياد الارض من الجنس الأبيض الغربي. وفلم (غريب-٢) الذي يصور للمشاهد الرحلة الى الفضاء ومواجهة بطل الفلم لوحوش المستقبل هناك في ذلك الفضاء ، وفيلم "البيض لا يحسنون القفز". وهو فلم رياضي مغامراتي يقوم على عنصري المفاجأة والمواقف الشخصية التي وبكلمات الناقد السينمائي محمد رضا ..." تدعو للضحك تارة والى اعتصار الدمعة تارة أخرى .." إن الصدمة التي يتعرض لها المتفرج لهذه الأفلام تجعله يعبر عن عظيم امتنانه اذا كان من مواطني القارة الامريكية فهو يعيش بحبوحة الأمن والأمان ، بينما يعينه الاحباط النفسي والخوف من المستقبل إذا كان من سكان خارج البلاد الأمريكية. وتتوجه أفلام المغامرات بأسلوبها الصادم أو الخالق للصدمة والثقافة الاجتماعية الى المشاهد العادي عديم الامكانية على النقد وتفسير المواقف وتحليل المضامين ، فتنقل هذه الأفلام الاشياء غير الواقعية[١٥] ، والتي تهدف الى افزاع الفرد باستخدام أسلوب

الصدمة و"الجيمسبوندية" – نسبة الى افلام جيمس بوند – وقد كتب حول هذه الظاهرة الناقد الفرنسي ألبر أستر الذي يشخص الجانب الأكبر من حقيقة النتاج الفلمي الهوليوودي لأنها وبحسب قول ألبر استر تفتش خلال عشرات السنوات عن نوع معين من الافلام يمكنها من استقطاب أكبر عدد ممكن من المشاهدين ، الذين يرتاحون للوضع الثقافي والاجتماعي والاقتصادي الغربي بشكل عام والأمريكي بشكل خاص. ونرى ما نشره الكاتب الأمريكي غيرمان كيستين في "مجلة السبت للآداب" في عام ١٩٤٦م وصفاً متميزاً للمرحلة التي ازدهرت فيها أفلام المغامرة المستندة على أسلوب الصدمة وللأهمية نقتبس النص .... " تقوم الثورات العظمى ، والحروب العالمية والأزمات الخانقة فوق أرض القارات ، يتزايد إفلاس العقل والأخلاق ، تنهض الشباح القديمة من قبور التاريخ ، الأبالسة ، الذين اعتبرناهم ميتين يقفزون على الأرض في ضوء النهار. تزدهر اللاعقلانية وحب القهر والانتصار على الآخرين ... بدت الحياة في القرن الثامن عشر انتصار للعقل ، وبدت من صنع الأفراد والأحرار والعقلاء. وبدت في القرن التاسع عشر تقدماً علمياً ناجحاً ، بدت حركة للسعادة الشاملة والأخوة. تحولت هذه الحياة في القرن العشرين الى كأس مر يشعر من يتناوله بالنعاس ، والى اسطورة غير رومانسية والى وحشة وفظاعة ..." ومن كلمات كيستين ندرك ان اتجاه انتاج الفلم المغامراتي لم يأت من فراغ بل اعتمد التفسير الفلسفي الذي يعبر عن اهتمامات القائمين على صناعة السينما في هوليوود. وافلام المغامرات والمفاجآت اعتمدت بالاضافة الى غرابة أو طرافة الموضوع غرابة الاسلوب والمعالجة واستقدام أفضل ما وصلت إليه التقنيات السينمائية .. والاستخدامات ، غرابة الموضوع ، وتقديم التقنيات يؤديان الى احداث صدمة ذهنية لجهة الموضوع وصدمة شكلية لصالح لغة الشكل السينمائي .. ولكنها وفي كل الأحوال صدمة قد يمتص تأثيرها المتفرج الغربي بفعل معايشته اليومية الى الواقع الصناعي والتقني ، غير انها صدمة تؤدي الى التغريب على مستوى المتفرج في عالم الجنوب الذي انهكته صدمات الغرب الفكرية والثقافية والاعلامية والسينمائية. أو كما قال مرة ميخائيل إنجلو أنتونيوني .... " تقدمت البشرية تقدماً كبيراً في مجال العلم والتقنية ، وصلت الى القمر ، وبقيت أخلاقها كما هي كانت عليه في عصر هوميروس"(١٦).

الاستنتاج :

التأثيرات الثقافية والاجتماعية والفكرية للفلم الأمريكي يمكن تلمسها من خلال واقع تدفق الأفلام السينمائية الى دول العالم. فنجد ان الحصة الأمريكية تصل الى ٨٨٪، علماً ان الهند واليابان يعتبران من أهم المراكز لإنتاج الأفلام الآسيوية ، بل من بين أهم المنتجين في العالم بالنسبة لعدد الأفلام ولكنها قلما تسجل حضوراً يتعدى الساحة الوطنية أو الأقليمية. وكرد فعل على هذا الواقع الانتاجي وتطور الانتاج السمعي والبصري على مستوى عالمي فقد برز توجه عالمي جديد نحو " توحيد الأدوات الثقافية وجعلها متجانسة على الصعيد العالمي من ذلك أن تفوق المسلسلات والأفلام التي تنتجها بلدان شمال القارة الأمريكية وسيطرتها على قسم كبير من مناطق المعمورة يقودان حتماً الى توحيد معايير الانتاج وجعله متجانساً"[١٧].

كما أن النجاح العالمي الذي سجلته الأفلام الأمريكية سواء منها الواقعية أو الخيالية والدرامية والميلودرامية ، والاتجاهات الانتاجية المختلف التي أشارت إليه هذه الدراسة ، يخشى منه تعميق ما يعرف بظاهرة " تأثير الانتاج السمعي البصري العابر للحدود " على ثقافات بقية شعوب العالم وانحلال الشخصيات الثقافية لتلك المناطق المتأثرة وتسطيح التقاليد الوطنية والأقليمية. كما أنه يخشى من انتشار القيم المادية وقيم حماية المستهلك وهو ما يتعارض مع القيم الأخلاقية والروحية للمجتمعات في العالم النامي وخاصة الاسلامية والعربية. ويقصد بـ "قيم المستهلك" التطلع المتزايد لأمتلاك الحاجيات الاستهلاكية والنجاح الفردي الضيق الذي يؤثر حتماً على القيم الجماعية التي ما زالت ترتكز عليها بعض المجتمعات التقليدية أو في طور التحول الاجتماعي. كما ان تصدير قيم العنف والمغامرات الفردية غير الواقعية والتي تؤدي الى تخدير المتفرج وربما رسم الصورة المثالية الوهمية لنماذج سلوكية غير مقبولة في المجتمعات الأخر . وبالتالي تنمية تذوق جماهيري لها وجعل الجمهور يميل شيئاً فشيئاً الى افلام تروج بالأسلوب التخديري وأسلوب خلق التناقضات وزرع الشكوك والتشويهات لرموز وشخصيات الشعوب الأخرى. فضلاً عن تمكن النتاج السينمائي الأمريكي من إغلاق بعض الأسواق، له الحه والتأثير السلبي على تسويق الفلم الوطني أو الأقليمي لبعض البلدان.

الخلاصة :

وخلاصة القول أن السينما الأمريكية وانتاجاتها الكبيرة والصغيرة ، وبأنماطها واساليبها المركبة والمتنوعة لا تنفك كونها جزءاً من النظرية الفكرية والاجتماعية والاقتصادية التي تقوم على المنافسة والسوق المفتوح والانتصار للقوة ورأس المال وبالتالي فإن الفلام الأمريكية قد سيطرت على بعض الأسواق العالمية. وقد اشارت قناة الـ سي.أن.أن. الى ان ٨٨٪ من عروض الأفلام خارج الولايات المتحدة هي أمريكية، وأنه في عام ١٩٩٣م شهد ما يصل نسبة ٥٢٪ من ايرادات صناعة الفلم العالمية هي لصالح الانتاج الامريكي. وفي مقابلة لبرنامج رؤية عالمية Global View الذي تقدمة قناة الـ سي.أن.أن. اشار المخرج السينمائي الايرلندي "نايل جوردن" الى المخاطر الثقافية والاجتماعية والفكرية التي يسببها الفلم الأمريكي على بلدان العالم لأنها تعتمد سياسة الاغراق الثقافي ، وتطرح اختلافات متعددة وبطعم ولون خاصين مما يكسبها شعبية وإقبالاً. فالسينما الأمريكية تهتم بالفلم التجاري ذي الصبغة السياسية أو الثقافية بينما على سبيل المثال تهتم السينما الأوربية بما يعرف بـ "سينما الفن " Art Cinema" والتي تركز على مفردات اللغة السينمائية الراقية والمتمثلة بنوع اللقطات المستخدمة واختيار حركات الكاميرا التي تعبر لذاتها عن جمالية محددوة وذوق فني متقدم باختيار المناظر والاكسسوارات والموسيقى والحوار. والجمهور ولأسباب عملية وموضوعية ، كونه يقضي معظم وقت نهاره في ميادين العمل والبحث عن الرزق ، ويميل الى الأفلام التي فيها حركة أكثر ، وإثارة أعظم ، وقهقهات أعلى ، وحبس للأنفاس أشد. والأفلام الأمريكية توفر هذا النوع من الطلبات بينما سينما الفن تميل الى خلق الحوارات الفكرية المتقدمة والمعادلات الثقافية والحضارية والتي قطعاً تحتاج الى حالة من المتابعة والتركيز يحاول المشاهد ان يتجنبها ويذهب الى الفلم الذي يساعده على الاسترخاء في مقعده. وهكذا أصبحت السينما الأمريكية ظاهرة عالمية ثقافية ، وظاهرة عالمية صناعية بينما تمر صناعة الفلم الأوربي ، وصناعة الفلم الهندي والياباني ، وصناعة الفلم العربي – لا سيما المصري- بأزمة حقيقية .. مما يدفع الباحث للتوصية بدراسة شاملة لأزمة الفلم بتلك البلدان والأخذ بأسلوب المقارنة مع الاتجاهات والأساليب التي سلكتها السينما الأمريكية.

الهوامش

١- لوي دي جانيتي ، فهم السينما ، ترجمة جعفر علي ، دار الرشيد للنشر ، بغداد ١٩٨١م، ص١٠٤.

٢- مشاهدة الفلم من قبل الباحث في قاعة عرض جامعة ميشجان / أن أربر ، ١٩٨٢م.

٣- محاضرة البرفسور Frank E. Beaver أستاذ الاعلام وصناعة السينما في جامعة ميشجان، أن أربر، ١٩٨١ ، غير منشورة.

٤- مجلة نيويورك تاميز ، العدد غير معروف ،عام ١٩٦٦ ... الأرشيف الخاص بالباحث.

٥- مشاهدة خاصة لأفلام " هذه أمريكا .. أمريكا" ، و"الدم البارد ، و "سائق التاكسي " ، فيديو ، صنعاء ١٩٩٤/٣م.

٦- مشاهدة الفلم من قبل الباحث عبى شريط فيديو بشهر ١٩٩٣/٥م في صنعاء ، وأخرى كانت في عام ١٩٨٩م ، تلفزيون بغداد.

٧- عبدالسلام بوخزار ، صحيفة الحياة اللندنية ، ١٩٩٤م.

٨- أنظر : Frank E. Bever ; Motion Picture History, New York, 1983.

أيضاً تمت مشاهدة الفلم لمرتين (سينما) و (فيديو) من قبل الباحث ، لوس أنجلوس، ١٩٨٠م ، وبغداد ١٩٨٨م ، وسجلت الملاحظات الفورية.

٩- صحيفة الحياة اللندتية ، ١٩٩٢م.

١٠-تم مشاهدة (١٥) شريطاً سينمائياً تغطي فترة انتاجها ، المجال الزمني لهذ الدراسة.

١١- توم انجلهارت "البطل السينمائي وليعة الحرب في الثقافة الشعبية الأمريكية" ترجمة سلمان الخالد ، في جريدة القدس العربي ، ١٩٩٣/١/٨م.

١٢-نفس المصدر السابق.

١٣- تمت مشاهدة فيلم The Dear Hunter لمرتين من قبل الباحث لوس انجلوس ، ١٩٨١م وبغداد ١٩٨٨م.

١٤- أنظر : Monaco, How to read a Film, Oxford, 1977.

١٥- محمد رضا (ناقد سينمائي) ، جريدة الحياة ١٩٩٢م.

أيضاً أنظر : آن.ن.كاراغانوف ، الفن السينمائي وصراع الأفكار ، ترجمة ممدوح أبو الدي ، دمشق ١٩٨٦م ، ص ٣٤-٣٦.

١٦- مجلة الفن السينمائي ، العدد (٣) ، موسكو ، ١٩٦٥.

١٧- برنامج " كلوبل فيو Globel View" محطة تلفزيون C.N.N. الأمريكية ١٩٩٤/١٠/٣٠م.

الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانيا على الكويت في القرن التاسع عشر
دراسة وثائقية في جذور الأزمة السياسية
(وجهة نظر بريطانية)

بقلم : الدكتور سعد ابو دية
الاستاذ المشارك في جامعة اليرموك

مقدمة عن نوعية الوثائق وأهمية الدراسة المنهجية:

صدرت عن وزارة الخارجية البريطانية مجموعة هامة من الوثائق التي عرفت بالمطبوعات السرية لوزارة الخارجية The Forgein Office Confidential print وهي مجموعة تقارير وبرقيات مكتومة هامة جداً عن منطقة معينة خلال فترة محددة من الزمن سبقت الحرب العالمية الأولى[1].

Dr. Robin bidwell, The Affairs of Kuwait Vol. 1 1896-1905 (London: Frank Cass,1971).

صدرت المجموعة الأولى عن الكويت خلال الفترة ١٨٩٦-١٩٠٦م.

وصدرت المجموعة الثانية عن الجزيرة العربية خلال الفترة ١٩٠٥-١٩٠٦م.

وصدرت المجموعة الثالثة عن الدولة العثمانية خلال الفترة ١٩٠٦-١٩١٣م.

وتهدف هذه الدراسة الى تحليل تلك الوثائق ومتابعة موضوع التنافس والصراع على الكويت من خلالها وبخاصة بعد اندلاع أزمة الحدود بين العراق والكويت يوم ١٩٩٠/٨/٢م علماً أن الباحثين لم يتطرقوا لهذه الوثائق بالرغم من أهميتها ولغاية الآن فان دراسة واحدة شاملة لهذه الوثائق لم تظهر بعد.

هذه الدراسة تتابع الوثائق وثيقة فوثيقة بشكل متسلسل لمتابعة التغلغل البريطاني في الكويت وتطور الاحداث والعلاقات الدولية وتوازن القوى في تلك المنطقة.

يركز البحث على التطور التاريخي للأحداث في الكويت من خلال الوثائق محللا الاحداث كلما دعت الضرورة لذلك مستفيداً من مصادر تاريخية أخرى علماً ان الدراسات الاخرى حول هذا الموضوع عديدة ولكنها لم تركز على هذه الفترة موضوع دراستنا مثلاً هناك الدراسات التالية:

• الدكتورة ميمونة خليفة الصباح ؛ علاقة الكويت الخارجية خلال القرن الثامن عشر، مجلة المؤرخ العربي ، اتحاد المؤرخين العرب (بغداد - اتحاد المؤرخين العرب عدد ٣٤ / ١٩٨٨) ، ص ٦٨-١٠٥.
• الدكتورة منيرة بنت عبدالله بن العرينان ؛ علاقات نجد بالقوى المجيطة ١٩٠٢-١٩١٤، رسالة دكتوراه - كلية الشريعة والدراسات الاسلامية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة ١٩٩٠ (الكويت : دار السلاسل ، ط١ ، ١٩٩٠).
• الدكتور احمد مصطفى ابو حاكمة ؛ تاريخ الكويت الحديث ١٧٥٠-١٩٦٥م ، ط١ (الكويت : دار السلاسل ١٩٨٤).
• الدكتور حسن علي الابراهيم ، الكويت دراسة سياسية (الكويت : دار البيان للنشر).
• الدكتور حسين خزعل ، تاريخ الكويت السياسي ، ج١ (بيروت) ١٩٦٢.
• عبدالعزيز الرشيد ، تاريخ الكويت ، بيروت ١٩٦١.
• خالد سعود الزيد ، الكويت في دليل الخليج ، جي ح. لرويمر ، ط١ ، الكويت ١٩٨١.
• سيف مرزوق الشملان ، من تاريخ الكويت ، القاهرة ١٩٥٩.
• نورية الصالح ، علاقات الكويت السياسية بشرق الجزيرة العربية والعراق العثماني (الكويت : بلا تاريخ).
• راشد الفرحان ، مختصر تاريخ الكويت وعلاقاته بالحكومة البريطانية والدول العربية، (القاهرة ١٩٦٠).
• الشيخ يوسف القناعي ، صفحات من تاريخ الكويت ، ط٢ ، دمشق ١٩٥٤.
• محمد خليفة النبهاني ، التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية في أثنى عشر جزءاً.
• الكويت وعلاقتها بعربستان والبصرة (١٨٩٦-١٩٥١م ، القاهرة ١٩٧١م).

وهناك دراسات اخرى يضيق المجال عن سردها. ليس الهدف استعراض الدراسات السابقة ولكن الاشارة الى ان تلك الدراسات تحدثت عن تاريخ الكويت بعامة او علاقاته بجيرانه خلال فترة محددة. وتتميز هذه الدراسة بأنها تركز على فترة محددة لا تتجاوز خمس سنوات معتمدة بالدرجة الأولى على الوثائق البريطانية. قام الباحث بتحليل هذه الوثائق الصادرة عام ١٩٧١ أي بعد صدور معظم الكتب والدراسات السابقة علماً ان الدراسات السابقة لم تركز على فترة الدراسة موضوع هذا

البحث. وعلى هذا الأساس فان أهمية هذه الدراسة تعود لتركيزها على فترة محددة من وجهة نظر الوثائق البريطانية فقط.

المجموعات :

تم تجميع هذه الوثائق في مجموعات صدرت اول مجموعة عام ١٩٠٠م وتقسم هذه المجموعات الى مجلدين يغطى كل مجلد فترة خمس السنوات. وتحلل هذه الدراسة وثائق المجلد الأول وفيه ٤٩٢ وثيقة. المجلد الأول : يتضمن عدة مجموعات:

المجموعة الأولى : تتضمن ١٣١ وثيقة وهي مراسلات بين مكتب الهند والمركز في لندن. تبدأ الوثيقة الأولى في تاريخ ١٨٩٦/٦/٣م وتنتهي في ١٨٩٩/١١/٢٣ أي ان هذه الوثائق تغطي فترة تمتد لثلاث سنوات. ولقد ركز الباحث على هذه المجموعة لأنها الأهم اذ غطت فترة طويلة تبلغ ثلاثة أعوام ، وشهدت الظروف التي أدت الى توقيع معاهدة الكويت مع بريطانيا.

المجموعة الثانية : غطت هذه المجموعة فترة بلغت عاماً واحداً فقط وهي ليست في أهمية المجموعة الأولى. وفيها ظهر الاهتمام الألماني بالكويت بهدف انشاء محطة سكة حديد . يبلغ عدد هذه الوثائق ٩٣ وثيقة.

المجموعة الثالثة : تمتد من بداية عام ١٩٠١ وحتى نهايته فهي تغطي عاماً واحداً فقط أيضاً وفيها مجموعة ضخمة من الوثائق بلغ عددها ٢٦٨ وثيقة وأبرز افكارها حماية شيخ الكويت وصراعه مع خصومه.

فكرة العلاقات البريطانية مع الكويت :

يظهر في الوثائق ان العلاقات البريطانية مع الكويت كانت غير ذات شأن قبيل الاحتلال الفارسي لمنطقة البصرة في الفترة ما بين ١٧٧٥-١٧٧٩م حيث ازدهرت الكويت بعد ان حولت شركة الهند الشرقية بريدها للكويت وعينت بريطانيا ممثلها هناك(٢).

وتشير الوثائق لمساعدة قدمها الشيخ مبارك لبريطانيا وذلك بالمساعدة ضد مجموعات كانت تهاجم السفن البريطانية وتنطلق من رأس الخيمة. تصف الوثائق هذه الجماعات بالقراصنة. بيد ان المقدمة لهذه الوثائق تشير ان هذا المصطلح تعتريه

شك وتستند المقدمة لكتابة احد المختصين بشؤون المنطقة (وهو لوريمر)[٣] وتشير مقدمة الوثائق لعلاقة آل الصباح مع الكويت وتروي روايتين هما :

الرواية الأولى : ان جماعة من عنزة رحلت شمالاً بعد موجة قحط في وسط الجزيرة وسكنت منطقة الكويت بعد ان استأذنت من والي البصرة حيث أرسلت له واحد من آل الصباح ونجح في مهمته.

الرواية الثانية : ان هذه الجماعة من عنزة قد تنازعت واختارت واحداً من آل الصباح ليحكم بينها ، ونجح الرجل في التحكيم وبعد ذلك طلبت منه البقاء بينها فبقي[٤] ولقد شرحت الوثائق العثمانية خط سير هذه الهجرة وأسبابها وتوضح ان العتوب وهم جماعة من عنزة هاجروا من وسط الجزيرة العربية في أواخر القرن السابع عشر الى قطر ومارسوا نشاطات بحرية هناك. كان شرق الجزيرة خاضعاً لبني خالد ومع مطلع القرن الثامن عشر سمح بنو خالد للعتوب بالهجرة للكويت[٥].

الوضع في منتصف عام ١٨٩٦م:

تبدأ الوثيقة الأولى بالتعريف بالكويت إذ لا يبدو ان وزارة الخارجية البريطانية تعرف شيئاً عن الكويت بطريقة مفصلة فأشارات الموظفين والرحالة الانجليز السابقة غير كافية. هناك اشارات من (بلي) الذي زار الكويت ١٨٦٣م واشارات من (بكنغهام) أيضاً[٦] وفي أول وثيقة بتاريخ ١٨٩٦/٦/٣٠م يعرف المستشار القانوني في مكتب الهند (ستافرديسSTAVRIDES) بالكويت وسكانها ويذكر ان عدد السكان هو ٥٠,٠٠٠ نسمة ن وتطعن مقدمة الوثائق بالرقم وتذكر ان لا يتجاوز ٢٥,٠٠٠ فقط ويعطي الرقمان فكرة عن عدد سكان الكويت ويتضمن تقرير (ستافرديس) مايلي :

١- ان الكويت ميناء قرب البصرة.

٢- يشتغل السكان بالصيد واستخراج اللؤلؤ ، ويتاجرون مع الهند بواسطة قوارب يصنعونها.

٣- العائلة الحاكمة من آل الصباح وهي تتبع للسلطة العثمانية التي تمنح الشيخ لقب باشا ورتبته قائم مقام .. تتألف العائلة من خمسة اخوة هم مبارك ومحمد وجراح وعبدالله (والصحيح انهم خمسة والخامس هو حمود وقتل في معركة الصريف).

٤- يشير التقرير لحادثة هامة جداً وهي قتل الشيخ مبارك لأخويه محمد وجراح لأنهما عارضا التحالف مع أمير قطر حاسم آل ثاني محمد بن آل رشيد (امير نجد) [٧]. ويشير التقرير ان هناك اشاعة بأن بريطانيا كانت وراء دفع (مبارك) لهذا التحالف الذي عارضه أخواه ، وتذكر الوثيقة علاقة المقيم البريطاني في بوشهر بالايحاء لمبارك بان يقوم بهذه المهمة[٨] ويمكن ان نستخلص النتائج التالية من تقرير ستافرديس:

١- ان الاهتمام البريطاني بلغ ذروته بالكويت بعد تزايد اهتمام ألمانيا بالكويت كي تكون المحطة النهائية في مشروع خط سكة الحديد الألماني الذي يربط بين برلين والبصرة وقد فاوض الألمان فعلاً شيخ الكويت وعرضوا عليه المال والحماية العسكرية وفي النهاية حصلوا على موافقة الباب العالي عام ١٩٠٣م.

٢- يظهر من تقرير (ستافرديس) ان وزارة الخارجية لم تكن تعرف شيئاً عن الكويت ولا شك ان ارسال هذه المعلومات ولوزارة الخارجية البريطانية في لندن يعطي مؤشراً ان مستوى الاهتمام بالكويت قد زاد[٩].

٣- يلاحظ ان الوثائق تعطي فكرة للحكومة البريطانية في لندن عن أحداث وقعت قبل عام ١٨٩٦م فهي لا تكتفي بالتعريف بالكويت ولكن تركز على حادثتين هامين:

أ- قتل الشيخ مبارك الصباح لأخويه محمد وجراح عام ١٨٩٥م وانتزاع الحكم ، لقد اغضب الحادث الدولة العثمانية فلم تمنح مبارك لقب قائمقام وكان التقليد المتبع ان يعين والي البصرة شيخ الكويت بعد ان يتم ابلاغ الولي عن الشاغر في المشيخة ثم يطلب من الوالي الشرعية بان يكون الشيخ احد أعوانه وكان الوالي يفوض الشيخ جباية الاعشار والرسوم والضرائب وتؤيد هذا الرأي الوثائق البريطانية التي تربط بين لقب قائمقام الذي كانت تمنحه السلطة العثمانية للوالي مقابل خضوعه التام.

غير ان السلطة العثمانية لم تمنح هذا اللقب للشيخ مبارك وبذلك فان الوالي لم يمنح الشرعية للشيخ فأضعف موقفه الشعبي[٩].

ب- الهجوم الذي وقع على سفينة بريطانية تابعة لحكومة الهند ومقتل أربعة عمال هنود عند مدخل شط العرب وفي استعراض الحادث اشارة ضمنية للسيادة العثمانية على الكويت[١٠].

وثائق عام ١٨٩٧م:

يظهر في وثائق شهر تموز وآب وأيلول وتشرين الأول من عام ١٨٩٧م ان الكويت استأثرت باهتمام وزارة الخارجية البريطانية ونشطت المراسلات بين وزارة الخارجية البريطانية وسفارة بريطانيا في اسطنبول[١١] والسبب في ذلك يعود الى مايلي:

١- رغبة بريطانيا في استجلاء قوة واهتمام السلطة العثمانية بالكويت وفي الوثائق اشارة ان السلطة العثمانية على الكويت موجودة ولكنها ضعيفة.

٢- ظهر الحذر البريطاني مع شيخ الكويت الجديد مبارك وتصرفت بريطانيا بمنتهى الحكمة خوفاً من ردود الفعل عند السلطة العثمانية وتشير الوثائق الى الاوضاع التالية:

عدم الاستقرار الداخلي في الكويت : ظهر تنافس بين شيخ الكويت مبارك وأولاد شقيقه المغدور سعود ومحمد اذ تشير الوثائق للتنافس بين مبارك وبين شقيقه (سعود) الذي تعهد بانه سيضع نفسه تحت الحماية البريطانية فيما لو وصل الى السلطة[١٢] وفي الوقت نفسه فقد طلب الشيخ مبارك الحماية البريطانية. بيد ان بريطانيا تصرفت بمنتهى الحذر والحكمة وقد وضح هذا الموقف اللورد هاملتون الوزير البريطاني المسؤول في حكومة الهند الخاضعة للسيطرة البريطانية وبين ان حكومته لا تطمح في التدخل في الكويت بأكثر ما تحتاج مصالح الحكومة البريطانية[١٣] لم تكن مطالب الشيخ مبارك من فراغ فقد كان في وضع سيء للغاية فقد ظهرت تهديدات داخلية وخارجية على هذا النحو:

أ- قدم (٥٠٠) مواطن من سكان الزبير في البصرة مضبطه لوالي البصرة رفضوا فيها حكم الشيخ مبارك .

ب- تعرضت الكويت لهجوم يوم ١٨٩٧/٦/٣٠م من قبل الشيخ يوسف ابراهيم وهو من دورا على شط العرب وأخواله من الصباح ولكنه على عداء مع مبارك وله طموح في حكم الكويت بدلاً من آل الصباح يساعده دعم السلطة العثمانية التي كان على صلة وثيقة به[١٤] وهناك تهديدات الشيخ قاسم آل الثاني في قطر جنوباً وهو أيضاً على صلة بالسلطة العثمانية.

الاستجابة العثمانية :

وسط تلك الظروف الداخلية في الكويت وعدم اعتراف الدولة العثمانية بسلطة الشيخ مبارك وتهديدات الشيخين يوسف ابراهيم من الشمال وجاسم آل ثاني من الجنوب فان بريطانيا وجدت فرصة انشغال السلطة العثمانية بالوضع في اليونان فأرسلت مركباً حربياً ليراقب الأوضاع في الكويت. كان الأنجليز يتوقعون الهجوم من الشخصين يوسف وجاسم يوم ١٨٩٧/١١/٦م فأرسلوا المركب الحربي يوم ١٨٩٧/١٠/٣٠م ، ولقد بين اللورد هاملتون (الوزير البريطاني المسؤول في حكومة الهند) ان الزورق لن يتدخل في شيء إلا إذا تعرضت مصالح بريطانيا للخطر[١٥].

ويدور تساؤل حول مدى صحة ما ورد في الوثائق بان الهجوم على الكويت كان سيتم يوم ١٨٩٧/١١/٦م من قبل الشيخين وهل منع ارسال المركب الحربي هذا الهجوم من الوقوع؟ لم تبين الوثائق هذه الناحية ولكن يمكن الاستنتاج ان ارسال المركب الحربي كان للاستطلاع من اجل السيطرة على الكويت. يعزز هذا التوجه في التحليل ان المقيم البريطاني في ميناء بوشهر على الخليج العربي الرائد ميد MEADE بين هذه الناحية بشكل واضح.

مزايا السيطرة على الكويت في تقرير ميد MEADE:

في ١٨٩٧/٩/٢٥م وضع المقيم البريطاني في بوشهر الرائد (مالكوم ميد) تقريراً تضمن نقاطاً مهمة لضرورة السيطرة على الكويت. وفيما يلي أبرز النقاط في التقرير[١٦]:

أولاً: أشار تقرير ميد الى زيارة قام بها مساعده (جاسكين) للشيخ مبارك. تم اللقاء على ظهر سفينة لورانس.

ثانياً: بين التقرير مزايا السيطرة على الكويت للأسباب التالية:

أ- أنها أفضل موانىء الخليج.

ب- أنها من الممكن ان تصبح المحطة الأخيرة على الخط الحديدي الممتد من بورسعيد وحتى الكويت ، وهذا يعطي لبريطانيا فرصة السيطرة على الخط الحديدي التي أرادت بريطانيا انشائه بين الكويت وبورسعيد.

ج- انهاء اعمال تجارة الرقيق (والقرصنة) ويلاحظ ان الوثائق تكرر عبارة القرصنة في حين الشيخ مبارك نفى ان يكون لجماعته دور فيها ، وانه يعاني منها.

د- تنشيط التجارة مع الاجزاء الداخلية في العراق.

ثالثاً: بين التقرير ان الشيخ مبارك في وضع صعب فالدولة العثمانية لا تعترف به كما انه ليس بآمن من جهة ابن أخيه أو من جهة الشيخ يوسف بن ابراهيم. ويظهر في التقرير ان الشخص الوحيد الذي يثق به الشيخ مبارك للوساطة والمصالحة مع الشيخ يوسف وابن أخيه هو الشيخ خليفة (حاكم البحرين).

رابعاً : بين تقرير المعتمد (ميد) ان الاتراك لم يمارسوا سيادتهم فعلياً على الكويت ولذلك فان (ميد) يحث على توقيع اتفاقية حماية مع الكويت على غرار الاتفاق مع حاكم البحرين.

خامساً : لم يلتزم (جاسكين) مساعد (ميد) بشيء لشيخ الكويت ، وكان قد تلقى تعليمات بعدم اجابة الشيخ مبارك على طلبه إذا طلب الحماية ولقد ترك (جاسكين) الامور غير واضحة كما هو الاسلوب البريطاني في عدم الالتزام والتنصل فيما بعد.

الظروف السياسية في أواخر عام ١٨٩٧م:

أخذت الأمور تتطور لغير صالح الشيخ مبارك واستطاع الانجليز ايجاد بدائل فاصبح أمام بريطانيا أكثر من بديل فمن جهة هناك الشيخ (مبارك) في ظروفه التفاوضية الصعبة وموقفه الصعب مع الدولة العثمانية وموقفه الحرج مع جيرانه وأولاد اخيه ومن جهة ثانية هناك (سعود) ابن الشيخ محمد وهو ابن شقيق الشيخ مبارك الذي يناصب الشيخ مبارك العداء ولم ينس مقتل والده على يد عمه مبارك.

لقد بدأ الانجليز الاتصال مع (سعود) عن طريق قنصلهم في البصرة في حين كانت اتصالات (مبارك) عن طريق المقيم البريطاني في بوشهر.

وهكذا أوجد الانجليز بديلين جاهزين واندفع كل طرف نحو بريطانيا ، مثلا قام (سعود) ابن شقيق مبارك بالاتصالات مع القنصل البريطاني في البصرة وبدأ في الوثائق شدة اندفاعه لطلب المساعدة من بريطانيا[١٧] وفي الوقت نفسه كان (مبارك) يريد المساعدة من بريطانيا فهناك اشاعات تتردد حول نية الشيخين جاسم آل ثاني والشيخ يوسف ابراهيم بالهجوم على الشيخ مبارك. والشيخ يوسف هو (خال) لسعود وعلى علاقة جيدة بالسلطة العثمانية وزاد في رجحان كفة خصوم مبارك غموض المستقبل بالنسبة للمبارك إزاء طلائع نفوذ دول كبرى مثل (روسيا) إذ ظهر رجال روس بصفة أطباء ، وقد اشغل أولائك الروس الانجليز ومبارك معاً إذ ان الوثائق ركزت على موضوع الروس ووصفتهم وهل هم أطباء فعلاً وماذا يريدون؟ [١٨].

ظل التركيز البيطاني على (مبارك) وبدا للانجليز أن وضع مبارك مطمئناً بالنسبة للأخطار السابقة وتشير الوثائق أن بامكان (مبارك) ان يصد هجوم الشيخين (جاسم آل ثاني) و(يوسف ابراهيم) فهو قادر على حشد ١٦,٠٠٠ مقاتل في حين ان الشيخين لا يستطيعان حشد اكثر من ٣,٠٠٠ مقاتل[١٩] والواقع ان مصدر هذه التقديرات والاحصاءات هو الشيخ (مبارك) الذي أبلغ (ميوبري) قائد الطراد (بجن) بذلك أثناء زيارته (لمبارك) يوم ١٨٩٧/١١/٦م وهو كما يلاحظ كان تاريخ اليوم المقرر لاعلان الهجوم من طرف الشيخين جاسم ويوسف يعزز هذا الرأي طلب (مبارك) حماية بريطانية من (ميوبري) قائد الطراد فاذا كان وضع (مبارك) آمناً فلماذا طلب الحماية وبخاصة أنه يتفوق على خصميه بمعدل خمس أمثال. يمكن ان يكون مؤشراً على عدم صدق تقديرات مبارك ولكن قد يكون السبب الأهم يرتبط ببريطانيا نفسها التي رأت الفرصة مواتية لتوقيع اتفاقية حماية مع (مبارك) كي يلتزم مع بريطانيا ويلاحظ في الوثائق اتهامات لمبارك بأنه على صلة جيدة بقائد القوات العثمانية في العراق (مشير باشا) وان مبارك استعان بالقوات العثمانية لمواجهة (جاسم آل ثاني). وفي هذا تناقض في الوثائق البريطانية فلماذا يستعين (مبارك) بالقوات العثمانية لمواجهة (جاسم آل ثاني) اذا كان قادراً على حشد ١٦,٠٠٠ مقاتل[١٩] .

وفي هذه الناحية يظهر تناقض في الوثائق وتختلف وجهة النظر (ميوبري) قائد الطراد (بجن) عن وجهة نظر المسؤولين الانجليز في بغداد أو استنبول وفي مراسلات القنصل البريطاني في بغداد مع السفير البريطاني في استنبول يظهر قلق بريطانيا من توجه قوات عثمانية الى الكويت وعندما سأل القنصل البريطاني في بغداد السفير البريطاني في استنبول عن سبب ارسال هذه القوات الى الكويت فان السفير أجابه بأن ذلك لتأديب بعض القبائل العربية الثائرة في الجنوب[٢٠].

اتخاذ القرار البيطاني بفرض الحماية على الكويت:

ترددت بريطانيا في فرض الحماية على الكويت وتجنبت مواجهة الدولة العثمانية لتسيير مصالحها وتحقيق أهدافها بإبعاد أي قوة أخرى عن منطقة الكويت وبخاصة الألمان والروس وفي الوقت نفسه فانها سايرت السلطة العثمانية وتذرعت بأهداف ظاهرية مثل تحرير المنطقة من تجارة الرقيق أو مساعدة الشيخ مبارك ....الخ.

وأصبح الهدف البريطاني يرتكز على اخضاع الكويت دون حماية بمعنى ان يكون التأثير البريطاني قوياً فيها وان يتم استبعاد التأثير العثماني. كانت هذه خطة (ميد)

المقيم البريطاني في بوشهر[٢١] التي استهدفت زيادة التأثير البريطاني في الكويت عن طريق الشيخ مبارك. ومع أواخر عام ١٨٩٨م حدث تغير في الوقف البريطاني وظهرت فكرة وضع الكويت تحت الحماية البريطانية تتبلور. وظهرت مصاعب تنفيذ هذه الفكرة ومنها:

١- ترك أمر تأسيس محمية بريطانية في الكويت لتقدير حكومة الهند فاذا استطاعت حكومة الهند ان تقوم بذلك بدون صعوبات مالية أو أعباء ادارية فلها ذلك.

هكذا ارتقى مستوى اتخاذ القرار بشأن السيطرة على الكويت. كان (ميد) يريد التأثير والسيطرة ولكن فيما بعد ترك الأمر لتقدير حكومة الهندية ووعد وزارة خارجية بريطانية لحكومة الهند بدعم خطوتها دبلوماسياً اذا ما قامت الهند بهذه الخطوة[٢٢] . وظهر توجه عند الحكومة البريطانية بضرورة ان تتم العملية بسرعة وسرية وأن تقديم رشوة الى شيخ الكويت (مبارك) لا تزيد عن ٥,٠٠٠ ليرة[٢٣] (يبدو ان هذا المبلغ تقرر دفعه في المرة الأولى دفعة واحدة وهذا بالعملة العثمانية الرائجة آنئذ وتؤخذ من واردات الحكومة الهندية).

٢- تعهدت بريطانيا بستخدام الجهود الدبلوماسية لمواجهة الحكومة العثمانية اذا أبدت اعتراضات على ذلك[٢٤]. وبالرغم من تردد (ميد) في توريط بريطانيا في هذه الاتفاقية مكتفياً بلتزام شيخ الكويت بعدم طلب حماية روسية[٢٥] فانه اقترح ان يقوم بزيارة الشيخ مبارك دون ضجة وان يدفع له ١٠٠٠ جنيهاً سنوياً مقابل الالتزام والسير حسب توجيهات بريطانيا ورأى ميد ان تكون الاتفاقية بينه وبين الشيخ مبارك على غرار الاتفاقية التي وقعتها بريطانيا مع شيوخ ساحل الصلح (الامارات العربية المتحدة عام ١٨٩٢م) [٢٦] وهي اتفاقية وقعتها بريطانيا مع شيوخ الشارقة ورأس الخيمة وأم القوين وعجمان وديي وأبو ظبي والفجيرة وبموجب تلك الاتفاقية فرضت بريطانيا حمايتها عل تلك المشيخات لمنع تغلغل فرنسا وروسيا وألمانيا والزمت بريطانيا المشايخ بعدم التنازل أو التصرف في أراضيهم دون العودة لبريطانيا[٢٨].

لقد اقترح (اللورد هاملتون) نموذجاً آخر هو النموذج الموقع في مسقط في ١٨٩١/٣/٢٠ بان يلتزم الشيخ ومن يجيء خلفاً له بالسير مع بريطانيا مقابل مبلغ سنوي تدفعه بريطانيا[٢٩].

ولدى مقارنة النموذجين يتبين لنا ان نموذج الاتفاقية بين مسقط وبريطانيا اكثر ألزاماً وفيها يتعهد سلطان مسقط (بانه يقطع عهداً ووعوداً على نفسه وعلى ورثته وخلفائه بانه لن يتنازل مطلقاً عن أراضي مسقط وعمان أو أية ملحقه من ملحقاتها. ولن يبيعها أو يقدمها رهناً أو يسمح باحتلالها بأية طريقة كانت إلا للحكومة البريطانية ويلاحظ ان الحكومة في الهند تركت الأمر بيد (ميد) ليذهب للمفاوضات مع شيخ الكويت ولكن الحكومة حذرته من المفاوضات مالم يكن الشيخ مبارك في خطر من هجوم تقوم به السلطة العثمانية أو أي واحد من خصوم مبارك مثل يوسف ابراهيم أو الشيخ جاسم آل ثاني أو سعود بن محمد وهو ابن أخيه لمبارك[٣٠].

توقيع الاتفاقية بين (ميد) ومبارك:

تم توقيع الاتفاقية بين (ميد) ومبارك بشكل سري يوم ١٣ شباط ١٨٩٩م في رسالة حكومة الهند الى اللورد هاملتون وزير الخارجية في حكومة الهند[٣١] ومن أبرز الملاحظات على الاتفاقية :

١- أنها وقعت يوم ١٨٩٩/١/٢٣م الموافق ١٠ رمضان ١٣١٦هـ.

٢- وقعت بشكل سري .

٣- في هذه الاتفاقية ألتزم (ميد) بتقديم المساعدة اذا احتاجها مبارك طالما أن (مبارك) ظل ملتزم بالاتفاقية.

ولقد أعطى (ميد) لمبارك ١٥٠٠ روبية علماً ان حكومة الهند ابلغت هاملتون في وقت سابق انها مستعدة لدفع أكثر من هذا المبلغ[٣٢] ولكن يبدو ان توقيت التوقيع وبراعة (ميد) أدتا دوراً في موافقة الشيخ مقابل مبلغ أقل.

٤- لم تشمل الاتفاقية املاك آل الصباح في الفاو والتي يصل ريعها الى ٦٠٠٠ جنيهاً سنوياً[٣٣]. ولقد أدى ذلك الى معارضة أشقاء (مبارك) للاتفاقية ولقد كانت أملاك آل الصباح في البصرة العمود الفقري لثروة آل الصباح وتزايدت الثروة[٣٤]. لم يبق موضوع الاتفاقية سرياً إذ وصلت الى مسامع

الدولة العثمانية وبدأت تنظر بعين الشك لمبارك وفيما بعد وافقت بريطانيا على حماية أملاك آل الصباح في البصرة والفاو[٣٥] .

توجهات السلطة في استنبول :

عين العثمانيون والياً جديداً على البصرة وشكل موضوع أعادة تعيين الوالي حمدي باشا على البصرة خطورة كبيرة على وضع الشيخ مبارك لأن حمدي باشا كان يساعد أبناء أخ الشيخ مبارك في السيطرة على أملاك آل الصباح في الفاو[٣٦] وظهر في الوثائق نية السلطة العثمانية ضرب الشيخ مبارك أما عن طريق حلفاء في المنطقة مثل الشيخ عبدالعزيز آل رشيد أمير نجد (تولى الحكم عام ١٨٩٧م) أو ضرب الشيخ مباشرة بواسطة القوات الحكومية[٣٧] . زاد القلق البريطاني ونشطت الدبلوماسية البريطانية وفي استنبول بذل السفير مساعيه الدبلوماسية في تخفيف الضغط على الكويت[٣٨] كما بذل القنصل البريطاني في البصرة (راتسلو) جهداً دبلوماسياً حتى اطمأن بأن الوالي حمدي باشا لن يجتاح الكويت[٣٩].

التوجه نحو ايران:

طلب مبارك الحماية من ايران واختلفت الوثائق في تحديد هذه الحادثة تذكر بعض الوثائق ان مبارك لم يكن يثق بفاعلية الحماية البريطانية ولذلك فهو طلب من شيخ المحمرة التوسط لدى الشاه لفرض الحماية على الكويت ولكن نائب قنصل بريطانيا في البصرة نفى هذه الرواية[٤٠].

ولقد زاد استياء (مبارك) من ارسال السلطة العثمانية مديراً للميناء في الكويت وأعلم الانجليز بانه لن يوافق على ذلك وانه يستطيع ان يرد الهجوم التركي البري ولكن هو بحاجة للمساعدة البحرية البريطانية إذا جاء الهجوم بحراً. ظهر ان الشيخ مبارك اعتمد على نفسه[٤١] وقدم رشوة كبيرة للفريق محسن باشا قائد القوات التركية في بغداد الذي حصل بينه وبين الوالي في البصرة خلاف بسبب ارسال مدير ميناء للكويت دون استشارة الشيخ مبارك[٤٢].

ويلاحظ ان لمبارك اسلوبه ومبادرته فهو قد اعتمد على نفسه في افساد ذمة (محسن باشا) قائد القوات العثمانية في بغداد وكسبه الى جانبه في صراعه مع والي البصرة فقد عاتب (محسن باشا) والي البصرة على ارسال مدير ميناء الكويت دون علم مبارك أو موافقته ولكن لماذا يسال الوالي في البصرة شيخ الكويت وهو لا يحتاج

لموافقته في ارسال مديراً للميناء في الكويت كما ان الوالي والسلطة العثمانية أرادت تقليص صلاحية مبارك في الكويت وجعل دوره ثانوياً كخطوة أولى على ما يبدو إذ ان ميناء الكويت هو المركز الاستراتيجي فماذا يبقى لشيخ الكويت اذا انتهت سيطرته على الميناء؟

المجموعة الثانية من الوثائق
١٨٩٩م - ١٩٠٠م

تتألف هذه المجموعة من ثلاث وتسعون وثيقة تبدأ الوثيقة الأولى برقم مسلسل (١) بتاريخ ١٨٩٩/١١/٣٠م وتنتهي بالوثيقة رقم (٩٣) بتاريخ ١٨٩٩/١٢/٢٨م.

أبرز الأفكار في الوثائق هي :

١- ظهور اهتمام ألمانيا بالكويت لأنشاء محطة سكة حديد. وقد سبب الاهتمام الألماني ذعراً عند الانجليز فهم يخافون أن تظهر منافسة ألمانية في الكويت ويخسرون موقعهم.

تعود خشية الأنجليز من المنافسة الألمانية الى ان الألمان على صلة مباشرة بالسلطان العثماني يأخذون ما يريدون دون العودة لشيخ الكويت. وفي الوقت نفسه زاد خوف الانجليز من تجدد الاهتمام العثماني بالكويت[٤٣].

٢- ظهور الصراع بين الحكام الاقليمين مثلاً حمدي باشا والي البصرة الذي قام بتحريض السلطة المركزية على شيخ الكويت فتصدى له السيد طالب النقيب ، وبذل جهوداً في استنبول لعزل حمدي باشا ونجح في ذلك[٤٤].

ويلاحظ ان شيخ الكويت كان قادراً على مواجهة والي البصرة بطرق مختلفة من غير الاعتماد على بريطانيا وذلك بتأليب آخرين عليه مثل محسن باشا أو غيره وقد نجح في زحزحة والي البصرة عن موقعه بدل من ان يحدث العكس وبغض النظر عن اصل المبادرات فيما اذا كانت بترتيب وتوجيه بريطاني لشيخ الكويت مبارك فانه قادراً على المناورة أما خصومه لفترة من الزمن لأن السلطة العثمانية لم تواجه التخطيط البريطاني بتخطيط مضاد.

٣- الصراع مع أمير نجد: ظل الشيخ مبارك يتفوق على خصومه بالسياسة تارة وبالرشاوى واستقطاب الآخرين تارة أخرى ونجح في ذلك نسبياً ، وأكتسب سمعة مهيبة لا بأس بها حتى واجه أمير نجد عبدالعزيز آل رشيد.

كانت بريطانيا تخشى من ان يقوم شيخ الكويت بمصادقة أو مواجهة هذا الأمير لأنه حليف للدولة العثمانية وخصم صعب المراس.

ويلاحظ ان مرحلة جديدة في تاريخ المنطقة قد بدأت ذلك ان الصراع قد بدأ بين تركيا وبريطانيا وذلك بدعم كل طرف لحليفه بان تدعم السلطة العثمانية الأمير عبدالعزيز آل رشيد لأسباب منها انه اقتدر على تهديد شيخ الكويت من الشيخ جاسم آل ثاني وهو أقرب فيستطيع ان يهاجم من جهة الغرب لأن له عمقاً استراتيجياً من جهة ومن جهة ثانية فان الامدادت تصل بطريقة مأمونة ودعت بريطانيا شيخ الكويت مبارك لمواجهة خصومه ، ولكنها كانت حذرة جداً فهي تخشى ان يتغير الوضع لغير صالحها في الكويت وفي المنطقة بعامة هذا الحذر ظل علامة بارزة في سياسة بريطانيا في المنطقة فبريطانيا ظلت أسيرة هذه التوجهات:

١- حماية شيخ الكويت من السلطة العثمانية وابن رشيد الذي كان في الحرب فارساً جباراً ولقد شبهه العثمانيون بعلي بن أبي طالب.

٢- عدم تدخل أي قوة أخرى مثل ألمانيا وروسيا في المنطقة.

المجموعة الثالثة

تتألف هذه المجموعة من ٢٦٨ وثيقة تبدأ برقم متسلسل (١) وموزعة على سنةواحدة فقط مما يعكس زخم الأحداث في هذه السنة إذ تبدأ الوثائق بتاريخ ١٩٠٠/١٢/٢٨ وتنتهي في ١٩٠١/١٢/٣١م بمعنى ان الوثائق موزعة توزيعاً مكثفاً خلال السنة الواحدة المليئة بالأحداث[٤٥].

أبرز الأفكار :

ظهرت في هذه الوثائق أفكار عديدة منها :

١- حماية شيخ الكويت :

ظل موضوع حماية الكويت هو الموضوع الرئيسي ويلاحظ في الوثائق ان شيخ الكويت ليس قوياً ليقف في وجه السلطة العثمانية وحده وان تأثيرها يتزايد تدريجياً عليه وفي الوقت نفسه فان بريطانيا تخشى ان تقدم مساعدة للشيخ في الكويت ضد ابن رشيد وذلك حتى لا تعطي مبرراً للسلطة العثمانية بالتدخل فتعقد الموقف[٤٦].

٢- قوة شيخ الكويت:

أسهمت الوثائق في تقدير قوة الشيخ مقارنة مع ابن رشيد . فتلاحظ ان تقدير الجانب الكويتي مبالغ فيه مثلاً المصادر الكويتية قدرت قوة للشيخ كما يلي :

عند شيخ الكويت ١٥,٠٠٠ فارس و ٤٠,٠٠٠ جمل في حين أن خصمه الأمير عبدالعزيز بن رشيد أمير نجد (آنئذ) لا يملك إلا ٢,٠٠٠ فارساً و ١٠,٠٠٠ جمل.

وتقدر المصادر من الجانب الكويتي أن الشيخ سعدون حليف شيخ الكويت يملك ٥,٠٠٠ فارس و ٢٠,٠٠٠ جمل.

وتبالغ الوثائق في اضعاف قوة ابن رشيد ونوعية قواته ، وانها من البدو الذين لا يحبونه وان نتيجة أية مواجهة هي لصالح الشيخ مبارك(٤٧). وتشير الوثائق نفسها الى ان قوة الشيخ مبارك مبالغ فيها(٤٨).

معركة الصريف:

اسهبت الوثائق أيضاً في الحديث عن الأحداث التي سبقت معركة الصريف وتطرقت لسير المعركة ونتائجها بإسهاب شديد.

يظل دور بريطانيا في اذكاء الصراع بين شيخ الكويت وأمير نجد غير واضح تماماً، ولا توضح الوثائق طبيعة هذا الدور ، هناك مؤشرات تفيد بان بريطانيا كانت تخشى ان يتورط الشيخ مع أمير نجد ولكن الارقام السابقة المبالغ فيها اعطت الانجليز انطباعاً بان الشيخ سوف يهزم أمير نجد بكل بساطة ومع ذلك فان (كيمبل) حذر الشيخ من غزو نجد(٤٩).

بدأ القتال بين الشيخ والأمير في منطقة الصريف(٥٠) على بعد ١٠٠ ميل من حائل وعادت مبالغات الشيخ مبارك للظهرو وظهر في الوثائق مايلي:

١- ارسل مبارك لولده جابر في الكويت ان حائل تحت سيطرته.

٢- وقع كثير من القتلى من الطرفين دون استثناء(٥١).

كانت نتيجة معركة الصريف هزيمة مبارك شر هزيمة وقتل شقيقه حمود قائد القوات.

مبالغات الشيخ مبارك:

تشير الوثائق البريطانية الى ان الشيخ مبارك بالغ كثير قبل المعركة في تضخيم قواته[٥٢] والاستهانة بقوة ابن رشيد ولقد بالغ الشيخ بعد المعركة في تقييم النتائج وتحريف الحقائق وتذكر الوثائق بناء على تقديرات القوة عند بداية المعركة مايلي:

١- قوات ابن رشيد ٧٠٠٠ مقاتل .

٢- قوات الشيخ مبارك ٥٠٠٠ بقيادة شقيقه حمود.

٣- نتيجة المعركة ٣٢٠ قتيلاً من جماعة ابن رشيد.

ولم يصدق ذلك المقيم البريطاني في بوشهر[٥٣] والواقع ان ٦٠٪ من قوات مبارك أبيدت ولم ينج من رجال مبارك إلا الخيالة وقد تظاهر مبارك بالموت فقد ترك حزامه الذهبي في مكان المعركة وهرب ليخدع المطاردين فأشيع أنه قتل[٥٤] وفي رواية أخرى ان القتلى من جماعة مبارك ٢٠٠٠ قتيل[٥٥].

اهتزاز هيبة مبارك:

هزت معركة الصريف هيبة مبارك أمام الانجليز والاتراك وفكر الأتراك باستغلال الفرصة ضد مبارك عن طريق حلفائهم مثل ابن رشيد غير ان بريطانيا حذرته[٥٦] ومع ذلك ظل الشيخ ابن رشيد يطارد مبارك وكان ابن رشيد يرغب بتخليص الكويت لأن ذلك يساعده على استيراد ما يريد من سلاح وبضائع عن طريق الكويت. ازعج تهديد ابن رشيد الكويت وبريطانيا[٥٧] وأصبح موقف مبارك موقف المدافع رغم انه كان قبل معركة الصريف يصول ويجول في المنطقة دون ان يخشى احد مثل ابن رشيد.

تقييم الموقف بعد معركة الصريف:

ظهر الموقف بعد معركة الصريف في غير صالح مبارك وحدث مايلي :

أولاً: ساهم انتشار مرض الطاعون في الكويت في تأخير اجراءات العقاب[٥٨].

ثانياً: فكر الأتراك بإرسال حامية الى الكويت ، وزار الوالي محسن شيخ الكويت لابلاغه ذلك ، وفي الوقت نفسه فان بريطانيا أخذت تفكر بفرض الحماية الكاملة على الكويت[٥٩].

ثالثاً: أخذت بريطانيا تتردد بين السيطرة على الشيخ أو الحماية الكاملة على الكويت ، ولكنها ترغب في ابعاد الخطر عن الكويت من ناحية الأتراك مباشرة أو من ناحية حليفهم ابن رشيد وتريد ان تطمئن[٦٠]. وفي الوقت ذاته ظهر قلق بريطاني في

تصرفات مبارك وانه أناني يتحرك بين بريطانيا وروسيا وتركيا والآخرين[٦١] وظل موقف الانجليز حذراً يحاولون ان يمنعوا أي هجوم على الكويت ولا يمانعون في اعطاء تسهيلات لألمانيا مثلاً في بناء محطة سكة حديد[٦٢].

وظلت سياسة انجلترا تستهدف المحافظة على الأمر الواقع لصالح شيخ الكويت.

وحتى نهاية عام ١٩٠١م فان الأخطار ظلت مستمرة ، وبريطانيا تتلكأ في الحماية لانجلاء الموقف وظل الأتراك يحشدون تارة ويتراجعون تارة أخرى ومع ذلك ظهرت هذه الأحداث الجديدة:

أولاً: حرض الانجليز شيخ الكويت على استخدام علماً آخر بدلاً من العلم العثماني[٦٣] تمهيداً للأنفصال.

ثانياً : تدفق متطوعين بدو من مصر الى الكويت للانخراط في الجيش لمساعدة الشيخ ضد خصومه[٦٤].

(يبدو ان بريطانيا لم تعد تثق بتقديرات الشيخ وآرائه وخططه وتصرفت باحضار البدو من مصر لمساعدة الشيخ فقد اعطت معركة الصريف لبريطانيا انطباعاً آخر ، وأن شيخ الكويت يبالغ ولا يعول على حديثه وقرارته).

ثالثاً : لم يقع هجوم تركي على الكويت ، ولكن ضايق ابن رشيد الكويتيين بهجمات على اطراف الكويت فقط[٦٥].

رابعاً : ولم تعلن بريطانيا الحماية على الكويت وظل الموقف كما هو اذ ان بريطانيا قوت شيخ الكويت فقط باحضار قوات مصرية ، وهكذا أدخل الانجليز قوات جديا ة في المنطقة يمكن الاعتماد عليها بصورة أفضل من تلك القوات التي اعتمد عليها الشيخ مبارك ومن جهة ثانية فان بريطانيا لم تعد تثق بتقديرات مبارك .

خلاصة ماسبق

يلاحظ في الوثائق أن اهتمام الانجليز بالكويت توافق مع ضعف الدولة العثمانية، وانها خلقت الظروف المناسبة في المنطقة من جهة ايجاد جو مضطرب بين الكويت وجارتها وبخاصة ابن رشيد في نجد ، وان الصدام وقع بين الاثنين كما ان بريطانيا ساهمت في خلق هذه الظروف الصعبة لشيخ الكويت نفسه فهو بعد أن قتل أخويه بات في وضع لايحسد عليه من ناحية عدم رضاء الدولة العثمانية عليه فوجد في بريطانيا حليفاً ، فتم توقيع اتفاقية أملتها بريطانيا وفي نفس الوقت زاد طمع الألمان

والروس بالمنطقة وبسبب علاقاتهما بالمنطقة وبسبب علاقات الألمان مع الدولة العثمانية مباشرة باتوا يشكلون تهديداً خطيراً على الكويت .

ويلاحظ ان الوثائق تعبر بصراحة أو بطريقة ضمنية أن الكويت تتبع السلطة العثمانية ، وان القائمقام يعين من السلطة العثمانية وتمنحه لقب باشا ولقد بدأت مشاكل الكويت مع دخول بريطانيا التي كانت وراء مصرع الأخوين اللذين قتلهم مبارك وحصل بعدها تنافس بين أولادهم وبينه ، وذلك لكسب ود بريطانيا ، كان ذلك عام ١٨٦٩م وبعدها بدأت الاعتداءات على الكويت من الشيخ يوسف ابراهيم مثلاً وسارع الشيخ مبارك في طلب الحماية البريطانية . ولقد شجع انشغال السلطة العثمانية باليونان بريطانيا على التمادي في الكويت وأرسلوا زورقاً مسلحاً لحماية الكويت وكان حافزهم في ذلك الاستيلاء على الكويت لأنها أفضل موانئ الخليج العربي .

وزادت بريطانيا من تركزها على الكويت بشكل لم يسبق له مثيل ووضع الشيخ مبارك في موقف تفاوضي ضعيف بان تتقدم بريطانيا وسط ذلك الجو. وفعلاً تحقق لها ما ارادت وبطريقة سرية تم توقيع اتفاقية في ١٨٩٩/١/٢٣ بين الشيخ مبارك وبين المقيم البريطاني في الخليج ولقد وفرت بريطانيا حماية لأملاك الشيخ في الفاو.

وبعد ذلك ظهر نزاع بين حلفاء بريطانيا مثل الشيخ مبارك وحلفاء السلطة العثمانية مثل الأمير عبدالعزيز بن رشيد من نجد ووقع صدام وتم سحق قوات مبارك ولولا مساعدة بريطانيا لقضى ابن رشيد على الشيخ مبارك في عقر داره في الكويت.

الهوامش

١- الوثائق مسلسلة وسوف نذكر اسم المرسل والمرسل إليه وتاريخها مع الأخذ بعين الإعتبار ان هذه الوثائق موجودة كلها في مجلدين بعنوان:

The Affairs of Kuwait 1896-1905.

ورد ذكرها كاملاً في المقدمة.

وأرجو أن يُلاحظ ان هذه الوثائق لا تتقيد بالاملاء الصحيح فمرة تذكر الكويت Kuwait وفي مكان آخر تكتبها بطريقة أخرى. ولقد ذكرها الباحث في كل مرة كما وردت في النص الأصلي.

٢- عن شركة الهند الشرقية أنظر د. ميمونة خليفة الصباح ، مصدر ذكر في المقدمة ص ص ٧٥-٧٧.

٣- كتاب لوريمر ورد ذكره في مقدمة الوثائق ص ٢٨ بيد ان هذا الكتاب قد طبع فيما بعد.

4- See the The affairs of Kuwait P. xi.

٥- الدكتور روبرت لاندن ، "اعادة النظر في كتاب تاريخ البحرين الجزء الأول ١٧٨٣-١٨٦١" في مجلة الوثقة عدد ٨ سنة ٤ يناير ١٩٨٦ (البحرين : مركز الوثائق التاريخية) ص٨٣.

٦- زار (بلي) الكويت عام ١٨٦٣ وقبله زارها بكنغهام في عام ١٨١٦ انظر :

- Lwis Pelly, Record Tour Around The Northern of Bombay Geographical Society No. 35 1863-1893.
- James sillk Buckingham, Travel in Assyria etc. [London:1830]

راجع :

Momorandum by Mr. Stavrides [June 30, 1896].

٧- عن شيخ قطر جاسم آل ثاني والشيخ محمد بن رشيد في نجد راجع امين الريحاني ، نجد وملحقاته وسيرة عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل فيصل آل سعود ملك الحجاز ونجد وملحقاتها ط٥ [الرياض : منشورات الفاخرية ١٩٨١] ص ص ١١٠-١١٥.

8- Mr. Herbert to the Marques of Salisbury [Therapia July 6, 1896].

9- A. Godley to Foreign Office [Therapia July 6, 1896].

Sir P. Currie to the Marquess of Salisbury,[Constantipole, March 24, 1897].

وأنظر وجهة نظر العراق في :

الدكتور محمود علي الداود ومصطفى عبدالقادر النجار والدكتور عبدالرحمن كريم العاني ، الهوية العراقية للكويت : دراسة تاريخية وثائقية بغداد ١٩٩٠، ص ص ٢٦-٢٧.

10- Ibid.

11- Sir Currie to the Marquess of Salisbury [Constantin pole : July 16, 1897, and July21, 1897].

The Marquess of Salisbury to Sir Currie [Foreign Office : July 17, 1897 and July 16, 1897] Document No. 9,10,11 and 12.

12- Ibid.

13-Lord G. Hamilton to Government of ludia [India Office ; July [illegible] 897].

14- The Affairs of Kuwait P. XVIII.

15- Horace Walpole to Foeign Office Sept. 28, 1897.

India Office to Foreign Office Oct. 27, 1897.

Loard Hamilton to Government of India [India Office Oct. 30, 1897].

16- India Office to foreign office [Nov. 18,1897] Major Meade to Government of India Sept. 25, 1897.

١٧- الشيخ يوسف ابراهيم وثيق الصلة بسعود ابن محمد ابن أخ الشيخ مبارك. الشيخ ابراهيم خال سعود. لقد ساهم لقاء الطرفين في متاعب وقلق مبارك.

_ Sir Currie to the Marquess of Salisbury [Constantin Pole, Jan. 27th, 1897].

_ Consul General Loch to Sir Currie [Baghdad Dec. 30, 1897].

18- Godley to Foreign Office [India Office Feb. 11 1898].

T. H. Sanderson to Admiral Beaumont [Feb. 16, 1898].

19- Lieutenant Commander Moubray to Lieutenant Colonel Meade [November 7, 1897].

يُلاحظ في تقرير [ميوبري] ان علاقة الشيخ مبارك مع شيوخ البـدو المجـاورين جيـدة وان اثنين منهم حضروا المقابلة بين ميوبري وميد.

٢٠- راجع رسالة "لونش" في الهامش (٢٠).

21- Lieutenant Colonel Meade to Foreign [Office March 28, 1898].

22- Foreign Office to India Office [Dec. 5, 1898].

23- Foreign Office to India Office [Jan. 4, 1899].

24- Loard G. Hamilton to Government of India [India Office Dec. 24, 1898].

25- Foreign Office to India Office [Jan. 18, 1899].

26- Government of India Office to Lord Hamilton [Jan. 18,1899].

٢٧- راجع عن اتفاقيات الحماية بشكل ملخص كتاب :

د. عائشة راتب ، العلاقات الدولية العربية [القاهرة : دار النهضة ١٩٧٠].

28- Government of India Office to Lord Hamilton [Jan. 18,1899].

Government of India Office to Lord Hamilton [Fab. 12,1899].

29- Ibid.

30-Ibid.

31-Ibid.

32- Government of India Office to Lord Hamilton [Jan. 18,1899].

رسالة موجهة من حكومة الهند الى اللورد هاملتون.

تعادل الروبية آنئذ شلن وأربعة بنسات وكل خمسة عشر روبية تعـادل جنيـه استرليني واحد بمعنى ان (ميد) دفع لمبارك ١٠٠ جنيه استرليني فقط.

33- India Office to Foreign Office [Fab. 14,1899].

34- Consul Wratislaw to Sir N. O'conor [Bussorrah July 28, 1899].

تذكر الوثيقة بدقة أملاك محمد . وبشكل عام فان هذه الوثائق شـكلت مـادة خصبـة في الحديث كما ان اشارات الباحثين تطرقت إليها ، مثلاً تذكر الدكتـورة منـيرة بنـت عبدالله عـن ملكيـة البسـاتين وانهـا تعـود لعـام ١٨٣٤م عندمـا اهـدى الشـيخ راشـد السعدون للشيخ جابر الصباح هذه البساتين رداً لمعروف كان الشيخ جـابر قـد قدمـه. في حين يذكر الدكتور مصطفى عبدالقادر النجار أنها جاءت لآل الصباح بطريق الهبـة والشراء فقط.

35- Foreign Office to India Office [Feb. 14, 1899].

Lord Hamilton to Government of india [Feb. 14, 1899].

وكانت المراسلات بين بريطانيا والهند تتم على مايبدو بين عبر هاملتون في مكتب الهند India Office وهو أعلى من حكومة الهند.

36- Government of India to Lord Hamilton [March 2, 1899].

India Office to Forgein Office [March 8, 1899 ; March 20, 1899 and March 16, 1899].

Forgein Office to India Office [March 11, 1899].

Consul Wratislaw to Acting Consul General Meluill [Bussorah Feb. 2, 1899].

37- Meade to Government of India (Bushire May 7, 1899).

Meade to Government of India (Bushire May 14, 1899).

ظهر القلق البريطاني من موضوع هو ان الشيخ مبارك اصبح (قائممقام) في أواخر ١٨٩٧م أي انه اصبح تابعاً لوالي البصرة وللدولة العثمانية وان السلطة اعترفت به بعد ان كانت ترفض ذلك لأنه استولى على الحكم بالقوة واغتيال شقيقيه.

38- Sir N. Oconor to the Marquess of Salisbury [Constantinpole, Septemper 11, 1899].

39- Consul Wratislaw to Sir O'conor [Bussorah, July 28, 1899].

يتحدث القنصل عن شخصية حمدي باشا الوالي أيضاً.

40- Sir N. O'Conor to the Marquess of Salisbury [Therapia Nov. 6, 1899].

41- Sir N. O'Conor to the Marquess of Salisbury [Constantinpole Oct. 5, 1899].

Consul Wratislaw to Sir O'conor [Bussorah, Aug. 25, 1899].

Consul Wratislaw to Sir O'conor [Bussorah, Oct. 2, 1899].

42- Vice Consul Wratislaw to Sir O'conor [Bussorah, September 16, 1899].

Lieutenant Clonel Meade to the Government of India (Bushire, Oct. 1, 1899].

43- Wratislaw to O'conor [Bussorah, Nov. 30, 1899].

Government of India to Loard Hamilton [Jan. 7, 1900, and Jan. 18, 1900].

44- O'Conor to the Marquess of Salisbury [Therapia, Aug. 7, 1900].

٤٥- راجع المجموعة في الكتاب : The Affairs of Kuwait 1896-1905.

46-Mr. Mackenzie to Foreign Office [Lodon: Dec. 28, 1900].

انظر الملاحق.

٤٧- تقرير مع رسالة كمبل الى حكومة الهند.

Lieutenanr Colonel Kemball to Government of india [Bushire, Nov. 26, 1900].

٤٨- أكّد كمبل ان الارقام مبالغ فيها.

49- Kamball to shaik Mubarak bin Sabah, Chief of Kowait [Bushir, Dec. 10, 1900].

50- India Office to Foreign Office [April 18, 1901].

51- Report from the Residency News Agent at Koweit [Feb. 19, 1901].

52- Ibid.

تلقى الشيخ جابر من والـده الشيخ مبارك رسالة ان نجد تحت سيطرته وانه عين عبدالعزيز بن فيصل حاكماً على الرياض.

53- Lieutenant Commander de Satge to Commander Phillips [Pigeon at Bushire Aprill 17, 1901].

54- Consul Wratislaw to Sir O'conor [Bussorah, April 10, 1901].

55- Lieutenant Colonel Kemball to Govenment of India [Bushire, April 20, 1901].

تشير الوثيقة ان المعركة لم تستمر ساعة ونصف وان مبارك أخفى سرها عن الجميع.

56-Ibd.

تشير الوثيقة ان ابن رشيد تلقى نجدات من سوريا في معركـة الصريـف أي ان الدولـة العثمانية ساعدته.

57- Captain Field to Rear Admiral Bosanquet [Marathon at Bushire, Sept. 27, 1901].

ظهر الخوف البريطاني من تمادي ابن رشيد في مهاجمة الشيخ مبارك.

58- Consul Wratislaw to Sir NO'conor [Bussorah, June 1, 1901].

59- Lieutenant Colonel Kemball to Govenment of India [Bushire, June 3, 1901].

60- India Office to Foreign Office [July 24, 1901].

Gvernment of India to Lord Hamilton [Aug. 10, 1901].

61- India office to Foreign Office [June 14, 1901].

62- Extract from Memorandum on question which may be mentioned by the German Emperor to the King.

ملحقة برسالة

The Marquess of Lansdowne to Sir F. Lascelles [Sept. 11,1901].

63- Foriegn Office to India Office [Foreign Office : Sept. 24, 1901].

64- Sir R. Rodd to the Marquess of Lansdowne [Cairo Oct. 9, 1901].

قام بعملية تجنيد المصريين المدعو صالح ابو الخيل. وكان والده سجيناً في سجون ابن رشيد في نجد.

65- Captain Field to Rear Admiral Bosanquet [Marathon at Bushire Sept. 27, 1901].

Captain Field to Rear Admiral Bosanquet [Marathon at Bushire Sept. 30, 1901].

تعريف الشخصيات البريطانية الواردة ذكرها في الوثائق

أمبثل	Lord Ampthill	نائب الملك في الهند ١٩٠٤
بيرتي فرانيسيس	Pertic Francis	مساعد الوكيل لوزارة الخارجية البريطانية ١٨٩٤-١٩٠٣.
سير فيليب كوري	Philip Currie	سفير بريطانيا في استنبول ١٨٩٧-١٨٩٧ لمدة سنة
فاجان	C.G. Fagan	قنصل بريطانيا في البصرة ١٨٩٧-١٨٩٧.
جاسكين	J.C. Gaskin	مساعد المقيم البريطاني في بوشهر ١٨٩٩-١٩٠٠.
جودلي (سير آرثر)	Sir Arthur Godley	وكيل وزارة الخارجية الدائم في الهند ١٨٨٣-١٩٠٩.
لورد جورج هاملتون	Lord G. Hamliton	وزير الخارجية / الهند ١٨٩٥-١٩٠٣.
كيمبل	C. A. Kemball	المقيم البريطاني في بوشهر ١٩٠٠-١٩٠٤.
لانزدون	Lansdown, Marquis of	وزير خارجية بريطانيا .
لوش	W. Loch	مقيم في بغداد .
ايفان ماكس يجور	McGregor	سكرتير دائم في الادميرالية ١٩٠٤-١٩٠٧.
ميد	M.J. Meade	المقيم في الخليج ١٨٩٧-١٩٠٠.
ملفل	P.J. Melvill	مقيم في بغداد ١٨٩٨-١٩٠٢.
أوكونر	Sir Nichdas	سفير بريطانيا في تركيا

	O'Oconer	١٨٩٨-١٩٠٨.
رامسي	J. Ramsay	قنصل في البصرة ١٨٩٨.
سالسبوري	Salsbury Marquis of,	رئيس وزراء / وزير خارجية بريطانيا ١٨٩٥-١٩٠٠.
ساندرسون	Thomas Sonderson	وكيل وزارة الخارجية الدائم ١٨٩٤-١٩٠٦.
شبلي	H.S. Shipley	قنصل بالنيابة في البصرة ١٩٠٠.
والبول	Sir Horce Walpole	وكيل وزارة الخارجية / الهند ١٨٨٣-١٩٠٧.
وايت	J.F. Whyte	القنصل في البصرة ١٨٩٥-١٨٩٧.
ويلسون	F.A. Wilson	مقيم في الخليج ١٨٩٤-١٨٩٧.
راتسلو	A.C. Wartislaw	قنصل في البصرة ١٨٩٨-١٩٠٣.

المناهج الشمولية والاختزالية في الجغرافية

بقلم ي.ج. سيمونس
و ب.ج. كوكس
ترجمة الدكتور شاكر خصباك
استاذ في قسم الجغرافية

خطة للمعرفة:

ان الصورة التي يمدنا بها العلم للعالم الطبيعي هي تراكبية ، فالوحدات والأنظمة المميزة في أي مستوى أو حركة للبحث تصنع من وحدات أصغر أو أنظمة ثانوية والتي بدورها يمكن ان تعتبر كأنظمة في مستويات مختلفة. وفي مكان ما فهو أصغر نهاية توجد الذرات الأساسية والتي لم توضح تماماً من قبل علماءالطبيعة ، ولكنها تكوّن معاً ذرات ، ذرات في تكوينها الجزئي المتناغم. جزيئات من أنواع مختلفة والتي تصنع حجيرات ، وهكذا. وكل مستوى يشمل على جميع الظاهرات من الطبقات الأسفل (فالكائنات الحية تشمل على الأعضاءوالتي بدورها تتكون من الحجيرات ، والحجيرات تتكون من الجزئيات ، وهكذا) ولكنها قد تملك خصوصيات متفردة قد لا يمكن التنبؤ بها عن المعرفة الجارية للمستوى الاسفل. وعلى سبيل المثال فان خصوصيات التجمد للماء لايمكن التنبؤ بها عن السلوك الاعتيادي للهيدروجين والأوكسجين. وفي بعض المراحل يمكننا ان نضيف الى المادي الصرف أنواعنا الخاصة بخصائها ذات الوعي الانعكاسي ، وبعد ذلك المستوى التالي. ان مثل هذا التراتب للمستويات المتكاملة للمادة تتطابق أيضاً مع طريقنا في تقسيم الحقول العلمية واحداً عن الآخر، ولذلك فان من المناسب هنا في ان نناقش الجغرافيا في مثل هذا السياق. وفي الحال نلاحظ ان الجغرافيا عالية جداً في مستويات كل من تعقيد لوحدة والحجم المطلق ، فهي لا تتعامل مع بساطة الجزئيات الأساسية القليلة وقواها اللاحمة (وهذه قد تكون صعبة جداً وذات سعة يصعب استقصاءها ولكن ذلك شأن آخر) ولا مع المسافات التي لا يمكن تصورها للمجموعات النجمية التي يبدو أنها تكوّن الكون.

وفي عالم الفكر الغربي فان ادراك الظواهر التي نلاحظها حولنا ، منذ لقرن السابع عشر ، قد نظمت غالباً في نوعين من المعرفة. الفرع الأول منها يستند الى المنهج التحليلي والذي تطور بدرجة عظيمة ضمن العلوم.

ان العلم يريد ان يفسر وأن يعمم وأن يقرر الأسباب ، وهكذا فان النظريات تصاغ وتختبر بالتجربة والمقارنة ، ثم تطور النظريات العامة والتي تتضمن بيانات عن قوانين الطبيعة. اما الخصائص العظيمة لأية نظرية في العلم هي انها قادرة موقتاً على التنبؤ مع درجة عالية من الاحتمالية، ومثال ذلك ان القوانين الطبيعية مثل قوانين الجاذبية أو الديناميكا الحرارية يبدو انها تنطبق باحتمالات ١٠٠٪ في الغد كما هي اليوم. وفي مثال آخر يتعلق بتأثير الفيزياء الفلكية فقد تنبأت بوجود ظواهر مثل الفجوات السوداء ، والتي ظهر فيما بعد أنها توجد فعلاً. والآن في غالبية الأمثلة ، يحقق الأسلوب العلمي نجاحه بمعالجة المشكلة في المستوى الأدنى التالي في هرمية التعقيد. إن خصائص الذرات تفسرعلى أحسن الصور على ضوء جزيئاتها الأساسية ، وتفسير حياة الحجيرات بدراسة كيميائها، كما يدرس تصنيف الأحياء مثل النباتات بالرجوع الى أجزائها المزهرة. ان هذه الأمثلة بأجمعها توضح لنا منهج الدراسة. وفي وقت من الأوقات اعتبر في الجغرافيا ان الشيء المثالي هو ان نصنف بصورة مستقلة كل سطح من سطوح البيئة الطبيعية وجميع الحقائق المعروفة للتوزيع البشري والانشطة حول مكان معين. وهكذا فان الجغرافيا تتفرع بتشتت الى حشد من الاجزاء المكوّنة.

ان هذا المنهج العام يسمى (الاختزالية Reductionalism) ، ويُعرّف على نحو أكثر اصطلاحية باعتباره مفاهيم أو بيانات قد أعيد تشكيلها في ضوء أكثر ابتدائية أو أساسية. وفي كثير من الحالات فان توصيل المعرفة الذي يكسب هكذا لا يمكن التعبير عنه في لغة شفوية عادية ، وينبغي اضافة أسلوبين آخرين. الأول هو الذي يستخدم الكلمات مع معايير متخصصة (أنا استخدم مصطلحات تقنية وهم يستخدمون رطانة غامضة) والثاني هو لغة الرموز الصرفة المرتبطة بالرياضيات والمنطق الرمزي. وفي الممارسة العملية ليس هناك أي شك في نجاح هذا الأسلوب. وهاكم مثالين واضحين ؛ التكنولوجيا التي تيسرت بمعرفة كيفية معالجة الـ (DNA) المركب وما تحقق من تقدم بواسطة علاج التخدير لدى البشر وحيوانات أخرى والذي استنبط من تحقيقات وتجارب الاختزاليين Reductionalist.

ولقد بحث عن الصنف الأساسي الآخر للمعرفة خارج نطاق العلم وضمنه. وهذه المعرفة تحاول ان تستوعب مستوى معين من الظاهرات بشروطها الخاصة وليس بشروط المستوى الأدنى. (بل وقد ترتبط بالمستوى الأعلى في ضوء التطور النهائي). وهذا يعني أنها تحاول أن تفهم الكل وليس الأجزاء وانها تقترح بأن الكل هو أكثر من مجرد المجموع المكون من الأجزاء. إن هذا النوع من المعرفة يسمى (الكليّة Holism) وهو يعرّف بأنه وجهة النظر في أي الكليات Wholes تمتلك خصوصيات لا يمكن تفسيرها في ضوء خصوصيات مكوناتها الفردية. ولعل التفرد الواضح لكل كائن بشري هو مثال جيد على ذلك. إن إدراك الكليّات في المستويات العليا للتعقيدات ، حينما تصبح الحياة جزءاً من المخطط Scheme، وهو أمر صعب جداً حتى ان عالم الحيوان المشهور أرنست ماير Ernest Mayer (١٩٨٢) قد أدّعى (بأنه ليس عارفاً باي نظرية بيولوجية قد أختزلت الى نظرية كيميائية – طبيعية. وأن فلسفة العلم المحددة بالشيء الذي يمكن ان يلاحظ في الأشياء اللاحيّة فقط هي فلسفة غير كاملة وبائسة).

ان محاولة التغلب على البحث العلمي للكليات Wholes المعقدة قد تركزت عموماً على وضع وتفسير العلاقات بين الأجزاء المكونة للكل ، معتقدين أنه بهذه العلاقات يكمن مفتاح فهم الخصوصيات المنبثقة. إن تحليل الأنظمة هو المظلة لعدة حقول انبثقت ضمن العلم لتعالج كليّات معقدة ، وقد نوقشت أهميتها للجغرافية في الصفحات التالية. لكن تحليل ووصف الكليات قد اعتمد خلال التاريخ في الغالب على الحدس (الادراك الفوري بواسطة المثقف لوحده – معجم أوكسفورد الوجيز) والتي تكون فيها قوى العقل البشري المتكاملة هي الأدارة الأساس. وإن الصيغة الأساس للتوصل كانت دائماً اللغة الشفوية ، بما فيها الشفرة. وفي الجغرافيا فان مثل هذا التركيب الحدسي واضح في أعمال اولئك الذين حاولوا ان يضعوا "سمة أقليمية" أو " شخصية إقليمية". وان المدرسة الفرنسية لأعوام العشرينات أو الثلاثينات هي مثال بارز على ذلك ، ويمكن اعتبار بعض الجغرافيين البشريين للعهد الحاضر مثالاً آخر. وفضلاً عن ذلك ، فاننا حينما نصل الى الخصوصيات المنبثقة لكل الكون تصبح اللغة نفسها حينئذ متكلفة في محاولتها ايصال الامكانات. ولقد عبّر رانبورنات تاغور بصورة حيّة عن ادانة لتحديدات العلم التحليلي. ذلك ان العالم ليس ذرات ، أو جزيئات أو نشاط

إشعاعي أو قوى أخرى ، فالماسة ليست فحماً ، والنور هو ليس موجات الأثير. لايمكنك أن تدرك حقيقة الخلق بتأمله من وجهة نظر التدمير).

وينبغي القول أنه حيثما استخدمت الاطارات الثقافية الغربية ، فان أولئك الذين يوظفون أساليب ولغات الاختزالية عموماً يزدرون أي فرع من فروع المعرفة الذي يعتمد على الحدس ، ويستخدمون له لقب " Soft". إن الكثير من الفلسفات غير الغربية وأنظمة المعرفة أقل انشغالاً بالرغبة ان تكون عقلانية بدرجة واضحةأو أن تهتم بالألفاظ أو أن تهتم بالرياضيات في كل شيء.

الاختزالية في الجغرافية :

ان الدراسات في الجغراية الطبيعية الصرفة عموماً لم يكن لها من خيار سوى ان تستخدم أساليب العلم الحديث ، ان كانت هذه الأساليب اختزالية أم محاولات في الشمولية Holism مثل تحليل الأنظمة. فنحن نبحث عن فهم انهيال الصخور أو حركة النهر الجليدي في ضوء مبادىء الميكانيكا ، كما تطبق الكمياء في دراسة عمليات التجوية وتكوين التربة . أما تصرف الأنظمة الأضخم والأكثر تعقيداً فاننا نحللها روتينياً بواسطة نماذج حاسوبية محكمة ، كما هوالحال مثلاً في هيدرولوجية التصريف وتنبؤات الطقس . ولكن علينا ان نسأل أنفسنا فيما يخص مستوى التعقيد التالي ، وهو الخاص بالمجتمعات البشرية مع بيئاتها الحيّة وغير الحيّة. هل أساليب الاختزاليين مناسبة ويمكن تطبيقها وبأيّ درجة من النجاح ؟! ولعنا نسأل بشيء من التحيّز: هل ينبغي على الجغرافيا ان تكون مثل علم الطبيعية " الفيزياء" ؟ هل من الممكن أن نعبّر عن كل شيء بواسطة القوانين (وهي نفسها توصل بواسطة رموز رياضية أكثر منها رموز لفظية) والتي يمكن تطبيقها ١٠٠٪ بمفهوم التنبؤ الموقت ؟! (وفي الحقيقة فان قوانين علم الطبيعية لا تظهر ١٠٠٪ من الاحتمالية ولكنها ليست بعيدة كثيراً عن ذلك لأغراض عملية. ويبدو ان بعض المحاولات التي جرت منذ الستينات ترغب فعلاً في المشاركة في جو علم الطبيعية ولغتها الرياضية ، وان المصطلحات التي استخدمتها ، مثل نماذج الجاذبية والارتباط الذاتي المكاني وسطوح الاحتمالات ، تشير الى ذلك الطريق. كما يفعل كذلك مصطلح مظلة "الثورة الكمية" الذي استخدم لوصفها ، وهو مصطلح يستخدم غالباً بصورة واسعة كذلك لتغطية المحاولات التي جرت الى لتطوير "النظرية" في الجغرافية. ولقد كانت تقنية الرياضيين والاحصائيين ذات

سلطة عليا ، مثلاً في وضع نماذج التفاعل المكاني واستخدام الأفكار من نظرية الحدث الأخير وتحليل "Q" ، والاستخدام الواسع للنماذج الخطيّة الثنائية والمتعددة لتحليل البيانات.

الى أين قادت الجغرافية هذه الحركة؟ فمع أن هذه الأساليب قد أستمدت عموماً من الرياضيات أو الأحصاء ، فان التطبيقات التي عمد الجغرافيون أو رعوها قد استعيرت من العلوم الاجتماعية ، وخصوصاً من علم الاقتصاد ، اضافة الى علم الاجتماع والتاريخ والعلوم السياسية ، والتي لم تصبح على العموم شبيهة تماماً بعلم الطبيعة مادامت قد اضطرت الى الاعتراف بأنها محملة بالقيم Values وأن الموضوعية الحقيقية نادراً ما تكون ممكنة. إن اختيار الموضوع للدراسة ، حسب ما يرتئي بعض الكتّاب يعكس الاتجاه الأيدلوجي الأساسي. وحتى لو كان الأمر كذلك فان محرري كتاب (النماذج في الجغرافيا Models in Geography) (لهاغت وشورلي ١٩٦٧) قدموا لنا الفكرة القائلة (بأن تلك المواضيع التي صمموا أشكالها على اساس الرياضيات أو الفيزياء قد ارتفعت بصورة اسرع من تلك التي حاولت أن تبني بنيات داخلية أو فردية Idiographic). وعلى ضوء النتائج من الممكن أن نكون غير حاسمين. ولقد تحقق تقدماً ملموساً في تطوير وتبني النماذج والتقنيات التحليلية ، ولكن من الأمور القابلة للجدل هي فيما إذا كانت الدراسات التجريبية التي استخدمت هذه الأساليب قد امدّتنا بأي تعميمات أكثر نضجاً وتنبؤات أكثر دقة من الاساليب غير الاختزالية. ان من الأمور اللافتة للنظر جداً هو التأكد الشديد على المكان Space كعنصر مركزي في الجغرافيا. إلى حد أنه إذا ما درس (المكان) فقط فحينئذ يمكن للجغرافيا في الواقع أن تكون أكثر شبهاً بعلم الطبيعة، بل ذهب الأمر الى درجة أن ويلسون Wilson (١٩٨١) استخدم فكرة تضخمات الأنثروبيا(*) ، وهي أحدى أفكار الميكانيكا الاحصائية ، في صياغة التدفقات في المحيطات المدينية.

من الطبيعي أنه ليس كل فرد مقتنعاً بان يعادل الجغرافيا بالعلم المكاني ويتركها على هذا النحو . فلابد من الأخذ بنظر الاعتبار مسألة المعرفة الذاتية مهما كانت المعالجة كميّة Quantative وصارمة. ويتساءل بنيت Bennett وريجلي Rigley

---

(*) الانثروبيا : عامل رياضي يعتبر مقياساً للطاقة غير المستفادة في نظام ديناميكي حراري.

(١٩٨١) (مامعنى ان نبني نظرية تبدأ من الصفر لكي نختبر فيما اذا كان هناك علاقة عندما تكون العلاقة هي بالفعل جزءاً من نظرية سابقة ومن معرفة تجريبية قائمة؟!) إن وجهة النظر هذه تقودنا الى دراسة المنهج الكمي في الجغرافيا والتي ستشتمل على فحص الأهداف والمعايير ، وهذا سيقودنا حتماً في اتجاه سياسة اجتماعية وستكون معايير نجاحها بدرجة أقل تلك المتعلقة بالبراعة. الاحصائية أو الرياضية وبدرجة أكبر تلك المتعلقة بالاستفادة منها في القضايا الاجتماعية والساسية ، وفي اجابتها على (قضايا البحث الأساسية في الحقول الثانوية القريبة).

ان الكتّاب غير المتعاطفين مع الأسلوب الكمّي بسبب ارتباطه المتكرر بالعلم "الصلب" قد انتقدوا دائماً افتقاره الواضح للمسة الانسانية. وان موضوعيته الباردة (إذا ما وجدت) لا تلقى قبولاً من الجميع. وقد رأى فيها آخرون كأداة لمصالح مستثمرة من القوى القائمة على المحافظة على الأمر الواقع. ولكن مع ذلك قد لا تستطيع أن تقبل اختزالية من نوع آخر تنظر الى جميع الأنماط البشرية في ضوء تفسير عامل واحد مثل صراع الطبقات كما في صلب النظرية الماركسية والذي يبدو شديد البساطة في تفسيره للتنوع الكبير في علاقات المجتمع - والبيئة التي نراها على سطح الأرض.

ولعله من المبكر جداً اصدار حكم على نجاح اساليب الأختزالين في الجغرافية. وعلى أية حال ، فكيف نقيس النجاح ؟! هل بواسطة معايير علم الطبيعة ، ونقصد ترميز القوانين التي تحمل احتمالاً دقيقاً مع درجة معروفة من الخطأ ؟ أم بالنظر الى العالم كما هو ، والباحثين كما هم ؟! هل ننظر إليهم في ضوء الهندسة الاجتماعية ، ونقصد الفرصة في التأثير في نظام الحكم والمساعدة في رفع الظلم ؟! ويمكن الصفح عن أي تقييم موقت في توصله الى الاستنتاج بأنه في ضوء القوانين ليس للجغرافيا نجاح كبير.

إن بعض الاطرادات قد اشير إليها سابقاً (قواعد المرتبة - الحجم للمدن ، التنميط المكاني للمدن كمراكز خدمة) ، غير ان الأدبيات الوفيرة الخاصة بها تشتمل على استثناءات كثيرة وعلى تأكيدات لطبيعة الرابط الحضاري للموجودات. وبالمثل ، يبدو ان الجغرافيا قد أحدثت عالماً أكثر عدلاً بقدر أي قسم آخر من آفاق المعرفة والتي تشارك معها في النفور من الحلول ذات العنصر الواحد ، ولا سيما الحلول ذات الصفة الأيديولوجية. ولكننا قد نستطيع أن نتجنب

كلا المنهجين ذلك أن كلاً منهما جديد نوعما ويستحق وقتاً أكثر لكي يضيف الى المعرفة. ويلخص ويلسون Wilson (١٩٨١) الكثير من هذه التطورات "بالاقتراح أنه قد يكون من الخير أن تفكر بأنه في امكان الجغرافيا أن تستمر في كونها حقلاً علمياً تركيبياً له اهتمام نظري خاص في جمع نظريات فعالة لانظمة بكاملها ذات أهمية بالنسبة للجغرافيين. ولذلك فان هدفها بالنسبة لأحد الباحثين هو الشمولية Hoslism حتى لو كانت الأساليب الجارية هي الاختزالية.

الشمولية في الجغرافية:

لقد اخترع مصطلح الشمولية Holism رجل الدولة الباحث الأفريقي الجنوبي يان سمطس Jan Samuts ، وقد تخضب بالنسبة له، وكذلك بالنسبة لكتّاب لاحقين ، بأفكار تعود الى التصوّف Mysticism والى الحيوية Vitalism على حد سواء ، أي أنه لابد من إشراك عنصر من واقعية غيبية. إن هذا قد أضعف هذا المصطلح في عيون البعض ، ولكن لحسن الحظ من الممكن استعماله الآن كما حدّد أعلاه ، أي على أساس المادة وعلاقاتها الداخلية بصورة خالصة ، مؤكدين بأنه في أي مستوى تراتبي ، فان التقطيع الى أجزاء مكونة تترك دائماً بقية غير موضحة وغير محلولة. ان فكرة الكليّات الجغرافية ، كما هو الحال في الطبيعة المتكاملة للمكان والناس ، هي ليست جديدة أبداً، وكما ذكر غلاكن Glacken (١٩٦٧) فأن اليونانيين قد طوروا عدداً من المفاهيم ليفسروا ما رأوه بأنه علاقة مستمرة وواضحة بين المناخ والمجتمع مثلاً ، أو بين التربة والشخصية. وفي اوقات لاحقة اصبحت الكلمة الألمانية Gemeinschaft تعبّر عن التضمين لوحدة عضوية ضمن المجتمع وفي بيئتها الخارجية على السواء. إن الصلة الحيوية- الظاهرية التي شعر بها بعض الجغرافيين الفرنسيين تجاه الأقاليم التي يعيشون فيها والتي درسوها ووصفوها قد ذكرناها من قبل. ولقد شعر بعض الباحثين دائماً بان مثل هذه العملية كانت شخصية جداً ولم تقترب أبداً من القانون العلمي للترجيع Rerlicabilty (إن وصف فرانسو لكلمة (Brie) الريفية لابد وان تكون مختلفة عن وصف جان ماري). وهكذا فان الابحاث حول طبيعة المكان كانت خاضعة لدراسات متأثرة بالسلوكيين ، أي دراسة السلوك الملاحظ والقابل للقياس وغير الغامض ، حيث يقال عن الملاحظ Observor ، كما في الفيزياء ، أنه حياديّ كلياً. إن مثل هذه الدراسات ميالة لأن تكون اختزالية أكثر من كونها شمولية.

وفي الجغرافية الانسانية المعاصرة يعترف بدور الملاحظ بصورة صريحة بالقول أنه لا يمكن إلا للعقل الفردي أن يدرك الكّ ويقترب من ايصال المركّب المدرك الى لناس الآخرين. ان الخلاف حول هدف هذه العملية في أي اطار اكثر اتساعاً هو أمر محتمل وهو لم يُحلّ بعد.

وبموازاة هذا التقدم الثقافي الذي وصفناه أعلاه ، كانت هناك محاولات لتطوير "كلّية" أكثر عملية. ولقد كان للفلسفة الاغريقية مفاهيمها المبكرة عن "كلّية" شاملة خصوصاً في تصور الغائية الطبيعية ، وهي النظرية القائلة بأن تطور أي شيء لايمكن أن يثبت إلا بالأخذ بنظر الاعتبار الهدف الموجه إليه في نهاية الأمر. وفي حالة الاغريق ، فان النهايات Telos الكلية هي الأرض المصممة التي صنعت من قبل ارادة إلهية لتكون موطناً مناسباً للمخلوقات البشرية ، حيث تكون الأشياء مرتبة بصورة دقيقة في التصميم النهائي. ان مثل هذا المفهوم الشامل قد قاسى عن بعض التقلب لكن خليفته فيما تلى من أيام ربما كان علم التبيّؤ Ecology، وان كان هذا يفتقد غيبية المفهوم القديم. ولعل أحد أهم اضافات (الايكولوجيا) الى الجغرافيا أو للحقول الأخرى كذلك ، هو مفهوم "النظام البيئي Ecosystem " وهو عبارة عن نظام متفاعل حركي يربط معاً النباتات والحيوانات والمواد اللاعضوية في منطقة معينة في أي مقياس عملي. (ولقد أُظهرت مزاياه بصورة واضحة بحث لستودارت Stodart "١٩٦٥") .

إن الأنظمة البيئية Ecosystems هي من بين أفضل الأمثلة بالنسبة للجغرافيين للأنظمة عموماً. إن فكرة النظام Sysytem هي أساسية خلال العلم ، فالنظام ، في أبسط الحالات ، هو عبارة عن وحدة محددة تستخدم لصياغة توازن كتلة ، أو توازن طاقة ، كما يمكن ان تصنع لمقطع تربة أو لحوض تصريف أو لإقليم مدينة. لكن ما شغل الكثيرين من الجغرافيين على نحو الخصوص هو تجميع حقول جديدة انبثقت منذ حوالي عام ١٩٥٠ لمواجهة مشكلة فهم الأنظمة بما في ذلك السبرانية (علم الضبط) وهندسة السيطرة ، ونظرية الاعلام ، ونظرية الأنظمة العامة، ونماذج محاكاة الحاسوب ، وفي الغالب يشار إليها بصورة جماعية (وفي الغالب بصورة فضفاضة) بتحليل للأنظمة أو مدخل للأنظمة. ان إدخال الفكرة العامة لتحليل الأنظمة في الجغرافيا قد تولاها بلوت Blaut وشورلي Chorley في عام ١٩٦٢ وقد دعمها أكرمان Ackerman ببحث فعّال في عام ١٩٦٣. ولقد كان أكرمان متحمساً على نحو الخصوص لتوفير امكانية النظر عن طريق الأنظمة

الى مجموعة من المشاكل Problems في مستويات مختلفة بطريقة لم تكن ممكنة من قبل ، وأن الأنظمة قد وفرت وسائل جديدة لحل المشاكل ، ووضعت الجغرافية في وضع مقارب للحقول العلمية الأخرى ذات الاهتمامات المشابهة. إن التطبيقات الفعلية لبعض هذه المناهج يمكن ان ترى في الأساليب الجديدة المتخذة في الجغرافية الطبيعية التي يتبّعها شورلي وكندي Knnedy (١٩٧١) ، وكذلك في المؤلف الضخم بقلم بنيت Bennet وشورلي المعنون "الأنظمة البيئية : فلسفة وتحليل وضبط" المنشور عام ١٩٧٨، وفي هذا الكتاب ميّزوا بين الأنظمة الصلبة (وهي الأنظمة القادرة على التخصيص والتحليل والمعالجة بشكل صارم وكمّي نوعاً) وبين الأنظمة اللينة التي لا تخضع للأسايب الاحصائية. إن هذه الأنظمة تظهر في الأنظمة (الطبيعية - الايكلوجية) والأنظمة (الاجتماعية - الاقتصادية) والمواد الخاصة بالتدخل البيئي والتكافل بين الأحياء. وعلى العموم فان الترميز الشكلي للأنظمة الصلبة قد عوض عنه بالمناقشة الشفوية من نوع أكثر تقليدية عند تناول أمثلة من النوع المتداخل. وفي وسعنا أن نقصي الاستنتاج بأن الشمولية المنبثقة كانت في ذلك الوقت عصية على الامساك بواسطة لغة الأنظمة (الصلبة) وكذلك ، فان كتاب كوفي Coffey (١٩٨١) ، وان استخدم الرياضيات حيثما أمكن ذلك ، يلجا الى الكلمات حينما يختص الأمر بأنظمة كليّة. وينبغي أن نتجه الى كتاب ويلسون Wilson (١٩٨١) من اجل شكلانية ، عنيدة في المنهج تحتفظ بصرامتها ، ماعدا المثال الذي أورده عن ادارة الأرض الأراضي السبخة ، فان الرياضيات لا تطبق إلا على المكونات البيولوجية للنظام. إن تفاعلات استخام الأرض وفرص التغيير قد وصفت بصورة كلامية في جدولين كبيرين. أما النماذج المدينية وموارد المياه فانها جاءت أكثر اختزالاً في مجموعات المعادلة. وكما استنتج ويلسون ، فان مثل هذه التقنيات (التكنيك) هي محصلة حقل حديث نسبياً. ومع أن معالجة التعقيد قد تحسن بواسطة هذه الأساليب ، فان من الواضح ان التحسينات ستكون وشيكة. وهكذا فان مقدرة تحليل الأنظمة في معالجة الأفكار الكلية في الجغرافية لم تثبت بعد ، كما أنها كذلك لم تنقض ، أما بالنسبة للأساليب الكمية الأخرى فان من السابق لأوانه أن نصدر عليها حكماً نهائياً.

إن احدى الطرق التي أدت إليها فكرة النظام البيئي Ecosystem هي محاولة تميز العلاقات الوظيفية للكل whole بواسطة خصائص معينة يمكن قياسها مثل

تدفق الطاقة ودوران المادة ، مقلدين نموذج لندمان Lindman (١٩٤٢) في الأسلوب الغذائي الحركي لوظيفة النظام البيئي. وعلى اعتبار ان تدفق الطاقة ودورة المادة هي من خصائص البيئة الطبيعية بقدر ماهي من خصائص العالم الذي يصنعه الانسان ، فاذن توجد الفرصة لدراسة جميع التفاعلات . مثال ذلك ان من الممكن أن نميّز الزراعة حسب موازنة الطاقة التي تركزها النباتات الخضراء والطاقة التي تضاف الى نظام انتاج الغذاء في شكل مكننة ومخصبات ومبيدات وترزيم ، وكلها تمثل وقوداً متحجراً في حالة ما محولة. كذلك فان من الممكن أيضاً الاستقصاء عن مثل هذا التدفق لاقليم بكامله كما تم فعلاً بالنسبة لهونغ كونغ، حيث ان اعتمادها المتنامي على موارد الطاقة الخارجية ليس بالنسبة للنمو الصناعي فحسب بل لكي تستطيع المحافظة على انتاج مكثف أكثر للغذاء قد أمكن رسمه ، وصممت سياسات معينة بالنسبة لذلك (مثلاً لتخفيض الحاجة الى الطاقة المستوردة كمخصبات وذلك باستخدام تربة - ليلية مرة أخرى بدلاً من ان تسمح لها بأن تفسد بمياه الساحل). وعلى نطاق أوسع اقترح أودوم E.P. Odum (١٩٧٥) تصنيفاً رباعياً لوجه الأرض حسب نوع نظام الطاقة الذي تقع على احد أطرافه المحيطات المفتوحة وغابات الأمطار في الأراضي المرتفعة (بدون اعانة من طاقة مضافة للمجتمعات البشرية) ، وفي جزيرة مانهاتن على الطرف المقابل وليس فيها من الطاقة سوى طاقة مستمدة من المتحجرات. ولذلك فليس هناك من داع لأن ندهش بان هذا النوع من المنهج الشمولي قد خلق نظرة الى الجغرافية على انها شكلاً من أشكال الايكولوجيا البشرية. ان هذا المصطلح قد ادعاه عدد من الحقول العلمية والتي كان أحدها حقل الجغرافية، وكنوع من الجغرافية قد تأثر بصورة قوية بالمدرسة الجغرافية الفرنسية للعشرينات وبالنزعات الأنثروبولوجية لمدرسة بيركلي berkely التي أوجدها ساور C.O. Sauer. وفي كلتا هاتين المدرستين كانت حدسية اكثر منها كمية ولذلك فلعلها لم تكن دافعة لشمولية علمية. ومع ذلك فانه على يد شخص موهوب مثل بتزر K.W. Butzer (١٩٨٢) ، صارت التركيبة Synthesis الكلامية لشمولية علاقات المجتمع - البيئة في الأزمنة القديمة قطعة من البحث العلمي العالي التي لا حاجة لأحد أن يخجل منها.

هل كانت الشمولية Holism ناجحة ؟! وكما نوقشت أعلاه في علاقتها بالمشابهة مع علم الطبيعة ، لم تكن كذلك بصورة مثيرة ، على الرغم من ان

الدراسات الإقليمية للطاقة والمادة (وللأسف لم يقم بها الجغرافيون) تعد بقابلية من نوع معين للتنبؤ وإنه لم يكن بنسبة مائة بالمائة من مستوى التنبؤ. وفي ضوء الهندسة الاجتماعية يمكننا الاشارة الى النجاحات العظمى للحركة البيئية لأعوام الستينات والسبعينات في لفت الانتباه الى جميع أنواع القضايا بدأ بآثار النمو السكاني ، الى التلوث البيئي،والتأثير البيئي للتكنولوجيا العالية ، والحاجة الى نوعية بيئية عالية. وفوق كل شيء ، نجحت الحركة في زرع بذرة فكرة ان الأرض كانت كلاً Whole واحداً (وقد ساعدتها بعض الصور العظيمة المستقاة من برامج الفضاء) وان عملاً في مكان معين قد ينتج نتائج غير متوقعة في مكان آخر. وان الكل Whole له مرونة غير محددة للمناورة بواسطة المجتمع البشري.

الشمولية وراء الجغرافية:

ان المساهمين الآخرين في هذا الكتاب سوف يعالجون احتمالات التطبيقات للأساليب الاختزالية في الجغرافيا. وهكذا فاننا في هذا القسم سنتدارس بعض أعمال الباحثين خارج حقلنا الجغرافي الذين كانوا معنيين بتجربة وايجاد طريقة لدراسة مستوى المجتمع – والبيئة التراتبي الذي سيؤدي الى فهم كيف تعمل وما يمكن ان يكون خاطئاً في التفاعلات الجارية. إن إحدى مثل هذه الأفكار هي مفهوم غايا Gaia الذي وصفه لوفلوك Lovelock ومارغليس Margilis (١٩٧٤) ، انظر أيضاً لوفلوك (١٩٧٩). فلقد وضعا نظرية بأن الملامح الطبيعية المهمة للأرض مثل المكونات الغازية للغلاف الجوي ، هي ليست حالة قد تكيفت لها الحياة ، ولكنها نتيجة للتطور المشترك للحياة والمادة اللاحيّة. ولقد أبرزت نظريتهما للنور ، مثلاً ، الدور الحاسم لغاز الميثان الذي أنتج عضوياً في تنظيم محتويات أوكسجين الهواء ، والأخطار بالنسبة للغلاف الجوي في زيادة انتاج يوديد المثيل إذا ما زرع عشب البحر. وهما يشيران الى أن الأنظمة الحيّة للأرض قد استطاعت أن تبقى في ظل العصور الجيليدية في حقبة البلايستوسين في الوقت الذي كانت فيه معظم المنطقة المعتدلة من نصف الكرة الشمالي بدون حياة. وهكذا فإن فقدان المادة الحية بسبب النشاطات البشرية في المناطق الشمالية الصناعية قد لا تكون مهمة ، إن المنظمات للاستقرار العضوي والاعضوي قد تكون الكائنات الحية للأرصفة القارية والغابات الاستوائية في السهول المنخفضة

ذات الانتاج البيولوجي العالي. إن حماية هذه الأحياء Lioms قد تتخذ أهمية أعظم مما هو مُعطى حالياً لمثل هذا المسعى.

إن أحد الأفكار الرئيسية في نظرية غايا Gaia هي المتعلقة بالتطور المشترك لكل من اللاعضويات والمادة الحية ، مع توقيفات في التساوق كلما تحققت مستويات جديدة في التعقيد. ويمكن ملاحظة الخصوصيات المنبثقة كما يمكن تمييز بعض المعايير الكليّة. ويلاحظ جانش E. Jantsch (١٩٨٠) أن كل مستوى من مستويات التعقيد يمتلك خصوصياته ذات التنظيم - الذاتي (ولا يمكن التنبؤ بها من تلك التي هي في مستويات أدنى من التعقيد) وأن من الممكن تطوير مقاييس كلية معينة ، وإحدى هذه المقاييس هي المقدرة على التعامل مع غير المتوقع. وفي البشر تبلغ كمية المعلومات المورّثية (الجينية) المخزونة من عشرة الى خمسة عشر مرة مما يحتاج إليها ، وان نظام المناعة البشري يتحسن فعلياً خلال فترة حياة الكائن الحي بكليتها. فهل هناك إذن مقياس كلّي لإمكانية المجتمع في مواجهة غير المتوقع يمكن أن يضاف الى الخصائص المكانية الأخرى والتي بطبيعتها الذاتية الخاصة تشتمل على مظاهر للانسان كحيوان في كل من الناحيتين الايكولوجية والنفسية. إن موضوع التطور الذي يتردد خلال بحث جانش ، في مناقشته لأنواع الاقتصاد الممكنة ، اعترف ليس فقط بالأصناف التاريخية مثل: (أ) سيطرة البيئة بواسطة الطاقة والمادة ، (ب) تكيف البيئة الاجتماعية للبيئة الطبيعية (ج) التكافل ، مستخدماً أنظمة مغلقة لمحاكاة عمليات بيولوجية (د) استعمار اجزاء من النظام الشمسي بل اصناف كذلك (هـ) امتداد ثوري للوعي مع معلومات تقنية ، لا تخدم توجيه الطاقة وعمليات الانتاج فحسب، بل تساعد أيضاً في تنويع تجربتنا الخاصة. ولقد كتب جانتش يقول :" ان التعلّم لابد ان يصبح لعبة خلاقة تلعب مع الواقع". ولابد ان يسمح للعمليات الخلاّقة في ان تتفتح وتشكل بنيات جديدة، بل ان هناك بعض الغلو المسموح به مادام التطور لم يكن يوماً وظيفي خالص.

ومن المقاييس الأخرى التي يمكن استعمالها في دراسة المجتمع مع بيئته هو اسلوب الانتروبوجيا. ويستمد هذا المفهوم ابتداءاً من مفهوم (الديناميكا الحرارية)، وفي شكلها العام الأقصى تسمح بقياس الاضطراب في النظام. وفي حالة تبادلات الطاقة ، يخبرنا القانون الثاني في (الديناميكا الحرارية) أن (الانتروبيا) لايمكن ان تتناقص في نظام معزول ، مادامت الطاقة تتبدد في أي

عملية ، وإن الاختلافات الحرارية التي تسمح بإنجاز العمل تميل الى التناقص ، بحيث أن نتيجة النهاية الحتمية هي نظام ذو حرارة متجانسة وبالتالي فوضى كاملة، أو أنثروبيا قصوى. ويبدو أن إحدى انتصارات الحياة كعملية هي تعزيز التعقيد في وجه مثل هذا التقدم نحو الفوضى الشاملة ، ولكنها لا يمكن أن تنجح إلا على حساب الاستهلاك المتنامي وتناقص الطاقة. ولقد لفت انتباهنا العالم الاقتصادي جورسكور روجي Grorgescu-Roegen(١٩٧٦) الى الطرق التي زادت بها المجتمعات البشرية معدل انتاج الانثروبيا ، بالممارسات المخربة التي لا تعزّز التعقيد ، مثل الاسلحة ، والاهمال المخطط للبضائع الاستهلاكية والاستهلاك الترفيهي للطاقة. وبالرغم من صحة ماقلناه ، فإن من الصحيح أيضاً أن جميع العمليات التطورية تستهلك طاقة ، إن الصعوبة المتبقية هو فرز الأغنام من الماعز في مرحلة التدجين الأولية. وعلى أية حال فان بعض المقاييس العمومية لمعدل خلق – الانثروبيا للمجتمع ستكون رصيداً هاماً لعلاقاتها البيئية.

وعلى طريق متقارب ، ولكن آتياً من الانسانيات لا من العلوم مؤلفات الناقد الاجتماعي تيودور روزاك Theodore Rozak البادئة بكتاب (أين تنتهي الأراضي البوار) (١٩٧٣) واشتملت في وقت لاحق على كتاب (الشخص والكواكب) (١٩٧٩). إن الموضوع الرئيسي للكتاب الأخير هو ان أنظمة الكوكب يمكن ان تُغذّى استرجاعياً الى الحياة في اشكال مثل رسائل الانسان حول سلوكها ، وان الشكوك الجارية للنوع الذي أثارته حركة البيئيي هي علامة على كون الصحة الكوكبية مهددة باستنزاف الموارد وبتلوث البيئة. ان مجموعة من الأنظمة الطبيعية الحيوية يمكنها أن "تتصل" بالانسان العاقل (هومو سابينس) تبدو فكرة شاذة بالنسبة للكثيرين منا ، ولكن إذا ما اعتقدنا بالتطور المشترك من النوع الغاياني gaiani مع اضافة بعض الأفكار التي لخصناها في الجزء الأخير من هذه المقالة ، فحينئذ ربما يكون مستوى الجنون مثلاً اعظم من ممتلكات السلحة التي تحتفظ بها القى العظمى.

ويمكن أن نرى محاولة توحيد المقالة العلمية مع الانسانيات المستندة الى معرفة كوكبية في كتاب كابرا F. Capra المعنون (نقطة التحول Turning Point) (١٩٨٢) . ويقترح هذا الكتاب في الجوهر أن هناك نموذجية في النظر الى العالم. الأول نظرة الاختزاليين السائدة التي هي نتيجة لما بعد الفكر الكارتيسي Cartesian خلال القرون الأربعة الأخيرة. وهذا يعطينا في تأثيره رؤية ميكانيكية

للعالم. وبالمقابل هناك الرؤيات العضوية أو الكلية للعالم والتي تستند في رأيه الى " رؤية أنظمة أو العلاقة المتبادلة الرئيسية والتوافق لجميع الظاهرات ، طبيعية وبيولوجية وسيكلوجية واجتماعية وثقافية ". وفي هذه الرؤية تكون الاختزالية والكلية (التحليل والتركيب) أساليب متتامة ولكن ليس أي منها كاملاً بدون الآخر ، ومن المأمول (إذا ما أمكن ان يُخطط له) أن يحفظ التطور الثقافي التوازن بين الأثنين. ولقد كتب غوته gaetha قائلاً: (إن علم الطبيعة له هدف واحد وهو أن يجد المتعدد والكلّ).

ولعل ذلك ليس طموحاً سيئاً للجغرافية. إن استنتاج كابرا Capra الأساسي هو اننا في الوقت الحاضر في "نقطة تحول" حينما تصبح الاختزالية السائدة في عهود مابعد الكارزية post- Carterian على وشك أن تقع ضمن كل جديد ذي نظام مختلف عن أي شيء كان موجوداً من قبل. وإنه لرأي متفائل، ويمكننا أن نتأمل جميعاً ، على اية حال بأن يتحقق.

نقطة إلتقاء:

إن المعرفة التي حصلنا عليها عن العالم في هذا القرن قد أثرّت بطريقة من الطرق في تحول خاص بالادراك الحسي ، حيث إنه لم يعد يمكننا الاعتقاد في النوع الآلي للنظام الأرضي الذي هو مشابه لمنضدة البليارد. اضرب كرة البليارد بصورة صحيحة وسوف تسقط الكرة السوداء في جيب المنضدة وسوف تكون حينئذ كرة حمراء موجودة في الوضع الصحيح تماماً. ولكن العالم (وربما حتى الكون) أقرب لأن يكون جسم متحرك معلق حيث ان لمسة بسيطة موجهة لأحد مكوناته تسبب للبقية اعادة ترتيب أوضاعها ، بعضها بدرجة كبيرة والأخرى بدرجة أقل. وإن ادراك كليّة العالم "المتحرك" هدف أعظم تعقيداً بكثير من ذلك الذي افترضناه أقرب ما يكون الى لعبة البليارد. وإن أحد الاستنتاجات التي يمكن مناقشتها هو أن الكليّة Holism الحقيقية صعبة جداً بالنسبة لقوى ذهننا. ولقد اشار هالدن J. B. S. Haldane بشكل مناسب أن العالم ليس أشد غرابة مما نظن ، وقد يكون أغرب مما نظن نحن. وإذا كنا كنوع بشري غير سعداء في قبول تجديداتنا إذن من أين ستأتينا المساعدة ؟! إن المصدر الواضح ، على ضوء التفكير الحالي ، يأتي من الحاسب الألكتروني ، وهي المسماة هنا آلات "الجيل الخامس" وهي ليست قادرة على خزن كمية هائلة من البيانات فقط بل معالجتها

في طراز من التنظيم الذاتي والتكيف ، والذي قد يكون ذا فائدة عظمى ، وإن لم يعرف كيف يتم ذلك بالضبط وقد لا يعرف حتى في وقت قريب ... إن البديل لذلك هو القبول بأن إدراك الكليّات هو من مهمات التفكير الحدسي وأن صناعة المعرفة ينبغي أن تعيد تقييم سلطة وقيمة وعي البشر ، كافراد وكمجموعات. وفي بعض انواع التفكير الشرقي ، ولا سيما التفكير التاويين Tawism ، فان مثل هذه الطريقة من طرق العمل هي الطريقة الاعتيادية ، أما التحليل الاختزالي فهو ليس ضرورياً ولا مرغوباً فيه. ومن غير المحتمل أن ينسى الغرب تراثه العقلاني ، ما بعد الكارتسي Cartesian ، وهو العلم ، لكن البعض قد يتفق مع كينيث بولدينج Klnneth Boulding (١٩٨١) الذي يؤكد بأن "العلوم الصلبة هي العلوم الاجتماعية لأنها في الحقيقة تعلم أكثر بكثير من مجموعات الحقائق والعلاقات التي تقوم ببحثها ، في حين أن العلوم " اللينة " مثل علم الطبيعة وعلم الكيمياء تعرف القليل جداً عن عالمها المختار. إن الاختلاف العظيم بينهما هو ببساطة مقدرة الأولى للقيام بتنبؤات موقتة دقيقة.

هل نقف إذن على قرون الحيرة ؟! وإذا كان الأمر كذلك ، فان أفضل الحلول هو ان نقذف الرمل في عيون الثور. وهل يمكن أن نتخيل أننا كنا نسأل الأسئلة الخاطئة أو نستخدم المعايير الخاطئة في تقيمنا ؟! هل علم الطبيعة مثلاً ليس كل ما تصورناه ؟ وإذا ما أتجهنا الى بعض الكتّاب الذين يكتبون حول نظرية المعرفة في علم الطبيعة المعاصر فسنرى حينئذ أن أي صورة ساذجة لنمط البحث الحر من القيمة ، والتي يكتفي فيها الباحث بتسجيل ماهناك فحسب ويقدم قوانين ذات ثقة كليّة للنجاح العملي ، فاننا نلاحظ ان هذه الصورة بحاجة الى تعديل كبير. وفي كتابه المبكر المعنون (علم الطبيعة ، التاوي The Tae of Physicas) (١٩٤٥) لم يعمد كابرا Capra الى لفت الانتباه الى التماثلات بين فيزياء الجسيمات والفلسفة الشرقية ، ولكنه جادل بانه منذ إعلان مبدأ الشك لهيشنبرغ Heisenberg Uncertainty Principle ، فان الملاحظ Observer ووعيه لابد وأن يعتبر جزءاً من النظام (وان الطبيعة لا تُرينا أية "بنيات أساسية " بل تبدو كنسيج العنكبوت المعقد من علاقات بين الأجزاء المختلفة من الكلّ. إن هذه العلاقات تشتمل الملاحظ دائماً بطريقة جوهرية) . وهكذا فاننا عند النظر الى حركة الموجة للجزئيات ، فان التجارب التي تقيس الموضع بصورة دقيقة جداً لا يمكنها أن تقيس الزخم بصورة دقيقة جداً ، والعكس بالعكس. ولذلك فان ماكان

معروفاً عن الذرة قد اعتمد على اختيار التجربة ، وفضلاً عن ذلك ، كان هناك دائماً حدّاً للخطأ بحيث أن قوانين علم الطبيعة هي قوانين احتمالية وليست قوانين حتمية. ان التصور الراديكالي القائل بأنه في علم الطبيعة يكون وعي الملاحظ جزءاً لا يتجزءاً من النظام ، قد بحثه جونز R. Jones واقترح بأن المفاهيم الاساسية لعلم الطبيعة (المكان ، الزمان ، المادة ، العدد) تتعلق بصورة حميمة بالوعي الانساني ولا يمكن الضمان بأن تملك أي وضع موضوعي خارجي خارج أذهاننا ، وهكذا يصبح علم الطبيعة مجازاً ، فكرة أو رمز ذو معنى ، وإذا كان هذا التفوق لازدواجية الشخص والطبيعة يمكن أن يصحّ هنا ، فاذن أية مضامين ينبغي أن يكون هناك للمناهج الكليّة في الجغرافية!

سماوات زرقاء:

في السنوات الخيرة استعار الجغرافيون الى مواضيعهم الكثير من أساليب البحث والفلسفات من العلوم الاجتماعية والعلوم الانسانية. وفي ختام هذا الفصل دعونا نتدارس فكرتين رائدتين من أفكار التفكير العلمي اللتين استمدتا من علم لاحياء وعلم الطبيعة واللتين تبدوان في المستقبل مهمتان للجغرافيا بدرجة أوضح ولكنهما في الوقت الحاضر تبدوان عبارة عن مفاهيم " سماء زرقاء " على حافة تخوم المعرفة.

وبما ان علم الأحياء قد اشير إليه في هذا الاستعراض فقد يكون من المناسب أن نذكر هنا آراء روبرت شلدريك Robert Sheldrake (١٩٨١) التي خلقت بعض الاثارة في علوم الحياة. ويقترح شلدريك بأن الاطرادات في الطبيعة ليست مسببة بواسطة قوانين ثابتة خلال الزمن ، لكن الأحداث هي أقرب الى أن تكون عادات تعتمد على ماحدث من قبل وكيف حدث. ولقد أظهرت التجارب المختبرية أنه إذا ما تعلمت فئران المختبر نمطاً جديداً من السلوك ، فان الفئران اللاحقة في كل العالم تميل الى أن تتعلم بسهولة أكبر وتسمى هذه العملية " التسبب التوليدي " مع تسمية النمط الناقل " الرنين الشكلي" . ولذلك فان الكائنات الحية العائشة يمكن ان يقال عنها انها تتناغم مع تجارب اسلافها. وكشأن بقية الأفكار الجريئة الكاسحة ، كانت أفكار شلدريك عرضة للتدقيق الشديد وللنقد القاسي ، ولكنها تتميز بكونها من الممكن أن نختبر عملياً ، وهذا هو ما يجري في الوقت الحاضر. فاذا ما لقيت دعماً ، واعترف بان سلوك

الكائنات الحية العائشة خاضعاً لتـاثيرات عـبر المكـان والزمـان ، فحينئـذ سـتكون النتائج بالنسبة لطرق تفكير الجغرافية عميقة ولربما حملنا الى أبعد من النقطة التـي يكون فيها الانقسام بين الكلية والاختزالية لا معنى لها على الاطلاق.

إن مجموعة الفكار الثانية المستمدة من عالم الطبيعة دافيد بـوم David Bohm وهي امتداد للفكرة القائلة بأن الوعي والطبيعة Physicality لايمكن فصلهما بصورة موضوعية ويقترح بوهم تصوراً جديـداً (١٩٨١) والتـي يسـميها (النظـام المضمـن Imphicate) حيث يكون كل شيء فـي الكـون مغلـف فـي كـل شـيء. إن هـذه الفكرة على نقيض من فكرة (النظام المفسّر Exphicate) حيـث يكـون كـل شـيء يوجد في منطقته من المكان والزمان فحسـب ، وخـارج المنـاطق التـي تعـود الـى الاشياء الأخـرى. ويمكـن أن يُقـام تمـاثلاً مـع الهولوغـرام Hologram (الرسـم الكامل) ، فاذا ما أضيء جزء فقط من الهولاغرام فاننا مع ذلك نحصل على صـورة كاملة للشيء مادام كل جـزء مـن الهولاغـرام يشـتمل علـى معلومـات عـن الكـلّ. وهكذا فـان مـاهو مفسـر هـو عبـارة عـن تصـور لواقـع ذي ابعـاد أعلـى هـو أرض مشتركة لكل من العقل والمادة ، ولكنه في الوقت نفسـه مـن نـوع وراء كليهمـا. ويقول بوهم Bohm (ويتبع ذلك بأن المفسّر والنظام الظاهر للوعي ليس في النهاية متميزاً من ذلك الذي للمادة على العموم). وإذا كان الأمر كذلك فعلاً فاذن هناك عدة مضامين (وليست في الأقل ذات طبيعة غيبية) ولكن بالنسـبة للجغرافيـة تبـدو أنها تتضمن في النهاية كليّة مادام لا يوجد في الواقع أيـة ثنائيـة يمكـن ملاحظتهـا. إن تعقد هذه المجموعة من الأفكار قد يجعلنا نفكر بـأن الكليّـة ، بالنسـبة للوقـت الحاضر ، لايمكن أن تمارس بصـورة صحيحـة بواسـطة الحـدس ، والـذي يكـون الشعر أعلى شكل في تعبير كلامي لها. وفي هذا السياق قـد نكـون فـي الحقيقـة في وضع كما عبّر عنه الشاعر ويليام بليك Blake حيث قال:

لكي ترى العالم في حبة رمل
والسماء في زهرة وحشية
إمسك اللانهاية في راحة يدك
والأبدية في ساعة واحدة.

المراجع

1- Ackerman, E. (1963) 'Where is a research frontier?', Annals Association of American Geographyers, 53, 429-40.

2- Bennett, R.J. and Chorley, R.J., (1978) Envirnmental Systems: Philosophy, Analysis and Control, Methuen, London.

_ and Wrigley, N. (1981) Introduction, in Wwrigley, N. and Bennett, R.J. (eds), Quantitative Geography: A British View, London, Routledge & Kergan Paul, 3-11.

3- Blaut, J.M. (1962) 'Object and relationship', Professional Geographer, 14 (6), 1-7.

4- Bohm, D. (1980) Wholeness and the Implicate Order, London, Routledge & Kegan Paul.

5- Boulding, K.E. (1981)Evolutionary Economics, Beverly Hills, California, Sage Books.

6- Butzer, K.W. (1982) Archaeology as Human Ecology: Mothed and Theory for a Contextual Approach, Cambridge University Press.

7- Capra, F. (1975) The Tao of Physics: An Exploration of the Paralles Between Modern physics and Eastern Mysticim, London, Wildwood House.

_ (1982)The Turning Point: Science, Society and the Rising Culture, London, Fontana.

8- Chorley, R.J. (1962) Geomorphology and General System Theory, United States Geological Survey Professional Paper, 500B, US Government Printing office.

_ and Kennedy, A.B. (1971) physical Geography: A System Approach, London, Prentice-Hall.

9- Coffey, W.J. (1981) Geography: Towards a General Spatial Systems Approach, London, Methuen.

10- Georgescu-Roegen, N. (1976) Energy and Economic Myths: Istitutional and Analytical Economic Essays, New York, Pergamon Press.

11- Glacken, C.J. (1967) Traces on the Rhodian Shore: Nature and Culture in Western Thought from Anciient Times to the End of the Eighteenth Century, Berkeley and Los Anggeles, University of California Press.

12- Haggett, P. and Chorley, R.J. (1967) 'Models, paradgms and the new geography', in Chorley, R.J. and Haggett, P. (eds), Models in Geography, London, Methuen, 19-41.

13- Jantsch, E. (1980) The Self-Organizing Universe, Oxford, Pergamon Press.

14- Jones, R. (1983) physics as metaphor, London, Wildwood House.

15- Lindeman, R.L. (1942) 'The trophic-dynmic aspect of ecology', Ecology, 23, 399-418.

16- Lovelock, J.E. (1979) Gaia: A New Look at life on Earth, Oxford, Ocford University Press.

_ and Margulis, L. (1974) 'Atmosmospheric homeotasis by and for the biophere: the Gaia hypothesis', Tellus, 26, 2-10.

17- Mayr, E. (1982) The Growth of Biological Thought: Diversity, Evolution and Inheritance, Cambridge, Mass., Harvard University Press.

18- Odum, E.P. (1975) Ecology: the Link Between the Natural and the Social Sciences, 2nd edn, New York, Holt, Rinehart & Winston.

19- Rosak, T. (1973) Where the Wasteland Ends; Politics and Transcendence in Post-industrial Society, London, Faber & Faber.

_ (1979) PersonLPlanet, London, Gollancz.

20- Sheldrake, R. (1981) A New Sciense of Life : The Hypothesis of Formative Causation, London, Blond & Briggs.

21- Shoddart, D.R. (1965) 'Geography and the ecological approach: the ecosystem as a geographic principle and method', Geography, 50, 242-51.

22- Wilson, A.G. (1981) Geography and the Environment: Systems Analytical Methodes, Chichester, John Wiley.

الجر على الجوار في التراث النحوي

بقلم : الدكتور طارق نجم عبدالله
الأستاذ المشارك في قسم اللغة العربية

نقل عن العرب قولهم " هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ "[1] ، حيث جُرَّت كلمة (خرب) – وحقها الرفع – لأنها نعت لـ (الجحر) لا لـ (الضب) ، والسبب عندهم مجاورة المجرور .

قال سيبويه : " وقد حملهم قربُ الجوارِ على أن جَرّوا : هذا جُحْرُ ضبٍّ خربٍ ونحوه .. "[2].

وقال أبو حيان : " .. ومما لم يتبع النعت فيه المنعوت قول العرب (هذا جُحْرُ ضبّ خربٍ) بجر (خرب) وحقه الرفع لأنه وصف للجحر لا للضب ، لكنه جُرّ لمجاورته المجرور ، وهذا الذي يقولون فيه الخفض على الجوار .. "[3] .

ولهم على ذلك شواهد قرآنية وأخرى شعرية .

فمن شواهدهم القرآنية :

أولاً : قوله تعالى : ﴿ مثلُ الذينَ كفروا بربّهم أعمالُهُم كرمادٍ اشتدت به الريحُ في يومٍ عاصفٍ ﴾ إبراهيم ١٨/١٤

فقد ذهب بعض العلماء إلى أنَّ كلمة (عاصف) جاءت في الآية الكريمة مجرورة لمجاورتها لـ (يوم) المجرورة ، لأنَّ العصوف ليس من صفة اليوم ، بل هو من صفة الريح .

وممن قال بذلك الفرّاء عند حديثه عن الآية الكريمة ، وبعد أن ذكر وجهين لتوجيه الجر قال : " وإن نويت أن تجعل (عاصف) من نعت الريح خاصة فلمّا جاء بعد اليوم اتبعته إعراب اليوم ، وذلك من كلام العرب أن يتبعوا الخفض الخفض إذا أشبهه . "[4]

وقد أورد الفرّاء شواهد شعرية يثبت فيها ورود هذا اللون من الاتباع في كلام العرب ، حيث استشهد ببيت لم ينسب وهو :

كأنّما ضَرَبَتْ قُدّام أعْيُنها قطناً بمستحصدِ الأوتارِ محلوجِ

فخفض (محلوج) على الجوار ، وكان ينبغي أن يكون (محلوجاً) لكونه وصفاً لقوله (قطناً) ، ولكنّه خفضه على الجوار.[5]

وقول ذي الرّمة :

تريك سُنَّة وجهٍ غير مقرفةٍ مَلْسَاءَ ليس بها خال ولا نَدَبُ

فخفض (غير) وحقه النصب[٦] .

كما استشهد بقول الحطيئة :

وإيّاكم وحيّةَ بطنِ وادٍ هموزِ الناب ليس لكم بسيِّ

حيث خفض (هموز) و هي نعت لـ (حيّة) المنصوبة .

قال الفرّاء : " ومما يرويه نحويونا الأولـون أنَّ العـرب تقـول : هـذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ . والوجه أن يقول : سُنَّة وجه غيرَ مقرفة ، وحيَّة بطنِ واد هموزَ النـاب ، وهـذا جُحْرُ ضبّ خربٌ "[٧] .

ولي حديث عن الشواهد الشعرية في موضع آخر من هذا البحث .

والملاحظ أنَّ الفرّاء لم يذكر مصطلح (الجـر علـى الجـوار) أو (الخفـض علـى الجوار) وإنما ورد في عبارته (أن يتبعوا الخفض الخفض إذا اشبهه) .

وقد أورد هذا التوجيه للجـر فـي الآيـة الكريمـة – محـل البحـث – غـير الفـرّاء ، النحاس[٨] وقد ردّه – كما يأتي – ، والقرطبي نقلاً عن الثعلبي والماوردي[٩].

وللعلماء في توجيه الآية الكريمة مذاهب هي :

١– أنَّ العصوف وإنْ كان للريح فإنَّ اليـوم يوصـف بـه ، لأنَّ الريـح فيـه تكـون ، فجاز أن تقول : يوم عاصف ، كما تقول : يوم بارد و يوم حار .قـال الفـرّاء : " وقـد أنشدني بعضهم :

يومين غيمين ويوماً شمساً

فوصف اليومين بالغيمين ، وإنما يكون الغيم فيهما . "[١٠]

وإلى هذا ذهب الزمخشري والطوسي والطبرسي والقرطبي وأبوحيّان[١١].

٢– أنّه على معنى : يوم عاصفِ الريحِ ، فحذفت (الريح) لأنّها قـد ذكـرت فـي الآية ، وشاهدهم قول الشاعر :

فيضحكُ عرفانَ الدروع جلودُنا إذا جاء يوم مظلمُ الشمس كاسفُ

يريد : كاسف الشمس[١٢].

وبه قال النحاس نقلاً عن الفراء ، والطبرسي والقرطبي وأبو حيّان[١٣] .

٣– أنه من باب النعت السببي على تقدير (في يوم عاصف ريحـه) ، كمـا يقـال (مررت برجلٍ قائم أبوه)، ثم حذف (ريحه) لوضوح المعنى .

قال بهذا مكي بن أبي طالب ، وأبو البركات الأنباري ، والطوسي ، والطبرسي[١٤] .

٤ – على تقدير في يومٍ ذي عصوف ، كقولهم : رجلٌ نابلٌ ورامح ، أي ذي نبل ورمح .

قال به النحاس ، ومكي بن أبي طالب ، وأبو البركات الأنباري[١٥] .

وفي الآية محل البحث قراءة شاذة نسبت لابن أبي اسحاق ، وإبراهيم ابن أبي بكر هي :(في يومٍ عاصفٍ) [١٦].

والوجه فيها حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه ، أي في يوم ريح عاصف .

قال ابن جنّي : " وحسن حذف الموصوف هنا شيئاً لأنّه قد أُلف حذفه في قراءة الجماعة : في يوم عاصفٍ ، فإن قيل : فإذا كان عاصف قد جرى وصفاً على يوم فكيف جاز إضافة يوم إليه ، والموصوف لايضاف إلى صفته إذا كانت هي هو في المعنى ، والشيء لايضاف إلى نفسه ، ألا تراك لاتقول : هذا رجل عاقلٍ ، ولاغلام ظريفٍ ، وأنت تريد الصفة ، قيل جاز ذلك من حيث كان اليوم غير العاصف في المعنى ، وإنْ كان إيّاه في اللفظ ، لانَّ العاصف في الحقيقة إنما هو الريح لا اليوم وليس كذلك : هذا رجل عاقل ، لانَّ الرجل هو العاقل في الحقيقة ، و الشيء لا يضاف إلى نفسه فهذا حذف . "[١٧]

ثانياً : قراءة يحيى بن وثاب و الأعمش لقوله تعالى :

﴿ إنَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ ذو القوّةِ المتينُ ﴾ الذاريات ٥١/٥٨

حيث قرءا الآية الكريمة : ﴿ ذو القوّةِ المتينِ ﴾[١٨] .

ولهم في توجيه هذه القراءة مذاهب :

منها : الخفض على الجوار ، قاله أبوحاتم كما نقله عنه النحاس ، وابن جنّي في المحتسب ، وعنه نقل الطبرسي و أبوحيّان[١٩] .

قال النحاس : " و زعم أبوحاتم أنَّ الخفض على قرب الجوار ، قال أبوجعفر : والجوار لايقع في القرآن، ولا في كلام فصيح ، و هو عند رؤساء النحويين غلط ممّن قاله من العرب . "[٢٠]

والذي يشكل على هذه القراءة ، الاختلاف في التذكير و التأنيث ، والنعت يقتضي التطابق ، لأنَّ (القوّة) مؤنثة ، و (المتين) مذكر . وقد حاول بعضهم تخريج هذا الاختلاف على أنَّ (القوّة) يراد بها هنا (الحبل) ، فكأنه وصف للحبل. قال ابن جنّي : " فكأنه قال : إنَّ الله هو الرزاق ذو الحبل المتين ، وهذا واضح "[٢١]

او على أنَّ (المتين) على صيغة (فعيل) ، وقد كثر مجيء (فعيل) مذكراً وصفاً للمؤنث[٢٢] .

وابن جنّي قاس هذه القراءة على (هذا جحر ضبّ خرب) مع الاختلاف الواضح بين القول و الآية ، لأنَّ المنعوت في القول نكرة ، و في الآية معرفة ، والنكرة أشدّ حاجة للصفة -كما يقولون- ولهذا قالوا : فبقدر قوّة حاجتها إليها تتشبث بالأقرب إليها ، والمعرفة تقل حاجتها إلى الصفة ولذلك لا يسوغ التشبث بما يقرب منها لاستغنائها في الغالب عنها . والأصل ألاّ توصف المعرفة ، إلاّ أنَّ التداخل فيها أجاز وصفها بخلاف النكرة ، لأنّها في أوّل وضعها محتاجة لابهامها ، وهذا وما قبله يضعف القول بالخفض على الجوار .

وذهب الزجاج وآخرون إلى أنّ (المتين) -بالجر- نعت لـ (القوة) ، على تقدير ؛ الاقتدار ، لأنَّ الاقتدار والقوّة واحد ، والتذكير مرده إلى أنّ تأنيث (القوّة) غير حقيقي . قال الزجاج : " لأنَّ تأنيث القوّة كتأنيث الموعظة كما قال ﴿ فمن جاءه موعظة ﴾ المعنى فمن جاءه وعظ[٢٣] "

وعند غير الزجاج على معنى : الإبرام المتين[٢٤] .

ويرى الفرّاء أنَّ القراءة المشار إليها على تقدير : الحبل المتين ، و تابعه ابن جنّي والطبرسي[٢٥] .

قال : " قرأ يحيى بن وثّاب (المتين) بالخفض ، جعله من نعت القوّة ، وإنْ كانت أنثى في اللفظ ، فإنه ذهب إلى الحبل ، و إلى الشيء المفتول[٢٦] " .

والقراءة الرفع . قال النحاس : " قرأ به مَنْ تقوم بقراءته الحجة على أنّه نعت للرزاق و لذي القوة .. "[٢٧]

ثالثاً : قراءة حمزة والكسائي لقوله تعالى :

﴿ يطوفُ عليهم ولدان مخلدون ۞ بأكوابٍ وأباريق وكأسٍ من معين ۞ لا يصدّعُون عنها ولا يُنزفون ۞ وفاكهة ممّا يتخيرون ۞ ولحم طيرٍ ممّا يشتهون ۞ وحورٌ عينٌ ﴾ الواقعة ٥٦/١٧-٢٢

حيث قُرئت ﴿ وحورٍ عينٍ ﴾[٢٨]

وقد انفرد ابن هشام - في حدود اطلاعي - بحمل القراءة على العطف على الجوار . قال عند حديثه عن القاعدة الثانية في المغني : " أنَّ الشيء يعطى حكم الشيء إذا جاوره كقول بعضهم : (هذا جحر ضبّ خرب) بالجر ، و الأكثر الرفع، وقال :

..... كبيرُ أناسٍ في بجادٍ مزملِ

وقيل به في (و حورٍ عينٍ) فيمن جرَّهما ، فإنَّ العطف على (ولـدانٌ مخلـدون) لا على (أكواب و أباريقَ) وكأنـه قيـل : المقربـون فـي جنّـات وفاكهـةٍ ولحـم طـيرٍ وحورٍ .. "[٢٩]

وللعلماء في توجيه قراءة الجر أقوال :

١- العطف على اللفظ دون المعنى ، وعبّرَ عنه الفراء بـ (تتبع آخر الكلام بأوله)، مشبهاً هذا بقول الراعي النميري :

إذا ما الغانيات برزن يوماً وزججَّن الحواجبَ والعيونا

فالعين لا تزجج إنّما تكحل ، فردها على الحواجب لوضوح المعنى .

ومثله قول الشاعر :

ولقيتُ زوجك في الوغى متقلداً سيفاً ورمحا

والرمح لا يتقلد ، فرده على السيف[٣٠].

٢- على تقدير : ينعمون بـ ، لأنَّ المعنى (يطوف عليهم ولدان مخلدون) ينعمون بهذا ، وكذا ينعمون بلحم طير ، وكذلك ينعمون بحور عينٍ . قال به الزجاج ومَنْ تابعه[٣١] .

٣- على تقدير في جنات النعيم وفي حور عين ، أي في مقاربة ومعاشرة حور عين ، فحذف المضاف . قال بهذا الفارسي ومكي والزمخشري وغيرهم[٣٢] .

وهذا الوجه نسبه أبوحيّان للزمخشري ، وزعم أنَّ فيه بعداً وتفكيك كلام، وهو فهم أعجمي[٣٣] .

٤- العطف على المجرور بالباء ، قاله قطرب حيث نقل عنه مكي بن أبي طالب جواز كونه معطوفاً على الأكواب والأباريق ، فجعل الحور يطاف بهن عليهم ، قال: ولاينكر أن يكون لأهل الجنة في التطواف عليهم بالحور[٣٤] . وهذا ما ذهب إليه ابن خالويه أيضاً[٣٥] .

وقراءة ابن كثير وأبي عمرووعاصم ونافع وابن عامر بالرفع .. [٣٦]

وقد رجّح أغلب العلماء قراءة الرفع . قال الرجاج : ومَنْ قرأها بالرفع فهو أحسن الوجهين[٣٧].

والتقدير عند أغلبهم : ولهم حور عين .

رابعاً : قراءة حمزة والكسائي لقوله تعالى :

﴿ وهو الغفورُ الودودُ ۞ ذو العرشِ المجيدُ ﴾ البروج ٨٥/١٤-١٥

﴿ ذو العرشِ المجيدِ ﴾ بالخفض[٣٨] .

حمل بعض العلماء القراءة على الخفض على الجوار[٣٩] ، لأنَّ (المجيد) من أسماء الله تعالى ، فالكلمة وصف لـ (ذو العرش) لا للعرش ، وجرّت لمجاورتها المجرور . وقراءة غير حمزة والكسائي بالرفع تقوي هذا التوجيه في نظرهم .

وللعلماء في توجيه هذه القراءة مذهبان هما :

١- أنَّ (المجيد) -بالخفض- صفة للعرش .

قال بهذا الفراء والزجاج والفارسي وابن خالويه ومكي والعكبري وأبوحيّان وغيرهم[٤٠] .

وقد نقل الفارسي عن أبي زيد قوله : إذا رعيت الإبل في أرض مكلئة فرعت وشبعت قيل : مَجَدتْ الإبل تمجد مجوداً ، ولا فعل لك في هذا ، قال : وأمجدت الإبل إمجاداً إذا أشبعتها من العلف وملأت بطونها . وروي عن أبي عثمان عن أبي عبيدة : أمجدتها ، أشبعتها .

وفي المثل " في كلّ شجرٍ نارٌ واستمجد المَرْخُ والعَفار "[٤١] أنّهما أخذا ما هوحسبهما .

ويقال : أمجدت الدابة علفاً ، أي أكثرتَ لها من العلف .

وخلص الفارسي إلى القول : وإذا جاز وصف العرش المجيد في قول مَنْ جرّ ، وجاز وصف القرآن في قوله ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ [البروج ٢١] لم يمتنع في القياس أن يوصف به الأناسي ."[٤٢]

وقال الراغب : " وقرئ (المجيدِ) بالكسر فلجلالته وعظم قدره ، وما أشار إليه النبي ﷺ بقوله (ما الكرسي في جنب هذا) قوله (لاإله إلا هو رب العرش العظيم)"[٤٣].

ويستفاد من كتب اللغة أنَّ كلمة (المجيد) لها في لغة العرب أكثر من مدلول ، فتستعمل إلى جانب دلالتها على الكريم المفضال ، وأنّها من صفات الله تعالى ، بمعنى ؛ الرفيع العالي . وفي حديث عائشة : " ناوليني المجيد " ، أي المصحف[٤٤]. وبناءً على ذلك يصح وصف العرش بـ (المجيد) .

٢-أنّه وصف لـ (ربّك) من قوله تعالى ﴿ إنَّ بطشَ ربّك لشديد﴾ [البروج١٢].

قال بهذا الفارسي والنحاس ومكي وغيرهم .

قال النحاس : " ولكنّ القراءة بالخفض جائزة على غير الجوار ، على أن يكون التقدير أن بطش ربك المجيد "[٤٥].

وقراءة الرفع في الآية الكريمة واضحة .

خامساً : قوله تعالى :

﴿ يا أيُّها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين ﴾ المائدة ٥/٦

فقد قرأ ابن كثير وحمزة وأبوعمرو(وأرجلِكم) بالخفض وكذا رواية أبي بكر عن عاصم .

وقرأ نافع وابن عامر والكسائي وحفص عن عاصم (وأرجلَكم) بالنصب[٤٦].

فقد ذهب بعضهم إلى أنَّ قراءة الجر في (وأرجلكم) محمولة على الجوار . قال بهذا الأخفش وأبوعبيدة وغيرهما[٤٧].

قال الأخفش :" ويجوز الجر على الاتباع وهوفي المعنى الغسل نحو هذا جحر ضبّ خرب ، والنصب أسلم وأجود من هذا الاضطرار ." [٤٨]

وقال أبوعبيدة : " .. مجرورة بالمجرورة التي قبلها وهي مشتركة بالكلام الأول مع المغسول ، والعرب قد تفعل هذا بالجوار والمعنى على الأول ... "[٤٩] .

وردَّ الزجاج هذا القول بقوله : " وقال بعض أهل اللغة هو جرّ على الجوار ، فأمّا الخفض على الجوار فلا يكون في كلمات الله .. "[٥٠]

وقال ابن خالويه : " ولا وجه لمن ادّعى أنّ الأرجل مخفوضة بالجوار ، لأنّ ذلك مستعمل في نظم الشعر للاضطرار وفي الأمثال ، والقرآن لا يحمل على الضرورة وألفاظ الأمثال . "[٥١]

والمسألة متعلقة - كما هو معلوم - بالخلاف الحاصل بشأن وجوب غسل الأرجل - عند الوضوء - أم مسحها .

وللعلماء في توجيه قراءة الجر مذاهب غير الحمل على الجوار هي : -

١- أنّه معطوف على الرؤوس ، وعندهم أنَّ الواجب مسح الأرجل . قال بهذا الطوسي والطبرسي وغيرهما[٥٢]. وهو ما يفهم من كلام الطبري ، قال بعد أن أورد القراءتين والأحاديث المأثورة بشأنها - وفق منهجه في التفسير - : " .. والصواب من القول عندنا في ذلك أنَّ الله أمر بعموم مسح الرجلين بالماء في الوضوء ، كما أمر بعموم مسح الوجه بالتراب في التيمم ، وإذا فعل ذلك بهما المتوضئ كان مستحقا اسم ماسح غاسل .. "[٥٣]

٢- أنّه عطف على الرؤوس والقرآن جاء بالمسح لكنَّ السنّة أوجبت الغسل . قال بهذا الفرّاء والزجاج وابن خالويه ومكي وغيرهم[٥٤].

قال الفرّاء : وحدثني محمد بن أبان القرشي عن أبي اسحاق الهمداني عن رجل عن علي أنّه قال : نزل الكتاب بالمسح والسنة الغسل . قال الفرّاء : وحدثني أبوشهاب عن رجل عن الشعبي قال : نزل جبريل ﷺ بالمسح على محمد - صلى الله عليهما وعلى جميع الأنبياء - ، قال الفرّاء : السنة الغسل ." (٥٥) .

وقال ابن خالويه : " والحجة لمن خفض أنَّ الله تعالى أنزل القرآن بالمسح على الرأس والرجل ثم عادت السنة للغسل(٥٦)."

٣- أنَّ معنى المسح في الآية الغسل ، وهو عطف على الرؤوس .

قالوا : في الكلام عاملان ، أحدهما : الغسل والآخر الباء الجارة ، ووجه العاملين إذا اجتمعا في التنزيل أن يحمل على الأقرب منهما دون الأبعد ، ولذلك حمل الكلام على أقربهما وهو الباء دون (فاغسلوا) وكان ذلك الموضع واجباً ؛ لما قام من الدلالة على أنَّ المراد من المسح الغسل ما روي عن أبي زيد أنّه قال : المسح خفيف الغسل ، قالوا : تمسحت للصلاة فحمل المسح على أنّه الغسل ، وقيل إنَّ التحديد إنّما جاء في المغسول ولم يجيء في الممسوح ، فلّما وقع التحديد مع المسح علم أنّه في حكم الغسل لموافقته الغسل في التحديد(٥٧) .

٤- على معنى واغسلوا .

قال الزجاج : " ويجوز وأرجلِكم بالجر على معنى واغسلوا ، لأنَّ قوله إلى الكعبين قد دلَّ على ذلك كما وصفنا ، وينسق بالغسل على المسح كما قال الشاعر:

ياليت بعلك قد غدا متقلداً سيفاً ورمحا

المعنى ؛ متقلداً سيفاً وحاملاً رمحا ... "(٥٨)

٥- ما ذهب إليه النحاس بوجوب الغسل والمسح .

قال : " ومن أحسن ما قيل أنَّ المسح والغسل واجبان جميعاً ، والمسح واجب على قراءة مَنْ قرأ بالخفض والغسل واجب على قراءة مَنْ قرأ بالنصب ، والقراءتان بمنزلة آيتين ، وفي الآية تقديم وتأخير على قول بعضهم .. "(٥٩)

٦- أنَّ التحديد دلَّ على الغسل

قال الأنباري : " وقيل هومعطوف على الرؤوس ، إلاَّ أنَّ التحديد دلَّ على الغسل، فإنّه لمّا حَدَّ الغسل(٦٠) إلى الكعبين كما حَدَّ الغسل في الأيدي إلى المرافق دلَّ على أنّه غسل كالأيدي . "(٦١)

٧- الجر بجار محذوف .

قال بهذا العكبري وتقديره عنده : وافعلوا بأرجلكم غسلاً(٦٢).

٨- العطف على الرؤوس ، لكنَّ المراد مسح الخفين ، قال بهذا ابن هشام[٦٣] .

* ومن شواهدهم الشعرية :

١- قول الشاعر :

أطوفُ بها لا أرى غيرها كما طاف بالبيعةِ الراهبِ

فقد ورد في كتاب الجمل في النحو- المنسوب خطأً للخليل - أنَّ كلمة (الراهب) خفضت بالجوار ، والوجه فيها الرفع[٦٤] .

والبيت من شواهد الأخفش في معاني القرآن ، حيث جعل (الراهب) بدلاً من (ما) ، كأنه قال : كالذي طاف[٦٥] .

ويرى الهروي أنّه خفض الراهب على أنّه جعل (ما) مع الفعل بتأويل المصدر ، أراد كطواف الراهب بالبيعة . قال : وقال بعضهم خفض الراهب على الجوار[٦٦].

وقد ورد البيت أيضاً في كتاب الأضداد لابن الأنباري ، والرواية فيه :

تطوف العُفاة بأبوابه كما طاف بالبيعة الراهب

وقد المحقق كلمة (الراهب) بالرفع ، وأشار في الهامش إلى أنّها في الأصل بالكسر . هو سهو منه .

قال ابن الأنباري : أراد : كالراهب الذي طاف بالبيعة[٦٧] .

ولعلَّ بين هذا البيت وبيت الأعشى خلطاً ، فللأعشى قصيدة يمدح فيها قيس بن معديكرب مطلعها :

لَعَمْرُكَ ما طولُ هذا الزَّمنْ على المرء إلاّ عَنَاءٌ مُعَن

ورد فيها قوله :

يطوف العفاةُ بأبوابه كطوفِ النصارى ببيت الوثنْ[٦٨]

ولا يستبعد حصول تحريف في البيت وعندها لا شاهد فيه .

والبيت محل البحث من شواهد أبي حيّان في بحره ، وخرّجه على تقدير : كطواف الراهب بالبيعة[٦٩].

٢- قول الشاعر :

كأنّما خالطت قُدّام أعيُنها قطناً بمستحصد الأوتارِ محلوجِ

حيث خفض (محلوجاً) وهو من نعت (القطن) وحقه النصب ، لأنَّ (قطناً) مفعول به لـ (خالطت) .

قال بهذا الفرّاء وأبوالبركات الأنباري وأبوحيّان ، وورد الشاهد في كتاب الجمل المنسوب للخليل[٧٠] .

والبيت مجهول القائل .

والحصد : اشتداد الفتل واستحكام الصناعة في الأوتار والحبال والدروع ، ورأي مستحصد : محكم و (مستحصد الأوتار) من إضافة الصفة للموصوف ، أي الأوتار المستحصدة ، ومستحصد إذا كان قد أحكم فتله وصنعته .

والحلج ندف القطن ، وقطن حليج ومحلوج : مندوف[٧١] .

ويروى : (ضربتْ) بدل (خالطت) .

٣- بيت امرئ القيس :

كأنَّ ثبيراً في عرانين وَبْـلِهِ كبيرُ أُناسٍ في بجادٍ مزملِ

ورواية الديوان ومصادر أخرى ، وهي رواية الأصمعي :

كأنَّ أبانا في أفانين ودقه .....

ذهب بعض النحاة وشرّاح المعلقات إلى أنَّ (مزمّل) خفضت على الجوار ، لأنّها نعت لـ (كبير) وكان يجب أن يقول (مزملُ) [٧٢]

والبيت من معلقة امرئ القيس ، و(بجاد) كساء مخطط من أكسية الأعراب ، يصنع من وبر الإبل وصوف الغنم ، والجمع (بُجد) ، و(مزمل) ملتف . و(ثبير) جبل بمكة ، والعرانين : الأوائل ، استعير لأوائل المطر ، والوبل : مصدر وبلت السماء وَبْلاً إذا أتت بالوابل ، وهوما عظم من المطر ، والضمير في (وبله) راجع للسحاب في بيت قبله .

والمعنى ؛ كأنَّ ثبيراً في أوائل مطر هذا السحاب سيّدُ أُناسٍ ملفف بكساء مخطط.

ونقل التبريزي عن أبي نصر قوله : شبّه الجبل وقد أعطاه الماء والغُثاء الذي أحاط به إلاّ رأسه بشيخ في كساء مخطط ، وذلك لأنَّ رأس الجبل يضرب إلى السواد والماء حوله أبيض[٧٣] .

وللعلماء مذاهب أخرى في توجيه الجر من أبرزها :

أ - أنّ (مزمل) صفة حقيقية لـ (بجاد) والتقدير عندهم (مزمل فيه) ثم حذف حرف الجر فارتفع الضمير واستتر في اسم المفعول[٧٤].

ب- على تقدير : في بجاد مزمله الكساء كقولهم : مررت برجل مكسّوتِهِ جُبّة، ثم يُكنى عن الجبة فتقول : برجلٍ مكسوّته ، ثم تحذف الهاء في الشعر[٧٥] .

جـ- الجر لمجاورة أناس تقديراً .

قال البغدادي : " ... الجرّ لمجاورته لأناسٍ تقديراً ، لا لبجاد ، لتأخره عن (مزمل) في الرتبة ، فالمجاورة على قسمين : ملاصقة حقيقية كما في البيت السابق [يعني قول الشاعر : فإياكم وحيّة بطن وادٍ . الذي سيأتي ذكره] وملاصقة تقديرية كما في هذا البيت[٧٦] .

د - يريد مزملاً بثيابه .

قاله المبرد في الكامل[٧٧] .

هـ- أنّ البيت قد روي بالرفع (مزملُ) على الإقواء[٧٨] .

٤- قول الحطيئة :

فإياكم وحيّة بطنِ وادٍ هموزِ النّابِ ليس لكم بسيِّ[٧٩]

على أنّ (هموز) نعت للحيّة المنصوبة ، وجُرّ لمجاورته لأحد المجرورين وهو (بطن) أو (واد) ، وقيل جُرّ لمجاورته لـ (واد) .

والبيت من قصيدة للحطيئة يمدح فيها عديّ بن فزارة ، وعُيينة بن حصن ، وحذيفة بن بدر .

قال قبل هذا البيت :

فأبلغ عامراً عنّي رسولاً رسالة ناصحٍ بكُمُ حفيِّ

ثم :

فإياكم وحيّة بطن وادٍ هموز الناب ليس لكم بسيِّ

ويروى (هموت الناب) و(هموس الناب) و(هموز الناب) ، كلّه بمعنى واحد.

يقال كان يعني عامر بن صعصعة .

وقوله (فإياكم وحيّة) فـ (إيّاكم) محذر ، و (حيّة) محذّر منه ، وأراد الحطيئة بالحيّة نفسه ، يعني أنّه يحمي ناحيته ويُتّقى منه كما يُتّقى من الحيّة لبطن واديها المانعة منه .

و (هموز) فعول من الهمز ، يعني ؛ الغمز والضغط .

و(السيّ) المثل ، أي لا تستوون معه ، بل هو أشرف منكم[٨٠] .

وقد روي البيت بالفتح في (هموزَ) ، وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه[٨١] .

* أقوال العلماء في الخفض على الجوار :

قال سيبويه : " وممّا جرى نعتاً على غير وجه الكلام : هذا جحر ضبٌّ خرب ، فالوجه الرفع ، وهو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس ، لأنَّ الخربَ نعت الجحر ، والجحر رفع ، ولكنَّ بعض العرب يجره .. "(٨٢)

وقال المبرد : " وقد حملهم قرب العامل على أن قال بعضهم : هذا جحر ضبٌّ خرب "(٨٣)

وجاء في معاني القرآن للفراء : " وممّا يرويه نحويونا الأولون أنّ العرب تقول هذا جحر ضبٍّ خربٍ والوجه أن يقول سُنَّة وجه غيرَ مقرفة ، وحيَّة بطن وادٍ وهموزَ الناب وهذا جحر ضبّ خربٌ .. "(٨٤)

والفرّاء يريد قول الشاعر :

تريك سنة وجه غيرِ مقرفةٍ ملساء ليس بها خال ولا ندبُ

وقول الحطيئة :

وإيّاكم وحيَّة بطن وادٍ هموز الناب ليس لكم بسيّ

وقد مرَّ الحديث عنهما . والفرّاء عندما ذكر الشاهد الأول قال : قلت لأبي ثروان وقد أنشدني هذا البيت بخفض كيف تقول : تُريك سنّة وجه غيرَ مقرفة . قال: تريك سنّة وجه غيرَ مقرفة ، قلت له فأنشد ، فخفض (غير) فأعدت القول عليه فقال : الذي تقول أنت أجود مما أقول أنا وكان إنشاده على الخفض(٨٥).

وقال الزجاج عند حديثه عن قراءة الجر في آية الوضوء – التي مَرَّ الحديثُ عنها– " فأما الخفض على الجوار فلا يكون في كلمات الله .." (٨٦)

أما النحاس فقد قال عند حديثه عن آية الوضوء أيضاً : " وهذا القول غلط عظيم لأنَّ الجوار لا يجوز في الكلام أن يقاس عليه ، وإنّما هوغلط ونظيره الاقواء(٨٧) ".

وهذا القول قريب مما ذهب إليه ابن خالويه قال : " ولا وجه لمن ادعى أنَّ الأرجل مخفوضة بالجوار ، لأنَّ ذلك مستعمل في نظم الشعر للاضطرار وفي الأمثال، والقرآن لا يحمل على الضرورة وألفاظ الأمثال" (٨٨) .

والسيرافي أنكر وجوده ، وذهب إلى أنّ الأصل في قولهم (هذا جحر ضبّ خرب) خربٍ الجحر منه ، بتنوين خرب ورفع الجحر ، ثم حُذف الضمير للعلم به، وحوّل الاسناد إلى ضمير الضب وخفض الجحر ، كما تقول : " (مررتُ برجلٍ حسنٍ الوجهِ) بالإضافة ، والأصل (حسنٍ الوجهُ منه) ثم أتى بضمير الجحر مكانه لتقدم ذكره فاستتر(٨٩) .

ويرى ابن جنّي أنَّ الجر على الجوار خلاف الإجماع ، قال في الخصائص :

" فمما جاء خلاف الإجماع الواقع فيه منذ بُدئ هذا العلم وإلى آخر هذا الوقت ما رأيته أنا في قولهم : هذا جحر ضبّ خرب ، فهذا يتناوله آخر عن أوّل ، وتال عن ماضٍ على أنّه غلط من العرب ، لا يختلفون فيه ، ولا يتفرقون عنه ، وأنّه من الشّاذ الذي لا يحمل عليه ولا يجوز ردّ غيره إليه .

وأما أنا فعندي أنّ في القرآن مثل هذا الموضع نيّفاً على ألف موضع ، وذلك أنّه على حذف المضاف لاغير ، فإذا حملته على هذا الذي هوحشو الكلام من القرآن والشعر ساغ وسلس وشاع وقُبِل ، وتلخيص هذا أنّ أصله : هذا جحر ضبّ خرب جحره فيجري (خرب) وصفاً على (ضبّ) وإنْ كان في الحقيقة للجحر ، كما تقول : مررت برجلٍ قائم أبوه ، فتجري (قائماً) وصفاً على (رجل)وإنْ كان القيام للأب لا للرجل لما ضمن من ذكره ، والأمر في هذا أظهر من أن يؤتى بمثال له، أوشاهد عليه ، فلّما كان أصله كذلك ، حذف الجحر المضاف إلى الهاء وأقيمت الهاء مقامه فارتفعت ، لأنَّ المضاف المحذوف كان مرفوعاً ، فلّما ارتفعت استتر الضمير المرفوع في نفس (خرب) فجرى وصفاً على (ضبّ) وإن كان الخرابُ للجحر لا للضب - على تقدير حذف المضاف على ما أرينا ... "[٩٠]

وقال الأنباري : " هوقليل في كلامهم "[٩١]

أمّا العكبري فلا يرى مانعاً من وقوعه في القرآن الكريم لكثرته ، قال : "وقد جاء في القرآن والشعر ... "[٩٢]

وأبوحيّان أشار إليه في كتبه المختلفة ، وعقد له فصلاً طويلاً في كتابه التذييل والتكميل ، وممّا قاله :

" والعرب تراعي القرب مع فساد المعنى في نحوقولهم هذا جحر ضبّ خرب.."[٩٣]

وقال في الارتشاف " وهذا رواه سيبويه وغيره عن العرب بالرفع وهو الأصل والقياس[٩٤] " ، يعني (هذا جحر ضبّ خرب) .

وقد وصفه ابن هشام بالشذوذ[٩٥] . وقال أيضاً : " الحمل على المجاورة حمل على شاذ فينبغي صون القرآن عنه[٩٦] ".

وبدراسة متأنية لأقوال النحاة التي ذكرتها والتي تمثل آراء أبرز العلماء في عصورٍ مختلفة ، نجد أنّ أغلبهم يرى شذوذ هذه الظاهرة ، وعدم جواز القياس عليها.

فسيبويه مثلاً صرح بأنّ هذا الكلام الذي نقل عن العرب (على غير وجه الكلام) ومَنْ يعرف أسلوب سيبويه في التعبير ، واستخدامه للمصطلحات يدرك أنّه أراد أنّ (هذا جحر ضبٍّ خرب) مخالف لنظام الجملة العربية في التركيب ، ولكنه يورده بوجهين مختلفين ، فمرة يعني مخالفة المعنى مع صحة التركيب ، مثال ذلك ما قاله عند حديثه في باب الاستقامة من الكلام والاحالة قال : " وأما المستقيم الكذب فقولك : حملتُ الجبل ، وشربت ماء البحر ، ونحوه "(٩٧)

فعدم الصحة هنا مرده إلى الخطأ الدلالي ، ولكنّ الجملتين صحيحتان من حيث التركيب ، لأنَّ المتكلم لا يستطيع حمل الجبل وشرب ماء البحر .

ومرّة يحكم بعدم صحة التركيب وإنْ كان المعنى واضحاً ، قال عند حديثه عن معنى واو المعيّة : " كأنك قلت في الأول ما صنعتَ أخاك ، وهذا محال ولكن أردت أن أمثل لك . "(٩٨)

ولهذا أرى أن سيبويه عندما قال (على غير وجه الكلام) كان يريد عدم صحة التركيب . ومما يشير إلى ما ذكرته بشأن الشذوذ وعدم القياس تأكيد سيبويه على أنّ الرفع في (خرب) هو كلام أكثر العرب وأفصحهم وهو القياس .

والفرّاء هوالآخر أكّد في حديثه عن القول ، أنَّ الوجه الرفع ، وما نقله عن أبي ثروان (الذي تقول أنت أجود) - يعني الانشاد بخلاف الحمل على الجوار - فيه دلالة واضحة على قوّة الرفع وفصاحته .

وكان موقف الزجاج واضحاً حيث قال بعدم صحة حمل الشواهد القرآنية على الجوار . ولعلَّ في كلامه ما يفيد بأنَّ المسألة على درجة من الشذوذ القبيح الذي يجب أن يبعد عن النص القرآني الذي يمثل قمّة الفصاحة في أساليب العربية .

وبالرجوع إلى ما قاله النحاس نجد أنّه كان أكثر شدة في عبارته عندما قال : "وهذا القول غلط عظيم " . وكذا الحال عند ابن خالويه وغيره من العلماء .

ولم أجد أحداً من النحاة القدامى - في حدود اطلاعي - قد دافع عن القول وما حمل عليه ، إلاّ ما قاله أبوعبيدة . وتابعه العكبري المتوفى سنة ٦١٦ هـ .

تعقيب :

إنّ الباحث في مسألة الحمل على الجوار يجد أنَّ المسألة بنيت على القول المنقول عن العرب (هذا جحر ضبٍّ خربٍ) ، وعليه حملت مواضع من القرآن الكريم ومن شعر العرب . ومع كل ما بذلته من جهد لمتابعة مصادر هذا القول في

كتب النحو واللغة المختلفة لم أجد إشارة تفيد الدارس معرفة مصدر القول ووقته ، ولا أنكر أنّ الشك قد راودني وأنا أبحث هذه المسألة - أعني رواية الجر - حتى صرت أظنه من الموضوعات ، ولا ينكر أحد كثرتها في تراثنا . ففي بحثي هذا وجدت بيتاً ينسب لزهير بن أبي سُلمى قيل إنّه مطلع قصيدة له عدتها تسعة عشر بيتاً هو:

لعِبَ الزمان بها وغيَّرها يعدي سوافي المورِ والقطرِ

فقد حمله بعضهم على الجر على الجوار .

وبالرجوع إلى المراجع المختلفة بهذا الشأن وجدت مَنْ يقول إنَّ الأبيات الثلاثة الأول من القصيدة - ومنها البيت الشاهد - قد نسبها نقّاد الشعر إلى حماد الراوية، وقالوا إنّ أوّل القصيدة :

دع ذا وعدِّ القول في هرمٍ خير الكهول وسيِّد الحَضْرِ

قال البغدادي : روى الأصبهاني عن جماعة كانوا في دار أمير المؤمنين المهديِّ بعيساباد ، وقد اجتمع فيها العلماءُ بأيّام العرب وآدابها وأشعارها ولغاتها ، إذ خرج بعض أصحاب الحاجب فدعا بالمفضَّل الضبي الراوية ، فدخل فمكث مليّاً ثم خرج ذلك الرجل بعينه فدعا بحماد الراوية ، فمكث مليّاً ثم خرج ومعه حمّاد والمفضل جميعاً وقد بان في وجه حمَّاد الإنكسار والغمّ ، وفي وجه المفضّل السُّرور والنشاط ثم خرج حسين الخادم معهما فقال : يا معشرَ مَنْ حضر من أهل العلم ، إنَّ أمير المؤمنين يعلمكم أنّه قد وصل حماداً الشاعر بعشرين ألف درهم لجودة شعره وأبطل روايته ، لزيادته في أشعار الناس ما ليس منها ، ووصل المفضل بخمسين ألف درهم لصدقه وصحّة روايته ، فمن أراد أن يسمع شعراً جيّداً مُحدثاً فليسمع من حمّاد، ومَنْ أراد رواية صحيحة فليأخذها عن المفضّل . فسألنا عن السبب فأُخبرنا أنَّ المهديّ قال للمفضّل لما دعا به وحده : إنّي رأيتُ زهير بن أبي سُلمى افتتح قصيدته بأنْ قال :

دع ذا وعدِّ القولَ في هرمٍ .....

ولم يتقدم قبل ذلك قول ، فما الذي أمرَ نفسه بتركه ؟ فقال له المفضل : ما سمعت في هذا شيئاً إلاّ أنّي توهّمته كان يفكر في قول يقوله أو يرويّ في أنْ يقول شعراً ، قال : عدِّ إلى مدح هرم دَعْ ذا (أي عدل عنه إلى مدح هرم وقال : دع ذا)، أوكان مفكراً في شيء من شأنه فتركه وقال : دع ذا ، أي دع ما أنت فيه من الفكر

وعدِّ القول في هرم . ثم دعا بحمّاد فسأله عن مثل ما سأل عنه المفضل فقال : ليس هكذا قال زهير ، يا أمير المؤمنين ، قال : كيف قال ؟ فأنشده :

لمن الديار بُقنّه الحِجْر أقوين من حِجج ومن دَهْر

الأبيات الثلاثة :

دع ذا وعدِّ القول في هرم .....

قال فأطرق المهدي ساعة ثم أقبل على حمّاد فقال : قد بلغ أميرَ المؤمنين عنك خبر لا بُدّ من استحلافك عليه ، ثمّ استحلفه بأيمان البيعة ليصدُقنّه عمّا يسأل عنه ، فحلف له ، فلمّا توثق منه قال له : أصدقني عن حال هذه الأبيات ، ومَنْ أضافها إلى زهير . فأقرَّ له حينئذ أنّه قالها[٩٩].

ولست هنا في مقام الحديث عن الوضع والوضّاعين ، ولكنّما أردت فقط الإشارة إلى ضرورة التمعن عند محاكمة بعض مسائل النحو، وبالأخص المسائل التي تترتب عليها قضايا وأحكام لها صلة بحياة الإنسان .

وطبيعة البحث تلزمني الرجوع مرّة أخرى إلى الشواهد التي ذكرتها دون تعليق، وذلك لغرض الوصول إلى قول راجح بشأن هذه المسألة .

لقد ذكرتُ في صدر هذا البحث أن للقائلين بالجر على الجوار شواهد قرآنية وأخرى شعرية ، ذكرتُ أبرزها ، وأغفلت ذكر بعضها لضعف الاحتجاج بها .

فمن شواهدهم القرآنية – كما مرَّ – قوله تعالى في سورة إبراهيم ﴿ مَثَلُ الَّذين كفروا بربِّهم أعمَالُهُم كرمادٍ اشتدّت به الرِّيح في يومٍ عاصفٍ ﴾ الآية ١٨ .

حيث ذكروا أنَّ كلمة (عاصف) جُرّت لمجاورتها لـ (يوم) ، لأنَّ العصوف ليس من صفة اليوم بل هومن صفة الريح . وقد بينت عند الحديث عن الآية الكريمة – في صدر البحث – أنّ للعلماء في توجيه الآيةالكريمة مذاهب من أبرزها أنّه على تقدير: يوم عاصف الريح ، فحذفت (الريح) لأنّها ذكرت سابقاً ، أو أنّه من باب النعت السببي ، إلى غير ذلك من التوجيهات . وهذه التوجيهات التي قالوا بها لا تمثل خروجاً على قواعد العرب في تركيب الكلام ، بل جاءت منسجمة معها ، وإذا كان الجر على الجوار شذوذاً – كما صرّح كبار النحويين – فإنَّ حمل الآية الكريمة عليه لا ينسجم مع قدسية القرآن الكريم لغة وتشريعاً ، لأنّه يمثل أعلى مراتب الفصاحة العربية ، بل هوأفصح كلام على الإطلاق منذ نشوء العربية وحتى قيام الساعة وانتهاء هذا الوجود الآدمي على وجه الأرض ، وهذه ليست دعوى ، وإنّما هي حقيقة لم يختلف فيها اثنان .

قال النحاس عند حديثه عن الآية : " ... هذا مما لا ينبغي أن يحمل عليه كتاب الله جلّ وعزّ عليه [يعني الجر على الجوار] ، وقد ذكر سيبويه أنّ هذا من العرب غلط ، واستدل بأنّهم إذا ثنوا قالوا : هذان جحرا ضبّ خربان ، لأنّه قد استبان بالتثنية والتوحيد ، ونظير هذا الغلط قول النابغة :

أمن آل ميّة رائحٌ أومغتدي عجلان ذا زادٍ وغيرُ مزوّدِ
زعم البوَارحُ أنّ رحلتنا غد وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ

فلا يجوز مثل هذا في كلام ولا لشاعر نعرفه ، فكيف يجوز في كتاب الله جلّ وعزّ .. "(١٠٠)

أما آية سورة الذاريات : ﴿ إنّ اللهَ هوالرَّزاقُ ذوالقوّةِ المتينُ ﴾ الآية ٥٨ ، حيث قرأ يحيى بن وثاب والأعمش ﴿ ذوالقوّةِ المتينِ ﴾ . فأوّل ما يقال بشأنها أنّ القراءة شاذة والقراءة الشاذة ليست بقرآن . قال الإمام النووي : " لا يجوز القراءة في الصلاة ولا غيرها بالقراءة الشاذة ، لأنّها ليست قرآناً ، لأنّ القرآن لا يثبت إلاّ بالتواتر، والقراءة الشاذة ليست متواترة ، ومَنْ قال غيره فغالط أو جاهلٌ.. "(١٠١)

وعلى فرض حجّيتها اللغوية فإنّ العلماء قد وجهوا هذه القراءة توجيهات مختلفة كلها مقبولة ومنسجمة مع كلام العرب إلاّ الخفض على الجوار . وقد ذكرت عند حديثي عن الآية الاشكال الوارد بشأنها من حيث الاختلاف في التذكير والتأنيث .

ومنها قراءة حمزة والكسائي لقوله تعالى في سورة الواقعة :

﴿ يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلّدون ۞ بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ من معينٍ ۞ لا يُصدّعون عنها ولا يُنزفون ۞ وفاكهةٍ ممّا يتخيرون ۞ ولحم طيرٍ ممّا يشتهون ۞ وحورٌ عينٌ ﴾ الآيات ١٧-٢٢ .

حيث قرءا : ﴿ وحورٍ عينٍ ﴾ بالجر ، وقد بينت عند حديثي عن الآية أنّ ابن هشام الأنصاري قد انفرد في توجيه القراءة بالخفض على الجوار ، وغيره من العلماء لهم فيها توجيهات مختلفة - كما مرّ - منها العطف على اللفظ دون المعنى ، وعلى تقدير ينعمون بحورٍ عين ، أوعلى تقدير : في جنّات النعيم وفي حورٍ عينٍ ، أو على العطف على المجرور بالباء . وقالوا : لا ينكر أن يكون لأهل الجنّة لذّة في التطواف عليهم بالحور .

وكل هذه الأوجه ليس فيها مخالفة لغوية ، وبعيدة عن الشذوذ ، وماله وجه في العربية يعوّل عليه بخلاف الشاذ . فليس من الصواب الحمل على الشاذ مع وجود توجيه فصيح يعتمد عليه في تخريج الشواهد المختلفة ، ولهذا نجد أغلب العلماء الذين تحدثوا عن القراءة قد قالوا بغير الحمل على الجوار ، حتّى الفرّاء الذي قال

بالخفض على الجوار في مواضع من كتابه معاني القرآن ، لم يقل به في القراءة محل البحث ، لحجّية التوجيهات التي قيلت . يضاف إلى ذلك أنَّ العلماء قد رجّحوا قراءة الرفع حتى قال الزجاج : من قرأها بالرفع فهوأحسن الوجهين[١٠٢] .

أمّا قراءة حمزة والكسائي لقوله تعالى في سورة البروج :

﴿ وهوالغفورُ الودودُ ۞ ذو العرشِ المجيدُ ﴾ الآية ١٤-١٥ . حيث قرءا ﴿ ذو العرشِ المجيدِ ﴾ بالخفض على الجوار لأنَّ المجيد من أسماء الله تعالى ، فالكلمة وصف (ذو العرش) لا العرش، فإن أغلب العلماء الذين تيسر لي الاطلاع على آرائهم ذهبوا إلى صحة كون المجيد صفة للعرش ، وقد ذكرتُ قبل أقوال علماء اللغة بهذا الشأن ، والفارسي الذي قال بجواز الخفض على الجوار قال عن القراءة : وإذا جاز وصف العرش المجيد في قول من جرّ وجاز وصف القرآن في قوله ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾ [البروج ٢١] لم يمتنع في القياس أنْ يوصف به الأناسي[١٠٣] .

وأكرر ما قلته قبل بعدم حجّية توجيه قراءة الخفض على الجوار مع وجود توجيه آخر مبني على حجّة أقوى ينسجم مع استعمالات العرب الفصيحة في كلامهم ، وليس من السائغ لغوياً العمل بالشاذ واغفال الفصيح . وقد قال العلماء : إذا تعارض ارتكاب شاذ ولغة ضعيفة فارتكاب اللغة الضعيفة أولى من الشاذ[١٠٤]. وكذلك إذا تعارض مجمع عليه ومختلف فيه[١٠٥] .

أقول على أيّ محمل حملت الآيات السابقة ، والقراءات الشاذة فإنَّ الأولى عدم الأخذ بالشاذ بناءً على ثبوت الحقائق اللغوية في هذا المقام ، وأقوال العلماء بهذا الشأن .

وأخيراً قراءة ابن كثير وحمزة وأبي عمرولقوله تعالى في سورة المائدة: ﴿ يا أيُّها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهَكم وأيديَكم إلى المرافقِ وامسحوا برؤسِكم وأرجلِكم إلى الكعبين .. ﴾ الآية ٦ بخفض الأرجل حيث ذهب بعضهم إلى حمل القراءة على الخفض على الجوار ، فقبل الاشارة إلى أقوال العلماء بشأن توجيه القراءة لابُدّ من ذكر أمرين هما :

١- إنّ الحمل على الجوار عند أغلب العلماء قالوه في أمثلة النعت خاصة ، والآية الكريمة فيها عطف ، قال أبوحيّان : " .. وأمّا في العطف فلم يحفظ ذلك في كلامهم ولذلك ضعف جداً قول مَنْ حمل قوله تعالى ﴿ وامسحوا برؤسكم وأرجلكم﴾ في قراءة مَنْ خفض (وأرجلكم) على الجوار ، والفرق بينه وبين النعت أنّ الاسم في باب النعت تابع لما قبله من غير وساطة شيء ، فهو أشد له مجاورة بخلاف العطف إذ قد فصل بين الاسمين حرف العطف[١٠٦]"

وقال ابن هشام : " .. وأمّا المعطوف فكقوله تعالى ﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين﴾ في قراءة مَنْ جرّ الأرجل لمجاورته للمخفوض وهوالرؤوس ، وإنما كان حقه النصب كما هو في قراءة جماعة آخرين وهو منصوب بالعطف على الوجوه والأيدي ، وهذا قول جماعة من المفسرين والفقهاء . وخالفهم في ذلك المحققون ورأوا الخفض على الجوار لا يحسن في المعطوف لأنّ حرف العطف حاجز بين الاسمين ومبطل للمجاورة .. (١٠٧)"

٢- إنّ العلماء قد صرّحوا في أكثر من موضع أنّ الخفض على الجوار يرد في كلام بعضهم عند وضوح المعنى كقولهم (هذا جحر ضبّ خرب) ، لأنّ (الضب) لا يوصف بالخراب وإنما هونعت للجحر ، أمّا مع اللبس في المعنى فلا يجوز ، وقراءة الجر في الآية الكريمة فيها لبس ، لأنّ سياق الآية محمول على العطف فيها والعطف بهذا المعنى يوجب المسح لا الغسل ، وقد أثبت فريق من العلماء الغسل للأرجل لا المسح . ولهذا فإنّ القول بالجوار باطل بلحاظ هذا المعنى . قال أبوحيّان: " ... وهذا الذي ذكرناه من الخفض على الجوار إنما جاز لأمن اللبس ولم يسمع شيء فيما ألبس(١٠٨) ".

وقال الرضي : " وقد يوصف المضاف إليه لفظاً والنعت للمضاف إذا لم يلبس ويقال له الجر بالجوار وذلك للاتصال الحاصل بين المضاف والمضاف إليه(١٠٩)". والأمران يلزمان بعدم حمل قراءة الجر على الخفض على الجوار .

وللعلماء في توجيه القراءة أقوال ذكرتها مفصلة في محلها ، وأرى أن العلماء إذا كانوا يرون في توجيه الحمل على الجوار دليلاً لوجوب الغسل لما ذهبوا يلتمسون توجيهات أخرى وأدلة مختلفة للحكم بالغسل في الأرجل ، وقد قال بعضهم إنّ القرآن جاء بالمسح لكنّ السنّة أوجبت الغسل(١١٠). وقال آخرون إنّ معنى المسح في الآية الغسل ، وهوعطف على الرؤوس ، وقال آخرون على معنى فاغسلوا ، إلى آخر أقوالهم بهذا الشأن .

والذي أخلص إليه إضافة لما ذكرته ، ولما قاله العلماء بشأن الآية وما قبلها اضافة إلى ما قالوه في الأصول النحوية ، إذا ثبت أن حكم الأرجل الغسل ، فلا يمكن استفادة ذلك من الخفض على الجوار ، لأنّ الأصول اللغوية تحكم بخلاف ذلك.

قال ابن خالويه : " ولا وجه لمن ادعى أنّ الأرجل مخفوضة بالجوار ، لأنّ ذلك مستعمل في نظم الشعر للاضطرار وفي الأمثال . والقرآن لا يحمل على الضرورة وألفاظ الأمثال(١١١)". وفيما قاله الزجاج والنحاس تأكيد لما ذكرنا :

" فأمّا الخفض على الجوار فلا يكون في كلمات الله[١١٢] و" والجوار لا يقع في القرآن ولا في كلام فصيح وهو عند رؤساء النحويين غلط ممن قاله من العرب[١١٣]"

ومن شواهدهم الشعرية قول الشاعر :

أطوفُ بها ولا أرى غيرها كما طاف بالبيعة الراهبِ

والبيت مجهول القائل ، ولم يرد في أغلب كتب النحو التي تحدثت عن الجر على الجوار ، ومَنْ أورده خرّجه على وجوه ذكرتها في محلها .

والآخر مجهول القائل أيضاً وهو:

كأنّما خالطت قُدّام أعينها قطناً بمستحصد الأوتار محلوج

وعنه أقول : إنني لا أرى مانعاً من كون (محلوج) صفة لَلأوتار ، من باب (محلوج الأوتار) ، على حذف المضاف ، وبناءً على التفسير اللغوي الذي ذكرته .

والعلماء قالوا : بأنّه لا يجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله ، وعلّة ذلك عندهم الخوف من كون ما احتج به لمولد أوقاله مَنْ لا يوثق بفصاحته . وقد نقل السيوطي عن النحاس قوله : أجاز الكوفيون إظهار (أن) بعد (كي) واستشهدوا بقول الشاعر :

أردت لكيما أن تطير بقربتي فتتركَهَا شنّاً ببيداءَ بَلْقَعِ

قال والجواب أنّ هذا البيت غير معروف قائله ، ولوعُرف لجاز أن يكون من ضرورة الشعر[١١٤] .

وقد قال بعض العلماء عن بيت امرئ القيس :

كأن ثبيراً في عرانين وَبْلِهِ كبيرُ أناس في بجادٍ مزملِ

إنّ (مزمل) صفة حقيقية لـ (بجاد) ، والتقدير عندهم (مزمل فيه) ، ثم حذف حرف الجر فارتفع الضمير واستتر في اسم المفعول[١١٥] .

وقيل فيه أوجه أخرى . والبيت روي برفع (مزمل) على الإقواء[١١٦].

وآخرها بيت الحطيئة :

فإيّاكم وحيَّة بطنِ وادٍ هموزِ الناب ليس لكم بسيّ

على أنَّ (هموز) نعت للحيّة المنصوبة ، وجرّ لمجاورته لأحد المجرورين .وقد روي البيت بفتح (هموز) وعلى هذه الرواية لا شاهد فيه .

وفي أدلة النحو؛ إذا كان أحد النقلين على وفق القياس والآخر على خلاف القياس فإنَّ الأخذ بالرواية التي توافق القياس أولى من الرواية المخالفة للقياس[١١٧] .

والشاهد إذا تطرق إليه الاحتمال سقط به الاستدلال .

واختم حديثي عن الشواهد الشعرية بقول النحّاس : " ... فلا يجوز مثل هذا في كلام ولا لشاعر نعرفه .. [١١٨] ".

إنَّ مهمة الباحث وغايته الوصول إلى أفضل النتائج التي ترجح هذا الاستعمال أوذاك ، أمّا القول بفروض لغوية ثم محاولة اخضاع نصوص موضوعة أومحرفة أوعلى غير هذا المحل لها ، فخلاف غاية الدارس ، وتدخل ضمن المجهود الذهني الذي عليه أثر الصنعة المخالفة للّغة ، وبناءً على ذلك فإنّ الشواهد النحوية التي داخلها الضعف بسبب القواعد تستحق جهداً يعيد إليها وجهها الصحيح في الاستعمال ، فالشواهد مجهولة النسبة أومتعددة النسبة ، وحتى المنسوبة وهي تخالف القواعد يجب أن تدرس ويعاد النظر بشأنها حتى يتم تعديل النظرة للمسائل والآراء التي بنيت عليها .

وأدعوالباحثين إلى دراسة الشواهد المتعددة الوجوه ، والمصنوعة ، والمحرفة ، حيث يجب جمع آراء العلماء بشأنها من متقدمين ومتأخرين ، وعرضها على مصادر اللغة والأدب الموثقة لمعرفة الصحيح من الزائف ، والموثق من غير الموثق والمغير ، ليتبقى الصحيح الموثق ، وينفى الزائف من الدراسة ، ويعاد النظر فيما داخله التغيير ليعود له وجهه الصحيح ، ويترتب على ذلك بالضرورة تعديل النظرة للمسائل النحوية والآراء التي بنيت على هذه الشواهد[١١٩].

ومن مجمل ما تقدم يترجح عندي أنَّ القول الذي بنيت عليه مسألة الخفض على الجوار يندرج ضمن الأقوال والشواهد المشكوك في صحتها ، ومعتمدي في هذه النتيجة جملة أمور منها :

١- قول أغلب العلماء بشذوذه .
٢- قول أغلب العلماء بضعفه .
٣- تصريح بعضهم بأنّه ضرب من الغلط .
٤- تنزيه القرآن من وقوعه فيه .
٥- حمل شواهده - إن صحت - على محامل مختلفة ومنها الضرورة .
٦- قياسه على الأمثال ، والأمثال يتكلم بها كما هي ولا تبنى القواعد على الشاذ منها . قال الزمخشري : " والأمثال يتكلم بها كما هي ، فليس لك أن تطرح شيئاً من علامات التأنيث في (أَطِرِّي فإنك نَاعِلةٌ) ولا في (رمتني بدائها وانسلت)، وإنْ كان المضروب له مذكراً ، ولا أن تبدل اسم المخاطب من عقيل وعمروفي (أشِتْتَ عُقَيْلُ إلى عَقَلِك) و(هذه بتلك فهل جزيتك يا عمرو) والتمثل تطلب المماثلة ، كالتعهد والتوقع و التوكف بمعنى تطلُّب العهد والوقوع والوكيف، ولهذا تمثلت حاتماً أجود من تمثلت

به كتعهدته وتوقعته وتوكفته والضرب البيان من قولك : ضرب له موعداً، أي بيّنه(١٢٠) "

٧- ضعف حجّية الشواهد التي استشهدوا بها للمسألة كما مرّ بنا .

وعلى فرض ورود هذا القول - أعني (هذا جحر ضبٍّ خرب) - عن بعض الأعراب فإنّه محمول على ضرب من المشاكلة الصوتية سببها ثقل التعبير بالرفع عند بعضهم ، والقول بالرفع قد نقل عن العرب كما ذكره سيبويه وغيره . وربّما قيل في وقت متأخر عندما بدأت العلوم تتأثر بالمؤثرات العقلية والفلسفية وتطرق أساليب الأحاجي إليها . أوأنّه من باب مقولة وضوح المعنى ودوره في عدم التقيد بالحركة الإعرابية ، شأنه شأن قولهم (خرقَ الثوبُ المسمارَ) . ولا أريد هنا أن أدخل في تفاصيل هذه الدعوى ، لأنّها تستدعي بحثاً مفصلاً ، ولكنني أرى أنّها ليست من سليقة العربي في كلامه ، لأنَّ العربي قبل عصر النحاة لا يرى مدلولاً للحركة الإعرابية في تركيب كلامه ، لأنَّ سليقته اللغوية هي دليله في سلامة التعبير، فهولا يعرف مصطلحات النحاة التي نعرفها ، بل يعيبها ، ولكنّه يتصف بسلامة التعبير في لغته الفصحى ، وإذا كان كذلك فلا يتأتى له أن يخالف قانون الفصاحة هذا إلاّ إذا خرج عن فصاحته ، وتأثر بلغة التخاطب التي تشوبها بعض الشوائب وفي العصور المختلفة، ولا يكون حجّة في هذا المقام ، ولا ننسى أنّ الدرس النحوي قد تأثر في مراحل مختلفة من عمره لأهواء وأغراض مختلفة تعمدت الوضع ، وتعمدت توجيه الشواهد لأغراضها ، وليكن الفيصل في هذا الأمر وغيره من المسائل النحوية أساليب العرب الموثوق بها ، والبعيدة عن التأويل .

وإذا قيل إنّ القول منقول عن أثبات ونقل أثبات ولا بُدَّ من التسليم بصحته فأقول إنّه محمول على النعت السببي كقولنا (سلمتُ على زيدٍ العالم أبوه) فكلمة (العالم) ليس نعتاً لزيد ، بل هي صفة للأب وجرّها للتبعية في مدلول السبب وليس للمجاورة . وليس موضعاً للقياس .

آمل أن أجد عند القارئ الكريم ما يعين في تقويم البحث ، ومن الله تعالى أستمد العون وهوحسبي ونعم الوكيل .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

الهوامش

١- الجُحْرُ : كلُّ شيء تحفره الهوامُّ والسِّباع لأنفسها ، والجمع أجْحارٌ وجحرة. والضّب : دويبة وهو أحرش الذنب خشنه ولونه فيه غبرة مشربة سواداً . ينظر: اللسان : (جحر) و (ضب) وينظر القول في : الكتاب ٦٧/١ ، والمقتضب ٧٣/٤ ، والخصائص ١٩١/١ ، وأسرار العربية ٣٣٨ ، والأحاجي النحوية للزمخشري ٣٠ ، والتذكرة لأبي حيّان ٣٤٦ ، والارتشاف ٥٨٢/٢ وغيرها .

٢- الكتاب ٦٧/١

٣- الارتشاف ٥٨٢/٢

٤- معاني القرآن ٧٤/٢

٥- ينظر معاني الفرّاء ٧٤/٢ ، والانصاف ٦٠٥/٢ ، وأسرار العربية ٣٣٨

٦- معاني الفرّاء ٧٤/٢

٧- المصدر السابق ٧٤/٢

٨- إعراب القرآن ١٨١/٢

٩- تفسير القرطبي ٣٥٣/٩

١٠- معاني القرآن ٧٣/٢-٧٤

١١- ينظر : الكشاف ٣٧٢/٢ ، والتبيان للطوسي ٢٨٥/٦ ، ومجمع البيان للطبرسي ٣٠٧/٦ ، والقرطبي ٣٥٣/٩ ، والبحر المحيط ٤١٥/٥ .

١٢- معاني الفرّاء ٧٤/٢

١٣- ينظر : إعراب النحاس ١٨١/٢ ، ومجمع البيان ٣٠٧/٦ ، والقرطبي ٣٥٣/٩ ، والبحر المحيط ٤١٥/٥

١٤- ينظر : مشكل إعراب القرآن ٤٠٢/١ ، والبيان للأنباري ٥٧/٢ ، والتبيان للطوسي ٢٨٥/٦ ، ومجمع البيان ٣٠٧/٦ .

١٥- ينظر : إعراب النحاس ١٨١/٢ ، ومشكل إعراب القرآن ٤٠٢/١ ، والبيان ٥٧/٢ .

١٦- المحتسب ٣٦٠/١ ، وإعراب النحاس ١٨٢/٢ ، والكشاف ٣٧٢/٢ ، ومجمع البيان ٣٠٧/٦ ، والقرطبي ٣٥٣/٩ ، والبحر المحيط ٤١٥/٥ .

١٧- المحتسب ٣٦٠/١

١٨- تنظر القراءة في : المحتسب ٢٨٩/٢ ، وشواذ القراءات ١٤٦ ، واتحاف فضلاء البشر ٤٠٠ ، والقرطبي ٥٦/١٧ ، والبحر المحيط ١٤٣/٨ ، وغيرها .

١٩- ينظر : إعراب النحاس ٢٤٦/٣ ، والمحتسب ٢٨٩/٢ ، ومجمع البيان ١٦٠/٩ ، والبحر المحيط ١٤٣/٨ .

٢٠- إعراب النحاس ٢٤٦/٣.

٢١- المحتسب ٢٨٩/٢.

٢٢- المصدر السابق ٢٨٩/٢.

٢٣- ينظر : معاني الزجاج ٥٩/٥ ، وإعراب النحاس ٢٤٦/٣ ، ومشكل إعراب القرآن ٦٩/٢ ، والكشّاف ٢/٤ ، والبيان ٣٩٣/٢ ، والقرطبي ٥٦/١٧ ، والبحر المحيط ١٤٣/٨ .

٢٤- إعراب النحاس ٢٤٦/٣ .

٢٥- معاني الفرّاء ٩٠/٣ ، والمحتسب ٢٨٩/٢ ، ومجمع البيان ١٦٠/٩ .

٢٦- معاني الفرّاء ٩٠/٣ .

٢٧- إعراب النحاس ٢٤٦/٣ ، وتنظر المصادر المشار إليها في الهوامش السابقة .

٢٨- تنظر القراءة في : السبعة ٦٢٢ ، والغاية ٢٧٠ ، والنشر ٣٨٣/٢ ، والبحر المحيط ٢٠٦/٨ ، وغيرها .

٢٩- المغني ٨٩٥ .

٣٠- ينظر : معاني الفرّاء ١٢٣/٣ .

٣١- ينظر : معاني الزجاج ١١١/٥ ، وإعراب النحاس ٣٢٥/٣ ، والبيان ٤١٥/٢ ، والبحر المحيط ٢٠٦/٨ .

٣٢- ينظر : الحجة للفارسي ٢٥٧/٦ ، والحجة لابن زنجلة ٦٩٥ ، والكشف ٣٠٤/٢ ، والكشاف ٥٤/٤ ، واملاء ما من به الرحمن ٢٥٤/٢ .

٣٣- البحر المحيط ٢٠٦/٨ .

٣٤- الكشف ٣٠٤/٢ .

٣٥- الحجة لابن خالويه ٣٤٠ ، وينظر : البيان ٤١٥/٢ ، والكشاف ٥٤/٤ ، والبحر المحيط ٢٠٦/٨ .

٣٦- ينظر : السبعة ٦٢٢ ، والنشر ٣٨٣/٢ ، وغيرهما .

٣٧- معاني الزجاج ١١١/٥ .

٣٨- تنظر القراءة في : السبعة ٦٧٨ ، وإعراب النحاس ٦٧٠/٣ ، وحجة الفارسي ٣٩٣/٦ ، والبحر المحيط ٤٥٢/٨ ، وغيرها .

٣٩- ينظر : كتاب الجمل المنسوب للخليل ١٧٥ .

٤٠- ينظر : معاني الفرّاء ٢٥٤/٣ ، ومعاني الزجاج ٣٠٨/٥ ، والحجة للفارسي ٣٩٣/٦ ، والحجة لابن خالويه ٣٦٧ ، والكشف ٢٦٩/٢ ، والاملاء ٢٨٤/٢ ، والبحر ٤٥٢/٨ .

٤١- ينظر المثل في : الأمثال لأبي عبيد ١٣٦ ، والميداني ٧٤/٢ ، واللسان (مجد). والمرخ : شجر كثير الورى سريعه ، والعفار : الزند وهوالأعلى .

٤٢- الحجة للفارسي ٣٩٣/٦ وما بعدها .

٤٣- مفردات الراغب ٤٦٣-٤٦٤ .

٤٤- ينظر : غريب الحديث للخطابي ١٤٧/٢ ، والنهاية ٢٩٨/٤ . وينظر : اللسان (مجد) والمصادر السابقة .

٤٥- إعراب النحاس ٦٧٠/٣ ، وينظر : الحجة للفارسي ٣٩٣/٦ ، والكشف ٣٦٩/٢ .

٤٦- تنظر القراءة في : السبعة ٢٤٢-٢٤٣ ، والغاية ١٣٨ ، والتيسير ٩٨ ، والحجة للفارسي ٢١٤/٣ ، والكشف ٤٠٦/١ ، والقرطبي ٩١/٦ وغيرها .

٤٧- ينظر : معاني القرآن للأخفش ٢٥٤/١ ، ومجاز القرآن ١٥٥/١ ، والبيان ٢٨٥/١ ، والاملاء ٢٠٩/١ ، والقرطبي ٩٤/٦ .

٤٨- معاني القرآن ٢٥٤/١ .

٤٩- مجاز القرآن ١٥٥/١

٥٠- معاني القرآن للزجاج ١٥٣/٢

٥١- حجة ابن خالويه ١٢٩

٥٢- ينظر : التبيان ٤٤٧/٣ ، ومجمع البيان ١٦٣/٣

٥٣- تفسير الطبري ١٣٠/٤

٥٤- ينظر : معاني القرآن للفرّاء ٣٠٢/١ ، ومعاني القرآن للزجاج ١٥٣/٢ ، وحجّة ابن خالويه ١٢٩ ، والكشف ٤٠٦/١ .

٥٥- معاني الفرّاء ٣٠٢/١-٣٠٣

٥٦- حجّة ابن خالويه ١٢٩

٥٧- ينظر : الحجّة للفارسي ٢١٤/٣ وما بعدها ، ومعاني القرآن للزجاج ١٥٣/٢ ، والبيان ٢٨٥/١.

٥٨- معاني القرآن ١٥٤/٢

٥٩- إعراب النحاس ٤٨٥/١

٦٠- هكذا في الأصل وأظنه (المسح)
٦١- البيان ٤٨٥/١
٦٢- إملاء ما مَنَّ به الرحمن ٢١٠/١
٦٣- شرح شذور الذهب ٣٥٥ .
٦٤- الجمل ١٧٥
٦٥- معاني الأخفش ٤١٢/٢
٦٦- الأزهية ٨٤
٦٧- الأضداد ٨٨
٦٨- ديوان الأعشى ١٦٧
وعفا الشيء إذا زاد وعفا إذا نقص وهما من الأضداد وربما أراد عفاة جمع العافي من توفر اللحى .
٦٩- البحر المحيط ٤٨٣/٨.
٧٠- ينظر : معاني الفرّاء ٧٤/٢ ، وأسرار العربية ٣٣٨ ، والانصاف ٦٠٥ ، والتذييل والتكميل ١١٧/٥ ، والجمل ١٧٦
٧١- ينظر : اللسان مادة (حصد) و(حلج) .
٧٢- ينظر : الافصاح ٣١٨-٣١٩ ، وشرح القصائد لابن الأنباري ١٠٧ ، وديوان المعاني ٤١٢ ، وشرح التبريزي ٩٠ ، وشرح الزوزني ٧٨ ، والتذكرة ٣٠٨ ، ٣٤٦ ، وشرح الكافية الشافية ١١٦٧/٣ وديوان امرئ القيس ٩٤ وغيرها .
٧٣- ينظر : شرح التبريزي ٩٠ ، والخزانة ٩٩/٥ وما بعدها ، وشروح المعلقات المشار إليها في الهامش السابق .
٧٤- الخزانة ٩٩/٥ والانتخاب ٦٤ .
٧٥- ينظر : شرح النحاس ٤٨ ، والتبريزي ٩٠ ، والخزانة ٩٩/٥ .
٧٦- الخزانة ٩٨/٥.
٧٧- الكامل ٩١/٣.
٧٨- شرح النحاس ٤٨ .
٧٩- الخصائص ٢٢٠/٣ ، والمنصف ٢/٢ ، ومعاني الفرّاء ٧٤/٢ ، والأحاجي ٣٠، والخزانة ٨٦/٥ ، والتذييل والتكميل ١١٧/٥
٨٠- ينظر : الافصاح ٣١٥ ، والخزانة ٩٦/٥ وما بعدها .
٨١- الخزانة ٩٧/٥

٨٢- الكتاب ١/٤٣٦
٨٣- المقتضب ٤/٧٣
٨٤- معاني القرآن ٢/٧٤
٨٥- المصدر السابق ٢/٧٤
٨٦- معاني القرآن للزجاج ٢/١٥٣
٨٧- إعراب القرآن ١/٤٨٥
٨٨- الحجة ١٢٩
٨٩- مغني اللبيب ٨٩٦
٩٠- الخصائص ١/١٩١-١٩٢
٩١- البيان ١/٢٨٥
٩٢- املاء ما منّ به الرحمن ١/٢٠٩
٩٣- التذكرة ٣٤٦
٩٤- الارتشاف ٢/٥٨٢
٩٥- شرح شذور الذهب ٣٥٣
٩٦- المصدر السابق ٣٥٦
٩٧- الكتاب ١/٢٦
٩٨- الكتاب ١/٣٠٠
٩٩- الخزانة ٩/٤٤٤ وما بعدها .
١٠٠- إعراب النحاس ٢/١٨١-١٨٢
١٠١- التبيان في آداب حملة القرآن ٤٧ ، وينظر : الاتقان ١/٨٢
١٠٢- معاني الزجاج ٥/١١١
١٠٣- الحجة للفارسي ٦/٣٩٣ وما بعدها
١٠٤- الاقتراح ١٢٢
١٠٥- المصدر السابق ١٢٣-١٢٤
١٠٦- التذييل والتكميل ٥/١١٨ ، وينظر : الهمع ٤/٣٠٤
١٠٧- شرح شذور الذهب ٣٥٥
١٠٨- التذييل والتكميل ٥/١١٨ وينظر : التذكرة ٣٤٦ ، والارتشاف ٢/٥٨٣
١٠٩- شرح الكافية ٢/٣٢٨

١١٠- ينظر معاني الفرّاء ٣٠٢/١ ، ومعاني الزجاج ١٥٣/٢ ، وحجّة ابن خالويه ١٢٩ ، والكشف ٤٠٦/١.

١١١- حجّة ابن خالويه ١٢٩

١١٢- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ١٥٣/٢

١١٣- إعراب القرآن للنحاس ٢٤٦/٣

١١٤- ينظر : الاقتراح ٥٥-٥٦

١١٥- الخزانة ٩٩/٥

١١٦- شرح النحاس ٤٨

١١٧- ينظر لمع الأدلة ١٣٧

١١٨- إعراب النحاس ١٨٢/٢

١١٩- ينظر : الرواية والاستشهاد ٢٨١ وما بعدها .

١٢٠- المستقصى ١/هـ ويريد الزمخشري بقوله (أطري فإنك ناعلة) أي أدلي ، وقيل : خذي أطرار الوادي وهي جوانبه ، والناعلة ذات النعل . والخطاب للراعية، يضرب في حث الرجل إلى الأمر الشديد إذا كان قوياً عليه. وقوله: (أشت عقيل إلى عقلك) أي ألجأت واضطررت إلى رأيك ، يضرب بالشماتة بالجاني على نفسه .

ينظر المستقصى ٢٢١/١ ، ١٧٥/١

مصادر البحث

١- اتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربع عشر ، للشيخ أحمد بن عبدالعزيز الدمياطي ، دار الندوة الجديدة ، بيروت - لبنان .

٢- الإتقان في علوم القرآن ، لجلال الدين السيوطي ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥١ م .

٣- الأحاجي النحوية (المحاجاة بالمسائل النحوية) لجار الله الزمخشري ، تحقيق الدكتورة بهيجة باقر الحسني ، دار التربية ، بغداد ١٩٧٣ م .

٤- إرتشاف الضرب من لسان العرب ، لأبي حيان الأندلسي ، تحقيق د. مصطفى النحاس ، مطبعة النسر الذهبي ١٩٨٤ م .

٥- الأزهية في علم الحروف ، لعلي بن محمد الهروي ، تحقيق عبدالمعين الملوحي ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٢ م .

٦- أسرار العربية ، لأبي البركات الأنباري ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٥٧ م .

٧- الاضداد لمحمد بن القاسم الأنباري ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية بيروت ١٩٨٧ م .

٨- إعراب القرآن ، لأبي جعفر النحاس ، تحقيق د. زهير غازي زاهد ، من منشورات وزارة الأوقاف العراقية ، مطبعة العاني ، بغداد .

٩- الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب ، للفارقي ، تحقيق سعيد الأفغاني ، من منشورات جامعة بنغازي ١٩٧٤ م .

١٠- الإقتراح في علم أصول النحو ، لجلال الدين السيوطي ، تحقيق د. أحمد الحمصي و د. محمد أحمد قاسم ، جروس برس ١٩٨٨ م .

١١- الأمثال ، لأبي عبيد القاسم بن سلام ، تحقيق د. عبدالمجيد قطامش ، دار المأمون دمشق وبيروت ١٩٨٠ م .

١٢- إملاء ما مَنَّ به الرحمن ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض ، مصطفى البابي الحلبي ١٩٦٩ م .

١٣- الانتخاب لكشف الابيات المشكلة الإعراب ، لعلي بن عدلان الموصلي ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن . مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .

١٤- البحر المحيط ، لأبي حيّان الأندلسي ، مصورة دار الفكر ١٩٨٠م.

١٥- البيان في غريب إعراب القرآن ، لأبي البركات الأنباري ، تحقيق طه عبدالحميد طه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٩م.
١٦- التبيان في تفسير القرآن ، لأبي جعفر الطوسي ، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب العاملي ، دار احياء التراث العربي ، بيروت.
١٧- تذكرة النحاة ، لأبي حيّان الأندلسي ، تحقيق د. عفيف عبدالرحمن ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٦م.
١٨- التذيل والتكميل ، لأبي حيان الأندلسي ، مصورة لمخطوطة بحوزتي .
١٩- تفسير الطبري محمد بن جرير (جامع البيان في تفسير القرآن) بيروت ، دار الفكر ١٩٨٤م.
٢٠- تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية، مجهولة المكان والتاريخ.
٢١- التيسير في القراءات السبع ، للداني ، عني بتصحيحه أوتوبرتزل ، أوفست مكتبة المثنى بغداد.
٢٢- الحجة في القراءات السبع لأبن خالويه ، تحقيق د. عبدالعال سالم مكرم ، دار الشرق ١٩٧٧م.
٢٣- حجة القراءات لابن زنجلة ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٢م.
٢٤- الحجة للقرّاء السبعة ، لأبي علي الفارسي ، تحقيق قهوجي وبويجاني ، دار المأمون للتراث دمشق.
٢٥- خزانة الأدب للبغدادي ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، القاهرة ، لكل جزء تاريخ طباعة ١٩٦٧-١٩٨٣.
٢٦- ديوان الأعشى ، تحقيق فوزي عطوي ، دار صعب بيروت ١٩٨٠م.
٢٧- ديوان امرىء القيس برواية الأعلم ، تحقيق أبي شنب ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ١٩٧٤م.
٢٨- ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ، عالم الكتب لا.ت.
٢٩- الرواية والاستشهاد باللغة ، د. محمد عبيد ، عالم الكتب القاهرة ١٩٧٦م.
٣٠- السبعة في القراءات لابن مجاهد ، تحقيق د. شوقي ضيف ط٢ دار المعارف.
٣١- شرح شذور الذهب ، لابن هشام النصاري ، تحقيق الفاخوري ، دار الجيل بيروت ١٩٨٨م.

٣٢- شرح القصائد السبع الطوال ، لابن الأنباري ، تحقيق عبدالسلام محمد هارون، دار المعارف ١٩٨٠م.
٣٣- شرح القصائد العشر ، للخطيب التبريزي ، تحقيق د.فخرالدين قباوة ، دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠م.
٣٤- شرح الكافية الشافية ، لابن مالك ، تحقيق د. عبدالمنعم أحمد هريدي ، من منشورات مركز البحث العلمي مكة المكرمة ، دار المامون للتراث.
٣٥- شرح الكافية للرضى ، تصحيح وتعليق يوسف حسن عمر ، مؤسسة الصادق طهران .
٣٦- شرح المعلقات العشر للزوزني ، دار مكتبة الحياة بيروت.
٣٧- شواذ القراءات ، عني بنشره ج براجستراسر ، عالم الكتب بيروت.
٣٨- الغاية في القراءات العشر ، لابن مهران ، تحقيق محمد غياث الجنباز ، الرياض ١٩٨٥م.
٣٩- غريب الحديث ، للخطابي ، تحقيق عبدالكريم ابراهيم العزباوي ، من منشورات مركز البحث العلمي مكة المكرمة ، دار الفكر دمشق ١٩٨٢م.
٤٠- الكامل ، للمبرد ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم والسيد شحاته ، دار النهضة مصر.
٤١- كتاب الجمل المنسوب للخليل ، تحقيق د. فخرالدين قباوة ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٥م.
٤٢- الكتاب ، لسيبويه ، تحقيق عبدالسلام هارون ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٤٣- الكشاف للزمخشري ، طبعة دار الفكر.
٤٤- الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، لمكي بن ابي طالب ، تحقيق محي الدين رمضان ، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، دمشق ١٩٧٤م.
٤٥- لسان العرب لابن منظور.
٤٦- لمع الأدلة ، لأبي البركات الأنباري ، تحقيق سعيد الأفغاني ، دار الفكر ١٩٧٢م.
٤٧- مجاز القرآن ، لأبي عبيدة معمر بن المثنى ، تحقيق محمد فؤاد سزكين ، القاهرة مكتبة الخانجي.

٤٨- مجمع الأمثال ، للميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، دارالفكر ١٩٧٢م.
٤٩- مجمع البيان في تفسير القرآن للطبرسي ، دار صعب بيروت ١٣٧٩هـ.
٥٠- المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات تحقيق على النجدي ناصف وآخرين ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ج١ ١٣٨٦هـ ، ج٢ ١٣٨٩هـ.
٥١- المستقصى في أمثال العرب ، للزمخشري ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٧٧م.
٥٢- مشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، من منشورات وزارة الاعلام العراقية ، دار الحرية ١٩٧٥م.
٥٣- معاني القرآن ، للأخفش ، تحقيق فائز فارس ١٩٨٣م.
٥٤- معاني القرآن ، للفراء ، عالم الكتب ١٩٨٣م.
٥٥- معاني القرآن وإعرابه للزجاج ، تحقيق د. عبدالجليل عبده شلبي ، عالم الكتب ١٩٨٨م.
٥٦- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب ، لابن هشام ، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمدالله ، دار الفكر بيروت ١٩٧٩م.
٥٧- المفردات في غريب القرآن ، للراغب الأصفهاني ، دار المعرفة بيروت.
٥٨- المقتضب للمبرد ، تحقيق عبدالخالق عضيمة طبعة المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية.
٥٩- المنصف لابن جنيّ ، تحقيق ابراهيم مصطفى وعبدالله أمين ، دار احياء التراث القديم ١٩٥٤م.
٦٠- النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، تصحيح علي محمد الضباع ، دار الكتب العلمية بيروت.
٦١- النهاية في غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق الزاوي والطناحي ، دار الفكر ١٩٧٩م.
٦٢- همع الهوامع ، للسيوطي ، تحقيق عبدالعال سالم مكرم ، دار البحوث العلمية الكويت.

علاقة فخار العراق القديم بفخار بلاد عيلام منذ الفترات المبكرة حتى نهاية العصر البابلي القديم (١)

بقلم : الدكتور غسان طه ياسين
وعبدالعزيز الياس سلطان

يعد الفخار من أهم المنجزات الحضارية التي تحققت في كل من العراق القديم وبلاد عيلام ويرجع تاريخ أول ظهوره الى النصف الثاني من العصر الحجري الحديث(٢).

وجاءت أقدم الأدلة على صناعة الفخار في العراق القديم من مواقع جرمو وام الدباغية وحسونة ومواقع أخرى في شمال العراق(٣). وتتزامن مخلفات جرمو الفخارية مع مخلفات علي كوش(٤). من دور محمد جعفر في سهل دي لوران(٥). ويلي هذه الفترة من حيث التسلسل الزمني فخار سامراء وحلف (أنظر الجدول رقم١) تنتقل الحضارة بعد ذلك الى الجنوب متمثلة بفخار العبيد والوركاء وجمدة نصر. ومن ثم ظهر فخار عصر فجر السلالات والفخار الأكدي والسومري الحديث والبابلي القديم(٦).

وقد أظهرت الفخاريات المكتشفة في سهل دي لوران بعد محمد جعفر تعاصراً وتماثلاً مع فخاريات العراق ، وفخاريات دي لوران هذه هي بالتعاقب سابز وخزينة ومحمه وبيات ثم انتقلت الحضارة الى سهل سوسه ممثلة بادوار سوسه (A.B.C.D.) (انظر الجدول رقم-٢).

وفيما يلي عرضاً للعلاقة بين فخار المواقع العراقية والمواقع العيلامية:-

أ- العلاقة بين فخار جرمو وعلي كوش (شكل رقم-١):

ظهر الفخار في العراق في موقع جرمو في الطبقات الخمس العليا ، وهو فخار سمج قليل الحرق ثخين الجانب مصنوع باليد ، وزخرفته عبارة عن حزوز وألوانه نادرة وذات أصباغ حمراء قاتمة على سطوح صفراء برتقالية أو محمرة تعرف بفخار جرمو المصبوغ(٧).

ويعاصر فخار جرمو هذا فخار تبة سراب الطبقة H في لورستان والمؤرخة بحدود ٦٥٠٠-٦٠٠٠ ق.م ، ويعتقد بعض الباحثين بان أصل الفخار جرمو يرجع

الى الشرق وانه متأثر بفخار تبه كوران الطبقات P-H في لورستان حيث انتهى الفخار في هذا الموقع بحدود ٦٠٠٠ ق.م ليظهر بعدها في موقع تبه سراب[٨]. ويستمد كلاً من فخار تبه كوران وتبه سراب اصولهما من فخار موقع كنجداره (Ganjdareh) الواقع في جنوب بهستون في جبال زاجروس ، وهو اقدم فخار الشرق الادنى[٩].

ومن ثم ظهر الفخار في علي كوش (دور محمد جعفر) في سهل لورستان بعد ٦٠٠٠ ق.م بفترة قصيرة ، فكان فخاراً مصقولاً أحمر وملوناً بلون واحد أو بالالوان المتعددة (Polychrome and Monochrome) وهو كثير الشبه بفخار تبه سراب اكثر من فخار جرمو[١٠].

قام فردريك ماتسون (Frederick Matson) بدراسة على فخار جرمو للتعرف على اصل هذا الفخار وذلك من خلال التعرف على الطينة التي صنع منها هذا الفخار ، فأخذ عينات من الطين من منطقة جرمو وفخرها بدرجات حرارة متفاوتة ومن ثم قارنها مع فخار جرمو واثبتت دراسته هذه ان فخار جرمو صنع محلياً. ولم يستورد من الخارج[١١] وقد اكد كل من روبرت ادم وفردريك ماتسون انتشار فخار جرمو في موقع علي أغا وفي الطبقات السفلى من حسونة[١٢] (1 a) [١٣]. وان الاخير انتشر بين فخار موقع سامراء وحلف في الشمال ووصل تأثيره الى جوخه مامي ، حيث ظهر فخار حسونة المحزز وعدد من الكسر ذات السطوح الحمراء والسمراء أو الرصاصية التي تعود الى حسونة المبكر أو جرمو[١٤] ، ومن الجدير بالذكر هنا أنه تم العثور على عدة كسر في جوخه مامي وهي تماثل احدى الفخاريات الملونة من انواع علي كوش المميز والغير موجودة في العراق[١٥]. كما ظهر في سوسة (A) مجموعة من الأواني الفخارية الخالية من الرسوم والخشنة الصنع تشبه الى حد كبير فخاريات حسونة[١٦]. (شكل رقم ١).

ان اكتشاف افران لشوي الفخار في المواقع العراقية المبكرة مثل مطارة وحسونة ويارم تبه وتلول الثلاثات وتبه كوره وعباده لخير دليل على ممارسة صناعة الفخار محلياً ، وأن افضل الأفران التي عثر عليها في منطقة الشرق الأدنى تلك التي عثر عليها في العراق ، وخير نموذج على ذلك هو فرن يارم تبه I ، المكون من غرفتين صغيرتين، وهذا الشكل يعد اقدم نموذج في منطقة الشرق الادنى اذ يعود الى فترة العبيد الثالثة[١٧].

وبصورة عامة فكل الفخار المصبوغ المبكر في منطقة زاجروس وموقع جرمو ومحمد جعفر ، وتبه كوران ، وتبه سراب ، ومحي فيروز تشترك جميعها في خاصية

الصبغ المحمر على سطوح صفراء ، ان هذا التشابه بين فخاريات المواقع المذكورة يشير الى وجود علاقات حضارية بين هذه المواقع المتقاربة وتأثر وتاثير الواحدة في الأخرى ، ويبدو ان منطقة جوخه مامي كانت حلقة الوصل بين مواقع العراق القديم وبلاد عيلام[١٨].

ب- العلاقة فخار سامراء ، حلف والعبيد وبين فخار مواقع سهلي دي لوران وسوسة (شكل رقم ١، ٢):

توضحت العلاقة الحضارية في هذه المرحلة اكثر من السابق وهذا ما أظهرته فخاريات سامراء[١٩] وحلف ، والعبيد ، وانتشارها على نطاق واسع داخل وخارج العراق. فقد وجدت فخاريات سامراء لأول مرة في مواقع حدودية ذات أهمية في العلاقة بين العراق القديم وبلاد عيلام ، ففي جوخه مامي عثرت جوان اوتس على فخاريات لعصور ما قبل التاريخ تتضمن مجموعة كبيرة تحمل الطابع العام للفخار العراقي منها فخار حسونة المحزز الذي سبقت الاشارة إليه ، وفخار سامراء المبكر ، وفخار العبيد الأول والثاني (اريدو وحاج محمد) الذي وجد أصلاً في جنوب العراق، ونتيجة لهذا التداخل بين فخار سامراء والعبيد فقد اطلقت جوان اوتس اسم الفخار الانتقالي بين الطرازين[٢٠] (Transitional Samarra-Udaid).

وقبل وصل تأثير المرحلة الانتقالية الى مواقع سهل سوسة (جاغا صفد وجوخه ميش) [٢١] ، وقدم المسح الاثاري لمنطقة مندلي دليلاً على انتشار الحضارة العراقية عبر الحدود الى بلاد عيلام ، وربط ثقافات شمال العراق وجنوبه وعلاقته مع ايران ، وقد تأكدت قيمة هذه المعلومات من خلال التنقيبات الحديثة التي اجريت في حوض حمرين ، وبينت نتائج التنقيبات مدى اهمية المنطقة من حيث استمرارية الاستيطان منذ العصور الحجرية ، وشملت معظم الفترات الحضارية للعراق القديم ، وقد تأكدت صحة المعلومات التي اوردتها جون اوتس حول علاقة تعود الى فترة سامراء وهي تل صنكور ، وتل الريحان ، وتل عبادة ، كما عثر على مالايقل عن عشرة مواقع تعود الى فترة حلف[٢٢] ، وعلى خمسة عشر موقعاً تعود الى فترة العبيد[٢٣].

ويعد موقع عبادة من أهم مواقع حمرين خلال فترة العبيد[٢٤] ، اذ أبانت التنقيبات في هذا الموقع تداخل فخار سامراء مع فخار العبيد الأول في الطبقة الثالثة وفخار العبيد الثاني مع فخار حلف في الطبقة الثانية[٢٥] ، وقد تأكد هذا التداخل من قبل في موقع جوخةمامي من قبل جوان اوتس وقد ارخت هذه المرحلة الانتقالية سامراء / العبيد بواسطة كاربون ١٤ بحدود ٤٩٠٠ ق.م[٢٦] .

ان تدخل فخار سامراء مع فخار العبيد وتداخل فخار سامراء مع فخار حسونة وتشابهه بدون انقطاع يأكد بأن الأراضي العراقية كانت البقعة الرئيسية لنشوء وانتشار فخار سامراء[٢٧].

وفي مكان آخر أكد كل من ديفيد سن (Davidson) واسماعيل حجارة في بحثهما عن فخار حلف[٢٨] ، بأن أصل هذا الفخار هو العراق ، وأنه ينحصر في المنطقة المحيطة بالموصل ، وقد ابانت التنقيبات مواقع الاربجية ، وتبه كورا ، ويارم تبه II على وجود تسلسل طبقي لفخار حلف والعبيد ومن خلال المسح الأثري ودراسة الأشكال والزخارف والتحليلات المختبرية على كلا الفخارين تأكد لهذين الباحثين بأن أصل ومنشأ هذين الفخارين هو العراق[٢٩].

وفي تحليل آخر لديفيد سن لكل من فخار حلف والعبيد من موقعي تبه كورا والاربجية أظهرت نتائج التحليل بالانبعاث الذري بأن مصدر كل من فخار حلف والعبيد واحد ، وهو مكان قريب من موقع الاربجية الذي يعتبر مركز لتصدير الفخار خلال عصر حلف[٣٠]. واثبت التحليل بالانبعاث الذري لفخار تبه كورا الطبقات XX-XVII بأن الفخار العبيدي صنع من نفس الطينة التي صنع منها فخار حلف[٣١].

وتأكيداً لوجود علاقة بين فخار سامراء ولورستان وتأثير الاول على الثاني فقد عثر على فخاريات تزينها مشاهد مصورة في مواقع كلا المنطقتين والمشاهد عبارة عن صورة لنساء راقصات وقد مسكن الأيادي بطريقة لا تختلف عما عليه الآن وقد تعود هذه المشاهد الى دور سامراء ، (انظر الشكل-٢).

أما في عيلام فبعد نهاية دور محمد جعفر وجدت ثغرة طويلة في السجل الآثاري لسهل دي لوان[٣٢]. ولكن تاريخ كاربون ١٤ المسجل في تبه سابز (١٦ كم غرب علي كوش) يقدم تاريخين الأول (٥٥١٠±١٦٠والثاني ٥٢٥٠±١٠٠ ق.م) ، ويشير الى بداية رجوع الاستيطان الى هذه المنطقة وذلك بعد منتصف الألف السادس قبل الميلاد ، وظهرت مخلفات جديدة مبكرة في موقع جوخه صفد الذي يماثل مخلفات سامراء في جوخه مامي الذي سبقت الاشارة إليه ، ولهذا فقد اقترح تاريخ لفترة ما بعد سامراء في تبه سابز بحدود ٥٠٠٠ ق.م ، ومثلت هذه الفترة بست مواقع في سهل دي لوران و ٣٤ موقعاً في سهل سوسة ، مما يشير الى انتشار الاستيطان في الجنوب بعد ان أنتقل إليه تدريجياً من الشمال خلال هذه الفترة ، وهذا ما حدث في العراق أيضاً خلال هذه الفترة حيث ظهرت وانتشرت الثقافة العبيدية في جميع انحاء

السهل الرسوبي ممثلة بأهم المواقع اريدو ، العبيد ، اور ، حاج محمد ، الوركاء والعويلي ورأس العمية وهذا ما سنوضحه لاحقاً.

ان اهم موقع يربط مواقع السهل الرسوبي ومواقع حوض حمرين وجوخه مامي ، هو موقع رأس العمية (٨٠كم جنوب بغداد) [٣٣] ، حيث أعطت التنقيبات في هذا الموقع دليلاً على وجود صلة وثيقة بين فخار العبيد الثاني (الممثل بفخار حاج محمد) والعبيد الثالث (الممثل بتسلسل اريدو) [٣٤] ، وهذا يؤكد ما توصلت إليه جوان أوتس وهو ان أقليم سوسة وانتشار فخار العبيد متأثر به وتابع الى تسلسل اريدو[٣٥] (انظر الشكل ١) بعكس ما توصل إليه لي بريتون من أن فخار حاج محمد قد دخل الى السهل الرسوبي من سهل سوسة[٣٦].

وفي دراسة أخرى لجوان أوتس حول الفخار العبيدي في مواقع الخليج العربي أثبتت عن طريق تحليل الفخار ومكونات الأصباغ وذلك باستخدام الاشعاع الذري لهذا الفخار بأن صناعته عراقية نقلت الى المستوطنات الخليجية[٣٧].

ان اعطاء موقع أريدو أولوية في المجال الحضاري استناداً الى الاعتقاد السومري القديم الذي يعتبر مدينة أريدو أقدم المدن السومرية[٣٨] ، تدعمه الحفائر الحديثة في هذا الموقع والتي كشفت عن مخلفات استقرار انساني لم يعثر على مخلفات أقدم منها[٣٩] ، وتتمثل المخلفات الفخارية في أريدو بأربعة أدوار تحمل جميعها وحدة ثقافية لحضارة العبيد ، ويتميز فخار الدور الأول بوحدة اللون (Monochrome) الذي غالباً مايكون بنياً غامضاً تزينه خطوط صغيرة تشبه الأسلاك والمثلثات الصغيرة أو الخطوط المتعرجة بين خطوط مستقيمة[٤٠]، ويشبه هذا النوع من الفخار فخار سامراء الذي لابد وان تقليد دور العبيد الأول كان معاصراً له جزئياً [٤١]، ووجد مايماثله في طبقة سوسه A في جعفر آباد I الذي له علاقة بفخار سامراء [٤٢].

أما فخار العبيد الثاني (دور حاج محمد) فمطلي بألوان متعددة منها البني الغامق والبنفسجي الغامق والأخضر الفاتح والأحمر الفاتح ، وتتميز زخرفة هذا الفخار بطابع واحد ، وتحمل أرضية الكثير من الأواني خطوط منحنية قد تكون منحدرة من شكل الصليب المعقوف [٤٣]، وقد غطى فخار هذا الدور مساحات أوسع من فخار أريدو حيث انتشر في معظم القسم الجنوبي من السهل الرسوبي كما وصل الى رأس العمية والى حمرين وجوخة مامي ، وظهر مايماثله في سوسه B في الطبقات السفلى من جوي (Jowi) كما أظهر تشابهاً مع فخار الشمال أيضاً ، وربما له اتصال مباشر مع

فخار حلف [٤٤]، كما وجدت أشكال مشابهة له في فخار خزينة ومحمه في سهل دي لوران [٤٥]، بعد فترة العبيد الثاني (دور حاج محمد) يسود الفخار العبيدي (العبيد الثالث والرابع ، انظر الجدول -٢) الذي تمثله أعداد كبيرة من الأواني الفخارية ، وهو على نوعين ، الفخار الخشن والفخار الناعم ، وألوانه أما سوداء أو حمراء بنية ، وسطوحه مخضرة [٤٦] نتيجة لارتفاع حرارة الشيء .

وجد الفخار العبيدي في مواقع جنوب العراق في أريدو ، وأور والوركاء ونفر ، وحاج محمد ، ولكش ، والعويلي ، والعقير ، وفي حمرين في تل عبادة ، ومظهور ، أما في الشمال فظهر في مواقع الأربحية ، تبه كورا ، يارم تبه ، وامتد انتشاره الى بلاد الشام ووصل الى سواحل البحر المتوسط[٤٧]، كما انتشر أيضاً في مواقع من الخليج العربي[٤٨]، أما في بلاد عيلام فقد ظهر الفخار العبيدي في موقع سوسه مع اختلاف في بعض الأشكال والزخارف ولم تكن مؤثرات فخار العبيد حسب رأي لي بريتون واضحة في سوسه (A) وبدأ الفخار الأحمر بالظهور في سوسه ، ويعتقد لي بريتون أن فخار سوسه الأحمر قد وصل تأثيره الى الوركاء[٤٩].

والجدير بالذكر هنا أن المواقع الحدودية الجنوبية بين العراق وبلاد عيلام ربما تقدم لنا صورة عن العلاقة بين المنطقتين خلال هذه الفترة مثلما لاحظنا من قبل أهمية موقع جوخة مامي الحدودي في الاتصال بين العراق القديم وسهل دي لوران، فالمسح الآثاري الذي قام به صباح شكري عام ١٩٧١ في منطقة الطيب الغربي (Al - Tib AL - Gharbi) وجد مجموعة كسر فخارية تعود الى فترة عصور ماقبل التاريخ (دور العبيد المبكر) في تل وقف[٥٠] مما يؤكد على الامتداد الحضاري للعبيد في هذه المناطق وانتشاره داخل سهل سوسه (انظر شكل ١) .

ج- العلاقة بين فخار الوركاء وجمدة نصر وفخار بلاد عيلام (سوسه B) (الشكل رقم -٣، ٤)

بعد فخار العبيد يظهر فخار الوركاء وجمدة نصر ، وقد أطلق على هذه الفترة أيضاً اسم العصر الشبيه بالكتابي لأسباب حضارية[٥١].

يظهر هذا الفخار في الطبقة الرابعة عشرة في الوركاء على شكل فخاريات جديدة رمادية اللون وأخرى مدلوكة مختلطة مع فخار دور العبيد ، وتختلط معه خلال طبقات معبد اينانا[٥٢].

ويقسم تشايلد عصر الوركاء الى دورين الأول الوركاء المبكر(الطبقات١٤-٦) والثاني الوركاء المتأخر (الطبقات ٥-٣) وأيده في هذا التقسيم فرانكفورت ولويد[٥٣]، كما تبعهم بنهام ابو الصوف[٥٤].

ويمتاز فخار هذا العصر بلونيه الأحمر والرمادي ، وظهور المصبات المعكوفة والجرار ذات الفوهتين ، والجرار ذات المقابض ، كما أصبح النقش على الفخار نادراً جداً حيث كانت الواني خالية من الوسوم والزخرفة ومع ذلك فهي لا تخلو من بعض النواحي الفنية التي تخدم أغراضاً نفعية وصنع فخار هذا العصر بطريقتين يدوية وبالعجلة[٥٥]. (انظر الشكل ٣-٤).

ويعتقد جوردن تشايلد بأن فخار الوركاء ، دخل الى العراق من بلاد الشام[٥٦]. بينما يرى لي يرتيون ان فخار الوركاء الأحمر قد ظهر لأول مرة في طبقات سوسه A مع الفخار العبيدي ومنها انتقل الى العراق[٥٧]. وفي دراسة مستفيضة عن المرحلة الانتقالية من العبيد المتأخر الى دور الوركاء استعرض الباحثون (رايت وينلي وجوهانس وسبيت) انتشار فخار الوركاء في العراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى وايران ، ولم يتوصلوا الى نتيجة مقنعة وأقترحوا اعطاء تواريخ مطلقة واجراء تنقيبات محلية اكثر لاعطاء صورة أوضح لحل هذه المشكلة تحتاج الى دراسات تقنية[٥٨].

ان حرفة الفخار مهنة تقليدية تنتقل من الآباء الى الأبناء ن وبما ان الفخاريون العراقيون القدماء قد مارسوا صناعة الفخار منذ الفترات المبكرة ، وأرسوا قواعدها، وذلك ما أوضحناه من قبل فان فخار الوركاء من الناحيتين الزمنية والطبقية يأتي ويتداخل مع فخار العبيد ويستمد منه جذوره وان الاختلافات في الأشكال والزخارف ماهي الا احدى متطلبات المرحلة الحضارية الجديدة التي دفعت الفخارين الى الاهتمام بالجوانب النفعية للأدوات الفخارية بدلاً من الجانب الزخرفي ، ومن المعروف أيضاً أنه رافق هذه المرحلة ظهور الفنون بما فيها النحت البارز والمدور والنحت على الاختام الاسطوانية وظهور الكتابة وظهور المدن والمعابد المتطورة ، وربما أثر ظهور هذه النواحي الحضارية بعض الشيء على صناعة الفخار فاهملت التفاصيل الدقيقة كالزخرفة والنقوش على الفخاريات أما فخاريات جمدة نصر والمعاصر لها في شمال نينوى الخامسة فكلاهما يتداخلان مع فخار الوركاء[٥٩] ، ففي هذا العصر ظهر الفخار الأسمر الفاتح واشكاله الفخارية تتشابه وفخار الوركاء واستمرت صناعة الفخاريات ذات المقابض وظهرت في هذه المرحلة سدادت الجرر وعادت النقوش والزخارف الملونة على الفخار[٦٠].

وظهر فخار جمدة نصر متداخلاً بين طبقات سوسه (B-C) ويرى لي بريتون ان ظهور هذا الفخار كان محلياً[٦١] ، ولكن ظهور الجرار التي تتمتع بطابع عراقي في طبقات مواقع سوسه شائع (انظر الشكل -٤) وما ان أوشك الألف الرابع ق.م على النهاية حتى ظهرت في سوسه حضارة متأثرة بالحضارة العراقية كثيراً لها كتابة خاصة اطلق عليها اسم (شبه العيلامية) والتي عاصرت جمدة نصر واستمرت الحضارة العراقية في تأثيرها المستمر والمتزايد على مناطق واسعة من بلاد عيلام.

د- علاقة فخار عصر فجر السلالات بالفخار العيلامي (شكل رقم -٤) :

يبدو ان الفخار العيلامي كان يسير بنفس الاتجاه العام الذي سار عليه الفخار العراقي القديم ، وذلك مالمسناه خلال الفترات السابقة خاصة فترات العبيد والوركاء وجمدة نصر واستمر هذا الاتجاه خلال عصر فجر السلالات بشكل واضح على الرغم من ظهور دول المدن المتنازعة في السهل الرسوبي وسهل عيلام ، وذلك ما سنوضحه فيما بعد ، الا ان التأثير الحضاري ظل قائماً ولكن بدرجات متفاوتة.

ففي القسم الأول من عصر فجر السلالات ترى الجرار قد تطورت عن اصولها من جمدة نصر لتصبح عديمة الرقبة مزينة بعرى كما ظهرت النقوش المحفورة التي تغطيها، ولا شك ان هذا أسلوب جديد ظهر في هذه الفترة ، ومن الأواني التي تميز هذه الفترة والمنتشرة كثيراً في المواقع العراقية الأقداح ذات القواعد الصلدة (Base Chalice Solid) ومن الأواني الفخارية التي وجدت في مواقع سوسه والتي توازي هذه الفترة الجرار الصغيرة المقوسة القاعدة والمنتفخة البدن والضيقة الرقبة التي تعود الى اصول حضارية والأقداح الطويلة والمفلطحة كما في (انظر الشكل ٤:٦).

وفي عصر فجر السلالات الثاني ظهرت جرار كبيرة ذات قواعد حلقية مزينة بعرى وبنقوش زخرفية على الكتف أو خالية منها ووجد مايماثلها في مواقع سوسه كما يلاحظ في (انظر الشكل -٤:١١،١٢) [٦٢].

ومن خصائص الفترة الثالثة من عصر فجر السلالات الكؤوس التي تعرف بأواني الأثمار وتتألف من قدح في الأعلى له قاعدة مجوفة طويلة وكبيرة ومزخرفة بحروز وخطوط متقاطعة بالزخارف المنفرجة والمتقاطعة ولها مقابض مستقيمة تصل الحافة بالكتف كما في (الشكل ٤:١١،١٢) كما ظهرت قواعد الجرار (Stand) (انظر الشكل ٤:٩) وذلك لشيوع استعمال الجرار المقوسة القاعدة ، ومعظم هذه الأواني وجد مايماثلها في مواقع سوسه ولو أن التقليد في هذه الفترة كان أقل مما سبق[٦٣]، وجدير بالذكر أنه قد عثر على مجموعة من الكسر الفخارية تعود الى عصر السلالات

في مواقع الطيب على الحدود العراقية الايرانية في محافظة ميسان[٦٤]، مما يؤكد امتداد وانتشار هذا الفخار باتجاه بلاد عيلام . (*)

كما اثبت الفحص المجهري وتحليل الانبعاث الذري الذي أجرى على ١٦ موقعاً من المواقع عصر فجر السلالات تمتد من الجنوب الى الشمال من قبل السيدة باهرة القيسي والآنسة سيربول مانيورس بأن الفخار عمل محلياً في كل موقع من هذه المواقع فضلاً عن انتشاره عن طريق التبادل خلال هذه الفترة[٦٥].

هـ – علاقة الفخار الأكدي ، السومري الحديث ، البابلي القديم بالفخار العيلامي (الشكل ٥، ٦، ٧)

استمر التقليد الفخاري الذي تعرفنا عليه خلال عصر فجر السلالات الى العصر الأكدي والفترات التي تلته ، فالجرار الصغيرة المقوسة القاعدة ظهرت بشكل متطور وأدق مما سبق في العصر الأكدي (انظر الشكل ٥:٥) وكذلك الجرار ذات البروز عند منطقة الكتف واختفت النقوش الكثيرة في هذه المنطقة وظهر بدلاً منها الأكتاف المضلعة (انظر الشكل ٥:٢-٤) كما ظهرت أيضاً المصافي الصغيرة المقوسة القاعدة (انظر الشكل ٥:٦) والأواني الكبيرة الواسعة الفوهة ذات الصنبور الجانبي (الشكل ٥:٧) كل هذه الأشكال ظهرت في مواقع سوسه وفضلاً عن الأقداح ذات القواعد المسطحة والفوهات المفلطحة (انظر الشكل ٥:١) فقد وجد مايماثلها في مواقع سوسه أيضاً ، كما انتشرت في مواقع وسط وشمال العراق[٦٦] وكذلك في منطقة الطيب[٦٧].

أما من خلال العصر السومري الحديث فالتأثيرات الفخارية بين المواقع العراقية والعيلامية نادرة ، والسبب قصر الفترة الزمنية وتداخل فخاريات أور الثالثة مع فخاريات العصر الأكدي المتأخر والبابلي المبكر ، وظهرت مؤثرات لهذا العصر ايضاً في مواقع سوسه نخص منها الجرار الصغيرة الواسعة الفوهة والمضلعة الحافة والمقوسة القاعدة كما في (انظر الشكل ٥:٨) ، والجرار المستقيمة البدن والبارزة الكتف والقصيرة الرقبة كما في (انظر الشكل ٥:٩) وجميعها تحمل صفات عراقية الأصل انتشرت في العصر البابلي القديم[٦٨].

أما العلاقات خلال العصر البابلي القديم فكانت أكثر وضوحاً من العصر السومري الحديث بدليل العثور على عدد كبير من الفخاريات في مواقع بلاد عيلام تعود لهذا العصر كما هو واضح في (انظر الشكل ٦-) وأهم مايميز فخار العصر البابلي القديم ظهور الجرار الرمادية اللون ذات النقوش المحفورة والمطعمة بالحص التي تغطي

كامل البدن تقريباً وتحمل مواضيع مختلفة ولها أربع مقابض ، ووجدت في مواقع ديالى[٦٩] وحمرين[٧٠] وسوسه[٧١] (انظر الشكل -٧) ومواقع أخرى في جنوب العراق مثل نفر ولكش ، وربما كان لهذا الفخار مصدر واحد انتشر منه الى منطقة واسعة أو أن له عدة مصادر حملت صفات مشتركة ، الا أن مشكلة هذا الفخار لم تحل بعد[٧٢] وجدير بالذكر أن دراسة علمية قامت على تحليل الفخار البابلي لمواقع حمرين (تل حلاوة ، وتل سليمة)، وأثبتت هذه الدراسة أن الفخار البابلي قد صنع محلياً[٧٣]، وقد أكدت العلاقة بين الفخار البابلي القديم ، وفخار سوسه الباحثة السيزبت كارتر خلال دراستها لطبقات سوسه المدينة الملكية[٧٤]، كما أثبتت الباحثة نفسها عند دراستها للفخار العيلامي من ٢٠٠٠-١٠٠٠ق.م العلاقة بين الفخار البابلي ، والكشي مع بلاد عيلام موضحاً بالأشكال ، ولو بدرجات متفاوتة[٧٥]، فضلاً عن العثور على كسر فخارية في منطقة الطيب تعود الى هذه الفترة[٧٦]، ويؤكد هذا ماسبق وذكرناه حول أهمية هذه المنطقة ومنطقة حمرين وجوخه مامي باعتبارها اتصال مباشرة بين العراق القديم وبلاد عيلام انتقلت عبرها المؤثرات الحضارية ، ويعتقد الباحث بأن التقنيات المستقبلية في المناطق الحدودية المجاورة ستوضح أكثر مدى العلاقة بين المنطقتين .

يتبين من خلال هذا الاستعراض العام والموجز للفخار العراقي وفخار بلاد عيلام، أن هناك مؤثرات واضحة دخلت من العراق الى بلاد عيلام منذ فترات عصور ماقبل التاريخ مروراً بالعصور التاريخية وكانت هذه العلاقة في كثير من الأوقات ذات مؤثرات متبادلة طغى عليها التقليد العراقي وذلك بسبب قوة وفاعلية الحضارات العراقية وتأثيراتها في المنطقة .

الهوامش

١ – البحث مستل من رسالة الماجستير بعنوان (علاقات العراق القديم ببلاد عيلام حتى سنة ٦٣٩ ق.م . تقدم بها عبدالعزيز الياس سلطان بأشراف الدكتور غسان طه ياسين جامعة الموصل – كلية الآداب – قسم التاريخ . حزيران ١٩٩٢ .

2- Ameran , R , " The Beginning of Pottery Making in the Near East " In Ceramics and man (ed) by Frederick Matson . London . 1966. PP. 243"f.

٣ – من المواقع الأخرى التي تعود الى هذه الفترة كرد على اغا وتل شمشارة ، ومطارة يارم تبه ونينوى (الطبقات 1, 2a, 2b) وتمر خان بالقرب من مندلي حول هذه المواقع انظر :

Jawad , A. J. , The Advent of the Era of Townships in Northen Mesopotamia . Ph - D thesis , University of Chicago publised by E. J. Brill, Leiden , 1965, PP. 20-22.

٤ – أطلق الآثاريون الفرنسيون عام ١٩٠٥ على موقع على كوش اسم تبه محمد جعفر (Tepe Mohammad - Djaffar) نسبة الى عشيرة محلية ، بينما يطلق القريون في منطقة موسيان في الوقت الحاضر على الموقع اسم بوس موردية (Bus - Mordeh) والذي يعني بالفارسي الماعز الميت بينما يطلق سكان دي لوران على الموقع اسم على كوش (المكان الذي قتل فيه على) ، وبسبب الاختلاف في هذه الاسماء فقد استعملها كل من هاول وفلينيري لتمثل أدوار موقع على كوش ، وكما يلي: بوس موردة الدور الأقدم يليه دور على كوش وأطلق على الدور الأخير اسم محمد جعفر ، انظر :

5- Hole , F. and Flannery , K.V., "Excavations at Ali Kosh Iran" Iranica Antiqve vol . II . Fc . 2 . 1961 . P . 144 .

٦ – حول التسلسل الزمني لفخار العراق انظر : بصحبة جي ، فرج ، " بحث في الفخار صناعته وأنواعه في العراق " ، سومر ، العدد ١٩٤٨,٤ ،ص ١٥-٤٧ .

7- Briadwood , R. and Howe . B . , Prehistoric Investigation in Iraq Kurdistan , Chicago . P . 44 .

8- Mellaart , J ., The Earliest Settlements in Western Asia from the Ninth to end of the fifth Millennium B . C . CAH . Vol . I . Part . I . PP . 259-263 .

٩- دانيال ، كليين ، موسوعة علم الآثار ، ج ١ ، ترجمة ليون يوسف بغداد ، ١٩٩٠، ص ٩٨ . وقد أرخ هذا الموقع بواسطة كاربون ١٤ حيث فحصت خمس عينات من الطبقة E وأعطيت تاريخاً يقع بين ٨٤٥٠ ± ١٥٠ - ٦٤٣٥ ± ٧٥ ق . م انظر :

Oates , D, and Joan ., The Rise of Civilization Oxford . 1976 . P . 138 .

10- Hole , F and Flannery . , Excavations at Ali Kosh ... Op . Cit . p . 145.

11- Matson , F . R . , " Archaeological Ceramic study possibilities with a Thermal Gradient Furnce" . In Archaeological Chemistry . American Chemical Society . Washington . 1974. p . 37 .

١٢- تعد المجاميع الفخارية المكتشفة في تل حسونة أوسع نماذج فخارية قديمة معروفة لحد الآن ، والجدير ذكره أن فخار الطبقة السفلى عبارة عن أواني سمجة بسيطة معظمها كبيرة الحجم سمجة الجانب ، ويلي ذلك الفخار المحزز والمدلوك والمزخرف بالاصباغ وهذا فخار حسونة الأركائي أما فخار حسونة النموذجي فيظهر عليه تقدم في صناعة الفخار وزخرفته ، وقوام هذه الزخرفة خطوط مستقيمة وخطوط متصالبة ومتقاطعة ومثلثات ولون الاواني اسمركاب.

انظر :

Lloyd, S. and Safar, F., "Hassuna Excevation by the Iraq Government Directorat General of Antiquities in 1943-1944" JNES. Vol.4 1945. PP. 267-268.

13- Briadwood, R. and Howe, B. , Prehistoric Invesigation ....OP. Cit. P.44.

14-Oates. J., "First Preliminary Report on a Survey in the Region of Mandali and Badra " Sumer. vol, 22. 1966. p.53.

15- Hole, F. and Flannery, K., Excavations at Ali Kosh ...OP. Cit. Pl. VII:I.

16- Le Breton. L., "The Early Period at Susa Mesopotamia Relations" Iraq. Vol. 19. 1957 P.84.

17-Ali Zadeh, A. , "A Protoliterate Kiln from Chogha Mish " Iran. Vol. 23. 1985. P. 43.

18- Hole, F. and Flannery, K., Excavations at Ali Kosh ...OP. Cit. P.113.

اكتشف هذا الفخار في الطبقات السفلى من المدينة الاسلامية في سامراء من قبل هرسفيلد ، واطلق عليه اسم فخار سامراء ، وقد تداخل فخار سامراء مع فخار حلف أحياناً ومع فخار العبيد أحياناً أخرى ، وقد اثبتت هيئة التنقيب في تل حسونة بأن فخار سامراء أقدم من فخار حلف لأنها وجدت بقايا الثقافة الأخيرة فوق آثار سامراء ، انظر : بصحة جي ، فرح . بحث في الفخار ، ص١٩ .

20- Oates, D. and Joan., The Rise of Civiliazation ....Op. Cit. P. 62.

21- Ibid. P.67.

22- Yaseen, G.T., "Settlements of the Hamrin Basin from Early Times to the End of the Old Babylonian Period . ١٩٨٩ ، بحث مقدم الى مجلة سومر

23- Jasim, S.A., The Udaid Period In Iraq. Recent Excavation in the Hamrin Region, Ph.D. thesis, Published, B.A.R. International Series 276 (I-II) Oxford. 1985. PP. 157-193.

٢٤- العبيد : تل صغير يقع على بعد ٦ كم الى الغرب من أور نقب فيه وولي عام ١٩١٩ وكشف فيه عن فخار سمي باسم الموقع ويعد أقدم فخار في جنوب العراق اذا ما استثنينا فخار اريدو الذي يمثل أدوراه الأولى ، وفخار العبيد واسع الانتشار داخل وخارج العراق ، وعثر عليه في مواقع مختلفة في بلاد الشام وبلاد عيلام والخليج العربي ، انظر:

كسار ، اكرم محمد عبد . (فخار العبيد في العراق القديم) سومر ، العدد ٤٤ ، ٨٥-١٩٨٦، ص١٠-٣٢.

25- Jasim, S. A., " Excavations at Tell Adada a Preliminary Report". Iraq. Vol. 37. 1975, PP. 170-181.

26- Oates, J., "Rediocarbon data from Choga Mami. Iraq. Vol. 34.

٢٧- محسن ، زهير صاحب ، فخار سامراء ، رسالة ماجستير غير منشورة بغداد ، ١٩٨١، ص ٢٠٣.

٢٨- فخار حلف : سمي بهذا الاسم نسبة الى التل الأثري حلف الواقع شمال سوريا على نهر الخابور الذي نقب فيه اوبنهايم ، وأهم مايمتاز به فخار هذا الموقع أوانيه الجميلة ذات النقوش الزاهية المصبوغة بعدة ألوان كالأصفر البرتقالي والاحمر والاسود على ارضية من الطين المفخور ، والواقع ان براعة صنع هذا الخفار تضاهي اجمل ما صنع من الفخار الملون في التاريخ القديم ، للمزيد حول هذا

الموضوع انظر: كسار ، اكرم محمد عبد ، عصر حلف ، رسالة ماجستير غير منشورة بغداد ١٩٨٢.

٢٩- درس اسماعيل احجارة عصر حلف شمال العراق ، ودرس فخار حلف ، وفحص أشكاله وانواعه وزخارفه وقام بمسح لمواقع حلف في العراق التي قدرها بحدود ٢٠٠ موقع اثبت من خلالها بان منشأ هذا الفخار في العراق انظر :

Hijara, I.H., The Halaf Period in Northern Mesopotamia. Unpublished Ph.D. thesis. London. 1980.

30- Davidson,T. E. and Mckerrell, H. "The Nueutron Activation Analysis Halaf and Ubaid Pottery from Tell Arpachiyah and Tepe Gawra. "Iraq Vol. 42 Pt.2 1980. P.163.

31- Davidson, T.E., Regional Variation within the Halaf Ceramic Tradition. Ph.D. unpublished thesis. London. 1977. P.83.

32- Mellaart, J., The Neolithic of the Near East, London, P.172.

33- Stronach, D., Ras al' Amiya. In Early years of Mesopotamia Discovery, London. 1982, PP. 37-39.

٣٤- وضعت جوان اوتس تسلسلاً لفخار العبيد استناداً الى تنقيبات فؤاد سفر وستين لويد ٤٧-١٩٤٨ في اريدو التي اجريت في طبقات المعابد وقسمت الى اربعة أدوار : العبيد الأول (اريدو) الطبقات ١٩-١٦ ، العبيد الثاني (دور حاج محمد) الطبقات ١٥-١٢ ، العبيد الثالث ، الطبقات ١٢-٨ ، العبيد الرابع والأخير ممثلاً بالطبقات ٧-٦. انظر :

Oates, J. Ur and Eridu Op. Cit. p.33.

35- Ibid. P. 44.

36- Le. Breton., The Early Period at Susa. Op. Cit. P.88.

37- Oates, J., Ubaid Mesopotamia and its Realtion to Gulf Countries. In Qater Archaeological Report, Excavations 1973. (ed) by Beatrice De Cardi, Oxford University Press. 1978. PP. 46-52.

٣٨- كريمر ، صموئيل ، السومريون ، ص٤٧٣.

39- Woolly, L., Excavations at Ur. London. 1973, P.20.

40- Safar, F., et al., Eridu. Baghdad. 1981. PP. 206-214, Fig. 96-100.

41- Porada, E., "The Relation Chronology of Mesopotamia Pt.1 "Chronlogies in old World Archaeology. Chicago. 1954. P. 150.

42- Le Breton, L., The Early Period ...OP. Cit. P.86.

43- Safar, F. et. al., Eridu. Op. Cit. PP. 176-177. Fig. 82.

44- Le Breton, L., The Early Period ...OP. Cit. P.88.

45- Mallaart, J., The Neolithic of the Near East. Op. Cit. P.176.

46- Safar, F. et. al., Eridu. Op. Cit. PP. 154-155.

٤٧- بصحة جي ، فرج ، بحث في الفخار ، ص٢٢.

48- Oates, J., The Gulf in Prehistory ...Op. Cit. P. 79.

49- Le Breton. L., The Early Periods at Susa. Op. Cit. P. 41.

٥٠- يقع هذا الموقع غرب نهر الطيب الى الشمال من مدينة العمارة بحدود ٣ كم قريباً من الحدود العراقية الايرانية حول هذا الموقع ونتائج التنقيب انظر :

Al-Shukri, S.J., Tell Waqqaf, A Prehistoric Site in South-Eastern Iraq. Sumer, Vol. 28, 1972 PP. 85-87.

51-Delougaz, P., Pre-Sargonid Temple. OIP. Vol. LVIII. 1942. P.8.

52- Abu al-Soof., Uruk Pottery. Op. Cit. P. 19.

53- Child, V., New Light on the Most Ancient East. London. 1964. P.123. Note 1.

54- Abu al-Soof, B., Uruk Pottery Origin and Distributions Ph.D. thesis. University of Cambridge. Published by State Organization of Antiquities and Heritage. Baghdad, 1985.

55- Abu al-Soof. B., Uruk Pottery. Op. Cit. PP. 19-34.

56- Child, V.G., New Light on .....Op. Cit. PP. 123-124.

57- Le Breton, L., The Early Periods at Susa ..OP. Cit. P.91.

58- Wright, H. T., et. al., "Early Foruth Millennium Developments in South Western Iran. Vol. 13-14. 1975. P. 140.

59- Abu al-Soof. B., Uruk Pottery. Op. Cit. PP. 97-78.

60- Child, V.G., New Light on .....Op. Cit. P. 133.

61- Le Breton, L., The Early Period at Susa ..OP. Cit. P.44.

62- Delougaz, P., Pottery from the Diyala Region. OIP Vol. LXIII. PP.140-141.

63- Ibid. P. 145.

64- Al-Sukri, S., Tell Waqqaf. Op, Cit. P. 85.

٦٥- القيسي ، باهرة ومانيورس: " تحليل فخاريات عصر فجر السلالات بحوث آثار حوض سد صدام وبحوث أخرى الموصل ، ١٩٨٧، ص٣٥٢. وهذا البحث منشور في نفس المجلد في القسم الانجليزي الصفحات ١٣٤-١٥٤.

66-Yaseen, G.T., A Study of Old Babylonian Pottery Op. Cit. P.163.

67- Ibid. PP. 217-218.

68- Delougaz, P., Pottery from the Diyala Region. Op. Cit. PP.147-148.

69- Al-Shukri. S., Tell Waqqaf. Op. Cit. P. 85.

70-Yaseen, G.T., A Study of Old Babylonian Op. Cit. Pl. 100-101.

71- Delougaz, P., Pottery from the Diyala Region. Op. Cit. Pl. 123-125.

72- Parrot, A., Nineveh nad Babylon. London. 1961. P. 141 Fig. 298.

73-Yaseen, G.T., A Study of Old Babylonian Op. Cit. P. 162. Pl. 35,55.

74- Carter E. "Suse "Ville Royale".Paleorien, Vol.3. 1975. P.211.

75- Carter, E., "Elamite Pottery Ca 2000-1000 B.C. "JNES Vol. 38, No.2 1969. PP. 126-127. Fig (111-129).

76- Al-Shukri. S., Tell Waqqaf. Op. Cit. P. 85.

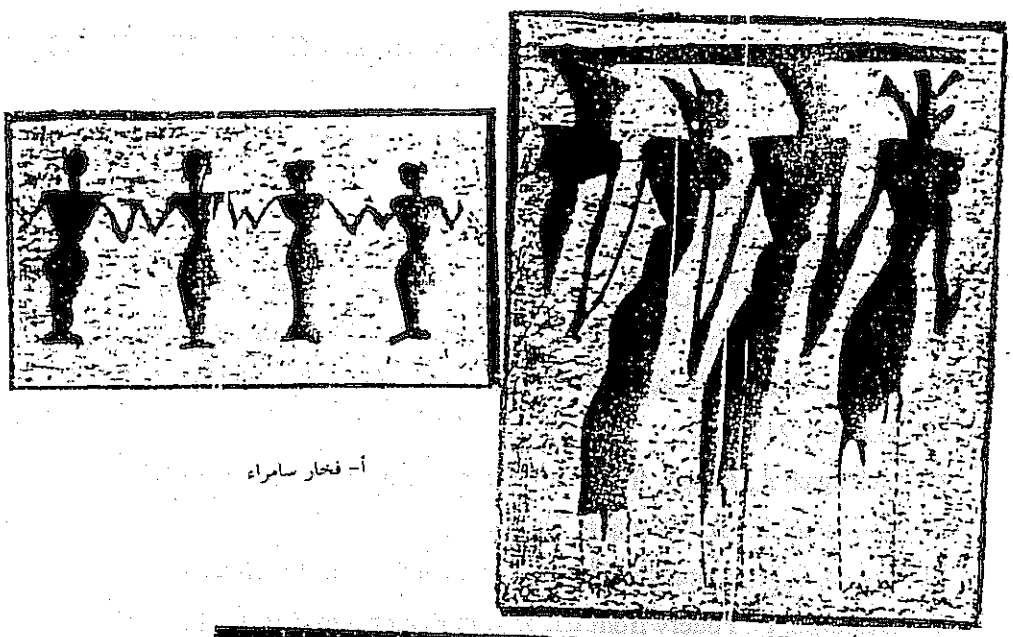

أ- فخار سامراء

ب- فخار لورستان ؛ سيالك

شكل (٢) : مشاهد راقصة وجدت على فخاريات سامراء .
اندري بارو ، سومر فنونها وحضارتها
شكل ٦٢ ، ٦٩

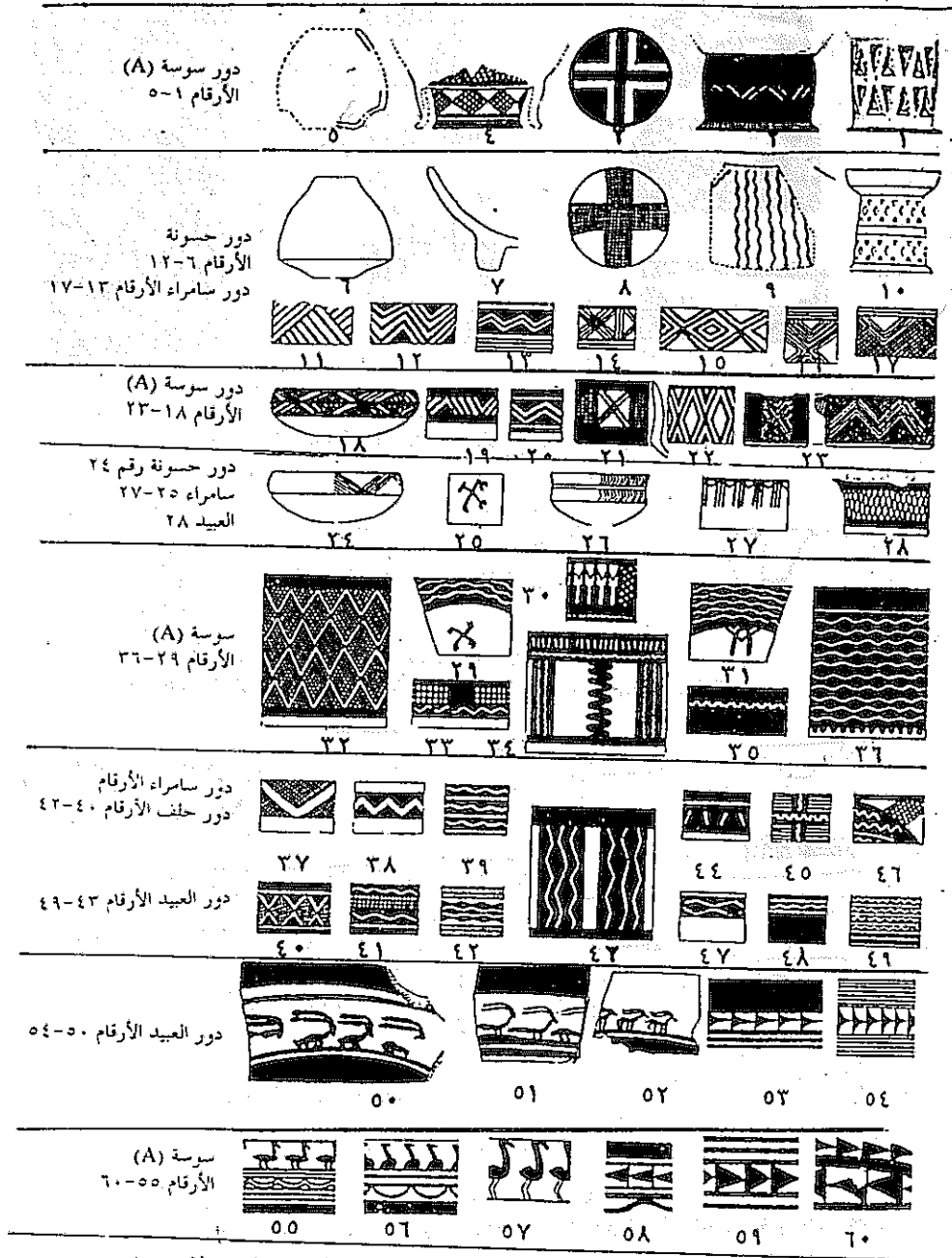

شكل (١) نماذج من الفخاريات والزخارف تبين مدى التشابه بين الفخار العراقي القديم وبلاد عيلام من دور حسونة وحتى دور العبيد .

الأرقام ١-٤٩ ..... Le Breton, L. 1957, Fig. 5
الأرقام ٥٠-٥٢ ..... Al.Shukri, S., 1972, Pl. 3: 1-3
الأرقام ٥٣-٦٠ ..... McCown, D., 1942. Fig. 8.

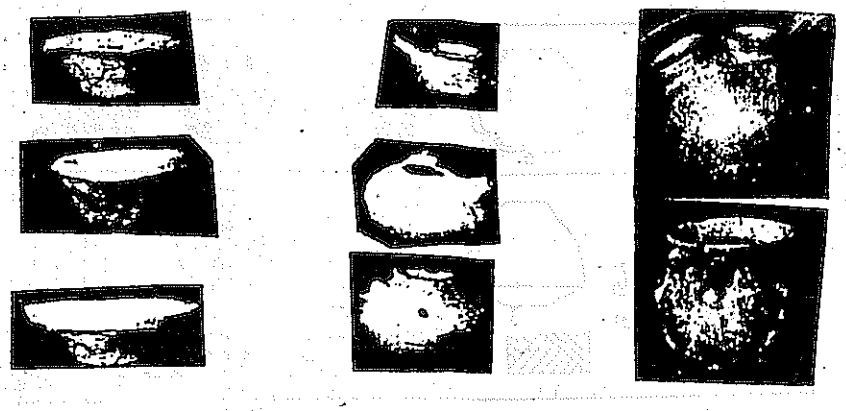

فخار الوركاء ، دوكان

Abu al Soof, B., Uruk Pottery., 1985, p. 185.

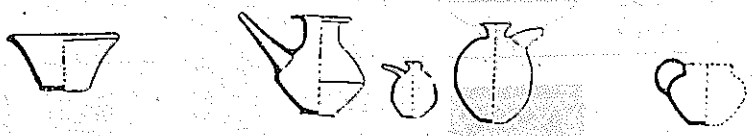

فخار الوركاء الوركاء الطبقات VII-V

Child, V.G., New light on the Most Ancient East, 1969, Fi.g 62.

فخار الوركاء ، سوسة B

Le Breton, L., The early period at Susa,. 1957, Fig. 10.

شكل (٣) نماذج من فخاريات الوركاء تبين مدى التشابه بين الفخار العراقي القديم وفخار بلاد عيلام .

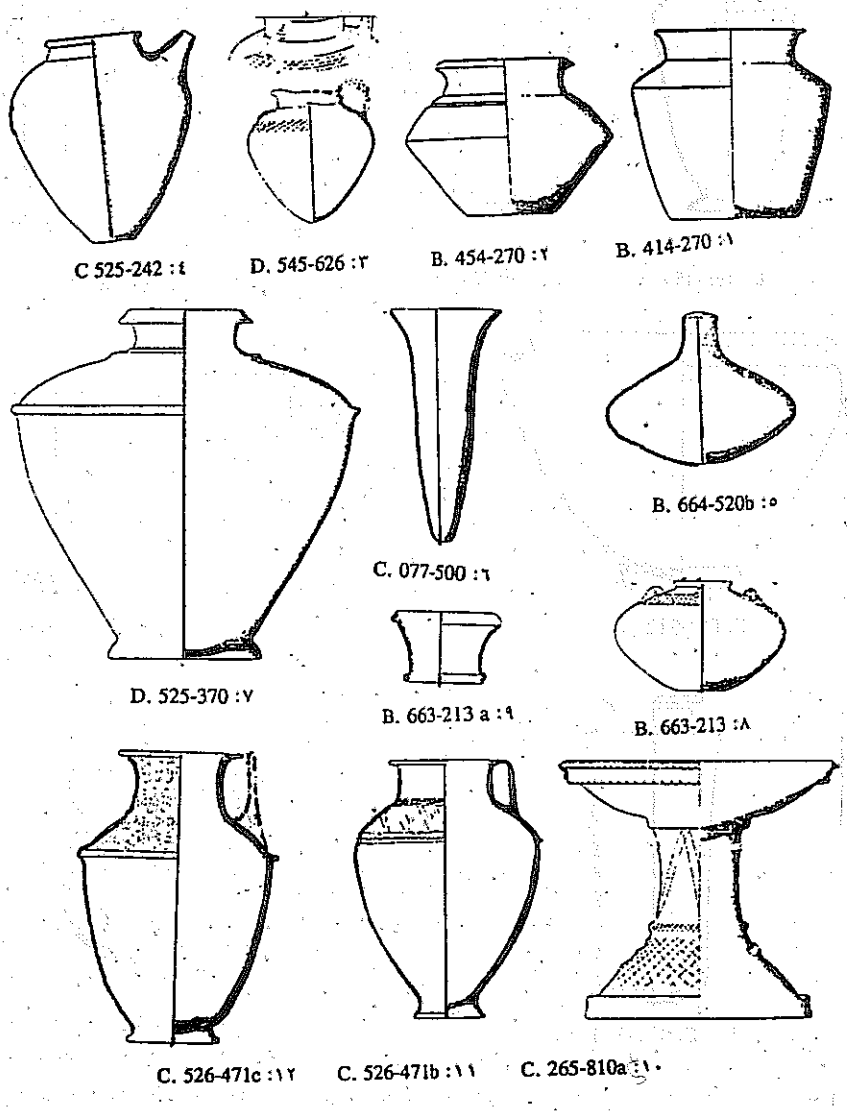

الأرقام ١-٤ : فخاريات العصر الشبيه بالكتابي وجدت في خفاجي .

الأرقام ٥-٦ : فخاريات فجر السلالات الأول
وجدت في تل أسمر وخفاجي .

الأرقام ٧-٨: فخاريات فجر السلالات الثاني وجدت في خفاجي وأشحالي .
الأرقام ٩-١٢: فخاريات فجر السلالات الثالث وجدت في خفاجي .
الأرقام الانجليزية في الأعلى تمثل أرقام الفخاريات في كتاب : Delougaz, P. Pottery from the Diyala Region, 1952, OIP, LXIII .

شكل (٤) فخاريات متنوعة من منطقة ديالي وجدت ما يماثلها في سوسة .

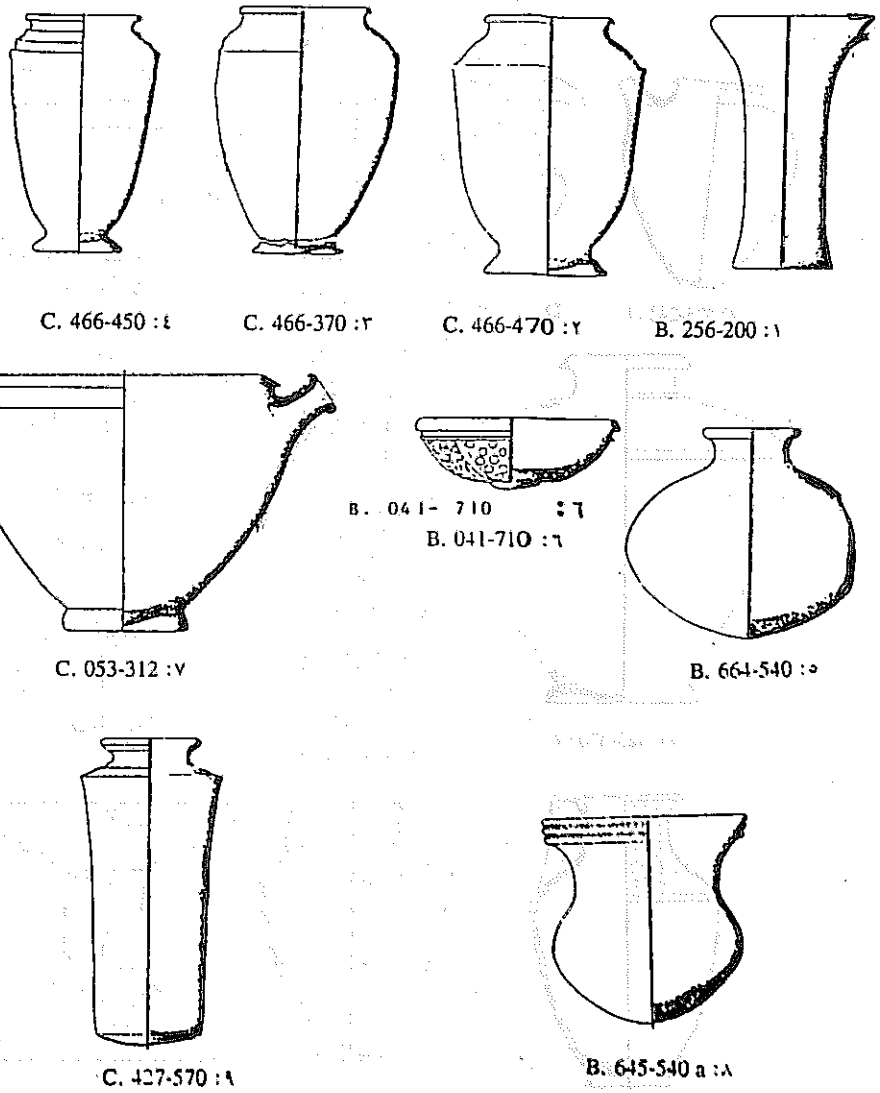

الأرقام ٨-٩ : فخاريات العصر السومري الحديث وجدت في تل أسمر .
الأرقام الانجليزية في الأعلى تمثل أرقام الفخاريات من كتاب : Delougaz, P. Pottery from the Diyala Region, 1952, OIP, LXIII .

شكل (٥) : مجموعة من فخاريات العصر الأكدي والسومري الحديث وجدت في مواقع ديالي عشر على ما يماثلها في سوسة .

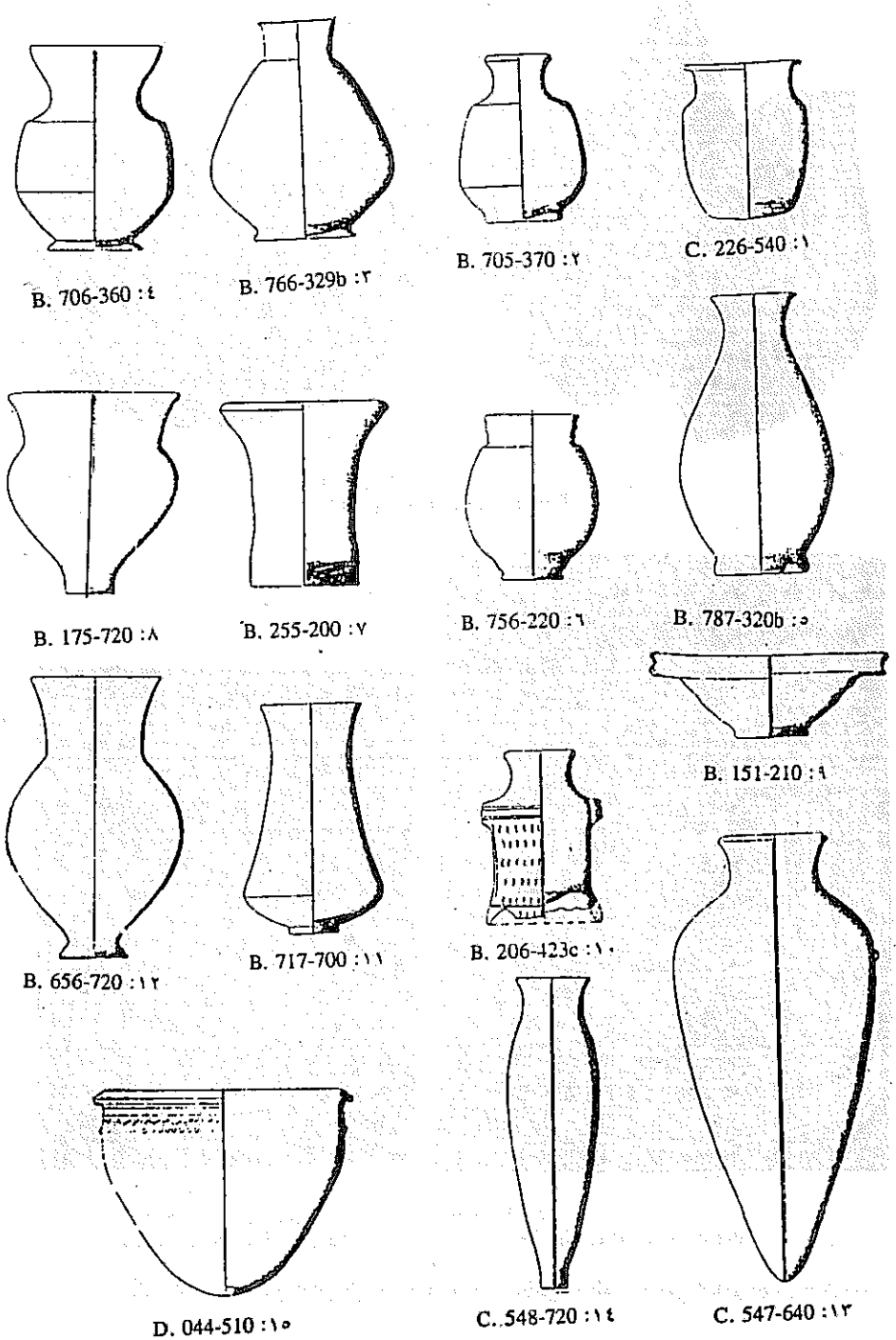

شكل (٦) : مجموعة من فخاريات العصر البابلي القديم وجدت في مواقع ديالي عثر على ما يماثلها في سوسة .
. Delougaz, P. Pottery from the Diala Region, 1952, OIP, LXIII

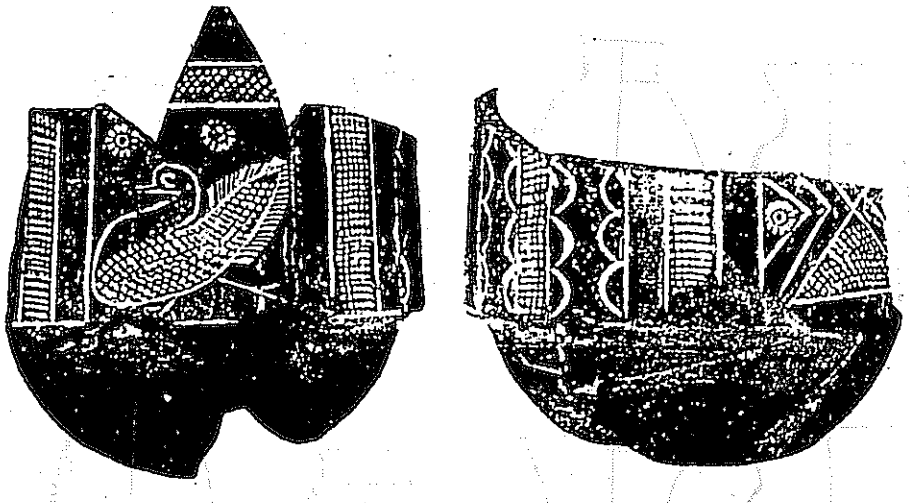

تل أسمر ، ديالي
Delougaz, P., 1952, Pl. 125

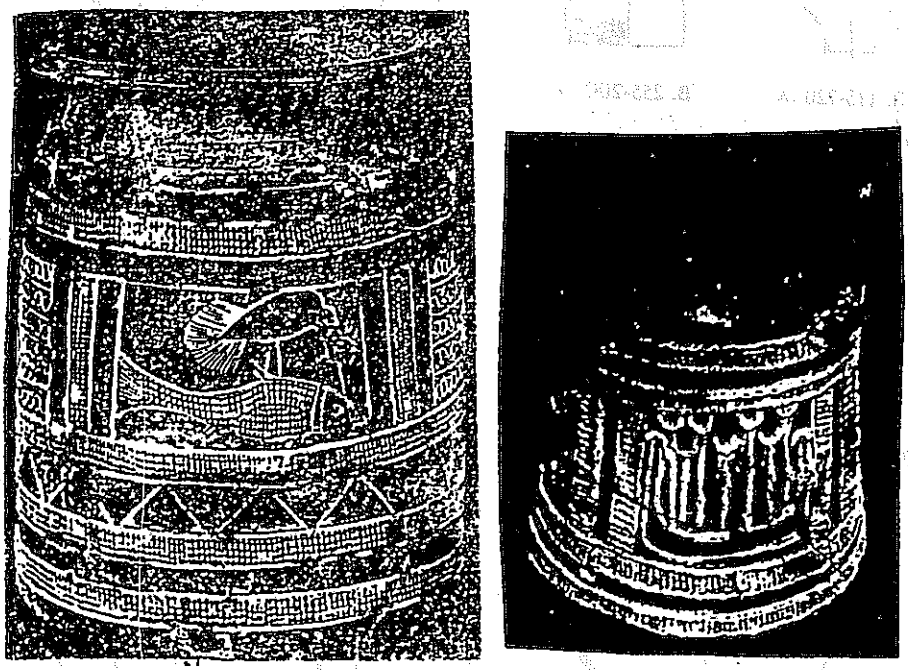

سوسة ، عيلام
Parrot, A., 1961, Fig. 298

تل سليمة ، حوض حمرين
Yaseen, G. T., 1987, PL. 55

شكل (٧) : نماذج من الفخار الرمادي المخزز والمطعم بالجص من العصر البابلي القديم (أيسن – لارسا)

جنوب زاجروس	جنوب العراق		شمال زاجروس		شمال العراق	
جيان VC	العبيد سوسة C		العبيد		نينوى III	
جيان b	سوسة b حاج محمد	تبة	؟		حلف	
جيان a	سوسة a أريدو	سابز	سامراء		H a s s a	V IV III
			شمشارة	مطارة	n n a	II IC IB
تبة كوران b	محمد جعفر		جرمو الطبقات V-I		n A	IA
تبة كوران a	علي كوش		جرمو الطبقات السفلى ملفعات كريم شاهر زاوي كمي شانيدز			
	بوص مورده					

جدول رقم (١) : جدول تزامني لثقافات العراق وإيران من ١٠٠٠٠-٤٣٠٠ ق.م

عن : CAH, 1980

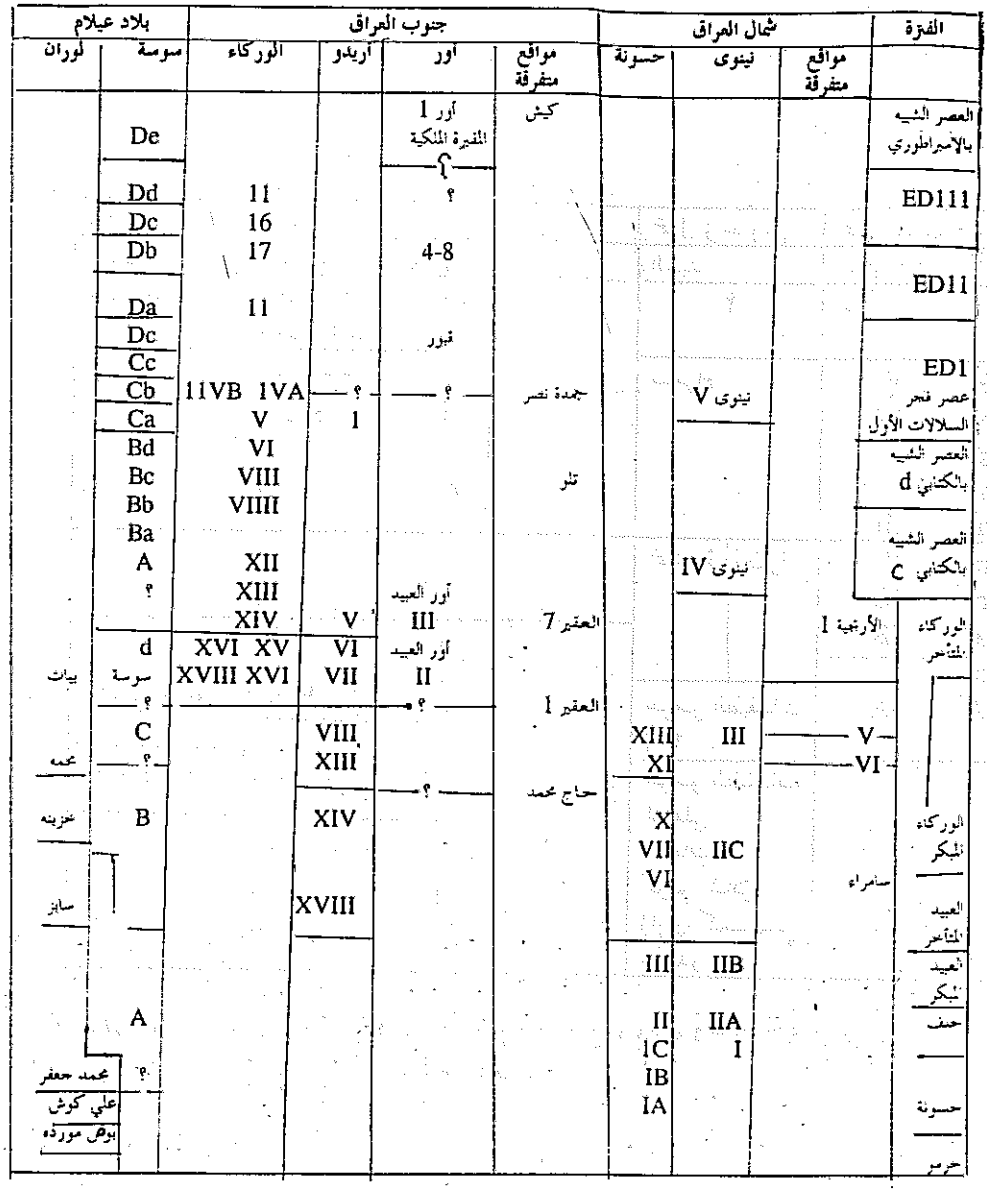

جدول رقم (٢) : جدول تزامني لثقافات العراق القديم وبلاد عيلان من فترة جرمو حتى العصر الشبيه بالإمبراطوري .

عن : Le Breton. L., The Early Period at Susa. Op. Cit. Pl. 42

الليبرالية المتوحشة
ملاحظات حول التوجهات الجديدة للرأسمالية المعاصرة

تأليف : الدكتور رمزي زكي
مراجعة:د.عبدالباري احمد نعمان الشرجبي
الاستاذ المشارك في كلية التجارة والاقتصاد

أولاً : أسلوب المراجعة : تقوم مراجعة الكتاب على :-

١- تلخيص لأفكار ومعلومات الكتاب ، وهو مايتطلب أحياناً عرض جمل وفقرات (بالنص) من الكتاب.

٢- التقديم والتأخير في أفكار ومعلومات الكتاب - عند العرض هنا - ولكن بما لا يخل بالسياق الفكري للكتاب.

٣- عدم عرض أية بيانات إحصائية في شكل جداول أو رسوم بيانية وردت في الكتاب.

٤- الابتعاد ما أمكن عن الألفاظ غير المناسبة ، سواء من الناحية اللغوية أو التي تخدم أغراضاً غير اقتصادية.

٥- وأخيراً ، التعليق عند الحاجة ، سواء في المتن أو الحواشي ، مع استخدام بعض المراجع.

ثانياً: ملاحظات على الكتاب: يمكن ان نورد على الكتاب ملاحظات هي:

١- باستثناء المبحث الثالث (أممية رأس المال ...) فإن الكتاب (ستة مباحث) عبارة عن ابحاث ومقالات بحثية سبق نشرها في مجلات ، ولكن بعضها (المبحثين الأول والثاني بالذات) أعيد كتابته لأغراض الكتاب الذي بين أيدينا.

٢- اعتمد الكتاب لتدعيم أفكاره على كم من البيانات الاحصائية في شكل جداول ورسوم بيانية ، كما اعتمد على كم ضخم من المصادر والمراجع المتنوعة فكراً ولغة وموضوعاً ، وبذلك فإن الكتاب "علمي" من الطراز الأول ، في منهجه وتحليله ونتائجه.

٣- يُؤخذ على الكتاب عديد من الأمور:

الأول : وهو شكلي ، يتمثل في ان فهرس الكتاب يشير الى فصول تنقسم الى مباحث ، بينما متن الكتاب يشير الى أبواب تنقسم الى مباحث. وهذه المراجعة تلتزم بما في المتن.

الثاني ، يستخدم المؤلف مصطلحات بلاد العالم الثالث ، البلاد الممتخلفة ، البلاد النامية في معنى و / أو مضمون واحد هو البلاد التابعة في اقتصادها للاقتصاد والسوق الرأسمالي العالمي.

الثالث ، ولعل مرجعه الأخطاء المطبعية ، يتمثل في تضارب بعض الأرقام وبالتحديد السنوات.

فمثلاً : المكسيك نفّذت برامج التثبيت الاقتصادي والتكيف الهيكلي بعد عام ١٩٨٥م (صفحة ٢١٧) ، والمكسيك طبقت تلك البرامج ابتداءً من عام ١٩٧٦م (صفحة ٢٣٦). ومثلاً : أتخذت حكومة بريطانيا في أوائل اكتوبر ١٨٤٠م قراراً بشن حرب عسكرية على الصين (صفحة ٣١٦) ، و"عبأت الحكومة (البريطانية) قوة عسكرية ... وفي أوائل يونيو ١٨٤٠م وصلت القوة الى عرض البحر قبالة سواحل الصين" (صفحة ٣١٦) ، وفي صفحة ٣١٧ ، وبعد الحديث عن هزيمة الصين في الحرب ، أجبر "الشعب (الصيني) بدفع تعويضات باهظة عن الحرب على نحو ما جاء في اتفاقية قوانجتشو للسلام التي وقعت في مايو ١٨٤٠م". وهناك اخطاء مطبعية في المتن مثل تكرار هامش رقم ٤٣ (الأول زائد) وعدم وجود هامش رقم٧٨.

الرابع ، ولعله المأخذ المنهجي الوحيد على الكتاب ، وذلك هو ان الباب الأول وعنوانه : "حول جوهر الليبرالية الجديدة : مدخل نظري" ، يشمل مبحثين ، الأول عن الليبرالية المتوحشة : ملاحظات حول دور الدولة في النشاط الاقتصادي ، والثاني عن أزمة الاقتصاد الأمريكي .... هل انتهت قيادة أمريكا للمنظومة الرأسمالية العالمية ؟ وهو المبحث الذي يصعب قبوله كمدخل نظري لموضوع الكتاب.

الخامس والأخير ، ختم المؤلف المبحث الأول بخاتمة عنوانها : " حتمية ظهور نظام اجتماعي جديد ، وهذه الخاتمة تصلح تماماً كخاتمة للكتاب كله الذي لا توجد له خاتمة وتوجد له "توطئة" ، هذا مع ملاحظة أن كل مبحث من مباحث الكتاب له خاتمة.

٤- وملاحظة أخيرة وتتعلق بجوهر الكتاب . إن الليبرالية المتوحشة "تتناسب" الى حدٍ كبير مع المباحث الثلاثة في آخر الكتاب. ذلك ان المباحث عبارة عن "مقالات بحثية" تتضمن ، وبالأدلة التاريخية والإحصائية ، أنواعاً من "السلوك المتوحش للأوروبي الغربي" وبالتالي الليبرالية التي اعتنقها وطبقها على الصعيد العالمي في كثير من البلاد المتخلفة (الآن) ، وبالتحديد في أمريكا اللاتينية (من خلال نهب الذهب والفضة) وفي أفريقيا (من خلال تجارة العبيد) وفي آسيا وبالتحديد الصين (من خلال حرب الأفيون). والنتيجة "التاريخية الخطيرة" لتلك الليبرالية المتوحشة ، ولا سيما بعد العصر الاستعماري ، هي "خلق" حالة "التخلف الاقتصادي" في البلاد المعنية وجعلها تابعة للاقتصادالرأسمالي العالمي. وهذه النتيجة توصّل إليها المؤلف - بعد الدراسة والبحث - في عدد من مؤلفاته ، منها " المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة"[١] و"التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في أثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث"[٢] ، بالاضافة الى الكتاب الذي بين أيدينا. وهذا الكتاب يقدم فيه المؤلف - وبعد الدراسة والبحث والتحليل - أدلة إحصائية تؤكد على أن ليبرالية القرن العشرين (باعتناقها من قبل الدول الرأسمالية الصناعية) ومن خلال سياسات صندوق النقد والبنك الدوليين (برامج التثبيت والتكيف) هي أيضاً متوحشة ، واستهدفت وتستهدف إخضاع البلاد المتخلفة[٣] لسيطرتها التي فقدتها بعد استقلال هذه الأخيرة ولمطامعها فيما يخص الحصول على معدلات ربح عالية ، لتعالج أزمة الرأسمالية المعاصرة : انخفاض معدلات الأرباح. وهذا الإخضاع ، وان كان لا يستخدم الأساليب المتوحشة ذاتها التي مارستها الرأسمالية التجارية والصناعية تاريخياً في البلاد المعنية (قتل وتعذيب ونهب وتجارة عبيد وحروب مختلفة ...) ، إلا أنه لا يتورع عن استخدام أساليب متوحشة من نوع آخر : أساليب غير انسانية تتسبب في إفقار الناس (وأحياناً تجويعهم) وفي تدهور مستوى معيشتهم وفي اصابتهم بالبطالة ومعاناتهم من ويلاتها مع ويلات التضخم ... الخ. والمحصلة هي المزيد من - أي تعميق - التخلف للبلاد المعنية واستمرار تبعيتها للاقتصاد الرأسمالي العالمي.

ثالثاً : مراجعة الكتاب :

ويشمل الكتاب ثلاثة أبواب يستة مباحث ، مسبوقة بتوطئة ، ويقع في ٣٢٣ صفحة من القطع الكبير.

توطئة : من ليبرالية مانشستر الى ليبرالية شيكاغو (ص١٩-٢٨)

مفهوم الليبرالية:

الليبرالية كمنظومة ايديولوجية ، هي تيار فكري اقتصادي "نيوكلاسيكي" يطبق في البلاد الرأسمالية (بعد منتصف السبعينات) على أساس الايمان المطلق بالمنافسة وآليات السوق (عرض وطلب) والمبادرات الفردية ، وعلى اساس معاداة التدخل الحكومي في الاقتصاد والعدالة الاجتماعية ، وعلى اساس وضع الفرد - صاحب رأس المال - في بؤرة الاهتمام.

ليبرالية مانشستر:

في ضوء مفهومها فان الليبرالية ، وهي تعبر عن مصلحة الرأسمالية ، "انتصرت" على النظام الإقطاعي (والنظام الحرفي) وفجرت امكانيات هائلة للثورة الصناعية[٤] فيما حققته من تقدم في قوى الانتاج وفي الدخل والتراكم الرأسمالي. ولكنها في الوقت نفسه مارست استغلال العمال[٥] وتسببت في البطالة والفوارق الاجتماعية وقاومت تشريعات العمل والأجور ومساعدة الفقراء واستعمرت ونهبت العالم الثالث وكونت الاحتكارات الكبرى واشعلت الحربين العالميتين.

ولتتجنب الرأسمالية الأزمات الاقتصادية[٦] ، وفي ضوء أفكار " كينز " ، حدّت الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية من الليبرالية المطلقة من خلال دور الدولة في المجالين الاقتصادي والاجتماعي ، وهو دور " الموازنة الموضوعي بين تقلبات قوى الطلب الكلي وقوى العرض الكلي"[٧]. ونتج عن ذلك خلال الفترة ١٩٤٥-١٩٧٠م ارتفاع معدلات النمو والتوظف وتحقيق استقرار نقدي نسبي وارتفاع مستوى المعيشة ، وبذلك عاشت الرأسمالية مرحلة " دولة الرفاه " .

ليبرالية شيكاغو :

تعرضت الرأسمالية في السبعينات لأزمات أهمها داخلياً الركود التضخمي[٨] وعجز شديد في الموازنة العامة للدولة وفي ميزان المدفوعات ، وأهمها عالمياً تدهور

معدلات نمو التجارة وتقلب أسعار الصرف واشتداد الحماية الجمركية . ونتيجة لذلك اندلع " صراع فكري ... بين الاقتصاديين حول طبيعة السياسات الاقتصادية والاجتماعية " لمواجهة تلك الأزمات ، انتصر فيه الليبراليون على الكينزيين بالاستناد الى :

١- زيادة الانفاق العام والضرائب والدين الداخلي والعرض النقدي " سر الكوارث التي حدثت للرأسمالية " .

٢- الليبرالية المطلقة منهاج لادارة الرأسمالية، داخلياً من خلال حرية السوق ، وخفض الضرائب على الأرباح ورأس المال لزيادة العرض الكلي ، وبيع القطاع العام للقطاع الخاص ، وتخلي الدولة عن تحديد الأسعار والتوظف الكامل والضمان الاجتماعي ودعم غذاء الفقراء[٩] ، وعالمياً من خلال تعويم اسعار الصرف وحرية تحرك رؤوس الأموال وإلغاء قيود التحويلات.

هذه هي ليبرالية شيكاغو[١٠] التي "تسربت" الى الصندوق والبنك الدوليين ليتعاملا مع البلاد النامية من خلال برامج التثبيت الاقتصادي (للصندوق) والتكيف الهيكلي (للبنك).

وهنا يثير المؤلف سؤلاً (رئيسياً) : ما نتيجة ممارسة الليبرالية المطلقة بعد عقدين؟ ويجيب عن السؤال بفشل الليبرالية في معالجة أزمة الراسمالية ، داخلياً حيث أدت الى اتساع نطاق الفروق في توزيع الدخل والثروة ، وعالمياً حيث أدت الى أزمة المديونية ونزعة الحماية والتكتلات الاقتصادية . وهذه النتيجة تدفع ثمنها بلاد العالم الثالث[١١] عن طريق إجبارها من قبل الصندوق والبنك الدوليين على التكيف مع أوضاع الاقتصاد العالمي المضطربة لإعادة تشكيل توجهاتها الاقتصادية من أجل إعادة السيطرة الاقتصادية عليها.

ويختتم المؤلف هذه التوطئة بالاشارة الى ان الليبرالية متناقضة في نموذجها النظري الذي يستند الى المنافسة الكاملة وشروطها ، وهذا وهم "لأن واقع الاقتصاد الرأسمالي المعاصر ... لا وجود فيه لشروط المنافسة الكاملة او نقاء حرية السوق".

الباب الأول : حول جوهر الليبرالية الجديدة : مدخل نظري :

ويشمل الباب مبحثين :

الأول : هذه الليبرالية الجديدة المتوحشة ... ،

والثاني: أزمة الاقتصاد الأمريكي ... ، وهو المبحث الذي يصعب قبوله ضمن باب يمثل مدخلاً نظرياً لموضوع الكتاب.

المبحث الأول : هذه الليبرالية المتوحشة : ملاحظات حول دور الدولة في النشاط الاقتصادي (ص٣١-٩١٤):

طرح المشكلة: الليبرالية التي تستهدف القضاء على تدخل الدولة في الاقتصاد وتزحف على العالم الثالث لإعادة السيطرة عليه والعودة بالتاريخ الى ايام الرأسمالية الطليقة ، هذه الليبرالية ما سرّها وما علاقتها بالنظام الرأسمالي العالمي ؟ ويتصدى المؤلف للموضوع في النقاط الست الرئيسية التالية.

أولاً: ليبرالية القرن ١٨ (وظهور الليبرالية الاقتصادية) ، (ص٣٢-٤٥)

إن هذه الليبرالية وهي المرتبطة بالثورة الصناعية الأولى ، كانت تقدمية لأنها حولت أوروبا الغربية من تشكيلة الاقطاع الى تشكيلة أرقى هي النظام الرأسمالي الصناعي. أما الليبرالية المعاصرة فهي "رجعية ومعادية ... لمصالح البشر" لأنها تجد مخرج الأزمة الهيكلية للرأسمالية (تراكم راس المال) في نزع مكتسبات العمال والطبقة الوسطى[١٢] وفي السيطرة الاقتصادية على العالم الثالث.

ولكي يعرض الليبرالية الاقتصادية يقدم المؤلف لذلك بعصر النهضة[١٣] باعتباره "المقدمة التاريخية" لظهور هذه الليبرالية. وعصر النهضة أنتج أفكاراً تدعو لتقديس العقل والفردية والحرية والايمان بقدرة الفرد على التطوير ، وبالتالي ظهرت ولأول مرة مصطلحات "حرية التجارة والتعاقد ودعه يعمل ودعه يمر" ، وصححت علاقة الكنيسة بالأفراد وظهرت مشروعية "تحقيق الثروة والحصول على الربح". واستناداً الى ما سبق فقد احتاجت الرأسمالية الصناعية الى "فكر جديد يستجيب لمتطلبات النمو والتطور" للتغلب على قيود فرضتها الرأسمالية التجارية بالنسبة لحرية التجارة ، وللبحث عن سياسات التسويق - وبالتالي نمو - الانتاج السلعي ، ولمواجهة قضايا الفقر والبطالة المترتبة على عملية التحول الى المجتمع الصناعي.

والليبرالية الاقتصادية تستند لثلاثة مبادىء :

١- الايمان بالقوانين الطبيعية والتي تجعل للقوانين الاقتصادية صفة الموضوعية لأنها " تحدث مفعولها في النشاط الاقتصادي بصورة مستقلة عن وعي الناس وإرادتهم".

٢- الايمان بالحرية الاقتصادية المطلقة[١٤] ، لكونها تتمشى مع سعي الفرد لتحقيق مصلحته[١٥] ، وعدم التدخل الحكومي في الاقتصاد استناداً الى شعار : "دعه يعمل .. دعه يمر ".

٣- المنافسة الكاملة وآليات السوق المحققان للتوزيع الأمثل للموارد بين استخداماتها وللدخل بين عوامل الانتاج[١٦].

وانتهى الليبراليون الى ان الحرية والمنافسة القائمة على الملكية الخاصة هي "قواعد السلوك المثلى لسير النظام الرأسمالي ، وهي التي تدفعه الى نقطة يحصل عندها المجتمع على افضل وضع ممكن والى توافق مصلحتي الفرد والمجتمع والى التوظف الكامل للموارد.

ثانياً : التدخل الحكومي والنظام الرأسمالي (ص٤٥-٤٩)

اتفاقاً مع عنوان المبحث ،وورغم الشعارات الليبرالية بعدم التدخل الحكومي ، يعرض المؤلف صوراً كثيرة من التدخل الحكومي لتدعيم النظام الرأسمالي تاريخياً. منها التدخل لدعم الرأسمالية التجارية وتحقيق فائض تجاري ، ولدعم الرأسمالية الصناعية ضد بقايا العهدين الاقطاعي والميركانتيلي ، وفي استخدام الجيوش الاستعمارية للحصول على المواد الخام والغذائية الرخيصة جداً ولامتصاص فائض الانتاج وفائض راس المال في المستعمرات. ومن صور التدخل حديثاً تجارب الدكتور شاخت في المانيا بعد الحرب العالمية الأولى وروزفلت في الولايات المتحدة أثناء فترة الكساد الكبير وهتلر في المانيا وموسوليني في إيطاليا. وبعد الحرب العالمية الثانية كان التدخل في ضوء نظرية كينز[١٧] . وخلال الفترة ١٩٤٥-١٩٧٠م تملكت الدولة في البلاد الرأسمالية كثيراً من الصناعات وزاد الانفاق على الخدمات العامة والضمان والاجتماعي والمجال العسكري ودعم غذاء الفقراء ، ونتج عن ذلك ما سبق ذكره بشأن دولة الرفاه (في نقطة ليبرالية مانشستر - التوطئة) ، وأعتقد البعض أن عصر أزمات النظام الرأسمالي ولّى.

ويرجع أحد الاقتصاديين[١٨] الازدهار السابق لا الى الكينزية فقط ، بل الى تزايد الطلب الكلي إعادة الاعمار والى استمرار تقسيم العمل الدولي لصالح الدول الرأسمالية والى التقدم التكنولوجي والى ازدهار التجارة الدولية واستقرار أسعار الصرف طبقاً لنظام بريتون وودز.

ولكن في بداية السبعينات تحدث أزمة النظام الرأسمالي داخلياً وعالمياً ، على نحو ما ورد في نقطة ليبرالية شيكاغو - التوطئة.

ثالثاً عقدة الأزمة : الاتجاه طويل المدى لانخفاض معدل الربح – مشكلة امتصاص الفائض الاقتصادي المتزايد (ص ٥٧–٨٧)

بغض النظر عن أية أفكار ومدارس اقتصادية ، يتحدد تراكم رأس المال (والتوسع الانتاجي) في المدى الطويل باتجاه معدل الربح[١٩] ، وبالتالي فإن ميل معدل الربح نحو الانخفاض يصبح سبباً مفسراً لأزمة الرأسمالية.

وبالنسبة للمدارس الاقتصادية فثلاث منها تُجمع على الميل الكامن طويل المدى لتناقص معدل الربح في النظام الرأسمالي. فأولاً ترى المدرسة الكلاسيكية[٢٠] أن تناقص معدل الربح يرجع الى توزيع الدخل القومي (في الأجل الطويل) لصالح أصحاب الأرض وأصحاب العمل ، مما يخفض نصيب الربح من الدخل وبالتالي يقلل من تراكم رأس المال. وثانياً ترى المدرسة الماركسية أن تناقص معدل الربح يرجع الى "التناقض القائم بين الطابع الاجتماعي للإنتاج والطابع الخاص لملكية وسائل الانتاج"[٢١] . وثالثاً وأخيراً ترى المدرسة الكينزية أن تناقص معدل الربح يرجع الى تناقص الكفاية الحدية لرأس المال[٢٢] حتى تتساوى مع سعر الفائدة ، وهنا يتوقف الميل للاستثمار.

ونظراً لأن ميل معدل الربح للانخفاض سبب مفسر لأزمة الرأسمالية ، فيطرح المؤلف هذه المسألة من منظور استيعاب الفائض الاقتصادي[٢٣] المتزايد (وهو المنظور الذي يرجع فضل تأصيله نظرياً لكل من بول سويزي وبول باران) [٢٤] ، باعتبار أن وسائل امتصاص الفائض تساعد على فهم ما جرى منذ بداية الأزمة والتي استتبعت "تبني سياسات الليبرالية المتطرفة والنظر الى التدخل الحكومي على انه العدو الأول الذي تجب مكافحته" ، وباعتبار أن تلك الوسائل تفسر كيف تتفاقم الأزمة ومع ذلك يتزايد الفائض الاقتصادي. ويرى بول سويزي وبول باران أن النمو الهائل في قوى الانتاج (وتأثير الثورة العلمية التكنولوجية) وراء تزايد الفائض الاقتصادي الذي إما أن يُستهلك أو يُستثمر أو يُبدد.

وإذا كانت الرأسمالية عجزت عن إيجاد المنافذ الاستهلاكية والاستثمارية لامتصاص الفائض الاقتصادي بشكل يتفق مع التوزيع المثل للموارد ، فإنها اتبعت ، وخلافاً لرأي كينز ، وسائل لتنشيط الطلب الكلي وامتصاص الفائض الاقتصادي[٢٥] وهي :

١– امتصاص الفائض الاقتصادي عن طريق الانفاق العسكري (ص٦٣–٦٩).

يرى باران وسويزي أن دافع هذا الانفاق بالنسبة للولايات المتحدة – قائدة

الرأسمالية- لم يكن التهديد العسكري السوفيتي بل التهديد الايديولوجي (الاشتراكي). ومن الناحية الاقتصادية فإن الانفاق العسكري "جزء عضوي" من هيكل الاقتصاديات الرأسمالية الصناعية ، لما له من آثار انتشارية ضخمة على قطاعات الاقتصاد بزيادة الناتج والدخل ، ولانعكاسات إيجابية للأبحاث العسكرية على الصناعات المدنية ، ولتصدير السلاح للعالم الثالث ونهب فائضه الاقتصادي. ورغم انهيار الاشتراكية فإن الرأسمالية مستمرة - في الاجل المتوسط على الأقل - في الانفاق العسكري نظراً لصعوبة تحويل " المركب الصناعي / العسكري الى الانتاج المدني" ، ولصعوبة "إزاحة شبكة المصالح المعقدة " التي نسجت خلال أربعة عقود، ولسعي صانعي الأسلحة لضمان أرباحهم بتأمين سوق لمنتجاتهم من خلال مشروع حرب النجوم[٢٦] ومن خلال نقاط توتر وصراعات إقليمية في العالم الثالث.

٢- امتصاص الفائض الاقتصادي عن طريق تصدير رأس المال (ص٦٩-٧٤). ويرى سويزي وباران أن تصدير رأس المال ليس منفذاً لتوجيه الفائض للبلاد المتخلفة، بل وسيلة لامتصاص الفائض من هذه البلاد ، وبالتالي أمكن بزيادة الأرباح إعادة إنتاج الفائض في البلاد المصدرة. وإذا كانت الرأسمالية ، أثناء فترة الركود التضخمي ، ضخت مدخراتها والفوائض المالية النفطية لبلاد العجز في العالم الثالث والبلاد الاشتراكية سابقاً عن طريق قروض البنوك والحكومات ، فإن ذلك ترتبت عليه :

أ- تخفيف ارتفاع مستويات البطالة والتضخم والطاقات العاطلة في البلاد الرأسمالية.

ب- نشوء أزمة المديونية في العالم الثالث وما استتبعته من إعادة الجدولة وضغوط صندوق النقد الدولي لفرض نمط ليبرالي مفرط. وهذا أدى الى ظاهرة النقل العكسي للموارد ، وبالتالي مزيد من الفائض في البلاد الرأسمالية لا امتصاص له.

ج- مصاعب للبلاد الاشتراكية سابقاً : عجز ميزان المدفوعات والتضخم وانخفاض اسعار الصرف وأزمة مديونية. والمحصلة أن القروض لم تساعد هذه البلاد في الاصلاحات الاقتصادية بل عمقت الآثار السلبية لها مع زيادة الانفتاح على البلاد الرأسمالية.

٣- امتصاص الفائض الاقتصادي عن طريق قطاع الخدمات (ص٧٤-٨٧). انطلاقاً من أن هذا القطاع هو "المنشط الأساسي للطلب الكلي والمستوعب الرئيسي للفائض" في البلاد الرأسمالية ، ومن أن التطور العلمي والتكنولوجي جعل الحصول

على الخدمة يأتي من وسائل الاتصال والتخزين المبرمج وتدفق المعلومات ، يثير المؤلف سؤالاً: لماذا أصبح قطاع الخدمات عصب الحركة في النظام الرأسمالي وماهي عوامل نموه ؟ والاجابة أن القطاع يوظف الجزء الأكبر من العمالة ويولّد الجزء الأكبر من الناتج المحلي ، وتصيبه زاد في كل من الناتج والتجارة الدوليين[٢٧]، وعوامل نموه متعددة مثل : نمو الدخل وزيادة الانفاق العام والعسكري ونمو الطلب على السلع المعمرة والخدمات المرتبطة بها وتضخم سكان المدن وقيام شركات متخصصة بتقديم خدمات بكلفة أقل (وفورات الحجم) وتزايد أهمية "قطاع تكنولوجياالمعلومات والاتصالات والتمويل والنقل وأبحاث السوق والدعاية والاعلان" واستخدام فنون انتاجية مرتبطة بخدمات الخبراء الفنيين ومصممي برامج الحاسوب وأخيراً ارتفاع معدل الربح في القطاع جذب إليه الاستثمارت.

وكمثال لنمو قطاع الخدمات يقدم المؤلف نشاط البنوك واسواق المال ودورها في امتصاص الفائض. ذلك ان الفوائض المالية النفطية والسيولة الدولارية انسابت الى البلاد النامية بشروط باهضة : قصر مدة الائتمان وارتفاع سعر الفائدة ، فنشأت أزمة المديونية. وبالمقابل حققت البنوك واسواق المال أرباحاً هائلة ، وفي الوقت نفسه نشأت خدمات مالية مرتبطة بالمضاربة في البورصات وبشراء الشركات وبيعها، مما جعل مؤشرات البورصات أهم من دوران عجلات الانتاج . ونظراً لانخفاض معدلات الارباح في الصناعة لجأت كبريات الشركات الصناعية لتوظيف فوائضها في المجال المالي فنشأت في الرأسمالية ظاهرة : انفصال النقود عن الانتاج[٢٨]، وبالتالي لم تعد مهمة أسواق المال تعبئة الادخار للاستثمار ، وهو ما يعبر عن تنامي النشاط الطفيلي للرأسمالية[٢٩] .

وإذا كان قطاع الخدمات حقق ذلك النمو فيتساءل المؤلف : ما مدى استمرار نمو القطاع الى مالانهاية ومامدى استمرار قدرته على امتصاص الفائض ؟ ويبدأ الاجابة بالقول إن التطور في قطاعات الانتاج المادي بلغ مدى متقدماً جعل الفائض يتجه نحو الخدمات ، وان كثيراً من السكان ما زالوا بحاجة الى حاجات أساسية كالاسكان ، ولهذا نما القطاع على نحو ما سبق. ولكن التفاوت الشديد في توزيع الدخل والثروة[٣٠] يعوق الاستفادة السريعة من ثورة الخدمات في مجال الاستهلاك، بالاضافة الى التكلفة المرتفعة لهذه الخدمات. وإذا كان من المتوقع أن تحدث طفرة هائلة في قطاع الانتاج المادي - كماً وكيفاً - لإشباع سكان الأرض نتيجة لثورة

قطاع المعلومات والمعرفة والاتصالات ، إلا أن التناقض الجوهري للرأسمالية يحول دون ذلك[٣١] .

ويختتم المؤلف هذا الجزء من المبحث بالاشارة الى مقولتين عن قطاع الخدمات. الأولى للمفكر الفرنسي ريمون آرون : الاقتصاد الذي أغلب قوة عمله في قطاع الخدمات والتجارة يكون أكثر تأثراً عند الأزمات ، والثانية للاقتصادي الأمريكي جالبريث : ينخفض مستوى معيشة الناس في الاقتصاد القائم على الخدمات نظراً لانخفاض أجور العاملين في بعض الصناعات.

رابعاً: الليبرالية الجديدة والبحث عن مخرج لأزمة الرأسمالية (ص٨٧-١٠٥)

وإذا كانت الأزمة الهيكلية للرأسمالية تتلخص في انخفاض معدلات الأرباح والانتاجية والاستثمار في قطاعات الانتاج المادي وارتفاع معدلات البطالة والتضخم وأزمة استيعاب الفائض ، فقبل ان يبين المؤلف ما تنادي به الليبرالية الجديدة كمخرج لتلك الأزمة ، يشير الى مسالتين ذات صلة. الأولى أن تدخل الدولة في الاقتصاد جعلها "ضامنة اساسية لربح الاحتكارات" الرأسمالية ، إذ أن التعاون بين الدولة والاحتكارات يعبّر عن خضوع الأولى للثانية[٣٢] ، بدليل ان كثيراً من قادة البلاد الرأسمالية من كبار رجال الأعمال ، وبالتالي فإن اتساع حجم القطاع العام لاعلاقة له مطلقاً بالاشتراكية. والثانية أنه بعد ظهور أزمة الرأسمالية تعرضت الكينزية لثورة مضادة - من حيث الفكر والسياسات - من قبل المدرسة الكلاسيكية الحديثة - مدرسة شيكاغو ومن قبل مدرسة اقتصاديات العرض[٣٣] ، ذلك ان المدرستين تُرجع أزمة الرأسمالية الى التدخل الحكومي . وقد عجزت الكنيزية[٣٤] عن " اقتراح سياسات برجماتية جديدة للخروج من الأزمة وبخاصة أزمة الركود التضخمي " .

وينتقل المؤلف بعد ذلك الى عرض ماتنادي به الليبرالية (المتطرفة) من اطلاق الحرية الاقتصادية لأقصى حد من خلال وسيلتين هما :

١- تحجيم دور الدولة في الاقتصاد (ص ٨٩-٩٢) . وهذا يستند الى (فلسفة) أن الحرية أساس حياة الفرد والمجتمع ولاتعارض بين المصلحتين الفردية والعامة ، وأن حماية الحرية يجعل الرأسمالية تصحح أخطاءها وتحقق التوازن العام من خلال آليات السوق . وعلى هذا فان تدخل الدولة هو المسؤول عن التضخم وعجز الموازنة العامة وتدني الادخار والاستثمار ومعدلات النمو . من هنا تهاجم الليبرالية الجديدة سياسات " اعانات البطالة والرقابة على الأسعار والخدمات المدعومة

التي توجه للفقراء ومحدودي الدخل " ذلك ان هذه السياسات سببت تزايد عجز الموازنة الذي موّل بواسطة الاصدار النقدي التضخمي ، وتزايد الدين العام الداخلي الذي كان على حساب الادخار والاستثمار ، وتزايد الضرائب على الدخول المرتفعة والثروات وهو ما يؤثر سلبياً على قرارات الادخار والاستثمار الخاص . ويرى الليبراليون الجدد ، وبعد سقوط فكرة وجود علاقة عكسية بين معدلي البطالة والتضخم[٣٥] ، أن التضخم ظاهرة مستقلة عن ظاهرة ارتفاع الأجور وترجع الى الافراط النقدي ، ولذلك يطالبون الدولة بممارسة مهام : الدولة الحارسة لنشاط تراكم رأس المال ، ضبط كتلة النقود المتداولة لتناسب حجم الناتج وهو مايتحقق برفع أسعار الفائدة (الأجل القصير) لابزيادة الضرائب (الأجل الطويل) التي تحبط الادخار والاستثمار والعمل . ويرون أيضاً أن البطالة ترجع الى زيادة تدخل الدولة في الاقتصاد على النحو الذي " شلّ " من كفاءة ميكانيزم الأسعار في سوق العمل " ، ولذلك يقولون ان " الخطأ الذي وقع فيه كينز هو اهماله لفكرة معدل البطالة الطبيعي... الذي يلعب دور المنظم الطبيعي في تحديد معدلات الأجور " ، فالبطالة تعالج بانخفاض معدلات الأجور اذا زاد عرض العمل عن الطلب عليه .

٢- اعادة توزيع الدخل والثروة لصالح الرأسمالية-البرجوازية(ص٩٢-١٠٥).

استناداً الى أن البطالة والطاقات العاطلة وتدهور معدلات النمو كلها تعكس أزمة في العرض الكلي[٣٦] ، فان الحل يكون بزيادة الناتج - العرض الذي سيخلق الطلب المساوي له[٣٧] ، وبحرية النشاط الاقتصادي وآليات السوق . وزيادة العرض تحتاج الى زيادة أرباح ودخول الرأسماليين بواسطة خفض كبير لمعدلات الضرائب على دخولهم وثرواتهم . واستناداً الى فكرة منحنى لافر[٣٨] القائلة بوجود علاقة بين معدل الضريبة وحصيلتها ، يعتقد الليبراليون الجدد أن حصيلة الضريبة لن تنخفض بل تزيد اذا خفض معدل الضريبة[٣٩] . وهذه السياسة الليبرالية طبقتها حكومات بعض الدول[٤٠] ونتجت عنها زيادة موارد القطاع الخاص (اعادة توزيع الدخل لصالحه) وزيادة عجز موازنة الدولة (لانخفاض حصيلة الضرائب)[٤١] .

واضافة الى ماسبق ، فان اعادة توزيع الدخل والثروة لصالح الرأسماليين تكون بالخصخصة - بيع القطاع العام للقطاع الخاص المحلي والأجنبي[٤٢] ، والتي نتجت عنها أمور ثلاثة:

١- تدهور ملحوظ في استثمارات الدولة في المدارس والمستشفيات والمرافق العامة .

٢- اعادة توزيع الدخل والثروة لصالح الرأسماليين وضد أصحاب الأجور مما فاقم من حدة التفاوت في توزيع الدخول[٤٣] .

٣- زيادة معدلات البطالة مما جعلها أزمة هيكلية لاتجدي معها السياسات (لا الكينزية ولا الليبرالية) النقدية المالية ، وذلك يرجع الى :

أ- قبلت الليبرالية بمعالجة أزمات الرأسمالية وبالذات التضخم ، على حساب البطالة الواسعة بعد التخلي عن هدف التوظف الكامل .

ب- الصناعات الجديدة (في مجال التوسع الرأسمالي) تعتمد على " فنون انتاجية موفرة لعنصر العمل " ، أي كثيفة المعرفة وترتفع فيها درجة الأتمتة - الآلة تحل محل الانسان[٤٤] .

خامساً: اعادة تقسيم العالم وعودة مناطق النفوذ (ص ١٠٥-١١٢)

وبحثاً عن مخرج لأزمة الرأسمالية ، يعرض المؤلف هنا سياسة أخرى لليبرالية الجديدة هي البحث عن فائض قيمة تاريخي جديد ، وذلك بواسطة اعادة تقسيم العالم وعودة مناطق النفوذ ، وبالتحديد اعادة احتواء العالم الثالث من خلال فخ الديون الخارجية والغزو العسكري[٤٥] من ناحية واختراق البلاد الاشتراكية سابقاً وتحويلها الى اقتصاديات السوق من ناحية أخرى . ولتحقق الليبرالية هدفها فانها ستجهض " كافة أشكال سيادة الدولة والتدخل الحكومي والتنظيمي " في البلاد المعنية " حتى تكون بيئة الاستغلال مواتية لاستنزاف أكبر قدر ممكن من فائض القيمة التاريخي المرتقب " من ناحية ، وستكون أكثر وحشية من ناحية أخرى .

بالنسبة لبلاد العالم الثالث فان الليبرالية ، من خلال ضغوط اعادة الجدولة وأوهام التصحيح - الاصلاح الاقتصادي ، تخضعها " لنظام أشبه بالادارة المركزية الخارجية الصارمة لاقتصادياتها[٤٦] عبر اتفاقيات صندوق النقد الدولي وشراء أصولها الانتاجية... " ، وبذلك تستعيد الرأسمالية سيطرتها المباشرة على اقتصاديات هذه البلاد .

وبالنسبة للبلاد الاشتراكية سابقاً فان الليبرالية ، عبر أوهام التحول الى نظام السوق، تفكك اقتصادياتها لتعيدها الى حظيرة الرأسمالية وتصدر اليها فائض الانتاج وفائض رأس المال لاستنزاف الأرباح منها . وهذا يتحقق عن طريق مايلي : ان تحول هذه البلاد الى النظام الرأسمالي سيزيد من طلبها على المعدات الانتاجية (من البلاد الرأسمالية) ، ونظراً لعجزها عن الشراء أو حتى الاقتراض للشراء فلا سبيل أمامها

" الا أن تذعن لمطالب الاستثمارات الأجنبية الخاصة " فتقدم لها امتيازات وضمانات بما في ذلك تملك المشروعات العامة . واذا كانت الاستثمارات الأجنبية الخاصة قد زحفت لهذه البلاد " في شكل مساهمات في مشروعات مشتركة أو في شكل فروع للشركات الأجنبية ... " فان تطبيق السياسات الليبرالية فيها أدى الى معدلات نمو سالبة للناتج المحلي والى ارتفاع معدلات التضخم والبطالة والى تدهور مستوى معيشة الناس الى حد البؤس المطلق .

سادساً: حتمية ظهور نظام اجتماعي جديد (ص١١٢-١١٤)

ويختتم المؤلف المبحث الأول بالتأكيد على أن قياس الليبرالية الجديدة على منطق ليبرالية القرن ١٨ قياس " يفقد مصداقيته ومعقوليته لأن السياق التاريخي المعاصر للرأسمالية " يختلف عن سياق الماضي . ولذلك يثير المؤلف تساؤلاً : هل ستنهار الرأسمالية مثلما انهارت الاشتراكية ؟ وهل صحيح أن الرأسمالية كانت خطأً تاريخياً؟ ويجيب عن التساؤل بنقاط ثلاث :

١- ان نشوء الرأسمالية ثم سقوطها " ضرورة موضوعية مشتقة من الاتجاهات العامة ، فهي تمثل مرحلة أعلى من التطور من كل الأشكال الاجتماعية السابقة مأخوذة معاً " . وعليه فان العودة لأشكال ماقبل الرأسمالية استحالة تاريخية ، كما أن الرغبة النظرية في العودة " لايمكن حتى تبريرها عن طريق أكثر الملامح انحطاطاً للمجتمع الرأسمالي ".

٢- ان الذي أعطى الرأسمالية مجالاً لتجديد قواها واطالة آمادها هو انهيار الاشتراكية وأنظمة التحرر الوطني في العالم الثالث[٤٧]، وأن مقاومة البلاد المعنية للسياسات الليبرالية سيزيد من أزمات الرأسمالية عالمياً .

٣- ان مخرج أزمة الرأسمالية في الأجل الطويل يكمن في تجاوز تناقضها الرئيسي: قدرتها الهائلة على الانتاج وقدرتها المحدودة على التصريف .

وينهي المؤلف هذه الخاتمة بالقول ان فشل البشرية في حل ذلك التناقض يؤدي - كبديل - الى " الهمجية والتوحش والبربرية والحروب والانتحار الجماعي للبشرية"[٤٨] .

المبحث الثاني : أزمة الاقتصاد الأمريكي ... هل انتهت قيادة أمريكا للمنظومة الرأسمالية ؟ (ص ١٢٥-١٦٤)

يبدأ المؤلف المبحث بمقدمة تتعلق بأيلولة قيادة المنظومة الرأسمالية العالمية من بريطانيا الى الولايات المتحدة الأمريكية[٤٩] . والأخيرة فرضت رؤاها لكيفية تشغيل المنظومة من خلال اتفاقية بريتون وودز وصندوق النقد والبنك الدوليين[٥٠] ، واستئثارها بأعلى قوة تصويت لإدارتهما ، وبالتالي فرض عملتها (الدولار) كعملة الاحتياط الدولية الأساسية . وبذلك تحكمت بالسيولة الدولية وانفردت بميزة تمويل عجزها الخارجي بطبع الدولار دون اجراء سياسة انكماشية ، وتملكت كثيراً من المشروعات الكبرى في العالم . وكان هدفها من قيادة المنظومة هو المحافظة على قوة دفع اقتصادها واستمرار فتح أسواق العالم لمنتجاتها واستثماراتها .

ونظراً للتغيرات في علاقات القوى في العالم ، وللسياسات الاقتصادية التي تتبعها، ولطبيعة ماتعانيه من اختلالات فان قيادة الولايات المتحدة للمنظومة الرأسمالية تتعرض للضعف ، سواء من خلال عوامل التدهور عالمياً و/ أو عوامل الضعف الداخلي .

عوامل التدهور عالمياً (ص ١٢٨-١٤٦) . ويمكن أن تتلخص وتتركز في :

١- تناقص نصيب الولايات المتحدة في أجمالي الناتج العالمي[٥١] وفي اجمالي الصادرات العالمية[٥٢].

٢- ضعف السلطة الأمريكية في مجال النقد والسيولة الدوليين ، وكلاهما أصبح يتحدد بالتشاور الجماعي بين الدول الصناعية الكبرى[٥٣] ، وبالتالي لم يعد الدولار هو العملة الأساسية - الوحيدة للاحتياطات الدولية .

٣- صارت الولايات المتحدة دولة مدينة حيث تنفق أكثر مما تنتج[٥٤] ، بذلك انها تدفع فوائد وأرباحاً للخارج ، في حين ان المستثمرين الأجانب حولون استثماراتهم في أمريكا الى أصول عينية .

٤- الانفاق العسكري أحد المحددات الرئيسية للنشاط الاقتصادي في الولايات المتحدة ، وما حدث للبلاد الاشتراكية (سابقاً) يؤثر في هذا الانفاق ، وبالتالي فان خفضه يؤثر سلبياً على التشغيل والناتج والدخل في بعض الولايات .

٥- ان لأوروبا الموحدة وقدراتها الاقتصادية[٥٥] تأثيراً يؤكد الضعف النسبي للولايات المتحدة في قيادة المنظومة الرأسمالية .

وفيما يتعلق بأوربا الموحدة يورد المؤلف " مخاوف أمريكية " على اقتصادها ووضعها التنافسي من خلال المزيد من ضعف منافسة السلع الأمريكية واحتمال فقد صادراتها لأوروبا ، وضعف قدرتها على جذب الاستثمارات ، واحتمال اضعاف

الدولار عند توحيد النظم النقدية الأوربية وتأسيس بنك مركزي واحد ، ومن المتوقع اندماج رأس المال الأمريكي مع رأس المال الأوربي .

ويرى المؤلف بأن الولايات المتحدة تحاول معالجة ومواجهة ضعف قيادتها (ومشاكلها الداخلية) عن طريق اتفاقية التجارة الحرة مع كندا والمكسيك (NAFTA) [٥٦].

عوامل الضعف المحلي (ص١٤٦ – ١٦١) . وهي الاختلالات الهيكلية التالية :

١- اتساع فجوة الموارد (الاستثمار أكبر من الادخار) وتمويلها عن طريق المدخرات الأجنبية (عجز ميزان المدفوعات) [٥٧] .

٢- نمو عجز الحساب الجاري (الواردات أكبرمن الصادرات) ، والذي لم تفلح وسيلة رفع سعر الفائدة لمعالجته[٥٨] ، بل أدت الى تفاقمه[٥٩] .

٣- تـ م الدين الداخلي (١٦٨ ٪ من الناتج المحلي) عن طريق زيادة القروض ن وزيادة الانفاق العام والعسكري مما يزيد الاستهلاك ولايزيد ا ور . وقد استمر نمو الدين الداخلي " بسبب تعويض أمريكا لنقص مواردها من خلال التوسع في جذب الفوائض والمدخرات الأجنبية وزيادة معدلات البطالة " .

٤- التفاوت الحاد في توزيع الدخل والثروة الناجم عن السياسات الليبرالية المطبقة ابتداءاً من أوائل الثمانينات[٦٠]. ويقدم المؤلف مثالاً " صارخاً " لذلك التفاوت حيث أغنى ١٪ من السكان يملكون ثروة قيمتها أكبر من قيمة مايملكه ٩٠٪ من السكان ، وحيث دخول أغنى ٥٪ من السكان تفوق دخول أفقر ٤٠٪ من السكان ، هذا رغم أن هؤلاء دفعوا ضرائب دخل ضعف مادفعه أغنى ١٪ .

٥- ارتفاع معدل البطالة وطول فترة التعطل . ومع خفض الانفاق العام على الخدمات الاجتماعية فقد تدهور مستوى معيشة قطاع واسع من الشعب الأمريكي[٦١] .

ويختتم المؤلف المبحث (ص١٦١-١٦٤) بالقول ان الولايات المتحدة ستحاول تقوية قيادتها للمنظومة الرأسمالية من خلال هيمنتها على العالم الثالث باعتباره " ساحة المعارك الأساسية " ، وان على شعوب هذا العالم أن تستعد لعصر قد يعود فيه الاستعمار بمعناه الكلاسيكي .

الباب الثاني : أممية رأس المال والليبرالية الجديدة

ويتضمن مبحثاً واحداً ، ولكنه أهم مافي الكتاب من حيث الموضوع ونشره لأول مرة .

المبحث الثالث: أممية رأس المال وشرط توسع الرأسمالية العالمية في الأطراف : ليبرالية التكيف والبحث عن آليات لفائض قيمة تاريخي جديد(ص١٨٣-٢٤٧)

في توطئة المبحث (ص١٨٣-١٨٦) يذكر المؤلف[٦٢] أن البلاد النامية يمكن أن تقدم امكانيات لمواجهة أزمة نقص الطلب الكلي والتي تعيق استمرار تراكم رأس المال في البلاد الرأسمالية[٦٣] . واذا كانت الرأسمالية حاولت معالجة أزمتها محلياً بسياسات ليبرالية جديدة ، وعالمياً بنوع من الكينزية العالمية[٦٤] ، فان ذلك خفف الى حد ما من حدة الكساد التضخمي في البلاد الرأسمالية ، ولكن خلق أزمة المديونية العالمية في العالم الثالث . من هنا ، وكي تعالج أزمتها (بدون الوقوع في أزمة المديونية) من خلال نزح الفائض من العالم الثالث ، أدركت الرأسمالية ضرورة ايجاد آليات جديدة للسيطرة على أوضاع البلاد المعنية ؛ آليات عرفت بمصطلح " المشروطية " : نمط التخصص وتقسيم العمل ، توزيع الدخل ، دور الدولة ، العلاقات الاقتصادية الخارجية ، ضبط قوة العمل عند مستوى أجري منخفض . وهذه الآليات تتضمنها برامج التثبيت والتكيف الهيكلي ، والتي " شكلت ... مايمكن أن يسمى بأول مشروع أممي محكم لرأس المال الدولي بهدف إخضاع الجنوب لشروط التراكم والتوسع الرأسمالي في الشمال". هذا المشروع ، وخطابه الإعلامي يعتمد على الليبرالية المطلقة ، يروج له صندوق النقد والبنك الدوليين على اساس أنه سيعالج الاختلالات الهيكلية بالعالم الثالث ويعالج مشكلات الفقر والبطالة فيه. والمبحث الحالي يتتبع المشروع ويحلل أهدافه ونتائجه الحالية والمحتملة في النقاط الرئيسية التالية:-

أولاً: الأصول الفكرية لليبرالية التكيف المعاصرة بالبلاد المتخلفة (ص١٨٦-٢٠٧)

قدم المؤلف لهذه الأصول بثلاثة امور :

١- نتجت الليبرالية الجديدة ومصادرها الفكرية عن "عمل دؤوب وتخطيط مستمر مارسته عدة هيئات دولية ومراكز بحثية مختلفة منذ مطلع السبعينات".

٢- تطلعت المراكز الرأسمالية ، وبحكم خبرتها التاريخية ، الى معالجة أزمتها بزيادة معدلات الربح من البلاد النامية بإعتدة احتوائها وبالتالي إيجاد فرص استثمارية عالية الربح فيها مع خدمة تحويلات عوائد الاستثمارات للخارج ودعم قدرة البلاد المعنية على دفع ديونها.

٣- ونتج عن ليبرالية التكيف بالبلاد النامية وقوعها في "مصيدة الديون الخارجية واضطرارها لطرق أبواب نادي باريس لاستجداء عمليات اعادة الجدولة وما يأتي في ركابها من فرض سياسات اقتصادية واجتماعية جديدة".

والمصادر الفكرية لليبرالية التكيف هي تقرير بيرسون وشروط الصندوق والبنك الدوليين.

١- تقرير لستربيرسون[٦٥]

وضع التقرير الأسس المطلوب توافرها بالبلاد المتخلفة لتشجيع انسياب الاستثمارات الأجنبية الخاصة. وأعدته اللجنة الدولية للتنمية[٦٦] على أساس أن تعاون البلاد المتخلفة مع البلاد الرأسمالية لتنفيذ مقترحات معينة سيحقق للأولى دفعة قوية في التنمية ، وبالتالي لا غنى لهذه البلاد عن الاستثمار الأجنبي. وعليه طالب التقرير البلاد المتخلفة بتوفير " المناخ الاستثماري الملائم ... لنشاط رأس المال الأجنبي" من خلال ثمانية مبادىء تبين الخطوط الأساسية لليبرالية التكيف هي :

١- يكون تحسين مناخ الاستثمار الأجنبي بتحسين وضع القطاع الخاص ، فالمستثمر الأجنبي يحس بالخطر في بيئة لا تتعاطف مع المشروعات الخاصة.

٢- ضمان عدم التعرض لمصالح الشركات الأجنبية أطول فترة ممكنة عن طريق مشاركة القطاع الخاص المحلي أو القطاع العام.

٣- عقد اتفاقيات لضمان حماية الاستثمارات الأجنبية الخاصة ضد التأميم والمصادرة وفرض الحراسة ، وكفالة التعويض الملائم وتحويله الى الدولة الأم عند تصفية تلك الاستثمارات.

٤- توفير حوافز لجذب رؤوس الأموال الخاصة بالامتيازات الضريبية والأسعار الرخيصة لأراضي الشركات الأجنبية.

٥- اكتشاف الفرص الاستثمارية بإجراء دراسات حول إمكانية الاستثمار بواسطة هيئة التمويل الدولية باعتبارها وكيلاً لأعمال تعريف المشروعات وتنمية الاستثمارات.

٦- تطوير قوانين الشركات لمزيد من الانفتاح المالي للمشروعات المحلية والأجنبية لحماية حملة الأسهم وتدعيم تنمية سوق رأس المال.

٧- " السماح للشركات الأجنبية بالاقتراض من أسواق رأس المال المحلية".

٨- " تصفية القطاع العام ونزع مضمونه الاجتماعي باعتباره ملكية عامة للشعب " ببيعه للشركات الأجنبية والمحلية.

ويلاحظ حرص تلك المبادىء على مزايا وحوافز وضمانات لرأس المال الأجنبي وعدم تضمنها أية ضمانات لفائدة البلاد المتخلفة من الاستثمارات الأجنبية. وقد ثبت من الخبرة التاريخية أن المزايا والحوافز والضمانات كانت موجودة إبان فترة استعمار البلاد المتخلفة "ولم تؤد الى تنمية هذه البلاد بل (أدت) الى تعميق نهبها وتشويه مسارات نموها". كما يلاحظ أن كثيراً من البلاد النامية لم تقبل تلك المبادىء إلا مضطرة عندما اشتدت عليها "وطأة الأزمة الاقتصادية العالمية الناجمة عن طبيعة وضعها الخاص واللامتكافىء في محيط الاقتصاد العالمي والناجمة عن الفشل الداخلي في مواصلة السير على طريق التنمية المستقلة". وهنا تولى الصندوق والبنك الدوليين "مهمة هندسة إذعان هذه الدول لتلك (المبادىء) ووضعت لذلك الضوابط التفصيلية لتنفيذ هذا الإذعان".

٢- شروط صندوق النقد والبنك الدوليين:

وهي عبارة عن شروط التعامل مع البلاد المتخلفة يتم بها رسم السياسات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة ، وسنعرضها بشيء من التفصيل في النقطتين الفرعيتين التاليتين:-

١- سياسات صندوق النقد الدولي (برامج التثبيت والاستقرار الاقتصادي):

في ضوء اتفاقية بريتون وودز ، يتحيز الصندوق لسياسات الحرية الاقتصادية ويعارض التدخل الحكومي في الاقتصاد وبالذات المعاملات الخارجية. واهم أهدافه "تحقيق النمو المتوازن في التجارة الخارجية وتجنب فرض القيود على المدفوعات الخارجية والوصول الى نظام دولي متعدد الأطراف للمدفوعات والعمل على ثبات أسعار تبادل العملات بين الدول الأعضاء". وتتحقق هذه الأهداف بقروض من

الصندوق قصيرة الأجل لمواجهة عجز ميزان المدفوعات المؤقت بدلاً من فرض قيود ضارة بحرية التجارة[٦٧].

وإذا سحبت البلاد المتخلفة من الصندوق - في حدود شريحتها الذهبية - ما لايكفي لتمويل عجز موازين مدفوعاتها وأرادت بالتالي أن تسحب أكثر فعليها أن تتعاون مع الصندوق في تطبيق سياسات اقتصادية ونقدية ومالية للقضاء على ذلك العجز.

وإذا كانت البلاد المتخلفة في الستينات لم تذعن لشروط الصندوق ومولت عجز موازين مدفوعاتها عن طريق ما يرفضه الصندوق[٦٨] ، فإنها ، وبسبب أزمة النقد النقد الأجنبي في السبعينات ، لجأت الى الصندوق "للسحب من الموارد المشروطة " وذلك بالاتفاق معه لاعادة الجدولة والحصول على القروض. وفي هذا الصدد للصندوق موقف ثابت يتلخص في أن احتياج البلاد النامية لإصلاحات هيكلية في اقتصادها والى رأس المال الخاص لا العام ، وبالتالي يتعين عليها ألا تؤثر في حرية عمل جهاز السوق وأن تسمح "بتصدير الأرباح للخارج واعفاء هذه الأرباح من الضرائب وحماية المشروعات الأجنبية من التأميم والمصادرة". وبعد الاتفاق يأتي خطاب النوايا الذي يكتبه خبراء الصندوق والذي تتعهد فيه الدولة المتخلفة بتنفيذ سياسات معينة ضمن برنامج زمني محدد (١٢-١٨ شهراً) أهمها :-

١- القضاء على عجز ميزان المدفوعات بتخفيض قيمة العملة وإلغاء الرقابة على الصرف وتحرير استيراد القطاع الخاص وإلغاء الاتفاقيات التجارية الثنائية وإنشاء سوق تجارية للنقد الأجنبي.

٢- خفض عجز الموازنة العامة بتقليل نمو الإنفاق العام (بخفض الانفاق على الخدمات الاجتماعية وإلغاء دعم السلع الضرورية وخفض الاستثمار العام) وبزيادة الايرادات العامة (بزيادة الضرائب غير المباشرة واسعار الخدمات العامة والطاقة والنقل والاتصال ومنتجات القطاع العام) [٦٩] وبالاقتراض من سوق المدخرات المحلية (أذونات الخزانة والسندات الحكومية).

٣- خفض نمو عرض النقود وتنمية السوق النقدي والمالي بزيادة أسعار الفائدة ووضع حدود عليا على الائتمان المصرفي للقطاعات الاقتصادية[٧٠] وتعديل وتطوير قوانين البورصات وتكوين احتياطي دولي لمواجهة أعباء ما بعد إعادة الجدولة.

٢- سياسات البنك الدولي[٧١] (برامج التكيف الهيكلي)

ويعرض المؤلف كل ما يتعلق بالبنك وسياساته في نقاط عديدة أهما مايلي[٧٢] :

أ- والبنك يهدف الى تشجيع الاستثمارات الأجنبية الخاصة طويلة الأجل كان يقدم قروضاً لمشروعات الطاقة والنقل والاتصالات والتنمية الريفية والإسكان منخفض التكاليف ، وعندما رأسه روبرت مكنمارا توجهت القروض لمشروعات تزيد دخول الفقراء لإشباع احتياجاتهم الأساسية.

ب- ومنذ منتصف السبعينات وصعود الفكر الليبرالي نشر البنك دراسات مختلفة[٧٣] لتدعيم تحقيق أهدافه (وأهداف صندوق النقد) واهداف ليبرالية التكيف بوجه عام[٧٤] .

ج- وفي بداية الثمانينات اشتدت وطأة الأزمة الاقتصادية في البلاد المتخلفة وتفجرت أزمة المديونية ، وبالتالي لم يعد بإمكان الدول المدينة إعادة الجدولة أو حصولها على قروض جديدة إلا بالرضوخ "للمشروطية الصارمة التي تفرضها برامج التثبيت التي صممها (الصندوق) بشكل معمم لكي تنطبق على أي بلد مدين ...". ونظراً لأن أهداف برامج التثبيت لم تتحقق[٧٥] بل تفاقمت الأزمات الاقتصادية والاجتماعية في البلاد المعنية ، نتيجة لبرامج التثبيت ، سارع البنك بإنشاء " الاقراض الخاص بالتكيف الهيكلي"، لاعتبار ان قروض تمويل المشروعات لن تنجح وتضمن تسديد تمويلها إلا بتحقيق تعديلات جوهرية (هيكلية) في السياسات الاقتصادية الكلية للبلد المدين وإصلاح النظام المؤسسي لإدارة الاقتصاد المحلي والانفتاح بقوة كبيرة على الخارج"[٧٦] .

د- ان قروض البنك،سواء قروض التكيف القطاعية أو قروض التكيف الهيلكي المؤثرة في المتغيرات الاقتصادية الكلية،تشمل كل المسائل المتعلقة بالمشروعات[٧٧] وأموراً كثيرة مثل سعر الصرف التى تدخل في صلب اهتمام صندوق النقد.من هنا تتكامل سياسات وبرامج التثبيت قصيرة الأجل مع سياسات وبرامج التكيف الهيكلي طويلة (ومتوسطة) الأجل، وذلك من خلال التنسيق بين الصندوق والبنك،وهو التنسيق المعروف بمصطلح المشروطية المتقاطعة .فالبنك يشترط قبل اعطاء القرض ان يوافق البلد المعني على ما يراه الصندوق بشأن مسألة مثل سعر الصرف ، والصندوق يشترط قبل تقديم تسهيلاته ان يوافق البلد المعني على ما يراه البنك بشأن مسألة مثل الموازنة العامة.

هـ- ولكفالة حقوق الملكية للاستثمارات الأجنبية أنشأ البنك إدارة الخدمات الاستشارية لتقدم النصح والمشورة لحكومات الدول النامية في صورة ما ينبغي وما لاينبغي(٧٨):

١- ينبغي السماح بدخول الاستثمارات الأجنبية بدون قيود.

٢- ينبغي تحديد الاستثمارات التي تحصل على حوافز دون مفاوضات.

٣- "لاينبغي تفضيل المستثمرين الأجانب على المستثمرين المحليين عند منح الحوافز" حتى لايتم اختيار الشريك الأجنبي لتأهيل المشروع للحصول على الحوافز.

٤- لا ينبغي تقديم إعفاءات ضريبية وتعقبها أسعار ضريبية عالية فالأفضل سعر ضريبي معقول يتيح للشركات الأجنبية إعداد خطط مالية طويلة الأجل.

٥- " ينبغي السماح دون قيود بان تحول للخارج الأرباح ورؤوس الأموال والإتاوات والأتعاب ومدفوعات سداد القروض الدولية".

٦- لا ينبغي وضع قيود على حصول المستثمرين الأجانب على العملة الأجنبية بأسعار الصرف السائدة.

٧- "لا ينبغي بذل جهود باهظة التكاليف لترويج الاستثمار ... الى أن يصبح مناخ الاستثمار في الوطن مواتياً".

٨- وأخيراً "ينبغي إنشاء وكالة لترويج الاستثمار تكون لها روابط وثيقة مع القطاع الخاص المحلي".

و- ولتأمين الاستثمارات الأجنبية أنشأ البنك وكالة متعددة الأطراف لضمان الاستثمار لتعمل على تأمين الاستثمارات من خلال:

١- حمايتها من خسائر عدم القدرة على تبديل النقد المحلي بنقد أجنبي لتحويله الى الخارج.

٢- حمايتها من خسائر مترتبة على اجراءات تتخذها الحكومة المضيفة قد تقلل أو تلغى ملكية الاستثمار المؤمن عليه.

٣- حمايتها من خسائر ناجمة عن أعمال عسكرية واضطرابات أهلية تدمر أصول المشروع أو تلحق به الضرر.

٤- وأخيراً حمايتها من خسائر ناجمة عن عدم استطاعة المستثمر الحصول على قرار تحكيم و/أو تنفيذه ضد بلد مضيف تنصّل أو أخلّ بعقد استثماري.

ثانياً : الأهداف الجوهرية لليبرالية التكيف (ص٢٠٧-٢٣٢)

وهذه الأهداف[٧٩] يوجزها المؤلف ابتداءً في أربعة :

١- توفير عنصر العمل الرخيص للشركات الدولية في العالم الثالث.

٢- إضعاف دول العالم الثالث وتدخلها في الاقتصاد لتتمكن رؤوس الأموال الأجنبية من التعامل مع هذه الدول من موقع قوى.

٣- زيادة صادرات البلاد الرأسمالية للعالم الثالث بإجبار الأخير على فتح أسواقه.

٤- توفير النقد الأجنبي لتمويل تحويل دخول وأرباح الشركات الدولية من العالم الثالث ولتمويل واردات هذا الأخير ولدفع أعباء ديونه بعد انتهاء فترة إعادة الجدولة.

وأهداف ليبرالية التكيف السابقة والتي تطبقها كثير من البلاد النامية المدينة بضغوط من الصندوق والنقد الدوليين ، يلخصها المؤلف في هدفين إثنين : إدماج البلاد النامية في تقسيم العمل الدولي الجديد ونزع الملكية العامة فيها لصالح الدائنين.

١- إدماج البلاد النامية في تقسيم العمل الدولي الجديد:

ويعرض المؤلف الهدف في النقاط التالية:

١- أن تقسيم العمل الدولي الجديد لا يستند الى نظرية التبادل (التجارة الدولية) على اساس المزايا النسبية[٨٠] . ذلك أن التدويل (نشاط الشركات الدولية) يجزىء إنتاج السلعة الواحدة في أكثر من دولة بحسب مساهمتها في عناصر الانتاج ، وبالتالي هناك مزايا نسبية لبلاد متعددة ، أي هناك تخصصات وتقسيمات للعمل لبلاد عديدة في انتاج السلعة. وعلى هذا يوجد " تكامل انتاجي عبر قومي" تقوده الشركات الدولية لتعيد " تجديد علاقة المركز بالمحيط".

٢- إن التدويل لا ينفصل عن الثورة العلمية والتكنولوجية[٨١] ، فكلاهما يؤثر في الآخر. ذلك أن الثورة الصناعية الأولى في صناعات النسيج والتعدين اعتمدت على قوة الفحم والبخار ، والثورة الصناعية الثانية في صناعة

السيارات والطائرات والسلع الكهربائية اعتمدت على قوة الكهرباء والنفط ، والثورة الصناعية الثالثة والتي قامت على قوة الذرة والكمبيوتر تطرح نوعيات من السلع غير المألوفة ، مما ينعكس في أشكال جديدة من التخصص وتقسيم العمل الدوليين.

٣- إن نمط الانتاج الرأسمالي العالمي وتقسيم العمل الدولي الجديد سيترك للبلاد النامية صناعات كثيفة عنصر العمل وملوثة للبيئة وذلك كإعادة لنشر الصناعة جنوباً ولتحويل البلاد النامية من "جيوب استخراجية الى جيوب للتجميع الصناعي الأولى والهامشي"[٨٢] . ومع ذلك فإن الشمال الرأسمالي يظل يُمسك بمفاتيح إعادة الانتاج عالمياً كالتمويل والتكنولوجيا والتسويق، ويتحكم في الغذاء وفي تجارة السلع الى الجنوب[٨٣] .

٤- إن هدف تقسيم العمل الدولي الجديد هو حصول المركز على أعلى معدلات الربح في دول المحيط التي فتحت أبوابها للاستثمارات الأجنبية في ضوء تنفيذ سياسات ليبرالية تتوجه للخارج وتعتمد على القطاع الخاص وآليات السوق وتحجيم القطاع العام ودور الدولة في الاقتصاد.

٥- إن تقسيم العمل الدولي الجديد لن يفتح مجالات التطور الرأسمالي المستقل للبلاد النامية[٨٤] ، بل يحاول ، كما يرى فؤاد مرسى[٨٥] ، أن يستفيد من عمالة رخيصة ، خامات طبعية ، طاقات انتاجية ، وموقع جغرافي للتصدير لهذه البلاد. ورغم أن الصناعات المعنية قد تساهم في تنمية الناتج الصناعي وتطوير العمالة الصناعية" في البلاد النامية ، إلا أن الأمر مرهون بالمراكز الصناعية وسيطرة الشركات الدولية على التمويل والانتاج والتكنولوجيا والتسويق.

٦- ولتقييم تجربة إدماج البلاد النامية في تقسيم العمل الدولي الجديد يقدم المؤلف مثاليين:

• مثال الفشل من المكسيك التي نفذت برنامج التثبيت والتكيف واتبعت سياسات ليبرالية وفتحت أسواقها للشركات الدولية[٨٦] وقدمت لها العمالة الرخيصة[٨٧] . وتمثل الفشل في عدم زيادة النقد الأجنبي لمواجهة أعباء الديون فالزيادة عُشر المطلوب ، وفي عدم زيادة العمالة لينخفض معدل البطالة عن ٢٠٪ ، وفي عدم تدعيم علاقات التشابك الانتاجي بين قطاعات الاقتصاد ، وفي عدم نقل حقيقي للتكنولوجيا.

• ومثال النجاح من كوريا الجنوبية بفضل دور الدولة في حماية الصناعة الوليدة، وفي دعم الصناعات الأساسية ، وفي نقل التكنولوجيا للعمالة الكورية ، وهو ما أدى الى زيادة معدلات النمو والصادرات الصناعية ، والى تنمية قوة العمل ورفع انتاجيتها ،والى عدم وقوعها في مصيدة الديون الخارجية.

٢- نزع الملكية العامة لصالح الدائنين:

ويعرض المؤلف الهدف فيما يلي :

١- إن برامج التثبيت والتكيف تركز على تصفية القطاع العام استناداً الى ان أزمة الديون الخارجية سببها توسع القطاع العام وعدم اسهامه في توفير النقد الأجنبي لسداد القروض وفوائدها . وفي هذا الصدد يرى المؤلف (وهو محق فيما يراه) أن التحليل الذي يُرجع الأزمة الى عامل واحد هو نمو القطاع العام تحليل غير صحيح لأن عوامل الأزمة مركبة : خارجية وداخلية[٨٨] ، كما يرى أن الشطر الأعظم من ديون أمريكا اللاتينية (ثلث ديون العالم) ديون تورط فيها القطاع الخاص واضطرت الحكومات أن تضمها[٨٩] .

٢- إن نزع الملكية العامة - بيعها للقطاع الخاص ، يمثل جوهر برامج التثبيت والتكيف وجوهر جهود الصندوق والبنك الدوليين في تعاملهما مع البلاد النامية بمشروطية اعادة الجدولة واعطاء القروض. وبيع القطاع العام بدأ بالوحدات التي تخسر والتي تزاول أنشطة صغيرة تمثل نسبة ضئيلة من أصول القطاع ، ثم امتد فيما بعد الى كل وحدات القطاع الكبيرة والصغيرة ، الناجحة والخاسرة ، وذلك على أساس أن البيع في " صميم عملية الاصلاح الاقتصادي " ، وأن على الحكومة أن تتفرغ لما هو أهم ، وأن القطاع الخاص أكفأ في تشغيل المشروعات على أسس اقتصادية ، وعلى أساس أن تتوسع قاعدة الملكية بين المواطنين .

٣- ان نزع الملكية العامة يرتبط من وجهة نظر دوائر رأس المال بأزمة المديونية من خلال امكانية علاج الأزمة بمبادلة الديون بأصول انتاجية[٩٠] . وهذا الأمر يتم كما يلي :

أ- البنك الدائن يبيع الدين بسعر خصم (يصل الى ٥٠٪) الى مستثمر (فرد أو شركة) في السوق الثانوي للديون .

ب- يقوم المستثمر بشراء الدين ويحوله (بسعر الصرف السائد وبسعر خصم من الحكومة) الى عملة محلية يستخدمها (في البورصة) لشراء بعض المشروعات العامة المعروضة للبيع .

ج- الدين المالي المؤقت يتحول الى دين مؤبد بعد أن أصبح المشروع (المباع في البورصة) مملوكاً للأجانب .

٤- واذا كان خبراء الصندوق والبنك الدوليين يرون أن البلد المدين (الذي نزعت ملكيته العامة) يستفيد بجذب الاستثمارات الأجنبية وبخفض ديونه الخارجية ومعدل خدمتها وسيحمي احتياطاته النقدية ويقلل من عجز ميزان مدفوعاته ، فان المؤلف يناقش ذلك في نقاط تسع نلخصها فيما يلي :

أ- ليست هناك فائدة باستثمارات جديدة لأن الأمر تغيير لشكل ملكية أصول انتاجية قائمة .

ب- يمكن تخفيض عجز ميزان المدفوعات في الأجل القصير ، أما في الأجلين المتوسط والطويل فالعجز يتفاقم عند تحويل المستثمرين الأجانب أرباحهم ودخولهم للخارج ، كما أن الديون لن تنخفض لأن الملكية الأجنبية للمشروعات " تمثل التزاماً خارجياً يرتب على البلد التزامات تجاه المستثمرين الأجانب " مثل حق تحويل الأرباح والدخول .

ج- يزداد عجز موازنة الدولة لانخفاض فوائض القطاع العام (المباع) ، وفي الوقت نفسه يزيد المستثمرون من متوسط معدل الربح بالحصول على اعفاءات ضريبية وجمركية وبزيادة أسعار المنتجات وخفض العمالة الوطنية.

د- استبدال الدين بالنقد المحلي يزيد عرض النقود فتتدهور القيمة الشرائية للعملة المحلية ويزيد معدل التضخم ، وفي الوقت نفسه وعند شراء الدين من رأس المال المحلي سيزيد الطلب على العملات الأجنبية في سوق الصرف فتنخفض القيمة الخارجية للعملة المحلية .

هـ- واذا كان هناك احتمال عودة سيطرة رأس المال الأجنبي على الحكم في البلد المعني ، واذا كان تحويل الديون لأصول انتاجية يضيع فرصة اسقاط الديون كلياً أو جزئياً ، فيتساءل المؤلف : لماذا يقبل البلد المدين بنزع ملكيته العامة اذا كان يمكنه أن يشتري - في السوق الثانوية - دينه بالخصم المغري مثله مثل الأجانب ؟ ويجيب بأن صندوق النقد الدولي عادة مايمنع ذلك ، رغم حدوث حالات اعادة شراء الديون .

ثالثاً: هل تتحقق وعود برامج التكيف في الأجل الطويل ؟

(ص٢٣٢-٢٣٧)

انطلاقاً من مشروع الليبرالية الجديدة : أممية رأس المال ، ومايرتبط به من توسع للرأسمالية العالمية في الأطراف ، يجيب المؤلف عن السؤال فيما يلي:-

١- ان المشروع الأممي لتوسع الرأسمالية ، وصولاً لفائض قيمة جديد عن طريق اعادة ادماج البلاد النامية في تقسيم العمل الدولي الجديد وعن طريق الاستيلاء على أصول القطاع العام ، انه يَعِدُ (عبر خطابه الاعلامي) البلاد المعنية " بالقضاء على اختلالاتها الاقتصادية واعطاء دفعة قوية لنموها و ... سيمكنها من استقبال الاستثمارات الأجنبية واستعادة قدرتها في التعامل مع أسواق رأس المال الدولية " . وهذه الوعود أبعد ماتكون عن الواقع . ذلك أن القاسم المشترك لنتائج تجارب التثبيت والتكيف هو حصاد مر يتلخص في : تدهور الناتج المحلي ، تفاقم البطالة ، انخفاض شديد للأجور الحقيقية، تدهور مستوى معيشة العمال والفلاحين ، تخفيض الواردات لاستخدام النقد الأجنبي لخدمة الديون مما يسبب التضخم الشديد ، خفض الانفاق العام على الخدمات مما يضر بالتنمية البشرية ، وتخفيض الاستثمارات العامة الذي يؤثر سلباً على تراكم رأس المال .

٢- يردد خبراء الصندوق والبنك الدوليين[٩١] مقولة من نقطتين :

١- لايوجد اصلاح بلاثمن وأن الأوضاع كانت ستزداد سوءاً لو لم تطبق برامج التثبيت والتكيف .

٢- الآثار السلبية سوف تخف حدتها وتختفي في الأجلين المتوسط والطويل حينما تؤثر تلك البرامج في دفع عجلات النمو الاقتصادي . ويرد المؤلف على هاتين النقطتين فيما يلي :

أ- تثير النقطة الأولى اشكالاً منهجياً حيث " تقارن بين وضع قد تحقق ممثلاً في الآثار السلبية لتلك (البرامج) وبين وضع لم يتحقق بعد " ، كما أن النقطة " تستبعد أية خيارات بديلة لوصفة الصندوق والبنك " .

ب- تثير النقطة الثانية صعوبة منهجية حيث تقارن " بين أوضاع الأجل القصير ذات الآثار السلبية وبين ترقب وانتظار وعود هذه البرامج في الأجل الطويل " ، أي تقارن " نتائج سلبية تحققت بالفعل بنتائج لم تتحقق أصلاً ولكن في رأي خبراء الصندوق والبنك ثمة تأكيد بأنها ستحدث " .

ج- وفي رأي المؤلف يمكن تجاوز تلك الصعوبة المنهجية بتوافر خبرات دول طبقت البرامج لمدة طويلة مثل تجربتي شيلي (بدأت عام ١٩٧٤م) والمكسيك (بدأت عام ١٩٧٦م) . والتجربتان يمكن الحكم على آثارهما في الأجل الطويل بالرجوع الى البيانات الاحصائية الواردة في ملحق المبحث الحالي (ص٢٤٨-٢٥٦) ، والتي يتوصل فيها المؤلف الى أن وعود تلك البرامج لم تتحقق ، وان كانت أهدافها تحققت وهي " زيادة الجيش الاحتياطي للبطالة وخفض الأجور الحقيقية لعنصر العمل[٩٢] وخلق فائض في الميزان التجاري ورصيد كبير في الاحتياطات (النقدية) الدولية[٩٣] والاندماج في السوق العالمي بشروط الرأسمالية العالمية[٩٤].

رابعاً : برامج التكيف والاستثمارات الأجنبية (ص٢٣٧-٢٤٥)

وقبل أن يختتم المؤلف المبحث يشير بالتفصيل الى علاقة برامج التكيف بالاستثمارات الأجنبية في البلاد التي نفذت مطالب الصندوق والبنك الدوليين فيما يلي:

١- مبادلة الدين بأصول انتاجية ليس استثماراً يزيد من الطاقات الانتاجية ، بل تحويل لشكل الملكية .

٢- نصيب رؤوس الأموال الأجنبية الخاصة في التكوين الرأسمالي الثابت بالبلاد النامية ضعيف للغاية ، وتدفق تلك الأموال يتوقف على متوسط معدل الربح المتوقع وعلى الأمان والاستقرار في البلد المعنى وان لم يطبق البرامج المعنية .

٣- خلال الفترة ١٩٨٦-١٩٩٠م انسابت ٨٣٪ من الاستثمارات الأجنبية الى البلاد الرأسمالية الصناعية ، والنسبة الباقية انسابت للبلاد النامية ، ومن هذه النسبة ٦٢٪ انساب الى جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية .

٤- الاستثمارات الأجنبية في البلاد النامية تكاد تقتصر على مجالات السياحة والفندقة والمطاعم والبنوك حيث رؤوس الأموال ضئيلة ومعدلات الربح مرتفعة ورأس المال يُسترد بسرعة[٩٥].

٥- لاتنساب رؤوس الأموال الأجنبية لبلاد تقبل البرامج المعنية الا بضمان عدم تراجع تنفيذها ، وذلك من خلال وجود " نظام سياسي متعاون يستطيع أن يفرض بالقوة مايراه ضرورياً لضمان ضبط العلاقات الاجتماعية في ضوء

مارسمته هذه البرامج " من سياسات . وهكذا فالمهم خلق شرائح أو طبقات اجتماعية تستفيد من تلك السياسات وتعتمد عليها سلطة الدولة .

خامساً : الخاتمة (ص ٢٤٥-٢٤٧)

" ان الصراع بين مراكز النظام الرأسمالي العالمي يتركز الآن حول اعادة تقسيم مناطق النفوذ والاحتواء في العالم الثالث بعد انهيار حركة التحرر الوطني ... " ، وفي هذا " السياق يجب النظر الى مشروع أممية رأس المال ... لأنه يرسم بوضوح دقيق الاطار النظري والاجرائي الذي سيمكن تلك المراكز من اعادة احتواء ... المناطق التي كانت قد خرجت عن طوع النظام الرأسمالي العالمي ... واعادة تشغيلها طبقاً لمنطق تراكم رأس المال " ، وذلك بهدف " خلق فائض قيمة تاريخي جديد يموّل جزئياً علاج تناقضات تصدع دولة الرفاه ونظم الاشتراكية الديمقراطية بعد فشل الليبرالية الحديثة في علاج هذا التصدع وتناقضاته " .

الباب الثالث:هكذا كان فجر الليبرالية الجديدة (خبرات تاريخية من العالم الثالث)

ويتضمن هذا الباب ثلاثة مباحث تبين مدى وحشية الانسان الأوروبي الغربي الذي اعتنق الليبرالية وطبقها في كثير من البلاد المتخلفة (الآن) . وموضوع هذه المباحث هو الذي يتناسب الى حد كبير مع "المتوحشة" كصفة لليبرالية[٩٦].

المبحث الرابع : الكشوف الجغرافية والنهب الوحشي للذهب من العالم الثالث (ص ٢٦٩-٢٧٩)

ويرى المؤلف في المستهل أن الوضع الحالي المتأزم للبلاد المتخلفة يصعب فهمه دون العودة الى مرحلة الكشوف الجغرافية[٩٧] التي ألحقت العالم الجديد المكتشف بالنظام الرأسمالي العالمي[٩٨].

وقبل أن يعرض المؤلف الموضوع يشير الى أن تخلف البلاد المعنية " لم يكن قدراً حتمياً ، بل مرحلة محدودة في تاريخ تطورها ، وكانت الكشوف الجغرافية وبدء اقتحام الغرب الأوروبي لها بداية هذه المرحلة " . ويثبت هذه المسألة في نقطتين[٩٩] هما :

١- من الثابت تاريخياً أن مجتمعات البلاد المتخلفة (الآن) كانت قبل الكشوف الجغرافية على مستوى عال من " المرونة والتنظيم والكفاية الاقتصادية " .

ذلك أن الكثير منها كان " مكتفياً ذاتياً في مجال الغذاء ، بل ويمتلك فوائض غذائية " و " كان انتاجها الصناعي أرقى بكثير من انتاج الدول الأوربية "، هذا بالاضافة الى أن الكثير منها عرف " المكتشفات العلمية التي استخدمت في مجال التعدين وتشكيل المعادن والمصنوعات اليدوية " .

٢- مارَسَ العرب التجارة الوسيطة بين الشرق وأوروبا من ناحية وبين السواحل الأفريقية وأوروبا من ناحية أخرى ، وسيطروا على طرق التجارة الدولية في العصور الوسطى وحتى القرن ١٤ ، وتحققت لهم السيادة نظراً لاكتفائهم الذاتي وتنوع منتجاتهم الزراعية والحرفية ، ولتطور فنون الملاحة لديهم وسيطرتهم على الطرق المائية وأعالي البحار . ونتج عن ذلك أن تركز في بلاد العرب الجزء الأكبر من ذهب العالم[١٠٠] ، وأصبح الدينار الذهبي الاسلامي (اسمه المنقوش) يُتداول في أسواق أفريقيا وأوروبا كعملة دولية .

وبالنسبة للكشوف الجغرافية – موضوع المبحث – يبدأ المؤلف الاشارة الى بداية التفوق الأوربي في مرحلة الرأسمالية التجارية وما حققه التجار الكبار من ثروات هائلة ، والى عصر النهضة وما تحقق فيه من تطور في مجالات المعادن وبناء السفن والفلك وعلوم البحار وعلم الجغرافيا واكتشاف البوصلة والتلسكوب وصناعة البارود والأسلحة . وكان للكشوف الجغرافية هدفان . أولهما " البحث عن الذهب ومنابع انتاجه وراء البحار " ، وثانيهما " الوصول مباشرة الى مناطق سلع الشرق لكسر احتكار العرب لطرق التجارة " .

وانطلاقاً مماسبق يستعرض المؤلف ألواناً مختلفة من عمليات نهب الذهب والفضة من أمريكا الجنوبية عن طريق رحلات بحرية عديدة[١٠١] قام بها الأسبان وتبعهم البرتغاليون والبريطانيون والفرنسيون ... ، وهي العمليات التي استخدمت فيها طرق ووسائل متوحشة في التعامل مع الهنود الحمر[١٠٢] . ثم يعرض المؤلف أرقام كميات الذهب المنهوب في الفترة ١٥٠٠-١٨٠٠م ، وكميات الفضة المنهوبة في الفترة ١٥٢٢-١٨٠٠م والتي قدرت قيمتها بآلاف الملايين من الماركات الذهبية[١٠٣].

واذا كان المؤلف يرى أن نهب أوروبا للذهب والفضة من أمريكا الجنوبية مثّل " أكبر عملية سرقة في التاريخ الانساني " ومثّل " أحد المعالم الأساسية لبزوغ فجر النظام الرأسمالي " ، فإنه يشير الى أن كميات الذهب والفضة المنهوبة الى أوروبا

" سيؤسس عليها نظام قاعدة الذهب في مرحلة الثورة الصناعية والتوسع الرأسمالي العالمي " في القرن ١٩[١٠٤] ، وذلك يشكل " فيما بعد أحد المصادر الهامة للتراكم البدائي لرأس المال الصناعي إبان الثورة الصناعية " .

ويختتم المؤلف المبحث بالقول ان الكشوف الجغرافية انطوت " على تصادم حضاري لعبت فيه القوة والتوحش والقرصنة وأعمال السلب والنهب أدواراً بارزة في القضاء " على حضارات مستقرة ومنعزلة وفي " اضعاف شعوبها وافساد أنماط حياتهم واخضاعهم بالقسر لعمليات استغلال لارحمة فيها ، مما أدى الى فناء وتدمير كثير من سكانها " .

المبحث الخامس : الكشوف الجغرافية ... وتجارة العبيد(ص٢٨٥-٣٠١)

سعيا للوصول الى الهند بالدوران حول أفريقيا اكتشف البرتغاليون رأس الرجاء الصالح وتمكنوا من تحويل طريق تجارة التوابل والسلع الشرقية من مصر والشام والبحر المتوسط الى شواطئ أفريقيا الغربية والمحيط الأطلسي . وسعياً وراء الذهب الأفريقي وصل البرتغاليون الى منابع انتاجه في زمبا وطردوا العرب وأجبروا السكان المحليين على العمل في مناجم الذهب بأساليب متوحشة غير انسانية . وفي هذا الصدد يشير المؤلف الى أن أفريقيا قبل مجئ البرتغاليين لم تكن في حالة عزلة بل كانت تربطها بالحضارة العربية والآسيوية صلات قوية ، تمثلت في مشاركة الأفارقة " في تجارة المسافات البعيدة مع غيرهم واستطاعوا من خلال مبادلتهم للسلع الأفريقية[١٠٥] أن يؤمّنوا كثيراً من احتياجاتهم " .

واذا كانت أفريقيا قبل مجئ البرتغاليين مارست تجارة العبيد الا أنها كانت " محدودة للغاية وتميزت ببعدها عن النزعة التجارية ... فكان العبيد يُستخدمون عادة كجنود أو كعمال أو موظفين .... "[١٠٦] أما تجارة العبيد الأوروبية (القرن ١٥-١٩) فقد كانت " ذات طابع مختلف تماماً سواء في الدافع اليها أو في حجمها أو في طريقة معاملة العبد أو فيما تمخض عنها من نتائج " .

وقد بدأت فكرة هذه التجارة عندما تسبب الأوروبيون المستوطنون للعالم الجديد في إبادة الهنود الحمر وإحداث فراغ سكاني ، وبالتالي نشأت الحاجة الى أيدي عاملة لاستغلال مناجم الذهب والفضة وزراعة قصب السكر والقطن والدخان والحبوب. من هنا ".... تفتحت قريحة أصحاب رؤوس الأموال وسعيهم المحموم للربح عن فكرة صيد البشر من أفريقيا"[١٠٧]. وتكونت لهذا الغرض شركات تجارية

كبرى[١٠٨] نشأت " في حضنها مجموعة من البشر المتوحشين الذين لعبوا أدواراً همجية في قنص العبيد وبيعهم وحققوا من وراء ذلك ثروات هائلة " وأرباحاً فاقت بكثير أرباح تجارة التوابل والسلع الشرقية.

ويقدم المؤلف صور الأساليب المتوحشة التي أتبعها الأوربيون في اقتناص العبيد في أفريقيا و"سوقهم" الى السواحل و"تخزينهم" في حصون وقلاع ثم نقلهم بالسفن لبيعهم في المستعمرات[١٠٩].

وفي الخاتمة يشير المؤلف الى نتائج تجارة العبيد الأفارقة من جانبين. الأول بالنسبة لأفريقيا التي أنخفض سكانها[١١٠] وحرمت من الأيدي العاملة في مختلف الأنشطة ، وتعرضت لحروب بين القبائل للاستحواذ على العبيد مما أضعف فيها التجارة الاقليمية ، وتعرض للاستعمار كثير من دولها و " أدمجت ضمن آليات السوق العالمي للرأسمالية". والثاني بالنسبة لأوروبا التي ساهمت تجارة العبيد في تطور الرأسمالية فيها وفي تجميع ثروات هائلة كانت مصدراً أساسياً لتراكم رأس المال البدائي ومنه التراكم الصناعي. ولهذا قدم المؤلف مثالاً من انجلترا التي أدت تجارة العبيد الى دروان عجلات الانتاج الصناعي فيها بسرعة هائلة والى حصولها على خيرات مزارع السكر والقطن والحبوب والتبغ في المستعمرات مما سارع فيها الثورة الصناعية وزاد دخلها ورخاؤها.

المبحث السادس : حرب الأفيون (١٨٣٩-١٨٤٢) وليبرالية التجارة

(ص٣٠٦-٣١٩):

يبدأ المؤلف الموضوع بتساؤليين : هل يمكن أن تستخدم القوة العسكرية لفرض حرية التجارة على بلد ما ؟ وهل يمكن تصور ان بلداً يحضر استيراد المخدرات فتشن الحرب عليه ليفتح أبوابه لاستيراد تلك السموم تحت شعارات حرية التجارة والسوق ؟ ويجيب عن التساؤليين بأن "هذا هو بالضبط ما حدث في حرب الأفيون...ضد الصين " بعد أن رفعت الرأسمالية شعاراتها الليبرالية : دعه يعمل .. دعه يمر.

لقد كانت حرب الأفيون نموذجاً للوحشية التي مارسها الأوروبيون وهم يطبقون الليبرالية عالمياً. وكانت نتائجها "إجبار الصين بالقوة على فتح أبوابها على الراسمالية العالمية ، وإفقارها وتحويلها من بلد ... يتمتع ... بميزان تجاري فائض ويشتهر بمنسوجاته الحريرية الراقية وبالمجوهرات والخزف ... والتحف والشاي الى بلد

يستورد معظم حاجياته ... ويعاني من عجز ضخم في معاملاته الخارجية ويكابد معظم سكانه من إدمان الأفيون[١١١] . وهذه النتائج تماثل نتائج الكشوف الجغرافية بالنسبة لأمريكا الجنوبية وأفريقيا والتي أصابها "الخراب والدمار والنهب والإفقار" .

ويعرض المؤلف موضوعه في النقاط التالية:

١- رغم وصول الأوروبيين الى آسيا ، ظلت المنطقة بعيدة عن تأثير النظام الرأسمالي اقتصادياً واجتماعياً ، وبقيت " شبه مكتفية ذاتياً في ضوء مستوى التطور الحضاري ... الذي كانت عليه خلال الفترة ما بين القرن الخامس عشر وبداية القرن التاسع عشر". وكانت تجارة المحيط الهندي آسيوية ، والعلاقات التجارية بين أوروبا وآسيا تتسم بتزايد الطلب الأوربي على المنتجات الآسيوية وانعدام الطلب الآسيوي على المنتجات الأوروبية. ورغم النمو الهائل لهذه الأخيرة ولا سيما النسيجية فلم تتمكن من منافسة الأقمشة الهندية والمنسوجات الصينية الفاخرة.

٢- قبل مجيء فاسكو دي جاما الى المحيط الهندي في أواخر القرن الخامس عشر كانت الصين قوة عظمى وسفنها أفضل وأسرع من غيرها وتجوب البحار والمحيطات حتى وصلت سواحل شرق أفريقيا لتأمين الاعتراف بسلطة الأمبراطور الصيني. ونظراً لكثرة المنتجات الصينية التي كان الأوروبيون يطلبونها[١١٢] ، تطلّع هؤلاء الى الاتجار مع الصين ، وجرت لذلك محاولات من قبل بريطانيا والبرتغال وأسبانيا وهولندا ولكنها لم تنجح بوجه عام. وللمحافظة على سيادة بلادهم حصر الصينيون "علاقاتهم التجارية في عدد محدود من الموانيء .... حتى يسهل مراقبتها وإحكام السيطرة عليها وعلى ما يأتي أو يخرج منها من بضائع".

٣- مع تسارع الثورة الصناعية في بريطانيا وأفول نجم البرتغال في المحيط الهندي وسيطرة بريطانيا على الهند ومع استمرار الفائض التجاري الصيني ، كانت بريطانيا بحاجة الى أسواق لتصريف منتجاتها والى تأمين تدفق المواد الغذائية والمواد الخام والى فتح سوق الصين الذي صعب عليها اغراقه بمنتجاتها الصناعية نظراً لطبيعة الاقتصاد الصيني[١١٣] .

٤- ولفتح سوق الصين وجدت بريطانيا في الأفيون أفضل وسيلة لأنه يستهلك في الصين كعقار طبي ولأنه ينتج في الهند التي تسيطر عليها بريطانيا. وهذا ما كان ، حيث احتكرت شركة الهند الشرقية البريطانية عام ١٧٩٧م تجارةوتصنيع الأفيون وكانت تبيعه بالمزاد العلني للتجار الذين يهربونه الى الصين بكميات كبيرة[١١٤] .

كما تمكنت الشركة المذكورة من تمويل معظم وارداتها الصينية من حرير وشاي بإيرادات الأفيون وحققت فائضاً تجارياً لبريطانيا.

٥- ومع تزايد عدد السكان مدمني الأفيون وحدوث دمار جسماني وعقلي ونفسي أثر سلبياً في انتاجية الصينيين وفي الجيش والادارة الحكومية ومع تحول الميزان التجاري لغير صالح الصين ، حظرت الحكومة الصينية تجارة الأفيون عام ١٨٣٨م وأتلفت طرود الأفيون في الميناء ودمرت مخازنه ومتاجره وشددت المراقبة في السواحل لمنع التهريب وأقرت عقوبة إعدام أيّ قبطان تدخل سفينته الميناء بالأفيون.

٦- ولمجابهة الحظر الصيني لتجارة الأفيون شنّت بريطانيا حرباً عسكرية على الصين ، واستولى البريطانيون على كثير من الموانىء والمدن ومارسوا "كل صنوف القرصنة والسلب في الأماكن والمدن التي أحتلوها". وفي ٢٩ أغسطس ١٨٤٢م وقعت " شروط اتفاقية نانكينج" وأهم بنودها:-

أ- تحتل بريطانيا جزيرة هونج كونج .

ب- تدفع الصين لبريطانيا تعويضات مالية كبيرة.

ج- تفتح الصين خمسة موانىء للرعايا البريطانيين كمناطق امتيازات مستقلة عن النظام الاداري والقانوني الصيني.

د- عدم خضوع البريطانيين للقوانين والمحاكم الصينية.

٧- وأخيراً ، أفضت الاتفاقية المذكورة الى تجارة مشروعة للأفيون[١١٥] ، وأدت حرية التجارة المفروضة بقوة السلاح الى " فتح أسواق الصين للمنتجات الصناعية الأجنبية ، فتدهورت أحوال صناعة الغزل والنسيج ، وبدأ اقتصاد الصين القائم على الاكتفاء الذاتي يتجه بشدة نحو التدهور ، وزاد افقار الفلاحين واستغلالهم لكي يمولوا مدفوعات تعويضات الحرب.....".

ويختم المؤلف المبحث[١١٦] بمماثلة توحش الرأسمالية الغربية في حرب الأفيون ضد الصين بتوحش الرأسمالية الغربية المعاصرة في تعاملها مع البلاد النامية. "ذلك أنه لئن كان الأفيون هو المدفعية الثقيلة وحرية التجارة هي البارود الذي وضع في هذه المدفعية وهي توجه نيرانها لفتح أبواب الصين أمام الاستغلال الأجنبي" ، فإن الديون الخارجية التي تورطت فيها الدول النامية هي " المدفعية الثقيلة وبرامج (التثبيت) والتكيف الاقتصادي التي يفرضها صندوق النقد الدولي والبنك الدولي الآن هي البارود

الذي يوضع اليوم في تلك المدفعية وهي توجه ضرباتها ...لإعادة فتح مجموعة هذه البلاد في وسط عالم شديد التأزم ، شديد التناقض .... وشديد التوحش أيضاً".

رابعاً وأخيراً : خاتمة المراجعة :

لو أن الكتاب بدأ بالتجربة التاريخية الليبرالية المتوحشة ممثلة بالمباحث الثلاثة الأخيرة المتعلقة بالكشوف الجغرافية ونهب الذهب (والفضة) وبالكشوف الجغرافية وتجارة العبيد وبحرب الأفيون وليبرالية التجارة ، ثم تواصل السياق التاريخي لليبرالية المتوحشة بالنماذج الحديثة متمثلة في "توريط البلاد النامية في الديون الخارجية وفي برامج التثبيت الاقتصادي لصندوق النقد الدولي وبرامج التكيف الهيكلي للبنك الدولي، لكان عرض الكتاب أقوى. ذلك أن الليبرالية متوحشة بتجاربها التاريخية من ناحية ومستمرة في توحشها بتجاربها الحديثة كامتداد تاريخي للأولى من ناحية أخرى.

الهوامش

١- رمزي زكي ، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة، سلسلة عالم المعرفة (٨٤) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، ديسمبر ١٩٨٤م، ص ص٣١٠-٣٢٧.

٢- رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف : دراسة في اثر نظام النقد الدولي على التكون التاريخي للتخلف بدول العالم الثالث ، سلسلة عالم المعرفة (١١٨) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، اكتوبر ١٩٨٧م ،ص ص ١٣-٨٥.

٣- كما تستهدف إخضاع البلاد التي كانت اشتراكية ودمجها في السوق الرأسمالي العالمي.

٤- في بريطانيا في القرن ١٨ ، وهذه هي المعروفة بالثورة الصناعية الأولى التي أعتمدت على قوة البخار لإدارة الآلات.

٥- بما في ذلك النساء والأطفال وتشغيلهم لساعات طويلة وإعطائهم أجوراً متدنية.

٦- مثل أزمة الكساد الكبير ١٩٢٩ -١٩٣٣م.

٧- نتج عن دور الدولة نشأة القطاع العام وزيادة الإنفاق العام على الخدمات الاجتماعيةوالضمان الاجتماعي وزيادة الضرائب .... الخ.

٨- حيث يكون الركود الاقتصادي ومعدل البطالة المرتفع مصحوباً بمعدل مرتفع للتضخم.

٩- و ما على الدولة إلا أن تلعب دور الحارس لقواعد اللعبة وضبط عرض النقود.

١٠- نُسبت لمدرسة شيكاغو الاقتصادية وهي المدرسة النقدية بزعامة الاقتصادي الامريكي ميلتون فريدمان.

١١- وبالذات الفئات الفقيرة ومحدودة الدخل في هذه البلاد. أنظر : رمزي زكي، الليبرالية المستبدة : دراسة في الآثار الاجتماعية والسياسية لبرامج التكيف في الدول النامية ، سينا للنشر ، القاهرة - مصر ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م ، ص ص١١٧-١٤٦.

١٢- انظر:رمزي زكي، الليبرالية المستبدة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٧- ١٣١.

١٣- أو عصر التنوير الذي بدأ في القرن الخامس عشر.

١٤- حرية العمل والتعاقد والانتاج والاستثمار والتجارة ... الخ.

١٥- وهو ما أتخذته الرأسمالية مبرراً نظرياً لوقوفها ضد معالجة الأحوال الاجتماعية المتدهورة للعاملين في بداية نشأة الرأسمالية الصناعية ، مع مطالبتها بعدم تملك الدولة أي مشروع يمكن للأفراد إقامته.

١٦- وذلك على النحو الذي يتناسب مع حاجة المستهلكين (مبدأ سيادة المستهلك: السوق تستجيب لرغبات المستهلكين) ، واستناداً الى وجود الرجل الاقتصادي العاقل والرشيد.

١٧- ترى نظرية كينز أن النظام الرأسمالي لايمكن أن يعالج (تلقائياً) البطالة عند الكساد والتضخم عند التوظف الكامل ، وان عدم التوازن سببه عدم التناسب بين الطلب الكلي والعرض الكلي مما يتطلب تدخل الدولة لتؤدي الدور التعويضي في الطلب الكلي.

١٨- الاقتصادي الأمريكي جون هيكس وكتابه هو :

The Crisis in Kenysian Economics, Oxford, Basil-Blackwell, 1974.

١٩- يتحدد معدل الربح بعوامل مثل استغلال العمال وعلاقة رأس المال الثابت برأس المال المتداول ومعدل دوران رأس المال واتساع السوق ومعدل نمو الانتاجية والتغير في فنون الانتاج ومعدلات الضرائب على الأرباح.

٢٠- من خلال أفكار الاقتصادي الانجليزي ديفيد ريكارود.

٢١- يقصد بذلك القدرة الهائلة على زيادة الانتاج والقدرة المحدودة على تصريف ذلك الانتاج للاستهلاك ، نتيجة لطبيعة نظام الملكية والتوزيع.

٢٢- يتناقص معدل الكفاية الحدية لرأس المال بسبب تناقص الغلة وتزايد كلفة الانتاج.

٢٣- وهو الفرق بين الانتاج وتكاليفه ، وبالتالي فالربح جزء منه.

٢٤- انظر : بول أ. باران وبول م. سويزي ، رأس المال الاحتكاري : بحث في النظام الاقتصادي والاجتماعي الأمريكي ، ترجمة حسين فهمي مصطفى ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٩٧١م ، ص ص ٨٧-٢٢٤.

٢٥- إذا تم امتصاص الفائض الاقتصادي فيُعاد انتاجه مرة أخرى ، والعكس بالعكس .

٢٦- كما يعتقد الاقتصادي الأمريكي جون كنث جالبريث ، أنظر كتابه : الاشتراكية والرأسمالية والتعايش السلمي ، ترجمة هشام متولي ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٩٠م ، ص٢٢٠.

٢٧- وهذا بفعل نشاط الشركات دولية النشاط - الشركات متعددة الجنسية ، أو الشركات متخطية القوميات كما سمّاها فؤاد مرسي في مؤلفه : الرأسمالية تجدد نفسها ، سلسلة عالم المعرفة (١٤٧) ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ، مارس ١٩٩٠م ، ص ص ١٠٣-١٦٧.

٢٨- ولهذا سماها فؤاد مرسي : الرأسمالية المالية ، انظر مؤلفه : الرأسمالية تجدد نفسها ، ص ص ٢٣٣-٢٣٩.

٢٩- بعد توقف بعض الدول المدينة عن الدفع عام ١٩٨٢م (المكسيك ، شيلي ، الأرجنتين ....) أفلست بعض البنوك وشهدت بورصة نيويورك (وغيرها) كارثة يوم الأثنين الأسود ١٩/١٠/١٩٨٧م ، حيث خسرت الرأسمالية ٥٠٠مليار دولار.

٣٠- هذا التفاوت الشديد ناتج عن تطبيق السياسات الليبرالية الجديدة ، وسيأتي عرض وتحليل لها في النقطة رابعاً من المبحث الحالي وفي المبحث الثاني.

٣١- وقد سبق ذكره (هامش ٢١) : القدرة الهائلة على الانتاج والقدرة المحدودة على التصريف نتيجة طبيعة نظام الملكية والتوزيع .

٣٢- هذه مقولة الاقتصادي البلجيكي أرنست ماندل ، أنظر مؤلفه : النظرية الاقتصادية الماركسية - الجزء الثاني ، ترجمة جورج طرابيشي ، دار الحقيقة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص٢١١ .

٣٣-وهي مدرسة بزعامة الاقتصادي الأمريكي آرثر لافر.

٣٤- سواء في ضوء أفكار صاحبها كينز أو في ضوء أفكار اتباعها.

٣٥- هذه العلاقة تحددت في فكرة منحنى فيليبس ، والاقتصادي الذي توصل للعلاقة وفكرة المنحنى هو : A.W.Phillips.

٣٦- وليس في الطلب الكلي عند كينز.

٣٧- استناداً الى قانون ساى للأسواق ، وصاحبه الاقتصادي : جان باتست ساى.

٣٨- وصاحب فكرته الاقتصادي آرثر لافر - زعيم مدرسة اقتصاديات العرض.

٣٩- نتيجة للآثار التوسعية في الناتج والدخل والتوظف التي تنجم عن ذلك الخفض.

٤٠- وبالتحديد حكومة الولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس الأسبق رونالد ريجان ، وحكومة بريطانيا في عهد مارجريت تاتشر رئيسة الوزراء السابقة.

٤١- تماماً على عكس توقعات فكرة منحنى لافر.

٤٢- وذلك استناداً الى مقولات : الدولة أسوأ مستثمر ، القطاع الخاص أكفأ من القطاع العام في تخصيص الموارد ، " نمو القطاع العام يهدد بظهور الدولة الشمولية " - الديكتاتورية.

٤٣- أعطى المؤلف بيانات احصائية من الولايات المتحدة تبين مدى الحدة في تفاوت توزيع الدخول ، وسيأتي ذكر بعضها في المبحث الثاني.

٤٤- ورغم ان المؤلف استكمل عرض مسألة إعادة توزيع الدخل والثروة لصالح الرأسمالية ، إلا أنه يؤكد على مسألة البطالة - الناتجة عن الخصصة كما يلي:

١- الذين يجدون فرصة عمل اليوم يتعرضون للبطالة غداً " إذا لم يواكبوا الحاجات المتغيرة لمهارات العمل والابداع المطلوبة".

٢- إن فرص العمل الجديدة ممكنة فقط للقادرين على دفع نفقة التعليم وإعادة التدريب ... الخ ، هذا مع إصرار الليبرالية على خفض الانفاق العام على التعليم.

٣- إن قضية البطالة هي القنبلة دائمة الخطر التي يتعين على المراكز الرأسمالية أن تضع لها ألف حساب نظراً للأخطار المحدقة التي ستنجم عنها : العنف ، التطرف، العنصرية ، حوادث الشغب ... الخ.

٤٥- في كتابه الليبرالية المستبدة (ص ص٤١-٧٤) يرصد رمزي زكي أربعة معالم لإعادة احتواء العالم الثالث :

١- التدويل الجزئي للطبقة (للقوى) العاملة.

٢- الشركات الاحتكارية دولية النشاط.

٣- تعميق ظاهرة التبادل اللامتكافىء.

٤- فخ الديون الخارجية.

٤٦- لم يكن هذا ممكناً إلاّ بإضعاف جهاز الدولة وتغيير طبيعتها وحرمانها من الفائض الاقتصادي الذي تملكه واعتماد سلطة الحكم فيها على تحالف اجتماعي (طبقي) له مصالح في تنفيذ برامج التثبيت والتكيف للصندوق والبنك الدوليين. أنظر : رمزي زكي ، الليبرالية المستبدة ، مرجع سابق ، ص ص ٨٢-٩٤.

٤٧- فؤاد مرسي أوضح عوامل أخرى وراء تجديد لرأسمالية لقواها ، من تلك العوامل وأهمها الثورة العلمية والتكنولوجية ، أنظر مؤلفه : الرأسمالية تجدد نفسها، مرجع سابق ، ص ص ٧-١٢.

٤٨- وهذه الخاتمة وإن كانت تصلح كخاتمة للكتاب ، كما سبق واشرنا ، فإن مقولتها المتعلقة بالانتحار الجماعي للبشرية أقوى من أن تتلاءم مع المنطق العلمي للكتاب.

٤٩- بعد الحرب العالمية الثانية بإعتبارها أكبر قوة عسكرية واقتصادية ، حيث مستوى التشغيل والناتج والدخل مرتفع ومستوى المعيشة فيها من أعلى المستويات في العالم وهي أكبر مصدّر لرأس المال.

٥٠- عن نظام بريتون وودز النقدي (وما استتبعه من تأسيس صندوق النقد والبنك الدوليين) نشأته وتطبيقه وانهياره (١٩٤٥-١٩٧١م) أنظر : رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف، مرجع سابق ص ص ١٤٨-٢٣٥.

٥١- من ٢٧٪ عام ١٩٥٠م الى ١٨٪ عام ١٩٨٤.

٥٢- من ١٩٪ عام ١٩٥٦م الى ٩٪ عام ١٩٨٦م.

٥٣- وعلى رأسها الولايات المتحدة نفسها واليابان والمانيا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وكندا.

٥٤- ويظهر هذا من خلال كون مجموع الاستهلاك والاستثمار والواردات أكبر من مجموع الناتج المحلي والادخار والصادرات ، وذلك ابتداءً من عام ١٩٨٥م.

٥٥- ان الدخل القومي الأمريكي ٥ تريليون (خمسة آلاف بليون) دولار ، في حين ان الدخل القومي لأوربا الموحدة ٤ تريلون دولار ، مع ملاحظة أن أوروبا الموحدة من إثنتى عشرة دولة حتى نهاية ١٩٩٤م وابتداءً من يناير ١٩٩٥م صار الاتحاد الأوروبي ١٥ دولة ، وبذلك تزيد قوته الاقتصادية ويزيد دخله القومي.

٥٦- North America Free Trade Agreement.

٥٧- وفي هذا الصدد يرى المؤلف أن الحكومة الأمريكية ترفض تنفيذ أحد خيارين لمواجهة فجوة الموارد: خفض الاستهلاك بسياسات تقشفية (زيادة الضرائب + خفض الانفاق العام) ، وخفض الاستثمار لحدود الادخار فينخفض معدل النمو الاقتصادي.

٥٨- على أساس أن رفع سعر الفائدة سيخفض من قيمة الدولار والأسعار بالتالي تزيد الصادرات.

٥٩- وفي هذا الصدد يعرض المؤلف حزمة سياسات لمواجهة عجز ميزان المدفوعات مثل رفع متوسط الانتاجية وجودة المنتجات لزيادة إنتاج الصادرات وبدائل الواردات ، ومثل خفض قيمة الدولار لزيادة الصادرات وخفض الواردات ، وهو ما

يؤدي الى التضخم والى حروب تخفيض العملات ، ومثل خفض الاستيراد بقيود كمية وجمركية وهو ما يتعارض مع فلسفة الليبرالية : حرية التجارة والسوق ... الخ.

٦٠- مثل سياسة خفض الضرائب على رؤوس الأموال وعلى الدخول المرتفعة وإلغاء الدعم ... الخ. ويرى المؤلف أن تلك السياسات وعلى مدى أكثر من عقد لم تحقق وعودها ، وأن تفاقم تفاوت توزيع الدخل يأتي انعكاساً للاختلالات الاجتماعية.

٦١- وفي الوقت نفسه زاد عدد الواقعين تحت خط الفقر وزاد عدد المتشردين من مليون الى ستة وزاد عدد مدمني المخدرات وزادت أعمال العنف والجريمة.

٦٢- استناداً الى مسألة لم ترد عند كينز وأشار إليها الاقتصادي الفرنسي فرانسوا بيرو.

٦٣- تاريخياً ، كان استعمار بلاد افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية قد وفر للرأسمالية أحد عناصر تراكم رأس المال البدائي ووفر لها أيضاً استغلال عنصر العمل الرخيص والحصول على المواد الخام بأثمان بخسة وفتح أمامها أسواقاً ضخمة لتصريف فائض انتاجها الصناعي ولاستثمار فوائض رؤوس أموالها بمعدلات أرباح مرتفعة.

٦٤- حيث ضُخّت مقادير هائلة من القروض من البلاد الرأسمالية الى البلاد النامية خلال الفترة ١٩٧٣-١٩٨٢م.

٦٥- لستر بيرسون هو رئيس وزراء كندا الأسبق.

٦٦- تكونت هذه اللجنة في أغسطس ١٩٦٨م من خبراء واقتصاديين.

٦٧- وعلى هذا فليس من أهداف الصندوق تحقيق التنمية والاستقرار الاقتصادي بالبلاد المتخلفة.

٦٨- ومن السياسات التي اتبعتها الدول المعنية ويرفضها الصندوق استخدام الاحتياطيات الدولية ، والاقتراض ، والرقابة على الصرف ، وتخطيط التجارة الخارجية ، وحماية الصناعة الوليدة .... الخ.

٦٩- لهذا تضررت الفئات الفقيرة ومحدودة الدخل. انظر : رمزي زكي ، الليبرالية المستبدة ، مرجع سابق ، ص ص ١١٧-١٤٦.

٧٠- وكل هذا بهدف خفض معدل التضخم.

٧١- البنك عبارة عن مؤسسات ثلاث : البنك الدولي للإنشاء والتعمير ، وكالة التنمية الدولية ، مؤسسة التمويل الدولي ، وتمثل هذه المؤسسات مجمعاً عالمياً

لرؤوس الأموال الفائضة بالدول الرأسمالية وتبحث من خلال البنك عن فرص للأستثمار مضمونة الربح.

٧٢- نظراً لسيطرة الولايات المتحدة على البنك فقد أعطى هذا الأخير قروضاً لدول : تايلاند ، تايوان ، كوريا الجنوبية ، تركيا ، ايران في عهد الشاه ، المكسيك ، البرازيل ، لإسهامها بدور ملموس في تقسيم العمل الدولي ولاتباعها سياسات ليبرالية.

٧٣- حـل حرية التجارة وعلاقتها بالنمو وضرورة التكيف مع الاقتصاد العالمي المتغير وضرورة تشجيع سياسات التصدير والتخلي عن نزعة حماية الصناعة المحلية والاعتماد على المنافسة وقوى السوق ومشكلات القطاع العام والدعم وعجز الموازنة العامة وتشوهات جهاز الأسعار وضرورة تشجيع القطاع الخاص المحلي والأجنبي كقاطرة للنمو.

٧٤- سيأتي عرض أهداف ليبرالية التكيف في "ثانياً" من عرض المبحث الحالي.

٧٥- "فلا التضخم ... قد كبح بل زاد اشتعالاً ، ولا سعر الصرف رغم تخفيضه عدة مرات وبنسب كبيرة قد استقر ، ولا العجز في ميزان المدفوعات قد هبط...، ولا القطاع الخاص (المحلي والأجنبي) الذي اعطيت له الكثير من الضمانات والمزايا وبيعت له بعض وحدات القطاع العام قد استطاع أن ينعش الاقتصاد المحلي بل استغل الأزمة وراح يراكم أرباحه من خلال مشروعات خدمية وترفية مرتبطة بالتعامل الخارجي بل ويهرب ثرواته ومدخراته للخارج ، وأهملت الاحتياجات الأساسية للمواطنين (بسبب ضغط معدلات الاستثمار وضغوط الانفاق الحكومي الموجه للخدمات الاجتماعية) وزادت بطالتهم ....".

٧٦- من هنا تركزت بحوث خبراء البنك على ان البلاد المتخلفة - المدينة يتحسن أداء الاقتصاد فيها بتشجيع صناعات التصدير وإلغاء سياسة الحماية وتحرير التجارة الخارجية واستقبال الاستثمارات الأجنبية الخاصة وضمانها وتأمينها ضد لمخاطر وعدم تدخل الدولة في آليات السوق وتصفية القطاع العام وإلغاء الدعم.... الخ.

٧٧- كالمسائل التكنولوجية والادارية والمالية والادخار والاستثمار وسياسة الطاقة وسياسة التسعير ... الخ.

٧٨- وهي كلها لصالح الاستثمارات الأجنبية الخاصة مثلها مثل مايرد في النقاط الخاصة بتأمين هذه الاستثمارات في الفقرة التالية.

٧٩- وهي أهداف تنسجم تماماً مع تقرير بيرسون ومع سياسات الصندوق والبنك الدوليين وفي الوقت نفسه تخدم زيادة معدلات أرباح رأس المال كمعالجة لأزمة الرأسمالية.

٨٠- وهي التي كانت تفسر تخصص الدول المتقدمة في انتاج السلع الصناعية وتخصص الدول النامية في انتاج المواد الخام .

٨١- وقد سبقت الاشارة الى أن فؤاد مرسي رأى أن الرأسمالية تجدد قواها من خلال الثورة العلمية والتكنولوجية بالاضافة الى عوامل أخرى منها التدويل ، أنظر مؤلفه : الرأسمالية تجدد نفسها ، مرجع سابق ، ص ص ٧-١٢.

٨٢- فؤاد مرسي ، الراسمالية تجدد نفسها ، مرجع سابق ، ص ص ٣٤٩-٣٥٠.

٨٣- يتحكم بالغذاء من حبوب ولحوم وألبان باحتكار فائض ضخم منه بواسطة الهندسة الوراثية ، ويتحكم بالتجارة الدولية بواسطة بضعة شركات دولية. وبالنسبة للتحكم بالغذاء فهذا يأتي ضمن إعادة نشر الزراعة شمالاً كما يرى فؤاد مرسي ، أنظر مؤلفه : الرأسمالية تجدد نفسها ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٧-٣٧٦.

٨٤- على غرار تجارب نمو أوروبا الغربية والولايات المتحدة واليابان وكوريا الجنوبية وتايلاند وتايوان وسنغافورة وهونج كونج.

٨٥- فؤاد مرسي ، الرأسمالية تجدد نفسها ، مرجع سابق ، ص ص ٣٥٤-٣٥٥ ، وللأسف في هوامش المراجع (هامش ٥٨) ورد مرجع غير مرجع فؤاد مرسي (مرجع الامم المتحدة : تقرير عن الاستثمار في العالم ١٩٩١م) ، والسبب أخطاء مطبعية.

٨٦- وهذه الشركات زاد عددها في المكسيك بعد مبادلة الديون بأصول إنتاجية.

٨٧- حيث أجر العامل المكسيكي ٥٪ من أجر العامل الأمريكي في المهنة نفسها وبالانتاجية نفسها.

٨٨- الخارجية مثل أزمة نظام النقد الدولي ، الكساد العالمي ، زيادة أسعار الفائدة العالمية ، نزعة الحماية ، تدهور شروط التبادل الخارجي ، والداخلية مثل زيادة الميل للاستيراد وضعف معدل الادخار واخطاء في السياسات الاقتصادية الكلية.

٨٩- وضمان الحكومات لديون القطاع الخاص عُرف في أدبيات التنمية بمصطلح "تشريك التزامات القطاع الخاص" ، أي تحميل المجتمع كله عبء ديون القطاع الخاص ، أنظر : رمزي زكي ، الصراع الفكري والاجتماعي حول عجز الموازنة

العامة في العالم الثالث ، سينا للنشر ، القاهرة - مصر ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، ص ص ١٦٢-١٦٧.

٩٠- وهذه المبادلة تستند الى "حجة" أن الأزمة مشكلة إفلاس وليست مشكلة نقص في السيولة ، وباعتبار الصندوق والبنك الدوليين يمثلان مصالح الدائنين فإنهما يُدخلان نزع الملكية العامة ضمن برامج التثبيت والتكيف.

٩١- رغم الحصاد المر لنتائج تجارب التثبيت والتكيف فإن هؤلاء الخبراء يرون النجاح في خفض عجز الموازنة العامة وفي فائض الميزان التجاري .... الخ ، ورغم ان المؤلف ناقش مثل هذه المسائل في موضوع نزع الملكية العامة (الفقرة ٤ في نزع الملكية من هذه المراجعة) ، فإنه يؤكد أن خفض عجز الموازنة العامة وتحقيق فائض تجاري إن تحققاً فيأتيا على حساب الانكماش الداخلي وعلى حساب متغيرات اقتصادية واجتماعية لا يضع الصندوق والبنك أي اعتبار لها .

٩٢- وهو مايقدم للشركات دولية النشاط عمالة رخيصة.

٩٣- وهو ما يضمن سداد الديون وفوائدها.

٩٤- وهو الذي يضمن استمرار تبعية اقتصاديات البلاد النامية للاقتصاد الرأسمالي العالمي ويحقق في الوقت نفسه معدلات أرباح عالية للرأسمالية.

٩٥- ولا شك ان الاستثمار في مثل هذه المجالات الخدمية لا يخدم كثيراً البلاد المتخلفة فيما يتعلق بزيادة علاقات التشابك بين قطاعات الاقتصاد (ولا سيما الانتاجية السلعية) وبالتالي بالقضاء على التخلف وتحقيق التنمية (الاقتصادية).

٩٦- ولولا هذا الأمر لما اتّسقت هذه المباحث الثلاثة في صغرها مع باقي مباحث الكتاب في كبرها.

٩٧- مادام منهج الكتاب تمثل في العودة الى خبرات تاريخية من البلاد المتخلفة لفهم وضعها الحالي المتأزم ، فإن هذا المنهج يتطلب العودة أيضاً الى الكشوف الجغرافية وتجارة العبيد والى حرب الأفيون وليبرالية التجارة بجانب الكشوف الجغرافية ونهب الذهب (والفضة). والحقيقة ان قبول هذا المنهج يتطلب الاشارة الى ان الوضع الحالي المتأزم للبلاد المتخلفة يصعب فهمه أيضاً بدون التأكيد على فشل تجارب التنمية في البلاد المعنية بعد استقلالها من الدول المستعمرة. ذلك أن هذه البلاد لو نجحت في تجارب تنميتها لأمكنها محو آثار الماضي بخبراته التاريخية ، وبالتالي لا حاجة للعودة لهذه الأخيرة.

٩٨- وقد تم ذلك الإلحاق من خلال التخصص وتقسيم العمل ومن خلال تصريف المنتجات الصناعية ومن خلال استثمار فوائض رؤوس الأموال.

٩٩- في أحد مؤلفاته يثبت المؤلف ، وكمثال ، من تجربتي الهند ومصر أن الاستعمار البريطاني تسبب في تخلفهما ، انظر : رمزي زكي ، المشكلة السكانية وخرافة المالتوسية الجديدة ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٢-٣١٥.

١٠٠- مقابل نقصه في أوروبا وبالتالي تعاملها بالفضة ، ومن هنا عرفت مشكلة الذهب في القرن الخامس عشر في أوروبا .

١٠١- بدأت تلك الرحلات برحلة كريستوف كولومبس الشهيرة في عام ١٤٩٢م.

١٠٢- وهم السكان الأصليون لأمريكا الجنوبية ، وأما الطرق والوسائل المتوحشة فتتلخص في القتل والتعذيب والتجويع والاغتصاب ... الخ.

١٠٣- بالاضافة الى ذلك يقدم المؤلف أرقام كميات الذهب المنهوب الى أوروبا من آسيا وأفريقيا.

١٠٤- انظر : رمزي زكي ، التاريخ النقدي للتخلف ، مرجع سابق ، ص ص ٤٩-٨٥.

١٠٥- مثل العاج والذهب والريش والجلود ... الخ.

١٠٦- الأمر هنا ذو منطق غير "متسق" ، فكيف تمارس تجارة العبيد وتتميز بنزعة غير تجارية ، وكيف تتم المتاجرة بالانسان كعبد ثم يصير جندياً أو موظفاً أو عاملاً. لكن المقصود هو ان تجارة العبيد التي مورست قبل مجيء البرتغاليين لم تكن تسعى لتحقيق أرباح طائلة ولم تكن ذات طابع وحشي غير انساني.

١٠٧- من غربها (٧٥٪ من الرقيق) التي سيطر عليه البرتغاليين والبريطانيون والهولنديون والفرنسيون والدانماركيون ، ومن شرقها الممتد من البحر الأحمر شمالاً الى حدود موزمبيق جنوباً.

١٠٨- مثل شركة جزر الهند الغربية الهولندية وشركة السنغال الفرنسية.

١٠٩- من صور الأساليب المتوحشة :

- توقد النار عند مداخل المغارات والكهوف وتحرق القرى والناس نيام ثم يخطفون وهم يحاولون الفرار.
- يقيد العبيد بالحبال بواسطة عمود خشبي يربط في أعناقهم ثم يساقون لمسافات طويلة الى الساحل ويضربون بالسياط اذا تباطأوا في السير.

• يوضع وشم كعلامة تميز العبد بواسطة سيخ محمي بالنار ، ويضعون على السفن عراة ويعطون القليل من الزاد والشراب.
• التمرد يقمع بالضرب المبرح أو المفضي للموت ، والموتى يلقون في عرض البحر.
• عند البيع بالمزاد العلني في شواطىء أمريكا يعرض العبيد عراة ذكوراً وإناثاً.
• يعمل العبيد في المزارع بالمناطق الاستوائية دون أية رعاية صحية ، ومساكنهم مجرد حظائر ، ويعملون بدلاً من الهنود الحمر في المناجم وقطع الأخشاب والحدادة والنجارة وتفريغ شحن السفن ، يعملون ولا حقوق لهم ، بل كان من حق الملاك قتلهم اذا أخطأوا.

١١٠- من ١٨٪ الى ٧,٤٪ من سكان العالم عام ١٩٠٠م ، وأعداد الرقيق تباينت من ٩,٣ مليون الى ١٠,٥ مليون شخص ، ومن ١٢ مليون الى ٥٠,٤٨ مليون شخص .

١١١- نتائج أخرى لحرب الأفيون ضد الصين سيأتي ذكرها عند ذكر نتائج شروط تفاقية نانكينج.

١١٢- واهمها الشاي والحرير والخزف ، ونتج عن ذلك فائض تجاري للصين ولا سيما مع بريطانيا.

١١٣- وهو اقتصاد ينتج للاكتفاء الذاتي وتضعف فيه العلاقات السلعية / النقدية ويستولي ملاك الأرض ورجال البلاط والادارة على الفائض الزراعي وبالتالي لا تتوفر دخول نقدية للفلاحين تمكنهم من شراء السلع المصنعة المستوردة.

١١٤- وتحققت من وراء ذلك أرباح ضخمة للتجار وللحكومة البريطانية ، وتكفي الاشارة الى ان ضريبة الأفيون المصدّر كانت ٣٠٠٪.

١١٥- ونتيجة لذلك استوردت الصين في عشر سنوات تالية للاتفاقية ما قيمته ٣٠٠-٤٠٠ مليون دولار فضي من الأفيون.

١١٦- ليس للكتاب خاتمة مثلما لـه مقدمة - توطئة ، ولعل خاتمة هذا المبحث تؤدي الغرض ولو جزئياً.

القلق والتوتر وأثرهما في الابداع عند الأدباء

بقلم : الدكتور عبد علي الجسماني
الاستاذ في قسم علم النفس

١ – القلق والتوتر من بواعث الابداع

(كثيرة هي عجائب الدنيا ، وأعجبها الانسان) ، جملة أطلقها سوفوكليس ، منذ مئات السنين قبل الميلاد . جملة تحمل تخليدها في ثنايا حروفها لصدورها من انسان بشأن مشكلات الانسان في هذا الوجود .

ان (الأنا) الانسانية انما هي حقيقة سيكولوجية وأنها روحية خاصة ، بيد أنها تعددية من حيث التكوين ومن حيث التأثير والتأثر . فكل امرئ يحوي في داخله امكانياته المتعددة ، وكل طاقة من طاقاته ترمي الى تحقيق الذات حسب هدفها المستراد .

فنظريات الشخصية ، مثلاً ، تنطوي على سلسلة كاملة من المكونات مثل : الروح ، والطبع ، والوجه ، والقناع ، والألسنة ، والعقل ، والخيال ، والأمل والطموح ، والخشية والرجاء ، وفي كل مافي الحياة من ظلال وضلال ، وفي كل مايكتنف شخصية الانسان من أوازم(*) وآمال .

يحتل الانسان مكانة خاصة وسامية في نظام هذا الكون العجيب . غير أن مكانته المتميزة هذه هل مكنته من أن يكون بمنأى عن أوصاب الحياة وما تعج به من أمراض جرثومية وأمراض نفسية وعقلية وأخرى اجتماعية شتى .

فعصرنا الراهن كثيراً ماينعت بحق بأنه عصر القلق والتوتر ، والنفس الانسانية مسرحهما ، وبحطماتهما يؤوفانها ، وبخاصة ما اشتد منهما .

فالقلق anxiety تعرفه قواميس علم النفس بأنه (شعور بالخوف والخشية من المستقبل دون سبب معين يدعو للخوف ، أو هو الخوف المزمن ، والخوف مرادف للحصر ، الا أن الخوف استجابة لخطر محدد ، بينما القلق أو الحصر استجابة لخطر غير محدد) (٥٠،٥١) (**). فالقلق غير المبرر قد يصطبغ بصبغة الوسواس أو مايشبه ذلك ، لهذا جاءت في أساس البلاغة للزمخشري تسميته بـ

(الخليع) وأراد به أنه الحصر ، وعرفه بأنه خوف يصيب الانسان بما يشبه الوسواس .

الشخصية التي يستحوذ عليها القلق ويأخذ بخطامها تغدو مشلولة في نفسها وفي تكوين ذاتها ، فلا غرو يخاطب الخالق سبحانه النفس تطميناً : " يا أيتها النفس المطمئنة) ، لتكون في الأداء الحياتي أفعل .

حينما يستبد القلق بالإنسان فانه يرين على حواسه فتتضاءل كفايته وتستنزف طاقته . وانه ليصبح مرضياً عندما يلازم الفرد فيكون له سمة من سمات الانحراف.

وللقلق المرضي خصائص وأمائر وأنواع ليس هذا مجال بحثها .

ان مايعنينا من القلق من مقال في هذا المجال هو القلق الحافز ، القلق المنبه ، القلق الدافع : وجوهر الدافعية الانسانية يتمحور في (ارادة المعنى) will to meaning ويعد هذا المعنى فريداً بالنسبة لكل انسان اذ يخصه وحده وبه ينفرد ، ولايتحقق الا من خلاله هو فقط ، ولايتحقق الا بتوافر تكامل قواه . ولكي يتمكن الانسان من استنجاز هدف حقيقي ومعنى صادق في حياته فانه ينبغي أن يتقبل معنى لمعاناته القلقية .

يرتبط القلق ارتباطاً ايجابياً بالتفاوت الكبير بين الذات المدركة والذات المثالية. فالمرء يزداد قلقه كلما ألحفت عليه الذات المثالية في التطلع الى الأفضل في الأداء . وكلما كان أرهف حساً تاقت نفسه الى تجسيم معاناته ومعاناة الآخرين . وهذا التوقان يخزه وخزاً الى الاندماج والاستدماج مما يرفع من عتبة القلق . فالقلق يقترن دائماً بالحاجة المرتفعة الى الانجاز المتسم بالابداع(٤١،٤)، على ألا يأخذ القلق بخناق الشخص فيكون قد تيأ الأمر تنيئاً[1] .

ليس القلق وحده يحتال النفس الانسانية فيغتال قواها ان هو استباح حماها . بل التوتر له خدين . وتعرف قواميس علم النفس التوتر tension بأنه (احساس يسببه الصراع الداخلي أو الضغط الخارجي ، يصحبه استعداد لتحوير في السلوك لمواجهة عنصر تهديد في الموقف ...) (٥٠،٥١) .

فالتوتر في أشد حالاته عامل من عوامل الكف inhibition للمرونة العقلية . فالتوتر والقلق بينهما حلف وثيق ، وبينهما وشائج قائمة فما رثت حبائلها . وقد أصاب الامام أبو حامد الغزالي حينما أطلق على التوتر مصطلح (الكنظ) فهو بهذه التسمية قد عبر عن أقصى مايمكن تصوره عن النفس عندما ينشب فيها التوتر مخالبه . فان النفس وقواها والسلاسة العقلية وطاقاتها تنكمش ، بل تتعطل(٢٨) .

الاضطراب الانفعالي ليس بحالة وجدانية منفصلة في حياة الفرد عن مجمل تكوينه ومحيطه ، بل ان حياته الوجدانية تمثل جوانب متكاملة ومتفاعلة من النشاط السلوكي الداخلي بما فيه الفكري ، والخارجي بما في ذلك الحركي والادراكي بشطريه العقلي والحواسي[٢] .

ان أسلوب تأكيد الذات والحرية الانفعالية التي ينزع اليهما الانسان تقتضيان ، في سياق هذا البحث ، مجانبة الايغال في شراك التوتر المثبط . بل لامعدى للمرء هنا من توتر منشط لامثبط ، يقدح في فكر صاحبه ادراكاً واقعياً لقيمة ذاته وادراك قوتها في استشفاف واستنجاز قيم الانجاز والابداع والقيم الجمالية في الحياة .

مامن أحد من علماء النفس من يماري في أن القلق والتوتر كليهما مشحونان بشحنة انفعالية هي الأخرى تخضخض صاحبها في الموقف الذي يعبئ تلك الشحنة الانفعالية .

التفكير والانفعال والسلوك بوجه عام ضروب وأشكال متلاحمة . وأنه لمن الفآلة القول ان تغيير الانفعال وحده يؤدي الى تغيير التفكير ، أو ان تغيير التفكير وحده كفيل بتغيير الانفعال ، ذلك أن تغيير التفكير يفضي الى التغيير في الانفعالات وأن الانفعالات الموائمة لموقف بعينه تؤدي الى استحثاث التفكير وتنشيطه . والمصدر هنا في كلتا الحالتين هما التوتر والقلق ، والحصيلة تتمثل في الابداع ، بعد توفر الموهبة الفطرية المصقولة بسناء التجارب والممارسة والمران .

ثمة قانون (دولبوف) في التوتر ومفاده في علم النفس أن التوتر يحدث لدى الانسان عندما يكون هناك توافق بين مايسعى اليه الفرد وبين المنبه الذي يثير الفكرة أو الذي يؤدي الى السلوك . وأن خفض التوتر انما يتحقق بتحقيق هدف التوافق بين الشخص وواقعه .

الحياة العقلية للفرد وما يعتمل فيه من انفعالات مصاحبة للتوتر والقلق ، تكون في العادة متبادلة التأثير في علاقة دائرية ، بل انها في كثير من الأحيان تصبح شيئاً واحداً بحيث يحكم مايقوله الفرد لنفسه عند حدوث شيء معين من حيث الصيغة الانفعالية . ولنا مثل على ذلك قول الجواهري :

لم يبق عندي مايبتزه الألـــم حسبي من الموحشات الهم والهرم
لم يبق عندي كفاء الحادثات أسىً ولاكفـــاء جراح اذ تصبح دم
وحين تطغى على الحر ان جمرتـــه فالصمت أعذب مايطوي عليه فم

يقول علي الجارم في قصته (غادة رشيد) :

(عجيب شأن هذه الاحساسات ، فانها تهجم عليك كتلة مجتمعة ، ثم تنحل الى عناصر منفردة تترجمها النفس في سرعة البرق -ص١٠١) .

وما تماثلنا به من قول الجواهري معززاً برأي علي الجارم ، يمكن أن يكون تفسيره في ضوء الواقع القلقي والتوتري كما يلي : اذا افترضنا أن حدثاً معيناً (أ) كحالة متاعب الحياة وضغوط الزمن المتداركة قد أثار لدى المرء استجابة انفعالية (ت) كحالة من حالات القلق والتوتر ، فان الحدث (أ) ولو أنه يعد منبهاً للحالة الانفعالية الناتجة (ت) ، بيد أنه لايعد في واقع الحال هو السبب الرئيسي لتلك الاستجابة . وعلة ذلك ان الاستجابة الانفعالية تختلف نتيجة لطريقة ادراك الفرد وأسلوب تفكيره في ذلك الحدث بالذات ، ذلك الحدث . أي ان تلك العناصر كافة كلها تكون عنصراً جديداً (ب) . و (ب) هنا يمثل حصيلة تفاعل تام أنه ، اذاً، ليس (أ) (الحدث) هو الذي أدى الى الاستجابة الانفعالية (ت) ، بل انها (ب) أي : (طريقة الادراك والتفكير والتكوين البنيوي للشخصية) هذه العناصر كلها هي التي تعد مسؤولة عن ابراز هذه الاستجابة التي يتجلى فيها الابداع الناجم عن التوتر .

فكل من القلق والتوتر انما هما استجابة انفعالية لموقف يواجه المرء أو أن يواجهه في ظروف حياته اليومية . والقلق الموضوعي - دون الانواع الأخرى كالقلق العادي والقلق الثانوي — هو المحفز الى الانجاز والابداع . ان المرء ليحس ذلك ويتحسسه في خطرات حسني فريز من قصته (العطر والتراب) ص١٢٩ ، اذ يقول :

(... انظر في غدك كما تنظر في يومك، فليست الحياة كلها شباباً ، وليست المسرات العابرة هذه مما يبقي للانسان رصيداً في أعين الناس ، انك محتاج الى الكف عما أنت في سبيله ، لتعيش حياة مستقرة تحفظ فيها شبابك وسمعتك ، لايغرنك صغر سني ، فاني قد عرفت الحياة معرفة لاتخطر لك على بال...(١٦)).

ففي ثنايا تلك الكلمات يستبين القارئ همسات نفس من خلالها يشتق الوجود من الوجدان . انه كلام ينطوي على معرفة ، ولكنها معرفة من نوع خاص، وان القلق والتوتر ليطلان من كوى ألفاظها .

لامراء في أن (النفس البشرية هي الرحم الذي تتكون فيه شتى مبدعات العلم والفن - والآداب -) على حد قول يونج (٥٤) . فالنفس البشرية هذه هي التي يبدها التوتر والقلق ، وهي التي تكون مرتعاً للحرمان والألم والاكتئاب ، وان

علماء النفس المعنيين بالابداع ماأكثر توكيدهم على أن القلق والتوتر والحرمان والألم ، هذه كلها عوامل تدفع صوب الابداع ، وانها تشحذ الموهبة الفنية .

ان فقدان الارتواء مما في العالم الخارجي يولد لدى الانسان الحساس شعوراً بأن عليه أن يبني لنفسه عالماً خاصاً أغنى كثيراً مما تكون عليه الحياة الداخلية لكل انسان . فالغنى الداخلي لدى الفرد المتفرد بأحساسيه الخاصة انما هو من منطلقات الابداع الوجدانية ، ولنا في هذا مثل في كتاب : (الشهيد الشاهد(١٥)) للدكتور أسعد عبدالرحمن .

الخصائص النفسية والأنماط الشخصية للمبدعين:

كان ابيقور قد قال : (لا يضطرب الناس من الأشياء ، ولكن من الآراء التي يحملونها عنها ...) ورأي أبيقور هذا يحفل كثيراً بمعنى القلق النفسي الا وهو الشعور العام الغامض الذي يجعل الفرد يتململ ، متوجساً ، متحفزاً ، متوتراً ، فيحس الشخص ان في داخله طاقة وتتصل طاقته المتولدة هذه بموضوع في عالمه المحيط به المادي ، فتمتد ومضات من روحه النفاذة الى ذلك المنبه الجديد فيفضي عليه معنى بديعاً يجعله بالتلقي من لدن الآخرين والتلقف والتلهف إليه أجدر.

المنظرون في مجال الشخصية الانسانية كانوا ويبحثون في أرجائها ، وكلما توصل فريق منهم الى شيء من ألغازها ضئيل ، ارتدوا الى قرارة أنفسهم معترفين بأنهم ازاء كينزنة أسرارها عصية على البحث وأعماقها لاينتهي التقصي فيها الى قرار.

فمن التصنيفات المعروفة لدى المختصين بعلم النفس بشأن الشخصية والشائعة كثيراً ، هي تصنيفها الى :

١- أنماط مزاجية .

٢- أنماط جسمية.

٣- أنماط اجتماعية.

٤- أنماط نفسية.

ولعل مايعنينا هنا هو النمط الأخير هذا ، اذ يقسم الأشخاص الى قسمين أو نمطين أساسيين ، مغفلين في هذا المجال ، النمط العصابي الذي يمتد بين النمطين الرئيسين المذكورين.

فمن النمط الانماطي للشخصية تتفرع فروع أربعة هي :

١- النمط الحسي : ويوصف بأنه يقبل على حقائق الحياة من غير ضجر كثير أو تبرم ممل.

٢- النمط الملهم : ويتم وصفه بأن عقله متفتح وانه يرمي الى الابتكار كي يطوع مكونات بيئته الى سرائر فكره ليحقق هدفاً يسعى إليه .

٣- النمط المفكر : وينعت بأنه عقلاني التفكير ويستخدم جميع حواسه ليتحسس بها جميع ملامح محيطه.

٤- النمط الوجداني : وكثيراً ما يقال عنه أنه ذو سلوك مبني على اساس أحاسيسه الداخلية المصوبة ازاء موقف أو مواقف منظورة لديه أو متخيلة ، وأنه يعتمد في توجيه سلوكه ومشاعره على الاحاسيس النفسية اكثر من اعتماده على الفكر والمنطق.

هذا وللنمط الأنطوائي أقسامه أيضاً. وهي:

١- الأنطوائي الحسي : ويرى النفسانيون فيه شخصاً تعتمل خبراته في نفسه، يحتفظ بها لذاته ولكنه يفرغها أحاسيس قد لا تعرف الا بعد حين.

٢- الأنطوائي الملهم : ويذكر عنه انه شخص ينصرف الى افكاره المبتكرة يقلبها في ذاته على وجوهها قبل ان يعرف بها الآخرون.

٣- الأنطوائي المفكر : ويعرّف في علم نفس الأنماط بأنه شخص يمتلك فلسفة في الحياة خاصة به ، وكثيراً ما يحتفظ بها لذاته فترة طويلة قبل ان تنشر على الناس ، ولعله لا يبوح بها.

٤- الأنطوائي الوجداني ك ويُلمح عليه أنه شخص دائم الأنفعال ، شديد التأثر، بالغ الحساسية ، رغم انعزاله عن الآخرين ، لكنه مرهف الحس ، دائم الحزن في ذاته، وتطغى عليه مشاعر الأسى (٥٥،١٥).

الأنماط الملمّح إليها تتخلل أصحابها مفاهيم شتى من ذلك مثلاً : (اسلوب الحياة) ، (أسلوب الاعتقاد) ، (أسلوب الفلسفة الشخصية) ، (اسلوب الدفعة الفطرية) ، (أسلوب التأمل المستديم) .... الخ وأن كثيراً من الاستجابات الوجدانية والسلوكية انما تعتمد الى حد بعيد على حقائق تكوين الشخصية بما في هذا التكوين من جوانب فطرية وأخرى مكتسبة.

لهذا فأن فرق المبدع عن غيره هو ان المبدع كثيراً ما يصهر توتره وقلقه في تضاعيف ذاته فيحولهما الى شيء بناء يتقبله المنطق والعقل بعد ان يلامس رقائق الوجدان.

تعبر الشخصية الأنسانية في الأعم الأغلب عن ذاتها بمصطلح (الانا). والأنا هذا يخرج الى حيز الوجود لأن حاجات الانسان تتطلب تعاملاً مناسباً ازاء عالم الواقع الموضوعي. فالشخص الجائع مثلاً يبحث عن الطعام ليأكل حتى يتخلص من توتره الناجم عن الجوع. وهذا يعني أن عليه أن يميز بين صورة عن الطعام مصدرها الذاكرة وبين ادراكه الفعلي للطعام كما هو موجود في حقيقته في العالم الخارجي ، فما أن يتم هذا التفريق وهذا التمييز الحاسم حتى يصبح لزاماً عليه أن يحول الصورة العقلية هذه الى ادراك يتعلق بمكان الطعام في البيئة المادية .

بمعنى آخر ، ان على الشخص أن يضاهي مالديه من صورة الذاكرة عن الطعام أو رائحته كما يصلان اليه عن طريق حواسه .

ونظم الشخصية ، كما تقول احدى نظرياتها ، أنها تتألف من الهو (id) ، والأنا (ego) ، والأنا الأعلى (supper ego) ، وان الفرق الأساسي بين الهو والأنا يتلخص في أن اللهو لايعرف الا الواقع الذاتي للعقل فقط ، في حين ان الأنا يفرق بين الأشياء التي ينطوي عليها العقل والأشياء التي يحفل بها العالم الخارجي.

الابداع قد يتجلى في لمحات أديب أو شاعر ، وفي تأملات عالم ، أو في خاطرة صحفي ، أو لعله ينشأ عن ازميل نحات ، وقد يتبدى في ريشة رسام ، أو في لحن موسيقي ...الخ ولهذا فقد اعتبر الابداع انه العملية التي تبزغ منها أنواع الانتاج التي تعد بحق جديدة بالنسبة للمدنية والمجتمع ولخير الانسانية . وكل هذا يمكن أن يكون مقترناً (بقلق الاختبار) كما يطلق عليه أحياناً . ويراد بهذا التعبير النفسي ، أن المرء المبدع يتعرض لخبرة أو تجربة تستجيش أحاسيسه فيجسمها على وفق موهبته واهتمامه (١٤، ١٩، ٢٠) .

البحوث الميدانية تكاد تجمع على وصف شخصية المبدع وسماتها فيقال عنه أنه :

(انسان خير سهل التكيف ، متعاون ، يمكن الركون اليه والثقة به ، يعبر عن نفسه بسهولة ، وبدون أي آثار قد يستدل منها على وجود كف عنده ، وهو شخص اجتماعي ، وباختصار هو انسان قد يتصف بالانبساطية ، وفي نفس الوقت هو شخص يعتمد على نفسه وله آراؤه الخاصة به التي يستقل بها عن غيره ،

وتظهر سمة الاكتفاء الذاتي في سلوكه بوضوح . وهذه سمة يتميز بها الانطوائيون. وهو - المبدع - شخص يتميز باندفاعه وسرعة قابليته للاستثارة ، وشدة الحساسية ، وعدم ضبطه لتعبيراته الانفعالية ، ولايتصف بصفة النزعة الامتثالية بسهولة ، ويتسم بسمة قوة الارادة ، وتبدو واضحة عليه خصائص الايثار، ويتميز بالطموح العالي ، ويتبدى في سلوكه فحائل التأثر الوجداني وذلك لفرط حساسيته (١٤)) ، انظر كذلك (١٣،١٧) .

اللمحات الآنفة في الاقتباس المذكور ، تؤيدها دراسات شتى ، وتعززها الملاحظات المدربة والمقصودة . ولكاتب هذه السطور ملاحظات موثقة حول أشخاص من مبدعين يعرفهم ، وجد لديهم من سمات الشخصية وخصائصها ماتدعمه الدراسات الميدانية (انظر مثلاً ، ٢٦،٤٧) .

المبدع في أي مجال من مجالات الأعمال الانسانية ، انما هو فنان بارع وخلاق في ميدانه رائع . انه انسان حساس يصبو الى الكمال وهيهات . وكلما بلغ شأواً نجده يقول : (في اليوم الذي لاتعبر فيه احدى لوحاتي حتى أكثرها اغراقاً في التجريد عن أمنية كبيرة تخدم حياتنا الانسانية فسأكون أول من يمزقها بيدي).

ولنقرأ ماكتبه الشاعر اليماني المعروف ، محمد محمود الزبيري ، اذ يقول :

(... على أن المعيار الحقيقي في وزن أقدار الرجال وآدابهم وأشعارهم ، لايتجه الى الاستثناءات والمواقف المؤقتة ، والجانبية والسطحية ، وانما ينبغي أن يتجه الى تقييم الاهتمامات الرئيسية ومظاهر السلوك ، وأهدافه ، والطابع العام الأعمق والنهايات الكبرى ، (... تلك هي ماينبغي أن يضعوها في الميزان عندما يريدون أن يدرسوا حياة الناس وآثارهم كبشر لاكمخلوقات خرافية أو ملائكية سماوية ، وهذا التمييز بين ماهو رئيسي وثانوي وبين ماهو حقيقة جوهرية ، وعملية تحايل في سبيل الحقيقة ، هو الطريق الآمن السوي وسط الدروب المشبوهة الماكرة ، والمتاهات المظلمة المضللة (٣٣:ص١١)) .

المبدع انسان ينشد ابراز معالم الحقيقة كاسية ببرود الجمال الذي وصفه أحمد شوقي في كتابه (أسواق الذهب) ، اذ قال عنه : (جمعت الطبيعة عبقريتها فكانت الجمال ، وكان أحسنه وأشرفه ماحل في الهيكل الآدمي ، وجاور العقل الشريف والنفس اللطيفة ، والحياة الشاعرة -ص١١٠-) .

كلما تسامت النفس لدى المبدع كانت في ابداعها أسمى . لذلك فان التوتر والقلق اللذين يلازمان المبدع ، وهما في حدودهما غير الطاغية ، جديران بأن ينشئا أعمالاً قل من يبلغ شأوها من غير المبدعين ، بل أنه ليمكن القول بأن المبدع يعنى بقيمة الاصلاح النفسي في صيانة الحياة واسعاد الأحياء .

ان شؤون الحياة كلها لاتعدو هذا النطاق :

(... فالنفس المختلة تثير الفوضى في أحكم النظم ، وتستطيع النفاذ منه الى أغراضها الدنيئة . والنفس الكريمة - المطمئنة الصافية - ترقع الفتوق في الأحوال المختلة ، ويشرف نبلها من داخلها ، فتحسن التصرف والمسير وسط الأنواء والأعاصير ...) ص١٠٩ من كتاب : جدد حياتك (١٩٨٥) ، للشيخ محمد الغزالي .

ثمة في التحليل النفسي قانون يسمى بـ (قانون وحدة الاضداد) وفحوى هذا القانون ان الاشياء تخلق أضدادها بمجرد وجودها . وهذا القانون يسمح لنا بالقول أن مايميز المبدعين عن سواهم هو مايمتعون به غيرهم من نتاج فكري تتمثل فيه مهاراتهم الشاملة كل حسب براعته وعلى وفق اهتمامه وقدرته .

ولما كان لباب موضوعنا هو القلق والتوتر والابداع عند الأدباء ، فالنقتبس هنا شيئاً من ابداع الأدباء . فحين نقرأ ديوان الشاعر عبدالعزيز المقالح مثلاً تطالعنا رسالة الى الزبيري يرثيه فيها في ذكرى استشهاد ذلك الشاعر اليمني الكبير ، ومما ضمنها ، المقالح من توتر وقلق فاضا أحاسيس مقروءة :

وحين لاالدمع تشفيني صفائحه
ولاتغيب عن العين الدياجير
أعود للكلمات - الشعر - أسألها
عطفاً وفي رئتي للحزن تنور
تصدني في حنان ثم تمنحني
نشيدها : وهو منظوم ومنثور
أعلو به أتحدى ليل نكستنا
والهول محتدم . والرعب منشور
أرتاد عالم حتفي غير مكترث
وفي فمي من - أبي الأحرار - تبشير

. (٣١)

القارئ في معاني الأبيات تلك وفي ألفاظها ، تتراءى له احزاناً وكمداً وكظماً وكل هاتيك (في خلايا النفس مسطور) ويحق لنا في هذا السياق أن نتمثل بقول عيسى الناعوري ، حيث يذكر :

(ان الشعر عندي جيشان في النفس لايقاوم ، وليس المرء بقادر على أن يخلقه متى أراد ، ولكنه يجيئ وحده متى شاء هو أن يجيئ .) (٤٣)

لعل رأي الناعوري كان يمكن أن يكون أتم لو أنه أضاف الى رأيه هذا عبارة: غير أن الشعر لايواتي الا الشاعر المبدع الموهوب . ولنتمثل بشئ من شعر الناعوري نفسه متوتراً قلقاً ، اذ يقول نظماً تحت عنوان : (المجد صعب المنال) :

حملت قلبي كثيراً ... من الهموم الثقال
حملته هم مجدي ... والمجد صعب المنال
حملته هم سعيي ... الى طلاب المعالي
حملته هم حبي ... فأسقمته الليالي
فناء بالعبء لما ... أعييته بالمحال ! (٤٣)

فما أكثر ما يحس المرء بالاغتراب يدب بين جنبيه عندما يسعى الى (طلاب المعالي) متوخياً المجد فلا يجده الا (صعب المنال) . فالمعادلة هنا هي علاقات بين المرء وذاته ، وبينه وبين الآخرين . فقد يتصاءل الفرد أمام عين نفسه ، وقد يتضخم . وانما يكون متوازناً في ابداعه اذا مابقي متوازناً بوجه شوادخ الحياة ومر جوائحها . وفي ضوء هذا كله تتجلى لنا علاقات الانسان المبدع بنفسه وبالطبيعة وبالمجتمع في أبعاد مختلفة .

القلق والتوتر والاغتراب عناصر متشاجنة كأشد مايكون التشاجن . ومرتعها الخصب انما هي نفس الانسان . والشخص المبدع أكثر الناس استجابة وأشد الناس متعرضاً للعدوى بهذه الجوانب : فهي عدوى نفسية دون ريب .

ان ظروف الزمان والمكان والابداع تلتقي والحدث المشار تصطفي ، فتواتي المبدع عبارات منظومة أو منثورة ، تفصح بألفاظ عن وقائع اغترابه واستغرابه . فأنت مثلاً تقرأ في (الشهيد .. الشاهد) للدكتور أسعد عبدالرحمن قوله :

(يامن تحبون الوضوح :
آه كم تمنيت لو استطعت الحضور اليكم
هذا اليوم وفي حوزتي أخبار واضحة
(عن صحة - ناجي - عسى أن أقلل

من قلقكم الكبير المبرر !
(ويامن تعشقون الوعي ،
آه كم تمنيت لو جئتكم هذا المساء وفي
جعبتي أنباء عن تحسن ما ، أي تحسن ،
في صحة الغالي - ناجي - وعن عودته
من غيبوبته ولو جزئياً .
(ويامن تسعون الى الحقيقة
آه كم تمنيت لو استطعت المثول
أمامكم هذا اليوم وفي مقدوري
أن أخفي عنكم الحقيقة بشأن
الواقع الصحي للغالي - ناجي -)
(٥: ص٢٧)

أليس في كلام أسعد عبدالرحمن توتر وقلق واغتراب واستغراب وذهول ؟

أليس في كلام أسعد عبدالرحمن توتر وقلق واغتراب واستغراب وذهول ، وكلها أبعاد نفسية قد اشتد اوارها فأعتملت فتولدت الفاظاً معبرة ! فالقلق والتوتر والاغتراب كلها تتفاعل في الذات المبدعة باساليب مختلفة تعبر عن الشعور من حيث:

١- كون المرء المبدع يكون ابداعه موضع تجاهل من الآخرين ، فلا يدركون ما يدرك الابعد لأي وهذا مايمض النفس عند المبدع.

٢- احساس المبدع بأنه يجتهد لتحقيق أهداف هي للصالح العام وقد كرس لها حياته ولكن قلما يجد من يأبه بها أو لها يكترث.

٣- خشية المبدع من أن تتداعي مكانته في حياته وفي أمته ، وقلقه من الانحسار في ابداعه.

٤- ما قد يخالج المبدع يأس من أن الحياة ليست جديرة بأن تعاش ، وهذا أخطر ما قد يغتال موهبة المبدع. (انظر مثلاً: ١٧، ٤٦)

٥- وربما يفقد المبدع الأمل في استنهاض مشاعر الآخرين للتوفير الى دهارس() الحياة وأوشازها(***) .

ها أنت تقرأ كل القلق والتوتر والاغتراب مجسدة في قول بدر شاكر السياب(٨) تحت عنوان :

(أسمعه يبكي)

أسمعه يبكي يناديني
في ليلي المستوحد القاس ،
يدعو : (أبي كيف تخيلتني
وحدي بلا حارس؟)
. . . . . .
غيلان ، لم أهجرك عن قصد . . .
الداء ، ياغيلان ، أقصاني.
إني لأبكي ، مثلما أنت تبكي ، في الدحى وحدي
ويستثير الليل أحزاني.
فكلما مرَّ نهار وجاءْ
ليل من البرد ،
ألفيتني أحسب ما ظل في جيبي من النقد
أيشتري هذا القليل الشفاء؟

ففي ثنايا تلك التأوهات والزفرات لا يني الفرد يبحث عن مواطن الجواهر والقيم المنبثة من وطأة القلق والتوتر والأغتراب واليأس واحتراب مشاعر الخشية والخوف والتشبث بأمل واهٍ من أجل الوجود. واليائس القلق كالغريق يتشبث بالثمامة يتقاذفها الموج العاتي. وكل ذلك لايمكن تفسيرهكحالة عابرة يحدث تضارب فيها بين وضع المرء الفعلي وبين طبيعته الجوهرية كنموذج موضوعي للوجود الأنساني.

لا جدال في أن للمبدعين مناخاً اجتماعياً في حياتهم مبكراً ، وتكويناً بيئياً يؤثر في اتجاهاتهم متأخراً.

الفرق بين المبدع وسواه ، أن المبدع يجرد من ذاته ذاتاً أخرى ، فيروح يناجيها بحوار من ضرب خاص يعتاص على من يعيش خارج نطاق التجربة الروحية تلك ، فأقرأ معي شعر عبدالوهاب البياتي بعنوان (بغداد):

بغداد هذي دمعتي في الهوى
ومادموعي غير أشعاريه
ذوّبت فيها ذكرياتي التي
كانت بليل الحب مصباحيه
وأمنيات غضة لم تزل
أنفاسها في عزلتي ذاكية

بغداد إني ظامىء للهوى
فعطّري بالحب أجوائيه
مهجتك العذراء تجرى لمن
ومهجتي محروبة صادية ؟ (٣٩).

أو أقرأ ، إن شئت ، للبياتي قصيدته التي بعنوان (ذكريات الطفولة).

ومن شاء ، أن يسترسل ليتبين فةالق التوتر والقلق ، فليقرأ ، مثلاً ، من شعر محمد محمود الزبيري ، الشاعر اليماني المعروف ، نفحاته في (حنين طائر) ، إذ يحلق بالقول :

أملٌ غيرُ متـــــاحِ وفؤاد غيرُ صـــــاحِ
أنا طير حطّم المقـــدور عشي وجناحـــــي
ورماني في نثـــــار من جموعي ونواحـــي
وحطام من بقايـــــا وطن غير صحـــــاح
ذهبت آملي الســـوداء ادراج الريـــــاح
فتظامنت علي همسي .. وخبأت سلاحـــــي
لم أجد سمعاً فأفرغـــت أنيني في جراحـــــي
وتنبهت على أنقـــاض وكر مستبـــــاح
واغتراب بين غابـــات مخيفات فســـــاح
وحياة في صـــــراعٍ ونضال وكفـــــاح
لا أرى الاّ ظلامـــــاً في عذوي ورواحـــي
وديا جير ثقـــــالاً نوماً في كل ســـاح
سدت الطرف الـــــى عشي من كل النواحي
ذهل الدهر عن الفجـــر وما الدهر بصـــاحَ
لم أجد لمعة نـــــور في اغترابي وانزاحـــي (٣٠، ص١٩٦)

يعلق الشاعر ، عبدالعزيز المقالح ، على هذا الشجن العميق ، والاحتراق المـاحق، والمعاناة اللاهبة ، يعلق قائلاً ومتسائلاً:

(الآن ، وبعد العش الذي تحطم ، والأهـل الذيـن تفرقـوا ، وبعـد ان افـرغ الطـائر المشرد أنينه في جراحه حين لم يجد في عالم المنفى سامعاً واحداً ، الآن هل يسـتطيع هـذا الطـائر الشـريد ان يسـتقر علـى وكـر ؟ أو أن يجـد أمنـه فـي مكـان ؟)، (٣٠، ص١٩٦).

وانك لتقرا القلق والتوتر ، بل الياس والرجاء ، او هجاس المجهول العابث بالنفس في شعر فدوى طوقان ، وبخاصة في قصيدتها (انا والسر الضائع) اذ تقول فيها :

سرت والأيام أمشي الى
لا غاية ، لا مامل ، لا رجاء
وسرت شيئاً حيث الروح لا
ابحث عن شيء
وفي نفسي
ثلج وليل ، ووطأة اليأس
تخنق في نفسي بقايا النداء. (٤٥)

المبدع انسان يرفع من قدر نفسه بقوة فطرته ورقة نفسه ، فأنت لاشك تحس ذلك حين تقرأ في آثار الأدباء والشعراء ، ولنتمثل لذلك بقول الشاعر اليمني المعاصر عبده البردوني من قصيدته بعنوان : (الشاطيء الثاني) ، (٣٧،ص١٤٨) اذ يقول :

من أين ؟ لاأرجوك لاتسلي
تدرين ... وجه الريح عنواني
أو كان لي من أين قبل هنا
قدرت أن التيه انساني
من أين ثانية وثالثة
أضنيت بحث الرد .. أضناني ،
من قبري الجوال في جسدي
من لا متى ... من موت أزماني .

واقرأ لشاعر يماني آخر ، هو لطفي جعفر أمان ، كيف طوحت به بوائق التوتر والقلق وهو يهاجر الى كينيا مصطحباً زوجته وهما يتأتيان عن الوطن والأحباب :

العراء الرهيب يوجم من خلفي جديباً مكفناً آثاره
وسنا ناظري يرصده الأفق بعيداً .. شد المحال مزاره
أأنا الحي .. والدنا كلها حولي ضريح قبابه منهاره ؟
لأي الدروب يزجي بي الصوت ملحاً .. مطلسماً أسراره

(ديوان الدرب الأخضر) للشاعر ص٤٤
انظر كذلك (٣٠) ص١٩٨.

أليست في ذلك تتبدى لـك غربـة وجدانيـة وزمانيـة ومكانيـة ، ومقلتهـا تطـالعك أشجان شاعر يماني مجود آخر هو الشاعر أحمد الشامي في قصيدته التي يقول فيها :

الى من أبت الشجو ؟ قلبي موجـــع ونفسي في نيران يأسي وخيبتـــي
قطعت حياتي تائهاً أجرع الأســـى ضروباً وأشقى في منامي ويقظتـــي
وأنفذ أيامي بكاءً ولوعـــــــة وأسكبها في شعر بؤسي وشقوتـــي
وأجري وراء الوهم حيران أستقـــي كؤوس الفنا من كف تيهي وحيرتي
وأغذي مرارات الخطوب وأشتـــوي على جاحم من نار حزني وحسرتي
ولا صاحب الا الدموع أذيلهـــــا والا بقايـــــا زفرة طي مهجتي
وأشلاء روح مزقتها همومهـــــا وأنقاض نفسي حطمـــت بالتشتت
الى من أبث الشجو؟ لم يشفني البكا ولم تغن آهاتي ولم تجد زفرتـــي
خلقت شقياً مزق اليتم خافقـــي صغيراً وأبلى الحب رسم شبيـــتي
وألوت بي الأسفار شرقاً ومغربـــا ولم ترعني في أسرتي وأحبـــتي

(ديوان الشاعر نفسه ، وانظر أيضاً ٣٠)

أليست تلك الأبيات تعج بأقسى ضروب التوتر وأعنف حالات القلق المستبد بنفس تضج بالشكوى والشجو والأنين تشكو جور الأيام واكفهرار الحياة وقتامة الزمن . لقد أفضى الشاعر بأسرار حياته وقد نفض في الأبيات الشعرية هذه بعجزه وبجره .

ان ملكة الشامي المتضمنة في ثنايا شعره تذكرنا برأي قاله اناتول فرانس ، أديب الكبير اذ ذكر :

(ليس بجفاء الصوت وكثرة الحركات بلا انتظام يتم الاعراب عن درجة الشعور بالزمن الذي أنت فيه . وانما تقاس درجة الشعور بدرجة التناسب والانسجام في البيان).

الشخص المبدع انسان يلتقط دقائق الحياة المحيطة به بمجسات النفس والحس، وله من ملكة العقل مايؤلف ويوحد ماقد حلله الفهم . وبهدي من التوليف والتوحيد عند المبدع يهتدي الوعي عنده الى وحدة انسجامية جديدة لايشائية فيها غيره من غير المبدعين .

٣- بالابداع تتحقق الذات ومنها ينبثق

الابداع قدرة لدى الفرد المبدع وطاقة خلاقة تمكنه من الكشف عن هوية شخصية متميزة في حدود علائقها الاجتماعية وفي مقدار صلاحها للتعبير عن مواجيد الآخرين الانسانية .

مدارس علم النفس كلها وعلى اختلاف مشاربها تبحث في الابداع وفي سبل الكشف عنه وكيفية تنميته . ولعل التحليل النفسي معني بهذا الأمر أكثر .

مدرسة التحليل النفسي ، مثلاً ، وعرفت باسم فرويد وبعض مريديه ، ترى أن الابداع يجري في مسارب اللاوعي فيزغ في صفحات الوعي على شكل ومضات . ومدرسة علم النفس التحليلي ، وهي الى يونج وأدلر منسوبة ، تذهب الى أن الابداع انما هو من صنع أحاسيس المرء الواعية فيشكلها رموزاً معبرة وصوراً مجسدة.

فالشخص المبدع انما يحقق ذاته وذلك بالابانة عن بنيان شخصيته من حيث تكوينها الفطري وصقلها الاجتماعي والتعبير عن جوانبها الواعية . فالوعي بالذات awarenss والشعور بها consciousness وبيئتها ، هما عمادا ابراز معالم واقع الذات وتجسيم نفائسها .

ان مايقال عن الجانب الآخر من الذات الانسانية المبدعة - أي جانب اللاوعي - ان هو مطمور تحت ركام من الكبت ، كما قد يظن ، بل هو عنصر فعال يغذي الحياة الواعية عند الفرد المبدع بأسباب الابداع .

الابداع في هذه الحالة تعبير عن أبعد الأهداف الرامية الى تحقيق ذات المرء المبدع وهو يسعى الى ترجمة مايحيط به ترجمة تعبر عن خلجاته وعن خلجات غيره، وله من أحاسيسه ، ممتزجة بأحاسيس الآخرين ، خير مسار ينم عن ذاته الشفافة(٩، ٤٤، ٦١) .

الذاتية والاهتداء والقدرة انما هي عناصر ومقومات تحقق للمبدع مناه . فأنت حين تقرأ مثلاً (أحياء في البحر الميت) أو (متاهة الأعراب في ناطحات السراب)، حين تقرأ هاتين الروايتين لمؤنس الرزاز ، تستبين أنك أمام ذاتية تملك خصوصيتها فعبرت عن نفسها بواقعية توكيدية مع جنوح الى الرمزية أحياناً حسبما تقتضيه متطلبات الاغراء الروائي ، مع تعريف بالواقع الحضاري للذات التي أبدعت هاتين الروايتين .

ان تحقيق الذات مجسدة في عطائها وفي (الأنا) ، ضميراً وتكويناً نفسياً ، تتجلى في أبدع تعبير قاله رابندرا طاغور : (في اتحاد أزلي حقيقي له حدوده ، للماضي وللحاضر تتراءى لي - الأنا - كمعجزة تحضرني وحيدة في كل مكان)

والمدخل العلمي يتيح لنا وصف الذات :

١- انها موضوع الوعي والنشاط أو أنها هدف ونتاج وانعكاس .

٢- انها حقيقة انطولوجية محسوسة وأنها فضلاً عن ذلك بنية فكرية لها مقوماتها.

٣- انها بنية عملية .

٤- انها وحدة كلية منظمة .

٥- انها محصلة للعناصر والصفات والخصائص المكونة لبنية الشخصية المتمثلة فيها الذات .

٦- انها تشكل فطري ذاتي مشترك يظهر في عملية التأثير المتبادل لما ترمي الى تحقيقه (١٠: ص٢٨-٢٩) .

اشكالية الذات الانسانية تنطوي على تساؤلات شتى لعل أبرزها :

١- ماهي الذات ؟

٢- ماسيكولوجيتها ؟

٣- من (أنا) ؟

٤- كيف تتعرض للتوتر والقلق ولماذا ؟

٥- كيف يتسنى لها أن تبدع ؟

كل هاتيك الأسئلة وسواها تتفاعل في ماهية الذات ، وهو سؤال فكرة نتوجه به الى المعرفة الموضوعية للذات المبدعة في ضوء البحث عن :

١- قانون أو قوانين تنتظمها ،

٢- البحث عن مقومات تتخللها ،

٣- البحث عن معايير تقاس في ضوئها

الأسس الثلاثة المذكورة تواً تمكن الباحث من اكتشاف الذات واكتشاف معطياتها . و (الأنا) هنا انما هي استبطان للذات وتعبير عن حدود الذات بوصفها الملامح الشخصية ، وبين قطبي (الذات) و (الأنا) تتفاعل مختلف أركان الشخصية المبدعة على النحو التالي :

ماهي الذات	من أنا
الموضوعي	الذاتي
الجوهر	الوجود
التحديد	التعبيرية

التفسيرَ	الفهم
العام	الخاص
الرأي الخارجي	الاستبطاني
المنطقي	اللامنطقي
المفهوم	المعاناة
الثابت	المتغير
من الخارج الى الذات	من الذات الى الخارج (١٠:ص٣٨)

الذات هي (النفس الشاملة) ، على حد تعبير يونج . فهي بنية معرفية يتمكن الفرد بواسطتها من تكوين وبناء معلومات عن ذاته ويستطيع تنظيم ذلك في مفاهيم ونماذج خاصة تعبر عن هويتها .

يذكر (أوين) في كتابه : عصر القلق The Age Of Anxiety قوله :

(انما الذات تبقى حلماً
حتى تفيض الحاجة اليها جوارا
بالأسم يدعوها لتكون)

فهي ، اذن ، كائنة مبدعة ، وانما هي دائماً تولد في سياق اجتماعي .

يقول هنري جيمس Henry James :

(هناك نقطة واحدة تتقارب عندها
الحاسة الخلقية والحاسة الفنية ، وذلك
في ضوء الحقيقة الواضحة جداً وهي أن
أعمق خواص العمل الفني - الابداعي - هي
دائماً صفة ذهن صاحبه) ، (ص ٣٥ : نظرية الرؤية في الأدب الانجليزي - ترجمة / د. انجيل بطرس سمعان ، ١٩٧١)

فهناك مايسمى في التحليل النفسي بـ (تيار الشعور) The stream of consciousness ، وقد تم ادراكه من أثاره . فأنت مثلاً حين تقرأ لعبدالله البردوني قوله :

في حنايانا سؤال ... ماله
من مجيب ... وهو يغلي في اتصال
ولماذا ينطفي احبابنا
قبل أن يستنصر الزيت الذبال

ثم ننسى الحزن بالحزن ومن
ياضياع الرد - ينسانا السؤال ؟ (٣٧)
حين تقرأ ذلك فانما تقرأ ذاتاً ماثلة تتضح روحاً حالية .

الابداع شيء يصدر عن الذهن المفكر بالذات ، ويتسم بلون المرآة التي تنعكس عليها معطيات الحالة الموحية بذلك الموقف المتصف بالتوتر والقلق والترقب لما قد يكون الأسوأ أو الأفضل حسبما يتوقعه المرء ، ولنا هنا أن نشير الى ماكان يضغط على أسعد عبدالرحمن من داخل ذاته ومن خارجها فأدى ما أدى في كتابه (الشهيد .. الشاهد) [٥] .

الابداع شيء مجسم محسوس صادر عن طبيعة الانسان ذاته - شيء صادر من روحه ، ومزاجه ، وتاريخه ، انه ينبع من ذات وجوده : وجوده الروحي ، في عمله ، الابداع (... ليس مسألة حسابية أو حرفية ، (... أنه أمر خاص به ، خاص بكل صاحب رؤية ، أمر النبرة الخاصة بالوسط ، تسبح فيه وتسيح فيه كل رؤية ، كل مجموعة مجتمعة من الأشخاص والأماكن والأشياء ...) (ص ١٢٨ ، نظرية الرواية في الأدب الانجليزي ، ترجمة / انجيل بطرس سمعان) .

ان نتيجة المبدع انما يمثل موضوع الحياة كلها . ففي أي لون من ألوان التعبير يعبر المبدع ، يكون قد جسد ذاته . انك تحس ذلك ، بل وتلمسه ، وأنت تقرأ لحافظ جميل الشاعر العراقي المعروف قوله في لبنان :

يا بلبل الأيك المفارق عشه
ها قد رجعت الى ظليل فنائه
فأصدح كعهدك أمس في جنباته
وامرح وناج هواك في أفيائه
نازعته الشوق القديم وطالما
نازعته الخفاق من أحشائه
وعرفت كيف تقيم بين ضلوعه
وعرفت كيف تنام في سودائه
(الديوان) .

أو اقرأ (أغنية قديمة للحب والحرية) نظمها الشاعر المقالح في ظل قصيدة قديمة للشاعرة فدوى طوقان :

مهما يطل ليلك ياموطني فيشتكي السفح ، وتبكي القمم

ويزرع الموت على أفقنا ... موتاً ، وتطوينا رياح العدم
وتنهش الأحزان أجفانه ... وينكفي في الحدقات الألم
فان لليل - غداً - آخر ... مهما ترامى حولنا وادلهم
(ستنجلي الغمرة ياموطني ... ويمسح الفجر غواشي الظلم)
(٣١، ص٤٣١)

(فالشاعر) ، على حد تعبير جورج غريب ، (يخط هنا قلبه وأعصابه ، وعينيه، يخط أمسه ، وغده) ، (١٢، ص٥٨) .

الشاعر المبدع ، أي شاعر ، والروائي المتمكن ، والناقد المجدد ، والفنان البارع، والصحفي النابه ، والعالم البحاثة ، وأضرابهم المبدعون في أي حقل من حقول الفكر والمعرفة ، هم أناسي يجتهدون كل في ميدانه من أجل تحقيق ذواتهم ، وعنها عبروا ويعبرون ، بأتقن طريقة أخاذة ، اذ أنه :

(لااهتداء بدون ذاتية وقدرة . . .
ولا ذاتية بدون قدرة واهتداء . . .
ولاقدرة بدون اهتداء وذاتية . . .) (١٢، ص١٨٤)

٤- للابداع آفاقه الفساح

يقال ان نقاد العرب القدامى خافوا من الابداع ، فقالوا ليس الابداع من مستلزمات جميع الشعراء ، فالشاعر يمكنه أن يكون مرموقاً في شعره دون أن يكون مبدعاً (١٢) ، ففي قول كهذا يكمن تهوين من قيمة الابداع وتوهين لعبقرية الانسان في العطاء .

ان العقول تستطيع أن تعلل الأشياء في مديات محدودة ، اما أعمال العباقرة والمبدعين ففوق منال العقول الاعتيادية والعادية .

وكثير من النابهين كانت لهم ف مفتتح عهدهم بالكتابة بدايات عكرة ومحاولات متعثرة ، لكنها بالمران تحولت الى شذرات ذهب وسيل متدفق . وما كان أن يتم هذا لهم لو لم تكن عندهم ملكة كامنة صقلتها فيهم أحداث الزمان وتطاحن الأشجان وروضتها معارك التجارب .

في مجال كمجال الابداع كثيراً ماتختلط التصورات الذاتية مع الآراء التقليدية ، مما انتهى ، في بعض الأحايين ، الى بروز أفكار خاطئة بشأن تفهم الابداع الانساني وبصدد المبدعين في حياة البشرية جمعاء ، فخلال تاريخ البشرية الفسيح انشغل

المفكرون بصياغة تصورات غامضة لتفسير تلك القوة التي يتفتح عنها العقل الانساني حينما - يجيش بالأفكار الخلاقة والاكتشافات ، والابتكارات ، والخواطر ، والخاطرات ... الخ

ارتبطت تلك التفسيرات بأسماء جمة لاحصر لها منها على سبيل المثال ، لا الحصر، افلاطون ، وكارلايل ، ولمبروزو ، ولامرتين ، وغوته ، وشكسبير ، ومن قدامى العرب والمسلمين ، ابن سينا ، والكندي ، وأبو بكر الرازي ، وأضرابهم كثير ، ومن المحدثين عدد لاحصر لهم ...

كان (كانت) Kant قد ذكر في كتابه (نقد الحكم) ان : (الابداع عملية طبيعية ، تخلق قوانينها الخاصة ، وأن فعل الابداع يخضع لقوانين من صنعه ، لايمكن التنبؤ بها ، ومن ثم فانه لايمكن تعليم الابداع تعليماً منظماً ... (٢٧، ص٣٣)) .

علم النفس ، وهو يعنى كثيراً بدراسة الابداع وأساليب قد صنف مراحل الابداع وأجملها على النحو التالي :

١- مرحلة الاعداد الذاتي	preparation
٢- مرحلة الاحتضان	incubation
٣- مرحلة الاشراف	illumination
٤- مرحلة التحقيق والانجاد	verification

ولاجدال في أن التلقائية في الابداع تتخلل مختلف المراحل الأربع المذكورة ، والعملية النفسية تتضمن سلسلة مستمرة من التفاعلات والرقائع المتتابعة التي يعتمد بعضها على بعض فتثير في النفس خواطرها وتستجمع قوى العقل المبدع فيعبر بأنسب مايمكن حسب مجال المبدع واهتمامه .

ولكن التلقائية لابد لها من أن ترفدها الارادة ، وان الابداع لايتجسد بدونها أي : (بالارادة الكاملة الواعية والجهد الموجه لاختيار المعادل الموضوعي لمشاعرنا الذاتية التي لاتصلح في مادتها الخام لكي تنبع منها القصيدة أو أي عمل فني) على حد تعبير ت . س . اليوت ، الذي وضع نظرية (المعادل الموضوعي) في النقد وقد اشتهرت نظريته هذه وذاع صيته وصيتها معاً بين النقاد .

هناك المعرفة بالحس والمشاهدة . وهناك المعرفة عن طريق استنباط النتائج من المقدمات : أي بواسطة العقل الاستدلالي ، وهناك العرفانيات التي تقوم على الحس والاستنباط والاستدلال . وثمة المعرفة المتأتية عن طريق البحث والتقصي . تلك الأنواع المعرفية المترتبة تتمازج في حسن الأداء بروية ودراية . وعنصر الابداع فيها

مضمون ، مع تفاوت في المراتب والدرجات . وهذا مكمن الاختلاف بين الناس في الحظوظ والصفات .

(الابداع هو ايجاد الشيء ولكن لاعلى مثال ،) على حد تعبير الدكتور يوسف مراد . ويضيف قوله :

(ومادة الابداع مستمدة من العالم الخارجي ومن الذكريات ولكن ليس الابداع مجرد محاكاة لشيء موجود واعادة بنائه ، وان تكن المحاكاة لاتخلو أبداً من عنصر الابداع ، بل هو الكشف عن علاقات ومتعلقات ووظائف جديدة ثم ابداع الصيغة الصالحة لتجسيم هذه العلاقات والمتعلقات لابراز هذه الوظائف ومنبع المبتدعات كلها هو الطبيعة غير أن المبدع لايكتفي بمحاكاة الطبيعة في شكل من أشكالها . بل يخلق شكلاً جديداً ، وذلك بمحاكاة أشكال مختلفة وبالتأليف بينها ، أي بين أهم نواحي هذه الأشكال . ولابد أن تكون هذه النواحي المستعارة من الأشكال القديمة قد اكتسبت دلالة جديدة في ذهن المبدع -٤٩ ، ص٢٧٢) .

ورأي الدكتور مراد المقتبس هنا يتسم بالرصانة العلمية ، وكان يمكن أن يكون أرصن لو أنه أضاف ان الابداع يمكث لفظاً مجرداً ، وان الاقتباس من مبتدعات الطبيعة يبقى ناقصاً بدون توفر مكونات العقل الصائغ بشكل جديد والمبدع بالفطرة والتكوين والصقل والمعزز بالازادة والتلقائية وحسن الخيال .

وما عد الابداع توسيعاً للآفاق ، الا لأنه يتجاوز ماهو مألوف ومستقر في تفكير الناس وسلوكهم ، ولأنه (ينتزع من أيدي الماضي الضيق الآفاق ، سلطانه وسيطرته(٤٩ ، ٢٧٢)) .

الالهام أهم عامل في الابداع . فالالهام يميز المبدعين فيما بينهم كفئة لها خصائصها . ولابد للالهام من بواعث ومن شروط ملائمة ، ولنا في قصص المخترعين والمبتكرين أمثلة شتى ومعين لاينضب . فابن سينا مثلاً يصف لنا كيف كان يواتيه الالهام بعد اخلاده الى الراحة التي تعقب عنده القلق والتوتر . و (مانسفيلد) ، الشاعر الانجليزي المعروف كتب قصيدته (المرأة تتكلم) بعد أن ظهرت له في منامه منقوشة بحروف بارزة على صفيحة مستطيلة من المعدن وما كان عليه الا أن ينقشها.

والشاعر الانجليزي المعروف الآخر ن كولدنج Coleridge يذكر بأنه قد غلبه النعاس في صباح يوم وهو يطالع ، ثم أفاق من نومه وأخذ يخط قصيدته المشهورة (قبلة خان) ، Kubla Khan، حتى وصل الى البيت الرابع والخمسين ، ثم خمدت فجأة نار الالهام فكف عن الكتابة وترك القصيدة ناقصة ولم يعد اليها قط .

ويذكر العالم بالرياضيات الفرنسي الشهير ، بوانكاريه Henri Poincare ، ان كثيراً من كشوفه الرياضية كانت تواتيه فجأة وهو يجتاز مثلاً أحد شوارع باريس ، وعند وضع قدمه على سلم العربة عندما يزمع القيام برحلة استجمام في الريف ، علماً أنه كان يفكر متوتراً في مسألة رياضية معينة .

الالهام ، كما يصفه الامام الغزالي ، (كالضوء من سراج الغيب يقع على قلب صاف لطيف فارغ) . فالالهام يصدر عن الشخص ولابد من تهيئة الأرضية التي تتيح له الاستنبات ، ولامناص من اشباع الذهن بكل مايدور حول المشكلة التي يبدع فيها العقل الانساني .

وان الابداع ومنه الالهام ، لابد من متممات لعل أهمها :

١- عوامل نفسية - انفعالية - وجدانية ،

٢-عوامل فكرية .

٣- عوامل بيئية .

٤- عوامل اعدادية - ارادية - تلقائية .

فالمعاني تشرق على العالم والشاعر اشراقاً فتأتي ابداعاً والهاماً وخوارق ، لذلك حاول علماء النفس المعنيون بالابداع تفسير هذا الفيض النفسي بالفاعلية اللاشعورية ، فقال (هوفدينغ) مثلاً ، (ان القسم الأعظم من عنصر تخيلنا يتجمع تحت عتبة اللاشعور ، فترتسم خطوط الصورة في العقل الباطن قبل أن تنبثق وتظهر، فهي ، اذن ، عملية شعورية لعمل لاشعوري .) ، (١٠، ص ٤٤٨) .

الواقع ان رأي (هوفدينغ) لايعكس الحقيقة جلها ان الابداع والالهام انما هما موهبتان شعوريتان تكدان الذهن وتضنيان الجسم فتقدمان آيات ابداعية انسانية لايجود بمثلها الا العقول المبدعة .

الاسقاطات الأدبية مثلاً ، يقسمها علماء النفس ، ومنهم ، موراي (٦١) ، صاحب احدى نظريات الشخصية ، قسمين :

١- اسقاطات تكميلية complementary projection وهي اسقاطات تدل على أن الأديب يدرك بيئته ويفهمها بطريقة يجعلها تتفق مع حاجاته وعواطفه ودفعاته الفطرية ونوازعه .

٢- اسقاطات الحاقية supplementary projections ، وفي هذه الحالة يخلع الأديب على الموضوعات والأشخاص في محيطه ، الصفات والهواجس والخصائص والأحاسيس التي تعتلج في ذاته والتي تساوره ، فيضفي عليها

من خياله ومن رغباته مايريد ، ومن ثم يلقي بها مجسمة الى خارج ذاته ، فيتلقاها الآخرون المتلقون على وفق أهوائهم ، ومن هنا يأتي التفسير المتفاوت في نقد الآثار الأدبية .

بحوث على نطاق واسع أجريت في مجال الابداع ، تناولت مختلف ضروبه . وقد أثارت الاهتمام بهذا الموضوع قرائح المبدعين ، وانتاجها أقصى مايمكن أن تبلغه عبقرية الانسان وموهبته عندما يريد أن يوظفها في ميدان العطاء .

ركز الباحثون في علم النفس ، ومنهم ، مثلاً ، ثرستون ، L.L. Thurston ، على طبيعة التفكير الابداعي وسبل التبصر ، التي تتسع آفاقها كلما كان التفكير أكثر خصوبة .

ونجد ، من جانب آخر ، باحثين آخرين ، ومنهم على سبيل المثال ، جلفورد J.P. Guilford ، قد أكدوا جوانب الاستدلال ، والتخطيط والتقويم في الابداع . (٦١، ص٣٥٢-٣٥٣) .

ان المبدعين من الأدباء والشعراء يكونون قد مروا ، ولاجدال ، بمراحل شاقة سبقت اعدادهم ، وكل ماقاموا به من مشاهدات وتأملات حول موضوع ابداعهم والهامهم أحياناً .

وان للالهام في الابداع وجوه ، ولكنه لايكفي لتفسير الابداع . ولكن هل هذا يمكن دون وجود وعي ذاتي على درجة عالية من التطور الملحوظ ؟

الابداع مفسر الحياة لوعي الانسان .

الابداع منمق الحياة لولع الانسان .

الابداع مقرب الحياة لشوق الانسان .

ليس الابداع الا وظيفة انسانية .

ليس الابداع الا وظيفة اجتماعية .

ليس الابداع الا وظيفة حياتية .

لو لم يكن الابداع كذلك لما بنيت الحضارات ، ولم لم يكن الابداع كذلك لما أرسيت المسؤوليات ، وقد تحسسها المبدعون فعدوها من صلب مهماتهم عبر القرون، وحفظها لهم التاريخ ، والأمثلة على هذا تستلزم أسفاراً . فانظر مثلاً من الماضي (انسان فاوست) لغوته :

يستحق الحياة والحرية

ذاك الذي صارع من أجل الحياة .

بيد أن محدودية امكاناته الذاتية تجعله يرفض الاستسلام فينتفض :

استيقظ صباحاً والرجفة تعتريني
وأكاد أبكي لأنني أعرف مسبقاً
أن اليوم سيمر صامتاً نحو آمالي ...

انه يتوق الى تحقيق الآمال بالطماح الموهوب. ولنا من القرن العشرين عمالقة في الأدب والشعر من أمثال (٣٦) ، أحمد شوقي وحافظ ابراهيم وطه حسين والعقاد ، ومصطفى صادق الرافعي ، وأبو القاسم الشابي ، وابراهيم طوقان ومحمد مهدي الجواهري .

فالابداع محيط يستغرق الانسان المبدع كله ن فيتفجر عقل الانسان معبراً بلسان القائل ، وهو الشاعر لطفي جعفر أمان :

(أنا انبعاث يتمطى من قرون الأعصر مزمجراً كالقدر)
انه نور العقل حين يضيء مشرقاً ، دون ريب .

٥- خاتمة

لاشك في أن التحليل العلمي ، مهما دق ، ومهما يرع ، يبقى متسائلاً كيف يميط اللثام تماماً عن حقيقة مختلف العوامل التي تساهم حقاً في تهيئة الجو الذي تنقدح فيه عناصر الابداع والكشف عن الكيفية التي تضطرم فيها أوابد شرر الالهام وومض انطلاقه في كل اتجاه .

الابداع ومعطياته الفذة لايواتي الا من ضرى (****) عليه نفسه وجعله دربته ، بعد أن تكون قد توفرت له أسباب الفطرة المجبولة بالوراثة .

فبالابداع يعلي الفرد من مقام قدره . يقول رسو في (مقال عن الفنون والعلوم):

(انه لمنظر جميل وجليل أن ترى الانسان يرفع نفسه من العدم بجهده الخاص ، ويبدد ، بنور عقله ، تلك الظلمات التي (لغته بها الطبيعة ، انه ليرفع نفسه فوق نفسه، وينفذ بروحه الى أطباق السماء وينطلق كالشمس بخطوات جبارة عبر الفضاء الشاسع للكون ، (٤٦، ص٦٢-٦٣) .

والسؤال الذي يمثل أمام الذهن الآن : هل للانسان المبدع أن تستحصف عرى فكره من غير قلق حافز أو توتر وافز ؟

القلق والابداع صنوان متواجشان ، وهما كأشد مايكونان حبكةً واتساقاً .

القلق يشير الى أي احساس يثير في نفس المرء شذرات الفن والجمال والتناسق فتستحيل انفعالات جياشة تلم بصاحبها المبدع .

فالقلق بهذا المعنى ينطوي على كل أحاسيس التيقظ والآلام والمشاعر غير المحدودة ، بيد أن النفس الهفهافة الشفافة تتحسسها فتحسها ، ومن ثم ترجع بها الى أحكام العقل ليصوغ منها درراً لها سلطان الاستئثار بجوامع الروح . وأن ذلك لقمين بأن يمكن المرء من :

١- أن يرفع نفسه بارادته فيتمايز بابداعه عن سواه .

٢- أن يخترق الانسان بعقله حجب البوارن وأن يسمو بذاته فوق مستوى العاديين من الناس .

٣- أن يتسامى بروحه الى آفاق هي بالنسبة الى غيره تعد مغاليق مطلسمة .

٤- أن يسمو الفرد بنور عقله وشكيمة ارادته فينشر نوره العقلي والروحي والذاتي والوجداني في جميع أرجاء هذا الوجود .

ولكن الشخص المبدع لاينبغي أن يغيب عن ذاته ، وأن ينأى عن واقعه ، بل لابد أن ينعطف الى داخل ذاته لكي يتملى ويدرك طبيعته وغايته .

والقلق والتوتر في كل ذلك لايعدوان كونهما نتيجة محتمة لما تمور به نفس الانسان موراً من أجل تحقيق ذاتها والتبصير تعج به بيئته من دواعي قصور عفوي أو متعمد ، والحياة حافلة بالسنن المحسوب بدقة ومنه ماهو مرتبك .

ولعل مشاعر القلق والأحساس به تنشأ عما ينتاب الذات من احساس بتهديد من نوع ما ، سواء كان التهديد هذا حقيقياً أم متصوراً .

وازاء ذلك يعمد الفرد الى استجاشة عناصر قواه الكامنة فيه .

فاقرأ مثلاً عن ذلك شعر الجواهري ، اذ يقول :

ولي نفسان : طائرة شعاعاً
وأخرى تستهين بما تلاقي
أقول لها وقد خلدت ولانت
أعيقي من يريدك أن تعاقي .

فحياة الانسان المبدع مهيأة لغير ماهي مهيأة لها حياة غير المبدعين ، وان كانوا جميعاً من جنس البشر .

المبدع يعمل ويسلك بفعل ماهو كامن فيه من طاقات ذاتية ينفرد بها عن غيره . والانسان المبدع ، فضلاً عن ذلك ، حري به أن يقوم باختياراته في مجالاته الابداعية

كفرد ، لأن التفردية لديه تمثل أحد جوانب شعور المرء بذاته لذلك (كان كافكا بارعاً في تحديد معالم الصورة المخيفة للناس الذين لايستعملون طاقاتهم الكامنة فيهم، مما يفقدهم بالتالي أحساسهم بهوية شخصياتهم كذوات لهم كيانهم) ، (٢٠، ص١٠٧) .

ثمة حالة من الشعور بالذات يصطلح على تسميتها بـ (الحالة الاستثنائية الخارقة). فهي استثنائية ذلك لأنها قلما يمر بها أناس كثيرون فيحسونها كخبرة نافعة في الحياة .

وهذه المرحلة أوضح ماتكون تجلياً عندما يلتقط المرء تبصراً مفاجئاً بمشكلة معينة - يلتقطها على حين غرة ، فتبدو له في ظاهرها كومضة وكأنها آتية اليه من مكان مجهول .

فكأن تلك الفكرة الومضة قد جاءت جواباً على سؤال كان المرء منذ أمد يكد ويسعى من أجل العثور عليه . فيتأتى ذلك بزوغاً للأفكار من مستويات شبه الشعور، يتأتى تبجساً كالهام مفاجئ .

ذلك هو مايعبر عنه أحياناً بأنه شعور فائق (متجاوزاً حدود الذات) كما نعته نيتشه . ويعبر عنه أيضاً بـ (الشعور المتسامي للذات) . self - transcending consciousness ، كما يطلق عليه في التقاليد الأخلاقية والروحية، ولكن (رولومـاي) ينعته بـ (الشعور الابداعي بالذات) creative consiousness of self (٢٠، ص١٤١) .

فالانسان يحقق ذاته عندما يتجاوز حدود ذاته الى آفاق أرحب ، وحياة الانسان في تحقيق ذاته مرتبط أوثق ارتباط ، اذ أن الحياة في ديناميتها (منهمكة في حالتي تخليد ذاتها وفي تخطي معوقاتها) ، هذا ماقالته سيمون دي بفوار Simon de Beavvior ، في كتابها المعنون : (في الأخلاق) ، وقد أضافت :

(ان وجود الانسان في الحياة يصبح لافرق بينه وبين حياة البلادة والخمول المنافي للعقل)

مالم يبدع الانسان تحقيقاً لوظيفة وجوده . لهذا فان الرتابة تخنق صوت الابداع وتبلد العقل ، مما يسدل غلالة على قدرة تحقيق الذات .

فتحقيق الذات المتأتي عن طريق الابداع :

(يجعل المرء يحس وكأنه في لحظة من لحظات حياته قد ارتقى قمة جبل فراح يسرح الطرف في أرجاء حياته من ذلك الأفق الفسيح وهو يشخص ببصره صوب اللانهاية .) ، (٢٠، ص ١٤٣) .

فالابداع تعرض لنا الحقيقة نفسهاأمام انظارناناصعة غير منغلقة على ذاتها ، تتبدى لنا ذاتاً وقد تولدت من ذات مبدعها .

فأنت مثلاً تقرأ ابداعاً للحياة المتنامية في قصيدة ادناسنت فنسنت ميلاي Edna st. Vincent Millary ، بعنوان : الانبعاث Renaxence وفيها تقول :

ها أنا ذي من تراب قد خلقت
وباسم هذي الأرض قد هتفت
فما ذاك الهتاف الا من صوت البشر
كان ميتاً فأحيته قوة القدر (٢٠ ، ص ١٦٢) .

ففي ذلك ترى (الجدوى من حياة الانسان) ، على حد تعبير أرنست همنغواي Ernest Hemingway .

القلق في مرحلته الأولى (القلق الأولي) ، هو الصورة التي يستشعر بها المرء التوتر كخبرة موقظة لكوامن ذاتية وجدانية .

وعندما يختار المرء بكامل وعيه الشعوري أن يبدع ، فان شيئين اثنين يترتبان على ذلك :

أولهما : ان مسؤوليته ازاء ذاته تكتسب معنى جديداً . فهو يتقبل المسؤولية نحو ذاته ليس من منطلق شيء مفروض عليه وكأنه ملزم به ، وبه مقيد ، وانما بوصفه شيئاً اختاره هو بنفسه ومن تلقاء ذاته .

وثاني ذينك الشيئين في هذا السياق ، هو أن الترويض الذي يتم استقاؤه من خارج الذات ، أي من البيئة بعامة ، يتحول بدوره الى ترويض ذاتي self - discipline .

وكل ذلك ينصهر في سياق ضمير ذاتي يعبر عنه بـ (الضمير المبدع) ، مستهدفاً تحقيق علاقة ابداعية أو تحقيق عمل يسعى اليه بكامل وعيه مضمناً اياه قدرته الأخلاقية والابداعية .

لاريب في أن تأكيدنا على وعي الذات وادراكها ينطوي على النشاط كتعبير عن الحيوية ، وتكامل الذات ، وهذا مايعبر عنه في المصطلح السيكولوجي الخاص بمجال الابداع بـ (الأنا الفعال) .

فالأنا يجب أن تجرب ذاتها في سياق التفاعل وفي اطار كينونتها لتكشف عن مقدار ابداعها .

لكن هذه المواهب تتأتى وثمنها باهظ أبداً ، ثمنها القلق والتأزمات ، بقدر ماتكون هي أصلاً وليدة القلق والتوترات .

الابداع ولادة للذات ، وولادة الذات ليست ببسيطة ولا هي بالأمر اليسير .

الشعور بالذات انما هو (العلامة الفريدة للانسان) ، على حد تعبير (رولو مامي(٢٠)) .

انك لتقرأ فيما يبدعه المبدعون حشداً من النظريات ، والرؤى ، والرموز ، والصور الفكرية والحسية ، والأفكار ، والمعاني المتلاحمة ، كلها تحتويها ابداعات ما أروع روح الأداء في مضامينها .

فاقرأ للجواهري مثلاً :

كلما أوغلت في حلمي
خلتني أهوى على صنم
يستمد الوحي
من ألمي
ويبث الروح
في قلمي
آه ياأحبولة الفكر ..
كم هفا طير ولم يطر .

بل اقرأ أي أثر روائي أو قصصي ، ان رغبت ، أو أي عمل شعري ، ان انت شئت، ثم تمل ماانت قارئه على مر العصور وكر الدهور ، سواء في تراثنا العربي والاسلامي الخالد ، أم في العطاء الانساني التالد ، فماذا تجد ؟

تجد نفسك مبهوراً وأنت في محراب عقل انساني شيد فابدع ايما ابداع :

عقل عني بالحقيقة فبرع
وذوق دلنا على ماهو جميل فأجاد
وحس أخلاقي اهتم بواجبه ازاء الانسانية والحياة فأبدع .

فمن أين ينبع كل ذلك وينبجس ؟

أنه يتأتى رفاقاً من عقل الانسان الذي قال فيه الكسيس كاريل في كتابه : الانسان ذلك المجهول ، (... ان الانسان يعلو كل شيء في الدنيا ، فاذا انحط وتدهور ، فان احتمال الحضارة ، بل حتى عظمة الدنيا المادية ، لن تلبث أن تزول وتتلاشى .)

المراجع

أولاً : المراجع العربية

١- أحمد الصافي النجفي : الديوان - بيروت .
٢- أحمد عكاشة : الطب النفسي المعاصر / الانجلو المصرية - القاهرة (١٩٨٩).
٣- أحمد فائق : التحليل النفسي بين العلم والفلسفة / الانجلو المصرية - بلا تاريخ.
٤- أحمد محمد عبدالخالق : قلق الموت / عالم المعرفة / الكويت (١٩٨٧) .
٥- أسعد عبدالرحمن : الشهيد ...الشاهد (ناجي العلي) / عمان - الأردن (١٩٩٢) .
٦- الكسيس كاريل : الانسان ذلك المجهول / ترجمة شفيق أسعد فريد / مكتبة المعارف - بيروت (١٩٨٠) .
٧- انطوني ستور : فن العلاج النفسي / ترجمة د. لطفي فطيم / دار الطليعة للنشر والتوزيع ، بيروت (١٩٩٢) .
٨- أوتو فينخل : التحليل النفسي (٣) أجزاء / ترجمة صلاح مخيمر وعبده ميخائيل رزق / الانجلو المصرية / القاهرة (١٩٦٩) .
٩- أيفوركون : البحث عن الذات / ترجمة غسان نصر ، منشورات دار معد للنشر والتوزيع / دمشق (١٩٩٢) .
١٠- بدرشاكر السياب : الديوان / دار العودة / بيروت .
١١- جميل صليبا : علم النفس / دار الكتاب اللبناني / بيروت (١٩٧٢) .
١٢- جورج غريب : لحظات جمالية / دار الثقافة / بيروت (١٩٨٣) .
١٣- جوزيف وودكرتش : الانسان الحديث / ترجمة بكر عباس/ دار الكتاب العربي / بيروت (١٩٦٥) .
١٤- حسن أحمد عيسى : الابداع في الفن والعلم / عالم المعرفة / الكويت (١٩٧٩) .
١٥- حسين مرسي راغب أحمد محمد عبدالله : مقدمة في السلوك الانساني القاهرة / بلا تاريخ .
١٦- حسني فريز : العطر والتراب / دار ابن رشد للنشر والتوزيع / عمان الأردن / بلا تاريخ .
١٧- ريتشارد شاحت : الاغتراب / ترجمة كامل يوسف حسين / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / القاهرة / ١٩٨٠ .

١٨- ريكان ابراهيم : نقد الشعر في المنظور النفسي / دار الشؤون الثقافية العامة/ بغداد ١٩٨٩
١٩- ريكس نايت ومرجريت نايت : المدخل إلى علم النفس الحديث / ترجمة عبده علي الجسماني / المؤسسة العربة للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٩٢ .
٢٠- رولو ماي : البحث عن الذات : دراسة نفسية تحليلية / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت ١٩٩٣ .
٢١- رولان داليير : طريقة التحليل النفسي / ترجمة حافظ الجمالي / منشورات المكتبة العالمية / بغداد / ١٩٨٤ .
٢٢- سامي الدروبي / علم النفس والأدب / دار المعارف بمصر / ١٩٧١ .
٢٣- شارل بودوان : علم النفس المركّب : تفسير أعمال يونج / ترجمة سامي علاّم / دار الغربال / بيروت ١٩٩٢ .
٢٤ شفيقره كله : خوارق الإبداع / ترجة سلمان يعقوب العبيدي / الدار الوطنية للتوزيع / بغداد ١٩٩٠
٢٥- د ي . شنايدر : التحليل النفسي والفن / ترجمة يوسف عبدالمسيح ثروة دار الحرية للطباعة / بغداد / ١٩٨٤ .
٢٦- عبدالحليم محمود السيد : الإبداع والشخصية : دراسة سيكولوجية / دار المعارف بمصر ١٩٧١ .
٢٧- عبدالستار إبراهيم / الإبداع / وكالة المطبوعات / الكويت ١٩٧٨.
٢٨- عبدالتار ابراهيم : العلاج النفسي الحديث / مكتبة مدبولي / القاهرة / ١٩٨٣.
٢٩- عبد علي الجسماني : علم النفس وتطبيقاته التربوية والاجتماعية / دار الفكر العربي / بغداد ١٩٨٤.
٣٠- عبدالعزيز المقالح : الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعرالمعاصر في اليمن / دار العودة / بيروت ١٩٧٤.
٣١- عبدالعزيز المقالح : الديوان / دارالعودة / بيروت ١٩٨٦.
٣٢- عبدالعزيز المقالح ك ثرثرات في شتاء الأدب العربي / دار العودة / بيروت ١٩٨٣.
٣٣- عبدالعزيز المقالح : يوميات يمانية في الأدب والفن / دار العودة / بلا تاريخ.
٣٤- عبدالعزيز المقالح : من البيت الى القصيدة : دراسة في شعر اليمن الجديد / دار الآداب بيروت ١٩٨٣.

٣٥- عبدالعزيز المقالح : أصوات من الزمن الجديد / دار العودة بيروت ١٩٨٠.
٣٦- عبدالعزيز المقالح ك عمالقة عند مطلع القرن / دار الآداب / بيروت ١٩٨٤.
٣٧- عبدالله البردوني : السفر الى اليام الخضر / ديوان شعر / دار الحداثة / بيروت / بلا تاريخ.
٣٨- عبدالله رضوان : أسئلة الرواية الأردنية / منشورات وزارة الثقافة / عمان / الأردن /١٩٩١.
٣٩- عبدالوهاب البياتي : الديوان / دار العودة / بيروت .
٤٠- عزالدين اسماعيل ك التفسير النفسي للأدب / دارالعودة / بيروت ١٩٨١.
٤١- عزالدين عبدالواحد : القلق مرض العصر / القاهرة / بلا تاريخ.
٤٢- علي كمال : النفس / المؤسسة العربية للنشر والتوزيع .
٤٣- عيسى المناعوري : الديوان الأخير.
٤٤- لويس كامل مليكه : علم النفس الأكلينيكي / الهيئة المصرية للكتاب / ١٩٨٥.
٤٥- فدوى طوقان : الديوان / دار العودة / بيروت.
٤٦- ممود رجب : الأغتراب / منشأة المعارف بمصر ١٩٧٨.
٤٧- مصطفى سويف ك الأسس النفسية للأبداع ، في الشعر خاصة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠.
٤٨- ميخائيل ابراهيم أسعد : علم الاضطرابات السلوكية / دمشق ١٩٨٦.
٤٩- يوسف مراد : مبادىء علم النفس العام / دارالمعارف بمصر ١٩٦٩.

ثانياً : المراجع الأنجليزية

50- Chaplin, J. P., Adictionary of Psychology, Rinchault, New York . (1980).
51- Drever 3. J. Dictionary of psychology , Penguin Book . London , 1970 .
52- Edwin . Irwin , Arts and the Man . An Introduction to Aesthesties , Mentor Books , New York (1951) .
53- Hall , Elizabeth , Psychology To- day . Random House , New York . (1983) .
54- Jung , C.G., Psychology and Literature in creative process , university of California (1951) .
55- Jung , C.G., Psychological Types , methucen , tordon , (1953) .

56- Menminger , Karl , Theory of Psydwanalytic technique , Busic Books , New York , (1963) .
57- Portnoo, A.A., and Fedotoo, D.D. Psychiatry , Mir Picblishers , (1969) .
58- Rathus , Spencer A., Psychology , Holt , Rinehalt , New York (1981) .
59- Richards , I.A., Practical Criticism , Routledge and Kegan Paul , London, (1963) .
60- Rogers , Carl , Towards a theory of creativity , in P.E. Vernon , (ed.) creativity , oenguin Books, London, (1970) .
61- Engler , Barbara , Personality Theoris , Hanghton , Mufflin co ., U.S.A. (1980) .

الهوامش

*- شدائد وصعائب.
**- تشير الأرقام الى المراجع المثبتة في نهاية البحث.
***- دهارس الحياة : مصائبها وأوشازها : دواهيها ومتاعبها.
****- ضرّى عليه نفسه : وطّن عليه النفس بالتدريب والمران.
١- نيّأ الأمر : لم يحكمه.

الاستشراق والدراسات الجغرافية عند المسلمين

بقلم : الدكتور عبدالقهار داوود العاني
الاستاذ في كلية التربيـــــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد حث الاسلام على السياحة في الأرض والتفكر في خلق الله تعالى ليكون ذلك سبباً في العلم وزيادة الايمان واليقين ، قال الله تعالى : ﴿ قل سيروا في الأرض فأنظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء الآخرة إن الله على كل شيء قدير ﴾[1] وقال تعالى : ﴿ التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله ﴾[2] وقال تعالى : ﴿ ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾[3] .

ولهذا وجدنا المسلمين ومنهم العلماء جابوا الأرض وزاروا البلدان ووصفوها رغم ضعف واسطة النقل والمخاطر التي يواجهونها في اسفارهم مما هو مدوّن في كتب الرحالة.

يقول "لوبون" (ريادات العرب الجغرافية):

كان العرب من السياح المقاديم في كل وقت وكانوا لا يخشون المساوف والمراحل واليوم أيضاً نراهم يأتون مكة من أقصى البقاع ويجوبون بقوافلهم داخل أفريقية كأمر بسيط فيصادفهم فيها الأوربيون الذين لا يبلغونها إلاّ بشق الأنفس.

وكان للعرب منذ السنين الأولى من قيام دولتهم علائق تجارية بما كان الأوربيون يشكون في وجوده من البلدان كالصين وبعض البقاع الروسية ومجاهل أفريقية ...الخ وممن اشتهر في السياحة وتدوين أحوال البلدان الناصر سليمان في سياحته لبلاد الصين فقد أبحر سليمان من مرفأ سيراف الواقع على الخليج العربي حيث كانت تكثر المراكب الصينية وجاوز المحيط الهندي وبلغ شواطىء بلاد الصين وكتب رحلته في سنة ٨٥١م ثم أكمل أحد ابناء وطنه أبو زيد كتاب هذه الرحلة في سنة ٨٨٠م

ةأضاف إليها معارف أخذها من عرب زاروا بلاد الصين وكتاب سليمان الذي نقل الى اللغة الفرنسية في أوائل القرن الأخير هو أول مؤلف بشّر في بلاد الغرب عن الصين.

واذا كان سليمان باحثاً عادياً فغير ذلك شأن المسعودي[٤] الشهير الذي ولد ببغداد في أواخر القرن التاسع من الميلاد فقد قضى المسعودي خمساً وعشرين سنة من حياته في الطواف في مملكة الخلفاء الواسعة وفي المماليك المجاورة لها كبلاد الهند وقيد ما شاهده في تأليفه الكثيرة المهمة التي نعدّ "مروج الذهب" أشهرها قال المؤرخ العربي العلامة ابن خلدون الذي ذكرناه غير مرة والذي ظهر بعد المسعودي باربعمائة سنة مايأتي:-

" فأما ذكر احوال العامة للافاق والاجيال والامصار فهو أس للمؤرخ تبنى عليه أكثر مقاصده وتتبين به أخباره وقد كان الناس يفردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الأمم والآفاق لعهده في عصر الثلاثين والثلثمائة (٩٤١م) غرباً وشرقاً وذكر نحلهم وعوائدهم ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرّق شعوب العرب والعجم فصار أماماً للمؤرخين يرجعون اليه واصلاً يعولون في تحقيق الكثير من اخبارهم ....".

وقد تقدم هذا العلم وتابع فيه العلماء جهودهم حيث ظهر ابن حوقل حيث يقول : "قد عملت كتابي هذا بصفة اشكال الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الاسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة اليها وقد جعلت لكل قطعة افردتها تصويراً وشكلاً يحكي موضوع ذلك الأقليم ثم ذكرت ما يحيط به من الأماكن والبقاع وما في اضعافها من المدن والاقصاع وما لها من القوانين والارتفاع وما فيها من الأنهار والبحار وما يحتاج الى معرفته من جوامل ما يشتمل عليه ذلك الأقاليم من وجوه الاموال والجبايات والاعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيه من المجالب والتجارات ، إذ ذلك علم يتفرد به الملوك والساسة وأهل المروءات والسادة من جميع الطبقات".

ومثل هذا يصدق على البيروتي الذي رافق السلطان محمود الغزيوي في حملته على الهند سنة ١٠٠٠م ونشر ماشاهده في بلاد السند وشمال الهند وحاول البيروتي ان يصحح خريطة تلك البلاد مستنداً الى حسابه الفلكي.

وكذلك ابوالحسن الفلكي وابن بطوطة الذي بدأ بسياحته سنة ١٣٢٥م وبلغت سياحته أربعاً وعشرين سنة مسافراً من مدينة طنجة المراكشية ومجولاً في أفريقية

ومصر وفلسطين والعراق وشمال جزيرة العرب الى مكة وفي روسية الجنوبية والقسطنطينية ... الخ والذي ذهب الى بلاد الهند ماراً من بخارى وخراسان وقندهار فبلغ مدينة دهامي التي كانت من العواصم الاسلامية والتي أوفده سلطانها الىعاهل الصين فأنتهى الى بلاد الصين بحراً وقد زار في طريقه الى الصين سيلان وسومطرة وجاوة ووصل الى المدينة التي تعرف ببكين في الوقت الحاضر ثم عاد الى وطنه بطريق البحر.

التقدم الذي حققه العرب في الجغرافية :

ولقد حقق علماء المسلمين تقدماً كبيراً في علم الجغرافية مما يشهد له ما دونوه في كتبهم وما وصلوا إليه من حقائق وما صححوه من قضايا عند "بطليموس" وغيره وما توصل إليه اليونان قبلهم وهكذا نجد "لوبون" يلخص ذلك فيقول :-

كان من نتائج ريادات العرب ومعارفهم الفلكية التي ذكرتها ان اتفق لعلم الجغرافية تقدم مهم ، ولا غرو فالعرب الذين اتخذوا في البداءة علماء اليونان ولا سيما "بطليموس" ادلاءهم في علم الجغرافية لم يلبثوا أن فارقوا اساتذتهم فيه على حسب عادتهم.

كانت مواضع المدن لكثيرة التي عينها "بطليموس" تعييناً جغرافياً غير مطابقة ... للحقيقة تماماً وبلغ مقدار غلطة في تعيين طولالبحر المتوسط وحده أربعمائة فرسخ.

ويكفي أن نقابل بين الأمكنة التي عينها والأمكنة التي عينها العرب ليظهر لنا مقدار التقدم الذي تم على يد العرب فهذه المقابلة تدل على أن مقدار العرض الذي حققه العرب يقرب من الصحة مما لا يزيد على بضع دقائق وان خطأ الأفارقة بلغ درجات كثيرة. حقاً ان أغاليط الاغارقة في تعيين الطول كانت فاحشة في بعض الأحيان ومنها أن غلط بطليموس الذي أتخذ الاسكندرية مبدأ للطول في طول طنجة نحو ١٨ درجة فجعله ٥٣ درجة و ٣٠ دقيقة بدلاً من ٣٥ درجة و ٤١ دقيقة ومنها ان جعل بطليموس في تقاويمه طول المحور الكبير للبحر المتوسط الممتد من طنجة الى طرابلس الشام تسع عشرة درجة زيادة على الحقيقة أي ما يعادل أربعمئة فرسخ تقريباًمع ان غلط تقاويم العرب فيه أقل من درجة واحدة .

وكتب العرب التي أنتهت إلينا في علم الجغرافية مهمة للغاية وكان بعضها اساساً لدراسة هذا العلم في أوربة قروناً كثيرة.

ويذكر من الجغرافيين النضر البصري الذي ألف كتابه سنة ٧٤٠م والاصطخري في كتابه الأقاليم أواسط القرن التاسع من الميلاد والمسعودي والمقدسي ٩٨٥م. واشهر جغرافي العرب هو الأدريسي ومن كتب الأدريسي التي ترجمت الى اللاتينية تعلمت أوروبة علم الجغرافية في القرون الوسطى. ولد الأدريسي في الأندلس ثم ساقت الأدريسي مغامرات كثيرة الى بلاط ملك صقلية "روجر" بعد أن استولى النورمان عليها بزمن قصير. ولما كانت سنة ١١٥٤م ألف الأدريسي كتابه الجغرافي العظيم مشتملاً على ما قيده المتقدمون في علم الجغرافية وعلى ما رواه عن السياح من المعارف الكثيرة وعلى عدة خرائط فاقتصرت أوربة على نسخة بدناءة مدة ثلاثة قرون.

وخريطة الأدريسي التي نشرت صورتها والتي أشتملت على منابع النيل والبحيرات الاستوائية أي على هذه الاماكن التي لم يكتشفها الأوربيون إلا في العصر الحاضر أكثر خرائطه طرافة فهي تثبت أن معارف العرب في جغرافية أفريقية أعظم مما ظن زمناً طويلاً.

وأذكر من جغرافي العرب القزويني وياقوت الحموي اللذين عاشا في القرن الثالث عشر من الميلاد وان كتاب هذا الأخير معجم جغرافي حافل بوثائق عن جميع البلدان التي تتألف منها دولة الخلافة. وعرف صاحب حماه وابو الفداء (١٣٧١-١٣٣١م) بأنه من علماء الجغرافية أيضاً. ويحتاج احصاء أهم جغرافي العرب وما ألفوا من الكتب الى بيان طويل فقد ذكر أبوالفداء وحده أسماء ستين عالماً جغرافياً من الذين ظهروا قبله[٥] .

ويذكر ما يكمن في نفوس بعض الغربيين من حقد موروث وكراهية للعرب والمسلمين ما جعلهم ينكرون فضل العرب في الجغرافية وغيرها وانما يهدفون في ذلك الى جعل المسلمين يشعرون بعدم الأصالة العلمية في تاريخهم ويبغون من ذلك الى التأكيد على تبعية الشرق الأسلامي في كل شأن فيقول:-

وتكفي الخلاصة السابقة لا ثبات شأنهم مع ذلك ولولا أصرار الأوربين الخاص على مبتسراتهم الموروثة التي لا تزال باقية حيال الاسلام لتعذر ايضاح السبب في انكار علماء افاضل في الجغرافية كمسيو "فيفيان دوسان مارتن" لذلك الشأن ومع ذلك يكفي ماأتي به العرب من عمل كبير لأثبات قيمتهم[٦] .

ويوضح ثمرات علماء المسلمين مما لم يصله العلماء من أقوام آخرين لشاهد على فضلهم "فالعرب هم الذين انتهوا الى معارف فلكية مضبوطة من الناحية العلمية عدت

أول - اساس للخرائط فصححوا أغاليط اليونان العظيمة في المواضع والعرب من ناحية الريادة هم الذين نشروا رحلات عن بقاع العالم التي كان يشك الأوربيون في وجودها فضلاً عن عدم وصولها إليها العرب من ناحية الدب الجغرافي هم الذين نشروا كتباً قامت مقام الكتب التي ألفت قبلها فأقتصرت أمم الغرب على استنساخها قروناً كثيرة"[٧] .

المستشرقون الروس والدراسات الجغرافية:

لقد ابدى المستشرقون الروس اهتماماً ظاهراً في الدراسات الجغرافية خاصة كما كان لهم اهتمام ظاهر في جميع المخطوطات ونشرها وقد اكتشفوا مخطوطات نادرة في العلوم الجغرافية وغيرها فمن تلك المخطوطات "مخطوطة فريدة للجغرافي العربي اليعقوبي يرجع تاريخها الى القرن التاسع الميلادي وهي نسخة وحيدة معروفة حتى الآن"[٨] .

ولقد كان لهم نشاط علمي في الدراسات الجغرافية حيث انشأ البارون (روزن) مدرسة استشراق جديدة في روسيا "وقد كرّس هذا المستشرق الكبير أبحاثه عن البكري عالم الجغرافية العربي وكذلك الرحالة المعروف ابن فضلان"[٩] .

المستشرقون الروس والدرسات الاسلامية :

البارون (روزن) المستشرق الروسي والجغرافية وغيره:

لقد أبدى الروس اهتماماً ظاهراً في الدراسات الجغرافية خاصة بعد أن كان لهم اهتمام ظاهر في جميع المخطوطات العربية ونشرها (الأمر الذي ترتب عليه اكتشاف مخطوطات نادرة نذكر منها اكتشاف مخطوطة فريدة للجغرافي العربي اليعقوبي يرجع تأليفها الى القرن التاسع وهي نسخة وحيدة معروفة حتى الآن) [١٠] .

وفي نهاية القرن التاسع عشر بدأ البارون (روزن) نشاطه العلمي مؤسساً لمدرسة استشراق جديدة في روسيا ، وقد كرّس هذا المستشرق الكبير أبحاثه عن البكري عالم الجغرافيا العربي وكذلك الرحالة المعروف أبن فضلان[١١] .

ولم يصدر عنهم في ظل النظام الجديد البلشفي فيما يخص الاسلام إلا ما أصدره (بارنولد) ففي (مجال الدراسات عن تاريخ العالم العربي واقتصادياته امتازت السنوات العشرينيات من هذا القرن بصدور ثلاثة مؤلفات للأكاديمي (بارنولد) تحمل عناوين (الاسلام) و (الثقافة الاسلامية) و (العالم الاسلامي) [١٢] . كما وضع (بارنولد) عدة

أبحاث درس فيها المرحلة التاريخية التي رافقت ظهور الاسلام في شبه الجزيرة العربية.

وممن لهم اهتمام بما يتعلق بالاسلام والمسلمين "بيليايف" و "ياكوبوفسكي" حيث ألف بيليايف:-

١- العرب والاسلام .

٢- الخلافة العربية.

وكتب (ياكوبوفسكي) بحوثاً تناولت موضوع الاتصالات بين الشعوب السلافية والعالم العربي .

وكذا كتب المستشرق الروسي المعروف "فليشتنسكي" كتابه (النهضة الاسلامية) الذي يبين فيه ان حركة النهضة الاسلامية في نهاية القرون الوسطى مرت بمراحل متشابهة لحركة النهضةالأوروبية وان هناك تشابهاً ملحوظاً في المعالم التي تميز تطور الثقافة العربية والثقافات الأخرى في تلك المرحلة التاريخية. وقد ذكر (فومتشوف) اسماء بعض المستشرقين الكبار أمثال (يوشمانوف) الذي أنجز من الأعمال العلمية الكبيرة في مجال دراسة اللغات السامية والعربية بوجه خاص.

استخدام البوصلة في الملاحة:

لو استقينا علوم المسلمين وأطلعنا على كل المخطوطات العربية لوجدنا للمسلمين فضلاً عضيماً في مجالات علمية متعددة ورغم ان البوصلة على ما يذكر من اختراع الصينيين نكن الثابت ان العرب أول من استخدم تلك البوصلة في الملاحة ، يقول "لوبون"(١٥) "البوصلة من اختراع الصينيين ولكنه لم يقم دليل على استخدامهم لها في الملاحة وكان الصينيون من ضعاف الملاحين ولم يبتعدوا في أسفارهم البحرية عن الشواطىء فكانت البوصلة قليلة النفع لهم.

وغير ذلك كان شان العرب الذين هم من أعاظم الملاحين والذين كانت صلاتهم ببلاد الصين الواسعة كثيرة أيام شك الأوربيون في وجودها فكان من الراجح ان يكون العرب أول من استخدم البوصلة في الملاحة ولكن هذا لا يخرج عن حد الافتراض الذي لا يجوز الاصرار عليه لعدم قيامه على دليل.

وانما الذي فيه هو أن الأوربيين أخذوا هذا الأختراع المهم عن العرب الذي كانوا وحدهم ذوي صلات بالصين والذين كانوا وحدهم قادرين على اطلاع الغرب عليه ، لهذا السبب ومع ذلك فقد مرّ بعض الزمن على الأوربيين قبل ادراك فائدته فالأوربيون لم يستخدموه قبل القرن الثالث عشر الميلادي مع أن الأدريسي الذي تكلمنا عنه في أواسط القرن الثاني عشر من الميلاد ذكره على انه كثير الشويع بين بني قومه.

الهوامش

١- العنكبوت : الآية ٢٠.
٢- التوبة : الآية ١١٢.
٣- آل عمران : الآية ١٩٠-١٩١.
٤- وسمى سارتن النصف الأول من القرن العاشر باسم المسعودي المؤرخ والجغرافي "بلينوس العرب" والنصف الثاني باسم ابي الوفاء الفلكي الرياضي. وكان هذا القرن عصر نشاط فلسفي عظيم وكان امام فلاسفة العصر الفارابي(العالم الغربي ص ٦٤).
٥- لوبون ، ص٤٦-٤٧١.
٦ و ٧- المصدر السابق ، ص٤٧١.
٨- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية / محاضرات ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلامية / جامعة بيروت العربية/ ص٢١.
٩- المصدر السابق ، ص٢٤.
١٠- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوربية / محاضرات ألقيت على طلبة دبلوم الدراسات العربية والاسلامية / جامعة بيروت العربية/ ص٢١ (الدراسات العربية الاسلامية الاتحاد السوفيتي للاستاذ فلاديمير فومتشوف).
١١- المصدر السابق ص٢٤.
١٢- ف.ف. بارتولد "عالم الاسلام" بطرسغراد ١٩٢٢.
١٣- ي.أ. بيليايف (العرب والاسلام والخطة العربية) ، وسكو ١٩٦٥.
١٤- ياكوبوفسكي (ابن مسكويه عن حملة الروسي في يرصنع٩٣٢-٩٤٣/٢٤٤ لينغراد ١٩٢٦.
١٥-لوبون ، ص٤٨٣-٤٨٤.

مراجع البحث

١- القرآن الكريم .

٢- مختصر ابن كثير - محمد علي الصابوني / الرياض.

٣- تفسير البضاوي.

٤- فتح الباري في شرح صحيح البخاري.

٥- شرح صحيح مسلم للنووي .

٦- سنن أبي داود.

٧- أحكام القرآن - للامام القرطبي والمالكي.

المصـــــادر

١- اعجاز القرآن - مصطفى صادق الرافعي.

٢- مناهج الأدلة لأبن رشد.

٣- الدراسات العربية والاسلامية في بعض البلاد الأوروبيـة / جامعـة بـيروت العربيـة، طبعت في دار الأحد (البحيري أخوان) بيروت.

٤- نظرات استشراقية في الاسلام - محمد غلاب (دار الكتاب - القاهرة).

٥- موسوعة المستشرقين ، د. عبدالرحمن بدوي.

٦- القرآن - محمد صبيح (ط.مصر ١٩٣٩).

٧- العقيدة والشريعة في الاسلام ، يوسف موسى وزميله (ط. مصر ١٩٤٨).

٨- مذاهب التفسير الاسلامي - كولد تسيهر.

٩- فجر الاسلام ، أحمد أمين.

١٠- التفسير والمفسرون ، محمد حسين الذهبي (ط.دار الكتب الحديثة / القاهرة).

١١- مناهج المستشرقين - المنظمة العربية للتربية والعلوم / الرياض.

١٢- الشعر والشعراء - لأبن قتيبة.

١٣- اسلاميات العقاد.

١٤- الوحي المحمدي - محمد رشيد رضا.

١٥- الاسلام والرأسمالية / مكسيم رورنسون / ترجمة نزيه الحكيم / دار الطليعة / بيروت ١٩٦٨.
١٦- علوم الحديث - د. عبدالكريم زيدان ، د. عبدالقهار داود العاني / مطبعة جامعة بغداد ١٩٨١.
١٧- الاسلام في غزوة جديدة للفكر الانساني - انور الجندي / المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية / القاهرة - دار الكتاب / ١٣٨٤هـ ، ١٩٦٤م.
١٨- حاضر العالم الاسلامي - تبور استرارد / ترجمة عجاج نويهض / تقديم وتعليق المير شكيب أرسلان / دار الفكر - بيروت.
١٩- العالم العربي / المؤلفة الأمريكية الجنسية - العربية الأصل - د. نجلاء عزالدين الدحاني / تقديم وليم ارنست هوكنج / تصدير حسن جلال بوطرسي / عيسى البابي الحلبي وشركاه / القاهرة / مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
٢٠- حضارة العرب - د. غةستاف لوبون / ترجمة عادل زعيتر / نشر عيسى البابي الحلبي وشركاه.
٢١- الموافقات للامام الشاطبي .
٢٢- خلاصة تاريخ الأندلس / للأمير شكيب أرسلان.
٢٣- المستشرقون - د. نجيب عقيقي.
٢٤- الاستشراق والدراسات الاسلامية - د. عبدالقهار داود العاني .
٢٥- دراسات في علوم القرآن - د. عبدالقهار داود العاني.
٢٦- الاستشراق أهدافه وآثاره / المؤتمر العلمي للأستشراق / كلية الفقه / جامعة المستنصرية / بغداد ١٩٨٦.
٢٧- التبشير والاستعمار - عمر فروخ ، ومصطفى الخالدي.
٢٨- الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي.
٢٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين / ابو الحسن علي الحسن الندوي.
٣٠- السنّة ومكانتها في التشريع الاسلامي / د. مصطفى السباعي.

المكرّرات اللفظية معياراً وزنياً

بقلم : الدكتور عبدالرضا علي
الاستاذ المشارك في مركز اللغات

مُقدّمة

يجمع معظم النقاد العرب على القول ان سليقة الشاعر الموهوب تعصمهُ من الوقوع في دائرة الخلل الايقاعي ، وأنّ هذهِ السليقة هي التي مكنتهُ من أن ينأى بابداعهِ عن الخروج على الوزن الذي يختاره لقصيدته منذ أن نظم أول بيت شعري وأنّ هذهِ السليقة حصنت استعداده الفطري من الكسر الوزني طول تلك المرحلة التي امتدت من الجاهلية حتى اكتشاف الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ) أوزان الشعر العربي وتشكيلات ابحره المختلفة .

غير أنّ الفاحص لشعرنا الجاهلي لايعدم وجود تجاوزات عروضيّة وكسور وزنية في قصائد شعراء كبار وصفوا بالفحول أمثال : امرئ القيس ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقش الأكبر ، وعدي بن زيد ، وغيرهم ، مما يجعلهُ يشكك بقولة النقاد ، متردداً في قبولها ، فضلاً عن أنّ التسليم بها يعدُّ ضرباً من المجازفة .

ولما كان البحث في أسباب الخلل العروضي الذي يقع فيه الشعراء يحتاجُ الى وقفة أخرى ، فانّ طروحات هذا البحث يمكن أن تكون تمهيداً لبحث تلك الأسباب مستقبلاً ، لذا فانّ هذا البحث محاولة جادّة لمعرفة المعايير الوزنيّة (غير سليقة الشاعر) التي اعتمد عليها الناظم قبل مرحلة اكتشاف الأوزان ، وهي معايير صوتية قياسيّة اتخذها مختاراً ليتجنب الخروج على الوزن ايقاعيّاً ، وبهذا فان كاتبه يدرك أنّ طروحاته النظرية المدعمة بالتطبيق قد تجعل ظنهُ ملموساً ، وهي طروحات يعتز بها ويراها حرية بالنشر والاذاعة ، لكونها تعلن عن القياس الموسيقي ، أو المعيار الايقاعي الذي عصم الشاعر من الوقوع في الخلل العرضي مدّة ليست قصيرة من عمر الشعر العربي ، ومكنه من الاطمئنان على شعره عروضياً قبل اكتشاف العروض .

وبالله التوفيق .

ارتبط الشعر بالغناء في الجاهليّة ارتباطاً عضوياً[١] ، حتى كان تعلّم الشعر لايتمّ بغير تعلمّ الغناء ، ومعرفة الحانهِ ، وقد كان هذا الأسلوب في التعلم منهجاً ظلّ قائماً حتى اكتشف الخليل بن أحمد الفراهيدي أوزان الشعر العربيّ الستة عشر .

وكان نقادنا القدامى يؤكدون على أنّ العرب قديماً كانت " تزن الشعر بالغناء... وأنّ الغناء ميزان الشعر "[٢] على حدّ قول المرزباني ، وعلى وفق هذا فانّ ضبط الألحان واداءها يشترط فيما يشترط أن يكون الشعر سليماً ايقاعيّاً ، وهم يكتشفون سلامةَ ايقاعهِ من خلال اجرائية الانغام اللحنيّة أولاً ، ومن اجرائيّة الذائقة الحسيّة التي يمتلكون ثانياً . من هنا يمكننا الوقوف على دلالةِ مقولةِ ابن رشيق القيرواني من أنّ " الأوزان قواعدُ الألحان ، والاشعار معايير الأوتار "[٣].

انّ مازعموه من وجود رابطة عضوية بين الشعر والغناء لم يتأتَ جزافاً ، انما كان (كما نظن) عن طريق المعاينة الميدانيّة لانشاد الشعر ، فالشاعر الموهوب كان يهتمّ بالانشادِ اهتماماً كبيراً ، فهو لايلقي شعره القاءً عادياً كما يُلقى اليوم ، انما كان يُلقيه نشيداً ، يكون الوزن ايقاعاً لهُ ، فيرتبط الصوت بالنغم الوزني ، ويتحرك الجسد على وفق ذلك الايقاع " وفي هذا مايُدّل على عمق العلاقة وغناها وتعقدها بين الصوت والكلام ، وبين الشاعر وصوته . انها علاقة بين فردية الذات التي يتعذر الكشف عن أعماقها ، وحضور الصوت الذي يتعذر تحديده . حين نسمع الكلام نشيداً لانسمع الحروف وحدها ، وانما نسمع كذلك الكيان الذي ينطق بها ، نسمع مايتجاوز الجسد الى فضاء الروح . وليس الدال هنا ، في الكلمة بذاتها معزولة ، بل في الكلمة مقرونة بالصوت في الكلمة – الموسيقى ، الكلمة – النشيد "[٤].

فاذا كان ذلك النشيد المرتبط بتلك الحركات الايقاعيّة قد أبعد الشعراء الموهوبين عن الوقوع في دائرة الخلل العروضي ، فانّ غيرهم ممن أرادوا تعلّمَ الشعرِ لم يجدوا ما يعصِمهُم من الخلل غير تعلّم الغناء . أو الأداء النغمي .

فالشيخ جلال الحنفي يذكر نقلاً عن " التوشيح الوافي ، والترشيح الشافي في شرح التأليف الكافي في علمي العروض والقوافي " لابن حجر العسقلاني الحواريّة الآتية عن الحسين بن يزيد : " سألت الخليل عن علم العروض ، فقلت : هل عرفتَ لهُ أصلاً ؟ قال : نعم ، مررت بالمدينةِ حاجاً فبينا أنا في بعض مسالكها اذ نظرت لشيخ على باب دار وهو يعلّمُ غلاماً وهو يقول له :

نعم لا نعم لالا نعم لا نعم لالا

نعم لا نعم لالا نعم لا نعم لالا

فدنوت منه وسلمتُ عليه ، وقلت له : أيها الشيخ ما الذي تقوله لهذا الصبي ؟ فقال : هذا علم يتوارثه هؤلاء عن سلفهم ، وهو عندهم يسمى التنعيم . قلت : لم سموه بذلك ؟ قال : لقولهم نعم نعم . قال الخليل فقضيتُ الحجّ ثم رَجَعْتُ فاحكمتهُ"(٥).

وبغض النظر عمّا اذا كانت هذهِ الحواريّة صحيحة النسبة الى الخليل أم لا ، فانها تفيد أنّ تعلّم الشعر كان لايتم بغير المعيار المغنّى ، أو القالب المعياري (سمّه ماشئت) الذي يكررونهُ صوتياً مرات عديدة قبل النظم ليكون مفتاحاً للوزن أولاً ، وليعصِمَهم من الخروج عليه ثانياً . وبهذه الدربة التي هي اكتساب معرفي ايقاعي يحصّن الاستعداد أو الفطرة (ان كان في المتعلم) من الخلل الايقاعي ، لأنهم كان يعلّمون أطفالهم ذلك قبل مرحلة تبيّن الاستعداد ، أو الموهبة لديهم .

وقد أورد عبدالحميد حمام في (معارضة العروض) نقلاً عن الباقلاني في (اعجاز القرآن) أنّ ثعلب قال : " انّ العرب كانت تعلّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول ، يوضع على بعض أوزان الشعر كأنهُ وزنه (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) ويسمون ذلك " المتير " واشتقاقه من المتر ، وهو الجذب والقطع "(٦).

ويبدو أنّ ذلك الوضع (غير المعقول) لم يكن الاّ مفتاحاً وزنّياً يتألف من مجموعة من الألفاظ التي تشكل من مجموع حركاتها وسكناتها ايقاعاً صوتياً ليس غير ، من غير أن يكون لتلك الألفاظ معنى أو مضمون . لأنّ تلك المكررات الصوتية لايراد منها غير تأكيد الايقاع الذي هو قالب معياري يكرره الناظم مراراً قبل مرحلة النظم ، فاذا ماتم لهُ ذلك نغميّاً انطلق ناظماً على وفق ذلك المعيار .

واذا كان ماتقدم لصيقاً بمرحلة الغناء ، والانغام ، وهي مرحلة متطوّرة في تعلم الشعر وايقاعه ، فانّ المرحلة التي سبقت مرحلة الغناء ونعني بها تجوّزاً مرحلة (الحُداء) تعدّ مرحلة الارهاص لهذا التطوّر ايقاعيّاً . ولعلّ ماذكره ابن خرداذبة من قصة سقوط مضر بن نزار عن بعيره مايشي بهذا التصوّر الارهاصي ، لأنّ تأوهات مضر بن نزار من ألم كسر يده شكلت ايقاعاً لسير الابل أولاً ، ووزناً مقبولاً لأداء شعري ثانياً . اذ يقول في " اللهو والملاهي " مانصّهُ :

" كان الحُداءُ في العرب قبل الغناء ، وقد كان مضر بن نزار بن معد(*) سقط عن

(*) مضر بن نزار : الجد الأعلى لفريق من القبائل العربية العدنانية ، منها قيس عيلان .

بعير في بعض أسفاره ، فانكسرت يده ، فجعل يقول : (يايداه ، يـايداه) وكـان مـن أحسن الناس صوتاً ، فاستوسقت الابل وطاب لها السير ، فاتخذه العرب حُداءً.." (٧).

ومعنى هذا أنه ظلّ يكرر :

يايداهُ يايداهُ

يايداهُ يايداهُ

مرات عديدة ، حتى شكل هذا التكرار ايقاعـاً صوتيـاً ، وهـو يسـاوي بالحركـات والسكنات :

فاعلاتن فاعلاتن

الذي سمي في مرحلة اكتشاف العروض بمجزوء الرمل . والرمل ضرب من السير كذلك . وعلى الرغم من أنّ الحُداء يرتبط بالرجز كما هو معلوم ، وأنّ قولـه " يـايداه يايداه " يقع في دائرة الرمل ، فانّ للحكاية رواية أخرى تقول ان مضـر بـن نـزار كـان يستغيث قائلاً :

يدي يدي يدي يدي

فأصغت الابلُ اليه ، وطاب لها السير ، فاتخذته العرب حُداءً برجز الشعر(٨).

أي أنّ تكراره للألفاظ :

يدي يدي يدي يدي

يدي يدي يدي يدي

قد شكلّ ايقاعاً صوتياً للابل جعل سيرها على وفـق ذلـك الاتسـاق الصوتـي وهـو مساوٍ بالحركات والسكنات للوزن :

مفاعلن مفاعلن

الذي عرف بمجزوء الرجز المخبون بعدئذ .

وسواء أكان مضر قد قـال : (يـايداهُ يـايداهُ) أم (يـدي يـدي يـدي يـدي) فـانّ المحصلة واحدة هي أنّ العرب كانت تستعين بالمكررات اللفظيّة لتخلُقَ منها مفتاحـاً، أو معياراً وزنياً تنظم عليه شـعرها ، لكـنّ تلـك المعـايير ضـاعت ، ولـم يبـق منهـا الاّ اشارات طفيفة لا تـ ـعمد الدارس على القـول الفصـل ، لأنهـا تعـد مـن مرحلـة طفولـة الشعر ، لكنها مع ذلك تشكل في ظننا أساساً منطقياً لمعرفة كيفيّة النظم فـي المرحلـة التي سبقت تعلّم الايقاع والوزن .

* * * *

وفي مايأتي محاولة لتوضيح ماظنناه لجعله ملموساً .

يصنع الشاعر أو الناظم في البداية مفتاحاً وزنيّاً مؤلفاً من ألفاظ قد يكون لها معنى أو لايكون يرتضيه ايقاعيّاً ، ثم يكرره مرات عديدة ، فاذا ماتمّ التشبع به سمعيّاً، وتلبستهُ الحالة الايقاعيّة (أو اللحنية) انطلق بعدها لينظم أفكاره ومعانيَهُ على وفق ايقاعها (أو لحنها) .

وهو لايريد من نظمه غير حض الناس على سماعه ، والوقوف على مايبتغي ، لذا لايكترث ان كان نصّه بعيداً عن دائرة الادهاش ، أو الابداع ، فهو لم يفكر بذلك أبداً، لأنه على عجالةٍ من أمره يريد ايصال أفكاره الى الناس ، وفي الأمثلة الآتية مايوضح ذلك تطبيقياً :

١- أرادتْ احدى بنات الفند الزماني أن ترتجز لتُحضَّ الناس فقالت :

وغى وغى وغى وغى
وغى وغى وغى وغى

ونحسب أنّها كرّرت ذلك مراراً ، ثمّ حين تلبسها الوزن انطلقت قائلة :

وغى وغى وغى وغى
حرّ الحرارُ والتظى
وملئت منه الربى
ياحبذا المحلّقونَ بالضحى[٩]

وهو مساو بالحركات والسكنات للوزن :

مستفعلن مستفعلن

اذا أردنا ايراد التفعيلة تامّة قبل الخبن أو الطي .

ويلاحظ المتلقي الكريم أنها على الرغم من وضعها المعيار ، أو المفتاح الوزني فانها خرجت عليه حين ابتعدت عنه ، لكونها ابتدأت بالمجزوء :

حرّ الحرارُ والتظى

لكنّها انتهت في الشطر الأخير بالتام :

ياحبذا المحلّقون بالضحى
مستفعلن مفاعلن مفاعلن

وهو يذكرنا بما فعله شعراء حركة الشعر الحر في بداءة دعوتهم حين لم يلتزموا بعدد التفعيلات الخليليّة في الشطر الواحد . ففي النص السابق ابتدأت الشاعرة

بتفعيلتين ، لكنها انتهت بثلاث تفاعيل ، وما ذلك الاّ لابتعادها عن المفتاح الوزني ، وهو أمرٌ يقع فيه من لايمتلك الحسّ الموسيقي ، كما هو الحال مع بنت الفند الزماني.

٢- أرادت امرأة من عاد فيما يزعمون على وفق ماذكره أبو العلاء المعري في (رسالة الصاهل والشاحج) أن تندُبَ حظها شاكية ، فابتدأت قائلة :

أَلَلَيّه أَلَلَيّه
أَلَلَيّه أَلَلَيّه

وهي ألفاظ لامعنى لها ، انما هي (كما المعنا سابقاً) مفتاح أو معيارُ وزني ارتضته مناسباً لحالتها الشعوريّة ، وحين كرّرته استقام لها المعيار فانطلقت لتكمل الايقاع :

أَلَلَيّه أَلَلَيّه ماجنى الوفدُ عليّ[١٠]

وهو مساوٍ بالحركات والسكنات للوزن :

فعلاتن فعلاتن فعلاتن فعلاتن

الذي سمي فيما بعد بمجزوء الرمل .

ويلاحظ أنّ هذا الايقاع أكثر قرباً للتعبير عن حالتها الشعوريّة الحزينة من ايقاع الرجز الذي يتصف بالسرعة ، لهذا نرى أنّ المعايير الايقاعيّة أو الوزنية التي يتخذها الشاعر مفتاحاً لأدائه ايقاعياً لابدّ من أنها تناسب مضمون مايريد البوح به . من هنا يمكننا الزعم أنّ الموضوع ، أو المضمون يفرض اختيار ايقاعه ، فان ناسب الايقاع المضمون كانت التجربة اكثر نجاحاً .

٣- وحين أراد سالم بن داره أن يهجو بني فزارة ابتدأ قائلاً :

حدبدبا بدبدبا منك الآن

وهي ألفاظ لامعنى لها ، جيء بها لتكون المعيار الايقاعي الذي ارتضاهُ الراجز معبراً عن حالته الشعورية المندفعة ، وحين كرّره عدة مرّات استقام له الايقاع صوتياً فانطلق هاجياً :

حدبدبا بدبدبا منك الآن
استمعوا أنشدكم ياولدان
انّ بني فزارة ابن ذبيان
قد طرقت ناقتهم بانسان
شيئاً أعجب بخلق الرحمن[١١]

وهو من مشطور الرجز المذيّل :

مستفعلن مستفعلن مفعولان

ونحسب أنّ سالماً هذا كان غاضباً جداً ، وكان يبتغي تفريغ شحنة الغضب التي في داخله على عجالة ، لذلك كان هذا الايقاع مناسباً لتصوير تلك الحالة الشعوريّة (وكل حالة تحتاج الى سرعة في الأداء) وهي ملاحظة يمكن أن تفسر لم كان الرجز مطيّة الشعراء في الحرب ، والطرد ، والهجاء .

٤- واذا كانت الأمثلة التي مرّت أمثلة قديمة ، فانّ في كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني نصّاً متأخراً لأبي الشمقمق ، يفيد ماالمعنا اليه من فرضيّة التكرار بهدف اتخاذه مفتاحاً وزنياً ، والاّ فكيف نفسر قول أبي الشمقمق وهو يهجو بشاراً:

هللينه هللينه طعن فتاةٍ لتينه

انّ بشار بن بردٍ مثل تيسٍ في سفينة[١٢]

ولعل المتلقي الكريم يدرك شحنة السباب اللاذع التي رسمتها الصورة الشاتمة في عجز البيت الأول :

" طعنُ فتاةٍ لتينهْ "

وهو مايؤكد على أنّ الرمل قد يصلح للهجاء مثلما يصلح للانتشاء والطرب والحزن ، لأنه وزن قابل للحركة ، يثير النشوة في سامعه لانسيابه على اللسان[١٣].

نخلص من هذا الى أنّ الشاعر . أو الناظم قبل مرحلة معرفة الأوزان واستقرارها كان يتخذ من المكررات اللفظيّة ، أو الألفاظ التي لامعنى لها معياراً وزنياً يتلبسه صوتياً ، فينظم على ايقاعه احتراساً من الوقوع في دائرة الخلل العروضي ، فهي محاولة للقياس أولاً ، وعصمة من الخلل الوزني ثانياً ، وظلّ ذلك معياراً مدة ليست قصيرة من عمر الشعر العربي لاسيما المدة التي امتدت بين طفولة الشعر العربي (بداءةً) ونضجه (مكتملاً) حين راح كل راويةٍ يستظهر شعر من يروي له اعجاباً شخصيّاً من جانب ، وتقليداً اسلوبياً من جانب ثان . فكان هو المعيار الايقاعي السليم صوتياً ، وهندسياً ،

والحمد لله .

الهوامش

١- أدونيس ، الشعريّة العربيّة ، ٨ .
٢- المرزباني ، الموشح ، ٣٩ .
٣- القيرواني ، العمدة ، ١:٩ .
٤- أدونيس ، الشعريّة ، ٥-٦ .
٥- بدلالة الشيخ جلال الحنفي ، العروض تهذيبه واعادة تدوينه ، ٢٩ . ينظر كذلك : عبدالحميد حمام ، معارضة العروض ، ٣٦ .
٦- عبدالحميد حمام ، معارضة العروض ، ٣٥ ، نقلاً عن الباقلاني في (اعجاز القرآن) تحقيق أحمد صقر ، دار المعارف ، ط٣ ، ١٩٧١) وقد أخبرني الاستاذ محمد الهادي الحطابي قائلاً : ومن عجيب الصدف أنّ الفرنسيين يسمون البحر بـ (المتر) . والعروض - المتزيك - .
٧- ابن خرداذبه ، اللهو والملاهي ، ملحق بكتاب الملاهي واسمائها للمفضل بن سلمه ، تحقيق غطاس خشبة ، الهيأة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥م ، بدلالة عبدالحميد همام ، معارضة العروض ، ٤٢ .
٨- ينظر : القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، ٣٤ ، بدلالة : جمال نجم العبيدي ، الرجز ، الرجز ٢٣٢ .
٩- بدلالة محمد عوني عبدالرؤف ، بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف ، ٦٢-٦٣ .
١٠- المعري ، رسالة الصاهل والشاحج ، ٥١٦ .
١١- بدلالة مصطفى جمال الدين ، الايقاع في الشعر العربي من البيت الى التفصيلة.
١٢- بدلالة الشيخ جلال الحنفي ، العروض ... ، ٣٩ .
١٣- ينظر : ماكتبه المجذوب عن هذا الوزن الغنائي في (المرشد) ١٢٦-١٣١ ، كذلك ماكتبه الشيخ جلال الحنفي (العروض) ٣٠٩ .

مصادر البحث ومراجعه

١- اعجاز القرآن - محمد بن الخطيب الباقلاني، تح أحمد صقر. دار المعارف،ط٣،القاهرة،١٩٧١م.

٢- الايقاع في الشعر العربي من البيت الى التفعيلة - د.مصطفى جمال الدين ط٢، مط النعمان .النجف،١٩٧٤م.

٣- بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف - د.محمد عوني عبد الرؤوف، مط الكيلاني بالقاهرة،نشر مكتبة الخانجي بمصر،١٩٦٧م.

٤- الرجز نشأته أشهر شعرائه -جمال نجم العبيدي،مط الأديب البغدادية،١٩٧١م.

٥- رسالة الصاهل والشاحج - أبو العلاء المعري ، نص محقق مع مدخل تاريخي وموضوعي ، د. عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٥م .

٦- الشعريّة العربية - أدونيس ، ط٢ ، دار الآداب ، بيروت ، ١٩٨٩م .

٧- العروض تهذيبه واعادة تدوينه - الشيخ جلال الحنفي ، ط١، مطر العاني بغداد ، ١٩٧٨م .

٨- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، - لابن رشيق القيرواني ، تح محمد محي الدين عبدالحميد ، ط٣ ، مط السعادة ، مصر ١٩٦٣م .

٩- اللهو والملاهي - ابن خرداذبه ، ملحق بكتاب الملاهي واسمائها للمفضل بن سلمة ، تح غطاس خشبة ، الهيأة المصرية للكتاب ، ١٩٨٥م .

١٠- المرشد الى فهم أشعار العرب وصناعتها - د. عبدالله الطيب المجذوب ج١، ط١، مط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ١٩٥٥م .

١١- معارضة العروض - د. عبدالحميد حمام ، منشورات وزارة الثقافة المملكة الأردنية الهاشمية ، عمان ، ١٩٩١م .

١٢- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء - أبو عبدالله محمد بن عمران المرزباني.

مقدمة في تدوين السنة النبوية*
القسم الأول

بقلم : الدكتور عبدالرحمن أحمد الأنبي
المدرس في قسم الدراسات الاسلامية

إن الحمدلله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسئيات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له[1] .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً وبعد فلما كانت أمهات الكتب الستة أمرها ظاهر المكانة في دواوين الحديث النبوي ومدار الاحتجاج غالباً بما فيها من السنة النبوية خصوصاً صحيحي البخاري ومسلم لأن الامهات الستة كادت تستوعب الحديث المقبول ولم يفتها إلا اليسير فقد عنَّ لي أن أضع هذا البحث في تعريفها وبيان مكانتها من كتب السنّة المطهرة راجياً من الله سبحانه وتعالى التوفيق والعون والتيسير الى الهدف المقصود وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم.

تمهيد

لابد من مقدمة تكون كالمدخل الى الكلام على الأمهات الستة أبين فيها جملة كتابة الحديث من العصر النبوي الى أن دونت الأمهات.

كتابة الوحي في العصر النبوي:

ومن المعلوم أن رسول الله ﷺ قد أهتم بكتابة القرآن فقد كان القرآن يتنزل على رسول الله ﷺ ويُكتب عقب فراغ الوحي وهكذا كتب جميع القرآن في الرقاع والأديم والأكتاف واللخاف[2] وكل ما أمكن أن يكتب فيه ولم يبق شيء من القرآن إلا وقد كتب بأمر من رسول الله ﷺ كان رسول الله ﷺ إذا جاءه الوحي يستدعي يحسن الكتابة ليكتب ما أنزل عليه من القرآن[3] وهكذا كان شأن القرآن فقد كتب

(*) هذه المباحث تشتمل على مقدمة في تدوين السنة النبوية وست مباحث حول الأمهات الستة .

من جميعه من أول ما أنزل وحفظ في الصدور بأمر رسول الله ﷺ قال الله تعالى : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾.

وقد كان لرسول الله ﷺ كتاب كثيرون بلغ عددهم زهاء الأربعين[٤] منهم الخلفاء الأربعة والزبير بن العوام وزيد بن ثابت رضي الله عنهم وقد كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ وحي القرآن ووحي السنة في آن واحد قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيما ﴾ فالكتاب هو القرآن والحكمة هي السنة وكل منهما وحيٌ منزل قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى ﴾ فقد كان القرآن يتنزل ورسول الله ﷺ يبين المراد منه كما أنه ﷺ كان يبين الأحكام ابتداءً عن طريق السنة التي سماها الله الحكمة وهي أقوال الرسول وفعاله وتقريراته ﷺ قال ﷺ "ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه"[٥] .

فالسنة هي الحكمة[٦] المنزلة وهي المصدر الثاني في التشريع بعد القرآن الكريم وكل منهما وحيٌ من عند الله تبارك وتعالى والسنة تسمى بالحديث النبوي أيضاً وقد كان القرآن يتنزل ويكتب ويحفظ وقت التنزيل وهكذا كتب جميعه[٧] وأما وحي السنة فكان يحفظ في الصدور وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يتذاكرون الحديث خوفاً من النسيان وقد كان لهم حفظ ثاقب وقد كان الرسول ﷺ يأمر بحفظ الحديث وينهاهم عن كتابته في ابتداء الأمر كما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : "لا تكتبوا عني ومن كتب عني غير القرآن فليمحه وحدثوا عني ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوء مقعده من النار"[٨].

وقال أبو سعيد جهدنا بالنبي ﷺ أن يأذن لنا في الكتاب فأبى".

وفي لفظ أنهم أستأذنوا النبي ﷺ في أن يكتبوا عنه فلم يأذن لهم[٩] .

فهذه الأحاديث تدل على النهي عن كتابة الحديث بالعصر النبوي في أول الأمر ثم أنه قد ثبت عن رسول الله ﷺ الإذن بالكتابة للحديث من عدة وجوه:

منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال ما من أحد من أصحاب النبي ﷺ أكثر حديثاً مني إلا ماكان من عبدالله بن عمرو بن العاص فإنه كان يكتب ولا أكتب[١٠].

ومنها حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد أحفظه فنهتني قريش وقالوا تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ بشر يتكلم في الرضا والغضب فأمسكت عن الكتابة

فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا الحق"[11] .

وهذا صريح على إذن النبي ﷺ لمن شاء بالكتابة وأصرح منه قوله ﷺ اكتبوا لأبي فلان" وفي رواية "اكتبوا لأبي شاه"[12] .

فهذه الأحاديث تدل على إباحة الكتابة للحديث في عصر النبوة وقد حاول العلماء الجمع بين الأحاديث المتقدمة في النهي عن كتابة الحديث والإذن بها وردت في ذلك خمسة آراء أرجحها وأقواها أن النهي كان عاماً في أول السلام عن الكتابة للحديث مخافة اختلاط الحديث بالقرآن وخشية اشتغال المسلمين بالحديث عن القرآن وهم حين ذاك حديث عهد به فلما كثر عددهم وعرفوا القرآن وميزوا بينه وبين الحديث أذن لهم رسول الله ﷺ بكتابة الحديث ونسخ النهي عن كتابة الحديث[13].

وحملوا حديث أبي سعيد على أنه كان متقدم في أول الهجرة وحين كان لا يؤمن من الانشغال بالحديث عن القرآن واحاديث الإباحة كانت متأخرة لأن إسلام أبي هريرة كان في زمن خيبر وحديث أبي شاه كان في أخريات حياة النبي ﷺ.

وكل هذا يقوي أن النهي عن الكتابة كان في أول الأمر ثم نسخ[14] والواقع يشهد لذلك كما في صحيفة علي رضي الله عنه وصحيفة محمد بن عمر بن حزم عن أبيه في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم في العقول وكما في حديث كتاب الصدقة ونصاب الزكاة وقد كانت نسخة عند أبي بكر فكتب الى انس بن مالك في ذلك لما وجهه الىالبحرين وصيغتها :

بسم الله الرحمن الرحيم هذه فريضة الصدقة التي فرضها رسول الله ﷺ على المسلمين ... الحديث .

وكما في الصحيفة الصادقة التي كتبها عبدالله بن عمرو بن العاص قال عبدالله بن عمرو حفظت عن النبي ﷺ ألف مثل وكان عبدالله يعتز بها يقول " ما يرغبني في الحياة إلا الصادقة" أخرجها الدارمي[16] .

وكما في صحيفة سعد بن عبادة أخرج أحمد[17] من طريق سليمان بن بلال عن ربيعة بن أبي عبدالرحمن عن اسماعيل بن عمرو بن قيس بن سعد بن عبادة عن أبيه أنهم وجدوا في كتب أبيه أو في كتاب سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قضى باليمين مع الشاهد".

وكما في كتبه ﷺ الى أمرائه وعماله فيما يتعلق بتدبير شؤون الأقاليم الاسلامية وأحوالها وفي بيان أحكام الدين وهي كتب كثيرة تشتمل على مهمات أحكام الاسلام وعقائده وبيان أحكام الزكاة والديات والحدود.

ومنها كتاب الزكاة والديات الذي كتبه أبوبكر الصديق " أن رسول الله ﷺ كتب كتاب الصدقة[١٨] .... الخ.

ومنها كتابه لعمر بن حزام عامله ﷺ على اليمن وفيه أصول الاسلام وطرق الدعوة إليه والعبادات ونصبة الزكاة والجزية والديات(١٩) ومنها كتابه ﷺ الى وائل بن حجر لقومه في حضرموت فيه الأصول العامة للاسلام وأهم المحرمات"[٢٠].

ومنها عقوده ومعاهداته ﷺ التي أبرمها مع الكفار كصلح الحديبية وصلح تبوك وصحيفة المعاهدة التي أبرمها عند قدومه المدينة المنورة وكتبه ﷺ الى الملوك والعظماء والى أمراء العرب يدعوهم الى الاسلام كما هو مودوع في دواوين الحديث وكتب السيرة.

فهذا وغيره مما كتب في عهد النبي ﷺ كافٍ لإثبات أنه كتب شيء من السنة النبوية في عهده ﷺ.

وقد كان الصحابة يحفظون عن رسول ﷺ أقواله وأفعاله وتقديراته ووهبهم الله صبراً على طلب الحديث مع صفاء أذهانهم وقوة قرائحهم فتلقوا الحديث النبوي بغاية الاهتمام ونهاية الحرص لما للحديث النبوي من مكانة في التشريع لأنه المصدر الثاني بعد كتاب الله العزيز وقد كان رسول الله ﷺ يحثهم على حفظه واتقانه ويرغبهم في ذلك ويخوفهم من الزيادة والنقص في الحديث ويأمرهم بتبليغه.

أخرج أحمد عن عبدالله بن مسعود أنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " نضر الله أمرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه فربَّ مبلغ احفظ له من سامع"[٢١] الحديث مشهور وطرقه كثيرة بالفاظ متقاربة بلغ حدَّالتواتر بالمعنى.

وأخرج البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه " من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار"[٢٢] الحديث متواتر قال السيوطي[٢٣] قال ابن الصلاح رواه اثنان وستون من الصحابة وقال غيره رواه أكثر من مائة نفس.

وقوله ﷺ :" إن دماءكم وأموالكم واعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب"[٢٤] فهذا كله دليل على ثبوت الاباحة بعد الحضر لكتابة الحديث ولكن ما كتب من السنة في عصر النبوة فإنما هو قليل جداً بالنسبة الى السنة المطهرة.

كتابة الحديث في عصر الصحابة :

كما وردت أحاديث في النهي عن كتابة الحديث والاذن بها كذلك وقف الصحابة مواقف متباينة من كتابة الحديث فمنهم من كره الكتابة ومنهم من أجازها ومنهم من روى عنه الأمران معا[٢٥] .

وقد وضح أنه كان سبب كراهية كتابة الحديث عندهم مخافة انشغال الناس به وانصرافهم عن القرآن الكريم أما حين يؤمن ذلك فانهم كانوا يجوزون الكتابة للحديث ويهتمون بذلك ويحرصون على الكتابة عند شدة الحاجة اليها ولذلك قد كتب بعض الصحابة رضي الله عنهم الأحاديث في الصحف في حياة النبي ﷺ وبعد وفاته ، واليك بعضاً من ذلك :-

١- صحيفة سعد بن عبادة الأنصاري[٢٦].
٢- صحيفة عبدالله بن أبي أوفى[٢٧].
٣- صحيفة أبي موسى الأشعري[٢٨].
٤- صحيفة جابر بن عبدالله[٢٩].
٥- كتاب أبي هريرة .
٦- كتاب أبي رافع مولى رسول الله ﷺ [٣٠].
٧- نسخة سمرة بن جندب جمع فيها أحاديث كثيرة[٣١] .
٨- الصحيفة الصادقة لعبدالله بن عمرو بن العاص[٣٢].
٩- صحيفة أبي سلمة نبيط بن شريط الأشجعي الكوفي[٣٣].

فهذه الصحف تثبت أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا يبيحون الكتابة وقد كتبوا الحديث لأنفسهم وكتب طلابهم بين أيديهم وأصبحوا يتواصون بكتابة الحديث وحفظه[٣٤] ، وانما كانوا يمتنعون عنها عندما يخشون أن يشتغل المسلمون بكتابة الحديث وكتبه عن القرآن أو من مظاهات ذلك للقرآن أما عندما يؤمن ذلك فكانوا يكتبون بدون حرج .

كتابة الحديث في عصر التابعين

لقد تلقى التابعون علومهم على يدي الصحابة وخالطوهم وعرفوا كل شيء عنهم وحملوا الحديث النبوي عن طريقهم وعرفوا متى كره الصحابة الكرام رضي الله عنهم كتابة الحديث ومتى أباحوها فتأسوا بهم واتفقت آراءهم مع آراء الصحابة رضي الله عنهم .

فقد امتنع بعض كبار التابعين من الكتابة مثل عبيدة بن عمرو السلماني - ت ٧٢هـ وابراهيم بن يزيد التميمي ت ٢٩هـ وجابر بن زيد - ت ٩٣هـ - وابراهيم النخعي -ت ٩٦هـ - هو ابن زيد بن قيس وعامر الشعبي ت١٠٣ .

ولكن البعض الآخر منهم كان يكتب الحديث مثل سعيد بن جبير وسعيد بن المسيب وعامر الشعبي فقد كان يكره الكتابة للحديث ويردد عبارته المشهورة " ماكتبت سوداء في بيضاء ولاسمعت من رجل حديثاً فأردت ان يعيده عليّ"[٣٥] ولكنه زالت عنه الكراهية ثم صار يحث على كتابة العلم وقد أثر عنه " الكتاب قيد العلم " وقوله اذا سمعتم مني شيئاً فاكتبوه ولو في حائط "

والضحاك بن مزاحم والحسن البصري وعطاء بن أبي رباح ونافع مولى ابن عمر وقتادة السدوسي فهؤلاء كانوا يكتبون لأنفسهم ويأمرون تلاميذهم بالكتابة وبرز من جيل التابعين عدد من العلماء الذين وجدت لهم أجزاء وصحف احتفظوا بها وجعلوا يروونها منهم :

أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس الأسدي - ت١٢٦- كتب بعض حديث الصحابي جابر بن عبدالله وغيره[٣٦].

وأبو عدي عبدالله الزبير بن عدي الهمداني الكوفي -ت١٣١هـ -[٣٧].

وأبو العشراء الدارمي أسامة بن مالك[٣٨].

وزيد بن أبي أنيسة أبي أسامة الرهاوي - ت١٢٥-[٣٩].

وأيوب بن أبي تميمة السختياني - ت٢٣١ -[٤٠].

ويونس بن عبيد بن دينار العبدي - ت١٣٩ هـ -[٤١].

وهشام بن عروة بن الزبير بن العوام - ت١٤٦هـ -[٤٢].

وحميد بن أبي حميد الطويل - ت١٤٣هـ -[٤٣].

وأبي عثمان عبيدالله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب المتوفي سنة ١٤٧هـ[٤٤].

وهذا يدل على أن الكتابة قد شاعت بين مختلف الطبقات ولم يعد أحد ينكرها في أواخر القرن الأول وأول القرن الثاني الهجري وقد كثرت الصحف والكتب آن ذاك حتى أن مجاهد[٤٤] بن جبر ليسمح لبعض طلابه أن يصعد الى غرفة فيخرج اليهم كتبه فينسخون منها .

وطلب هشام بن عبدالملك من عامله رجاء بن حيوة حديثاً فيقول رجاء بن حيوة قد كنت نسيته لولا أنه كان عندي مكتوباً[٤٥].

وقد كان عطاء بن أبي رباح يكتب لنفسه وأحياناً يأمر ابنه أن يكتب له وكان طلابه يكتبون بين يديه ويحض طلبة العلم على التعلم والكتابة[٤٦] .

فعن أبي حكيم الهمداني قال كنت عند عطاء بن أبي رباح ونحن غلمان فقال ياغلمان تعالوا اكتبوا فمن كان منكم لا يحسن كتبنا له ومن لم يكن معه قرطاس أعطيناه من عندنا[٤٧].

وهكذا نشطت الحركة العلمية في عصر التابعين وازدادت معها الكتابة والقراءة على العلماء وأصبح من ضروريات كل طالب الكتابة الى جانب الحفظ من دون تردد ويدل على ذلك جواب قتادة بن دعامة على من سأله عن الكتابة للحديث فقال ومايمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير بذلك بقوله " علمها عند ربي في كتاب لايضل ربي ولاينسى "[٤٨].

وذكر الحافظ الذهبي أنه كان للتابعي الجليل خالد بن معدان مصحف به أزرار وعرى جمع علمه فيه[٤٩] .

فكل هذا يدل على أنه قل التحرج عن كتابة السنة وصار الأمر الى اباحة الكتابة والحث على ذلك من دون حرج وقد وقع الاجماع بعد ذلك على جواز كتابة الحديث فكان حجة لامناص من التسليم بها قال ابن الصلاح ثم زال الخلاف واجمع المسلمون على تسويغ الكتابة واباحتها ولولا تدوين الحديث في الكتب لدرس في الأعصر الأخيرة .

أول محاولة في جمع السنة النبوية وعوامل تدوينها :

قد كان أكبر محاولة في تدوين السنة النبوية على رأس القرن الأول وأول القرن الثاني على يد الخليفة الراشد عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه فانه كتب الى علماء المدن الاسلامية انظروا الى حديث رسول الله ﷺ فأجمعوه :

أخرج الدارمي[٥٠] من طريق يحي بن سعيد عن عبدالله بن دينار قال :

كتب عمر بن عبدالعزيز الى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم أن اكتب اليّ بما ثبت عندك من الحديث عن رسول الله ﷺ وبحديث عمر فاني قد خشيت دروس العلم وذهابه .

وفي رواية أخرى عن عبدالله بن دينار قال كتب عمر بن عبدالعزيز الى أهل المدينة أن انظروا حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه فاني قد خفت دروس العلم وذهاب أهله " .

وأخرجه البخاري[٥١] معلقاً ثم ساق سنده الى عمر بن عبدالعزيز ولفظه وكتب عمر بن عبدالعزيز الى أبي بكر[٥٢] بن حزم انظر ماكان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فاني خفت دروس العلم وذهاب العلماء ولايقبل الا حديث النبي ﷺ ولفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لايعلم فان العلم لايهلك حتى يكون سراً " ثم أسند الأثر[٥٣].

وأمر الامام الجليل عمر بن عبدالعزيز الامام الحافظ محمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤ بجمع السنن فاستجاب لذلك وكان محمد بن شهاب شغوفاً لجمع الحديث والسيرة فجمع حديث المدينة وقدمه الى عمر بن عبدالعزيز الذي بعث الى كل أرض دفتراً من دفاتره .

وكانت هذه المحاولة هي الأولى لجمع الحديث وتدوينه بشمول واستقصاء وبذلك مهد الطريق لمن أعقبه من العلماء المصنفين في القرن الثاني الهجري حيث نشطت حركة تدوين الحديث ودأب العلماء على ذلك .

ومن العوامل الملحة التي أدت الى تأكد تدوين الحديث وجمعه فشو الوضع للحديث فقد كان لذلك أثر عظيم لتدوين السنة وحفظاً لها ومنعاً لعبث المتلاعبين في السنة النبوية .

كيفية تدوين السنة النبوية :

فقد أثار ذلك النشاط العلمي وكتابة الحديث وتدوينه على أبناء الصنف الأول من القرن الثاني الهجري وظهرت تلك المصنفات والكتب في أوقات متقاربة في مناطق مختلفة فبعد أن كان أهل الحديث يجمعون الأحاديث المختلفة في الصحف والأجزاء أصبحوا يرتبون الأحاديث على الأبواب في المصنفات والجوامع والسنن ونحو ذلك .

فكان أول من اشتهر بالتصنيف بمكة أبو محمد عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج المتوفى سنة ١٥٠هـ ومحمد بن اسحاق المتوفى سنة ١٥١هـ بالمدينة وباليمن معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣هـ وسعيد بن أبي عروبة المتوفى سنة ١٥٦هـ بالمدينة وأبو عمرو عبدالرحمن بن عمرو الأوزاعي المتوفى سنة ١٥٦هـ بالشام ومحمد بن عبدالرحمن من أبي ذئب المتوفى سنة ١٥٨هـ بالمدينة والربيع بن صبح المتوفى سنة

١٦٠هـ بالمدينة. وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠هـ بالبصرة . وأبو عبدالله سفيان بن سعيد الثواري المتوفي سنة ١٦١هـ بالكوفة . والليث بن سعد المتوفى سنة ١٧٥هـ بمصر . والامام مالك بن أنس المتوفى سنة ١٧٩هـ بالمدينة المنورة صنف الموطأ المشهور . وعبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١هـ بخراسان وهشيم بن بشير المتوفى سنة ١٨٨هـ بواسط . وجرير بن عبدالحميد الضبي المتوفى سنة ١٨٨هـ بالري . وعبدالله بن وهب المتوفى سنة ١٧٩هـ . وسفيان بن عينية المتوفى سنة ١٩٨هـ بمكة . ووكيع بن الجراح الرواسي المتوفى سنة ١٧٩هـ بالكوفة . وعبدالرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ باليمن .

ثم تلاهم كثير من أهل عصرهم ومن بعدهم على منوالهم وقد كانت طريقتهم في جمع الأحاديث المتناسبة في الأبواب وضمها الى بعضها في أبواب في مصنف واحد.

وقد كان معظم هذه المصنفات يضم الى الحديث الشريف فتاوي الصحابة والتابعين كما يتجلى لنا هذا في موطأ مالك بن أنس ومصنف عبدالرزاق .وقد كانت هذه المصنفات تحمل عناوين مثل مصنف وسنن وموطأ وجامع .

من أنواع المصنفات في الحديث النبوي :

١- الموطأ والمصنفات والجوامع والسنن والمسانيد والمعاجم والأجزاء والمشيخات والأطراف .

أما الموطآت فمنها موطأ الامام مالك بن أنس المتوفى سنة مائة وتسعة وسبعون ١٧٩هـ وطريقه فيها مرتبة على الأبواب جمع بين الحديث المرفوع وأقوال الصحابة وفتاوي التابعين وما أراده من الفقه .

٢- المصنفات كمصنف عبدالرزاق بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني المتوفى سنة ٢١١هـ ومصنف أبي بكر أبي شيبة المتوفى سنة ٢٣٥هـ وطريقه المصنفات مرتبة على الأبواب ولكنها تشتمل على الحديث الموقوف والمقطوع بالاضافة الى الحديث المرفوع .

٣- الجوامع وهي مرتبة على الأبواب : وسميت بذلك لأنها يوجد فيها أحاديث في جميع الموضوعات في الدين وأبوبه فهي تشمل العقائد والعبادات والمعاملات والأحكام والسير والمناقب والآداب والرقائق والتفسير والفتن وأشراط الساعة وأخبار يوم القيامة وغير ذلك . كجامع البخاري وجامع الترمذي وجامع مسلم .

٤- كتب السنن هي مرتبة على الأبواب أيضاً الا أنها تقتصر على جمع أحاديث الأحكام وأبواب الفقه غالباً وهي كثيرة كسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن ابن ماجة.

٥- المساند هي كل كتاب جمع فيه مصنفه مرويات كل صحابي على حدة من غير مراعاة الى ترتيب الحديث على الأبواب وهي كثيرة من اعظمها مسند الامام أحمد رحمه الله تعالى .

٦- المعاجم هي كل كتاب جمع فيه مؤلفه الحديث على ترتيب الشيوخ على ترتيب حروف الهجاء .

وأشهر المعاجم الثلاثة للطبراني أبي القاسم سليمان بن محمد المتوفى سنة ٣٦٠هـ .

٧- الأجزاء هي مؤلفات صغيرة يجمع فيه مؤلفها المرويات عن رجل واحد سواء كان من طبقات الصحابة أو ممن بعدهم كجزء حديث أبي بكر وجزء حديث مالك .

كما تكون الأجزاء في جمع سند حديث الحديث واحد أو جمع أدلة مسألة واحد مثل جزء القراءة خلف الامام للبخاري .

وهكذا استمر نشاط العلماء في تدوين الحديث ثم أبتدأوا بلون جديد في التصنيف وهو فكرة الاقتصار على الحديث المرفوع الى رسول الله ﷺ وحذف ما عداه من أقوال الصحابة والتابعين من كتب الحديث ، وقد رتبوا الاحاديث على طريقة المساند بأن جمعوا أحاديث كل صحابي على حدة وان تباينت المواضيع التي تناولتها تلك المساند.

ومن عرف من اوائل المصنفين للمساند:

- أبو داود الطيالسي المتوفى سنة ٢٠٤هـ.
- وأبويعلى الموصلي المتوفى سنة ٢٠٧هـ.
- ومحمد بن يوسف الفريابي المتوفى سنة ٢١٢هـ.
- واسد بن موسى الأموي المتوفى سنة ٢١٢هـ.
- وعبيدالله بن موسى العبسي المتوفى سنة ٢١٣هـ.
- وعبدالله بن الزبير الحميدي المتوفى سنة ٢١٩هـ.
- وأحمد بن منيع البغوي المتوفى سنة ٢٢٤هـ.
- ونعيم بن حماد الخزاعي المتوفى سنة ٢٢٨هـ.
- ومسدد بن مسرهد البصري المتوفى سنة ٢٢٨هـ .

- وأبو الحسن علي بن الجعد الجوهري المتوفى سنة ٢٣٠هـ .
- ويحيى بن المعين المتوفى سنة ٢٣٣هـ .
- وأبو خيثمة زهير بن حرب المتوفى سنة ٢٣٤هـ .
- وأبو بكر عبدالله بن ابراهيم بن عثمان بن أبي شيبة المتوفى ٢٣٥هـ .
- واسحاق بن راهوية المتوفى سنة ٢٣٨هـ .
- وأحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤٠هـ.
- وبقية بن مخلد المتوفى سنة ٢٧٦هـ .

وقد بلغ أكرم ضياء العمري[٥٤] بعد من ألف مسنداً ٣٥ مصنفاً وذكر الموجود منها كاملاً كان أو بعضاً مطبوعاً أو مخطوطاً[٥٤].

فجميع من تقدم من أهل المسانيد جمعوا الحديث ودونوا بأسانيده وهم لم يقتصروا على الحديث الصحيح بل احتوت مسانيدهم على الحديث المرفوع الى رسول الله ﷺ وان كان ضعيفاً وتجنبوا أقوال الصحابة وفتاوي التابعين .

فالمسانيد امتازت على غيرها مما صنف قبلها باقتصارها على الحديث المرفوع فقط ولكنها لم تقتصر على الصحيح من الحديث بل جمعت بينه وبين الحسن والضعيف لأن همهم كان منصباً على جمع مرويات كل صحابي على حدة ويضاف الى ذلك أن طريقة المسانيد صعبة المأخذ في التنقيب على الحديث والعثور عليه لأنها لم ترتب على الأبواب وقد كان هذا أحد الأمور التي حدت بالامام البخاري الى تأليف الجامع الصحيح كما يأتي ان شاء الله تعالى .

فنتج عن ذلك لون جديد في التأليف فرأى جماعة من أئمة الحديث أن يصنفوا في الحديث الصحيح المرفوع المجرد عن غيره مرتباً على الأبواب لتكون مصنفاتهم سهلة التناول وعظيمة الفائدة يركن اليها ويعتمد عليها فكان أول من طرق هذا الباب الامام الحافظ أبو عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري ألف الجامع الصحيح المسند وتبعه في ذلك الامام مسلم بن الحجاج رحمهما الله رحمة واسعة .

المبحث الأول في صحيح البخاري

ترجمة الامام البخاري رحمه الله

نسبه ومولده ومنشئه

هو أبو عبدالله محمد[٥٥] بن اسماعيل[٥٥] بن ابراهيم[٥٦] بن المغيرة[٥٧] ابن بردزبة[٥٨] الجعفي مولاهم[٥٩].

ولد رحمه الله تعالى يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة ببخارى[٦٠] ومات أبوه اسماعيل وهو صغير فنشأ محمد في حجر أمه وقد كان خلف أبوه مالاً واسعاً لايعلم فيه حرام ولاشبهة وقد كان له أخ يسمى أحمد أكبر منه مات وصار مال ابيهما للامام البخاري .

نشأة البخاري العلمية :

لقد تلقى محمد بن اسماعيل البخاري العلم مبكراً في حداثة سنه فكان سماعه الحديث سنة خمس ومائتين وهو ابن احدى عشرة سنة وأقل .

ذكر الحافظ بن حجر عن الفربري أنه سمع محمد بن أبي حاتم وراق البخاري يقول سمعت البخاري يقول الهمت حفظ الحديث وأنا في الكتاب قلت وكم أتى عليك اذ ذاك فقال عشر سنين وأقل ثم خرجت من الكتاب فجعلت أختلف الى الداخل وغيره .

وقال البخاري لما طعنت في ست عشره حفظت كتب ابن المبارك ووكيع وعرفت كلام هؤلاء - يعني أصحاب الرأي - وسمع مرويات أهل بلده من محمد بن سلام والمسندي ومحمد بن يوسف اليكندي .

ثم رحل مع أمه وأخيه أحمد وكان أسن منه الى الحج سنة عشر ومائتين وكانت أول رحلة له فحجوا ورجع أخوه أحمد الى بخارى ومات عقب ذلك وبقى البخاري بمكة مجاوراً يطلب العلم فيها والحجار ستة أعوام ولو رحل أول الطلب لأدرك ما أدركته أقرانه من طبقة عالية لم يدركها هو وان كان أدرك ماقاربها كيزيد بن هارون وأبي داود الطيالسي .

وقد أدرك عبدالرزاق الصنعاني وأراد أن يرحل اليه وكان يمكنه ذلك فقيل له أنه قد مات فتأخر عن التوجه الى اليمن ثم تبين أن عبدالرزاق كان حياً فصار يروي عنه بواسطه .

قال البخاري لما طعنت في ثمانية عشرة صنفت كتاب قضايا الصحابة والتابعين ثم صنفت التاريخ الكبير في المدينة عند قبر النبي ﷺ وكنت أكتبه في الليالي المقمرة وأقل اسم في التاريخ الا وله عندي قصة الا أني كرهت أن يطول الكتاب قال سهل بن السري قال البخاري دخلت الشام ومصر والجزيرة مرتين والبصرة أربع مرات وأقمت بالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت الى الكوفة وبغداد مع المحدثين(٦١).

شيوخ البخاري :

ذكر الحافظ بن حجر عن محمد بن أبي حاتم عن البخاري أنه قال كتبت عن ألف وثمانين نفساً ليس فيهم الا صاحب حديث .

وقال أيضاً لم أكتب الا عمن قال الايمان قول وعمل .

ذكر عدد من مشايخ البخاري :

قسم الحافظ بن حجر من أخذ عنهم البخاري الحديث الى خمس طبقات(٦٢):

١- الطبقة الأولى : من حدثه عن التابعين مثل محمد بن عبدالله الأنصاري حدثه عن حميد ومثل مكي ابراهيم حدثه عن يزيد بن أبي عبدالله ومثل أبي عاصم النبيل حدثه عن يزيد ابن أبي عبدالله أيضاً ومثل عبدالله بن موسى حدثه عن اسماعيل بن أبي خالد .

ومثل أبي نعيم حدثه عن الأعمش

ومثل خلاد بن يحيى حدثه عن عيسى بن طهمان .

ومثل عياش وعاصم ابن خالد حدثاه عن حريز بن عثمان وشيوخ هؤلاء كلهم تابعيون .

٢- الطبقة الثانية : من كان في عصر هؤلاء لكن لم يسمع من ثقات التابعين كآدم بن أبي أويس وأبي مسهر عبدالأعلى بن مسهر وسعيد بن أبي مريم وأيوب بن سليمان بن بلال وأمثالهم .

٣- الطبقة الثالثة : هي الوسطى من مشايخه وهم من لم يلق التابعين بل أخذ عن كبار تبع الاتباع كسلمان بن حرب وقتيبة بن سعيد ونعيم بن حماد وعلى بن المديني ويحيى بن معين وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبو بكر بن أبي شيبة الحافظ عبدالله بن محمد ابن أبي شيبه ابراهيم بن عثمان العبسي مولاهم .

وعثمان بن أبي شيبة أبو الحسن بن محمد بن ابراهيم عثمان الكوفي وأمثال هؤلاء.

وهذه الطبقة قد شارك مسلم بن الحجاج في الأخذ عنهم .

٤- الطبقة الرابعة : رفقاؤه في الطلب ومن سمع قبله قليلاً في الطلب كمحمد بن يحيى الذهلي وأبي حاتم الرازي ومحمد بن عبدالرحيم صاعقه سمي صاعقه لحفظه وكان بزازاً .

وعيد بن حميد وأحمد بن النضر وجماعة من نظرائهم وانما يخرج عن هؤلاء مافاته عن مشايخه أو مالم يجده عند غيرهم .

٥- الطبقة الخامسة : قوم في عداد طبقته في السن والاسناد وسمع منهم للفائدة كعبدالله بن حماد الآملي وعبدالله بن أبي العاص الخوارزمي وحسين بن محمد القباني وغيرهم عمل في الرواية عنهم لما اشتهر عن عثمان ابن أبي شيبة ووكيع لايكون الرجل عالما حتى يحدث عمن فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه.

وعن البخاري أنه قال لايكون الرجل كاملاً حتى يكتب عمن هو فوقه وعمن هو مثله وعمن هو دونه[٦٣].

فهذا التقسيم يبين فيه الحافظ عن جملة من مشايخ البخاري وكالمثال فقط لأنهم عدد غفير .

ذكر الذهبي أن[٦٤] البخاري سمع من أهل بلده من محمد بن سلام والمسندي ومحمد بن يوسف البيكندي وسمع ببلخ من مكي بن ابراهيم وببغداد من عفان وبمكة من المقرئ والبصرة من أبي عاصم والأنصاري وبالكوفة من عبيدالله بن موسى وبالشام من أبي المغيرة والفريابي وبعسقلان من آدم وبحمص من أبي اليمان وبدمشق من أبي مسهر .

وذكر الخطيب البغدادي[٦٥] من مشايخه أبا غسان النهدي وعارم بن الفضل وأبا معمر المنقري وعبدالله بن مسلمة القعنبي وابا بكر الحميدي وسعيد بن أبي مريم المصري ويحيى بن بكير المخزومي وعبدالله بن يوسف التنيسي وعبدالعزيز بن عبدالله الأويسي واسماعيل بن أبي أويس المديني وعبدالقدوس بن الحجاج والحجاج بن المنهال .

هذا وقد روى البخاري رحمه الله عن خلق كثير كما تقدم .

سعة علم البخاري وقوة حفظه :

قد كان البخاري رحمه الله منحه الله قوة حافظة منذ نشأ وهو غلام ذكر الحافظ بن حجر عن حاشد بن اسماعيل قال كان البخاري يختلف الى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام فلمناه بعد ستة عشر يوماً فقال قد أكثرتم عليّ فأعرضوا على ماكتبتم فأخرجناه فزاد على خمسة عشر ألف حديث فقرأها عن ظهر قلب حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه .

وقال محمد بن أبي حاتم عن البخاري كنت في مجلس الفريابي فقال حدثنا سفيان عن أبي عروة عن أبي الخطاب عن أبي حمزة فلم يعرف أحد في المجلس من فوق سفيان فقلت لهم : أبو عروة هو معمر بن راشد وأبو الخطاب هو قتادة بن دعامة وأبو حمزة هو أنس بن مالك .

وقال البخاري فيما كان يقرأ للناس سفيان عن أبي الزبير عن ابراهيم فقلت ان أبا الزبير لم يرو عن ابراهيم فانتهرني فقلت له ارجع الى الأصل ان كان عندك فدخل فنظر فيه ثم رجع فقال كيف ياغلام فقلت هو الزبير وهو ابن عدي عن ابراهيم فأخذ القلم وأصلح كتابه وقال لي صدقت وكان البخاري ابن عشر سنة آنذك .

وقال البخاري أحفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح وقال ابن كثير قال البخاري فكرت البارحة فاذا أنا قد كتبت لي مصنفات نحواً من مائتي ألف حديث مسندة وكان يحفظها كلها .

ودخل سمرقند فاجتمع بأربعمائة من علماء الحديث بها فركبوا أسانيد وأدخلوا اسناد الشام في اسناد العراق وخلطوا الرجال وجعلوا متون الأحاديث على غير أسانيدها ثم قرؤها على البخاري فرد كل حديث الى اسناده وقوم تلك الأحاديث والأسانيد كلها وما تعنتوا عليه فيه ولم يقدروا أن يعلقوا عليه سقطة في اسناد ولا متن[٦٦] وقد ذكروا أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظه من مرة واحدة .

وأخرج الحافظ بن حجر بسنده الى أبي أحمد بن عدي الحافظ أنه قال سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون ان محمد بن اسماعيل البخاري قدم فسمع به أصحاب الحديث فأجمعوا وأرادوا امتحان حفظه فعمدوا الى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الاسناد لاسناد أخر واسناد هذا المتن لمتن آخر ودفعوها الى عشرة أنفس كل رجل عشرة أحاديث وأمروهم اذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري وأخذوا عليه الموعد للمجلس فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من

العشرة فيسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : لاأعرفه فما زال يلقي عليه واحد بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول لاأعرفه وكان العلماء ممن حضر المجلس يلفت بعضهم الى بعض ويقولون فهم الرجل ومن كان لم يدر القصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ . ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة فقال : لاأعرفه فسأله عن آخر فقال لاأعرفه فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته والبخاري يقول لاأعرفه ثم انتدب الثالث والرابع الى تمام العشرة حتى فرغوا كلهم من تلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخاري لايزيدهم على لاأعرفه فلما علم أنهم قد فرغوا التفت الى الأول فقال أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة فردّ كل متن الى اسناده وكل اسناد الى متنه وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل[٦٧].

قال الحافظ بن حجر " قلت " هنا يخضع للبخاري فما العجب من رده الخطأ والى الصواب فانه كان حافظاً بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ماألقوه عليه مرة واحدة وذكر الذهبي عن البخاري قوله أحفظ مائة ألف حديث صحيح وأحفظ مائتي ألف غير صحيح .

وقال ابن خزيمة ماتحتى أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري[٦٨] .

سيرة وشمائل الامام البخاري وزهده وفضله :

اتفق العلماء على امامة الامام البخاري وحفظه واتقانه وعلمه وفقهه وورعه وزهده وعبادته وعدالته وجده واجتهاده .

فقد كان رحمه الله تعالى في غاية من الحياء والشجاعة والسخاء والورع والزهد في الدار الفانية والرغبة في الدار الآخرة طيب الطعمة خلف له أبوه مالاً حلالاً كثيراً.

ذكر الحافظ بن حجر عن وراقة أنه قال سمعت محمد بن خراش يقول سمعت أحيد بن حفص يقول دخلت على اسماعيل والد أبي عبدالله عند موته فقال لاأعلم من مالي درهماً من حرام ولادرهماً من شبهة.

وحكى أنه ورث عن أبيه مالاً جليلاً وكان يعطيه مضاربة وقال البخاري ماتوليت شراء شيء قط ولابيعه كنت آمر انساناً فيشتري لي قيل له ولم قال لما في ذلك من الزيادة والنقصان والتخليط وذكر غنجار في تاريخه عن أبي سعيد بن منير قال كان حمل الى محمد بن اسماعيل بصناعة أنفذها اليه أبو حفص فاجتمع بعض التجار اليه بالعشية وطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم فقال انصرفوا الليلة فجاء من الغد تجار

آخرون فطلبوا منه البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال اني نويت البارحة أن أدفعها الى الأولين فدفعها اليهم وقال لاأحب أن أنقض نيتي .

وذكر وراق البخاري أنه سمع البخاري يقول خرجت الى آدم بن أبي اياس فتأخرت نفقتي حتى جعلت آكل حشيش الأرض فلما كان في اليوم الثالث أتاني رجل لاأعرفه فأعطاني صرة فيها دنانير قال وسمعته يقول كنت استغل في كل شهر خمسمائة درهم أنفقها في الطلب وما عند الله خير وأبقى .

ورع البخاري وتقواه وقد كان مستجاب الدعوة :

لقد كان البخاري على جانب عظيم من الورع والمتابعة والانصاف حكى الحافظ بن حجر عن عبدالله بن محمد الصيارفي أنه قال كنت عند محمد بن اسماعيل في منزله فجاءته جاريته وأرادت دخول المنزل فعثرت على المحبرة بين يديه فقال لها كيف تمشين قالت واذا لم يكن طريق كيف أمشي فبسط يديه وقال اذهبي فقد أعتقتك :

قيل له ياأبا عبدالله أغضبتك فقال فقد أرضيت نفسي بما فعلت وقال وراق البخاري رأيت البخاري استلقى ونحن بفربر وكان قد أتعب نفسه في تصنيف كتاب التفسير في ذلك اليوم فقلت له اني سمعتك تقول ماأتيت شيئاً بغير علم فما الفائدة في الاستلقاء قال أتعبت نفسي اليوم وهذا ثغر خشيت أن يحدث حدث من أمر العدوى فأحببت أن استريح وآخذ أهبة فان عافصنا العدو كان بنا حراك .

قال وكان يركب الى الرمي كثيراً فما رأيت أنه أخطأ سهمه الهدف الا مرتين بل كان يصيب الهدف ولايسبق .

وقال وراقه ركبنا يوماً للرمي فجعلنا نرمي فأصاب سهم أبي عبدالله وتد القنطرة التي على النهر فانشق الوتد فلما رأى ذلك حزن وترك الرمي وتنفس الصعداء وطلب من صاحب الوتد الاذن في اصلاحه أو أخذ ثمنه فجعله صاحب القنطرة في حل مما كان فتهلل وجه البخاري وأظهر السرور وقرأ على الغرباء في ذلك اليوم خمسمائة حديث وتصدق بثلاثمائة درهم .

وطلب البخاري من مستملية أبي معشر الضرير الحل فقال احعلني ياأبا معشر في حل فقال من أي شيء قال رويت يوماً حديثاً فنظرت اليك وقد أعجبت به وأنت تحرك رأسك ويديك فتبسمت من ذلك فقال أنت في حل ياأباعبدالله يرحمك الله .

وقال البخاري دعوت ربي مرتين فاستجاب لـي (يعني بالحال) فلن أحب أن أدعو فلعله ينقص حسناتي .

وقد كان البخاري ذهب بصره وهو صغير فكانت أمه تكثر الدعاء لله والتضرع اليه بأن يرد الله له بصره فرأت ابراهيم الخليل في المنام فقال ياهذه ان الله قد رد على ابنك بصره بكثرة دعائك .

وقيل للبخاري ان بعض الناس ينقمون عليك التاريخ يقولون فيه اغتياب الناس فقال انما روينا ذلك رواية ولم نقله من عندنا وقد قال النبي ﷺ " بئس أخو العشيرة" .

قال مااغتبت أحداً قط منذ علمت أن الغيبة حرام .

وقد كان للبخاري توق وتحري في الجرح والتعديل فأكثر مايقول سكتوا عنه فيه نظر تركوه فلان رماه فلان يعني بالكذب .

وقال البخاري اني لأرجو أن القى الله ولايحاسبني أني اغتبت أحداً وقد كان البخاري رحمه الله يفعل الخيرات روى عنه وراقه أنه بنى رباطاً بفربر مما يلي البخاري فاجتمع بشرٌ كثير يعينونه على ذلك وكان ذبح بقرة فلما أدركت القدور دعا الناس الى الطعام فكان عنده خبز فألف الطعام بين أيديهم فأكلوا جميعاً وبقى فضلة من الطعام .

وكان قليل الأكل كثير الاحسان للطلبة له كرم مفرط .

عبادة البخاري :

لقد كان البخاري كثير التلاوة لكتاب الله يكثر من الصلاة متابعاً لسنة الرسول ﷺ ذكر الخطيب البغدادي[٦٩] عن محمد بن أبي حاتم الوراق قال دعى محمد بن اسماعيل الى سفيان بعض أصحابه فلما حضرت الصلاة صلى الظهر بالقوم ثم قام للتطوع فأطال القيام فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه فقال لبعض من معه هل ترى تحت قميصي شيئاً فاذا زنبور قد أبَره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعاً وقد تورم من ذلك جسده .. فقال له بعضهم كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبَرك فقال كنت في سورة فأحببت أن أتمها .

وقد كان رحمه الله يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة ويوتر منها بواحدة وكان البخاري رحمه الله تعالى اذا كان رمضان يجتمع اليه أصحابه فيصلي بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية وكذلك حتى يختم القرآن .

وكان يقرأ في السحر مابين نصف القرآن الى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال من رمضان .

وكان يختم بالنهار في كل يوم ختمه ويكون ختمه عند الافطار كل يوم ويقول عند كل ختمه دعوة مستجابة .

عفة البخاري واكرامه للعلم :

قال ابن كثير[٧٠] رحمه الله تعالى كان البخاري له جدة ومال ينفق منه سراً وجهراً وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار وكان مستجاب الدعوة مسدد الرمية شريف النفس.

بعث إليه بعض السلاطين ليأتيه حتى يسمع أولاده عليه فأرسل إليه في بيته العلم والحلم يؤتى أي اذا كنتم تريدون ذلك فهلموا إليَّ وابى أن يذهب إليهم وكان ذلك السلطان خالد بن أحمد بن يحيى الذهلي نائب الظاهرية ببخارى فبقي في نفس الأمير من ذلك وتسبب بإخراج البخاري من بلده كما سيأتي.

وذكر الحافظ بن حجر[٧١] عن بكر بن منير قال بعث خالد بن أحمد الذهلي والى بخاري الى محمد بن اسماعيل أن احمل إليّ كتاب الجامع والتاريخ لأسمع منك فقال محمد بن اسماعيل إني لا أذل العلم ولا أحمله الى أبواب السلاطين فإن كانت له حاجة الى شيء منه فليحضر في مسجدي أو في داري فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فأمنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة إني لا أكتم العلم قال فذكان سبب الوحشة بينهما.

عقيدة البخاري رحمه الله تعالى وفقه:

البخاري رحمه الله مأخذه من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ وقد برهن على ذلك في الجامع الصحيح[٧٢] حيث صدره بكتاب الايمان وساق شعب الايمان مستمداً ذلك من الكتاب العزيز والسنة النبوية .

ابتدأ كتاب الايمان بقوله باب الايمان وقول النبي ﷺ[٧٣] " بني الاسلام على خمس وهو قول وفعل ويزيد وينقص ثم ساق الأدلة على ذلك من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ واستأنس بأقوال السلف الصالح .

وصنف كتاب أفعال العباد وقال القرآن كلام الله غير مخلوق ومن زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله .

وقال البخاري القرآن كلام غير مخلوق وأفعال العباد مخلوقة ثم أخرج حديث حذيفة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ " ان الله يصنع كل صانع وصنعته " .

وقال سمعت عبدالله بن سعيد يعني ابن قدامة السرخسي يقول مازلت أسمع أصحابنا يقولون ان أفعال العباد مخلوقة .

وقال البخاري حركات العباد وأصواتهم وأكسابهم وكتابتهم مخلوقة فأما القرآن المبين المثبت في المصاحف الموعي في الصدور فهو كلام الله غير مخلوق بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم .

وقال اسحاق ابن راهويه أما الأوعية فمن يشك أنها مخلوقة فعلم مما تقدم أن البخاري لم يثبت عنه أنه قال لفظي القرآن مخلوق وأنه قد تبرأ من ذلك وقال من زعم أني قلت لفظي بالقرآن مخلوق فهو كاذب فاني لم أقله .

وقد كان البخاري فقيه كبير ينبئ عن ذلك كتابه الصحيح حيث ملأه بالمسائل الفقهية والنكات الحكمية والتفسيرات القرآنية واللغات العربية فكتابه الصحيح شاهد بذلك ولذلك اشتهر عند العلماء أن فقه البخاري في تراجم الصحيح فهو يضع الترجمة ثم يدلل عليها وقد اعترف له أهل عصره بالتقدم بالحديث وعلومه والفقه واللغة وأقبلوا عليه يأخذون عنه .

اقبال العلماء على الأخذ من الإمام البخاري :

لقد اعترف أهل عصره له بالتقدم بالعلم والفضل وأخذوا عنه ولازموا حلقاته وآثروه على غيره .

فحين قدم نيسابور استقبلوه من مرحلتين من البدو وفرغوا حلقات الدرس لذلك أخذ عنه شيخه محمد بن يحيى الذهلي واعترف له بالفضل وأذن له بعقد حلقات التدريس وحث طلبة العلم على الحضور عند البخاري .

ذكر الحافظ بن حجر عن الحاكم أبي عبدالله في تاريخه أنه لما قدم البخاري نيسابور سنة خمسين ومائتين فأقام بها مدة يحدث على الدوام قال فسمعت محمد بن حامد البزار يقول سمعت الحسن بن محمد بن جابر يقول سمعت محمد بن يحيى الذهلي يقول اذهبوا الى هذا الرجل الصالح العالم فاسمعوا منه قال فذهب الناس اليه وأقبلوا على السماع منه حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى فتكلم فيه بعد ذلك .

وقال حاتم بن أحمد بن محمود سمعت مسلم بن الحجاج يقول لما قدم محمد بن اسماعيل نيسابور مارأيت والياً ولا عالماً فعل به أهل نيسابور مافعلوا به استقبلوه من مرحلتين من البلد أو ثلاث .

وقال محمد بن يحيى الذهلي في مجلسه من أراد أن يستقبل محمد بن اسماعيل غداً فليستقبله فاستقبله محمد بن يحيى وعامة علماء نيسابور فدخل البلد فنزل دار البخاريين فقال لنا محمد بن يحيى لاتسألوا عن شيء من الكلام فانه ان أجاب بخلاف مانحن عليه وقع بيننا وبينه ... الخ ، فازدحم الناس على محمد بن اسماعيل حتى امتلأت الدار والسطوح .

محنة البخاري مع منافسيه وصبره:

وقال ابو احمد بن عدي ذكر لي جماعة من المشايخ أن محمد بن اسماعيل لما ورد نيسابور زاحتمع عليه الناس عنده حسده بعض شيوخ الوقت فقال لإصحاب الحديث إن محمد بن اسماعيل يقول : لفظي بالقرآن مخلوق فلا حضر المجلس قام إليه رجل فقال ياأبا عبدالله ماتقول في اللفظ بالقرآن مخلوق أو غير مخلوق فأغرض عنه البخاري ولم يجبه ثلاثاً فألح عليه فقال البخاري : القرآن كلام الله غير مخلوق وافعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة.

ثم ذكر الحافظ عن ابي الحامد الشرقي أنه سمع محمد بن يحيى الذهلي يقول كلام الله غير مخلوق ومن زعم لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يُجالس ولا يُكلم ومن ذهب بعد هذا الى محمد بن اسماعيل فأتهموه فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه.

وقال الحاكم ولما وقع الخلاف بين البخاري وبين الذهلي في مسألة اللفظ انقطع الناس عن البخاري إلا مسلم بن الحجاج واحمد بن سلمة.

قال الذهلي ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا فأخذ مسلم رداءه فوق عمامته وقام على رؤوس الناس فبعث الى الذهلي جميع ما كان كتبه عنه على ظهر جمال.

وكما ان مسلم رحمه أخذ عن محمد بن يحيى هذا القدر الكبير فانه لازم البخاري وأخذ عنه وحذا حذوه وتفقه عليه ولكنه أنصف فلم يخرج عنهما في كتابه الصحيح.

وذكر الحاكم أيضاً عن الحافظ أبي عبدالله بن الأخرم قال لما قام مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة من مجلس محمد بن يحيى بسبب البخاري قال الذهلي لا يساكنني هذا الرجل في البلد.

وقال الحاكم أيضاً سمعت محمد بن صالح بن هانيء يقول سمعت أحمد بن سلمة النيسابوري يقول دخلت على البخاري فقلت ياأبا عبدالله إن هذا الرجل مقبول بخراسان خصوصاً في هذه المدينة وقد لجَّ في هذا الأمر حتى لا يقدر أحد منا أن يكلمه فيه فما ترى ؟

قال فقبض البخاري على لحيته ثم قال : وأفوض أمري الى الله إن الله بصير بالعباد اللهم إنك تعلم أني لم أرد المقام بنيسابور أشراً ولا بطراً ولا طلب رياسة وانما أبت علي نفسي الرجوع الى الوطن لغلبة المخالفين وقد قصد في هذا الرجل حسداً لما آتاني الله لا غير. ثم قال لي : يا أبا أحمد إني خارج غداً لتخلصوا من حديثه لأجلي.

قال أحمد بن منصور الشيرازي لما رجع أبو عبدالله الى بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهل البلد حتى لم يبق مذكور ونثر عليه الدراهم والدنانير فبقي مدة ثم وقع بينه وبين امير بخارى خالد بن أحمد الذهلي ما تقدم ذكره أنه أراد الأمير أن يحضر البخاري منزله فيقرأ على أولاده الجامع والتاريخ فأمتنع البخاري وقال لا يسعني أن أخص بالسماع قوماً دون آخرين. فاستعان الأمير خالد بحريث بن أبي الورقاء وغيره من أهل بخارى حتى تكلموا في مذهب البخاري فنفاه عن البلد فدعا عليهم البخاري فقال اللهم أرهم مافصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهليهم فأجاب الله له دعوته.

أما خالد فلم يأتي عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادي عليه فنودي عليه بالعزل ثم صار أمره الى الذل والحبس حتى مات وأما حريث بن أبي الورقاء فإنه ابتلى في أهله .

ولم يبق أحد ساعد على أخراج البخاري من بلده وتسبب لمنعه من الاملاء وإلقاء الدروس بالجامع على أهل بلده إلا ابتلى بلاءً شديداً بسبب دعوة البخاري عليهم.

وقد كان مجاب الدعوة رحمه الله حلال مطعمه عارفاً رباني عظيم التقوى والزهد والورع يحب الخير.

الهوامش

١- جاء الاستفتاح بنحو ماذكر في حديث مرفوع عن ابن مسعود رضي الله عنه أخرجه أبو داود ج٢ ص ٤٨٩ والترمذي ج٤ ص٢٣٨ وحسنه .

٢- اللخاف الحجارة العريضة الرقيقة .

٣- انظر فتح الباري ج١٠ ص٩٧ ، وصحيح البخاري مع الفتح ج٢ ص٣٣٩ وكتاب فضائل القرآن لابن كثير ص٣٣ في الجزء الأخير من تفسيره والسير له أيضاً ج٤ ص٦٨٢ .

٤- انظر فتح الباري ج١٠ص٣٩٧ وكتاب فضائل القرآن لابن كثير ص٣٣ والسيرة النبوية له ج٤ ص٦٨٢ وزاد المعاد لابن القيم ج١ ص ١٧ .

٥- أخرجه أبو داود ج٢ ص٥٠٧ .

٦- انظر الرسالة للشافعي ص٤٠ .

٧- انظر صحيح البخاري ج٣٢٩ مع الفتح .

٨- أخرجه مسلم في صحيحه ج١٨ ص١٢٩ مع شرح النووي .

٩- أخرجه الترمذي في الجامع ج٧ ص٤٢٧ والدارمي في سننه ج١ ص٩٩ وأورده الدكتور محمد العجاج الخطيب في السنة قبل التدوين ص٣٠٣.

١٠- أخرجه البخاري في الصحيح ج١ ص٢١٧ والدارمي في سننه ج١ ص١٠٣ .

١١- أخرجه البخاري في الصحيح أيضاً ج١ ص٢١٥ .

١٢- أخرجه البخاري ج١ ص٢١٧ وج٦ ص١٣ .

١٣- قد ذهب الى هذا الرامهرمزي في المحدث الفاصل ج١٧ وابن قتيبه في تأويل مختلف الحديث ص٣٨٥ واختار ابن حجر في فتح الباري ج١ ص ٢١٨ وأحمد شاكر في تعليقه على الباعث الحثيث ص١٣٣ .

١٤- أخرجهما البخاري في الصحيح ج١ ص٢١٥ مع الفتح .

١٥- أخرجهما مالك في الموطأ ج٣ ص٥٨ والبخاري في الزكاة في الصحيح مع الفتح ج٤ ص٦٠ .

١٦- ج١ ص١٠٥ ولفظ الحديث مارغبني في الحياة الا الصادقة والوهط فأما الصادقة فصحيفة كتبتها من رسول الله ﷺ وأما الوهط فأرض تصدق بها عمرو بن العاص كان يقوم عليها .

١٧- انظر المسند ج٥ ص٨٥ وانظر جامع الترمذي ج٤ ص٥٧٢ .

١٨- أخرجه البخاري ج٤ ص٦٠ في الزكاة وأبو داود ج٢ ص٩٦ والترمذي .
١٩- أخرجه مالك في الموطأ ج٣ ص٥٨ وأبو عبيد في كتاب الأموال ص٣٥٧ .
٢٠- انظر منهج النقد في علو الحديث لنورالدين عتر ص٤٨ .
٢١- انظر المسند ج٦ ص٩٦ رقم ٤١٥٧ بتحقيق أحمد شاكر .
٢٢- أخرجه البخاري في الصحيح ج١ ص٢٠٩ و٢١٠ و٢١١ وأخرجه مسلم وأبو داود وغيرهم .
٢٣- انظر تدريب الراوي ج٢ ص٣٧١ ، ٣٧٢ .
٢٤- أخرجه البخاري في الصحيح مع الفتح ج١ ص٢٠٩ .
٢٥- انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٥ وسنن الدارمي ج١ ص١٠١ وجامع بيان العلم وفضله ص٥٠ لابن عبدالبر وتقيد العلم للخطيب البغدادي ص٥٤ و٥٥ .
٢٦- أخرج الترمذي مايدل على ذلك في الجامع ج٤ ص٥٧٢ من طريق ربيعة بن عبدالرحمن قال وأخبرني ابن لسعد بن عبادة قال وجدنا في كتاب سعد أن رسول الله ﷺ " قضى باليمين مع الشاهد " .
٢٧- أخرج البخاري مايدل عليها في الجهاد ج٦ ص٤٦١ مع الفتح .
٢٨- انظر بحوث في تاريخ السنة المشرقة لأكرم ضياء العمري ص٢٢٣ .
٢٩- انظر المصدر السابق حيث بعذريه لابن عبدالبر جامع مع بيان العلم وفضله ص٧٣ .
٣٠- انظر الكفاية للخطيب البغدادي ص٣٣٠ .
٣١- انظر تهذيب التهذيب لابن حجر ج٤ ص٣٣٦ .
٣٢- انظر جامع بيان العلم وفضله ج١ ص٧٣ وتقيد العلم ص٨٤ و٨٥ للخطيب وقد نقل الامام أحمد في مسنده محتواها ذكر ذلك أكرم ضياء العمري ص٢٣٤ من المصدر السابق .
٣٣- انظر تاريخ السنة المشرقة ص٢٣٤ ذكر أنها مخطوطة في دار الكتب الظاهرية
٣٤- انظر أصول الحديث وعلومه ومصطلحه لمحمد العجاج الخطيب ص١٥٩ ، الى ١٦٥ وانظر أصول الحديث لمحمد العجاج الخطيب ص١٩٤ و ١٩٥ .
٣٥- انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج١ ص٨٤ .
٣٦- انظر بحوث في تاريخ السنة المشرقة ص٢٢٥ أكرم ضياء العمري .
٣٧- المرجع السابق .
٣٨- المرجع السابق أيضاً .
٣٩- المرجع السابق أيضاً .

٤٠- المرجع السابق ص٢٢٦ .
٤١- المرجع السابق أيضاً .
٤٢- المرجع السابق أيضاً .
٤٣- المرجع السابق أيضاً .
٤٤- أنظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧٠ .
٤٥- انظر سنن الدارمي ج١ ص١٠٦ .
٤٦- انظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧١ وانظر سنن الدارمي ج١ ص٨٠٦ .
٤٧- أنظر أصول الحديث لمحمد عجاج الخطيب ص١٧١ .
٤٨- المصدر السابق والآية من سورة طه رقم ٥٢ .
٤٩- في تذكرة الحفاظ ج١ ص٩٣ .
٥٠- في السنن ج١ ص١٠٤ .
٥١- في الصحيح ج١ ص٢٠٤ مع فتح الباري .
٥٢- أبو بكر قال الحافظ بن حجر هو أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري فعلى هذا قول البخاري أبو بكر بن حزم نسبة الى جد أبيه ولجده عمرو صحيحه وأبو بكر تابعي فقيه استعمله عمر بن عبدالعزيز على المدينة أميراً وقاضياً ولهذا كتب اليه .
٥٣- قال حدثنا العلاء بن عبدالجبار قال حدثنا عبدالعزيز بن مسلم عن عبدالله بن دينار بذلك يعني حديث عمر بن عبدالعزيز .
٥٤- أنظر بحوث في تاريخ السنة مشرقه ص٢٣٠ .
٥٥- والد البخاري اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة ترجم له ابن حبان في كتابه الثقات في الطبقة الرابعة فقال اسماعيل بن ابراهيم والد البخاري يرو عن حماد ابن زيد وروى عنه العراقيون وذكره ولده في التاريخ الكبير وقال سمع من مالك بن أنس وحماد بن زيد وابن المبارك .
٥٦- ابراهيم بن المغيرة قال الحافظ بن حجر في مقدمة هدى السادى ج٢ ص٢٥٠ لم أقف على شيء من أخباره .
٥٧- المغيرة بن بردزبة أسلم على يد اليمان الجعفي فنسب البخاري اليه نسبة ولاء .
٥٨- بردزبة أصله في الفارسية الزاع كذا يقول أهل بخارى وكان بردزبة فارسياً على دين قومه ثم أسلم ولده المغيرة كما تقدم .

٥٩- الجعفي : نسب البخاري الى بني جعفة نسبة ولاء لأن جده المغيرة أسلم على يد اليمان الجعفي فنسبوه اليه .

٦٠- قال الحافظ بن حجر قال المستنير بن عتيق أخرج لي ذلك محمد بن اسماعيل بخط أبيه وجاء ذلك عنه من طرق انهى هدى السادى ج٢ ص٢٥٠ .

٦١- أنظر تذكرة الحفاظ ج٢ ص٥٥٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥٠ .

٦٢- أنظر هدى السارى ج٢ ص٢٥١ .

٦٣- أنظر تذكرة الحفاظى للذهبي ج٢ ص٥٥٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥١ و ٢٥٢ .

٦٤ - في تذكرة الحفاظ ج٢ ص٥٥ .

٦٥- في تاريخ بغداد ج٢ ص٤ و ٥ .

٦٦- أنظر البداية والنهاية ج١١ ص٢٥ وهدى السارى ج٢ ص٢٥١ .

٦٧- أنظر هدى السارى ج٢ ص٢٥٨ .

٦٨- في تذكرة الحفاظ ج٢٢ ص٥٥٦ .

٦٩- في تاريخ بغداد ج٢ ص١٢ .

٧٠- أنظر البداية والنهاية ج١١ ص١٧ .

٧١- في هدى السارى ج٢ ص٢٦٥ .

٧٢- ج١ ص٥١ .

أصوات الذلاقة في البحث اللّغويّ

بقلم : الدكتور علي حسين مزبان
المدرس في كلية التربية – حجة

مُقدّمة

على الرغم من وفرة الدراسات الصوتية عند العرب قديماً وحديثاً ، ووفرتها عند الباحثين الأوربيين من مستشرقين وغيرهم فاننا نلمس أن الدراسة الصوتية في العربية لاتزال تحتاج الى جهود أكثر دقةً وأوسع بذلاً لتؤتي للباحث المعاصر والمتتبع لأمور اللغات في عصرنا الحاضر الشيء الجديد أو لترجع في الأقل مايكاد يندثر في النظرات والاتجاهات والآراء التي مرَّ بها الباحث العربي من غير روّية أو استطالة تفكير .

وقد كتب عدد من الأوربيين في مجال الصوتيات اذكر منهم (فندريس) في كتابه (اللغة) وقد عقد موازنات كثيرة بين لغات متنوعة فأبرز جوانب اتفاق واختلاف في المباحث الصوتية ، ومثله صنع (نولدكه) في (الساميات) ، واسرائيل ولفنسون في " تأريخ اللغات السامية " وقد أفاد الباحثون المعاصرون من هذه الجهود في كتاباتهم مثل الدكتور ابراهيم انيس والدكتور تمام حسان والدكتور ابراهيم السامرائي والدكتور علي عبدالواحد وافي وغيرهم .

أصوات الذلاقة عند القدماء :–

أول من درس الحروف دراسة صوتية ووضع لها مجاميع وأحيازاً ومدارج هو امام العربية الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) في كتابه (العين) ، وقد سماها الأقدمون (الأحرف المذلقة) وهي ستة عندهم (ف ، ب ، م ، ر ، ل ، ن) يقابلها في الانكليزية (f. b. m. r. l. n) وقد تابع الأزهري (٣٧٠هـ) الخليل في الكلام على الأحرف المذلقة بقوله " الحروف الذُلق : الراء واللام والنون سميت ذلقاً ، لأن مخارجها من طرف اللسان ، وذلق كل شيء وذولقه طرفه "[1] ونستطيع أن نقول ان ابن سيّده ميز بين أصوات الشفة وأصوات الذلاقة ثم أطلق عليها مصطلح (الحروف المذلقة) ليصبح التمييز بين مخارج هذه المجموعة من تلك ، بقوله ،

حروف الذلاقة ستة الراء واللام والنون والفاء والباء والميم ، بسبب أنه يعتمد عليها بذلق اللسان وهو في الصفة والخصائص التعبيرية واللسانية ولذلك يكون ماجاء عند كثير من صدره وطرفه ، وقيل : هي حروف طرف اللسان والشفة وهي الحروف الذُلق ، الواحد منها أذلق ثلاثة منها ذولقية ، وهي الراء واللام والنون وثلاثة شفوية، وهي الفاء والباء والميم وانما سميت هذه الحروف ذلقاً ، لأن الذلاقة في النطق انما هي بطرف أسلة اللسان والشفتين وهما مدرجتا هذه الحروف الستة "[٢] .

أقول : ان هذا التفسير على الرغم من صحته في أغلبه الا أنه يحتاج الى الدقة في تحديد المجموعتين وفي صحة مايطلق عليهما عند الحديث عن صفتهما وخصائصهما. فأما كون الأولى (أحرف شفة) فلأنها تنزلق على الشفة ، والشفة موطن اخراجها، وأما الثانية فلأنها تنزلق على طرف اللسان فأصل اطلاق مصطلح (الذلاقة) على هذه المجموعة الأخيرة ثم انسحب على المجموعتين ، ولكن التمييز الدقيق اقتضى تسمية الحروف الستة بـ (الحروف المذلقة) ثم تميزت كل مجموعة منها بما عرفت به مما ذكرنا ، قال أبو البركات " والمذلقة ستة أحرف : اللام والنون والراء والميم والباء والفاء ويجمعها (فرمن لب) والمصمتة ماعدا هذه الستة "[٣].

ومصطلح الأصوات المذلقة يصدق على هذه الأحرف الستة لما وصفنا وذلك أنها تميزت بصفات لم تتميز بها سائر أصوات اللغة العربية ولذلك كان اصطلاح (الأصوات المصمتة)[٤] على الأصوات غير المذلقة مخالفاً له في الصفة والسمة فالمذلقة أخف الحروف وأسهلها تحركاً وأوضح تفاعلاً بغيرها وأيسرها نطقاً على اللسان لذلك قل أن نجد لفظاً يزيد على الثلاثة خالياً من الذلاقة أو في شيء منها ولذلك امتزجت مع الحروف المصمتة في بناء الكلمة الواحدة لتكون معادلاً رياضياً لجريان الأصوات على اللسان .

ومن هنا كان مذهب الدكتور صبحي الصالح في أنه لايجوز لنا الخلط بين الأحرف الذلقية مخرجاً ، والمذلقة صفةً ، فالذلقية لاتخرج الا من ذلق اللسان ، أما المذلقة فمنها مايخرج من ذلق اللسان كالراء واللام والميم ومنها مايخرج من ذلق الشفة وهي الفاء والباء والميم ففي صفة الذلاقة شمول وعموم وفي مخرج الذلاقة تضييق وتحديد والاتفاق في الاسم لايوقع في اللبس عند التفرقة بين الصفة والمخرج[٥] أما المصمتة فهي ضد المذلقة ويصعب على اللسان النطق بها وسميت بهذا الاسم لأنها أصمتت أي منعت أن تختص ببناء كلمة في لغة العرب اذا كثرت حروفها فوق الثلاثة كما فسرها أبو البركات[٦].

وقد نقل ابن منظور في صفة حروف الذلاقة وسائر أصوات اللغة عن ابن جنّي وهو كلام الخليل في مقدمة العين قوله " قال ابن جنّي وفي هذه الحروف الستة سر ظريف ينتفع به في اللغة ، وذلك أنه متى رأيت اسماً رباعياً أو خماسياً غير ذي زوائد قلابد فيه من حرف من هذه الستة أو حرفين وربما كان ثلاثة وذلك نحو : جعفر فيه الراء والفاء ، وسلهب فيه اللام والباء ، وسفرجل فيه الفاء والراء واللام ، وفرزدق فيه الفاء والراء ، وقرطعب فيه الراء والباء وهكذا عامة في هذا الباب . فمتى وجدت كلمة رباعية أو خماسية معراة من بعض هذه الأحرف الستة فاقضي بأنه دخيل في كلام العرب وليس منه ولذلك سميت الحروف غير هذه الستة : المصمتة أي صمت عنها ان يُبنى منها كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلاقة "[٧] وحدد الخليل في الرباعي من الألفاظ مايقرب من عشر كلمات خلت من أحرف الشفة أو الذلاقة وحكم بأنها " جُنى شواذ "[٨] وأورد من تلك الكلمات الرباعية " العسجد ، والقسطوس ، والقداحس ، والدعشوقة ، والدهدعة والزهزقة " وعاد في موضع آخر فقال " وليس في كلام العرب دعشوقة ولا جلاهق ولا ... الخ " مما يدل على أن أمثلة هذه الكلمات الشواذ مولدة أو دخيلة .

وتأكيد هذه الظاهرة في كلام العرب يؤخذ من كلام الخليل أيضاً حين سأله الليث " كيف تكون الكلمة المولدة المبتدعة غير مشوبة بشيء من هذه الحروف ؟ فقال نحو " الكشعج و الخضعج ، والكشعطج ، وأشباههن فهذه مولدات ، لاتجوز في كلام العرب لأنه ليس فيهن شيء من حروف الذلق والشفوية فلا تقبلن منها شيئاً، وان أشبه لفظهم وتأليفهم فان النحارير منهم ربما أدخلوا على الناس ماليس من كلام العرب ارادة اللبس والتعنت "[٩] وفي هذا الموضع يؤكد الخليل ماسبق أن أشرنا اليه من كلام ابن جنّي على الرباعي والخماسي من كلام العرب وقد كان ابن جنّي معتمداً فيه على الخليل .

ان هذه الظاهرة الصوتية لهذه المجموعات من الحروف تفتقر الى مثلها سائر أصوات العربية وهي ظاهرة لاتعطي ميزة لهذا الصوت من المجموعة من الآخر بل ان أية مفردة في العربية زادت أصولها على ثلاثة أحرف لابد لها من أن تكون ذات حرف أو حرفين أو ثلاثة من الحروف المذلقة الستة فضلاً عن ان وجود أحد هذه الأحرف في الكلمة الرباعية والخماسية يعني فصاحة هذه الكلمة وأصالتها في بناء العربية وامتناع وقوع الشك في صحتها ، فاذا خلت مادة الكلمة الرباعية أو الخماسية

من واحد من هذه الأحرف تسرب الشك الى أصالة الكلمة وحكم عليها بأنها دخيلة أو مولّدة مبتدعة .

استعمال هذه الأحرف :-

اذا تتبعنا استعمال هذه الأحرف في بناء الكلمة العربية وجدنا صفة كثرة دورانها على اللسان وسهولتها في النطق وكثرة دخولها في أبنية الكلم العربية سواء كانت في بناء الثلاثي أم غيره ، أم في الحروف فهو أمر يلمسه كل دارس لأبنية العربية وأصواتها.

ان معظم الحروف والأدوات الاستفهامية ، والنافية والشرطية وغيرها تتألف في الأقل من صوت من اصوات الأحرف المذلقة مثل " في ، عن ، من ، الى ، على ، الباء ، الواو ، لولا ، لوما ، أما ، هلاّ ، هل ، لا ، كيف ، أنّى ، أيّان ، ما ، لن ، لم، لماّ ، أين ، أن ، ليت ، لعلّ ، لكن ، ليس ، لام الأمر ، لام التعليل ، فاء السببية ، واو المعية ، ثم ، واو العطف ، فاء العطف ، بل ، بلى ، نعم ، أجل ... الخ .

هذه الظاهرة الصوتية تشير الى مسألة حرية بالتأمل ، هي العلة في جعل هذه الأصوات هي الأسبق في تكوين هذه الأدوات وتركيبها وتأليفها من غيرها من الحروف المصمتة ... لمَ كانت هذه الحروف دون غيرها أساساً في تأليف الأدوات التي يكثر دورانها في الكلام في الاستفهام والجواب والتعجب والشرط والنفي والاستغاثة والندبة بل دخلت في تركيب جملة من المهمات الأخرى كالأسماء الموصولة : الذي ، التي ، اللذان ، اللذين- أل ، من ، ما ، والضمائر : أنت ، أنا ، أنتم ، هو ، هم ، هن ، هما ، أنتما ... الخ .

سؤال ينبغي الوقوف عنده ، وفي التفتيش عن جوابه نجد أن هذه الأصوات نفسها هي الجواب وذلك لأنها أخف الأصوات وأيسرها نطقاً وأكثرها سهولةً على اللسان ، ليس في لسان العرب حسب ، بل في جميع اللغات العالمية ، فالأصوات (ب ، ف ، م) هي أول الأصوات التي يطلقها الطفل وهو في مراحل نموه الأولى وأطفال العالم جميعاً يطلقون (بابا ، ماما) وغيرها من الكلمات التي تدخل في تركيبها حروف الشفة[١٠] كما يمكن الطفل أن يطلق ألفاظاً أخرى تتكرر فيها حروف الشفة من أشيائه الضرورية مثل (مما) لقنينة الحليب و (بب) للخبز و (مية) للماء و (ننا) لأي شيء يريده ، وقد يبدو في بعض الأصوات التي يطلقها الطفل في مراحل نموه الأولى ابتعادٌ عن حروف الذلاقة والشفة كالدال في (دده) او (دادا) لأنه من الأصوات النطقية ومخرجه بعيد من مخرج الشفة فضلاً عن أنه أقرب

في نطق الطفل من حروف الذلاقة (ر ، ل ، ن) لانه ينطق الدال من طرف اللسان كما ينطق اللام أو الراء . وهذه الصورة من مراحل نطق الطفل تفسر لنا سبب وقوع الأطفال في تصويت بعض الحروف في مطلع حياتهم اللغوية في الأخطاء الكثيرة الواضحة ، فقد يلفظ الطفل (صوت الكاف) اللهوية (تاء) فيقول : " تتاب " في " كتاب "[١١] ويلفظ صوت الباء (B) باء (P) والعين همزة ... وهكذا .

وربما ادخل (الباء) وهو الحرف الشفوي الميسور على لسانه في كل لفظة يتلفظ بها فيقول مثلاً (بادو يريد (أحمد) أو (باب) ويريد كتاب أو (باسي) ويريد (كرسي) " وهذا مظهر من مظاهر مايسميه علماء النفس بـ (مقاومة القديم للجديد أو آثار العادات اللغوية "[١٢].

مما تقدم نلاحظ أن لأصوات الشفة ، وأصوات الذلاقة مكاناً متقدماً من بين الأصوات في نشأة لغة الانسان الأولى ، في لغات العالم ، والعربية احدى هذه اللغات الحية التي استأثرت أصوات الذلاقة فيها بالمكان المتميز الظاهر .

أصوات الذلاقة في الساميات :-

وسواء أكانت العربية أصل الساميات أم واحدة منها فان مجموعة اللغات السامية استأثرت بظاهرة تميز أصوات الذلاقة فيها فلم تخلُ منها أو من بعضها لغة سامية - معروفة كالبابلية الآشورية - والآرامية والحبشية والعبرية ولغات جنوب الجزيرة بل دخلت في تأليف مفرداتها وأثبتت الدراسات المقارنة أن الضمائر وأسماء الاشارة ومفردات أعضاء الجسم وجمهرة من الأفعال والأسماء والحروف تتفق في أبنيتها ونلاحظ من بينها أن الحروف المذلقة تتخذ مواقعها في أماكن واحدة منها جميعاً وهذه جملة من الألفاظ :

١- في العربية (أب) وفي الآشورية والبابلية (أبو) وفي العبرية (أب) وفي السريانية (أبا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أب) .

٢- في العربية (ابن) وفي الآشورية البابلية (بنو) وفي العبرية (بن وبني) وفي السريانية : (برا وبورا) وفي لغات جنوب الجزيرة (بن) .

٣- في العربية (أذُن) وفي الآشورية البابلية (أزنو) وفي العبرية (أوزين) وفي السريانية (أودنا) وفي لغات جنوب الجزيرة (ايزن) .

٤- في العربية (اثنان) وفي الآشورية البابلية (شنا) وفي العبرية (شنايم) وفي السريانية (ترين) وفي لغات جنوب الجزيرة (سنيت) .

٥- في العربية (أرض) وفي الآشورية البابلية (أرضو) وفي العبرية (أبريض) وفي السريانية (أرعا وأرفا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أرض) .

٦- في العربية (أربع) وفي الآشورية البابلية (أربعو) وفي العبرية (أربع) وكذا في السريانية ولغات جنوب الجزيرة .

٧- في العربية (اسم) وفي الآشورية البابلية (شومو) وفي العبرية (شم) وفي السريانية (شما) وفي لغات الجنوب (سم) .

٨- في العربية (أم) وفي الآشورية البابلية (أمو) وفي العبرية (أم) وفي السريانية (أيما) وفي لغات جنوب الجزيرة (أم) .

٩- في العربية (أنف) وفي الآشورية البابلية (أبو) وفي العبرية (أف) وفي السريانية (أبابا) وفي لغات جنوب الجزيرة (أنف) .

١٠- في العربية (جمل) وفي الآشورية البابلية (جملو) وفي العبرية (جمل) وفي السريانية (جملا) وفي لغات جنوب الجزيرة (جمل) .

١١- في العربية (نفس) وفي الآشورية البابلية (نفشتو) وفي العبرية (نفش) وفي السريانية (نفشا) وفي لغات جنوب الجزيرة (نفس) .

١٢- في العربية (اللُّب) بمعنى القلب وفي الآشورية البابلية (لبو) وفي العبرية (لب) وفي السريانية (لبا) وفي لغات الجنوب (لب) [١٣].

والملاحظة الجديرة بالاهتمام هنا هي أن الأحرف الستة (ر ، ل ، ن ، ف،ب، م) التي وردت في مجموعة هذه اللغات داخلة في تأليف كلمات ذات دلالات واحدة لم تتغير من لغة الى أخرى بل اتخذت مواقعها في التأليف وأعطيت قيمتها الصوتية الواحدة الا ما وجدناه في لفظة (أنف) فقد ذهبت النون من تأليف الكلمة في الآشورية ، وأُبدلت الباء بالفاء وهو ابدال مطّرد في أصوات الذلاقة كذلك ذهبت النون أيضاً من تأليف الكلمة في العبرية والسريانية وأُبدلت الفاء باءاً في الأخيرة ، ولعلَّ هذه التغيرات جاءت من تأثير بعضها في بعض .

أما لغات جنوب الجزيرة ويعني بها الدارسون لغات اليمن القديمة[١٤] (القتبانية، السبئية ، المعينية ، الحضرمية ، وهي لغات انقرضت بعد أن سيطرت عربية الشمال وأصبح لها السيادة المطلقة على الجزيرة وخارجها) فهي أشدُّ أسراً بالعربية وأكثر اسلافاً معها .

والذي يستوقفنا من ظاهرة سقوط النون في تأليف بعض الكلمات غير العربية في الساميات أنَّ بعض الضمائر التي تشترك النون في تأليفها تخلو من النون في بعض

الساميات ويحل التضعيف بدلها فالضمير (أنت) للمخاطب أو المخاطبة تشترك في ابقاء النون العربية والحبشية وانْ كانت الحبشية تجعله هكذا (أنتا) وللمخاطبة (انت) (anti) كالعربية الا أن النون تسقط من الآرامية (أتا) (atta) والعبرية (I7GN) والبابلية والآشورية (أتا) (atta) . وللمخاطبة المؤنثة على التوالي (أت atti وأت atti وأت أما في الحبشة فهي كالعربية (أنت) [١٥].

ويبدو لي ان العلة في سقوط النون من تأليف ضمير المخاطب في بعض الساميات هو أن النون فيها دلالة على الذات فينبغي أن تدخل في ضمير المتكلمين لاضمير المخاطب ولعلّ دخولها في العربية أو الحبشية جاء طوراً من أطوارها المغرقة في تاريخ نضجها ، وربما كان من أثر الحبشية في العربية أو العكس .

أما أحقيّة كون صوت النون داخلاً في تأليف الضمائر الدالة على الذات فالضميران (نحن) (أنا) فانهما أحقّ بالنون من غيرهما ولذلك اشتركت الساميات في (نحن) ففي العربية (نحن) وفي الحبشية (نحنا) nehna وفي البابلية والآشورية nini-aninu وفي العبرية nahna وفي الآرامية ennahnanhnan في حين سقطت النون كذلك من الضميرين في (أنتم) و (أنتي) في سائر الساميات الا العربية والحبشية[١٦].

ولذا كانت النون سائغة في الاستعمال حين دخلت قبل ياء المتكلم لتقي النعل والأحرف المشبهة بالفعل من الكسر (نون الوقاية) في مثل قولنا :

(انني ، سالني ، يعلمني) وذلك لصلتها القوية بذات المتكلم والدلالة عليه ولولا ذلك لاستعيض عنها بالميم أو الباء أو أيّ صوت آخر .

والذي حدانا للتحدث عن النون هو شذوذ بعض الضمائر في تأليف أصواتها لأنها لم تدخل في تأليفها في بعض الساميات .

ظاهرة التعاقب والابدال في أصوات الذلاقة :-

اذا استقرينا كتب الابدال والقلب نجد ظاهرة التعاقب والابدال ملموسةً واضحةً ، فالملاحظ أنَّ الابدال يقع بين (النون واللام) مثل : هتن المطر وهتل ، والسدون والسدول وهو ماجلل به الهودج[١٧] من الثياب والكتل والكتن وهو لزوق الوسخ بالشيء واللعاعة والنعاعة وهو بقل ناعم في أول طلوعه ، والبعير الرفن والرفل اذا كان طويل الذنب . وهكذا ، وهذا الابدال الكثير بين صوتي اللام والنون لم يكن مقصوراً على اللغة الفصيحة المتوارثة بل تعدّاها الى لسان العامة من الناس فبعض عامّة أهل

العراق يقول في (نظم) (لظم) ومن الكثير الدارج في القديم والحديث انهم يقولون في (اسماعيل ، اسماعين) وفي (جبريل ، جبرين) وقد لحظ ابن جنّي في كتابه (الخصائص) هذه التبدلات بين اللام والنون فحاول أن يجد مخرجاً لمجموعة منها، فيجعل بعضها أصلاً ويجعل الثانية مبدلة منها أو يجعل اللفظي أصلين كما ترى في قوله في " هتلت السماء وهتنت) هما أصلان ألا تراهما متساويين في التصرف : سمائب هتن وهتل[18] وقال في (بل وبن) " ماقام زيد بل عمرو " (وبن عمرو) بنون مبدلة من اللام ، ألا ترى الى كثرة استعمال (بل) وقلة استعمال (بن) والحكم على الأكثر لا على الأقل هذا هو الظاهر في أمره ، ولست مع هذا وأدفع ان يكون (بن) لغة قائمة برأسها " وقال في (خامل وخامن) النون بدل من اللام لأنه الأكثر[19].

ومن ذلك أيضاً الابدال بين (الباء والميم) وهما حرفان شفويان وهو ابدال كثير جداً وهذه جملة من الألفاظ : " بنات بخر ومخر ، با اسمك ما اسمك ، أربد وأرمد وهو لون الغبرة ، ظأب وظأم وهو صياح التيس ، وعشمة وعشبة للكبير اليابس ، وأربى عليه وأرمى عليه والرجبة والرحمة النخلة الطويلة ، وأومى اليه وأوبى اليه ، واقتبع واقتمع ، قال أبو مسمع هما واحد لأن الباء أخت الميم[20] . والابدال في هذين الحرفين كثير لايحصى ، وما أوردناه أمثلة عليه وقد حاول ابن جنّي في هذا النوع من الابدال أن يعلل بعضه فذهب في مثل قولهم " علب وعلم " العلب : الأثر ، والعلم : الشق في الشفة العليا ، فذاك من (علب) وهذا من (علم) والباء أخت الميم قال طرفة :

كأن علوب النسخ في دأياتها موارد من خلقاء في ظهر قردد[21]

ومن ذلك – أيضاً – الابدال بين الباء والفاء وهما حرفان شفويان فالغرب : الدلو العظيمة وهي الغرف لأنها يغرف بها فذاك من (غرب) وهذا من (غرف) [22] وقد لاحظنا أنهما تعاقبا في بعض المفردات في اللغات السامية كما في الآرامية ومثل ذلك ابدال الميم من النون وهما صوتان من الأصوات المذلقة ، نقل الأصمعي أنهم يقولون للحيّة " أيم " و " أين " وانهم يقولون الغيم : الغين ، وامتقع لونه وانتقع اذا تغير ، ويقولون : تمدلت بالمنديل وتندلت[23] والابدال بين هذين الحرفين كثير في كلام العرب ، على الرغم من أنَّ (النون) حرف ذلقي ، والميم حرف شفوي في مخرجهما ولكنهما حرفان مذلقان من المجموعة الستة .

ويكون الابدال بين الفاء والميم وهما حرفان شفويان ، كما يقولون :

جلف القشر وجلمه : يقول ابن جنّي : " هما متقاربان " لفظان متقاربان معنى وذاك من (ج ل ف) وهذا من (ج ل م) [٢٤].

ويكثر التبدل في الحرفين (ر ، ل) فيتعاقبان كثيراً كالالفاظ (أمرط و أملط) اذا لم يكن في السهم ريش[٢٥] و (متقطر ومتقطل) للجذع و (لتد ، رتد) و (ملدم ومردم) و " هدل الحمام وهدر " الى غير ذلك من صور الابدال بينهما ، وهذان الحرفان من أحرف الذلاقة .

وهذه الابدلات في الواقع ليست مقصورة على نفسها كلٌّ مجموعة على حدة وليست هي أيضاً مقصورة على كونها من الحروف المذلقة (الشفوية والذلوقية) بل تعدت نطاقها الى الحروف المصمتة فتفاعلت معها الكثير منها فالفاء وهو حرف شفوي أبدل من (الثاء) وهو حرف لثوي ، فقيل " فوم وثوم " وقيل " ثم وفم " وقيل " الأثافي والأفافي "[٢٦] واختلفت تميم عن الحجاز في هذين الصوتين فالثاء عند تميم تقابلها الفاء عند الحجاز كما في (لثام لفام) مثلاً ، والذي يستقصي صور القلب والابدال في كتاب ابن السكيت بين الحروف المذلقة وسائر الحروف المصمتة يجد أنَّ الفاء أبدلت من الكاف[٢٧] وان اللام أبدلت من الدال[٢٨] في حين أن الكاف حرف لهوي ، والدال حرف نطقي ، وما ذلك الا لأن هذه الحروف أكثر أصوات العربية انسجاماً وتفاعلاً مع سائرها .

ولاحظ ابن جنّي أنه قد يتعاقب أكثر من صوتين من حروف الذلاقة فأورد لذلك قولهم : (جبل) و (جبن) و (جبر) وقال لتقاربهما في موضع واحد ، وهو الالتئام والتماسك ، منه الجبل لشدته وقوته وجبن اذا استمسك وتوقف وتجمَّع ومنه جبرت العظم ونحوه أيّ قويته[٢٩] وقد يحدث لبعض هذه الأصوات أن تقلب في الكلمة الواحدة قلباً مكانياً فيكون هذا الصوت مكان ذاك ، ومسوغ ذلك هو اشتراكهما في الحيز والمخرج كما ترى في قولهم " لعمري " " رعملي "[٣٠].

وقد تكلمت تميم بالثانية واختصت بالأولى الحجاز[٣١].

ويتضح من بعض تآلف أصوات الذلاقة أنَّ حروف الشفة يمكن أن يحصل بينها تبدل صوتي كالفاء والباء أو الباء والميم ولكن حروف اللسان تتنافر فلا تلتقي أحياناً في موضع كوقوع النون قبل الراء مما حداهم الى الحكم على (نرجس) - مثلاً - بالعجمة في حين نجد أن اللغات الأخرى سامية كانت أم آرية - أوربية تبيح لنفسها هذا الاجتماع كما ترى في (نرج) و (نرام سين) و (نروج) وغيرها. ولم تجتمع النون واللام والنون سابقة لها ولكننا اذا قلبنا الموضع فقدمنا اللام والراء

على النون كان شيئاً طبيعياً وذلك يرجع الى ماتتميز به من الغنة وطول الصوت الذي يقطعه صوت اللام والراء بعده فان عكست فقلت (رن) (لن) فلاصعوبة في اطالة الصوت للنون في مثل هذه الحالة وأستطيع أن أقول ان أصوات الذلاقة هي من أوائل ماتولد في اللغة البشرية الأولى ثم ألحقت بها سائر أصوات اللغة الأخرى وهذا واضح في الأسماء اللاهوتية القديمة وأسماء الأشياء والمخلوقات وأسماء الأعلام وماعرفه الانسان الأوّل على سطح الأرض اشتراك هذه الأصوات أو بعضها في تأليف الكلمات أو المسمَّيات نحو " الله ، الرب ، السماء ، الأرض ، البحر ، اليم ، هابيل ، قابيل ، بابل ، آشور ، أور ، أنكيدو ، الاله ، نينوى ، ابراهيم ، اسماعيل ، آزر ، يوسف ، يعقوب ، داوود ، هود ، سليمان ... الخ " كما يمكن أن نلاحظ ان هذه الأصوات كان لها النصيب الأوفر في أسماء البيئة العربية في الجزيرة مثل " مطر ، سحاب ، شجر ، بحر ، صحراء ، بيداء ، فدفد ، مفازة ، ابل، بعير ، جمل ، ناقة ، غنم ، ضأن، أنس ، جن ، حصان ، فرس ، جواد ، نمر ، ليث ، عرب ، ثور ، نخلة، بئر ، قليب ، خيمة ، وتد ، سبب ، فاصلة ، سيف ، رمح ، مدية ، سكين ، أنف ، فم ، رأس ، أذن ، عين ، رجل ، صدر ، بطن ، قبيلة ، عشيرة ، صدم ، عرك ، حرب ، فني ، سلب ، سرق ، غزوة ... الخ " وهكذا نجد ان معظم المسميات المألوفة لدى العربي يغلب عليها أحد الحروف المذلقة أو أكثر فضلاً عن أنها تدخل في تأليف كل كلمة رباعية أو خماسية كما أشرنا الى ذلك فيما سبق .

ومن خلال هذه المكانة الواضحة لأصوات الذلاقة في اللغات نستطيع أن نقول انها أوّل الأصوات التي ألفها الانسان الأوّل ، وبملاحظة سريعة نستعرض بها بعض مفردات من اللغات الأوربية موازنةً بالعربية نجد أن لأحرف الذلاقة مكاناً واضحاً لايقل عن مكانها في اللغات السامية وهاك هذه الكلمات:

(Window - door - man - son - boy - girl)

(chair - sun - moon - pencil - book - woman)

وأسماء الألوان وأسماء كثيرة من الأشياء الطبيعية والمخلوقات تتردد فيها هذه الأصوات بصورة ملحوظة فاذا حاولنا مقابلتها بالعربية مثلاً رأيناها في الكثير منها متفقة في تأليف الكلمات ذات المدلول الواحد[٣٢].

فـ (بنت) في العربية فيها الباء والنون و (girl) فيها (الراء واللام).R.L وجميعها من أصوات الذلاقة ، و (ولد) في العربية فيها (الواو واللام) و (Boy) فيها (B.O) وجميعها من الأحرف الذلقية .

و (ابن) في العربية فيها (الباء والنون) ولو علمنا ان أصلها (بنو) كانت الواو – أيضاً – مضافةً اليها و (son) فيها (O.N.) وهكذا يقال في كرسي و (chair) و (قمر moon) و (شمس sun) و (قلم pencil) و (كتاب book) فربما كان الاتفاق في حروف الذلاقة في لغات العالم أوضح من سائر الحروف والأصوات وفي ذلك مافيه من الدلالة على أهمية هذه الأصوات في اللغة .

وسأحاول ان أتكلم على كل صوت من أصوات الذلاقة على انفراد وما يتعاوره من تغير أو تبدّل وأثر ذلك في سائر أصوات اللغة في تأليف الكلام .

١– النون :

صوت مجهور ، هي والراء واللام في حيز واحد مخرجها " من طرف اللسان بينه وبين ما فويق الثنايا "[٣٣] فاذا خفيت النون في النطق خرجت الخياشيم ، وتشارك النون الميم في أنهما قد يشترك الفم والخياشيم في اخراجهما فتصير فيهما غنة[٣٤].

ومعنى الغُنّة : أنها صوت في الخياشيم ولايكون لحروف اللغة غُنّة الا للميم والنون ولذا أطلق علماء اللغة على هذين الصوتين مصطلح (الحرف : الأغنّ) وماسواهما (غير أغنّ) والذي يسوّغ احداث الغنة لهذين الصوتين ان الصوت يجري معهما في الأنف داخل الخياشيم أمّا في الفم فلا يجري وذلك أنَّ اللسان لازم لموضع الحرف[٣٥] ولما كان الخيشوم هو أقصى الأنف وفيه تجويف لذلك سهَّل في هذا الموضع احداث الغنّة[٣٦] .

قال ابن الانباري في صفة النون هذه " مجهورة ذات غُنّة " وهي تخفى مع حروف الفم خاصّة ، وتبين مع حروف الحلق عامّة . وانّما خفيت مع حروف الفم لقربها منها وبانت مع حروف الحلق لبعدها منها[٣٧] ونرى ان النون تظهر عند وقوعها الى جانب حروف الحلق لما لأصوات الحلق من تأثير عام في الحروف ولبعدها عن حروف الحلق في المخرج وهذا التباعد بين أصوات أقصى الحلق وأوله أدى الى أن يحتل كل صوت موقعه من غير تأثير برديفه كما أدّى الى أن تبقى القيمة الصوتية لكل حرف ناصعة واضحة . يقول ابن الانباري " وكما أن حروف اللسان لاتدغم في حروف الحلق لبعدها منها ، وانما أخفيت مع حروف الفم كما ادغمت اللام وأخواتها كقولك " من أجلك ، من هنا ، من خاف ، من حرم زينة الله ، من على من عليك"[٣٨] فالنون في جميع ذلك ظاهرة لوقوعها قبل حروف الحلق .

ولكنها تدغم في حروف (يرملون) كما استشهدوا لذلك بـ (من لك) (من وال) و (من نؤمن) و (من رشد) و (من ماء) والمشروط في ذلك كله أن تكون النون ساكنة فان لم تكن كذلك جاز الادغام أو الاظهار[٣٩].

أما مع (الميم) فيجوز أن تظهر الغنة ويجوز اذهابها . ولقد ظهر أن العرب قد تخفي النون مع بعض حروف الحلق (كالخاء والغين) وذلك انهم يجرون هذين الحرفين مجرى (القاف والكاف) ولم يجد الخليل وسيبويه والنضر[٤٠] صحة مذهب العرب في هذا ولقد قرأ القرّاء " ولمن خام مقام ربه جنتان " بالابانة والاخفاء[٤١] وعلى الرغم من أن (النون) تدغم في حروف (يرملون) وهي من الأصوات المذلقة الا الياء فهي شجرية الا ان ابنية العربية وقياس صيغها قد يتحكم في الاظهار والادغام ومن هذا القبيل ماأشار اليه سيبويه في وقوع النون قبل الراء واللام ساكنة أو بعدهما فان بعض الأبنية توجب اظهارها كما في " قنر " " عنل " قال سيبويه " يظهرون النون ساكنة قبل اللام لأنه ليس في الكلام مثل (عنر ، عنل) [٤٢] وقد أشبع ابن جنّي هذه الظاهرة تفصيلاً وأورد أمثلة من الأبنية لايجوز فيها الا الاظهار مثل " عرند " على وزن " فعنل " باظهار النون ، و (هجنعل) و (عزنقصان) : فعنلل وفعنلان - بالاظهار قال " وهذا - الاظهار - لابد أن يكون مظهراً ولا يجوز ادغام النون في اللام في هذه الأماكن لأنه لو فعل ذلك لفسد الغرض وبطل المراد المعتمد الا تراك لو أدغمت نحو هذا للزمك ان تقول في مثل (عرند) انه فعل ، فكان - اذا - لافرق بينه وبين : (قمد وعتل وصمد) وكذلك لو قلت في تمثيل (جخنعل) أنه (فعلل) لالتبس ذلك بباب (سفرجل) و (فرزدق) وباب (عدبس) و (هبلع) و (عملس) وكذلك لو أدغمت مثل : (حبنطى) فقلت (فعلى) لالتبس بباب (صلخدى) و (جلعدى) [٤٣] ومعنى ذلك انه على الرغم من ان النون في مثل هذه المواقع ينبغي ادغامها الا أنها لابد من أن تظهر لأن ادغامها يؤدي الى أن تنتقل الى أبنية مجردة خالية من الزوائد في حين أن النون في جميع هذه الأمثلة مزيدة وليست أصلية في بناء الكلمة ولهذا لم يجز اللغويون - ومن بينهم ابن جنّي - ان يبنى مثل (جخنعل) من الفعل (دخل) لانك ستقول (فعنلل - دخنلل) فتظهر النون ساكنة قبل اللام فتقع في امتناعين الأول وجوب اخفائها في حين يؤدي اخفاؤها الى الالتباس والآخر عدم وجوب ذلك[٤٤] على أن عللا أخرى قد تدخل في تغيير صوت النون أمر ادغامه أو بقائه من غير ادغام منها ماذكره ابن جنّي في قراءة عاصم " وقيل من راق " ببيان النون من (من) فقد رفضه ابن جنّي ووصفه " بأنه معيب في الاسماع "[٤٥] وذلك انّه يرى

وجوب الادغام في وقوع النون ساكنة قبل الراء وقد استشهد لوجوب الادغام بقولهم " من رأيت " و " من راك " وتأوّل لعاصم اظهار النون - هنا - على انه أراد التنبيه به على انفصال المبتدأ من خبره ورد هذا التأويل - أيضاً - بانه " غير مرضيّ " ألا ترى الى قول عديّ :-

من رأيت المنون عرين أم من ذا عليه من أن يضام حفيرُ

بادغام (نون) : (من) في (راء) : رأيت . ويكفي من هذا اجماع الجماعة على ادغام : (من رافق) وغيره مما تلك سبيله[٤٦] .

وما أظن أن ابن جنّي هنا قد افتعل حكاية (اجماع الجماعة) على قراءة الادغام مع علمهم بأنها قراءة متواترة عن الرسول ﷺ وأن عاصماً كان يسكت سكتة لطيفة على النون وتبعه حفص[٤٧] فيها وذلك - كما يبدو - أنّ القرّاء لم يجدوا في مثل هذه المواضع من اجتماع النون الساكنة بحروف (يرملون) الاّ الادغام فجروا على سنن واحدة والاّ فما أظن أنّ مسألة الادغام والتباسها بصيغة المبالغة من (مرق ، مرّاق) تخفى على مثل ابن جنّي .

ومن التغيرات التي تطرأ على صوت النون هو مايحصل لها عند وقوعها ساكنة قبل (الباء) فانها تقلب الى (ميم) وذلك نحو (عمبر) و (شمباء) وأصلهما :

عنبر و شنباء[٤٨] وتعليل ذلك يرجع الى أنّ اجتماع صوت الميم مع الباء أخفّ من اجتماع صوت النون والباء قال ابن جنّي " ولو قيل عنبر بتصحيح النون لكان أثقل"[٤٩].

يؤدي النون في العربية واجبات كثيرة ليست مقصورة على ماذكرنا من تغيراته الصوتية فقد ينوب عن (الحركة الاعرابية) كما نرى ذلك في (الأفعال الخمسة): يقومان ، يقومون ، تقومين ، . ويعطي معنى (التنكير) اذا مالحق الاسم في حالة (التنوين) ولذلك لم يجز تنوين المضاف ، لأنَّ الاضافة وضعت للتخصيص فلا يجوز اجتماع التنكير والتخصيص[٥٠] وامتنع - أيضاً - تنوين الفعل لأمور :-

أ- أنَّ الفعل عرضة للحذف والزيادة والنقص بالجزم - مثلاً - فلما كان موضعاً للنقص منه لم تلق به الزيادة فيه .

ب- انَّ وقوع التنوين في آخر الاسم ايذان بالتمام ولما كان الفعل محتاجاً الى الفاعل دائماً فهو - اذن - محتاج الى ما يتممه فلا يليق التنوين به كما هو الحال في المضاف الذي هو أشدُّ اسراً بالمضاف اليه وأحوج مايكون اليه التيمم معناه[٥١].

وهذه التحليلات على الرغم من كونها من نبات العقل والمنطق فانها أقرب الى الصِّحة.

٢- الراء:

حرف مجهور ومخرجها من مخرج النون ، ولكنه اكثر دخولاً في ظهر اللسان مع انحراف الى اللام[٥٢]. يتميز الراء بأنه حرف مكرر ، ونعني بالتكرار : تحرك طرف اللسان وأرتداده سريعاً على مقدمة الفم وذلك اذا وقفنا عليه رأينا طرف اللسان يتعثر بما فيه من التكرار[٥٣] فسمي لذلك من بين الحروف "لمكرر" وحُسِبَ في الإمالة بحرفين لا بحرف واحد. وبسبب هذا التكرار الذي أتصف به (حرف الراء) جرى معه الصوت ، قال ابن عصفور " وأما الراء فللتكرار الذي فيها ، وقد يتجافى اللسان بعض تجافٍ فيجري معه الصوت"[٥٤] وهذا المكرر الوحيد ، وسائر الحروف غير مكررة[٥٥] والراء من الأصوات التي يسهل تلاعب اللسان والجهاز النطقي بها فيرقق ويفخم كما هو واضح عند القراء ، ولامتيازه بهذه الصفة في العربية سهل على الناطق بها أن يلغيها من كلامه مع صحة جهاز نطقه وطاقته على تبينيها ونطقها. ولعل هذه الميزة في صوت الراء هي التي جعلته في بعض اللغات الأوربية يميل الى الخفاء ، ويعلل فندريس خفاء الراء في اللغة الفرنسية أنها اتجاه عام في لغة الفرنسيين البارسيين بقوله "إبعاد الراء من الفرنسية يبدو مطابقاً لاتجاه عام في الغة على الأقل ، فيما يخص الراء الحلقية التي تتميز بها فرنسية باريس".

واليوم نرى هذه الراء لا تحس إلا بقدز ضئيل في بعض الأوضاع ، إذا جاءت بعد ساكن في نهاية الكلمة أو وقعت بين حركتين ولعلها كانت قد اختفت من اللغة الفرنسية لولا تأثير المدرسة والكتابة التقليدية.

والراء الأنجليزية التي من أصل الأسنان في طريق الاختفاء - أيضاً - وإن كانت من مخرج آخر فكثير من الأنجليز لا ينطقونها - اليوم - وإن كانوا لا يعرفون ذلك[٥٦]. والواضح على اللغة الأنجليزية عند الأمريكين أنها تخفي الراء في الموطن الذي أشار إليه فندريس.

والمعروف في الراء العربية انها راءان مفخمة ومرققة وأنهما مجهورتان ، ويشير فندريس الى هناك في بعض اللغات راءات متعددة منها راء مهموسة فهو يقول في R.L." ويعد في طائفة شبه الحركات - اللام والراء Lr المائعتان ، الأخيرة منها تدعى أحياناً - المتذبذبة - وهي تسمية أكثر دقة من الأول فهما ساكنان لهما نقطة تعلق محدودة في الفم وتعتمد على وضع ما للسان ويمكن ان تصُحب أولاً بذبذبات

حنجرية تنتج الجهر ، وهما مجهوران في أغلب الأحيان غير أنه يوجد في بعض اللغات لامات وراءات مهموسة صائتة[٥٧] وهذه الراء المائعة التي ذكرها ترجع الى ذبذبة الأجزاء المطاطة التي يشتمل عليها التجويف الحنكي وتردد اللسان وذبذبته. ومن الراءات – أيضاً – "الراء الاسنانية" وهي التي تقف في اصاتتها على تذبذب طرف اللسان.

والراء الحلقية هي التي تظهر عند تذبذب ظهر السان وهذه الراء هي المفخمة في العربية أما (الراء اللهوية) التي تنتج عن تذبذب اللهاة ، وهي التي يسمونها بـ (الراء الدسمة) Grassegee – بالفرنسية – وهي أقرب الى نطق (الغين) فيها[٥٨]. وتشيع في الأنجليزية الحديثة (الراء الأسنانية) التي يعتمد اللسان في اصاتتها على أصل الأسنان.

مما تقدم يبدو أن وجود أنواع من الراءات بين التفخيم والترقيق والتحول الى أصوات مهموسة أو اقترابها من أصوات أخرى ليس إلا مسألة طبيعية في هذا الحرف نفسه ، وذلك أنه انفرد بصفات – ربما شاركته اللام فيها أو في بعضها – كما سنرى.

ومن هنا كان صوت الراء عرضةً للعيوب الليسانية المتنوعة وهو في هذه الصفة يشبه (السين) من حروف الصفير والمهموسة في تحولة في لسان الألثغ الى ثاء أو تاء وقد تنبه أبو عثمان الجاحظ على هذه الظاهرة الصوتية في صوت السين[٥٩] ومثل لها بقولهم (أبو يكثوم) في أبي يكسوم وبـ (بثم الله) في بسم الله. كما تنبه على ما يقع في صوت الراء من عيوب فقال : أما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغات اللام الذي يعرض لها أربعة أحرف. فمنهم من اذا أراد أن يقول : (عمرو) قال (عمي) فيجعل الراء ياءاً. ومنهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمغ) فيجعل الراء غيناً ، ومنهم من إذا أراد أن يقول (عمرو) قال (عمذ) فيجعل الراء ذالاً. وإذا أنشد قول الشاعر :-

واستبدت مرةً واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال : واستبدتْ (مذةً) واحدة ..... [٦٠]

ويُلاحظ على هذه اللثغات التي رصدها الجاحظ ان اللاثغ في حرف الراء كأنه لايستطيع أن يذبذب لسانه في إخراج هذا الصوت فيهرب لسانه الى (الياء) وهو صوت شجري أو (الغين) وهو صوت حلقي أو (الذال) وهو صوت لثوي قريب من مخرج الراء اللاثغ للبيت الى أربع لثغات هي (مية) واحدة ، (مغة) و (مذة) و (مظة)

والظاء صوت لثوي أيضاً من جنس الذال. وملاك الأمر كله أن وقوع اللثغ في اللسان انما هو للتخلص من الذبذبة كما ذكرنا ومن هذه اللثغات ماكان (غيناً) وهي أشبه بلغة البارسيين التي اشرنا إليها في كلام فندريس.

لقد جعلت الذبذبة التي يمتلكها الراء أن يتصف هذا الصوت بصفة صوتية أخرى هو امتناعه أن يدغم في اللام ، قال ابو البركات " لايجوز أن يدغم الراء في الكلام كما يجوز أن تدغم اللام في الراء لأن في الراء زيادة صوت وهي التكرير فلو أدغمت اللام لذهب التكرير الذي فيها بالادغام بخلاف اللام فإنه ليس فيها تكرير يذهب بالإدغام[٦١].

هذا هو الأظهر في صفة هذا الحرف وهو قريب في بعض صفاته من صوت اللام.

٣- اللام:

من الأصوات المجهورة وهي أشبه بالراء كما رأينا غير أنَّ الراء تختلف عنها والتكرير . مخرجها من أدنى حافة اللسان الى منتهى طرفه ، بينها وبين مايليها من الحنك الأعلى مما فويق الضاحك والناب والرباعيات والثنية[٦٢] . تدغم اللام في ثلاثة عشر حرفاً هي " ت ، ث ، د ، ذ ، س ، ش ، ر ، ز ، ط ، ظ ، ص ، ض ، ن " وهي المعروفة بالحروف الشمسية . وفي تعامل اللام مع مجموعة هذه الحروف اختلاف ودرجات فادغمها في الراء أحسن من سائرها[٦٣] نحو " هل رأيت ، ويليها ادغامها في الطاء نحو " أنل طبيباً " ثم التاء نحو " هل تعلم " ثم الدال نحو " هل دنا " ثم الصاد فالسين فالزاي ثم الثاء فالذال فالظاء ثم الضاد فالشين[٦٤] ثم يأتي في آخرها ادغامها في النون والبيان فيها أحسن . أما ادغام النون فيها فهو موقوف عليها دون سائر الحروف[٦٥] وكما كانت الراء ذات درجات في التصويت جعلت فيها أنواعاً منها المائعة وفي بعض اللغات لام مهموسة صائتة[٦٦] وتتميز بأن طرف اللسان يرتفع في النطق بها حتى يعتمد على الحنك وتنخفض حواف اللسان الجانبية بطريقة تسمح للهواء أن يمر من جوانبه فيرى من هذا أن بينهما وبين الأسنانيات نقطة اشتراك. وهناك نوعان آخران من اللام المبللة ، وتتميز باستعلاء الجزء الأمامي من اللسان نحو الحنك الصلب والأخرى من أقصى الحنك وفيها يتحدب الجزء الأوسط الخلفي من اللسان في شكل ملعقة صن جهة الحنك الرخو ، واللام التي في أقصى الحنك كانت توجد في اللاتينية وهي مستعملة في اللغات السلافية ، حتى الآن[٦٧].

وفي العربية اللام المفخمة واللام المرققة ويمكن تمثل الأولى في لفظ الجلالة (الله) والثانية في لفظة (لافتة) مثلاً – وهاتان اللامان تنطقان بالصورة نفسها في مثل Lampall في بعض اللغات الأوربية .

وقوة شبه اللام بالراء أدّى بها – أيضاً – الى أن يقع اللسان بنفس العيوب التي تعتور اللسان في الراء ، فمن اللثغات في اللام تحويلها الى الياء كما أشار الجاحظ ، فيقولون " اعتييت " في " اعتليت " و " جمي ط بدلاً من (جمل) . وآخرون يجعلون اللام كافاً " كالذي عرض لعمر أخي هلال فانه كان اذا أراد أن يقول : ما العلة في هذا قال " مكعكة في هذا "[٦٨] واللامات في العربية كثيرة ذكرها المعجميون كلام الأمر ولام ولام اليمين ولام التعليل ولام الجر ولام الابتداء ولام الجر ولام الجحود ولام الملك ولام التوكيد واللامات التي تؤكد بها حروف المجازاة ، واللام التي بمعنى (الاّ) ولام التعجب ولام الاستغاثة ولام التعقيب ولام التعريف واللام الزائدة ولام (لقد) و (لما) المخففة[٦٩] .

٤– الميم :–

صوت مجهور شفوي ينزلق على الشفة ، غير أنَّ الخليل سمّاها (مطبقة) لان الشفة تطبق اذا لفظ بها[٧٠]. وفي تحديد حيزها قال الخليل : " والميم من الحروف الصحاح الستة المذلقة التي هي في حيزين : حيز الفاء والآخر حيز اللام ، وجعلها في التأليف الحرف الثالث للفاء والباء وهي آخر الحروف من الحيز الأول وهذا الحيز شفوي[٧١]" ويريد الخليل أنَّ الميم تأتي في ترتيبها بعد (ف ، ب ، م) من الشفة .

ولم يزد ابن عصفور في تحديد مخرجها على أنْ جعلها مشتركة فيه مع (الباء والواو) [٧٢] ولقد مضى معنا كثير من الصفات التي يتميز بها صوت الميم وصوت النون ولاسيّما تحوّل النون اليه في مثل (عنبر) واشتراكهما في الغنة لجريان الصوت معهما في الخياشيم .

تأتي الميم زائدة في أبنية كلام العرب ، وعدَّ اللغويون زيادتها في : صلدم وحلقوم ، بلعوم ، برعم ... الخ . ومذهب القائلين بزيادة الميم في مثل هذه الأبنية أنَّ أصولها هي : صلد ، حلق ، برع ، بلع .

قال ابن فارس : فمما جاء منحوتاً في كلام العرب في الرباعي اوله باء : البلعوم مجرى الطعام في الحلق ، وقد يحذف الواو فيقال بلعم .. وغير مشكل ان هذا مأخوذ من (بلع) الاّ أنه زيد عليه مازيد لجنس من المبالغة في معناه "[٧٣] وذهب الدكتور

ابراهيم أنيس " الى أن هذه الميم هي من آثار اللغات السامية القديمة وهي علامة التنوين في الحميرية القديمة "(٧٤).

والمعروف أن الباء والميم في بعض اللغات السامية الأخرى كما في الآرامية والعبرية تدلان على الجمع وقد مضى مثال ذلك . ومن الغريب ان سيبويه يذهب في ميم (مفاعلة الى أنها " عوض عن الف (فاعلته) "(٧٥).

ولم يجد ابن جني المبرر في مذهب سيبويه مايشير الى البدلية أو العوضية بين الميم والألف ، لأنه رأى ان ألف (فاعل - مفاعلة) هي نفسها ثابتة في الفعل ومصدره قال : " أنَّ ألف فاعلت موجودة في المفاعلة ، فكيف يعوض من حرف هو موجود غير معدوم "(٧٦) وهو ردّ صحيح ، ولو كان مذهب سيبويه أنها بدل من (ياء المضارعة) لكان أقرب الى القبول ، ذلك أنّها تقع موقع الياء في مثل (يحارب) و (محارب) و " يستوفي ، مستوفي) في أسماء الفاعلين والمفعولين " وفاعل بفاعل مفاعلة " في المصدر .

ويقع في الميم ابدال فتبدل من اللام كما في لغة حمير التي يرد فيها قول الرسول ﷺ " ليس من أمبر أمصيام في أمسفر " كما تبدل الباء بها في لغة مازن بني شيبان فهم يقولون (باسبك) ويريدون (ماسمك) وهذه التبدلات الصوتية في الميم جارية معظمها مع أخواتها (الحروف المذلقة) كما هو واضح .

٥- الباء :-

صوت مجهور ، مخرجه من بين الشفتي(٧٧) ولعلّه من أوائل هذه المجموعة نشأةً في لغة الانسان الأولى . لشدة صوت الباء كان أحد حروف القلقلة التي يجمعها قولك " جد قطب " وهي أصوات تحدث ضغطاً على مخارجها فلا يثبت عضو الجهاز فيتحرك ويسمع صوتاً لاحقاً لصوت الحرف الأصلي وهو - أيضاً - من مجموعة الحروف الشديدة التي يجمعها قولك : " أجدت طبقك "(٧٨).

تتميز الباء من بين حروف الشفة - خاصة - والحروف المذلقة عامة أنها " لا يدغم فيها إلا اللام من بين الصوات العربية"(٧٩).

وصفها ابن جني بأنها غليظة وهو يفسر بعض المواد قائلاً في كلمة بحث "فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض ، والحاء تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ، ونحوهما إذا غادرت الأرض ، والثاء للنفث والبث للتراب"(٨٠) ولعل ابن جني قد أحس بأن شدة الصوت الباء لها تأثير في الدلالة في تأليف المادة ، وهذا

الجانب في مصاقبة الأصوات للمعاني من أجل الأبحاث التي طرقها ابن جني في كتبه الخصائص وسر الصناعة والمصنف.

لقد درج الباحثون الأوربيون حرف الباء (B) في مجموعة الأصوات الانفجارية وقربوا منه صوت (الباء – P) الذي تخلو منه العربية وبعض الساميات إلا أن صوت الباء (B) لم يخل من صفته الشدة التي سبق إليها الباحثون العرب ، فلاحظ الباحثون الغربيون أثره واثر مجموعة حروف الشدة (القلقلة) على الأصوات الأنفية من تغيرات صوتية، يقول فندريس "فنحن نعرف في بعض اللغات في (V) ولامات (L) ورارات (r) أنفية ولكن عادة يحتفظ بمصطلح الأنفية للانفجارات المجهورة المصحوبة بأنواع من الرنين الأنفي فعندما يبقى حجاب الحنك هابطاً في أثناء انفجار الباء B أو الدال D أو الجيم G ترانا نحصل على الأنفيات (م – M) و (ن – N) والنون المغنة (ن – n) وتكتب بالفرنسية (gn) هذه الأصوات اللغوية يمكن اطالتها ولكن الهواء في هذه الحالة لا يخرج إلا من الأنف بالطبع لما كان الانفجار الحنكي يمنع من مرور الهواء"(٨١) هذه الصفات التي يتميز بها صوت الباء جعلت تأثيره في سائر اصوات اللغة واضحاً من غير أن يتأثر بها ولقد سبق أن أشرنا الى أن مثل (عنبر) و (شنباء) تصبح عمبر) و (شمباء) بإبدال النون ميماً إنما كان بتأثير صوت الباء بعد النون. ولباء في العربية استعمالات كثيرة ذكرها دارسوا النحو العربي ورصد المعجمات كثيراً منها كباء الاستعانة والالصاق والتي بمعنى في وعن وغيرها وعلى الرغم من أنه لم يكن من حروف الزيادة (سالتموينها) إلا أنه ورد مزيداً في الألفاظ ذكرها المعجميون ،ودارسو اللغة كالألفاظ "بحظل" و(بلذم) و (بركل) وغيرها وحجة اللغويين في مثل هذه الألفاظ اننا لو جردناها من الباء بقي مدلولها واحداً(٨٢). يتعامل الباء في تبديلاته مع أصوات الذلاقة كالميم كثيراً(٨٣) وهما صوتان شفويان إلا أننا نراه مع سائر الحروف ملتزماً بصوته الشديد المؤثر من غير أن يتأثر وهذه صفة ينفرد بها كما اسلفنا ولذا لا يسمح للميم أن تذغم فيه وإن كان تعليل ذلك يرجع الى الغنة في الميم في حين يدغم فيها في نحو قولنا : (اصطحب مطرا) ولا يدغم في (أكرم بكرا).

٦– الفاء :

صوت مهموس ، ولعله الصوت الوحيد من بين أصوات الذلاقة الذي يحمل هذه الصفة ، والأصوات المهموسة يجعلها قولنا : "حثه شخص فسكت"(٨٤) ومعنى المهموسة إنها حروف أضعف الاعتماد في موضعها فجرى النفس معها فأخفاها ،

والهمس : الصوت الخفي فلذلك سُميت مهموسة. "وهو من الأصوات الاحتكاكية، ويقرب منه صوت (V) في اللغات الأخرى[٨٥] ويبدو إن هذه السهولة والليونة في صوت الفاء كان يصحبها ليونة وفتور في الدلالة ، وهذه الصفة للحرف أدركها إمام العربية في القرن الرابع الهجري ابو الفتح ابن جني حين وقف على تأثيرها في بضعة حروف عند تركيبها معها ، فوجد أن (الفاء) إذا مازجت "الذال والتاء والطاء والراء والنون " متقدمة عليها أم متأخرة تحمل معنى الوهن والضعف وأورد ألفاظاً منها :-

الألف : الشيخ الضعيف " والتالف ، الطليف والظليف : المجاز وليست له عصمة الثمين ، الطنف : لما أشرف خارجاً من البناء وهو الى الضعف الرديف لأنه ليست له قوة الراكب الأساس والأصل.

والنطف ، والدنف ، والتنوفة ، والترقة ، والطرف ، والفرد ، والفارط، والفرتنى ، والفرات ، والفتور ، والرفت ، والطفل ، التفل ، والدفلى ، والدفر ، والفلقة ، والفطر وغيرها[٨٦] من المفردات فإنها جميعاً تؤوُل في الدلالة الى الضعف والفتور والوهن ، وان كان ابن جني قد اشتطَ في تفسير بعض هذه المفردات الى الغرابة أحياناً. وعلى أي حال فان مقدار ما يصلح من تفسير ابن جني على هذه المفردات وغيرها يعطينا دلالة كافية لتأثير صوت الفاء في المعنى في تأليف الكلم.

يتعامل الفاء في التبدلات الصوتية مع بعض الحروف ، ولقد سبقت الإشارة الى تعاقبه مع الثاء في مثل (ثم وفم) و (ثوم وفوم) و (أثافي وأثاثي) [٨٧] ويبدل أحياناً من الكاف كما في قول العرب (حسيفه وحسيكه) للغلّ والعداوة ، و (السلفان والسلكان) لأولاد الحجل[٨٨].

مما تقدم في تضاعيف هذا البحث يمكن ان نلاحظ ان أصوات الذلاقة في العربية، أصوات ذات قيمة صوتية مركزية لها الصدارة في عظم كلام العرب واللسان السامي عموماً ولقد ترجح عندي أنها من الأصوات المناسبة .

الهوامش

١- تهذيب اللغة : مادة (قذل) .
٢- المحكم والمحيط الأعظم : (قذل) .
٣- أسرار العربية : ٤٢٢ .
٤- جمهرة اللغة : ١/٦ -٧ .
٥- دراسات في فقه اللغة : ٣٨٣-٣٨٤ .
٦- أسرار العربية : ٤٢٣ .
٧- اللسان : (ذلق) ١١/٤٠ .
٨- العين : ١/٥٩ .
٩- العين : ١/٥٨-٥٩ ، اللسان :١/١٩٨ .
١٠- نشأة اللغة عند الانسان والطفل : ١٤٧-١٤٩ .
١١- نشأة اللغة عند الانسان والطفل : ١٥١ .
١٢- المصدر نفسه : ١٥٤-١٥٥ .
١٣- اللغة العبرية : ٢٥-٢٩ .
١٤- تأريخ اللغات السامية : ١٧٥ .
١٥- اللغة العبرية : ١٦-١٧ .
١٦- اللغة العبرية : ١٦ .
١٧- القلب والابدال : ٣-٤ .
١٨- الخصائص : ٢/٨٢ .
١٩- الخصائص : ٢/٨٤ .
٢٠- القلب والابدال : ١١-١٣ .
٢١- الخصائص : ٢/١٤٨ .
٢٢- الخصائص : ٢/١٤٩ .
٢٣- القلب : ١٨-٢١ .
٢٤- الخصائص : ٢/١٤٩ .
٢٥- القلب : ٥٠/٥٣ .
٢٦- المزهر : ١/٤٦٥ ، الخصائص : ٢/٨٤ .
٢٧- القلب : ٣٦ .
٢٨- القلب : ٤٦ .

٢٩- الخصائص : ٢/١٤٩ .
٣٠- المزهر : ٢/٢٧٧ .
٣١- مقاييس اللغة : ١/٥٠١ .
٣٢- يمكن ان تلاحظ مثل هذه الظاهرة في العربية فيما صنعه ابن جنّي في الخصائص : ٢/١٤٩-١٥٣ .
٣٣- المقرب : ٢/٥ .
٣٤- اللغة : ٥٥ .
٣٥- المقرب : ٢/٧ .
٣٦- تهذيب الصحاح : ٢/٧٢٩ .
٣٧- اسرار العربية : ٤٢٤ .
٣٨- التهذيب : ١٥/٥٦١ .
٣٩- المقرب : ٢/١٤ .
٤٠- الكتاب : ٢/٤١٦ .
٤١- تهذيب اللغة : ١٥/٥٦١ .
٤٢- الكتاب : ٢/٤١٦-٤١٧ .
٤٣- الخصائص : ٣/٩٦-٩٧ .
٤٤- الخصائص : ٣/٩٧ .
٤٥- الخصائص : ١/٩٤ .
٤٦- الخصائص : ٢/١٣٨ .
٤٧- النشر في القراءات العشر : ١/٤١٩ .
٤٨- الخصائص : ٢/٣٢٤-٣٢٥ .
٤٩- الخصائص : ٣/٢٠ .
٥٠- الخصائص : ٣/٢٤٠ .
٥١- الخصائص : ٢/٢٤٠ .
٥٢- الخصائص : ٢/٥ .
٥٣- حاشية القاموس المحيط : ٢/١٣٠ .
٥٤- المقرب : ٢/٧-٨ .
٥٥- اللغة : ٧٠-٧١ .
٥٦- اللغة : ٥٢-٥٣ .

٥٧- اللغة : ٥٢-٥٣ .
٥٨- اللغة : ٥٣ .
٥٩- البيان والتبيين : ٣٤/١ .
٦٠- البيان والتبيين : ٣٥/١ .
٦١- أسرار العربية : ٤٢٥ .
٦٢- المقرب : ٥/٢ .
٦٣- الممتع : ٦٩٣/٢ .
٦٤- الكتاب : ٤١٧/٢ .
٦٥- المقرب : ١٣/٢ .
٦٦- اللغة : ٥٢ .
٦٧- اللغة : ٥٣ .
٦٨- البيان والتبيين : ٣٥/١ .
٦٩- تهذيب اللغة : ٤٠٤/١٥ .
٧٠- لسان العرب : ٢٦٨/١٤ .
٧١- تهذيب اللغة : ٦١٦/١٥ .
٧٢- المقرب : ٥/٢-٦ .
٧٣- مقاييس اللغة : ٧٤/١ .
٧٤- من أسرار اللغة : ٧٤ .
٧٥- الكتاب : ٢٣٤/٢ .
٧٦- الخصائص : ٣٠٤/٢ .
٧٧- المقرب : ٥/٢ .
٧٨- أسرار العربية : ٤٢٢ .
٧٩- المقرب : ١٤/٢ .
٨٠- الخصائص : ١٦٣/٢ .
٨١- اللغة : ٥٥ .
٨٢- مقاييس اللغة : ٣٣٢/١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ .
٨٣- القلب : ١٠ .
٨٤- أسرار العربية : ٤٢٢ .
٨٥- اللغة : ٥١ .

٨٦- الخصائص : ٢/١٦٦-١٦٧ .
٨٧- المزهر : ١/٦٥ .
٨٨- القلب : ٣٦ .

مراجع البحث ومصادره

١- أسرار العربية لابن الأنباري (ت ٥٧٧ هـ) طبعة دمشق .
٢- البيان والتبيين للجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) تحقيق عبدالسلام محمد هارون .
٣- تهذيب الصحاح للزنجاني ، تحقيق عبدالسلام هارون وأحمد عبدالغفور عطار .
٤- جمهرة اللغة لابن دريد (٣٢١ هـ) مطبعة الدكن .
٥- الخصائص لابن جنّي (ت ٣٩٢ هـ) تحقيق النجار - مصر .
٦- دراسات في فقه اللغة د. صبحي الصالح - لبنان .
٧- دروس في اللغة العبرية (ربحي كمال) الطبعة الثالثة ١٣٨٣ هـ .
٨- علم اللغة د. علي عبدالواحد وافي - مصر .
٩- علم اللغة د. السعران ١٩٦٢ المعارف / مصر .
١٠- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) تحقيق درويش الجزء الأول .
١١- فقه اللغة لابن فارس (٣٩٥ هـ) .
١٢- القاموس المحيط للفيروز آبادي (٨١٧ هـ) / مصر .
١٣- القلب والابدال لابن السكيّت (٢٤٤ هـ) اوكست هفذ (ضمن الكنز اللغوي).
١٤- الكتاب لسيبويه (١٨٠ هـ) مطبعة بولاق .
١٥- لسان العرب لابن منظور (٧١١ هـ) بولاق .
١٦- اللغة (فندريس) ترجمة الدواخلي والقصاص .
١٧- المجمل لابن فارس (٣٩٥ هـ) / مصر .
١٨- المزهر في اللغة وعلومها للسيوطي (٩١١هـ) / بولاق.
١٩- معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥ هـ) تحقيق عبدالسلام محمد هارون .
٢٠- المقرب لابن عصفور الأشبيلي (٦٦٩ هـ) تحقيق الدكتور أحمد عبدالستار الجواري والدكتور عبدالله الجبوري ١٩٧٥ بغداد .
٢١- مناهج البحث في اللغة (د. تمام حسان) ١٩٥٥م / مصر .
٢٢- نشأة اللغة عند الانسان والطفل / د. علي عبدالواحد وافي ١٣٨٢ هـ.

المعارضات الشعرية ونشأتها في الأدب العربي

بقلم : الدكتور مزاحم أحمد البلداوي
الاستاذ المشارك بمركز اللغات

مُقدِّمة

ان فن المعارضات وان حظي ببعض الدراسات التاريخية والنقدية حتى من لَدُن بعض المستشرقين الذين ذهبوا الى ان اعجاب الشعراء المسلمين بقصيدة (بانت سعاد) نبههم الى تقليدها ومحاكاتها ، بل والتفوق عليها في الصور وان ظلت في رأيهم كما يقول بروكلمان :

(انها أُلبِست كعباً حلةَ مجدٍ لاتبلى) الا ان احداً من هؤلاء لم يضع اصبعه بصورة واضحة على نشأتها وسببها لذا فقد آثرت أن أخصها بهذا البحث محاولاً ايضاح ذلك ثم ماآلت اليه الى عصرنا هذا .

ان هذا الفن قد تطور في العصر الأموي قبالة فن النقائض فكان فناً شعرياً يتبارى فيه النابهون ويتسابق في ميدانه المجلون وهم يرون فيه مِحَكاً لقدراتهم وشاهداً على ملكاتهم وبرهاناً ساطعاً على تفوقهم وسبقهم ، وسنرى من خلال البحث كيف ان الفحول نافسوا الفحول وهم يضرمون دوحات أفكارهم على شطآن قصيد سابقيهم ينافسونهم بباسق أيكها وان ظل القدماء معيناً يلقح ملكات اللاحقين الا ان هذا التلاقح أخصب رياض الأدب ففاضت بسلسل عذب من الفرائد والقلائد لايمل الدارس من تتبعها اذ يعد النقاد فن المعارضات الشعرية فناً حفظ لنا تراثنا الشعري بامانة خالية من النقص والتزوير وغمط الحقائق . لذا يرى البحث ان هذا الفن فن صادق اذ يحفظ الشاعر قول ماقبله ويباريه معنى ولفظاً وصياغة وكما يقول البارودي شيخ شعراء المعارضات من المحدثين :

في كل عصر عبقريٌّ لايني يفري الفريَّ بكل قول محكم

ولعل هذا البحث لم يعن الا بالجانب التاريخي مخافة اتساعه خشية الخروج عن كونه بحثاً تاريخيا يعالج نشأة هذا الفن وتطوره على مر العصور تاركا الدراسة الفنية الى بحث قادم ان شاء الله .

والله أسال العون والسداد .

المعارضة لغة :

ورد الكثير في معنى المعارضة لغة ، وقد تناولت معاجم اللغة هذه اللفظة - مفصلة - أكثر مايتعلق بها وما يشتق منها . وقد وقفت على معاجم اللغة في استكشاف معنى لفظة المعارضة فوجدت فيها مما يخص البحث ان عارض الكتاب : قابله بكتاب آخر ، وعارضه اتى اليه بمثل ما أتى به ومنه اشتقت المعارضة . الا ان ابن منظور كما هو مألوف عنه قد أحاط بكل ما يتصل بهذه اللفظة من قريب أو بعيد، وما يعنينا في هذا البحث هو قوله في تفسير المعارضة لغة (عارض الشيء بالشيء معارضة : قابله وعارضت كتابي بكتابه ، أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني) [1].

وقد أورد حديث أبي سعيد الخدري (كنت مع خليلي صلى الله عليه وسلم في غزوة اذا رجل يقرب فرسا في عراض القوم . أي يسير حذاءهم معارضا لهم . ومنه حديث الحسن بن علي انه ذكر عمر فأخذ الحسين في عراض كلامه : أي في مثل قوله ومقابله ومنه الحديث (ان جبريل عليه السلام كان يعارض القرآن في كل سنة مرة وأنه عارضه العام مرتين أي كان يدارسه جميع ما نزل من القرآن) [2] . وفي القاموس المحيط : (عارضه ... سار حياله والكتاب قابله وفلانا بمثل صنيعه ... أتى اليه بمثل ما أتى ومنه المعارضة كأن عرض فعله كعرض فعله) [3] وفي المعجم الوسيط (عارض فلاناً في المسير : سار حياله . والكتاب بالكتاب : قابله به ، وفلاناً باراه وأتى بمثل ما أتى به . يقال عارضه في الشعر وعارضه في المسير وعارضه بمثل صنيعه) [4] . ومال ابن الأثير في النهاية الى معنى ابن منظور في شرح مادة المعارضة[5] . وهذا مايعنينا في هذا البحث دون التعرض الى ماذهبت اليه المعجمات اللغوية .

المعارضة اصطلاحاً :

أما المعارضة الشعرية اصطلاحاً فهي ان يعجب شاعر بقصيدة لشاعر سبقه أثر في المعارض بما احتوته قصيدته من جوانب فنية وصياغة ممتازة يحتذي المعارض شعر الأول فيقول قصيدة من نفس البحر والقافية[6] والموضوع الذي طرقه السابق فيسير على مضماره وهو يشعر ان في نفسه من العبقرية والقدرة الفنية مايؤهله لمجاراته او التقدم عليه بقصب سبق من صورة جديدة ومعنى جليل في صياغة يراها المتلقي أبهى حلة وأصفى رونقاً وأعمق أثراً في النفس فتكون أقرب مأخذاً دون ان يعرض لهجائه

أو سبه ولا يلزم أن يكون المتعارضان متعاصرين[٧] ومن هنا يتضح ان المعنى الاصطلاحي للمعارضة يلتقي مع المعنى اللغوي ويتفق معه .

ولما كانت المعارضات الشعرية تشبه في فنها النقائض وتلتقي معها في جوانب كثيرة ، صار لزاماً علينا ان نتطرق الى تعريف النقائض اصطلاحاً : وهي ان ينقض الشاعر الآخر ماقاله الأول حتى يجيء بغير ماقال ، هاجيا او مفتخرا . واشترطوا لها عنصر المعاصرة بين الشاعرين فان فقدت هذا العنصر فلا هي من المعارضة ولا هي من المناقضة[٨] .

نخلص من هذا كله الى ان شاعر المعارضة يدفعه الاعجاب والتقليد والحالة النفسية المتأتية من الملكة الشعرية عند المعارض ليبرز مكانته كونه كفواً لان يجدد في موضوع القصيدة التي لها مكانتها ، في حين يكون موقف شاعر النقيضة هو موقف رد على الخصم ، وتفنيد لقوله ورأيه وهجائه ، فتكون المعارضة اعجابا يدفع الى الابداع ، بينما تكون النقيضة ابداعا في الرد باسقاط ماجاء به الأول من الحجج بايراد حجج أقوى او معان أعمق من سابقه محاولا اسقاط القصيدة السابقة فنيا واجتماعيا عامدا الى قلب الحقائق والمسائل المطروحة لصالحه ، بينما تكون المعارضات مباراة شريفة ونظيفة ضمن اسلوب معين من اساليب الشعر وموضوعاته كالرثاء والمدح وغيره .

نشأة المعارضات الشعرية :

تناول بعض الباحثين نشأة المعارضات الشعرية من الناحية التاريخية دون التعرض الى الدوافع النفسية التي دفعت الى ولادة شعر تميز بميزات نبيلة غرض المعارض منها المحافظة على الشعر المعارض وعدم الطعن فيه او اظهار ركته أو عيوبه الا من جانب ابراز الشاعر نفسه لقوة ملكته الشعرية وهو بصدد معارضة قصيدة يعلم -كشاعر- انها اكتملت سماتها الفنية الى الدرجة التي حركت قريحته لان يأتي بمثلها أو بأحسن منها . هذه الخاصة المهمة في نشأة المعارضات - من الناحية النفسية - عند الشعراء جعلت من فن المعارضات الشعرية تراثاً طور لنا من شاعرية الكثير من الشعراء الذين طرقوا هذا الفن ، ونستطيع أن نقول إن نشأة المعارضات الشعرية وبدايتها كان منطلقا فنيا لم يدفع إليها ضعف أوطلب للجودة عن طريق المحاكاة والتقليد ، بل على العكس فإن هذا الفن دفع كثيراً من الشعراء أن يعلي من مكانة فنه الشعري بفن شعري تجلت فيه ملكات شعرية وبرزت قدرات جديدة تنوعت فيها الصور واشرقت العبارات

وتقلبت على أكثر من وجه طلبا للإجادة والتفوق على مر العصور أو للتقرب من الممدوح الذي قيل فيه الشعر مثلما رأينا في (بانت سعاد) ومعارضاتها ومثل البردة (للبوصيري) وغيرها ، وإذا كانت بعض المعارضات مطية للضعفاء من هواة نظم الشعر العربي . فمعارضة البوصيري[٩] (ت ٦٩٦ هـ) لبانت سعاد لم تقلل من قيمة هذه القصيدة بل نبهت الشعراء من بعد البوصيري إلى سمو فن المعارضات حتى صار الشاعر يسعى إلى هذا الفن ليحلق في سماء شعراء المعارضات ويسمو بشعره إلى المنزلة التي سموا إليها . ولعل ما وصل إليه البوصيري من شهرة وما استطاعه بمعارضته الفذة يجسد لنا الدوافع النفسية الحقيقية لكثرة ورود المعارضات عند الفحول من الشعراء المتأخرين في مبارات شعرية نظيفة غرضها الوصول إلى الكمال في فن الشعر .

النشأة التاريخية :

يذهب بعض النقاد إلى أن بعض القصائد قد تؤدي بكمال أسلوبها وتوافق الفاظها ومعانيها عند صياغتها إلى دفع شاعر فذ آخر إلى تقليدها ومحاولة الإتيان بجديد يقترب منها أو يسمو عليها . ولعل حسن الوقوف على الديار عند امرئ القيس في قوله[١٠]:

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون: لا تهلك اسىً وتجمل

هو الذي دفع بطرفة بن العبد أن يعارضه بقوله[١١] :

وقوفا بها صحبي على مطيهم يقولون: لاتهلك أسى وتجلد

وإن عده البعض من دارسي الأدب من السرقات الشعرية في الأدب العربي ، إذ لا يستبعد أن يكون طرفة بن العبد (نحو ٥٣٨ - ٥٦٤ م) قد بلغته أخبار المباراة بين امرئ القيس (نحو ٤٩٧ - نحو ٥٤٥م) وعلقمة الفحل أمام زوج امرئ القيس أم جندب المباراة التي عدت البداية التاريخية لفن المعارضات[١٢] إذا ما نظرنا إلى أن تلك المباراة كانت متكاملة بين شاعرين متعاصرين تناولا موضوعا واحداً وعالجاه معالجة نظمية واحدة وإن اختلفت نظرتاهما ، إلا أنهما أرسيا دعائم هذا الفن من حيث وحدة الموضوع والوزن والقافية والروي فمطلع قصيدة امرئ القيس[١٣]:

خليلي مرا بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

ومطلع قصيدة علقمة[١٤]:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ولم يك حقا كل ذاك التجنب

وبعد ذلك لا نرى على شاعر جاهلي مثل طرفة باسا في أن يأخذ صدر القول من شاعر آخر من فحول الشعراء مثل امرئ القيس فيعمد إلى توليف قافيته مع قصيدته المعلقة اعجابا بالمعنى والأسلوب ، ولربما يرى بعض النقاد[١٥] أن هذا أيضا كان من البدايات الأولى لفن التضمين والإقتباس عند المتأخرين وضع طرفة له أساساً منذ أيام الجاهلية التي كان شعراؤها ينسجون حللهم على الفطرة والموهبة دون تكلف دراسة اللغة .

وإذا جاز لنا أن نحكم في بدء المعارضات بوجود القصيدة والقصيدتين فإننا نستطيع ان نقول إنَّ المعارضات بدأت في العصر الأموي ، فالفرزدق مثلا ما نظم فائيته التي عارض فيها قول حسان بن ثابت في ميميته[١٦]:

ألم تسأل الربع الجديد التكلما
بمدفع أشداخ ببرقة أظلما

بقوله[١٧] :

عزفت بأعشاش وما كنت تعزف وأنكرت من حدراء ما كنت تعرف

إلا بعد أن تحداه أحد شعراء فتيان المدينة المنورة أن يقول مثلما قال حسان في الفخر . ويبدو أن الفرزدق قد ارتاح لهذا الفن إذ نراه يعارض قول طرفة بن العبد في قصيدته التي مطلعها[١٨]:

وأنا إذا ما الغيم أمسى كأنه سَماحيقُ ثربٍ وهي حمراء حرجف

بأبيات مطلعها[١٩]:

إذا أغبر آفاق السماء وكشفت
كسور بيوت الحي حمراء حرجفُ

ومثل معارضته لابيات كثير عزة[٢٠]:

الا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى في الفلاة ونعزب

بقوله[٢١]:

فيا ليتنا كنا بعيرين لا نرد على منهل إلا نشل ونقذف

فقد عارض الفرزدق كثيرا في المعاني والأفكار وأخذ بالوزن دون القافية فيكون أول من حرر هذا الفن الشعري من قيوده الأسلوبية فمهد الطريق أمام البوصيري أن يفعل فعله فيغارض البردةَ بقوله[٢٢]:

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

تاركا القافية في قول كعب بن زهير وغير مكترث بحرف الروي عنده[٢٣]:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم أثرها لم يفدَ مكبول

ليس زهداً في جمال قافية كعب وحرف رويها ، ولكنه وجد أن الميم تزيد الشعر جمالاً وطربا إذا ما تذكرنا أنه من المتصوفة ويلقي شعره في حلقاتهم ، فقافيته فعلا فيها نغم موسيقي عذب تحسسه شاعر فحل كشوقي فنهج نهجه بقوله(٢٤):

ريم على القاع بين البان والعلم
أحل سفك دمي في الأشهر الحرم

ومثل الفرزدق صنع الأخطل حينما عارض بانت سعاد بقوله(٢٥):

بانت سعاد ففي العينين تسهيد واستحقبت لبه فالقلب معمود

ولم يكتف بهذه المعارضة التي فيها مخالفة في القافية وحرف الروي ، بل عارضها بقصيدة جمعت فن المعارضة لفظاً وأسلوباً ووزنا وقافية في قوله ايضاً(٢٦):

بانت سُعادُ ففي العينين ملمول مِنْ حبها وصحيحُ الجسمِ محبولُ

وله معارضة كاملة أخرى من حيث الفن الشعري هذا ، فقد عارض قول زهير بن أبي سلمى(٢٧):

صحا القلب عن سلمى واقصر باطله
وعُرِّيَ افراسٌ الصِبا ورواحِلُهْ

بقوله(٢٨):

صحا القلب عن أروى واقصر باطله
وعاد له من حب أروى احابله

ومثلهم فعل ابو حزابة الوليد بن حنيفة حين اعجب بهجاء يزيد بن مفرغ الحميري لزياد بن أبيه في قصيدته التي منها (٢٩):

جاءت به حبشيـــــة سكاء تحسبها نعامة
من نسوة سود الوجوه ترى عليهن الدمامة

فقال ابو حزابة في هجاء عون بن سلامة حين لقيه بالمربد (٣٠) :

ياعون قف واستمع الملامة لاسلم الله على سلامـــة
زنجية تحسبها نعامـــــة سكاء شأن جسمها دمامة

فهذه المعارضات تتطابق مع المفهوم الفني الذي اتخذناه تعريفاً للمعارضات في بداية البحث مع ان شعر هذا العصر كان امتدادا للشعر القديم من حيث الاسلوب والفصاحة والاغراض والافكار وليس هناك من دافع عند هؤلاء الفحول في ان يقلدوا او يحاكو غيرهم من الشعراء الا الدافع الفني ، ولم ينطلقوا في ولوج هذا الفن عن

ضعف او طلب للجودة بالمحاكاة والتقليد وانما ولجوه لابراز ملكاتهم الشعرية وقدراتهم على تنويع الصور والعبارات وتقليبها للوصول الى الاجادة والتفوق ، وهذا ما دأب عليه فن المعارضة في التطور وسلوك هذا الدرب على مر العصور ، وان عانى احيانا في تطوره بين القوة في المعارضة والضعف في المجاراة احيانا. ففي العصر العباسي دخلت الاعاجم في المجتمع العربي فبرز دافع لدى الناس الى تثقيف السنتهم وتهذيب لغتهم برواية اشعار العرب ومجاراتها ومعارضتها ، فوفق بعض الشعراء واخفق آخرون . يؤكد لنا ذلك القاضي عبدالعزيز الجرجاني في قوله: " ان الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ، ثم تكون الدربة مادة وقوة لكل واحد من اسبابه ، فمن اجتمعت هذه الخصال له ، فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الاحسان ولستُ أُفضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم ، والاعرابي والمولد[٣١] .

وعلى ضوء هذا الرأي النقدي نستطيع ان ننظر الى المعارضات الشعرية من حيث فنها عند دراستنا لها دراسة نقدية تحليلية ، ولسنا هنا بصدد هذه الدراسة ، وانما بصدد دراسة نشأتها تاريخيا ، فلهذا العصر شعراؤه المعارضون الذين توفق بعضهم بمعارضته الشعرية الجيدة واخفق آخرون ، فمن المعارضات الجيدة معارضة مروان بن ابي حفصة[٣٢] للنابغة الذبياني الذي قال في ابي قابوس النعمان[٣٣]:

عفا ذو حسأً من فرتنا فالفوارع فجنباً اريك فالتلاع الدوافعُ

والتي منها :

وعيد ابي قابوس في غير كنهه اتاني ودوني راكس فالضواجع

فقال مروان في المهدي[٣٤]:

خلت بعدنا من ال ليلى المصانع وهاجت لنا الشوق الديار البلاقع

وقد مرت بنا معارضة الاخطل لقصيدة زهير بن ابي سلمى[٣٥]:

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرّي افراس الصبا ورواحله

وقصيدة الاخطل التي مطلعها[٣٦] :

صحا القلب عن اروى واقصر باطله

وعاد له من حب اروى اخابله

فقد عارضهما مروان بن ابي حفصة بقوله في المهدي في قصيدة مطلعها[٣٧] :

صحا بعد جهل فاستراحت عواذ له
واقصرن عنه حين اقصر باطله

ولما فخر بشار بن برد بنفسه وقومه في قوله من قصيدة مطلعها[٣٨]:

جافا ودَّه فازور أو مل صاحبه
وازرى به ان لا يزال يعاتبه

عارضه ابو تمام بقصيدة مطلعها[٣٩]:

هن عوادي يوسف وصواحبه
فعزما فقد ادرك السؤلَ طالبه

والتي منها :

اذا المرء لم يستخلص الحزم نفسه
فذروته للحادثات وغاربه

وضرب الكثير من فحول شعراء هذا العصر في فن المعارضة بسهم وافر مثل ابي نؤاس والبحتري وابي فراس الحمداني والمتنبي ومن يتصفح دواوينهم يجد الكثير من معارضاتهم الشعرية ، ومثلهم فعل المتأخرون كالابيوردي الذي عارض قصيدة الشريف الرضي التي مطلعها[٤٠]:

ياظبية البان ترعى في خمائله
ليهنك اليوم ان القلب مرعاك

بقوله[٤١]:

كيف السلوو قلبي ليس ينساك
ولايلذ لساني غير ذكراك

كما عارض قصيدة ابي العلاء المعري التي مطلعها[٤٢] :

لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطو يظللهم ماظل ينبته الخط

بقصيدة مطلعها[٤٣] :

بدا والثريا في مغاربها قرط بريق شجاني والدجى لمم شمط

ولم يقتصر فن المعارضات على شعراء الشرق بل كان اهل الاندلس لهم باع طويل في فن المعارضة ، حذوا فيه حذو أهل المشرق في مناهجهم واتجاهاتهم . فعندما قال المتنبي قصيدته التي بلغت واحدا واربعين بيتا التي مطلعها[٤٤]:

اطاعن خيلا من فوارسها الدهر
وحيدا وما قولي كذا ومعي الصبر

اشجع مني كل يوم سلامتي

وما ثبتت الا وفي نفسها امر

تلك التي تميزت بكثرة الامثال والحكم وبالرنه الموسيقية التي اعجبت ابن هانئ الاندلسي الذي كان يسمى متنبي عصره في المغرب سارع الى معارضتها بقصيدة رائية بلغت مئة بيت وبيت التي مطلعها[٤٥]:

تقول بنو العباس هل فتحت مصر

فقل لبني العباس قد قضي الأمر

ويبلغ اعجاب اهل المغرب بأهل المشرق انهم ما ان يقول شاعر كالمتنبي قصيدة ويعجب بها حتى يتسابقون الى معارضتها فما ان ذاعت شهرة رائية المتنبي في مدح ابن العميد التي مطلعها[٤٦]:

بادٍ هواك صبرت ام لم تصبرا وبكاك ان لم يجرِ دمعُك او جرى

حتى عارضها ابن عبدربه بقصيدة مدح بها الامير محمد بن عبدالرحمن بن الحكم بن هشام مطلعها[٤٧] :

الما على قصر الخليفة فأنظرا الى منية زهراء شيدت لازهرا

كما عارضها ابن دراج القسطلي بقصيدة مطلعها[٤٨] :

لبيك اسمعنا نداك ودوننا

نوء الكواكب مخويا أو ممطرا

كما عارضها ابن حزم بقصيدة يمدح بها المنصور بن ابي عامر مطلعها[٤٩] :

الا ترى المنصور تحت لوائه تلق ابنه طلق الجبين مظفرا

ومن يتتبع قصيدة ابن حزم يجدها معارضة تامة لقصيدة المتنبي بأثواب جديدة تنم عن مدى شغفه بآثار المتنبي .

ومن يتصفح كتب التراث لأدب الاندلس ويلم بمدى تأثر هؤلاء بأهل الشرق ومعارضتهم في كل فنون الادب التي اقتصر البحث على ذكر الجانب الشعري منها بأمثلة مجتزاة لغرض الاستشهاد وليس الحصر . ولعلنا نتذكر موشحة عبدالله بن المعتز المشهورة التي مطلعها[٥٠] :

ايها الساقيَ اليك المشتكى قد دعوناك وان لم تسمع

فان هذه القصيدة بما تميزت به من فن مخترع ومبتكر جعل الكثير من شعراء الاندلس يقلدون هذا الشاعر في نظم الموشحات ، فهذا شاعر اشبيليه وسبتة الاشبيلي ينظم موشحة طارت شهرتها في الآفاق مطلعها[٥١]:

هل درى ظبي الحما ان قد حمى
قلب صب حله عن مكنس

حتى عارضه الوزير ابو عبدالله لسان الدين بن الخطيب بموشحته المشهورة التي مطلعها[٥٢]:

جادك الغيث اذا الغيث هما يازمان الوصل بالاندلس

لسنا بصدد التوسع من خلال هذا البحث في هذا الموضوع ، الا انه فيما مر من البحث يكشف لنا ان شعراء وادباء الاندلس اقتفوا آثار اهل الشرق وسلكوا مسلكهم (ولم يأت القرن الرابع الهجري حتى وجدنا الشخصية الاندلسية تسير جنبا الى جنب مع النزعة العربية التقليدية ، ولم يقف الامر عند حد التقليد ، بل تمادى الاندلسيون فتحولوا الى منافسين)[٥٣] حتى ان ابن شرف يقول للمأمون ابن ذي النون (ان رأى المأمون ان يشير الى أي قصيدة شاء من شعر ابي الطيب المتنبي حتى اعارضه بقصيدة تنسي اسمه وتعفي رسمه)[٥٤] وللقارئ ان يتصور مدى ما بلغه اهل الاندلس في الاعتداد بانفسهم في الادب جاعلين من فن المعارضة المجال الشريف الذي يحق للشاعر ان ينافس به شاعرا آخر سبقه طارت شهرته في الآفاق وكان قطب الرحى لمجالس الأدب والنحو في عصره وكان له من الحساد اضعاف اضعاف المعجبين من اهل الملك .

نستشف من قول ابن شرف حقيقة مهمة قام البحث عليها وهي ان الشاعر المتأخر انما ولج في فن المعارضات ليثبت انه لايقل كفاءة عمن تقدم عليه من الشعراء ان لم يبزهم بما تأتى له من حسن الدراسة وسعتها .

وعلى هذا المنوال نرى الشعراء المحدثين يصرون على معارضة كل قصيدة عصماء كان لها شأن في تاريخ الأدب العربي .

ولو تركنا هذا العصر الذي المحنا اليه الماحة يسيرة ووضعنا اقلامنا على العصر الذي يليه وهو العصر المملوكي لوجدناه اوفر حظاً وأغزر شعراً في فن المعارضات ، لأن المتأخرين اعتمدوا على المتقدمين في كثير من تصويراتهم الشعرية وتشبيهاتهم . ومعانيهم[٥٥].

حتى عد هذا العصر عصر المدائح النبوية في البديعيات وعصر المعارضات الشعرية . وفي معارضة البوصيري للبردة (بانت سعاد) التي ظلت الى العصر الحديث مدار معارضة هي الأخرى عند فحول الشعراء وغيرهم ، حتى عد البوصيري من الاعلام في هذا الفن - كما سيتطرق البحث الى ذلك فيما بعد ، ومثله صفي الدين الحلي الذي كانت قصيدته من المعارضات المشهورة أيضاً[٥٦]:

سلي الرماح العوالي عن معانينا ... واستشهدْ البيض هل خاب الرجا فينا
وسائل العرب العرب والاتراك ... ما فعلت في قبر عبيد الله أيدينا
لما سعينا فما رقت عزائمنا ... عما نروم ولا خابت مساعينا

التي اتخذت بعض ابياتها مثلا للكرامة العربية في قوله[٥٧]:

إنا لقوم ابت اخلاقنا شرفا ... ان نبتدي بالأذى من ليس يؤذينا
بيض صنائعنا سود وقائعنا ... خضر مرابعنا حمر مواضينا
لايظهر العجز منا دون نيل ... منىً ولو رأينا المنايا في أمانينا

تلك التي عارض فيها بشامة[٥٨] بن حزن النهشلي في حماسيته التي منها[٥٩]:

إنا محييوك ياسلمى فحيينا ... وان سقيت كرام الناس فاسقينا
وان دعوت الى جلى ومكرمة ... يوما سراة كرام الناس فادعينا

التي منها[٦٠]:

بيض مفارقنا تغلي مراجلنا ... نَأسوا بأموالنا آثار أيدينا
انا لمن معشرا أفني أوائلهم ... قول الكماة الا اين المحامونا
لوكان في الألف منا واحد ... فدعوا من فارس خالهم اياه يعنونا

فالقصيدتان عالجتا غرضاً شعرياً واحداً بالبحر نفسه والوزن والقافية وحرف الروى .

وعارض جمال الدين بن نباتة[٦١] نونية ابن زيدون المشهورة[٦٢]:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا

بنونية من نفس الغرض[٦٣] :

اعدى بغيركم دمع المحبينا ... حتى تلون يوم البين تلوينا
ياهاجرين بلاذنب سوى شجن ... بين الجوانح لاينفك يشجينا
لاتسألوا ماجرى عن فيض أدمعنا ... فيكم وما قد جرى من غدركم فينا[٦٤]

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة على معارضات شعر هذا العصر لننتقل الى الفترة التي سبقت فترة احياء الشعر عند المحدثين وهي الفترة التي يطلق عليها بعض النقاد بـ " فترة الخمول الأدبي " وهو " العصر العثماني " الذي يرى النقاد أنه عصر أهمل لافتقاره لأية ظاهرة فنية تجذب الباحث أو القارئ اذا ماتذكرنا سياسة التتريك التي تبناها العثمانيون في محاربة اللغة العربية ، فما بال الشعر اذن ؟ لنخلص من ذلك الى العصر الحديث .

المعارضات الشعرية في العصر الحديث

يرى بعض الناقدين أن الشعراء في هذا العصر يمكن ان يقسموا الى :-

١- مقلدين .

٢- محافظين .

دون ان يعني البحث بمن سموا بالمجددين ممن خرجوا على اطار القصيدة العربية فنبذوا الوزن والقافية.

فالمقلدون لهم الفضل في ايقاد الشعر من غفوته من خلال عودتهم الى القديم يلتمسون محاكاة عيونه ومجاراة فحوله متتبعين نتاجهم بالتقليد القريب جداً في اقتدائه بالقديم والسير على منواله .

أما المحافظون فقد حافظوا على نظام الشعر العربي ، وعمود القصيدة العربية فلم يفرطوا في الوزن والقافية والاصالة ، ولكنهم اخذوا بالجديد من الأفكار والمعاني والصورة الحديثة والخيال المعاصر .

بدأ هذا العصر والامة تعاني من آثار الخمول وانحطاط الأشكال الأدبية ايام العثمانيين ومحاربتهم اللغة العربية وعلماءها وأدباءها بسياسة التتريك الممقوتة التي كفرت بالدين وتناست قوله تعالى: ﴿ انا انزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون ﴾[٦٥] وقوله تعالى : ﴿ انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ﴾[٦٦] وهو أمر رباني بتعهد الخالق سبحانه حماية هذا القرآن العربي . وقوله تعالى: ﴿ كنتم خير أمةٍ أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾[٦٧] التي اختارت من العرب مبشرين بالذكر الحكيم لكل الأمم ، هذا الذكر الذي صاغه الله بلغة العرب وجعله قمة الحكمة على كل نعيم الدنيا بقوله تعالى: ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً﴾[٦٨].

هذه الحكمة العظيمة ظلت مدار العصور المعين الوافر لكل أديب يسعى الى الكمال في نتاجه ، وان كانت هناك بعض النفثات الشعرية التي لم تقو انشاط الشعر في عصر الخمول لكنها لم تقطع الصلة بين المنبع والمنهل ، حتى اذا أراد الله للشعر أن ينهض من كبوته ويستيقظ من غفوته هيأ له رجالاً كالبارودي الذي عد حامل لواء التقليد والمحافظة معاً الذي تسلح بروح الحب وهو يلج ميدان الشعر القديم يمحصه دراسة ومحاكاة وحفظاً معارضاً ومقلداً حتى عدت البحوث العميقة في معارضات البارودي فقط . وما يخفى على النقاد قوة لغة هذا الشاعر وخصب خياله وملكته المهذبة وسعة افقه الشعري بلفظ جزل وصياغة صادقة وصورة ناطقة ، حتى عدت الصورة البارودية لوحة مشبعة بالمشاعر العطرة بانسام القديم الممزوج بالتجديد والطارف المنكه بالتليد .

ومن يتتبع شعره أو شعر شوقي يجد مرة أنه يسبح في روح المتنبي في عالمها ومع شعراء المعلقات مرة أخرى ، بل ان هذين الشاعرين لهما الفضل في وضع أسس المعارضات في العصر الحديث ولهما الفضل أيضاً في فتح الباب بأمان لكل موهبة شعرية عاصرتهما أو جاءت بعدهما تريد أن تسهم أو تدلو بدلوها في هذا الخضم الواسع من مجد العرب المؤرخ شعراً الذي انفردت به هذه الأمة دون غيرها من سائر الأمم التي تفتقر الى ما اكتملت به لغة العرب من روح الموسيقى بين اللفظ والمعنى الذي توفر في كثرة تنوع اللفظ للمعنى الواحد مما حرر الشعراء من النمطية المتكررة المملة الخالية من الموسيقى في اللغات الأخر ، اللهم الا ماتأثرت به لغات الأمم التي أسلمت وادخلت من لغة العرب في لغتها الكثير الكثير من لغة العرب . ولا تختار الأمم من لغات غيرها الا الأجود والأحسن .

ومن يدرس اللغة الهندية والفارسية والتركية ولغات شعوب جنوب روسيا يكتشف هذه الحقيقة حتى ان شعوب هذه البلاد لاتزال الى الآن تختار أحلى الألفاظ العربية لأحب مالديها ، وقواميس لغاتها مملوءة بذلك .

ومثال على ذلك ان الجذر اللغوي للفظة العدل لازال مستخدماً عند شعوب هذه الأمم بالمعنى نفسه .

ومثل البارودي وشوقي كان عبدالمحسن الكاظمي والرافعي واسماعيل صبري وحافظ ابراهيم والجواهري وعلي الجارم ، وان كان حافظ ابراهيم والجواهري والرصافي والزهاوي اميل الى التجديد ضمن اطار المحافظة . فالبارودي معظم شعره

معارضات قديمة عارض فيها فحول الشعراء من القدماء ، فقد عارض معلقة عنترة بن شداد التي مطلعها[٦٩] :

هل غادر الشعراء من متردم ؟ ام هل عرفت الدار بعد توهم

بقصيدته التي مطلعها[٧٠] :

كم غادر الشعراء من متردم ؟ ولرب تال بذ شأ ومقدم

وعند الوقوف على هذا البيت نجد فيه اشارة سبق للبحث أن أشار اليها وهو الدافع النفسي لشعر المعارضات ، فهو قلد في صدر البيت لفظاً ومعنى واشار الى أنه قد يغلب المقدم ويبذه لموهبته الشعرية وان تلاه زماناً وتأخر عنه . التي منها أبيات توضح - بما يقطع الشك - ان المعارض من المتأخرين يسعى دائماً أن يبلغ من سبقه، ان لم يسع الى التفوق عليه ، فالبارودي مثلاً في معارضته لعنترة يؤكد هذا الرأي[٧١]:

في كل عصر عبقري لايني يفري الفرى بكل قول محكم

سل مصر عني ان جهلت مكانتي تخبرك عن شرف وعز اقدم

ما أن خلعت بها سيور تمائمي حتى لبست بها حمائل مخذم

وعارض دالية النابغة الذبياني التي مطلعها[٧٢]:

أمن آل مية رائح أو مغتدى عجلان ذا زاد وغير مزود

بدالية مطلعها[٧٣]:

ظن الظنون فبات غير موسد حيران يكلأ مُستنير الفرقد

ولما قال النابغة[٧٤]:

زعم البوارح ان رحلتنا غداً وبذاك تنعاب الغراب الأسود

قال البارودي[٧٥]:

قالوا غداً يوم الرحيل ومن لهم خوف التفرق ان أعيش الى غد[٧٦]

وعارض رائية أبي نؤاس المشهورة في مدح الخصيب بن عبدالحميد أمير مصر في عهد الرشيد التي مطلعها[٧٧]:

احارة بيتنا أبوك غيور وميسور مايرجى لديك عسير

والتي منها :

اذا لم تزر أرض الخصيب ركائباً فاي فتى بعد الخصيب تزور

برائيته المشهورة في ديوانه[٧٨] :

أبى الشوق الا أن يحن ضمير وكل مشوق بالحنين جدير

وهل يستطيع المرء كتمان لوعة ينم عليها مدمع وزفير
خضعت لأحكام الهوى ولطالما أبيت فلم يحكم علي أمير

فالقارئ يحس أن الفرق غير موجود بين أبيات أبي نـؤاس وأبيـات البـارودي ولـو نسجت تشطيراً لضاعت الثانية في الأولى والأولى في الثانية أمام القارئ غير المختـص بهذا الفن .

وهذه الميزة التي لفتت أنظار النقـاد المحدثيـن الـى قيمـة شـعر المعارضـات عنـد بعض الشعراء .

وعارض ميمية أبي نؤاس في مدح الأمين[٧٩] :

يادار مية مافعلت بك الأيام ضامتك والأيام ليس تضام

بميمية مطلعها[٨٠]:

ذهب الصبا وتولت الأيام فعل الصبا وعلى الزمان سلام

وعارض دالية المتنبي التي مطلعها[٨١]:

أود من الأيام ما لا توده واشكو إليها بيننا وهي جنده

بداليته التي منها[٨٢]:

رضيت من الدنيا بما لا أوده وأي أمرء يقوى على الدهر زنده

وعارض ميمية البوصيري المشهورة[٨٣]:

امن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

بميمية رائعة طويلة بلغت اربعمائة وسبعة واربعيـن بيتـاً سـماها كشـف الغمـة فـي مدح سيد الامة التي منها[٨٤]:

يارائد البرق يمم دارة العلم
واحد الغمام الى حي بذي سلم
وان مررت على الروحاء فاهد لها
أخلاف سارية هتانةِ الديم[٨٥]

ومـن يـدرس ديـوان البـارودى يجـد لـه معارضـات كثيرة لفحـول الشـعراء مـن المتقديمن على مر العصور كالبحتري والشريف الرضـي وابـي فـراس الحمدانـي وغـير هؤلاء ، مما يتعذر على البحث هذا احصاءهم والتوسع في ذكرهم ، أما ما ذكر منهـم ضمن باب الشاهد لا الحصر.

أما شوقي فقد عارض الشعر القديم دون التوقف عند شاعر معين أو اثنين حتى صار له حظ وافر من المعارضات لفحول الشعراء على مر العصور . وكلنا يستمع بين الحين والآخر الى ميميته الجميلة على لسان ام كلثوم[٨٦] :

ريم على القاع بين البان والعلم
احل سفك دمي في الأشهر الحرم

التي منها[٨٧] :

محمد صفوة الباري ورحمته
وبغية الله من خلق ومن نسم

كما عارض همزية البوصيري المشهورة[٨٨]:

كيف ترقى رقيك الانبياء
ياسماء ما طاولتها سماء

بهمزية مطلعها[٨٩] :

ولد الهدى فالكائنات ضياء
وفم الزمان تبسم وثناء

ومن ولع شوقي بالرثاء فقد عارض رثائية أبي العلاء المعري التي مطلعها[٩٠]:

غير مجد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شادى

بداليته المشهورة في رثاء محمد فريد[٩١] :

كل حي على المنية غاد تتوالى الركاب والموت حادى
ذهب الاولون قرنا فقرنا لم يدُم حاضر ولم يبق بادى

ولما كان شوقي ذا مزاج شاعري رقيق فهو ما يقرأ قصيدة لسابق تعجبه إلا ويعارضها بالجميل من شعره وقد عارض حتى قصيدة ابن سينا (في النفس) بقصيدة سماها الأسم نفسه فحين قال ابن سينا[٩٢]:

هبطت إليك من المحل الارفع ورقـــاء ذات تعزز وتمنـــع
محجوبة عن كل مقلة عارض وهي التي سفرت ولم تتبرقـــع
وصلت على كره إليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجـع

قال شوقي[٩٣] :

ضمي قناعك ياسعاد وارفعي
هذي المحاسن ما خلقن لبرقع
الضاحيات الضاحكات ودونها

ستر الجلال وبعد شأو المطلع

ذهب (ابن سينا) لم يفز بك ساعة

وتوالت الحكماء لم تتمتع

وقد مر بنا ان شوقي قد تأثر بنونية عمرو بن كلثوم كما تأثر به ابن زيدون ، فلما قال عمرو بن كلثوم معلقته التي مطلعها[٩٤]:

ألا هبي يصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الاندرينا

قال شوقي يعارضها[٩٥]:

قفي يا أخت يوشع خبرينا احاديث القرون الغابرينا

وعارض نونية ابن زيدون التي مطلعها[٩٦]:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

وناب عن طيب لقيانا تجافينا

التي خلدت حبه لولادة بنت المستكفي وناح على موسيقاها نواحاً شديداً على ايام عز العرب المندثر في الاندلس متأثراً بما رآه ومنها :-

ياجنة الخلد ابدلنا بسدرتها

والكوثر العذب زقوماً وغسلينا

عليك منا سلام الله ما بقيت

صبابة بك نخفيها فتخفينا

هذه القصيدة التي عدت من كنوز الأدب العربي ، عارضها شوقي بقصيدة باكية مثلها حينما نفي الى بلاد الاندلس (اشبيلية) فقال منها[٩٧] :

يانائح الطلح اشباه عوادينا

نشجى لواديك ام نأسى لوادينا

ماذا تقص علينا غير ان يدا

قصت جناحك جالت في حواشينا

والتي منها[٩٨] :

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقة

والبر نار وغى والبحر غسلينا

سعياً الى مصر نقضى حق ذاكرنا

فيها اذا نسى الوافي وباكينا

وديوان شوقي ملىء بمثل هذه المعارضات لفحول الشعراء كما اسلف البحث احتزأنا منه هذه الوثائق الخالدة لعدم الاطالة.

أما اسماعيل صبري فقد هنأ احد اصدقائه بزفافه بمعارضة للمتنبي في مدحه العميد منها[٩٩] :

بادٍ هواك صبرت ام لم تصبرا
وبكاك ان لم يجر دمعك او جرى

برائية منها[١٠٠]:

البدر عن وجه البشاشة اسفرا
والجو رق نسيمه وتعطرا

ومن جميل المعارضات رثائية الزهاوي لأخيه التي منها[١٠١]:

تضمن منك القبر لو يعلم القبر اديباً بكاه الناس والعلم والشعر
وقفت على قبر طوى اقرب الورى الي ودمع الحزن من اعيني نثر

الى ان يقول :

يقولون صبراً يا جميل على الذي
أصابك من رزء وأنى لي الصبر
ولو ان احزاني بدجلة ما جرت
ولو انها بالصخر لا نفطر الصخر

فهو هنا تفوق على رائية ابي تمام في رثائه لاحد قادة المعتصم التي منها[١٠٢]:

توفيت الامال بعد محمد واصبح في شغل عن السفر السفر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتة
تقوم مقام النصر اذ فاته النصر

وعارض عبدالمحسن الكاظمي دالية النابغة الذبياني في المتجردة ، التي مطلعها[١٠٣]:

أمن آل ميَّةَ رائح أو مغتدي
عجلان ذا زاد وغير مزود

بدالية منها[١٠٤] :

ابدا تروح رهينة او تغتدي
في طارف من وجدها أو متلد

وتعمدت قتلي عشية اقبلت

ولربما قتلت ولم تتعمد

ولا نستطيع ان نشبع رغبتنا في استشفاف ما في شعر المعارضات قديماً أو حديثاً من جمال اصيل خال من التبذل والهجاء منبثق من روح شاعرية تسعى الى الكمال وهي في حال غبطة للشاعر المعارض لا في حال حسد كما في النقائض.

هذه النبذة التاريخية اجبر البحث على اختصار - بل ترك - الكثير من روائع الامثلة مما شاع وذاع صيته من فن المعارضات التي اذكتها روح الاعجاب وملكة الشعر وكثرة الاطلاع حتى راحت بعض المعارضات وغطت على سابقاتها حتى قيل: ان معارضة البوصيري لـ (بانت سعاد) التي ذكر البحث انه تأثر بمعارضة ابن الفارض لها غطت على كليهما.

الهوامش

١- لسان العرب مادة عرض ٤/٢٨٨٥ .
٢- نفسه والمادة نفسها .
٣- القاموس المحيط مادة (عرض) ٢/٣٤٨ .
٤- القاموس المحيط مادة (عرض) .
٥- ينظر النهاية لابن الأثير ٣/١٨٢ .
٦- في الغالب وليس على العموم ، فهناك معارضة بين أبي دلامة وأبي خنيس في البغلة ، قد اتفقتا في اشياء واختلفتا في حرف الروى ، فقال أبو دلامة في بغلته :

ابعد الخيل اركبها ورادا وشقرا في الرعيل الى القتال

معارضا قول ابي خنيس في بغلته :

أبعدت من بغلة مؤاكلةٍ ترمحني تارة وتقمص بي

ينظر الجاحظ تحـ / عبدالسلام هارون القاهرة /٢:٢٣٢

وقد ورد الكثير من المعارضات التي لم يلتزم بها المعارض بحرف الروى وانما كان الموضوع هو الهدف ومثل هذا ماكان في معارضة البوصيري لقصيدة بانت سعاد التي انشدها كعب بن زهير الى الرسول ﷺ . وهي معروفة سيذكرها البحث .

٧- ينظر تاريخ النقائض في الشعر العربي / احمد الشايب ص٧ .
٨- عند الوقوف على شعر تميم(أ) بن المعز الفاطمي وصفي الدين الحلي(ب) في ردهما على ابن المعتز العباسي في قصيدته التي مطلعها(ج):

الا من لعين وتسكابها شكاها القذى وبكاها بها

التي فضل بها العباسيين على العلويين ، رد تميم بن المعز الفاطمي عليه بقصيدة فضل فيها العلويين على العباسيين ومطلعها(د) :

اذا افزع الشوق حب القلوب كواها بشدة تلها بها

وجاء بعده صفي الدين الحلي الذي عاش أيام المماليك ليرد على ابن المعتز أيضاً بقصيدة يفضل فيها العلويين على العباسيين ومطلعها(هـ) :

ألا قل لشر عبيد الاله وطاغي قريش وكذا بها

فقصيدة ابن المعتز الفاطمي وقصيدة صفي الدين الحلي لاهما من المعارضة ولاهما من المناقضة لان فيهما من النقائض اسلوبها ومن المعارضة عدم المعاصرة ومنهما معاً البحر والروى والقافية والموضوع .

(أ) تميم بن المعز لدين الله الفاطمي : هو أمير من أمراء الفاطميين وشاعر من شعرائهم خلد مآثرهم . ولد في المغرب سنة ٣٣٧هـ وقدم الى مصر مع أبيه سنة ٣٦٢هـ .

وأبوه المعز لدين الله الفاطمي مؤسس دولة الفاطميين في مصر وباني مدينة القاهرة .

له ديوان شعر حافل بآرائه.

(ب) صفي الدين الحلي : هو عبدالعزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم الطائي . ولد في الحلة سنة ٦٧٧هـ ونشأ فيها وتعددت رحلاته الى الشام ومصر وماردين وغيرهما بحكم اشتغاله في التجارة وانقطع مدة الى اصحاب ماردين فتقرب من ملوك الدولة الارتقية كما مدح السلطان الملك الناصر بالقاهرة ، توفي ببغداد سنة ٧٥٠هـ .

(ج) ديوان ابن المعتز ١٧/١ .

(د) ديوان تميم بن المعز الفاطمي .

(هـ) ديوان صفي الدين الحلي / المطبعة العلمية / النجف ١٩٥٦م ص١-٢ .

٩- البوصيري : هو ابوعبدالله شرف الدين محمد بن سعيد بن عبدالله الصنهاجي البوصيري نسبة الى بوصير من اعمال بني سويف في مصر لأن أمه منها أما أصله فمن المغرب من قلعة حماد من قبيل يعرفون ببني حبنون . ولد في بهتيم في سنة ٦٠٨هـ كان شاعراً ظريفاً تميز شعره بوصف الحالة الاجتماعية في عصره . اشهر شعره البردة التي سيتناولها البحث بالحديث عنها .

١٠- شرح المعلقات العشر للتبريزي ص٢٦ .

١١- نفسه ص٩٦ .

١٢- ينظر تاريخ النقائض في الشعر العربي / احمد الشايب ص٧ .

٤١٣- ينظر المصدر نفسه ص٧-٨ اخذا عن شعراء النصرانية ٩٢/١ .

١٥- يرى ابو هلال العسكري في الصناعتين ان هذا من السرقات الشعرية اذ يقول " انه ليس من عيب في اخذ المعنى لان المعاني متداولة وانما العيب في اخذه بلفظه كاملا او النقص فيه " كتاب الصناعتين لابي هلال العسكري ص٩٦ .

١٦- ديوان حسان بن ثابت ص١٢٦.

١٧- ديوان الفرزدق ص٣٨٣ . حدراء اسم امرأة الشاعر الشيبانية توفيت قبل ان تزف اليه .

١٨- ديوان طرفة بن العبد ص٦٨ السماحيق : القطع الرقاق من الغيم . ويقال على ثرب الشاة سماحيق من شحم والثرب : الشحم الرقيق . والحرجف : الشديدة .

١٩- ديوان الفرزدق ص٣٨٧ .
٢٠- ديوان كثير عزة .
٢١- ديوان الفرزدق ص٣٨٥ . وفي القصيدة كثير من المعاني التي طرقها كثير عزة .
٢٢- ديوان البوصيري ص٢٣٨.
٢٣- ديوان كعب بن زهير ص٢٢٠ .
٢٤- ديوان شوقي ص٣٢٥ .
٢٥- ديوان الاخطل ص١٧١ .
٢٦ - نفسه ص٢٤٥ .
٢٧- ديوان زهير بن ابي سلمى ص١٩٢ .
٢٨- ديوان الاخطل ص٢٧٤ .
٢٩- شعر ابن مفرغ الحميري ص٢٢٠ .
٣٠- الاغاني ٢٢/٢٧٦ .
٣١- الوساطة بين المتنبي وخصومه ص١٥ .
٣٢- هو مروان بن سليمان بن ابي حفصة جده ابو حفصة مولى لمروان بن الحكم ولد سنة ١٠٥هـ ونشأ باليمامة . شاعر مخضرم قدم بغداد ومدح المهدي بهذه المعارضة معارضا فيها النابغة الذبياني في اعتذاريته للنعمان بن المنذر .
٣٣- ديوان النابغة الذبياني ص١١٥ .
٣٤- ديوان مروان بن ابي حفصة ص٢١٣ .
٣٥- ديوان زهير ص١٩٢.
٣٦-ديوان الاخطل ٢/٢٧٤.
٣٧- ديوان مروان بن ابي حفصة .
٣٨- ديوان بشار بن برد ١/٣٠٦.
٣٩- ديوان ابي تمام ١/٢١٦.
٤٠- ديوان الشريف الرضي ٣/٥٩٣.
٤١- ديوان الابيوردي .
٤٢- ديوان سقط الزند / ابو العلاء المعري ص١٧٧.
٤٣- ديوان الابيوردي .
٤٤- ديوان ابن هاني ص١٣١ .
٤٥- ديوان المتنبي ٢/١٤٨ .

٤٦- ديوان المتنبي ٩٦/١ .
٤٧- المقتبس من ابناء اهل الاندلس لابي حيان القرطبي ص٢٤١ .
٤٨- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ق١ . ج١ ص٧٣ .
٤٩- نفسه ق١. ج١ص١٧٩ .
٥٠- ديوان ابن المعتز .
٥١- ديوان ابن سهل تحـ/د. احسان عباس ص٢٨٣ .
٥٢- نفح الطيب تحـ /د. احسان عباس ٢٢٥/٩ .
٥٣- قضايا اندلسية /د. بدير متولي حميد ص٢١٩ .
٥٤- الذخيرة ق٤ م١ ص١٤ .
٥٥- ينظر الادب في العصر الايوبي د. محمد زغلول سلام ص٢٦٠ .
٥٦- ديوان صفي الدين الحلي ص١٣ .
٥٧- نفسه ص١٤ .
٥٨- هو بشامة بن حزن النهشلي اورده المبرد بكنية ابي مخزوم من بني نهشل بن دارم (الكامل المبرد ١١١/١) .
٥٩- خزانة الادب ٣٠٢/٨،٣٠٣ .
٦٠- خزانة الادب ٣٠٣/٨ وقد نسبت هذه الابيات الى نهشل بن حرى النهشلي . (ينظر الشعر والشعراء لابن قتيبة -٥٣٣) .
٦١- جمال الدين ابو بكر محمد بن محمد بن محمد الجزامي المصري ولد في مصر سنة ٦٨٦هـ وتوفي فيها سنة ٧٦٨هـ زعيم شعراء عصره وله مؤلفات جمَّة منها سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون /ط وديوان شعر كبير وكانت بينه وبين شاعري زمانه : صفي الدين الحلي وصلاح الدين الصفدي مراسلات ومداعبات شعرية .
٦٢- ديوان ابن زيدون ص٩ ومابعدها .
٦٣- ديوان ابن نباته / نشر محمد القلقيلي .
٦٤- كما ان معارضة مشهورة لشوقي عارض فيها هذه القصيدة (نونية ابن زيدون) سيأتي ذكرها عند الحديث عن المعارضات في العصر الحديث التي منها :

يانائح الطلح اشباه عوادينا نشجى لواديك ام نأسى لوادينا

٦٥- سورة يوسف ٢/١٢ .
٦٦- سورة الحجر ٩/١٥ .
٦٧- سورة آل عمران ١١٠/٣.

٦٨- سورة البقرة ٢٦٩/٢ .
٦٩- شرح القصائد العشر / التبريزي ص٢٦٢ .
٧٠- ديوان البارودي ٤٨٥/٣.
٧١- ديوان البارودي ٤٨٥/٣ .
٧٢- ديوان النابغة ص١٤٣ .
٧٣- ديوان البارودي ٧٤/١ .
٧٤- ديوان النابغة ص١٤٣ .
٧٥- ديوان البارودي ٧٤/١ .
٧٦- قصة هذا البيت وما كان فيه من الاقواء عند النابغة معروفة في مصادر الادب وتاريخه .
٧٧- ديوان ابي نؤاس ص٣٢٧ .
٧٨- ديوان البارودي ١٦/٢ .
٧٩- ديوان ابي نؤاس ص٥٧٥ .
٨٠- ديوان البارودي ٣٣٣/٣ .
٨١- ديوان المتنبي ١٩/٢ .
٨٢- ديوان البارودي ٧٠/١ .
٨٣- ديوان البوصيري ص٢٣٨.
٨٤- ديوان البارودي ٤٧٩/٣.
٨٥- ينظر الموازنة بين الشعراء / د. زكي مبارك ص١٨٤ وما بعدها فقد عقد فيه موازنة نقدية جميلة وضح من خلالها تأثر البارودي بالبوصيري وتأثر البوصيري بميمية ابن الفارض ومطلعها :

هل نار ليلى بدت ليلا بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء في العلم

٨٦- الشوقيات ٢٤٠/١ .
٨٧- الشوقيات ٢٤٠/١ .
٨٨- ديوان البوصيري .
٨٩- الشوقيات .
٩٠- ديوان المعري .
٩١- الشوقيات .
٩٢- القانون في الطب تحـ / عبدالرحمن بدوي ١٩٦٦ .
٩٣- الشوقيات ٧٢/٢ .

٩٤- شرح المعلقات العشر /٣٢٠ .
٩٥- الشوقيات ٤٣٤/١ . (يوشع) هو يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام . او هو ابن اخت موسى .
٩٦- ديوان ابن زيدون .
٩٧- الشوقيات ٢٢٧/٢ .
٩٨- ديوان ابي تمام ٧٩/٤ .
٩٩- ديوان المتنبي ١٦٠/٢ .
١٠٠- ديوان اسماعيل صبري ص١٣٧ .
١٠١- ديوان جميل صدقي الزهاوي ص١٧٦ .
١٠٢- ديوان ابي تمام ٧٩/٤ .
١٠٣- ديوان النابغة الذبياني .
١٠٤- ديوان الكاظمي ٦٣/١ .

المصادر والمراجع

من كتب التاريخ والادب اللغة

١- الادب في العصر الايوبي - د. محمد زغلول سلام . ط/ دار المعارف / القاهرة ١٩٦٨م.
٢- الاغاني - ابو الفرج الاصفهاني / دار الثقافة - بيروت ط/٥ ١٩٨١ .
٣- تاريخ النقائض في الشعر العربي / احمد الشايب / مكتبة النهضة المصرية - القاهرة . ط/٣/١٩٦٦ ...
٤- خزانة الادب - عبدالقادر بن عمر البغدادي تحـ / عبدالسلام محمد هارون / نشر مكتبة الخانجي بمصر /١٩٨١ .
٥- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة - لابي الحسن على بن بسام الشنتريني تحـ /د . احسان عباس / نشر الدار العربية للكتاب / تونس - ليبيا .
٦- الشعر والشعراء - ابن قتيبة ط/ دار المعارف بمصر .
٧- الصناعتين (كتاب) - لابي هلال العسكري / القاهرة / ١٩٥٢م .
٨- القاموس المحيط : الفيروز آبادي .
٩- القانون في الطب - ابن سينا / تحـ عبدالرحمن بدوي ط/ الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٦م .
١٠- قضايا اندلسية - د. بدير متولي حميد / ط / مطبعة المعرفة بالقاهرة ١٩٦٤م .
١١- الكامل - ابو العباس محمد بن يزيد المبرد . تحـ / محمد ابو الفضل ابراهيم . ط / دار نهضة مصر / القاهرة ١٩٧٩م .
١٢- لسان العرب - ابن منظور . ط / دار المعارف بمصر .
١٣- المعجم الوسيط / المجمع اللغوي المصري - القاهرة .
١٤- المقتبس من أنباء اهل الاندلس - ابو حيان القرطبي .
١٥- الموازنة بين الشعراء - د. زكي مبارك ط/٢ القاهرة .
١٦- الموشحات الاندلسية - محمد زكريا عناني ط/ الانباء - الكويت ١٩٨٠ (عالم المعرفة) .
١٧- نفح الطيب - الشيخ احمد بن محمد المقري التلمساني / تحـ / د. احسان عباس ط/ محي الدين عبدالحميد وطبعة دار صادر / بيروت ١٩٦٨م .

١٨- الوساطة بين المتنبي وخصومه - القاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني . تحـ / محمد ابوالفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ط / دار احياء الكتب العربية ط / ٣. ١٩٥١م.

المصادر والمراجع

من الدواوين الشعرية

١- ديوان الابيودري - الابيودري .
٢- ديوان الاخطل - برواية ابي سعيد السكري عن ابن الاعرابي - نشر دار الشرق بيروت.
٣- ديوان اسماعيل صبري - جمع حسن رفعت ، شرح احمد الزين ط/ لجنة التأليف والترجمة / القاهرة ١٩٣٨م .
٤- ديوان البارودي - شرح محمود الامام المنصوري تحـ / محمد شفيق معروف ط/ دار المعارف بمصر ١٩٧٢م .
٥- ديوان بشار بن برد - تحـ / السيد بدر الدين العلوي .
٦- ديوان البوصيري / تحـ محمد سيد كيلاني ط مصطفى الحلبي ١٩٥٥م .
٧- ديوان ابي تمام بشرح التبريزي / تحـ / محمد عبده عزام ط/ دار المعارف بمصر ١٩٦٥م.
٨- ديوان جميل صدقي الزهاوي / تحـ / عمر الاسعد ط / دار العودة / بيروت ١٩٧٢ .
٩- ديوان حسان بن ثابت - ليدن ١٩١٠م .
١٠- ديوان زهير بن ابي سلمى / دار صادر بيروت / ١٩٦٠ .
١١- ديوان ابن زيدون / بشرح كرم البستاني ، ط / دار صادر بيروت ١٩٧٥م .
١٢- ديوان ابن سهل / تحـ / د. احسان عباس .
١٣- ديوان الشريف الرضي ط / المطبعة الادبية / بيروت ١٣٠٧هـ .
١٤- ديوان صفي الدين الحلي ط / دار صادر بيروت ١٩٦٢م .
١٥- ديوان طرفة بن العبد / المكتبة الثقافية / بيروت لبنان .
١٦- ديوان الفرزدق - شرح علي فاعور / بيروت ١٩٨٧م .
١٧- ديوان الكاظمي تحـ / محمد حسن آل ياسين . بغداد - المكتبة العلمية ١٩٦٤م .
١٨- ديوان كثير عزة / دار الثقافة / بيروت - ١٩٧١م .
١٩- ديوان كعب بن زهير (شرح) نشر دار الكتب المصرية ١٩٥٠م .

٢٠- ديوان المتنبي بشرح العكبري والبرقوقي .
٢١- ديوان ابن المعتز - صنعة ابي بكر الصولي / تحـ / د. يونس السامرائي . وزارة الثقافة والفنون / العراق ١٩٧٨م .
٢٢- ديوان ابي العلاء المعري - شرح التنوير على سقط الزند .
٢٣- ديوان النابغة الذبياني - شرح كرم البستاني / طبعة دار صادر بيروت ١٩٦٠.
٢٤- ديوان ابن نباته - نشر محمد القلقيلي .
٢٥- ديوان ابي نؤاس - ط / دار صادر / بيروت سنة ١٩٦٢م .
٢٦- ديوان ابن هاني الاندلسي ط / دار صادر / بيروت سنة ١٩٦٤م .
٢٧- شرح القصائد العشر - صنعة الخطيب التبريزي تحـ / د. فخر الدين تباوة ط / ٣ بيروت ١٩٧٩ .
٢٨- شعر ابن مفرغ الحميري - جمع وتقديم د. داود سلوم / مطبعة الايمان / بغداد ١٩٦٨م.
٢٩- الشوقيات - احمد شوقي / طبعة دار الكتاب العربي - بيروت ١٩٦٨ وطبعة القاهرة ١٩٧٠.

تطور آليات ووسائل الاتصال

بقلم : الدكتور محمد عبدالجبار سلاّم
الاستاذ المشارك في قسم الاعلام

مُقدّمة

يتميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية بخاصيتين الأولى كونه ناطقاً ينطق الكلام بل ويستوعبه ويفطن لماوراء المعاني والرموز .. والثاني كونه يملك ثقافة والثقافة تعتبر حصيلة عمل وجهد الانسان سواء كان مادياً أو أدبياً على مر التاريخ بمعنى أنه تراكم كمي وكيفي لتجارب الانسان وقدرته الفريدة على الخلق والابداع والابتكار والاستيعاب بحكم مايملك من من طاقة فكرية عميقة جعلته يقوم منذ البداية بالاتصال الفردي والجماعي من أجل الحصول على المعلومات أو من أجل تبادل المعارف أو من أجل حفظ المعلومات وتسجيل الأحداث والتجارب وتحليلها وشرحها وتفسيرها بكل الوسائل المختلفة عن طريق اللغة والاشارة والرموز والتصوير والرسوم على الجدران والمعابد والأشجار أو بواسطة الحركات والرقص والموسيقى ، أو بواسطة التسجيل بالحروف والكلمات كما أن الانسان يستطيع الاستيعاب والاتصال عن طريق الحواس الخمس الشم - السمع - اللمس - والطعم - والنظر -.

وعلى سبيل المثال فان هيلين كلار - وهي صماء وعمياء قد استطاعت وبواسطة الحواس وعن طريق الوخز بالأبر من التعلم واكتساب المعرفة .. وهذا دليل على خاصية الانسان الذي يستطيع أن يتلقى وينقل كل المعارف والتجارب والخبرات والأفكار والآراء وكذا نقل المشاعر وما يدور في الوجدان وخلجات النفس .. لذا فان اللغة وارتباطها بالفكر تظل هي الأساس والعامل الحاسم في هذا الشأن .. لأنه وعن طريقها يتم تسجيل التاريخ بكل جوانبه المختلفة سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو انتاجية أو ثقافية أو تراثية وحضارية والخ .. ومن خلال هذا يمكننا أن نشير الى جوهر العلاقة بين الفكر واللغة في مجال الاتصال والاعلام والدعاية .. اذاً فالعلاقة بين اللغة والفكر ليست علاقة آلية ميكانيكية ولكنها علاقة جدلية متفاعلة ومترابطة وبهذا نقول انه بالامكان التعبير عن الفكرة الواحدة بعدة كلمات والكلمة الواحدة يمكن التعبير عنها بأكثر من معنى في الوقت نفسه ويمكن استخدام الكلمات في سبيل التوضيح أو التضليل والغموض والاستلاب مثل ما نلمس من بعض وسائل الاتصال ... ولكن

وبصورة عامة يقال أن اللغة لاتقتصر على الانسان وهي ليست حكراً عليه وحده وذلك فان للحيوانات لغة بل لكل كائن حي لغة .. وفي الحدود الافتراضية فان الموسيقى والمسرح والرقص والسينما ، وأعمال النحت وكل الفنون العامة لغة ، والاشارات الضوئية واللاسلكي لغة .. الخ وهذا في اعتقادي لايمثل اللغة بمعناها الشامل بل يمثل الكلام - الصوت — .

لقد تميز الاتصال الاعلامي بقواعد علمية ثابتة سواء بواسطة اللغة والرمز وبالصورة وبمختلف وسائل الاتصال الثقافي والاعلامي وهذه القواعد أو النظام يتمثل في الآتي :

المصدر - الرسالة - الوسيلة — المستقبل - التغذية المرتدة (رجع الصدى) هذه آلية الاتصال منذ البداية من المرسل حتى المستقبل واعادة رد الفعل من المستقبل الى المرسل .. وهنا يمكننا البدء في مناقشة اللغة وما لها من تأثير .

اللغة

في أهمية اللغة كونها خاصية للانسان بما هو حيوان ناطق وبما هو حيوان مدني.. وهنا يمكن القول بأن صعوبة الموضوع وطرافته وتنوعه - والنظرة التقليدية الى اللغة والى الانسان ونظرة الباحثين منذ فترة وحتى اليوم بهذا الشأن قد جعلنا نتناول ارتباط الفكر باللغة لدى الانسان بجعل اللغة مكاناً في تطوره وأثراً في ثقافته .. ليس اللغة مجرد وسيلة للاتصال بل أنها مهماز للتفكر ومفهوم لماهية الانسان..

فالحيوان يتناول الأشياء بالحواس : أما الانسان فيتناولها مع الحواس بشيء ينفرد به وهو نطقه أو تفكيره وبه يكون التناول الصحيح لأنه يفيد الاحاطة والشمول والاتصال لكون اللغة تحقق ناطقية الانسان الحقيقية بشقيها الفكر والعمل واللغة كما يقال هي مجموعة من الرموز والاشارات الصوتية .. فاللغة بمعنى الكلام والأصوات .. أما الكلام بمعنى الفكر واللغة فهي كما يقال الامام عبده هي مجلى للفكر وترجمات له وهي دالة الفكر .. وهي سبيلنا الى استكشاف جوانب الأمة التي تتكلمها واستكناه لخصائص " روحها " التي تكمن وراء برانيها كما عبر عن ذلك د/ عثمان أمين / اللغة والفكر القاهرة ١٩٦٧م .

واللغة بالاضافة لكونها تمثل أفكارنا وماهيتنا الأصلية وتعبير عن ذواتنا ووجداننا ومشاعرنا وأحلامنا فهي أيضاً أداة لتخزين التجارب والأحداث والحروب .. وهي وسيلة مهمة وملحة في حياتنا نتبادل الحديث مع أهلنا وأقربائنا ومع أصحابنا ومع كل

من حولنا بل ومع أنفسنا وهي في كل الأحوال القدرة على اختراع العلاقات الدالة أو استعمالها قصداً وعمداً .

وهناك من يضع تصوراً للاختلاف بين اللغة والكلام .. ويقال أن اللغة تختلف عن الكلام من وجهين .

فاذا كان القصد بلفظ " الكلام " اللغة الخارجية فقط وبهذا المعنى تكون اللغة جنساً والكلام نوعاً من أنواعها .

أما اذا قصد بها المعنى الذي يرد (مثل " فلان يتكلم لغة السياسة أو لغة الأرقام أو فلان يتكلم لغة غامضة فهذا شيء آخر ") أو التحدث عن اللغة بمعنى كل نظام من العلاقات الدالة يمكن أن تستخدم وسيلة للاتصال أو القدرة على اختراع العلاقات الدالة أو استعمالها قصداً وعمداً ومن جانب آخر يقال أن الحيوان يعبر عن غرائزه وانفعالاته بالصراخ وبما يشبه اللغة مثل ما يفعل الشمبانزي أو الكلاب أو النحل .. ولكننا نستطيع أن ندرك ببساطة الفرق الكبير بين لغة الانسان ولغة الحيوان .. لغة الحيوان تقوم بوظيفة بيولوجية صرفة لأنها راسخة فيه بالوراثة ومفطورة أما لغة الانسان فمكتسبة يتعلمها وهي وضعية ، فيها الحرية تستمد جوانب الوعي والقصد والتدبير والتفكر . أما الغريزة هي علامة ملازمة .. بينما العلامة الذهنية متحركة غير مستقرة وباللغة الانسانية يتم التعبير عن المواقف في مختلف مجالات الحياة بحكم أن الذهن الانساني أداة كلية شاملة يستطيع الانسان بواسطتها التعبير عن المواقف أما لغة الحيوان فمقصورة على التعبير عن بعض المواقف الغريزية وان كل الاستنتاجات والتنبؤات والخلق والابداع هو من صنع الفكر الانساني يطوع الطبيعة ويسيطر عليها لارادته ويجعلها تستجيب لقدرته الذهنية لما له من قدرة على التجريد والاستنباط والتخيل والاستنتاج ووضع الفروض[1] انها أي اللغة وظيفة من وظائف الفكر .. بدليل ان الانسان حين يتعرض الى صدمة نفسية تتعطل لغته " الكلام " بتعطيل فكره .. من جانب آخر نجد كثير من الأمم والشعوب حين تبحث لها عن نفوذ على نطاق الشعوب الأخرى نجدها تحاول جاهدة تعليم لغتها للغير في سبيل فرض ثقافتها وفكرها بواسطة تعلم اللغة .. كما أن هناك قول يدل على هذا الترابط " من تعلم لغة قوم أمن شرهم ومكرهم" كما أننا نلاحظ أن الشعوب والأمم التي تمتلك حضارة وتاريخ عريق نجد لغتها قوية وعميقة تعكس مضمون وجوهر ونوعية تلك الحضارات.

ونلاحظ أن كلمة لغة في اليونانية تعني الكلام والفكر معاً ومن جانب آخر نجد أن الفيلسوف سقراط عندما كان يجادل تلامذته بينما كان من بينهم واحداً ظل صامتاً دون أن يتكلم فضاق الفيلسوف وقال له .. تكلم ياهذا حتى أراك . وكان يقصد سقراط بأن الحديث سوف يؤكد فكر هذا الانسان بل انه يؤكد وجوده في الأصل .

كما أن حديث الفارابي حول صلة المنطق باللغة وبين بأن موضوعات المنطق هي المعقولات من حيث تدل عليها الألفاظ .. والألفاظ من حيث هي دالة على المعقولات واللغة من جانب آخر ليس محايدة تماماً كما الأفكار أيضاً ... وعملية تحويل الأفكار الى لغة هي من وظيفتها الا أن هذه العملية ليست سهلة بل معقدة يبرز خلالها الكثير من الأخطار ومنها التشوش والتشويه سواء بقصد أم بغير قصد .

وسائل الاتصال والأساليب البدائية

كان الانسان البدائي يعتمد على الوسائل الأكثر بدائية الى ما قبل أربعة آلاف سنة ومن ضمن تلك الوسائل رسم الأشياء على الأحجار والتماثيل وكذا رسم العلامات المحفورة على الأشجار والمعابد والتماثيل غير المهذبة وتمثلت الخطوة الثانية في الحفر على الحجر والخشب وقد استخدم هذا قدماء المصريين والسومريين والبابليين والآشوريين .. بعد ذلك حلت أوراق البردي في مصر والورق المستحضر من جلود الغنم والماعز والعجول محل الوسائل القديمة .

وفي أعقاب التغيرات التي حدثت شيئاً فشيئاً ظهر أسلوب الكتابة على الخشب بالاختزال منه بالكتابة وهو الأسلوب الرمزي .. وأحسن مثال لها الخط الصوري عند قدماء المصريين والمسمى الخط الهيغروليفي والخط الصوري عند السومريين والذي لايتضمن أصواتاً كما في الكلمة المنطوقة التي تمثل أفكاراً منسقة تنسيقاً له معان وأفكار .. ثم تطورت الكتابة الصورية الرمزية وحلت محلها حروف صوتية مالبثت أن تجمعت فيما يعرف بالحروف الأبجدية .

وبعد ذلك أخذت الطباعة تتطور الى أن وصلت الى استخدام الصفائح المصنوعة من جلود الحيوانات . وقد استمرت الكتابة على الخشب حتى الى ما بعد اختراع الحروف وآلة الطباعة الخشبية في منتصف القرن الخامس عشر على يد العالم الألماني هيدر برج في بداية عصر النهضة ..

ومن المعروف أن الخشب كوسيلة لطبع الرسوم والصور عن طريق الحفر للخشب الناعم ثم تحفر الأجزاء غير المحبرة وتترك الأجزاء المحبرة معكوسة الوضع..

وقد ظلت الوسائل القديمة تستخدم جنباً الى جنب مع الوسائل الجديدة الى وقت تختفي الوسائل الأكثر في القدم .. وتستمر الجهود من أجل الاكتشافات الجديدة لوسائل الاعلام .. ولكن وبهذا الصدد يمكننا الاشارة الى أننا كثير ما نسمع ونقرأ حول اعلام قديم واعلام حديث .. وهذا الكلام يتطلب المزيد من الدقة والوضوح حيث اننا نعرف بأن الاعلام يستهدف في الأساس وفي القديم والحديث التواصل والاتصال عبر الأخبار والاعلام والشرح والتفسير والتربية والتهذيب .. من خلال الكتابة والكلمة والصورة والاشارة والرمز أو بالخطابة أو المناداة - الاذاعة - التلفزيون - المسرح - الخطابات - الرسائل والخ .

وهذه الوسائل هي موجودة منذ القدم ولكن ماحدث هو تحديث لوسائل الاتصال في العصر الحديث وهو يعتبر بمثابة تحديثاً وتطويراً للوسائل القديمة .. فقد كانت الخطبة في الماضي تؤدي دورها في التوصيل على نطاق محدود فأصبحت بواسطة الاذاعة والمكرفون تصل الى أوسع نطاق والى أبعد البلدان متجاوزة البلدان الى قارات أخرى ، كما ان الترنزستور جعل الكلمة تصل الى كل بيت وحقل ومخدع والى الغالبية لرخص ثمن الجهاز وصغر حجمه وسهولة حمله .

واذا كانت الصورة محدودة على نطاق الحجر أو الخشب أو الجدار الذي تم الرسم عليه فبواسطة التصوير الفوتوغرافي وجهاز الزنكغراف أصبحت الصورة تصل الى مئات الآلاف بل والملايين بحسب توزيع المطبوع الذي يحمل الصورة في كل صفحات الجرائد والمجلات .. بل وصل دور الصورة المتحركة بواسطة السينما أولاً والتلفزيون ثانياً الى أعلى مراحل التطور والانتشار الواسع ..

والكتابة التي كانت على نطاق محدود للغاية تمثلت في الاتصالات الفردية عبر الرسائل أو من خلال التسجيل المحدود للأحداث والمعلومات أو عبر المؤلفات المخطوطة التي لاتتجاوز عدة نسخ بجهد ووقت كبير وشاق ..

وأصبحت بواسطة المطبعة وآلة الجمع وعبر التقدم التقني والآلي والتكنولوجي تصل الى ملايين الأفراد والى مختلف البلدان وعبر ملايين النسخ وفي وقت قصير جداً لم يكن أحد يتصوره .

ولكن هذه الوسائل والأساليب والتطورات التقنية العاصفة أو ما أدخل على أسلوب الاتصال من العلوم الانسانية سواء كانت في مجال علم النفس وعلم الاجتماع أو الفنون الجميلة مثل الفنون التشكيلية والتي أصبحت جزءاً لايتجزأ من آلية الاتصال أو تلك العلوم الاتصالية والتقنية الرفيعة من علوم الفضاء والليزر والحاسوب والتكنولوجية الخ .. ليس كل هذا التطور بشيء هين بل هو تطور مذهل وفائق الفعالية من خلاله أصبحت وسائل الاتصالات المختلفة تقوم بدور خطير ومؤثر في حياة الأمم وأصبح يوضع له حسابات سواء في ظل السلام أو في ظل الصراعات السياسية والعسكرية .

وكل هذا يعني أن الاعلام في الماضي والحاضر هو في الأصل اعلام ولكن كما ماحدث من تطور في العصر الحاضر انما هو تحديث لوسائل وأساليب الاتصال وهذا لايتيح لأحد القول بأن هناك اعلام حديث واعلام قديم .. ان التقنية الحديثة هي حصيلة تراكمات كمية وكيفية حضارية تمت عبر عصور منذ ما قبل عصر النهضة ومروراً بعصر النهضة متصاعداً حتى بداية عصر الثورة الصناعية وهي المرحلة التي شهدت البداية الحقيقية لتطور الآلية والميكنة بداية بعصر البخار والكهرباء - والاتصالات السلكية واللاسلكية التلفون والبرق والراديو - وآلة التصوير الفوتوغرافي والسينما والتلفزيون الى أن وصلت الى المرحلة الحالية من تقدم فاق كل تصور .. كما يمكن القول وعلى ضوء المعطيات الحالية من التقدم العلمي لعلم الاتصالات سوف يكون لوسائل الاتصال في المستقبل صورة لايمكن تصورها أو قياسها بشكل دقيق على ماهي الآن .. ولكن وبدون أدنى شك سوف تكون متقدمة على ماهي عليه.. وسوف يكون لدى رجل الاتصال امكانيات وقدرات ليس لها حدود ..

واذا عدنا الى الماضي البعيد سوف نجد أن حتمية الحاجة الى القول أو التواصل قد فرضت في البداية القيام ببعض الممارسات الاتصالية التي عرفت في العصور القديمة وأخذت أشكال بدائية في الأول حتى تم المزيد من أنواع التطور حتى بدأ الاتصال عبر الرواه والقصاصين والمنشدين في اليونان أولاً ثم عرف في أكثر من بلد.. الى أن ظهرت أساليب أخرى على يد [توفبرين] الى الفيلسوف سقراط الى السحرة الأفريقيين والمنشدين والقصاصين العرب كل هذه الأساليب والطرق كانت ممارسة اتصالية في الأساس .

ولضرورة ادارية ومتطلبات سياسية أنشئت الامبراطوريات الكبيرة والدول المتطورة في العصور القديمة والوسطى شبكات جمع ونشر الأخبار والمعلومات أخذ

المراسلون يتناقل بواسطتها شفهياً أو خطياً الأخبار التي تنقل بعد ذلك الى الناس .. بالمنادة والخ وتنتهي بلوحة الاعلانات .

كما أن الأمم التي عرفت الكتابة على هامش الشبكات الرسمية قد شكلت المراسلات الخاصة بالنسبة للمجموعات المنظمة ورجال الأعمال وأعضاء الطبقات الحاكمة موروداً اخبارياً دورياً تجاوز اطار العلاقات الخاصة والمهنية الضيقة[٢] .

وفي عصر النهضة قد تم استحداث أنواع جديدة من وسائل العلاقات والتواصل في شتى المجالات وبصورة متفاوتة :

ففي مجال البريد قامت أول الخدمات البريدية في فرنسا عام ١٤٦٤م وفي انجلترا عام ١٤٧٨م وفي المانيا ١٥٠٢م .

وفي نفس الفترة وكما هو معروف وضع جوتنبرغ أسس الطباعة الحديثة في عام ١٤٣٨م ومنذ بداية هذا الاختراع أخذ التوسع في مجال النشر بالكتابة دوره على نطاق واسع حيث انتقلت الكتابة من مرحلة التدوين باليد المحدودة وفي نطاق ضيق ومحدود للغاية الى مرحلة النشر على آلة الطبع بكميات كبيرة ووصوله أي المطبوع الى نطاق أوسع .

وفي بداية القرن السادس عشر ونهاية القرن الخامس عشر بدأت الطباعة تلعب دوراً واسعاً .. حيث نشر أصحاب المطابع صحفاً اخبارية بشكل دفاتر صغيرة من أربع أو ثمان صفحات أو ستة عشر صفحة مزينة أحياناً برسوم على الخشب تروي أحداثاً هامة وفي بداية القرن السادس عشر أدت حركة الاصلاح الديني وكذا الحركة المعاكسة لها الى نشر الكثير من المطبوعات التي قامت بالجدل الديني والسياسي مما أدى ذلك إلى أقامة الرقابة الدينية والرقابة السلطوية المدنية أيضاً على النشر ومع استمرار الحروب والصراعات الدينية قويت وزادادت الملاحقات ضد طابعي الصحف وناشريها . . وقد فرضت الرقابة في ألمانيا عام ١٥٢٤ م وفي فرنسا ١٥٣٧ م وفي انجلترا ١٥٨٦ م .

أما البداية الأولى للمطبوعات الدورية كانت على يد (صموئيل ديلبوم) في أوغسبور في عام ١٥٩٧م شهرياً .

وفي بداية القرن السابع عشر صدر العديد من المطبوعات الدورية حيث صدر في عام ١٦٠٦م مطبوعتان دوريتان اسبوعيتان الأولى في سترا سبورغ والثانية في أوغسبورغ وفي السنوات التالية صدرت منشورات مماثلة في (بال) عام ١٦١٠ م وفي فرانكفورت وفيينا عام ١٦١٥ م وفي هامبورج عام ١٦١٦م وفي بريلين عام

١٦١٧م وفي براغ عام ١٦١٩م وفي أمستردام عام ١٦٢٠م وفي إيطاليا عام ١٦٣٦م وفي مدريد وأسبانيا عام ١٦٦١م وفي روسيا عام ١٧٠٣م وفي بيتر سبوريا .

وكانت أول صحيفة أمريكية ظهرت على يد (بنيامين هاريس) عام ١٦٩٠م في بوسطن وعلى يد (جوكامبل) رئيس مكتب البريد عام ١٧٠٤م تحت عنوان (دو بوسطن نيوريتر) ولكنها لم تعمر طويلاً ... أما أول صحيفة فيها ابتكار فقد اصدرها في أمريكا (بنيامين فرنكلين) عام ١٧٢٨م[٣].

وبعد هذه الإصدارات الأولى استمر الإصدار على نفس المستوى من الطباعة والإخراج والتوزيع ..حتى بدأت مرحلة جديدة من التطور الذي أحدث الكثير من التحولات على أكثر من مستوى بعد ما تم الإعلان عن اكتشاف البخار عام ١٨٠٠ م واختراع المطبعة البخارية على يد العالم الألماني (فريدريك كونج) عام ١٨١٤م وقد استخدمتها لأول مرة صحيفة التايمز اللندنية وقد أخذت تطبع في الساعة الواحدة ألف ومائة نسخة . . . بينما كانت المطابع القديمة تطبع مائتي نسخة في الساعة . . .

كما ظهرت الكهرباء والسكك الحديدية والتي بدأت في بريطانيا عام ١٨٣٠م وهذه الوسائل قد مكنت المطبوعات من الوصول إلى كثير من المناطق .

كما ظهرت الحروف المتنوعة في هذه المرحلة نوع "٩" بنط أبيض و "٩" أسود و "أ" أبيض و "٢" أسود و"٨" أسود وبعدما ظهرت الحروف الكبيرة للعناوين وبدأ العمل بالخطوط بين رقعة ونسخ وفارسي وتبعها صناعة آلة التصوير والأفلام وآلة صنع الكليسهات وفي عام ١٨٥١م ظهر التليغراف مما سهل ارسال واستقبال الخبر في يومه وإلى المناطق النائية . . ومن هنا ظهرت وكالات الانباء لنقل الأخبار فقد قامت هذه الوكالات في البداية بدعم الصحف وجعل الإعلام المطبوع وسيلة الإعلام الرئيسية حتى الحرب العالمية الأولى عندما أخذا البث لإذاعي يحتل مكانته وإن كان في الأول لم يكن ذو فعالية نتيجة قلة أجهزة الإستقبال .

الطباعة :

أولاً يمكن أن نشير إلى أنواع الطباعة وهي تتكون من ثلاثة :

١ - الطباعة الغائرة والتي تقوم على حفر السطح الطباعي المراد طبعه ويمرر الحبر على السطح لينفذ إلى الأجزاء الغائرة ويتم تنظيف السطح البارز من الحبر ليظل الحبر في الإماكن المغمورة وهكذا يتم الطبع .

٢- الطباعة البارزة وهي تقوم على أساس أن السطح البارز الذي يقوم بالطبع وهو الذي يتعرض للحبر .

٣- الطباعة المسطحة (الملساء) وهي التي تطورت إلى مايعرف حالياً بطباعة الأوفست (الليثوغراف) والتي بدأت بالكتابة والنقش على الحجر .

ويقول المؤرخون أن (الويز سنفلدر) هو أبو الطباعة الليثوغرافية حيث كانت البداية عندما أخذ يتسلى بالكتابة على الحجر المصقول وجاءت أمه تطلب ورقة منه راح يبحث ولم يجد ورقة فكان الحبر الذي يكتب به على الحجر قد جف فاحضر الصابون والشمع في محاولة ليحصل منها على حبر كتابة على الحجر على أمل أن ينسخ ما يكتب على الحجر حتى يتوفر لديه الورق وعندما جاء ليمسح ما كتب خطرت إليه فكرة تقول : لماذا لا تطبع النصوص على الحجر بدلاً من الألواح الخشبية التي كانت تحفر بواسطة ماء الفضة ، وكرر التجربة ونجحت فكرته عام ١٧٩٧م(٤) وقد تطورت طباعة الأوفست وأصبحت في الوقت الحاضر طباعة العصر وطباعة الوضوح والنعومة وقوة الألوان والجاذبية وقد انتشرت في جميع أنحاء العالم وأصبحت هي سيدة الطباعة وفي بلادنا اليمن كانت غير معروفة إلى وقت قريت ولكنها اليوم تكاد أن تكون قد أخذت السيادة وأصبحت كل الصحف والمجلات تطبع بالأوفست .

وطباعة الأوفست الملساء تطورت منذ بدء العمل بها في أواخر القرن التاسع عشر . وقد اعتمدت فكرتها على أساس أن الماء والدهن لا يمتزجان . . لإن الحجر الجيري ذو جاذبية شديدة نحو الدهن وهذا يؤدي إلى سرعة التصاق الدهن بالحجر الجيري ومن جانب آخر فإن الحجر الجيري يتميز بامتصاص الماء بسرعة لوجود مسام دقيقة فيه . . وبهذا يتم حبر سطح الوجه فيعلق هذا الحبر بالأجزاء الأخرى المبتلة بالماء فتدار الحبر عنها .

وقد تطورت بعد ذلك طباعة الأوفست من الأملس إلى البارز وإلى الأملس . . بمعنى أن الخطوط والأشكال والنصوص المراد طبعها لا تحتاج إلى تبرز أعمالها فيمكن أن تكون في مستوى الأجزاء العادية من سطح الطابع وكذلك فإن السطح الطابع نفسه لا يلزم أن يكون من الحجر الجيري فيمكن أن تكون من لوحة من الزنك أو الألمنيوم لا يزيد سمكها عن سمك فرخ من الورق المقوى . . وتتكون الآلة الطابعة من الأوفست من مجموعة من الطنابير والأسطوانات تدور كلها حول محاورها ويبدأ العمل بإعداد اللوحة الطابعة فيحسن سطحها وينقل إليها الأصل المراد

طبعه بواسطة التصوير بالطريقة التقليدية في إعداد الصور في ورشة الحفر وقد تطورت الآن طباعة الأوفست بدون الماء وحل السطح البارز محل السطح الأملس .. المستوى والسطح البارز لا يلمس الورق هو الذي ينقل المطبوع فوق الورق .. وهو ينقل مقلوباًعلى كساء الطنبور المطاطي ثم تطبع معتدلاً على الورق وقد أمكن الإستغناء عن إسطوانات الماء والإستغناء عن استعمال الحبر الدهني الخاص بالأوفست.

إلا أن بداية الطباعة عرفت قبل الميلاد في القرن الثامن في اليابان عندما توصل اليابانيون إلى صنع لوح خشبي حفرت عليه حروف كبيرة وكانت تغمس بالحبر وتضغط باليد على الورق .. ثم انتقلت إلى بلاد الصين ، إلى أن تطورت العملية في الصين وتقدمت عندهم صناعة الورق وبطريقة أفضل بـ ١٥٠مرة أكثر من السابق واحتفظ الصينيون لفترة طويلة بسر صناعة الورق . وتمكن من نقل الصناعة في صدر الإسلام عام ٧٥١هـ عندما اصطحب بعضهم معه بعض الصينين إلى بلاده ، وبعدها تطورت صناعة والورق والطباعة بعض الشيء .. وبعدما انتقلت صناعة الورق إلى أسبانيا (العربية) ومنها إلى إيطاليا وفرنسا وبريطانيا ...

وظلت صناعة الورق بالصورة الأولية حتى عام ١٤٥٠ م عندما تمكن العالم الألماني يوحنا غوتنبرغ (١٤٠٠ - ١٤٧٠) من صنع حروف وآلة متحركة للطباعة حتى تم تطويرها مساعدوه بعد ذلك إلى حروف من الرصاص أما المطبعة فقد ظلت خشبية بداية القرن التاسع عشر . وكان يتم الطبع عليها في الساعة من ٢٠٠ إلى ٣٠٠ ورقة فقط . هذا وقد طبع عليها الكتاب المقدس عام ١٤٥٦ م ٣٠٠ نسخة. . وبعد اكتشاف المطبعة الدوراة عام ١٨٩٠ م وصل الطبع في الساعة إلى اثنين وعشرين ألف في الساعة ، وقد كانت أول مطبعة تستخدم هذه الآلة جريدة التايمز اللندنية وبعد خمسين عاماً وصل الطبع إلى ٣٠ ألف نسخة في الساعة .. وقد أطلق على المطبعة الدوارة (الروتابيف) وغرافور والمطبعة التي تقوم بالطبع على الأجسام المحفورة أو السطح الفائر بطرق التصوير الكيماوي يطلق عليها (روتو غرافور) .. وهكذا تطورت الآت الطابعة من آلة يدوية إلى آلة بخارية بعد اكتشاف البخار عام ١٨٠٠م على يد الألماني (فريدريك كونج) والذي اخترع المطبعة البخارية واستخدمتها لأول مرة صحيفة (التايمز اللندنية) عام ١٨١٤م .. وهكذا تطورت آلات الطبع لا حدود لها باستخدام الكمبيوتر وأصبحت المطبعة تدار بالكمبيوتر على أحدث وسائل التقنية المعاصرة .

جمع الحروف :

ظلت الكتابة باليد بصورة مباشرة على الورق والقيام بالتدوين والإتصال بالرسائل المكتوبة بالخط اليدوي .. حتى كانت عملية الحفر على الخشب والعمل على إبراز الحروف التي كانت تغمس على الحبر ثم يكتب أو يطبع بها إلى أن كانت المحاولة الأولى لصنع الحروف من الطين محاولة فقط كانت قبل اختراع (غوتنبرغ) الذي كان قد عمل عل صنع حروف منفردة من الطين الخزفي والتي كانت تجفف بحرقها على النار .. وظلت طريقة اليدوي للحروف المنفردة فترة طويلة لأكثر من الأربعة قرون .. وكان أول من فكر في آلة الجمع السطرية رجل ألماني اسمه (مار جنتلز) وكان يعمل في صناعات الساعات .. رحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث سمع أن هناك محاولات لابتكار آلة تجمع الحروف بسرعة آلية .. فأنضم إليهم. وأمضى أكثر من عشرين عاماً يعمل من أجل الوصول إلى هذا الإختراع ونجح .. وكان عام ١٨٧٠م قد إعلن عن اختراع آلة تتكون من اسطوانتين ولوحة مفاتيح تشبه لوحة الآلة الكاتبة سميت (لونوتيب) ولكن هذه الآلة الجديدة كانت تصف الحروف بصورة منفردة أي حرف بعد حرف حتى تتكون السطور وكل سطر يحتاج إلى أن يضبط من أجل استخدام الفوصل .. وبرغم هذا الضعف إلا أنها تمكنت هذه الآلة من تحقيق تقدما بحيث أصبحت تعمل في مقام أربعة عمال في مقابل الجمع اليدوي . ..

ولكن لم تقف الشركة الأمريكية عند هذا الحد .. بل قامت شركة (الأنترتيب) بفضل المخترع الأمريكي (أوتومارمر جنتالر) من صناعة الحروف نفسها وبالتالي يتم السبك على هذه المتاريس لتشكل السطور المتماسكة وبدأ العمل بهذه الآلة عام ١٨٨٦ م وتطوراً لهذه الآلة وإن كانت مماثلة لها من حيث الإنتاج تم صنع آلة (الانتر تيب) وبدأ العمل بها عام ١٩١٣ م .. وهذه الآلة الميكانيكية قد استمرت بدون أي تطورحتى عام ١٩٣٢ م عندما استخدم الشريط المثقوب الذي يعمل عليه العامل ثم يجمع في الآلة الميكانيكية آلياً . لأن الطبع على الشريط النثقوب أسهل لإن العامل يجمع دون توقف ثم إن سرعة الجمع في الآلة الميكانيكية أصعب من في الآلة التوماتيكية .. ونجد بأن العمل بواسطة الشريط المثقوب يمثل سرعة ٦ و ٧ أضعاف سرعة عامل الجمع الميكانيكي .. بالإضافة إلى عدة مميزات خاصة وفي الجمع الآلي بالرصاص يتعذر الإحتفاظ بالمادة لما تحتوى المادة من أطنان من الرصاص بينما بدخول الشريط المثقوب كوسيط أصبح من السهل حفظ الشريط وذلك لخفة وزنه وحجمه الصغير وقلة تكلفته ، إلخ .

وباختصار يمكن الإشارة إلى أن العمل بالشريط المثقوب يقوم على مرحلتين :

المرحلة الأولى : يتم تثقيب شريط رفيع من الورق على آلة تشبه الآلات الكاتبة كل عدة ثقوب تمثل حرف .. ويأخذ هذا الشريط إلى المرحلة الثانية حيث ماكينة الجمع السطرية ويركب على أسطوانة بجانب الماكينة للجمع بالرصاص وتقوم هذه الماكينة وتدور وتتحرك بدون يد عاملة وسرعتها بمثل سبعة أضعاف سرعة العامل .

وقد تطور الجمع السطرية (الليو نتيب) إلى مرحلة الجمع التصويري . وكانت بدايتها عندما أراد شاب فرنسي زميلا له في إحدى دور الطباعة .. وأثناء هذه الزيارة لاحظ الشاب الزائر أن عملية الجمع السطرية تسير بعدة مراحل تبدأ بصهر الرصاص والجمع والتصحيح ثم التنضيد والمراجعة وبعد هذه العملية يطبع عليها ورقة واحدة لكي يتم بعد ذلك تصويرها وعمل لوح من الزنك ليطبع عليه فبدأ هذا الشاب وهو هاوي تصوير دهشته لهذه العمليات كلها لمجرد طبع ورقة .. فبدأ يفكر ويتساءل لماذا لا يتم الجمع بواسطة التصوير .. ومن هذه الفكرة نبعت فكرة آلة الجمع التصويري التي هي تعتمد على آلة الجمع البارز على شريط ورقي حساس وهو يقوم بتخزين على شكل إشارات رمزية على شريط ممغنط وتترجم الإشارات على واجهة لمبة المهبط التلفزيونية ويغذي الجهاز بالمواد المكتوبة على شريط مثقوب مع تعيين نوع الحرف وشكله ومقاسه المطلوب ونظام العمل في هذا الجهاز تماماً مثل ماكينات (اليو نتيب) .. ولكن بدلاً من أن يخرج رصاص يخرج لنا نص مكتوب على ورق حساس .

ومن أجل التخلص من الطباعة القديمة التي كانت تسبب الكثير من التشوهات بسبب استمرار الكبس على الحروف من خلال ايجاد الورق المقوى في منتصف القرن التاسع عشر هذا الورق المقوى كان يتم الكبس عليه بوسطة مكبس فوق السطح البارز للهيئات المراد عمل قالب لهافيتحول الفرخ بذلك إلى أم ترتسم عليها معتدلة غائرة ثم يصب عليها القالب المطلوب والذي تظهر عليه الهيئات مرة أخرى بارزة مقلوبة وكانت هذه العملية مرتبطة بظهور الآلات الطباعة المقوسة الدوارة في نفس الفترة فترة القرن التاسع عشر وهذا الإكتشاف يقوم على فكرة الطبع الدوار. فالسطح الطابع فيها يركب على طنبور اسطواني يدور حول نفسه فيحرك السطح ثم يلتقي بالورق والسطح المطبوع كذلك هناك بكرة ورق تدور حول نفسها ليخرج منها شريط من الورق إلى حيث يلتقي بالسطح فيرسم عليه بالضغط ما برز من هذا السطح . وقد تطورت الآت الطباعة الدوارة منذ استخدام القوالب المقوسة تطوراً

كبيراً إلى أن وصل أن يطبع شريط ورقي من الجانبين وخروج المطبوع معطف وبعدة ألوان دون الحاجة إلى اليد العاملة .

الفنون المطبعية :

إن التطبيق العملي في بداية أية دورة لدارس الفنون المطبعية يجب أن يكون على دراية بإن للفنون المطبعية عدة مراحل .. وكل طور من التقدم الآلي والتكنولوجي والتقني في مجال الطباعة يمر بأنواع مختلفة من مراحل الإنتاج وعلى سبيل المثال ففي المستوى العادي والتقليدي للإنتاج المحدود نجد أربع مراحل ، وهي :

- التخطيط - والتنفيذ - الطبع - والتجليد .. أما في حالة الإنتاج الواسع ضمن الوسائل التقليدية أيضاً يتطلب الآتي :

١- التخطيط - التحضير الفني - وتهيئة النص .. التنفيذ (الترتيب - الإستنساخ - التصفح - الطبع - التجليد - وفي حالة التقدم التقني فإن هذه المراحل تختزل وتنفذ آلياً - وعلى العموم فإن كل هذه المراحليقوم بها مجموعة من الأشخاص الفنيين ذوي الخبرة والثقافة والتأهيل العلمي والفني .. ومن أجل توضيح مهام هذه المراحل يمكننا الإشارة إلى :

- التخطيط يقوم على تقييم المادة المطبوعة والغاية منها وبالتالي دراسة الحجم والكمية وطريقة الخزن .
- التحضير الفني وتهيئة النص من خلال تحديد الإطار الفني للنص والرسم والتصميم واختيار الألوان وجعل النص قابلاً للجمع .
- الترتيب بعيين موقع الصفحات لمختلف وحدات الملازم المكونة من عدة صفحات وفي حالة جمع الحروف الساخنة - وهو الجمع بالرصاص يتم شد الملزمة في الطباعة أو في آلة جمع الحروف .. أما في ظل الجمع البارز بواسطة الحواسيب (الكمبيوتر) وطباعة الأوفست يتم عند التحضير عبر التلقيقة أو التركيب الأشكال الجاهزة على المسطحات أو بشكل تقني آلياً داخل الجهاز الحاسوب .
- الاستنساخ - إعادة الصور الأصلية إلى الأرشيف أو بطريقة أخرى مثل إعادة الصور عن طريق الطاقة الكهربائية أو الحرارة .
- التصفيح وهي يعني وضع الصفيحة أو وضع سطح أصلي (البلاكات) .

- الطبع - وهو تحضير المطبعة وتشغيلها لنقل ما أعد في المراحل السابقة إلى صفحات مطبوعة عبر آلة الطبع التي يمكن أن تجهز للطبع بعدة ألوان في آن واحد . وتقوم بطبع الجريدة أو المجلة دفعة واحدة وتخرج المطبوعة بشطل نهائي معطفاً وجاهزاً .
- التجليد : سواء كان يدوياً يقوم به العمال عبر عدة مراحل إو عبر آلة التجليد وهي عملية تتطلب عدة مراحل ، وهي :

الطي والقطع - والتثقيب وتجميع الأوراق بالتسلسل وصنع الدفاتر الممصمفة وقص الأطراف - وآلياً أيضاً تسير بنفس المراحل .

وكان لظهور الطباعة دور كبير وهام في إزالة العزلة وتحطيم الأسوار العازلةبين الشعوب والأمم .حقا فقد كانت متثل مرحلة حضارية جديدة بالغة الاهمية . . إلى حد أن أصبح اليوم المقياس لتقدم وتخلف الشعوب يقاس بمقدار ما يستهلك الفرد من الورق . . .

ولإن الطباعة أساسها كما قلنا حضاري لكونها تقوم على أساس التعليم والقراءة والكتابة والتوصيل والإتصال وبهذا الصدد أكد المؤرخون بأن بداية الحضارة بدأت بالتعامل مع اللغة نطقاً وكتابة ولهذا فلا غرابة أن يأتي غوتنبرغ الألماني الجنيسة باختراعه العظيم والمتمثل في الآلة الخشبية اليدوية الأولى للطبعة في بداية عصر النهضة في منتصف القرن الخامس عشر .

ولقد أخذت الطباعة والنشر والتوزيع تتطور مع تطور كل المخترعات الآلية والتكنولوجية ابتداي من اكتشاف البخار والكهرباء والآلات الميكانيكية والسكك الحديدية وبظهور المطبعة دوارة والصور والتليفون والتليغراف والراديوا وظهور الفلم السينمائي وكذلك التلفزيون وكل العلوم التكنولوجية المتقدمة إلى علم الفضاء وللليزر وتطور علوم المواصلات المختلفة وكذلك تطور العلوم الإنسانية وكذا علم الإعلام والعلوم الإجتماعية والنفسية والفنون الجميلة كل هذه العلوم استفادت منها وسائل الإتصال المختلفة وكان تطورهما معا .

وبالإستفادة من كل هذه العلوم شكلت وسائل الإتصال المختلفة مرحلة جديدة من العلاقات الإنسانية سواء كانت سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية على الصعيد الديموقراطي فقد أصبحت وسائل الإعلام تعتبرها مرادفة تماماً وملازمة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر .

وقد شهد تاريخ الصحافة ما يؤكد بأن الإعلام لا يمكن أن يكون له وجود وفعالية حقيقية بدون الديمقراطية لهذا تعتبر الديمقراطية و وسائل الإتصال شيء واحد لا ينفصلان مطلقاً .

وقد أكد الدكتور عبداللطيف حمزة في كتابه تاريخ الصحافة في العالم بقوله أن موضوع الحرية في انجلترا في القرن السادس عشر قد أصاب العاملين في حقل الصحافة في سبيل الحرية وحرية الطباعة من عنت وإرهاق واضطهاد .. وإن طابعاً اسمه (وليم كارتر) اعدم سنة ١٥٥٤ م لأنه حاول التملص من القيود التي فرضتها الحكومة على تأسيس المطابع ومن ثم كثرت وازدادت الهجرات من إنجلترا إلى أمريكا حيث هناك يتحرر الإنسان من سياسة القمع الإنجليزية .. ومن خلال المناخ الصحي حينها وجد في أمريكا مجالاً واسعاً لحرية النشر .. وعلى ضوء ذلك تأسست أول مطبعة عام ١٦٣٨ م على يد (اسطيفان داي) وقد ازدهرت الطباعة والنشر في أمريكا في ذلك الوقت تحت راية الحرية ..حتى أن البعض قد أنذر أمواله في سبيل ازدهار الثقافة والطباعة والنشر .

وقد انحنى المؤلفون انحناءة إعجاب كبير أمام رجلين من الإعلام الوطنية في مجال الطباعة في امريكا.

أولهما (بنيامين فرنكلين) الذي خصص في وصيته الجزء الأكبر من ثروته بعد موته لأغراض تنمية الطباعة والنشر .

وثانيهما (أشعيا توماس) الذي أوصى الأخر بالجزء الأكبر من ثروته لأغراض تشجيع العاملين بمؤسسة الآثار القديمة .

صناعة الورق :

أخذ الإنسان البدائي يكتب على كل شيء يصادفه يصلح للكتابة فبدأ على الأحجار والتماثيل والخشب وبعد ذلك على أوراق البردي والورق المستحضر من جلود الغنم والماعز والعجول .

أما الطباعة في على الورق بالمفهوم الحالي فلم يتفق أحد من المؤرخين والمعنيين بهذه الصناعة على تاريخ محدد لبدأ صناعة الورق .. ولكن كل المؤشرات التاريخية تشير إلى أنه ما بين عام ٢٠٠٠ - ٢٥٠٠ قبل الميلاد .. ويقول د/نعيم أديب[٥]. وقد كان قدماء المصريين أول من صنعوا ورق الكتابة من نبات البردي وإن كلمة ورق بالإنجليزية (PAPER) اشتقت من اسم نبات البردي باللغة لأغريقية .

وفي سنة ١٢٠٠ قبل الميلاد قامت أول صناعة للب الورق شبيه بالصناعة الحديثة ظهرت في الصين وعندما فتح العرب أطراف الصين ونقلوا أسرار هذه الصناعة إلى بغداد عاصمة الخلافة في عهد هارون الرشيد .. ومنها تسربت أسرار الصناعة إلى الغرب عن طريق أسبانيا (الإسلامية) .

وفي عصر الثورة الصناعية و بالتحديد عام ١٧٩٩ م اخترع (لويس روبرت) الفرنسي طريقة لتصنيع الورق على مناخل متحركة واعتبرت هذه العملية الأسس الأولية لصناعة ماكينات الورق الحديثة .. وفي عام ١٨٤٠ م اكتشف الطريقة المنكانيكية لصناعة اللب ميكانيكياً .

وفي سنة ١٨٥١ م تم تصنيع لب من الخشب بالطريقة الكيميائية باستخدام الصودا الكاوية بانجلترا .. وفي ستة ١٨٦٧ م اخترع بطريقة السلفيت وقد استخدمت هذه الطريقة سنة ١٨٧٤م ي السويد وألمانيا وفي سنة١٨٧٥ م تم تغطية الورق ميكانيكياً لاستخدامه في الطباعة . .

أما سنة ١٨٨٤ م فقد اخترع طريقة السلفات المسماة بالكرافت بألمانيا واستخدمت تجارياً في أمريكا سنة ١٩٠٩ م .

أما بالنسبة لصناعة الورق من النباتات .. فإن الألياف النباتية الداخلية في تصنيع الورق تتمثل في أنواع كثيرة من الأشجار والنباتات المختلفة والمخلفات الزراعية مثل قش القمح وقش الشعير وقش الأرز ومصاصة القصب ومخلفات القطن ونباتات أخرى.

أما التركيب الكيماوي يتكون أساساً من مواد خشبية . . .

- المواد المستخلصة لصناعة الورق وتنقسم إلى ثلاثة أقسام وهي :

أ - مواد غذائية وتختزن في الخلايا مثل السكر والنشا ، إلخ ..

ب- مواد سامة ضد البكتريا وتعمل كمواد حافظة .

جـ- أملاح معدنية مثل أملاح الصوديوم والبوتاسيوم والكالسيوم والماغنسيوم وغيرها من الأملاح .

وخطوات تصنيع الورق تتلخص بالآتي :

١- تجهيز الخامة وهي تتمثل في عدة طرق ومنها - الجافة - الرطبة - المبللة البيولوجية .

٢- تجهيز العجينة أو اللب واللب الميكانيكي - الكيميائي - المباشرة والغير مباشرة .

٣- عملية التبييض والتلوين بواسطة عدة عمليات كيماوية .
٤- عملية الرض أو الضرب .. وهي عملية تتم ميكانيكياً .
٥- عملية الحشو والتجهيز وهي عملية حشو بعض المود مثل الكربونات الكالسيوم والبروتينات ، إلخ .
٦- تحويل اللب إلى ورق وصقله ، وهنا يتم مزج اللب بكمية معينة من الماء (بنسة معينة) ويطرح على ماكينة ذات منخل أو شبك مستطيل من السلك . لا يسمح إلا بنفاذ الماء فقط ويتحرك بمعدل معين ويرج جيداً أثناء حركته فتتشابك الألياف بعضها ببعض مكوناً نسيجاً متصلاً .

وخواص الورق تتلخص في الآتي :
- خواص طبيعية .
- خواص كيميائية .

أنواع الورق :

ورق الجرائد يحضر غالباً من اللب الميكانيكي الرخيص ٨٠٪ و ٢٠٪ من اللب الكيميائي .. وهذا يزيد من قابلية الورق لعملية الطباعة نتيجة لوجود زيادة العتامية وهذ يقلل من تكاليف تصنيعه .

أما ورق المكاتب للكتابة والطباعة الجيد فيحضر من لب كيميائي مبيض وغير مبيض مضافاً إليه مواد أخرى .. ويكون خالياً من الشوائب والعيوب والتموجات ومستوى السطح متجانس السمك صالحاً صلاحية تامة للكتابة بالحبر ويوجد أنواع عديدة من ورق الكتابة وهذا مثال فقط .

الشريط الممغنط

أضافت الثورة الصناعية العلمية خطوة جديدة إلى وسائل الإتصال إذ تمكن (أديسون) في آواخر القرن التاسع عشر من أن يسجل الصوت على اسطوانة من الشمع هم سماعه مرة أخرى ..وبذلك استطاع الإنسان ولأول مرة في التاريخ من تعبئة الأصوات المسموعة وإعادة سماعها مرة أخرة ومرات .

بعد ذلك تقدمت أدوات التسجيل وفنونها الصوتية فأصبح تسجيل الصوت على أقراص مرنة غير قابلة للكسر سهلة النسخ رخيصة الثمن ، بدلاً من تسجيلها على اسطوانات من الشمع سريعة البلى صعبة النسخ وقد انخفضت أسعار أجهزة

الجراموفونات وأصبحت في متناول الكثير وتم بعد ذلك اختراع جهاز التسجيل للصوت عبر سلك من المعدن ثم على شريط من البلاستيك مغطى بمادة قابلة للمغنطة.... وبذلك أصبح التسجيل للأصوات أكثر سهولة وأقل نفقة ..والأجهزة أصغر وأخف وأكثر حداثة وتقنية عالية .

سمات الشريط الممغنط :

والشريط الممغنط هو عبارة عن شريط مغطى من أحد الوجهين بمادة ممغنطة وهو عبارة عن شريط يتراوح طوله (٢٤٠٠ - ٣٦٠٠) قدم وعرضه في الغالب ١,٥ إنش ملفوف على بكرة قطرها عادة (١٠/٥ إنش وقد مر بعدة تطورات منذ الخمسينات تميز بكثافة التخزين .. حيث يخزن البيانات على شكل نبضات مغناطيسية غير مرئية بالعين المجردة .

خصائص الشريط الممغنط :

١- رخيص الثمن خفيف الوزن يسهل نقله واستعماله .

٢- ذو سعة عالية .

٣- السرعة العالية لنقل البيانات من أو -إلى الشريط الممغنط تصل سرعته إلى ملايين الرموز في الثانية .

وهناك أنواع عديدة وأشكال مختلفة من الأقراص الممغنطة وهناك ما يطلق عليه القرص الصلب وهو مصنوع من مادة معدنية ممغنطة الوجه والوجهين .

القرص المرن اذي يستخدم في الحواسيب الصغيرة وهو من البلاستيك ويوجد منه بمقاسات مختلفة ..كما أن هناك القرص الممغنط الذي يخزن البيانات عليه مسارات دائرية على شكل نبضات مغناطيسية ويختلف عدد هذه المسارات تبعاً لحجم القرص والكثافة المستعملة ..حيث يتم تقسيم المسار الواحد عدد من المناطق تدعى بالقطاعات وفي هذه الحالة يتم الوصول للسجل المطلوب بواسطة رقم التوجه في حالة وجود رقم المسار ورقم القطاع .

طريقة الإسطوانات :

الإسطوانة هي عبارة عن مجموعة من المسارات التي لها نفس الرقم على جميع الوجوه لذا فعددها يساوي عادة عدد المسارات في الوجه الواحد .. وهي الطريقة

المستخدمة مع حزم الأقراص وكما هو معروف فإن جميع الأقراص في حركة دائرية حول محور واحد .

الصور التطور التقني :

لقد ازداد دور أهمية الصور في وسائل الإتصال سواء منها الصامتة أو المتحركة وأصبح لدور التقنية تأثيراً فعالاً في ازدياد هذا الدور والصورة ودورها الإعلامي لم يكن وليد الوقت الحاضر أو حتى نتاج عصر النهضة أو حصيلة التقدم الصناعي في القرن التاسع عشر بل هي من أقدم كل الوسائل الإتصالية .. حيث أننا نعلم بأن الإنسان منذ بدأ يعرف نفسه في الحياة أخذ أول تعبير له عن نفسه وعن مشاعره وأفكاره بالصورة وبرسم الأشكال بدليل أن أول الحروف الهجائية باللغة الإنسانية الأولى اتخذت شكل صور للأشياء مثل الطيور والحيوانات المحيطة بالإنسان الأولى.. ومثل ما حدث في اللغة الهيروغليفية وغيرها من لغات الشرق القديمم وظلت الصورة وسيلة للتعبير عن الحياة وظواهرها الإجتماعية والتفسية والفيسيولوجية ..

وظل تطور وسائل الإستخدام للصور محدود عبر مراحل طويلة حتى أوائل القرن الثامن عشر كانت الصورة لا تزال ترسم يدوياً بالقلم وبالفرشاة على الورق أو الحائط أو ألواح الخشب أو القماش أو غيرها من المسطحات ... كما أخذت الصورة الإعلامية تأخذ دورها بالأسلوب التقليدي عندما كان الرسام نفسه يقوم بالإنتقال إلى موقع الحدث ليقوم برسم الصور ثم تنتقل بعد ذلك إلى الخشب الذي يعد للحفر ثم للطبع واستمر العمل بهذا حتى ظهور الصور الفوتوغرافية .. وقد كانت هذه الصور في ذلك الوقت تقوم بالوظائف التالية :

- عكس مظاهر الحياة بكل أبعادها البارزة في ذلك الحين .
- تعكس المشاعر والوجدان والأحاسيس والمعتقدات .

وقد تطورت وظائف الصور الصحفية خاصة بعد انتقالها من المرحلة الجمالية إلى مرحلة القيم الإخبارية الهادفة . وقد عبرت عن الروح والجوهر قضايا المجتمع فقد جسدت الأخبار والإعلام والتثقيف والشرح التفسير وتقوم بدور التهذيب والتربية والتوجيه إلخ .

والجدير بالإشارة هنا بأن أولى الصور حفرت على الخشب وطبعت على مطبوع كان عام ١٧٤٠ م هو رسم شعار المملكة المتحدة البريطانية وكانت أول صورة تنقل بالراديوا عام ١٩٣٠ م .

وقد وصلت الصورة إلى قمتها عندما عرضت على الشاشة الكبيرة للسينما ثم بواسطة التليفزيون.

الصور الإختراعات العلمية :

قبل الميلاد بثلاثمائة وخمسين عاماً اكتشف بأن الضوء يسير في خطوط مستقيمة وقد اكتشف هذه الظاهرة (اقليدس اليوناني) وكان ارسطو قد لاحظ أن أشعة الشمس وهي تنعكس على سطح الأرض بقعاً ضوئية مستديرة بعد مررها خلال فتحات بين أوراق الأشجار .

وكان الرجل الإيطالي (جان بابيتسنت بورتا) سنة ١٥٥٣ م هو الذي اكتشف الصندوق المظلم وتطبيقاته في فن التصوير الضوئي كما تم تطور في عملية التصوير على يد العالم الفلكي (يوهان كيبلر) عام ١٦١١ م . . وكشف وفسبر عمل العدسات البسيطة والعدسات المركبة . كما أن العالم الإنجليزي (توماس ويدجود) قد أكد في أبحاثه نترات الفضة عام ١٨٠٢ م بأن الأشعة فوق البنفسجية والزرقاء أسرع تأثيراً من الأشعة الحمراء على ملامح الفضة الحساسة مثل نترات الفضة أو كلوريد الفضة .

بيد أن أهم التجارب في عالم التصوير هي تلك التي قام بها العالمان الفرنسيان (نيبس وداجير) عام ١٨٢٩ م والتي تضمنت طلاء لوح من النحاس بطبقة من الأسفلت ثم لصق ورقة شفافة مرسوم عليها صورة ثم يتم تعريضها معاً لضوء الشمس حتى يتصلب الأسفلت المعرض للضوء بينما تظل الأجزاء الباقية تحت الخطوط المعتمة كما هي أي أنها لا تتصلب وتبقى قابلة للذوبان في محلول خاص واستطاع نيبس ان يزيل الإسفلت المتصلب ويحفر اللوح النحاسي بحامض النيتريك فتبقى الخطوط واضحة عميقة مما يسهل تحبيرها بأي حبر .

وفي عام ١٨٣٩ م كشف العالم (داجير الفرنسي) رأن أنجرة الزئبق تسبب في إظهار الصورة المختفية على اللوح الحساس وقد كان لهذا الإكتشاف أثره ، وقد أحدث تحولاً تاريخياً عظيماً .

وفي نفس المرحلة كان العالم الإنجليزي (وليم هنري فوكس) قد قام بإجراء تجاربه على طباعة جديدة للصور على الورق الأبيض الذي يغطى بطبقة من أملاح كلوريد الفضة وأيوديد الفضة وكان نجاح هذا العالم يمثل قفزة جديدة وإيجابية لكونها تشبه الطريقة الحديثة التي تقوم باستخدام مادة كيميائية خاصة تمنع تأثير

الضوء على المادة الحساسة بعد نزعها عنها من فوق اللوح المطلي .. وبذلك أمكنه الاحتفاظ بالصورة المطبوعة على الورقة الحساسة .

أما الفضل الأول في ابتكار الفلم الحساس يعود إلى العالم الإنجليزي (مادوكس) الذي استطاع عام ١٨٧١ م أن يستبدل بالكلور الرطب بالجيلاتين الجاف . وفي سنة ١٨٧٢ م اكتشف العالم الألماني (فوجل) تجعل الفلم الحساساً لألوان الأشعة الضوئية فيما عدا اللون الأحمر .. وكان هذا بداية لعصر الفلم الجاف وأصبح للأفلام الجافة تجارة واسعة ... والفلم القديم كان عبارة عن شريط من الورق يغطى بطبقة من الجلاتين وأملاح الفضة الحساسة .

وفي عام ١٩٠٥ م ابتكر الفلم الحساس لجميع الألوان وهو المسمى بالنكروماتيك . وذلك باستعمل صبغات خاصة تضاف إلى خامة الفلم نفسه .. ويعتبر عام ١٩٣١ م نقطة تحول هامة في تاريخ التصوير عندما ابتكرها عازف الكمان (ليبولد جودسكي) بالإشتراك مع صديقه (ليو بولد مانس) لأول مرة فيلماً ملوناً كان الأساس الذي بني عليه فيما بعد فيلم الكود أكروم والذي انتشر على نطاق واسع بعد عام ١٩٣٥ م .

لعبت آلة التصوير الصغيرة (لايكا) دوراً هاماً في تطوير في التصوير الذي اخترعها (أوسكار بارناك) والذي توقفت أبحاثه أثناء الحرب العالمية الأولى ... وبعد الحرب واصل أبحاثه وتوصل بنجاح عام ١٩٢٤ م بتطوير آلات التصوير لايكا .. وتمكنت الصحافة من استغلال هذ الآلة لصغر حجمها وخفة وزنها .

في عام ١٩٤٠ م اكتشف العالم (دوجلاس وينك) طريقة خاصة لمعالجة الفيلم بالعدسات المقعرة بحيث تساعة في تصوير الموضوعات للحصول على نتائج مجسمة بأبعادها الثلاثة في الصور الملونة وغير الملونة ..

أما عن امكانية التقاط الصور تحميضها وطبعها في وقت واحد فهو اختراع يرجع إلى سنة ١٩٤٧ م عند ابتكر (ادوين لانت) آلة تصوير تلتقط الصور وتحمضها على ورق حساس خاص معدة للطبع مباشرة عندما يضغط المصور على الزناد يجعل سائل التحميض يعمل وبعد ذلك تخرج الصورة مبتلة نوعاً ما حيث تجف بعد برهة وجيزة وهي نفس الآلات التي أُستخدِمت عند تسجيل الناخبين في بلادنا ، طبعا مع بعض التطورات التي أُحدثت عليها .

الهوامش

١- د. عثمان امين ، اللغة والفكر ، القاهرة ١٩٦٧م.
٢- فرنسوا تيرو بيارابير ، ترجمة عبدالله نعمان ، بيروت بدون تاريخ.
٣- فرنسوا تيرو بيارابير ، مصدر سابق.
٤- د. عبداللطيف حمزة ود. ابراهيم امام ، دراسات في الفن الصحفي ، القاهرة ؛ د. ليلى عقاد ، الاخراج الصحفي ، دمشق ١٩٨٨م.
٥- نعيم اديب ، صناعة الورق ، المكتبة الثقافية ، الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٤م.

يمنيات ابن قلاقس

دراسة تحليلية فنية

بقلم : الدكتور محمد أحمد النهاري
الاستاذ المشارك في قسم اللغة العربية

ملاحظة أولى :

لايزال تراثنا اليمني مطموراً بأحقاب التخلف الثقال. وبالرغم من الجهود الشخصية بما في ذلك جهود الدولة لإخراج هذا التراث إلى الوجود فإن قليلاً ضئيلاً مما دوّنه اليمنيون أو كتب عن اليمنيين لايكاد يُبوّءُ اليمن مكانة تستأهل به أن يتجاوز شقيقاتها من اقطار العروبة والاسلام ، تلك التي كتب القدر لها أن يهتم بتراثها رجال مخلصون في ظل ظروف مواتية. أن كثيراً من تراثنا لازال في حاجة إلى تنقيب ودراسة ونشر. فهناك ألوف المخطوطات في الفقه واللغة والأدب والفلك والطب وغير ذلك من العلوم والفنون ، وكثيراً منها عبثت به كف الأيام ومالم تنهض جهود خطيرة لإنقاذ تراثنا فإن الامة ستبدو في مستقبل الأيام دون هوية.

لقد وفد إلى اليمن من أمصار عديدة طلابُ علم أخذوا علوماً وفنوناً عن علمائها الأجلاء كما وفد إليها شعراء مدحوا ملوكها وأقيالها ، ورحّالة كتبوا عن حضارتها وطبيعتها. والحق ان الكتابات عن اليمن - رغم ندرتها - تسجل ملامح خطيرة في سياق التاريخ اليمني. ونحن إزاء ذلك لابد ان ننهض ببعض الواجب - على الأقل - إزاء هذا التراث العريق الذي يشكل تواصلاً والتراث القومي من ناحية وينجز ابداعاً غير منقوص على الصعيد الانساني بشكل عام.

لقد لفت انتباهي شاعر كبير من شعراء العروبة في الفترة الأخيرة من العصر العباسي هو ابو الفتوح نصرالله ابن عبدالله بن مخلوف من القطر المصري ، لما فيه من خصائص فنية قوية. ورأيت ضمن قصائد الديوان أشعاراً قالها في بعض رجالات اليمن أثناء زيارته لها تشكل في مجموعها مادة صالحة للدراسة ، لعل هذا الجهد المتواضع ينفض بعض الغبار المتراكم عن تاريخنا الأدبي على وجه الخصوص.

منهج الدراسة :

لن أقف عند التاريخ الذي يشكل بعض ملابسات القصائد وقفة طويلة فهذا غير مهم بالنسبة لي ، وان كنت ساكتفي بلمحات عند الضرورة. إنما يُهمني أن أدرس النصوص دراسة فنية ومثل هذه الدراسة لن تكشف عن فرادة الشاعر وإمكاناته التعبيرية وحسب ولكنها ستقف بنا على الذوق الفني السائد في هذه الفترة والقيم الاجتماعية التي يحاول الشاعر ان يُعلي من شأنها وكثير من الأمور التي يكشف عنها الشعر كمعطى متميزبإمكاناته الخاصة.

اعتمدت في استخراج هذه النصوص على (ديوان ابن قلاقس) تحقيق الدكتورة سهام الفريح ، منشورات مكتبة المعلا (الكويت) ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م. وأحب أن أشير الى ان مجموعة النصوص اليمنية في الديوان تبلغ ثمانية وثمانين نصاً متفاوتة الطول باستثناء أربعة نصوص تبلغ في مجموعها سبع عشرة بيتاً.

باعث القصيدة :

كان ابن قلاقس شاعراً موهوباً بشهادة كثير من العلماء والأدباء كابن نباته وابن طافرو الصفدي ابن حجة الحموي ، وبعض المحدثين كالدكتور احمد النجار والدكتور محمد زغلول سلام[1] وإذ يأنس الشاعر في نفسه هذه الموهبة فإنه ذهب يتكسب بغية حياة رخية وعيش رغيد ، وهو كذلك يندرج في عداد من اتخذوا شعرهم وسيلة قصدوا بها أصحاب النفوذ من الخلفاء والأمراء والرؤساء وإذ يجود الممدوح بسخاء فعلى الشاعر أن يجود وسعه في سبيل ارضائه ، هو كالطائر يسقط حيث يلتقط الحب ، كما يقول ابوتمام.

حرص ابن قلاقس على جمع المال . والزركلي يشير إلى انه قد امتهن التجارة[2] ويبدوا أنه كان يتجر بشعره وهو لم ير غضاضة أن يلم بالتجارة متى ما رأى بضاعة يمكن أن تروج في مكان دون آخر، خاصة وأن وسائل الاتصال الاقتصادي كانت شحيحة.

كان التكسب هو الاول باعثاً للشاعر ، ففي قصيدة يمدح بها علي ابن أبي الكتائب ، يذكر فيها ماجاءت به في بحره أثناء عطب سفينته يقول :

واخدم بتقبيلي البساط لمن ... بات الزمان له من الخدم

وأعرضْ عليه حال خادمه ... سراً ونبهّه لها ونم

هذا أبوك البحر جار على ... مالي وأجرى في الدموع دمي

وعدا على حرمي وقد جعلت ... منذ انتميت اليك في حـرَم
اعطيتني ماقام يأخـــذه ... مني وظنك فيه لم يقـــم
مالي رُميت بكل عاصفـــةٍ ... أنا لست من عـــادٍ ولا إرم[٣]

فهو يشير إلى أن الممدوح سبق وأن جاد له بالعطاء ولكن البحر صادر هذا العطاء فعاد الى الممدوح من جديد يسترفده على هذا النحو من التبذل. وهو يذكر أن شعره سيذهب في العالمين منوّهاً ومشيراً وذاكراً ان منحه الممدوح عطاءه الجزيل، بل ان الشاعر يثق في ان المجد إذا لم ينوّه بـه شعر فخم ، فإنه لا قيمة لـه ، يظل خاملاً جامداً:

فإن ضاعفت في حتى اصطناعاً ... فقد ألغيت أهل الاصطنـاع
وإن وفرت فيّ الجود إنـــي ... لأرحل عنك بالشكر المشاع
ثناء تَعْبَق الاقطار منـــه ... وتخصب منه ماجلة البقـاع
متى غنت به نغم القوافـــي ... هَفَـت طرباً لها نغم السماع
إذا ما المجد لم يغط بشعـــر ... فقـد منحى بمدرجة الضياع[٤]

وهو يلح على العطاء إلحاحاً ، يستعيذ بالممدوح من الفقر ، ويستجير به من الزمن المر:

هذا مقام المستجير ولم يخـــب ... للمستجير لديك قط رجـاءُ
ماخصني الاعطاب من زمني إلى ... أن عمني من جودك الاعطاءُ
ساعد بذاك ندىً لأصبح رابحاً
ربح الذي اجتمعت له الأشياء[٥]

وإذا كان الشاعر قد قبّل البساط فهو يقبل الثّرى ليحرز الثراء:

وقبّلنا الثرى حمداً وشكـراً ... فما كان الثرى إلاّ ثـراء
وأحرزنا الغنى بندى أكف ... كفت من رام سقياها العناء[٦]

وفي سبيل هذا التكسب يظهر الشاعر اعتداده بقصائده المادحة بل يذكر أن البذل يكون سبباً في صياغة هذا القصيد الجميل الذي يشبه الأبكار المكسوَّة بالحِبَر الجميلة، ويشبه الخمرة المسكرة. ان شعره يشبه نفثات السحر ونور الشمس ، تخلد مآثره وتعلى من شأنه الناس:

من كل بكر ما ارتضيت ... لها سوى علياه جهـــرا
ألبستها الحبر التـــي ... أدعى لها ماعشت حبـــرا
وعصرتها خمرا تـــدور ... كؤوسها شكراً وسكـــرا

وأنا الذي بالبذل ينفث قائلا شمسا وسحـــــــرا
بنوافذ ترنو الرماح لـها بطرف الحقد شـــــــزراً
تحكي عزائمه التـــــي فكت رقاب الخطب قسرا
لا زال ينظر عودهـــــا بنداه لدن المتن نضـــرا[٧]

الأغراض الشعرية :

باستثناء بضعة نصوص هجائية تكون يمانيات ابن قلاقس نصوصاً مادحة. وهذا شيء طبيعي لأن ذلك يتفق مع هدف مجيئه الى اليمن. وسوف نقف أولاً عند بعض هذه النصوص الثلاثة لننتقل بعد تحليلها الى بيت القصيد ، المدح فندرسه دراسة تناسب سياق هذا البحث.

الهجاء

ورد الديوان مانصه : (وقال .. يهجو ابن الذروي الشاعر) :

يا ذروياً كان في حبه جسمي في الرقة كالذرِّ
أقصدتني بالهجر من بعدما أقصدتني من قبل بالهجرِ
وخفت أن ينطق ثغري بما يبيح آثار الحمى الثغـرِ
كن أمنا فالدهر قد شفعت أحداثه فيك مدى الدهرِ
هيهات أن أبلغ بالشعر ما قد بلغت منك يد الشعرِ[٨]

كما جاء فيه (يذم أبا العباس أحمد بن اللآآبي قد سأله مساعدته في شرى سنبوق فلم يفعل) :

منعتني جاهك في وقفـــة تسعدني في عقد سنبـوق
ياطبل ما ألهاك عن شاعر يضرب في عرضك بالبوق[٩]

(وقال أيضاً يهجو دهلك من بلاد اليمن :

ألا أقبح بدهلك من بلدة فكل امرئ حلها هالك
كفاك دليل على أنهـــا جحيم وخازنها مالـــك[١٠]

فهذه النصوص التي بلغت في مجموعها تسع أبيات لا نستطيع أن نخضعها لدرس نقدي لقصر نفسها أولاً وأخيراً ، ذلك أن الدرس النقدي لا بد أن يقوم على نصّ معقول يمكن الباحث من رؤية الخصائص التي يتميز بها النص ومدى فعاليته التعبيرية

وكيف تحرك الشاعر في هذا النص وإلى أي مدى . ورغم ذلك فبإمكاننا أن نطرح الملاحظات الآتية :

أولاً : إن قدرة الشاعر في إطار بحثنا على الهجاء قدرة ضعيفة مقارنة بشعراء آخرين في هذا العصر ، فإن أبياتاً خمساً ، هذه التي هجا بها ابن الذروي الشاعر ، كانت كافية للنيل منه بالمعنى الذي يريد ، إن ابن الرومي مثلاً ينال من أحد هؤلاء البخلاء نَيْلاً بالغاً ، فهو يصور بخله على هذا النحو ببيتين اثنين:

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
ولو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

وأبو العتاهية يهجو عبدالله بن معن بن زائدة ، يصمه بالجبن فيقول :

فصغ ماكنت حليت به سيفك خلخالا
فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتّالا

فبالرغم من بيتين هجا بها ابن الرومي صاحبه عيسى ، وكذلك بيتان هجا فيهما أبوالعتاهية ابن زائدة فإنهما قد أجادا ، وأوفيا المعنى وأثارا بهما انفعالاً ساخراً مضحكاً . أمّا ابن قلاقس فما أوفى وما بلغ الغاية التي يريد انه يريد أن يصف ابن الذروي بالشذوذ ولكنه وصف باردٌ غث ، فيه التواء معنوي وإغراب وركاكة .

ثانياً تنقص الشاعر المهارة في صياغة المعنى . فهو يكاد يجري وراءه والشاعر الجيد هو الذي يكون معناه أقرب ولفظه أسرع في التعبير عنه . ومهما يكن فإن حكماً متكاملاً لا يمكن أن يصدر في غياب نص متكامل كا سبقت الإشارة من قبل .

المديح :

إذا كانت فكرة واضحة يمكن أن يعطيها الباحث حول غرض الهجاء قد تعذرت بسبب عدم نصوص كافية ، فإننا نستطيع أن نكوّن هذه الفكرة حول غرض المديح عند الشاعر بسبب توافر هذه النصوص التي تطول أحياناً. وبإمكاننا أن نتناول هذا الغرض الذي يشكل يمنيات ابن قلاقس من خلال تحليل للبناء العام للنص الشعري ، فهذا التحليل الفني قادر على أن يعطينا تصوراً مناسباً عن ملكة الشاعر الفنية من ناحية، وهذا الذي يهمنا بالمقام الأول كما أنه سيعطينا فكرة عن الذوق الفني السائد في هذا العصر وحركة التاريخ في القطر العربي في اليمن كذلك . وسوف نبدأ بـ :

مقدمة القصيدة :

تتراوح مقدمة القصيدة عند الشاعر بين الغزل ، والمديح المباشر ، والنسيب ، والخمرية من مثل قوله يمدح أبا الحسن علي بن محمد بن أبي الكتائب :

خذها كلون التبر ذائب ... حمراء بيضاء الذوائب
عذراء شائبة وماعتلت ... بها أيدي النوائب
كالنار إلاّ أنها ... إذ تصطلي نار الحباحب
عجبت بفرط الضوء عن ... ابصارنا والضوء حاجب
واستوطنت بشعاعها ... بيتاً ولابيت العناكب
حتى إذا انتشر الحباب ... بها لينتظم الحبائب[11]

ويمضي في وصف هذه الخمرة في كفّ الكاعب الحسناء حتى يصل إلى الغاية وهي المدح .وهذ المقدمة لا تخرج عن الوصف التقليدي فلطالما وصفت الخمرة بأنها لون الذهب وأنها عذراء ، شائبة تطوف بكؤوسها أبكار كواعب تتضرّج وجناتهن حمرة ، ونلحظ أن هذه المقدمة تبتعد عن الرسم الفني القديم فهي لاتبدأ بالوقوف على الطلل ولا تتحدث عن الرحلة وإنما تتخذ الخمرية مدخلاً إلى المديح كما يفعل أبو نواس وأضرابه من رواد التجديد في العصر العباسي ، إذ غدت الخمرية بديلاً عن معالم المديح القديمة .

لقد كان الشاعر فيما يبدو يحاول التخلص من التقليد الذي جرى عليه كثير من الشعراء في مطالع قصائدهم . وأحسب أن الدافع يكمن في أمرين ، الأول موضوعي وهو أن الشاعر يتعجل العطاء ، والثاني فنّي فالشاعر يحاول أن يحدث تجديداً .

إن معظم القصائد تبدأ هذه البداية المباشرة دونما مقدمات ، مثل قوله يمدح ياسر بن بلال المحمدي :

صدرنا وقد نادى السماح بنا رِدوْا
فعدنا إلى مغناك والعود أحمد
وجاذبنا للأهل شوق يقيمنا
وشوق المغنينا عن الأهل يقعد
وما فاح فينا غير ذكراك روضة
ولا ساح فينا غير نعماك مورد
وكم خدعتنا من ملوك يسرّها
لو أنك ترضى أنها لك أعبد[12]

ومثل قوله يمدحه كذلك :

نجوم علاك قد طلعت سعودا وعرف ثناك فينا فاح عـــودا
فأبل حوادث الأيام والبـــس رداء الفضل فضفاضاً جديدا
وطالع أوجه الأعوام بيضـــاً فقد طلعت لمن عاداك سودا
فأنت ابن السعيد أخو المعالي ومن أضحى كوالده سعيدا[١٣]

وهو يخاطبه مادحاً بقوله :

احكم على الثقلين الإنس والـجان فأنت أقوم بالملك السليمانـــي
لك البسيطان لا تقضي انقباضهما وكيف يقبض كفاك البسيطان[١٤]

ويكتب إلى أبي بكر العندى يعدن فيخاطبه مباشرة :

أبابكر العندى عاداك ذوالفتـــــك فحفظا لأشعار القريض من الهتـــــك
أطاف بك الذئب المخالس فاحترس سروب النهى من أخذ مستوجب الترك[١٥]

كمأنه يمدح ياسر بن هلال فيبتدئ قصيدته بقوله :

آيات جدك لم تزل تتلـى وصفات مجدك لم تكن تبلى
ملئت بمدحك كل سامعة والسعد أن ملئت وما ملّى[١٦]

وفي عيد الفطر يمدحه بادئاً مطولته بقوله :

الناس دونك كلهم أكفـاء لك بالكمال عليهم إيفـــــاء
ياواحداً منهم رأوه أوحداً كالدرة اختلطت بها الحصباء[١٧]

ولربما جاءت بعض مقدماته غاية في التكلف مـن مثـل قولـه فـي أبـي الغنـائم بـن الكموني صحاب ديوان ثغر عدن :

عقدوا شعورهم عمائم ونضوا جفونهم صورامْ
بيض ذوائبهـــــم ذوا بلهم وأعينهم لـــها ذمْ
حرسوا رياض جمالهم منها بأمثال الأرائـــمْ
وتوشحوا فوق الترائب بالذي تحت المباسـمْ
كأنما خافوا العيـــون فعلقوا منه تمائـــــم[١٨]

فلقد اجتهد وسعه في سبيل اخراج هذه المقدمة التي بلغت تسع عشرة بيتاً تفيـض بالبديع الرتيب الجامد والصور الملونة الباهتة . وتشبه هذه المقدمة ما جاء فـي مدحـه ياسر بي بلال :

نزلوا فادعوا نزال نـــــــزال بعد ميل عن حربهم واعتزالـــــي
وأقاموا حيال قلبي عينـــــــاً ألقحت حرب حبهم عن حيالـــي

قربا مربط الصبابة منـــــــي شاب رشدى بهم وشب ضلالـــي
لالقيت العيون من حلق الشيب بدرع وان رمت بنبـــــــال
فامسحا عارضي فليس قتيـــراً مابدا فيه من غبار الليالـــــــي
كلفي بالهلال عوض رأســـي عنه من كل شعرة بهـــــــلال[١٩]

إن هذه المقدمة ذات ضجيج موسيقي فهي بذلك خلو من معنى جميل بل تقوم على الركاكة وعدم الوضوح ، وكل بيت يسلمك إلى بيت أكثر رداءة . ولست أحب أن أسأل ماهي القيمة الفنية والمعنوية في قوله :

قربا مربط الصبابة مني شاب رشدي بهم وشبَّ ضلالي

لقد يكون غموض المفردة سبباً في سبيل عدم فهم النص غير أنه متى ما استونست هذه المفردة بتوضيحها فإن المعنى يصبح مفهوماً . والسؤال الآن :ماذا يريد أن يقول الشاعر ؟ إن من يحوجك إلى هذا السؤال من الشعراء – وأنا احترم الغموض الفني – هو شاعر ثقيل . إن بعض الشعراء ينساقون وراء الإيقاع الموسيقي انسياقاً غير رشيد مما يسبب تلاشي التعبير وغموضه ، ولايكاد القارئ يفهم هذه المقدمة بيسر :

أرابه البان إذ لم يقض آرابـــا فارتد ناظره المرتاد مرتابـــــا
وكان أوطان أوطار محاسنهـــا تستنفذ اللفظ إطراءً وإطرابـــا
حيث المغاني غوان ما اشتكت يدها يوما من الخرد الأتراب أترابا
ولا ألم بها مثلي بأدمعـــــه فاستعجز الغيب أرباء وأربابـا[٢٠]

لقد خاض نقادنا القدماء في قضية غموض المعنى وانغلاقه وذهبوا إلى أن ذلك علامة على عدم التوفيق للشاعر.

ويحسن أن نشير إلى أن الشاعر قد يفتتح قصيدته بمقدمة تعرّض بالعطاء ، بل هي مقدمة مكتسبة كما في قوله يمدح ياسر بن بلال :

أنا من جوارك في أعز مكـــان ومن اصطناعك في منى وأمان
ومن افتقادك في رياض مكارم حَيَّيْنني بغرائب الاحســـــان
ومن التفاتك في حراسة جانب ليست لأسد الغاب في خفقان
وعلي من نظرات جاهك لامة أبداً تقيني أسهم الحدثـــــان[٢١]

وكما في قصيدة أخرى يمدحه فيها ايضاً:

صاحبت في سفري لك الآمـــــالا فـأعدتني وأعدتها أموالاً
وهتفت باسمك وهو فال صـــادق فوجدته في راحتيك نوالا

ودعوت منك لدفع عسرى ياسراً ولدفع غلتي الحرور بلالا[٢٢]

وإذا ذهبنا نتتبع مقدمة القصيدة في يمنيات ابن قلاقس نجدها لا تسير على وتيرة واحدة ، فهي تختلف من حيث الموضوع كما سبقت الاشارة الى ذلك ، ومن حيث النبرة الموسيقية الصاخبة والهادئة والصورة التجريبية الفنية.

لقد غلب على المقدمة الحماس وسنقف عند ذلك بشيىء من التوضيح عندما نتناول البناء العام في جانبه التحليلي. بيد أنه لابد من الاشارة الى أن بعض مقدماته تفيض عذوبة من مثل قوله :

لم ترض أني قد حرمت وصالها حتى حمتني في المنام خيالها
قالت وروحي في السياق مخافة لي مالها وهي العليمة مالها
فتبدلت بعد البياض بصفرة خجلاً وجرت عن حيا أذيالها
ومضت وقد ضاق الوشاح بخصرها جزعاً وأشبع ساقها خلخالها
كالظبية الأدماء أتلع جيدها رام على شرف رأته فهالها[٢٣]

ولابأس أن نشير الى أن الشاعر قد حذا في موسيقا قصيدته ومعانيها حذو رائع في الخليفة المهدي : طرقتك زائرة فحي خيالها ...

وإذا كان كثير من الشعراء القدماء يحرصون على أن تسير المقدمة التقليدية من وقوف على الطلل ، ونسيب ، ورحلة تفضي إلى الغرض ، فإن العباسيين ، رغبة في التجديد ومواكبة لإيقاع الحياة الجديدة نجدهم يتخلصون - في الغالب - من الرحلة وإن وجدت فإن طابعها لايحفل بنضارة التجربة ووهجها ، وليس شاعرنا غير واحد من هؤلاء الذين انصرفوا عن هذا الغرض لايدري الباحث إن كان ذكره قد جاء مرة واحدة في كل يمنياته هل ليثبت قدرته - كما يفعل الشعراء في امور أخرى عادة -؟. ففي قصيدة مدح بها ياسر بن بلال يقول الشاعر :

وتنائف قطعت فراسخها بنا بزل الركاب وجاوزت أميالها
هتكت بأيديها مطايا سيرها وتعسفت عقب السرى أهوالها[٢٤]

ومن الملاحظ أن ذكر الرحلة يأتي مرة واحدة فقط في يمنياته . وأعلل ذلك بأن الشاعر كان يحرص على واقعية الحدث فما كان للناقة حاجة في رحلته إلى ياسر بن بلال ، ومعظم مديحه فيه ، لأنه كان يجوز إليه البحر.

الغرض

إذا انتقلنا من المقدمة فإن المديح هو الغرض الأصلي في القصيدة . وإذ تكون القصيدة متفاوتة الطول والقصر ، فإنها كذلك متفاوتة التعبير من الناحية الموضوعية والفنية. وأبرز شيء نلحظه في هذا الغرض إعلاء قيمة البطولة ولايستطيع الباحث أن يفصل بين هذا المعطى وسياق الحركة التاريخية في هذهالفترة. فلقد كان الوضع السياسي في اليمن مضطرباً. ويحاول الطامعون في الحكم أن يستخدموا الدين وسيلة لبلوغ مآربهم والقوة هي السبب الذي يوصل إلى هذه الغاية.

إن القصيدة واحدة لاتكاد تخلو من الحديث عن البطولة في ميدان القتال ، بل ان الشاعر يستمد مكونات قصائده من ميدان المعركة غالبا. والحق أن شعر ابن قلاقس في ممدوحيه من اليمنيين يعكس الوضع السائد الذي كان في اليمن في هذه الفترة ، فهو وضع قلق يفيض بالحروب والصراع والمكائد والحذر . ومن ثم فإن مقولة إن الشعر يع عن المجتمع يكاد ينطبق على هذه الحالة.

إن كغرض بارز من أغراض الشعر في القديم والحديث لابد أن يرد إليه الاعتبار هو في المقام الأول لجملة من القيم الكريمة والأخلاق الفاضلة التي حاول الشعراء على مر العصور تثبيتها في أذهان الناشئة من ابناء مجتمعاتنا العربية ، بل ان الاكثار من ذكر هذه القيم والتركيز عليها بهذه الصيغ المختلفة تؤكد انتماء الانسان العربي لحملة هذه القيم وحرصه على أن تظل معالم بارزة من معالم الشخصية العربية التي لم تدرس حتى الآن ، بل هي في امس الحاجة الى دراستها لننفض عنها هذه الأتربة والأصباغ والأنقاض التي صنعها المستشرقون تارة من الأجانب الحاقدين ومن والأهم من أبناء العرب المغرورين تارة أخرى.

بل إن الشاعر وجد السياق التاريخي القلق حافزاً لصياغة مدائحه وسبباً ينفذ به لقضاء مآربه التي لا تنتهي.

لقد حرص الممدوحون من الخلفاء والزعماء والرؤساء على امتداد الزمان والمكان أن ينوه الشعراء بأمجادهم وبطولاتهم ، بل ان يختلق هؤلاء الشعراء بطولات في سبيل توطيد مكانة أصحاب النفوذ لكان الشعر عزيمة سحرية لا غنى عنها لصاحب سلطان بل ان الأمر حقيق بدراسة نفسية وحضارية يختص بها الانسان العربي بخاصة من دون الناس.

إن الشاعر يمجد في الممدوح البطولة إذن وهو حريص على ذكر الآلة الحربية ليقفز بعد ذلك الى ساحة القتال فيبرز المعركة رأي العين:

عجباً لمغرور يهجيك ضيغـــــماً ماذا يريد ودارك الهيجـــاء
اللأمة الخضراء والصمصامة الزرقـاء والخطيـة السـمـراء
والكاسرات من الجواش تحمـــل الليث الأزل اللّقوة الفتخـاء
سفن إذا نشرت جناح قلوعهـــا خدم الهواء مرادها والمـــاء
يحملن جندك وهو في عدد الثـرى عدى بهن النصر والأثـــراء
ولقد ركبت فليس ينكر بعـــدهـا للخيل في عدواتها خيـــلاء
بين المواكب كالكواكب مالهـــا إلا سمو-لاخفضت- سمـاء
واكتنت البيداء تحت عجاجـــةٍ فكأنما بادت به البيـــداء
ويكاد وهو السيل يدفع متنـــه ألا نقول لمتنه أرجـــاء
وكأنما بين الطبول تشـــاجـر قد طال للبوقات فيه مـــراء
حتى اذا خفق اللواء مروعـــاً وثبت مقتحماً وأنت لـــواء
وركبت فاخترط الصوارم معشـــر ضمنت صوارمهم لهم ماشاؤوا
لعبت وقرت في الحسوم دماؤهـــا ومن العجائب أن نقر دمـــاء[٢٥]

ولم تكن هـذه القصيدة على الحقيقة إلاّ مديحاً وتهنئة بمناسبة عيد الفطر. فالحديث عن البطولة والمعركة هو مركز القصيدة تعلو فيه النبّرة الشعرية وتحد ، ويأتي بعد ذلك ذكر المناسبة باهتا على هذا النحو ، مباشرة بعد آخر بيت يصف فيه القتال :

آنست دست الملك منك بجلسة
قامت بحق جلالها الجلساء
فلك الهناءُ ببهجة العيد الذي أبداً لربك لا يزال هنـــاء
قضّيت حق الصوم أو ودعتـه فليقض حق الصوم منك لقاء
قد رفع الريحان نحوك طـرفه وتحركت في دنّها الصهبـاء
واهتز متن العود يخبر انـــه لابد من أن تسجع الورقـاء[٢٦]

ويخلص في نهاية القصيدة الى طلب المال ، يستأذن بالرحيل ، (٧ أبيات).

إن فكرة الحرب تسيطر على معظم الأفكار في مدائحه ، بل هو يستخدم تلك الأفكار لخدمة الفكرة البارزة ، ففي قصيدة يمدح بها ياسر بن بلال يقول الشاعر :

أوطأت خيلك أبكار الحصون على أن الحصون عذارى ذات إحصان
ماطِرّن في جوها عقبان ألويـــةٍ صاغ النجيع لها تصحيف عقبـان
وزرتها بأســـود الحرب زائرة تخاف من فتكها آســـاد خفـان

من كل مشتهر يقضي بمشتهـــــر كأن غرته والسيف بخمـــــــان
تخاله واهتزاز الرمح في يـــــده ليثا تلاعب يمناه بثعبـــــــان
هل الرماح غصون بات يغرسهـــا من الصدور طعاناً فوق كثبـــان[٢٧]

يكون الغزل لدى الشاعر فكرة ضرورية في سياق قصيدة المدح فيقـوم الشـاعر بتوظيفه لإبراز فكرة الحرب وتمجيد البطل. ومـامن شـك أن معـارك حاميـة خاضهـا ياسر بن بلال أثناء فترة ولايته ، كما تشير المصادر التاريخية.

إن الشاعر – وبدافع التكسب – نجده مضطرب الفكرة فهو لايفرغ للحديث عن غرض فيتناول آخر ، وإنما يبدي فيه ويعيد. فلقد كان انتقـل مـن فكـرة الحـرب الـى فكرة التكسب فلم تكد تمضي بضعة أبيات حتى عـاد ومـن خـلال فكـرة الكـرم التـي تمثلها الأبيات الفاصلة بين غرضين ، فيقول بعد ذلك :

أضرب به لا بمنهل الحيا مثـــــلا مالماء والمال في الأزمان مثلان
عمت بصدق قراع أو قرى يـده فخصَّصتـه بمطعام ومطعان
وجانس الحرب بالمحراب يعمـــره فلا قـرى وقراع دون قـرآن
وشن درعـــاً على دراعة فزرى بكـل صاحب ايوان وديـوان[٢٨]

وإذا كانت المواضعة النقدية أن يتمثل المديح موقف المخاطب مهنيـاً فـإن الجـوّ السياسي يحكم سيطرته. نجد هذا في القصيدة التي مدح بهـا أبـا الحسـن علـى بـن محمد بن أبي الكتائب يقول فيه بعد مقدمة حربية استغرقت خمس عشرة بيتاً :

وهي الكتائب جهّـزت من منطق ابن أبي الكتائب
وكأنما طلعت تباهـــي مالديه من المنـــــــاقب
لولاه لم نحكم بأن (م) عطارداً في شكل كاتـــب
نظم الحساب بأنمـــل نثرته برقاً عن سحائـــب
واستخدام الأعـــلام للأقلام والصمصام غالـــب
فيمينه تسطو بقـــاض لايقاس إليه قاضـــــــب
يقتاد في سهل الكلام أزمة الحكم المصاعـــب
في أسطر لو أنهـــا خيل لكانت كالجنائـــب[٢٩]

فالممدوح تقترن به صفة البطولة فيمينه تستخدم القلم فتسطو به كما تسطو يميـن البطـل بالسـيف. وهـو يقتـاد الكـلام أزمـة الحكـم كمـا يقتـاد الفـارس أزمـة الخيـل الشموس. ولايجد أبلغ في المدح من أن يتمثل ممدوحـه بطـلاً علـى هـذا النحـو مـن قصيدة مدح بها ياسر بن بلال :

مهيبٌ إذا ابيضت أسارير وجهه رأيت وجوه الخطب كيف تسوّد
مصمم جيش والصوارم تنثني ورابط جأش والفرائص ترعد
وبَادِه صرف الدهر بالعزمة التي خواطره عن حلسها تتبلد
وباعثها خضراء كالبحر موجها دلاص وعسال وعضب وأجرد
يروع بها شوس الأسنة أروع ويصطاد عقبان الأعنة أصيد
وناشر هامات الكماة بصارم على صفحة درّ الفرند المنضد
وناظمها في متن لدن كأنه بها شطن ذوق الذراع معقد
مصّور وجه في قذال عدوّه له ناظر من سائل الدم أرمد[٣٠]

وصفات الثناء تصبح أدوات حرب فالحمد درع تنتقى في حماية الأعراض ، والثناء أيضاً درع سابغ فضفاض :

ضاق عن فضله الثناء وقد جدّ اختيالاً في برده الفضفاض
ورأى أن جوهر الحمد درع تنتقي في حماية الأعراض
فهو بالنائل المفاض منيع ال عرض في جوشن الثناء المفاض[٣١]

وأحسب أن القاريء يفطن لما في هذه الأبيات من الماح بفاعلية الشعر وأنه يذود عن العرض وينشر الذكر الجميل ، وأن الهجاء مثلاً قد يكون البديل عندما تمسك اليد عن العطاء ، يؤيد ذلك قوله :

فض مسك الثناء بين قريضي فقديماً فضضته في قراض
وتأمله فهو في الطرس من أحلى سوار رأيته في بياض
كلما دب في المفاصل باتت من حمياه وهي ذات انتفاض
وابق محيا يسر بغير انقضاب ومحيا بشر بغير انقباض[٣٢]

ان قصيدة مدح لاتخلو من ذكر البطولة والقدرة على العراك والحاق الهزائم بالأعداء ففي قصيدة مدح بها ولدى الداعى عمران بن سبأ صاحب عدن يقول فيهما :

أما الملوك فانهم خول لكم حقاً وان عظم الذي قد خولوا
أبداً سيوفكم تسل فتحتوى أملاكهم ويبيحها من يسأل
بدران قد وقف الكمال عليهما والبدر ينقص بالمحاق ويكمل[٣٣]
ومهندان حلاهما شرفاهما بيض مهندة وسمر ذبّل
وغضنفران وانما عاباهما بيض مهندة وسمر ذبل[٣٤]

ومثل هذا المعنى يرد في قصيدة مدح بها ياسر بن بلال :

فوقيت ياعين الكمال ونفسه عين الكمال فقد خلقت كمالا

مئت بك الدنيا اعتدالاً مثلـــه عدلاً ولى أمثاله أعـــــــدالا
ولقد تيقنت لمعاقـــــل أنهـــا دارت على المتدّبـــرين عقالاً
حيث الخيول تجول تحت رماحها لتحول في أوعـــــارها أوعالا
والباترات تطول بين فـــوارس خلقوا على صفة الرماح طوالا[٣٥]

ان غرض المديح عند الشاعر غرض يحشد أفكاراً يبرز منها الكرم ليبرز فكرة أساساً ، هي فكرة البطولة والشجاعة . ويبدو أن هذه الفكرة البارزة فكرة مساعدة، أعنى أنها تستثير مزيداً من القول ، فالعبارة في وصف المعارك واحتدام الوغى عبارة مواتية أغنى منها في الحديث عن الكرم ، لأن الشاعر يكون قادراً على التكوين والاضافة ، بل يكون قادراً على الحركة .

ان المديح في يمنيات ابن قلاقس عبارة عن مجموعة أفكار هاجسها الغائي التكسب وتبرز في مجموعها صفة البطولة والشجاعة . ويحاول الشاعر وسعه أن يستطرف معاني وأساليب ولكن هذا الحرص لايسعفه كثيراً فالمعاني معظمها مطروقة طرقها متكسبون سابقون ربما يكون الفضل لهم لأنهم أصحاب ابتكارها ، كما نلاحظ أن غرض المدح لديه يفتقد الصدق الفني فجاء لذلك مضطرباً ركيكاً متكلّف التعبير .

الأداء الفني :

نعرف الأداء الفني بأنه مجموع الامكانات التعبيرية التي توصل المعنى توصيلاً مؤثراً ، وتشمل اللغة والصورة والتجربة الفنية والموسيقى والأسلوب . وسوف نقف أولاً عند :

اللغة :

يحاول أي شاعر أن يجود لغته وأن يبلغ بها الكمال . والحق أن لغة أي شاعر تكشف عن أصالته وتدل على موهبته وتميز بينه وبين آخرين . ولأنها كذلك فانها تعد الركيزة الأولى التي يدور عليها الحكم النقدي في القديم والحديث .

وفي يمنيات ابن قلاقس تتعدد مستويات اللغة ، فهي تارةً لغة تتأثر لغة الشعر القديم فهو يتكلفها تكلفاً ، وتارة أخرى تعبير تلقائي واضح يستخدم مفردات الحياة اليومية والأسلوب الشعبي المتداول . وأظهر مايكون هذا التفاوت في مطالع القصائد

فليس شك أن أي شاعر يحرص على أن يكون المطلع مثيراً ، معبراً ، وهنا مكانات هذا الشاعر أو ذاك - كما لاحظ ذلك القدماء -.

ان قصيدته التي مدح بها يحيى بن أبي الشداد صاحب دهلك نموذج للتكلف اللغوي واذا كان مصطلح مفتاح القصيدة مصيباً ، فان مطلع القصيدة يعد مفتاحاً لباب تنحشد فيه اللغة ، ودليل على مستوى المفردة والعبارة أيضاً في هذه القصيدة يقول المطلع :

أرابه البان اذ لم يقضي آرباً فارتد ناظره المرتاد مرتابا

فهذا المطلع يحوجنا زمناً لفهمه ، وجميل الشعر - كما يقول سلفنا من النقاد - مالا يحوج الى كثير تأمل . نحن بحاجة الى أن نفهم لغة هذه الأبيات :

سقاه كالدمع الاما يؤثره فانه منع الاحداء احدابا

ومثل قوله :

وجرٍ فيه كأنفاسي غلائله شذاً تقول لهالأطناب اطنابا

وقوله :

ماكنت أسكر طرفي من مدام كرى ولم يحرم على الاصحاء أصحابا

وعلى مستوى المفردة نجد اللغة أحياناً متوعرة لاتعطي المعنى بسهولة ، من مثل:

من حباب كأن فيه حباباً تتقي من لسانه الفضفاض

وقوله :

ووفالها منه هزبر خلفه طلس الذئاب مع الزوابل تعسل

ويلجأ الشاعر الى المبالغة اللغوية محاولاً الابتكار فيأتي المعنى منسجماً كقوله في قصيدة يهنيء بها ولدي الداعي عمران بن سبأ بعيد النحر :

هل في قطار النصر نسر واقع أوفى مسالحه سماك أعزل

ويأتي الأسلوب ركيكاً في مثل قوله :

أبداً سيوفكم تسل فتحتوي أملاكهم ويبيحها من يسأل

لكم التقدم بالتأخر بعدهم كم أخر تلقاه وهو الأول

ويحرص الشاعر أحياناً كثيرة أن يفتح القاموس القديم اثباتاً للقدرة اللغوية فيطالعنا بمثل قوله :

كالأجدل الغطريف يحمل سرجه سامي القليل كما اشرأب الأجدل

وقوله :

من حيث أنعمت النوّا عب للنواجح بالنواعم

وقوله :

وأريجه النفحات يلـــطم نشرها وجه اللـــطائم

ان مستوىً لغوياً آخر وهو مستوى مبتذل يأتي في سياق يمنياته فيكون التعبير أقرب الى تعبير العامية. يقول معاتباً أبا السعود المكفي:

ماسألنا الا على قـــدر ذا الدهر فلا تشمخن علينا بأنـــف

كان لي موعد على حلف لاغرو أن جاء فيه عندي بخلـــف

وهو ماقدره من العـــين مثقال ومثقال ذرة منه يكـــــفي

وبعثت الرسول فارتـــــد نحوي مستخفاً أفديه من مستخف .

البديع :

ليس هنا مجال الحديث عن البديع كفن من الفنون الأصيلة التي تساعد في صياغة شعرية متقدمة ، فان المنهج في هذه الدراسة هو الوقوف مباشـرة على النص ، بعيداً عن التنظير . وهذا لايعفينا من الاشارة الى أن البديع الذي نعنيه هنا هو ما يعنيه النقاد المتأخرون وليس ما يعنيه ناقد كابن المعتز الذي اعتبر الاستعارة باباً من أبواب البديع، يقول : (البـاب الأول مـن البديـع وهـو الاسـتعارة) [٣٦] اضافة الى أن بعض النقاد القدماء اعتبره أمراً ثانوياً يقول الجرماني : (وكانت العرب إنما تفـاضل بيـن الشعراء في الجودة والحسبة بشرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبّه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشـوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بالتجنيس والمطابقة ، ولاتحفل بـالابداع والاستعارة اذا حصل لها عمود الشعر ، ونظام التعريض)

وقد كان يقع ذلك من خلال قصائدها ، ويتفق لها في البيت بعد البيت على غير تعمد وقصد ، فلما أفضى الشعر الى المحدثين ، ورأوا مواقع تلك الأبيات مـن الغرابة والحسن ، وتميزها عن أخواتها في الرشاقة واللطف ، تكلفوا الاحتـذاء عليهـا فسـموه البديع ؛ فمن محسن ومسيء ، ومحمود ومذموم ، ومقتصد ومفرط) [٣٧]

لا أريد أن أقدم دراسة عن البديع وانما لابد من الاشارة الى أنه قد حان الوقت لنرد الاعتبار الفني والموضوعي لهذا الفن ونتجاوز هذا المصطلح الرديء عندما نعتبر هذا الفن زينة ، ولقد بدأ بعض الباحثين يقوم بكشف أصيل في هذا الجانب[٣٨]

نعود الى موضوعنا فنقول ان ابن قلاقس أكثر من البديع في يمنياته ، حتى لاتكاد تخلو ، لاأقول قصيدة ، وانما بيت دونما يضمنها بديعاً . والحق أن الشاعر كان

متسقاً مع ذاته فالمادة البديعية (ترتبط كما يقول أودنيس (بها حسن الأداء المتقن . فقد كانت الفكرة تأخذ قيمتها من زيّها وزينتها ، وتحولت اللغة من وسيلة للتواصل والتفكير الى مادةزخرفية مهمتها أن تجعل العالم الخارجي عالماً مزخرفاً تحوله الى منظر أو حلية أو أغنية أو صورة سمعية - بصرية فاتنة)(٣٩) ولم يستطيع أودنيس أن يكتشف - فيما يبدو - أن البديع اذ كان زينة انما كان يؤدي مهمة تعبيرية تمليها - فقط - ضرورة الفن المرتبط بسياق اجتماعي على نحو ما ، بل ذهب يشايع هذه الفكرة التي تتهم الشعر ، البديع بأنه (حجب ضوء الشعر الحقيقي ، وبدت هذه المرحلة الطويلة اطاراً فارغاً أو دهليزاً كبيراً يمتليء بالأصداء والأنقاض) (٤٠)

ان أبرز ما نلحظه في يمنيات ابن قلاقس من ألوان البديع هو الجناس بنوعيه الناقص والتام . فمن الجناس التام قوله :

ولرب شغرة صارم أنحى عليها شغر صارم

وقوله :

أيك اذا ما رجعت أصواتها رجعت حمائم

وقوله :

ولو أنني شئت الغنا ئم لامتحدت أبا الغنائم

ومن الجناس الناقص قوله :

بيض ذوائبهم ذوا بلهم وأعينهم لها ذم

وقوله :

طرفان بين متيم ومتيم ساج وساجم

وقوله :

من حيث أنعمت النوا عب للنواجع بالنواعم

كما أن الطباق يكثر في يمنياته من مثل قوله :

ظهر ذات الحجول ان طلب المجد والا فبطن ذات الجمال

وقوله : حالية الدهر وهو مشتهر النقص هدتني الىخفي الكمال

وقوله : فلقد كنت في الشيوخ زمانا كنت في عصره من الأطفال

واذ يكثر الجناس والطباق ، فان ألواناً بديعية تطرز قصائده وتحلق بها في آفاق المعاني ، وان أتت هذه الألوان قليلة بالنسبة لما سبق ، فمنها العكس والتبديل كقوله:

وطالع أوجه الأيام بيضاً فقد طلعت لمن عاداك سودا

ومنها مراعاة النظير كقوله :

اذا سلت صوارمه بروقاً أعانتها صواهله رعودا

ومنها حسن التعليل كقوله :

سافر اذا حاولت قدراً سار الهلال فصاربدرا

والماء يكسب ماجرى طيبا ويخبث ما استقرا

ومنها المدح بما يشبه الذم :

وغضنفران وانما عاباها بيض مهندة وسمر ذبل

ان البديع بأنواعه يكثر في يمنيات ابن قلاقس كثرة يصعب حصرها وانما أتينا بها لنذكر أن الشاعر كان يظهر براعة لغوية في سبيل التكسب وحسب . ومهما يكن فالبديع يعبر عن الذوق السائد فنيا وموضوعيا ويكشف بعض ملابسات السياق الاجتماعي في هذه الفترة التي تدخل ضمن عصر الدول والامارات .

الموسيقى :

تكاد تكون الموسيقى هي الفارق في العرف النقدي العام بين الشعر والنثر . فلقد كان تعريف الشعر بأنه كلام موزون مقفي أثيراً عند كثير من الناس . ولا يستغني الشعر عن الموسيقى وليس بالضرورة أن تكون هذه الموسيقى ظاهرة صارخة كما هو معطى البحر الشعري ولكنه قد تظهر الموسيقى في اللفظة المفردة (وذلك أن أرباب النظم والنثر غربلوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسبروا وقسموا ، فاختاروا الحسن من الألفاظ فاستعملوه ، ونفوا القبيح فلم يستعملوه)[٤١] (والألفاظ جارية هذا المجرى، فانه لاخلاف في أن لفظة (المزنة) و (الديمة) حسنة يستلذها السمع وأن لفظة (البعاق) قبيحة يكرهها السمع . وهذه الألفاظ الثلاثة من صفة المطر وهي تدل على معنى واحد، ومع هذا فانك ترى لفظتي (المزنة) و (الديمة) وما جرى مجراها مألوفة الاستعمال ، وترى لفظة (البعاق) وما جرى مجراه متروكاً لايستعمل)[٤٢] . ولانريد أن نمضي في استعراض آراء النقاد القدماء والمحدثين في هذا الموضوع ، وانما نريد أن نخلص الى أن ابن قلاقس كأي شاعر في عصره اهتم بالموسيقى اهتماماً واضحاً، بل اننا نسمع هذه الموسيقى صاخبة في معظم قصائده مثل هذه المقدمة :

يروع الذئب حيث سواك راع ويثلم غير نصلك بالقراع

ويخدع بالمنى من بات يرجو تناول شأوعزك بالخداع

وما المغرور إلا من تعاطى مداك ومامداك بمستطاع

يحاول نهره الاطراق عنه وللوثبات إطراق الشجاع

ومن حيث البناء الموسيقي في النصوص الشعرية (اليمنيات) نلحظ الشاعر يستخدم التدوير ، وهو اقتضاء الوزن نصف كلمة ، في الصدر ونصفها في العجز من مثل قوله:

يستودعون الريح سرّ (م) هم فتمشى بالنمائم

وقوله : مازال منبطحاً لكل (م) موتر الأوداج قائم

وقوله : ويحيونه على زهر الود(م) بخمر من المحبة صرف

وقوله : لولاه لم نحكم بأن (م) عطارداً في شكل كاتب

وهو كذلك لم يستخدم التصريع في بعض قصائده كما في هذه القصيدة التي مدح بها ياسر بن بلال ، إذ يقول مطلعها :

نزلوا فادعوا نزال نزال بعد ميلي عن حربهم واعتزال

يقول أثناءها :

ياخليلي سائل صروف الليالي هل خلالاً نحتنه من خلال

وفي قصيدة مطلعها :

سعود سنيكما كملت سناء فعاد الانتهاء الابتـــداء

يقول أثناءها :

وخيل كالقداح جرت ظماءً وجرت خلفها الأسل انظماء

والتصريع يحدث موسيقى جميلة والشعر (المصرع أدخل وأقوى من غيره) كما يقول ابن رشيق وإذ تبدأ القصيدة بالتصريع ، فإنه أحياناً يخالف القاعدة مثل هذه القصيدة :

هل في قطار النصر نسر واقع أو في مسالحه سماك أعزل

وقوله :

ألا أقبح بد هلك من بلدة فكل أمرىء حلها هالك

ونعلل غياب الشذوذ في التصريع أن الشاعر مادح ، وهو يحرص على الإجادة الموسيقية في المقدمة بإعتبار فاتحة القصيدة هي التي تنبىء عن الجودة وهي اللافتة للانتباه.

الصورة

للصورة في الشعر مكانة مهمة وقد استطاع الجاحظ أن يعبر عن هذه الأهمية بتعريفه الشعر بأنه (صناعة ، وضرب من النسج وجنس من التصوير) [٤٣] فالصورة

الفنية (بهذا الفهم طريقة خاصة من طرق التعبير أو وجه من أوجه الدلالة، تنحصر أهميتها فيما تحدثه من معنى من المعاني من خصوصية وتأثير) (٤٤).

وقد حرص الشاعر العربي فيما حرص على مكونين اثنين جعلهما أظهر مايكون في قصيدة المدح وهما الموسيقى والصورة ، فالموسيقى جانب ايقاعي يمنح الفكرة بُعداً حركياً والصورة تقوم بتجسيد الفكرة وإبرازها رأي العين .

ومن ناحية تحليلية تراوح الصورة أفقها التقليدي من استعارة وتشبيه وكناية.. يحاول الشاعر أن يبدع فيها ويحدث من خلالها طرافة ولكنه يخفق في احايين كثيرة فهو يظل مشدوداً الى التقليد ، بل ان جانب الصورة كجانب الموسيقى يقوم على الخطابية والنبرة اللونية الصارخة . وسوف نقف على بعض أمثلة من قصائده اليمنيات لنتعرف على امكانية تعبير الشاعر بالصورة.

الاستعارية

تشكل الصورة الاستشعارية حضوراً جماً في يمنيات ابن قلاقس فهي أظهر من باقي الصور وتعليلنا ذلك أن الاستعارة تعد في قصيدة المدح العربي أسُّ الخطابية ، فالاستعارة كما يقول البلاغيون أبلغ من الحقيقة ، لأنه لا بلاغة في اطلاق الاسم المجرد عارياً عن معناه(٤٥). ومن هذا المنطلق فإن الاستعارة فيها معنى خارق للعادة فبدهي أن يكون الممدوح متصفاً بهذه الصفة. وفيما يبدو فإن فلسفة المجاز محوجة الى كثير تأمل وبحوث وتفرغ لكشف جمالياتها المتنوعة وأبعادها الأسطورية العميقة.

إن الاستعارة عند ابن قلاقس خادم رئيس للفكرة ، فاذا كان التكسب هو محور الافكار جميعها فلابد أن تنال عناية على نحو خاص ، وان كانت هذه العناية هي طلب لمعان استعارية قديمة. فلقد أكثر الشعراء المادحون من استخدام صورة البحر مجازاً للكرم وابن قلاقس ينسج على هذا المنوال فيقول أثناء مدحه ياسر بن بلال صاحب عدن :

كبت يابحر بحراً بالعباب جرى
فسال بينكما في البر بحران

فالاستعارة هنا غير مبتكرة وإنما تمضي على نحو من التداول ومن الابتذال. غير أن الاستعارة احياناً تأتي على شاكلة مايسمى بالبديع مراعاة النظير مثل قوله في الممدوح السابق :

قد رفع الريحان نحوك طرفه وتحركت في دنّها الصهباء
واهتز متن العود يخبر أنـــه لابد من أن تسجع الورقـــاء

ومامن شك في أن الشاعر قد تأثر بالصورة الاستعارية القديمـة عنـد شعراء كبـار كأبي تمام من مثل قوله:

وأصفى مياه الفكر مني فصفقت وأروى بنات الشكر منى فأمرعا

ففي هذا البيت صورتان : ماء الفكر كماء الملام عند أبي تمام ، ونبات الشكر.

وهو يقع أحياناً على استعارات فيها تكليف وغثانة مثل قوله :

والبحر يعلم فضل نائله فتراه ينضب بعد مايملأ

يقول : ان البحر يغار من كرم الممدوح فينضب. ونجده ينفخ الحياة في تَضّـوع النشر ليشي بالممدوح.

غزال وشى عنه تضوع نشره ومن ذا يصدّ المسك أن يتضوعا

فرغم سيرورة هذه الصورة فإنه يحاول سدّ الفراغ فيها بهذا الحشو الذي لايطيـف الى معنى شيئاً.

وإذا قلنا إن الاستعارة يتميز فيها النبر الخطابي العالي فلأنها تبـدو مؤديـة وظيفتهـا في هذا الاطار في مجال المديح الذي شهد في العصـر الاموي والعباسـي علـى وجـه الخصوص تحولاً على المستويين الفني والموضوعـي ، إذ أصبـح الممـدوح غالبـاً فـي مواجهة ظروف صعبة لايستطيع مواجهتهـا ، فكـانت قصيـدة المـدح تُنتج فـي سـبيل ايجاد توازن على نحو ما.

كانت الاستعارة تعمل على مؤازرة المعنى وخدمة الممدوح بالدرجة الاساس ومن ثم نستطيع أن نلمح ومن ناحية تاريخية مجـردة فعاليـة الاسـتعارة إزاء الممـدوح فهـي تصل حد الاسراف عندما يكـون المذكـور (سلفاً) جديـراً بالخطـاب ، وهـي كذلـك عندما يكون الممدوح دعياً وللموقفين حضور في العصر الحديث. يقول ابن قلاقس:

فتشهد بالقراع لنا فلولٌ بحدٍ فوق خد فيه دام

ويقول : وتبَجست كفاك فهي سحائب تهمي بماء الجود كل أوان .

ويقول : صورتان اثنتان للمدوح وان شـئت قلـت فكرتـان تنـدرج تحتهمـا فكـار كثيرة : القوة والكرم ولاتكاد تخلو قصيدة مدح في العصر العباسي من هاتين القيمتين اللتين قدسهما الشعراء حدّ الابتذال. إن الاشارة التي نريد تعزيزها أن الاستعارة خـرق للعادة وحد الشعراء الممدوحين يحتفون بها ويطربون لهـا ، بحيـث أصبحـوا أسـيرين

لها على نحو موصول ويمكن أن تساعد البحث النفسي حين محاولة الكشف عن أبعاد الشخصية العربية.

الصور الكنائية

منتاب مصر كما بالرفد مغمور وباب مصر كما بالوفد معمور
مَـرَّت علي النَّائبـات تذوقني فوجدت مـرّاً
ومضت وقد ضاق الوشاح بخصرها جزعاً وأشبع ساقها خلخالها

الكناية شكل آخر من أشكال الصورة في التراث العربي الشعري منه على وجه الخصوص. وفائدة الكناية تنحصر في البلاغة الثّنوية ، فاذا كانت الاستعارة خطاباً مباشراً فالكناية خطاب يوُمىء ويلح ويُعرِّض وهي جزء أصيل من هذا التعريف الذي يكاد يكون جامعاً للبلاغة بأنها مراعاة للموقف أو مطابقة مقتضى الحال. على أن الكناية – فيما يبدو – تراعي الموقف بحساسية بالغة مقارنة بالتشبيه والاستعارة ، فاذا كان هذان العنصران يتضمنان المواجهة التعبيرية ، فإن الكناية والتورية تحاولان جسّ النبض ، بل العمل على التماس رد الفعل.

قليلة هي الصورة الكنائية في يمنيات ابن قلاقس ، مقارنة بالصور الأخرى ، فالشاعر ومن خلال هذه النصوص يُسفِرُ شاعراً يتعجَّل العطاء ، من هنا نلحظ عدم عنايته بالصورة بشكل عام ، الأمر الذي يجعله مقلداً غير مبتكر ، كما هي الحال الكناية في الثلاث الأبيات السابقة . فالبيت الأول كناية عن كرم الممدوح إذ أن باب مصره معمور بالوفود الرامقة للعطاء المتشوقة للإحسان. والشاعر حريص على هذا السجع الذي يؤدي دلالة الامتلاء والفيضان في نهاية صدر البيت : مغمور ، وبين الكلمة نهاية البيت : معمور والتي تؤدي أيضاً ذات الدلالة اضافة إلى ماتختزنه الذاكرة من قداسة لكلمة : البيت المعمور ، فالممدوح كعبة الطالبين.

أما البيت الثاني فهو تأكيد لرأي سابق وهو أن الشاعر المتكسب مهما ابتذل فإنه يظل يمنح نفسه بعض وقار ويؤكد اعتزازه بذاته ، ولو أن هذا يحمل اشارة يحاول المادح الشاعر أن يبتز بها من يخاطب، فالنائبات لاتستطيع اخضاعه فهو قناة لاتلين ومُرّ لايمكن سوغه. ولايخرج التعبير في هاتين الصورتين عن التعبير العادي لسابقيه ومعاصريه من الشعراء . ويصور البيت الثالث هذه المرأة الهيفاء النحيلة الخصر بوسيلة الكناية فهي ذات خصر ضاق به الوشاح ، كما أن ساقها أشبع خلخالها

لامتلاء هذا الساق وريّه ، وإذا لم يكن هناك معنى سائغ في اضافة الجزع الى الوشاح، فإن جمالاً اضافة الاشباع إلى الساق.

التشبيهية

يحتفظ التشبيه كصورة بميزة لا أعلم إن كانت جديرة بالدرس فهو يفيد التقريب، وأحسب أن التشبيه من بقايا تراث الطفولة الانسانية. إن الطفل لا يستطيع تصور المعاني المجردة ، بل لايكاد في اطواره الأولى يقدر على تخيل المحسوسات إلا بالمماثلة الفورية بما يكون في الواقع .

تزدحم النصوص التي بين أيدينا بالصور الشبيهية بأنواعها .

قوافٍ كأمثال الرياحين لم تزل ... تُسير أسباب الخلاعة والنسك

نبذته مصـــــــر إليكـــــم ... نبذ المزيّف في الدراهـــــــم

لو حل عن خديه عقد لثامـــه ... نقل الهلال الى صفات تمامـــه

لكنه صادق الجمال لأنـــــه ... وَرْدٌ وحسن الورد في أكمامـــه

ملاحظة ثانية :

في نهاية القرن السادس للهجرة قيلت معظم القصائد اليمنيات لابن قلاقس . لقد مدح السلكان يحي بن أبي السداه صاحب دهلك سنة ست وستين وخمسمائة . ومدح ياسر بن بلال سنة سبع وستين وخمسمائة . وقال عند وصوله في ستة . . . وستين وخمسمائة في الشيخ ياسر ابن بلال المحمدي . وقال يمدحه ويهنئه في عام ست وستين وخمسمائة . وقال يودعه ويذكر قطيعة الرعاع . . سنة ست وستين وخمسمائة . وقال يمدحه في سنة ست وستين وخمسمائة . ويمدحه في مستهل شهر رمضان سنة ست وستين وخمسمائة . ويهني الأميرين محمد وأبا السعود ولدي الداعي عمران بن سبأ صاحب عدن بعيد النحر من سنة . . . وستين وخمسمائة . .

من توراريخ هذه القصائد أن الشاعر قد قدم إلى اليمن في الستينات من القرن السادس للهجرة ، ولقد كانت أجزاء كثيرة في اليمن تقع تحت نفوذ الصليحين . ولابد أن نعطي فكرة موجزة عنهم فيما يلي :

تنسب الدولة الصليحية إلى أبي الحسن علي بن محمد الصليحي الذي لاحت عليه ملامح النجابة صغيراً مما أهله لاستقطاب داعية كبير من دعاة الشيعة . (ويقال إن الداعي كان عنده كتاب (الصور) وهو من الذخائر القديمة فأوقفه منه على مايكون من حاله ، وشرف ماله سراً من أبيه وغيره ، ثم لما احتضر الداعي أوصى بجميع كتبه

له وأعطاه مالاً جزيلاً كان قد جمعه من أهل مذهبه ، وكان قد رسخ في ذهن الصليحي ما رسخ ، فعكف على الدرس ، وكان ذكياً ولم يبلغ الحلم حتى تضلّع في معارفه التي بلغ بها غرضه . فكان فقيهاً في مذهب الإمامية متبصراً في علم التأويل).

دخل الصليحي في حروب طاحنة في سبيل إنشاء مملكة واسعة ، وفيما يبدو أنه كان قائداً محنكاً مما جعل العام والخاص - حسبه قرة العيون . وعتقد بأنه (يملك اليمن بأسره ، ويكون له شأن) فما هي إلا مدة يسيرة حتى (سار . . . إلى صنعاء فملكها وطوى اليمن سهله ووعره وبره وبحره في مدة قريبة وهذا لم يعهد في جاهلية ولا إسلام) .

عمد الصليحيون إلى الإفادة من الوضع السياسي السائد في اليمن وهو وضع متفكك غير منسجم فكان التنظيم الدقيق في دعوتهم أساس للانتشار في اليمن وحده ولكن خارج اليمن ، إذ بادرا الصليحي الإستخدام الحج وسيلة لنشر الدعوة بين الحجيج ، بل إنه (كان دليلاً للحاج على طريق السروات خمس عشرة سنة).

تقوم الدعوة الصليحية على الكتمان والسرية شأنها في ذلك شأن الدعوة الشيعية التي أقامت دولة بني العباس لبضعة قرون من الزمن . والمهدي المنتظر هو محور الدعوة الشيعية لأنه سيملأ الدنيا عدلاً بعدما ملئت جوراً . ولقد أشار إلى هذا ابن قلاقس في قوله أثناء مدحه .

وفي سبيل نجاح الدعوة إلى المهدي كان لابد أن يوجد تنظيم له قواعده وأصوله يتمثل بعض ذلك في هذه الرتب التي يجاهد المنتظم في سلك الدعوة في سبيل ارتقائها، وفيها رتبة الداعي ولقد أشار الداعي عمران محمد أبي السعود.

يا مجيب الدعاة والعطب والعذ ب لساناً جلاده والجدال

فهو هنا يذكر ياسراً واصفاً إياه بأنه نصير للدعاة بلسانه وسيفه ، وهذا ماكان فعلاً باعتباره كفل ولدي الداعي عمران محمد أبو السعود ، دوزر لهما ، كما نوه الشاعر في موضع آخر إذ قال :

وصنت بوارق الأمراء عن أن تمد لها الخطوب طويل باع
رفعت لهم سماء المجد حتى سكبت المجد ودعوى الارتفاع
وسمت مقام داعي الدين فيهم فكلّ للذي أوليت داع

وهو ينصح عن العقيدة التي تعتمد التأويل وهي العقيدة السبئية ، إذ يقول مخاطباً الأمير بن محمود أبا السعود ولدى الداعي عمران بن سبأ صاحب عدن :

فلآل عمران على كل الورى فضل به نطق الكتاب المنزل

مامر بالتنزيل فضـــــل أول الاومعناه لكم يتـــــــأول

كما أن القصائد التي قيلت في ياسر بن بلال لا تخلو من الحديث عن الحرب والتنويه بالبطولة في سبيل الدعوة المذكورة ، فلقد كان قائداً عسكرياً يقوم بالفتح كما يقوم بأمر الوزارة ومن ذلك ما رواه عنه صاحب (تاريخ اليمن) المفيد في أخبار صنعاء وزبيد) قال : (لما ملكت حصن الخضراء بعدن وأخذت الحرة بهجة أم علمين أي الغارات وجدت عندها من الذخائر مالم أقدر على مثله وعدن كلها بيدي في مدة متطاولة . . . فأذكر في كتبت من عدن بخبر الفتح وأخذى الخضراء وسيرت رسولاً بالبشرى إلى مولانا الداعي سبئيين ابي السعود . . .).

وإذا كان ابن قلاقس قد أوقفت معظم شعره على ياسر بن بلال فلمنزلته القيادية أولاً ولأنه فيما يبدو كان أكثر بسطاً في العطاء ، غير أن ما يفلت نظر الباحث أن معظم القصائد اتخذت الإعلاء للقوة وطبعت بطابع الحرب مما يثبت أن الحالة في اليمن في الفترة المذكورة كانت حالة قلق وعدم استقرار . كما أن ملاحظة فهمه لابد من الإشارة إليها وهي أن فكرة الدعوة والدعاة كعقيدة شيعته لم تلق رواجاً في شعر الشاعر ، فكان الأمر يقتضي أن تكون موضع اهتمام للشاعر ، بحيث يصبح أحد الدعاة لترويجها وإذاعتها في أشعاره غير أن ابن قلاقس كان شديد المكر، فالقصيدة تنصرف إلى الإشارة بالكرم والبطولة وقيم أخرى . وأحسب أن هذا يعود إلى سببين :

الأول : أن الشاعر رجل متكسب فلقد رأى ، كما يرى أصحاب المصالح في كل زمان ومكان أنه لا سبيل لتحديد وجهة النظر واتخاذ موقف مفاصِل ، لأن أصحاب المبادئ هم الذين يحددون مواقفهم اتساقاً مع وجهة نظرهم .

الثاني : أن الفكرة ، فكرة التشيع - فيما يبدو لم ترق له لأنها ستحد من حريته الفكرية تلك التي نشأ عليها فلقد كان (ذا ثقافة دينية واطلاع واسع في علوم الفقه والحديث . . فقد اتصل بعلماء عصره وشيوخه وأخذ عنهم الكثير . .).

وبعد فإني أرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع قد أسهم بتعريف القارئ بواحد من الشعراء الذين وضعوا بعض علامات من وضع منعطفات تاريخية شعرية مهمة في اليمن ، واستطاع أن يصور من خلال النص الشعري ملامح للقيم الفنية والحياتية بشكل عام في هذا الجزء الخطير من شبه جزيرة العرب والذي يحوج إلى كشف شامل لتاريخه الأدبي بشكل خاص وتاريخ حياته بشكل عام . شاكراً الإستاذ المحقق عبدالله محمد الحبشي الذي كان له كبير فضل في إخراج هذا الجهد إلى الوجود .

الهوامش

١- مقدمة المحقق .
٢- مقدمة المحقق .
٣- الديوان ص/ ٥٣٦.
٤- الديوان ص/١٨٢
٥- الديوان ص/١٨٨
٦- الديوان ص/١٥٧
٧- الديوان ص/٤٤٢
٨- الديوان ص/٤٥٠
٩- الديوان ص/٤٨٥
١٠- الديوان ص/٤٨٩
١١- الديوان ص/
١٢- الديوان ص/٢٦٠
١٣- الديوان ص/٣١٤
١٤- الديوان ص/٥٦٠
١٥- الديوان ص/٢٦٥
١٦- الديوان ص/١٨٤
١٧- الديوان ص/١٨٧
١٨- الديوان ص/١٣٣
١٩- الديوان ص/١٤٠ ، ١٤١
٢٠- الديوان ص/٥٥٨ ، ٥٥٩
٢١- الديوان ص/٢١٠
٢٢- الديوان ص/٥١٢ ، ٥١٣
٢٣- الديوان ص/٥١٣
٢٤- الديوان ص/٥١٣
٢٥- الديوان ص/١٨٧ ، ١٨٨
٢٦- الديوان ص/١٨٨
٢٧- الديوان ص/٥٦١

٢٨- الديوان ص/٢٢٥
٢٩- الديوان ص/٢١٦ ، ٢٦٢
٣٠- الديوان ص/٢٦٢
٣١- الديوان ص/٢٦٣
٣٢- الديوان ص/٢٦٣
٣٣- الديوان ص/١٩٨
٣٤- الديوان ص/١٩٨
٣٥- الديوان ص/٢١١
٣٦- ابن المعتز : تراثه في الأدب والنقد والبيان ، محمد عبدالمنعم خفاجي ، دار العهد الجديد للطباعة، بدون تاريخ ، ص ٦١٣ .
٣٧- الجرحاني ، على عبدالعزيز (القاضي) : الوساطة بين المتنبي وخصومه . ص ٣٣ - ٣٤ .
٣٨-انظر محمد عبدالمطلب (دكتور) : بناء الأسلوب في شعر الحداثة ، التكوين البديعي ، القاهرة ، ٨٨ م بدون ناشر .
٣٩- مقدمة في الشعر العربي.
٤٠- مقدمة الديوان.
٤١-ابن الأثير : المثل السائد في أدب الكاتب والشاعر ، تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، مطبعة النهضة ، القاهرة ، طبعة ١ ، سنة ٥٩ م ، من ١/١١٤.
٤٢- نفسه ق ١/ ١١٥.
٤٣-الجاحظ : البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون ، الخانجي ، القاهرة ٦٨م ، ج٣/١٣١ - ٣٢.
٤٤- جابر عصفور (دكتور) : الصورة في التراث النقدي والبلاغي عند العرب ، دار التنوير ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣م، ص٣٢٣.
٤٥- الخطيب القزويني : الإيضاح ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط الرابعة ، ١٩٧٥م ، ص ٤٠٧ وما بعدها .
٤٦-مقدمة الديوان ص ١٤ .
٤٧-نفسه ص ٢٣ .
٤٨-ص ٤٧ .

تصورات المشرفين التربويين لمؤهلات ووظائف مدير المدرسة في الأردن

بقلم الدكتور نصر يوسف مقابله
والدكتور يحيى شريفات
المدرسان في كلية التربية
جامعة اليرموك

خلفية الدراسة :

يلعب مدير المدرسة دوراً مهماً في توجيه نشاط كل العاملين في الادارة المدرسية لتحقيق الاهداف المنشودة ويقوم بتنظيم جهود هؤلاء الافراد واستثمارها بأقصى طاقة ممكنة للحصول على أفضل النتائج والتوقعات ولم تعد مهمة مدير المدرسة مقتصرة على تنفيذ مايأتيه من تعليمات والعمل على متابعتها بل تعدى ذلك لتركز على توفير كافة الوسائل الضرورية التي تساعد على نمو الطالب نمواً شاملاً ومتكاملاً من كافة جوانبه الجسمية والعقلية والاجتماعية والروحية والانفعالية .

وأكد دويك وآخرون (١٩٨٤) أنه أصبح لزاماً على مدير المدرسة أن يتعرف على النظام التعليمي في بلده وغيرها من البلدان وأن يدرك الاهداف التربوية للمراحل التعليمية المختلفة وخاصة المرحلة التي يشرف عليها وأن يفعّل وسائل الاتصال مع البيئة المحلية ويفعّل هذا الدور لما في ذلك من فائدة في تفعيل دور المدرسة في المجتمع المحلي .

وهكذا فان نجاح المدرسة يتوقف على قدرة ومهارة المدير كقائد تربوي حكيم في ادارته لمدرسته وبحكم مسؤوليته الادارية والفنية فانه يعتبر عماد المدرسة والمنسق لبرامجها المختلفة وأن المدرسة عظيمة مادام مديرها عظيماً لأن نوعية المدرسة وطبيعة عملها تتوقف على مايتمتع به مديرها من ذكاء ومعرفة وخيال وابتكار وشخصية ومهارات اجتماعية وانعكاس تلك الصفات على عمل المدرسة ، ومما لاشك فيه أن التدريب على فن الادارة يساعد الجميع سواء أكانوا يشغلون حالياً وظيفة الادارة المدرسية أو كانوا يطمحون الوصول اليها في يوم من الأيام لاكتساب

المهارات الادارية والفنية اللازمة لانجاح عمل المدير ونتيجة لعمليات التدريب المستمرة فانه يتحتم على مدراء المدارس أن يتقبلوا الأفكار الجديدة وتعلم الأساليب الحديثة التي تتمشى مع فلسفة التربية ومتطلبات المجتمع المتغيرة (سبنج ، ١٩٦٦).

وأوضح سبنج (Esping, 1966) أن الصفات التالية هي الصفات التي تكون مدير المدرسة الصالح : فلسفة تربوية عميقة ، تحصيل علمي عالي ، تدريب مهني كاف ، مهارة في العلاقات الانسانية ، صحة وقوة عقلية وجسمية ، نظرة متفائلة ، استقرار عاطفي ، استقامة ونزاهة ، روح علمية ، الشعور بالمسؤولية ، وتقويم ذاتي self - appraisal .

أما قراقزة (١٩٧٨) فانه يؤكد أنه من الصعوبة بمكان ايجاد حد فاصل بين الجانب الاداري والجانب الفني الذي يمارسها مدير المدرسة فكلا الجانبين متداخل ومتشابك ولذلك فان الصلة وثيقة بين الجانبين ويمكن التعبير عنهما في النشاطات التربوية التالية : وضع البرامج والجداول المدرسية والتربوية ، تحديد واجبات المدرسين ، اعداد المكتبات المدرسية لتمكين الطلاب الاستفادة منها وتنظيم الرحلات ، ومن مثل هذه الجوانب تتضمن تحسين العملية التربوية وهو جانب فني وهدف تربوي ويضيف أن مدير المدرسة يوصف مشرفاً فنياً في مدرسته يستطيع أن يقوم بالكثير لمساعدة المدرسين في الحكم على التلاميذ واكتشاف قدراتهم واختيار الوسائل المناسبة للتعامل معهم ووضع امكانات المدرسة تحت تصرف المدرس لخدمة التلميذ وبذلك يكون عمل المدير مكملاً لعمل المشرف التربوي القادم من خارج المدرسة وليس هناك تعارضاً بينهما لتحسين العملية التعليمية .

ومما لاشك فيه أن الميدان التربوي متعدد المجالات منها الفني ومنها الاداري ولمتابعة هذه المجالات لابد لمن يعمل في هذا الميدان من استعمال وسائل وأدوات للمتابعة والتقويم ومن هذه الادوات " الاشعارات والنماذج وكتب الحفز وغيرها " ربما أن مدير المدرسة يعتبر قائداً ومشرفاً تربوياً مسؤولاً عن المتابعة والتقويم لابد له من استعمال هذه الاستمارات لتفعيل دوره الاداري والمساهمة في تحقيق الاهداف المرغوب فيها (قراقزه ١٩٨٧) .

ومن هنا تبرز أهمية اختيار مديري المدرسة وخاصة أولئك الذين يتصفون بالخصائص المفيدة والتي لها انعكاس اما ايجابي او سلبي على الروح المعنوية لدى المعلمين وانجازاتهم (نيل جروس Nael Gross وروبرت هيريوت Robert Herriot 1965) .

ويشير ابو عطية ، والرفاعي (١٩٨٨) أنه بحكم المركز الاداري والقيادي الذي يشغله مدير المدرسة فانه المسؤول عن ادارة الخدمات التي تحقق النمو السوي المتكامل والشامل لطلبة المدارس فهو يعتبر مسؤولاً عن الجوانب الارشادية للطلاب داخل المدرسة ومع أن دوره يختلف عن دور المرشد في الخدمات الارشادية ووضع الخطة الارشادية أو تطويرها للمساهمة في تحسين العملية التعليمية وتطوير النمو المهني والاكاديمي للمعلمين .

وقد توصل عزيزي (١٩٧٥) ان مديري المدارس الابتدائية في الأردن يشاركون في الكثير من الاعمال الكتابية والادارية بينما مشاركة اقل بوظائف ذات علاقة بارشاد الطلاب والعلاقات الاجتماعية وقيادة التعليم عموماً .

أما الرويلي والقزني (١٩٨٩) فقد اوضحا أن مدير المدرسة يتقلد مهام وظيفتين: وظيفة ادارية ، ووظيفة فنية ، ويتحمل مسؤوليتهما في آن واحد ولايمكن الفصل بينهما بسهولة ويؤكدا أنه لابد من أن يكون لدى مدير المدرسة مؤهلات خاصة تساعد في القيام بمهام وظائفه المتداخلة وأن النظام التعليمي السائد يحدد بدرجة كبيرة وظائف مدير المدرسة فتكون وظيفة مدير المدرسة ادارية تنفيذية في النظام المركزي ، وتلقى الوظائف الفنية اهتماماً أكبر في النظام اللامركزي .

ويبين شعلان ، وآخرون (١٩٦٩) المسؤوليات الادارية الملقاه على عاتق مدير المدرسة مثل افتتاح الدراسة خلال العام الدراسي وفي نهاية العام الدراسي والمتمثلة في اعداد المباني والاجهزة والوسائل التعليمية والوسائل التعليمية وتوزيع الطلاب على الصفوف الاشراف على السلوك العام للتلاميذ والاشراف على النواحي الصحية ، والتوجيه الفني للمدرسين وتنسيق جهودهم والاشراف على النواحي المالية والادارية والاشراف على الامتحانات واظهار النتائج واعلانها ودوره في التوجيه والاشراف بحكم عمله كموجه لتلاميذه ولزملاءه المدرسين والاداريين .

ويرى محضر (١٩٨٥) أنه حتى يقوم مدير المدرسة بمهامه الإدارية والفنية يجب أن يكون قد مارس التدريس بنجاح لعدة سنوات وأن يكون ملماً بالقدر الكافي من الفلسفة الاجتماعية والمجتمع الذي فيه المدرسة وأن يفهم علاقة المدرسة بالمجتمع وأن يهتم بشعور الآخرين وآرائهم وأفكارهم وأن يكون واسع الاطلاع وأن يكون مثالاً يحتذى به في مظهره وسلوكه وتصرفاته وأن يكون مرناً في تصرفاته ويجمع بين الحزم واللين وسرعة البت في الأمور .

وحتى يستطيع الاداري في الادارة التعليمية أن يحقق النجاح لادارته فلا بد من أن يمتلك مجموعة من المهارات التي تعتبر ضرورية لنجاحه في الادارة التعليمية ويتفق دارسو الادارة على تصنيفها الى ثلاثة أنواع : المهارات التصويرية ، والفنية والانسانية وهذه المهارات تساعد على الاحساس بالمشكلات والتوصل الى الحلول وكذلك رسم السياسات العامة للادارة التعليمية واحترام الآخرين في الادارة التعليمية مما يساعد في تفعيل دور مدير المدرسة في تحقيق أهداف العملية التعليمية (مرسي ، ١٩٨٨) .

ويوضح سلامه (١٩٨٧) الادوار الرئيسية التي يقوم بها مدير المدرسة وهي الدور الاداري التنفيذي ، والدور القيادي الاشرافي أما الدور الاداري الذي يقوم به مدير المدرسة فيتمثل في الاعمال الادارية الروتينية اليومية لتسهيل العملية التربوية بالمدرسة من مثل التخطيط والتنظيم والتنفيذ والتقويم والمراقبة والمتابعة ، وأما دوره الاشرافي فهو يعتبر قائد في مدرسته يعمل على خلق جو من الديمقراطية والتفاعل والتعاون بين أفراد الأسرة المدرسية ولابد من أن يقوم مدير المدرسة بالدورين مع اعطائه اهتماماً أكثر بالجوانب الفنية والاشرافية .

ومن الأمثلة على الوظائف الادارية لمدير المدرسة : ادارة وتنظيم المبنى المدرسي، الجدول الدارسي ، توزيع التلاميذ على الصفوف ، السجلات المدرسية ، البرامج والنشاطات المدرسية ، المصادر المالية ، الاجازات ، التقارير ، الكتب المدرسية وأعمال أخرى .

أما فيما يتعلق بالدور القيادي فيبين سلامه (١٩٨٧) أن هناك اتفاق بين علماء الادارة على امكانية تصنيف المهارات القيادية لمدير المدرسة الى ثلاثة مجموعات : المهارات التصويرية والتي تعني القدرة المكتسبة لدى القائد على التصوير الذهني والعقلي للأمور المحيطة به ، والمتغيرات الداخلية والخارجية والعلاقات القائمة بينها وأثرها على العمل المدرسي بشكل عام وعلى نمو وتحصيل الطلبة في مدرسته بشكل خاص ، ثانياً : المهارات الانسانية وهذه تشير الى قدرة مدير المدرسة كقائد على التفاعل مع معلميه وطلبته من جهة ومع رؤسائه من جهة أخرى ، ثالثاً : المهارات الفنية وهي تشير الى معرفة القائد المتعمقة في الأشياء أو علوم المعرفة ويكتسبها القائد عن طريق الخبرة أو التدريب وهو على رأس عمله أو قبل التحاقه بالوظيفة .

وقام الطوباسي (١٩٨٠) بدراسة هدفت التعرف على الممارسات الادارية لمدير المدرسة في الاردن ، وتبين أن أكثر الممارسات الادارية تنحصر في مجال الأعمال

الكتابية وادارة شؤون المعلمين وصيانة البناء المدرسي ، واعتبر المديرون والمعلمون ان الممارسات للتخطيط للعمل وتطوير المنهج هي من أقل الممارسات أهمية .

واظهرت الدراسة التي قام بها تيم (١٩٨٤) لمعرفة كفايات مدير المدرسة الابتدائية الناجح في مدارس وكالة الغوث الدولية في الأردن ، ان أكثر المجالات من حيث ممارسات المدير كما يلي : مصادر التعلم ، الأنشطة الادارية ، التخطيط وان اقل المجالات التي يمارسها مدير المدرسة هي حاجات الطلبة الضرورية ، التقويم والتغذية الراجعة .

كما بينت الدراسة التي أجراها عواد (١٩٨٥) لمعرفة مدى ممارسة مديري المدارس الثانوية في الأردن للواجبات الادارية أنه يوجد فروق ذات دلالة احصائية على مستوى (α=٠,٠٥) في درجة ممارسة مديري المدارس الثانوية للمهام الادارية لمركز مدير المدرسة الثانوية تعزى الى مستوى المؤهل الأكاديمي والتربوي ، وكذلك كان نوع المدرسة وسنوات الخبرة في الادارة المدرسية تؤثر على ممارسة مديري المدارس الثانوية في الأردن لمركز مدير المدرسة الثانوية .

وفي دراسة اجراها دوجان (١٩٨٩) لمعرفة مدى ممارسة مدير المدرسة للمهام والاعمال الاشرافية في الأردن والتي تساعد المعلمين على النمو المهني والشخصي ، تبين أن المهام والواجبات التي يمارسها مديرو المدارس بدرجة عالية هي المهام والأعمال ذات الطابع الاداري ، بينما أقل المهام ممارسة تلك التي تتعلق بالمناهج والوسائل التعليمية .

ولقد بين عشب (١٩٩٠) ان مهام مدير المدرسة الأردني وممارسته لواجباته الادارية والفنية قد تطورت خلال الفترة منذ عام ١٩٤٦ وحتى ١٩٩٠ حيث كانت الواجبات تقليدية وتتكرر يومياً وتتمثل في الأعمال الادارية ومجال التدريس ، ومجال تبادل المراسلات وتنفيذ التعليمات ثم منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٨٠ ظهرت ممارسات في النواحي الفنية ثم أصبح هنالك اهتماماً واضحاً في تطوير ممارسة مدير المدرسة لواجباته من الناحية الفنية والتأكيد على تحسين العلاقة مع المجتمع المحلي وتحسين العملية التربوية وزيادة الاهتمام بالتلاميذ باعتبار ان مدير المدرسة مشرف تربوي مقيم وقائد تربوي في المدرسة .

وأصبح واضحاً ان مدير المدرسة لم يعد مسؤولاً عن تسيير شؤون المدرسة اليومية بل أصبح التركيز على دور مدير المدرسة القيادي والفني واعتباره مشرفاً تربوياً مقيماً وهذه التطلعات تنسجم مع توجيهات مؤتمر التطوير التربوي الأردني عام

١٩٨٧ وتأكيده على مفهوم القيادة الادارية الفعالة وتعزيز دور مدير المدرسة كمشرف تربوي مقيم ذلك ان الاشراف التربوي من واجبات المدير الرئيسية والعمل على تأهيله لتفعيل هذه المهمة (وزارة التربية ،١٩٨٩) .

وأظهرت الدراسة التي قام بها العمري (١٩٩٢) ان اكثر الممارسات اهمية لدور مدير المدرسة الثانوية في الأردن هي تلك التي تتعلق بمجال الشؤون الادارية ثم مجال الشؤون الفنية يليها مجال الشؤون الطلابية وأخيراً مجال المجتمع المحلي وأوصى الباحث ضرورة رفع المستوى العلمي والتربوي لمديري المدارس من خلال اشتراكهم في برامج التأهيل والتدريب المستمر ليتمكنوا من أداء ادوارهم بكفاءة وفاعلية .

ولمدير المدرسة بحكم مركزه وقيادته التربوية ان يلعب دوراً مهماً في تحديد شكل العلاقات الموجودة في المدرسة وتشجيع العمل الايجابي والتعاون بين أعضاء هيئة التدريس في المدرسة وكذلك تحسين اداء المعلم وتزويده بأفكار جديدة في ميدان التربية والتعليم (Oberlin , 1980 ; Mize , 1981) ولقد أوضحت الدراسة التي قام بها كلفر (Clever, 1981) بعض المعايير في اختيار مديري المدارس والتي تتمثل في مهام مدير المدرسة في الأعمال الادارية اليومية ، العمل بروح الفريق ، العلاقات الانسانية مع المجتمع المحلي ، توجيه المبادرات الفردية والتقويم الذاتي وفي ذلك مساهمة فاعلة في عملية اتخاذ القرار المناسب عند اختيار القادة التربويين للمدارس .

أما دراسة هاتش - ياب (Hatch - Yab, 1988) فقد بينت ان الممارسات الكتابية والأعمال الادارية الروتينية تشكل عبئاً على مديري المدارس وذلك على حساب المهمات التطويرية للبرنامج التعليمي في المدارس .

وأوضحت دراسة مارتن (Martin, 1991) أهمية السلوك القيادي والتعليمي لمدير المدرسة بالاضافة الى المهارات الواجب توفرها في مدير المدرسة كمهارات التحمل، والحاجة الى كفايات التدريس حتى يسهم في خلق جو تعليمي فاعل داخل المدرسة .

وفي الأردن ، كغيره من دول العالم ، تلعب الادارة المدرسية دوراً مميزاً في النظام التربوي الأردني وفي معظم قطاعات التنمية المختلفة وحتى يقوم المدير بدوره الفاعل فلابد من التركيز على أهمية المؤهلات والأدوار أو الوظائف الادارية والفنية التي تقع على عاتقه حتى يساهم في تحقيق الأهداف المنشودة للمدرسة في المجتمع الأردني (خصاونة ، ١٩٨٥) .

ولقد أولت وزارة التربية والتعليم عملية تأهيل وتدريب المديرين اهتماماً كبيراً وفتح المجال أمامهم للالتحاق في برنامج التأهيل التربوي في الجامعات الأردنية

للالتحاق ببرامج دبلوم وماجستير الادارة والاشراف التربوي وذلك لاكسابهم الكفايات الخاصة بأعمالهم الادارية والفنية .

وأوضح دليل الادارة التعليمية عام (١٩٨١) الصادر عن وزارة التربية والتعليم المهام والمسؤوليات التي يقوم بها مدير المدرسة والتي تتلخص في تقبل العملية الادارية بفاعلية وكفاءة من خلال تنسيق جهود العاملين في المدرسة وتوجيههم وارشادهم لتحقيق أهداف العملية التربوية ولقد اعتبر مدير المدرسة مشرفاً تربوياً مقيماً في المدرسة وعليه فان من أهم واجبات مدير المدرسة الرئيسية : العمل على تحسين العملية التربوية وتطويرها ، الاشراف على شؤون الطلبة ويتضمن ذلك التعرف على حاجات ومشكلاتهم الدراسية والاجتماعية ، الاشراف على التنظيم المدرسي وشؤونه الادارية والاهتمام بالمجتمع المحلي للمدرسة ، (دليل الادارة التعليمية ، ١٩٨١) .

ومن خلال استعراض الدراسات والابحاث الخاصة بالمؤهلات والوظائف والمسؤوليات الادارية والفنية التي يقوم بها مدير المدرسة ، يتضح أن مدير المدرسة يلعب دوراً رئيساً في العملية التربوية ولأهمية هذا الدور في مجال تطوير وتحسين العملية التعليمية فلابد من توفير مؤهلات خاصة له وفهم وادراك جيدين للمهام الادارية والفنية الممارسة في النظام التربوي الأردني لما في ذلك من تطوير في نوعية النمط الاداري والقيادي لمديري المدارس وانعكاس ذلك على العملية التربوية وتطويرها للأفضل .

مشكلة الدراسة وهدفها :

هدفت هذه الدراسة إلى تحديد قائمة بمؤهلات مديري المدارس في الأردن وكذلك معرفة الوظائف الإدارية والفنية التي يقوم بها مدراء المدارس وذلك لزيادة نموهم المهني والشخصي وبالتالي تحسين العملية التربوية بشكل عام كما كان هدفها التعرف على هذه المؤهلات والوظائف الإدارية والفنية التي يمارسها مدراء المدارس من وجهة نظر المشرفين التربويين في مديريات التربية والتعليم والكشف عن مدى توفر هذه المؤهلات ومدى قيام مدارء المدارس بالوظائف الادارية والفنية المناطه بهم وبشكل أدق . وقد هدفت هذه الدراسة إلى الاجابة عن الاسئلة التالية : -

١- ما هي أهم تصورات المشرفين التربويين لمؤهلات ووظائف مدير المدرسة التي يجب توفرها في مدير المدرسة من وجهة نظر المشرفين التربويين في مديريات التربية والتعليم ؟

٢- هل تختلف تقديرات المشرفين التربويين للمؤهلات والوظائف التي يجب توفرها في مدير المدرسة باختلاف مؤهلاتهم العلمية ؟

٣- هل تختلف تقديرات المشرفين التربويين للمؤهلات والوظائف التي يجب توفرها في مدير المدرسة باختلاف سنوات خبراتهم التعليمية ؟

٤- هل تختلف تقديرات المشرفين التربويين للمؤهلات والوظائف التي يجب توفرها في مدير المدرسة باختلاف سنوات خبراتهم الادارية ؟

أهمية الدراسة :

إن تشابك الوظائف الادارية والفنية التي يقوم بها مدراء المدارس قد لا تساعد المدير على القيام بوظائفه بطريقة فاعله مما ينعكس على العملية التعليمية بشكل خاص ولذلك فان هذه الدراسة قد تساعد على تطوير قائمة بمؤهلات مدير المدرسة ووظائفه الادارية والفنية مما يقلل من التداخل بين المهام الادارية والفنية مما يؤدي إلى تحسين اداءه وانعكاس ذلك على اداء المعلم وعلى مستوى التحصيل عند الطلاب وقد تعمل على احداث تغيير للافضل في ممارسة مدراء المدارس مما يؤدي إلى زيادة نموهم المهني والشخصي لانهم هم المعنيون مباشرة في ادارة المدارس والاكثر ارتباطا في تسيير شؤون التعليم في المدارس ، كما تساعد هذه الدراسة وزارة التربية والتعليم في التعرف على الوظائف الادارية والفنية كذلك المؤهلات التي يجب ان تتوفر في مدير المدرسة وبالتالي وضع معايير وأسس لاختيار المدراء واعدادهم كقياديين تربويين في المدارس ، وعلى وضع تصور للوظائف الادارية والفنية واستخدام ذلك في التخطيط الاداري لمدراء المدارس واعتباره معياراً لتقويم اداء مدراء المدارس ، كما قد تفيد في تحسين اداء المدير الاداري والفني وذلك عن طريق العمل التشاركي بين مدراء التربية والتعليم ومدراء المدارس في التخطيط والتنفيذ والتقويم وعلى نحو يعود بالفائدة على المعلمين والطلاب الذين هم محور العملية التربوية .

افتراضات الدراسة :

اعتمد الباحثان على الافتراضات التالية :

١- المشرفون التربويون قادرون على معرفة المؤهلات التي يجب ان تتوفر ي مدير المدرسة في النظام التربوي الأردني وكذلك الوظائف الادارية والفنية التي يمارسها في المدارس .

٢- مؤهلات مديري المدارس وأداؤهم الاداري والفني يمكن عن تحسينه عن طريق ادراك مدراء المدارس لهذه الوظائف والرغبة في زيادة نموهم المهني والشخصي.

٣- عينة الدراسة التي تم اختيارها هي عينة ممثلة لمجتمع الدراسة .

محددات الدراسة :

توجد بعض المحددات التي يمكن أن تقلل من امكانية تعميم نتائج هذه الدراسة خارج عينة الدراسة إلى المجتمع الذي اخذت منه ومن هذه المحددات ما يلي :

١- اقتصار هذه الدراسة على المشرفين التربويين في محافظتي اربد والمفرق فقط.

٢- اقتصرت قائمة المؤهلات والوظائف الادارية والفنية على ما ورد في الاستبانه المعدة لجمع المعلومات المتعلقة بالدراسة وهي اداة غير مقننة وعليه فان نتائج الدراسة تتوقف جزئياً على صدق وثبات الاداة .

طريقة الدراسة :

عينة الدراسة:

تألفت عينة الدراسة من (١٣٠) مشرفا من محافظتي اربد والمفرق للعام الدراسي ١٩٩٢/٩١ م ، وممن كانت اجاباتهم كاملة على اسئلة اداة الدراسة ، وقد تبين من تصنيف استجابات افراد العينة ان هناك (٦٨) مشرفاً يحملون الماجستير ، (٤٢) مشرفاً يحملون درجة البكالوريوس والدبلوم ، (٢٠) مشرفاً يحملون الدرجة الجامعية الأولى البكالوريوس .

أما توزيع العينة وفقاً للخبرة التعليمية فقد تبين ان (٢٩) مشرفاً تتراوح خبراتهم مابين سنة الى ثلاث سنوات ، كما يوجد (١٠١) مشرفاً تتراوح خبراتهم مابين أربع وست سنوات . لاحظ الجدول رقم (٢) . وقد تبين كذلك من تصنيف استجابات

افراد العينة ان منهم (٢٨) مشرفاً تتراوح خبراتهم الادارية مابين سنة وثلاث سنوات ، (٢٠) مشرفاً تتراوح خبراتهم مابين اربع وست سنوات ، كما يوجد (٢٢) مشرفاً تتراوح خبراتهم مابين سبع الى تسع سنوات ، كما يوجد (٥٠) مشرفاً تزيد خبراتهم عن عشر سنوات . لاحظ الجدول رقم (١) .

جدول رقم (١)
توزيع المشرفين حسب المؤهل والخبرة التعليمية والخبرة الادارية

عينة الدراسة											
التوزيع حسب المؤهل				التوزيع حسب الخبرة التعليمية				التوزيع حسب الخبرة الادارية				
	ماجستير	بكالوريوس + دبلوم	بكالوريوس	المجموع	١-٣	٤-٦	المجموع	١-٣	٤-٦	٧-٩	١٠ فاكثر	المجموع
العدد	٦٨	٤٢	٢٠	١٣٠	٢٩	١٠١	١٣٠	٢٨	٣٠	٢٢	٥٠	١٣٠

أداة البحث ومجالاتها :

قام الباحثان باعداد المقياس في الفصل الدراسي الاول من العام الدراسي ١٩٩٢/٩١ ، وقد مر اعداد المقياس بعدد من الخطوات أهمها مراجعة الأدبيات المتعلقة بتحديد أهم المؤهلات التي يجب على مدير المدرسة أن يتصف بها ، وعليه فقد تمت الاستفادة من مقاييس اعدّها وطورها باحثون آخرون (المنيع وسعيد ، ١٩٨٢ ، الرويلي والغربي ، ١٩٨٩، Aziz , 1975 ، سليمان ١٩٨٤) ، وكان هناك تداخل كبير بين هذه المقاييس بما تحتويه من كفايات تعليمية ، استخلص الباحثان قائمة المؤهلات لمدير المدرسة تحتوي على (٧٥) مهارة .

وبعد ذلك تم توزيع القائمة على عينة استطلاعية مؤلفة من (٣٠) مشرفاً وارفقت القائمة بورقة تعليمات تبين ان المطلوب من المشرف أن يقرأ كل فقرة في القائمة بعناية ، ويحدد درجة وضوحها وفهمه لها ، وتقدير كل فقرة (مؤهل) حسب أهميتها ، وذلك حسب المقياس التالي : مهمة جداً ، مهمة ، غير مهمة ، وعلى ضوء اجابات افراد العينة تم اختيار (٦٣) فقرة حققت اتفاق ٦٠٪ فأكثر من افراد العينة الاستطلاعية على انها مهمة جداً أو مهمة .

ان قائمة المؤهلات الادارية والفنية لمدير المدرسة التي تم تطويرها تهدف الى تحديد أهم المهارات الادارية والفنية التي يجب على مديري المدارس أن يتصفوا بها ، وقد تم تدرج التقدير على كل فقرة الى خمس بدائل حسب درجة أهميتها وهي :

١- مهمة جداً .
٢- مهمة .
٣- متوسطة الأهمية .
٤- غير مهمة .
٥- غير متأكد .

ولتحديد درجة أهمية المؤهلات الادارية والفنية ، حاول الباحثان تحديد ثلاثة مجالات يمكن ان تصنف فيها المؤهلات التي احتوتها القائمة ، واستعين في هذا الشأن بخبرات (٥) من المتخصصين في الادارة والاشراف من حملة الدكتواره ، فقد عرضت القائمة عليهم ، وطلب منهم تصنيف فقرات القائمة وفقاً لمجالات القائمة الثلاثة . وكان المحك الذي استخدمه الباحثان في عملية تصنيف المؤهلات ضمن كل مجال من المجالات ، يعتمد على نسبة الاتفاق بين المحكمين حول مدى ملائمة كل فقرة من الفقرات مع أي من المجالات الثلاثة ، فاذا حصلت الفقرة ٦٠٪ أو أكثر من الاتفاق بين المحكمين انها تنتمي لمجال معين ، فانها كانت تصنف ضمن ذلك المجال .

صدق الأداة ونباتها :

اعتمد الباحثان على الصدق الظاهري وصدق المحتوى في تقدير صدق الاداة (الاستبانة) لذا قام الباحثان بمراجعة الأدبيات السابقة المتعلقة بمؤهلات مدير المدرسة والاستفادة من قوائم المؤهلات لمدير المدرسة المتعلقة في هذا المجال وكذلك عرضت القائمة قبل ظهورها بصورتها النهائية على عينة استطلاعية مؤلفة من ثلاثين مشرفاً من مختلف التخصصات لتقدير مدى شمولية الاداة وصلاحيتها في مقياس ماوضعت لقياسه ، وطلب الباحثان من أفراد العينة قراءة فاحصة لبيان مدى شمولية الاداة (الاستبانة) لمؤهلات مدير المدرسة ، والتأكد من سلامة الفقرات من الناحية اللغوية ، وتحديد مدى وضوح كل فقرة ، وتقدير درجة أهميتها ، وذلك حسب المقياس التالي :

١- مهمة جداً .

٢- مهمة .

٣- غير مهمة .

كما طلب منهم اقتراح مايرونه مناسباً من أفكار وفي ضوء مقترحات هؤلاء عدّلت بعض الفقرات واستبدلت أخرى .

أما من حيث مؤشرات الأداة ، فقد حسبت باستخراج معامل كرونباخ الفا كمؤشر للاتساق الداخلي لكل من الأبعاد على انفصال وللأداة ككل وقد دلت النتائج على تمتع الأداة ككل بمعامل ثبات (٠,٩٦) .

كما كان معامل الثبات للبعد الأول (٠,٨٧) ، وللبعد الثاني (٠,٩٠) ، وللبعد الثالث (٠,٩٣) ، وجميعها معاملات ثبات مرتفعة مما يشير الى ان الاداة تحظى بدرجة ثبات جيدة ، وتسمح باستخدامها بثقة كبيرة للتعرف على أهم المؤهلات التي يجب ان يتحلى بها مدراء المدارس .

المعالجة الاحصائية :

تضمن البحث ثلاثة من المتغيرات المستقلة (المؤهل ، الخبرة التعليمية ، والخبرة الادارية للمشرف التربوي) اما المتغيرات التابعة فقد كانت ثلاثة متغيرات متمثلة بتقديرات المشرفين التربويين لأهمية الفقرات في ابعاد الاستبانة الثلاثة ، وللاجابة عن اسئلة الدراسة ، استخدمت الرزم الاحصائية (SAS) لاجراء التحليلات الاحصائية المطلوبة . ولاختبار السؤال الأول استخدمت بعض الاحصائيات الوصفية التي تساعد في ابراز النتائج ومناقشتها ، ومن الأمثلة على هذه الاحصائيات الوسط الحسابي ، والرتبة لكل فقرة ضمن كل بعد من أبعاد الاداة الثلاثة . وللاجابة على السؤال الثاني والرابع تم استخدام تحليل التباين الأحادي المتغير (One Way ANOVA) وللاجابة على السؤال الثالث تم استخدام اختبار (ت) (T- test) وذلك لحساب دلالة الفروق بين متوسطات درجات المشرفين على أبعاد الاستبانة .

نتائج الدراسة :

اسفرت الدراسة عن عدد من النتائج ذات الأهمية التربوية وقد صنفت هذه النتائج على النحو التالي :

أولاً : تحديد أهم المؤهلات التي يجب توفرها في مدير المدرسة على الابعاد الثلاثة التي تضمنتها الاستبانة .

يبين الجدول رقم (٢) الوسيط والمرتبة لدرجة اهمية الفقرات التي تصف مؤهلات مدير المدرسة ، ويلاحظ من هذا الجدول ان المشرفين التربويين كان تقديرهم للفقرة رقم (١١) " القدرة على تحمل المسؤولية " اهم المؤهلات التي يجب أن يتصف بها مدير المدرسة ، وقد احتلت المرتبة الأولى (الوسيط ٣,٨٥) وجاءت الفقرات رقم (١٠، ١٤) " القدرة على حسن التعامل مع الآخرين " ، " المثل الأعلى في المواظبة على الحضور المبكر للمدرسة " في المرتبة الثانية ، (الوسيط ٣,٧٥) ، اما الفقرة رقم (٢) " الاعداد المهني في مجال الادارة التربوية " فقد احتلت المرتبة الرابعة (الوسيط ٣,٦٦) ، واحتلت الفقرة رقم (١٢) " الاطلاع على الأساليب الاشرافية الحديثة " المرتبة الخامسة (الوسيط ٣,١٦) .

كما تشير المعلومات في الجدول رقم (٢) ايضاً ان تقديرات المشرفين كانت متدنية على الفقرة رقم (١) " المشاركة في برامج تأهيل المدرسين اثناء الخدمة " ، (الوسيط ٣,٢١) ، فقد احتلت المرتبة الرابعة عشرة ، كما توضح استجابات المشرفين كما يشير الجدول ان تقدراتهم كانت متدنية على الفقرة رقم (٨) " خلفية شاملة في التعليم العام " وقد كانت رتبتها الثلاثة عشرة ، (الوسيط ٣,٥١) ، اما الفقرة رقم (٣) " حب التغير نحو الأفضل " فقد كانت رتبتها الثانية عشرة .

ويوضح الجدول رقم (٣) تقديرات المشرفين للوظائف الادارية لمدير المدرسة ، ويتضح من الجدول ان الفقرات رقم (١١، ١٢) " توفير الكتب المدرسية لمدرسته "، " العمل على زيادة دافعية العاملين في المدرسة " قد احتلتا المرتبة الأولى ، (الوسيط ٣,٦٩) ، أما الفقرة رقم (١٤) " العمل على تنمية العلاقات الانسانية بين العاملين في المدرسة " فقد احتلت الرتبة الثالثة ، (الوسيط ، ٣,٦٨) ، كما تشير المعلومات في الجدول ان الفقرة رقم (٢٠) " الالتزام بالقوانين والتعليمات في المدرسة " كانت رتبتها الرابعة (الوسيط ٣,٦٢) ، واحتلت الفقرة رقم (١٧) " اطلاع المعلمين على التعليمات المنظمة للعمل " المرتبة الخامسة (الوسيط ٣,٦١) .

جدول (٢)
يبين توزيع اداء العينة على مجال مؤهلات مدير المدرسة (٢)

رقم الفقرة	الوسيط	الرتبة
-١	٣,٢١	١٤
-٢	٣,٦٦	٤
-٣	٣,٣٥	١٢
-٤	٣,٤٧	١٠
-٥	٣,٥٦	٦
-٦	٣,٥١	٨
-٧	٣,٥٣	٧
-٨	٣,٣	١٣
-٩	٣,٣٧	١١
-١٠	٣,٧٥	٢
-١١	٣,٨٥	١
-١٢	٣,٦١	٥
-١٣	٣,٤٩	٩
-١٤	٣,٧٥	٢

كما تشير المعلومات في الجدول رقم (٣) ان اقل الفقرات اهمية من وجهة نظر المشرفين التربويين فيما يتعلق بالوظائف الادارية لمدير المدرسة هي الفقرة رقم (١) "وضع جدول يومي لمقابلة الطلاب " اذ كانت رتبتها الرابعة والعشرين (الوسيط ٢,٨٧) ، اما الفقرة رقم (٢) " توفير الاسعافات الاولية في المدرسة " فقد كانت رتبتها الثالثة والعشرين (الوسيط ٣,١) ، ويوضح الجدول رقم (٣) ايضاً ان المشرفين كانت تقديراتهم متدنية على الفقرة رقم (٩) " وضع برنامج لاستقبال الطلاب الجدد " اذ كانت رتبتها الثانية والعشرين ، وكذلك يظهر من الجدول ان تقديرات المشرفين كانت ضعيفة على الفقرة رقم (٣) " اعداد المباني والاجهزة

والوسائل التعليمية " فقد احتلت الرتبة الواحد والعشرين (الوسيط ٣,١٩) ، اما الفقرة رقم (٤) " اعداد دليل العمل بالمدرسة " فقد كانت رتبتها العشرون .

جدول (٣)
يبين توزيع اداء العينة على مجال الوظائف الادارية لمدير المدرسة (٣)

رقم الفقرة	الوسيط	الرتبة	رقم الفقرة	الوسيط	الرتبة
-١	٢,٨٧	٢٤	-١٣	٣,٥١	١١
-٢	٣,١	٢٣	-١٤	٣,٦٨	٣
-٣	٣,١٩	٢١	-١٥	٣,٥٣	٨
-٤	٣,٢٥	٢٠	-١٦	٣,٥٠	١٢
-٥	٣,٢٧	١٩	-١٧	٣,٦١	٥
-٦	٣,٤٩	١٣	-١٨	٣,٥٢	١٠
-٧	٣,٤٧	١٤	-١٩	٣,٤٧	١٤
-٨	٣,٥٦	٧	-٢٠	٣,٦٢	٤
-٩	٣,١٦	٢٢	-٢١	٣,٦٩	١
-١٠	٣,٥٧	٦	-٢٢	٣,٣٠	١٧
-١١	٣,٦٩	١	-٢٣	٣,٣٠	١٧
-١٢	٣,٣٨	١٦	-٢٤	٣,٥٣	٨

ويتضح كذلك من الجدول رقم (٤) ان الفقرة رقم (٩) " توزيع الطلاب على الصفوف عشوائياً " من أهم الوظائف الفنية لمدير المدرسة ، وقد احتلت الرتبة الأولى، اذ كان الوسيط (٣,٨٥) ، اما الفقرة رقم (١٣) " متابعة تنفيذ المناهج " فقد احتلت المرتبة الثانية (الوسيط ٣,٧٢) ، وجاءت الفقرتان (١٢،١٧) " العمل على تحسين تحصيل الطلاب " ، " معرفة الاهداف التعليمية للمرحلة التي يديرها " في الرتبة الثالثة ، (الوسيط ٣,٧٠) ، واحتلت الفقرة رقم (٢٤) " متابعة الطلاب

الضعاف في المدرسة " المرتبة الخامسة (الوسيط ٣,٦٤) ، ويتضح كذلك من الجدول ان الفقرتان (١٨،٢٥) " متابعة تنفيذ المعلمين لتوجيهات المشرفين التربويين " ، " متابعة الطلاب المتفوقين في المدرسة " قد جاءتا في المرتبة السادسة ، (الوسيط ٣,٦٣) .

كما تشير المعلومات في الجدول رقم (٤) الى ان المشرفين كانت تقديراتهم متدنية على الفقرة رقم (٧) " متابعة تعبئة السجلات الشاملة للطلاب " فقد كانت رتبتها الخامسة والعشرين (الوسيط ٣,١١) ، وجاءت الفقرة رقم (٦) " المشاركة في الأنشطة الطلابية " في الرتبة الرابعة والعشرين (الوسيط ٣,١٨) ، اما الفقرة رقم (٥) " المشاركة في تدريب المعلمين اثناء الخدمة " فقد جاءت في الرتبة الثالثة والعشرين (الوسيط ٣,٢٢) ، ويتضح كذلك من الجدول ان الفقرة رقم (٢٣) " متابعة اعمال اللجان والجمعيات المدرسية " كانت في الرتبة الثانية والعشرين . وكذلك يتضح من استجابات المشرفين كما يشير الجدول ان تقديراتهم كانت متدنية على الفقرة رقم (٨) " تشجيع المعلمين على الالتحاق ببرامج التأهيل اثناء الخدمة " فقد كانت رتبتها الواحد والعشرون ، (الوسيط = ٣,٢٨) .

ثانيا : النتائج المتعلقة بوجود فروق بين تقديرات المشرفين التربويين لمؤهلات مدير المدرسة .

لقد استخدم تحليل التباين المتعدد المتغيرات (MANOVA) بوصف تقديرات المشرفين لأهمية الفقرات على كل بعد من ابعاد الدراسة كمتغيرات تابعة واستخدام المؤهل ، والخبرة التعليمية ، والخبرة الادارية متغيرات مصنفة .

جدول رقم (٤)

يبين توزيع اداء العينة على بعد الوظائف الفنية لمدير المدرسة

رقم	الوسيط	الرتبة
١-	٣,٤٧	١٤
٢-	٣,٣٨	١٨
٣-	٣,٣١	٢٠
٤-	٣,٤٨	١٣
٥-	٣,٢٢	٢٣
٦-	٣,١٨	٢٤
٧-	٣,١١	٢٥
٨-	٣,٢٨	٢١
٩-	٣,٨٥	١
١٠-	٣,٤٣	١٧
١١-	٣,٤٤	١٦
١٢-	٣,٧٠	٣
١٣-	٣,٧٢	٢
١٤-	٣,٥١	١١
١٥-	٣,٥٧	٩
١٦-	٣,٥٥	١٠
١٧-	٣,٧٠	٣
١٨-	٣,٦٣	٦
١٩-	٣,٣٨	١٨
٢٠-	٣,٤٧	١٤
٢١-	٣,٦	٨
٢٢-	٣,٤٩	١٢
٢٣-	٣,٢٥	٢٢
٢٤-	٣,٦٤	٥
٢٥-	٣,٦٣	٦

ويوضح الجدول رقم (٥) نتائج هذا التحليل ، ويتضح من الجدول رقم (٥) ان قيمة (ف) لم يكن لها دلالة احصائية مع أي من هذه العوامل .

جدول رقم (٥)

ملخص تحليل التباين الاحادي المتعدد المتغيرات لاثر المؤهل ، الخبرة التعليمية ، والخبرة الادارية في مؤهلات مديرالمدرسة في كل بعد من الابعاد الثلاثة للدراسة

المصدر	قيمة ولكس لندا	قيمة (ف) التقريبية	درجات الحرية الافتراضية	درجات الحرية / الخطأ	(دلالة ف)
المؤهل	٠,٨٣	١,٤٥	٦,٠٠	٩٠٤,٠٠	٠,٢٠٢
الخبرة التعليمية	٠,٩٨	٠,٣٦	٣,٠٠	٤٦,٠٠	٠,٧٨٢
الخبرة الادارية	٠,٨٧	٢,٢٤	٣,٠٠	٤٦,٠٠	٠,٠٩٦

جدول رقم (٦)

نتائج تحليل التباين الاحادي لأثر المؤهل في تقديرات المشرفين على ابعاد الأداة الثلاثة

المجال	مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة ف
مؤهلات مدير المدرسة	بين المجموعات	٨١,٧	٢	٤٠,٨	١,٤
	داخل المجموعات	٣٧١٥,٧	١٢٧	٢٩,٣	
الوظائف الادارية لمدير المدرسة	بين المجموعات	٢٩٠,١	٢	١٤٥,٥	٢,٠٠
	داخل المجموعات	٩٢٢٣,٦	١٢٧	٧٢,٦	
الوظائف الفنية لمدير المدرسة	بين المجموعات	٢٧٠,٥	٢	١٣٥,٢	١,٥
	داخل المجموعات	١١٨٥٠,٦	١٢٧	٩٣,٣	
المقياس ككل	بين المجموعات	١٤٩٢,٩	٢	٧٤٦,٤	١,٦
	داخل المجموعات	٦٠٣٢٢,٣	١٢٧	٤٧٤,١	

وعلى الرغم من ان تحليل التباين المتعدد المتغيرات لم يكشف عن فروق ذات دلالة احصائية لأي من العوامل السابقة ، فان تحليل التباين الاحادي المتغير قد اشار الى وجود بعض الاختلافات على بعض من الابعاد في الاستبانة . ففي حالة المؤهل (لاحظ الجدول رقم ٦) كشف تحليل التباين الاحادي . كما تشير نتائج تحليل التباين الاحادي المتغير عن وجود فروق تعزى الى مستويات الخبرة الادارية للمشرفين على اهمية بُعد " الوظائف الفنية لمدير المدرسة " (لاحظ جدول رقم ٧). وعلى فقرات المقياس ككل .

جدول رقم (٧)

نتائج تحليل التباين الاحادي لأثر الخبرة الادارية في تقديرات المشرفين على ابعاد الاداة الثلاثة

المجال	مصدر التباين	مجموع المربعات	درجات الحرية	متوسط المربعات	قيمة (ف)
مؤهلات مدير المدرسة	مجموع مربع الانحرافات بين المجموعات	١١٩,٥	٣	٣٩,٨	١,٣٦
	مجموع مربع الانحرافات داخل المجموعات	٣٦٧٧,٨	١٢٦	٢٩,٢	
الوظائف الادارية لمدير المدرسة	مجموع مربع الانحرافات بين المجموعات	٥٤٦,١	٣	١٨٢,٣	٢,٥٦
	مجموع مربع الانحرافات داخل المجموعات	٨٩٦٧,٦٣	١٢٦	٧١,٢	
الوظائف الفنية لمدير المدرسة	بين المجموعات	٧٥٩,١	٣	٢٥٣,٠٣	٢,٨١*
	داخل المجموعات	١١٣٦٢,٠	١٢٦	٩٠,١٧	
المقياس ككل	بين المجموعات	٣٥٠٣,٣	٣	١١٦٧,٨	٢,٥٢*
	داخل المجموعات	٥٨٣١١,٩	١٢٦	٤٦٢,٨	

ولدى الرجوع الى جدول الاوساط الحسابية (لاحظ جدول رقم ٨) تبين ان متوسط تقديرات المشرفين ذوي الخبرة من مستوى (١٠سنوات فأكثر) على بعد الوظائف الفنية لمدير المدرسة اعلى من تقديرات المشرفين على بقية المستويات الأخرى .

جدول رقم (٨)

المتوسطات الحسابية والانحرافات المعيارية لمستويات الخبرة الاداري لدى المشرفين التربويين

سنوات الخبرة	المتوسط	الانحراف المعياري
١-٣	٨١,٢	٩,٣
٤-٦	٨٦,٥	٩,٥
٧-٩	٨٦,٢	١٠,٧
١٠ فأكثر	٨٧,٦	٩,٠٠

كما استخدم اختبار (ت) (T- test) لحساب دلالة الفروق بين متوسطات مستويات الخبرة التعليمية ، لدى المشرفين على ابعاد الدراسة . (انظر جدول رقم ٩) ، تشير المعلومات في الجدول رقم (٩) انه لاتوجد فروق ذات دلالة احصائية بين متوسط درجات مستويات الخبرة التعليمية على ابعاد الادارة الثلاثة.

جدول رقم (٩)

يوضح دلالة الفرق بين متوسطات مستويات الخبرة التعليمية لأفراد العينة

الرقم	المجال	سنوات الخبرة	العدد	متوسط الدرجات	الانحراف المعياري	قيمة ت
١-	مؤهلات مدير المدرسة	١-٣	٢٩	٤٩,٧	٤,٦	٠,٤٤
		٤-٦	١٠١	٤٩,٣	٤,٧	
٢-	الوظائف الادارية لمدير المدرسة	١-٣	٢٩	٨٢,٣	٩,١	٠,٠٢
		٤-٦	١٠١	٨٢,٢	٨,٥	
٣-	الوظائف الفنية لمدير المدرسة	١-٣	٢٩	٨٤,٩	١٠,٨	٠,٥٥
		٤-٦	١٠١	٨٥,١	٩,٤	
	المقياس ككل	١-٣	٢٩	٢١٦,١	٢٢,٩	٠,١٤
		٤-٦	١٠١	٢١٧,٥	٢١,٧	

مناقشة النتائج :

قام الباحثان بفحص اسئلة الدراسة وتحليل النتائج التي توصلا اليها ، وفيما يلي مناقشة لها :

فيما يتعلق بالسؤال الأول ، فقد أظهرت نتائج هذه الدراسة ان المشرفين التربويين يرون ان اهم المؤهلات الواجب توافرها في مدير المدرسة هي القدرة على تحمل المسؤولية وتوفير الكتب المدرسية لمدرسته ، والعمل على زيادة دافعية العاملين في المدرسة ، وتوزيع الطلاب على الصفوف عشوائياً . وان اقلها اهمية من وجهة نظرهم كانت المشاركة في برامج تأهيل المدرسين اثناء الخدمة ، ووضع جدول يومي لمقابلة الطلاب ، ومتابعة تعبئة السجلات الشاملة للطلاب .

وتتفق نتائج الدراسة في هذا المجال مع دراسة سبنج (١٩٦٦) والتي ذكرت ان اهم الصفات التي تكون مدير المدرسة الناجح هي : الشعور بالمسؤولية ، وتدريب مهني كافٍ ، ومهارة في العلاقات الانسانية . كما تتفق مع نتائج دراسة رضوان ، زيدان ، وقاسم (١٩٦٩) التي اشارت الى ان من المسؤوليات الادارية الملقاه على عاتق مدير المدرسة هي توزيع الطلاب على الصفوف والتوجيه الفني للمدرسين وتنسيق جهودهم ، والاشراف على النواحي المالية والادارية للمدرسة .

واختلفت نتائج هذه الدراسة مع دراسة محضر (١٩٨٥) والتي اشارت انه حتى يقوم مدير المدرسة بمهامه الادارية والفنية يجب ان يكون قد مارس التدريس بنجاح لعدة سنوات . كما تختلف مع ماشارت اليه دراسة عزيزي (١٩٧٥) من ان مديري المدارس في الأردن يشاركون في الكثير من الأعمال الكتابية والادارية بينما مشاركتهم اقل بوظائف ذات علاقة بارشاد الطلاب والعلاقات الاجتماعية وقيادة التعليم عموماً .

وفيما يتعلق بالسؤال الثاني ، فقد اظهرت نتائج الدراسة باستخدام تحليل التباين الاحادي (لاحظ جدول رقم ٦) انه لايوجد فروق في تقديرات المشرفين التربويين للمؤهلات التي يجب توافرها في مدير المدرسة على مجالات الاستبانه الثلاث ، تعزى الى مؤهلاتهم العلمية .

وتتفق هذه النتائج ، في هذه الناحية مع ماأشار اليه سبنج من اجماع رجال الادارة على اعتبار بعض الصفات (مثل الشعور بالمسؤولية ، وتحصيل علمي عالٍ ، وتدريب مهني كافٍ ، ومهارة في العلاقات الانسانية) هي الصفات التي تكون مديرٍ المدرسة الناجح . كما تتفق مع ماأشار اليه مرسي (١٩٨٨) وسلامه (١٩٨٧) من اتفاق

دارسي الادارة والاداريين على تصنيف المهارات التي تعتبر ضرورية لنجاح الاداري الى مهارات تصويرية وفنية وانسانية .

وفيما يتعلق بالسؤال الثالث ، فقد كشفت نتائج الدراسة باستخدام اختبار (ت) (لاحظ جدول رقم ٩) انه لايوجد فروق في تقديرات المشرفين التربويين للمؤهلات الواجب توفرها في مدير المدرسة ، تعزى الى خبرتهم التعليمية .

وتتفق نتائج هذه الدراسة ، في هذا المجال مع نتائج دراسة سبنج (١٩٦٦) من اجماع رجال الادارة على اعتبار الصفات التالية (الشعور بالمسؤولية ، وتحصيل علمي عال ، وتدريب مهني كافٍ ..) هي الصفات التي تكون مدير المدرسة الناجح. ويمكن تفسير ذلك على اساس ان المشرفين التربويين ومن خلال تفاعلهم مع مدير المدرسة بالاضافة الى عملية اعدادهم وتأهيلهم يستطيعون تحديد اهم المؤهلات التي يجب توفرها في مدير المدرسة ، بحيث اصبحت سنوات الخبرة التعليمية ليست ذات أثر على تقدير المشرف لمؤهلات المدير الناجح كما يمكن تفسيرها في ضوء ضيق المدى بين مستويات الخبرة التعليمية للمشرفين حيث تراوحت بين ١-٦ سنوات .

أما فيما يتعلق بالسؤال الرابع ، عن وجود فروق ذات دلالة بين خبرة المشرفين التربويين الادارية وبين تقديراتهم لمؤهلات مدير المدرسة ، اظهرت نتائج تحليل البيانات باستخدام تحليل التباين الاحادي (لاحظ جدول رقم ٧) ان تقديرات المشرفين التربويين لمؤهلات مدير المدرسة على بعد الوظائف الفنية ، وعلى فقرات المقياس ككل لها علاقة ذات دلالة احصائية (α = ٠,٠٥) مع خبرة المشرفين الادارية . وان تقديرات المشرفين التربويين ذوي الخبرة الادارية من مستوى ١٠ سنوات فأكثر أعلى من تقديرات المشرفين من مستويات الخبرة الادارية الأقل من ١٠سنوات ، على بعد الوظائف الفنية لمدير المدرسة . (لاحظ جدول ٨) .

وتتفق نتائج هذه الدراسة ، في هذه الناحية مع دراسة الرويلي والقرني (١٩٨٩) والتي أشارت الى ان الوظائف الفنية لمدير المدرسة تلقى اهتماماً أكبر في النظام التربوي اللامركزي .

ويمكن تفسير ذلك على اساس انه كلما زادت سنوات خبرة المشرف التربوي الادارية كلما استطاع ادراك وفهم لطبيعة الوظائف الفنية لمديري المدارس .

التوصيات :

في ضوء النتائج ومناقشتها ، يوصي الباحثان بمايلي :

١- الاهتمام بتزويد مديري المدارس بنشرات لزيادة اطلاعهم على المهام الادارية والفنية التي يجب عليهم ممارستها في ادارتهم وذلك حتى تسهم عملية الفهم للمسؤوليات في تطوير الادارة المدرسية .

٢- اجراء دراسات مماثلة لمعرفة اتجاهات مديري ومديرات المدارس حول المهام الادارية والفنية التي يمارسونها في مدارسهم وذلك بتطبيق اداة القياس الحالية او تطوير ادوات قياس اخرى اكثر مناسبة .

٣- من المفيد الاخذ بالمؤهلات التي وردت في اداة الدراسة حتى تصبح احدى المعايير التي تعتمدها وزارة التربية والتعليم في عملية اختيار مدراء المدارس.

٤- على مديري المدارس الاهتمام بالمهمات الفنية وعدم الاكتفاء بالاهتمام بالمهام الادارية التقليدية وذلك لاهمية مايقوم به مدير المدرسة من دور فعال في العملية التعليمية .

المراجع العربية

١- أبو عيطة ، والرفاعي بتول . (١٩٨٨) دور المرشد التربوي في تحقيق اهداف العملية التربوية الاكاديمية والمهنية والنفسية في المرحلة الثانوية . المجلة التربوية . ٤(١٥) ص٣٠-٣٤ .

٢- أبو هلال ، احمد . (١٩٨٩) " النمط الاداري المطلوب في المدرسة الابتدائية للعقد القادم " ورقة قدمت الى مؤتمر جامعة مؤتة حول رفع كفاءة مدير المدرسة من ١٩٨٩/٥/١٧ - ١٩٨٩/٥/١٨ ، جامعة مؤتة : الأردن .

٣- تيم ، علي . (١٩٨٤) . صفات مدير المدرسة الابتدائية الناجح في مدارس وكالة الغوث في الاردن من وجهة نظر المعلمين والمديرين والمشرفين التربويين . رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، اربد .

٤- الجابري ، محمد رجب . (١٩٧٧) . برنامج تأهيل مديري ومديرات المدارس للمرحلة الالزامية . عمان ، الاردن : وزارة التربية والتعليم .

٥- جرادات ، عزت . (١٩٨٤) . " التجديدات والتطورات في الادارة التربوية الاردنية " . التربية / قطر ، ٦٧،٥٤-٥٨ .

٦- جرادات ، عزت . (١٩٧٩) . " مدير المدرسة : دراسة مقارنة " رسالة المعلم. ٢٢ (١) ، ٦٣-٧٣ .

٧- حسن ، محمد احمد . (١٩٨٩) . " نحو مخطط لاعداد القيادات الادارية التربوية " . مجلة جامعة الملك عبدالعزيز العلوم التربوية . المجلد ٢ ، ١٣٧-١٤٧ .

٨- حسن مهدي . (١٩٨٢) . علم النفس الاداري والسلوك الاداري . المنظمة العربية للعلوم الادارية .

٩- حسين ، منصور ، وزيدان محمد. (١٩٧٦). سيكولوجية الادارة المدرسية والاشراف الفني التربوي. الفجاله .

١٠- خصاونة ، سامي. (١٩٨٦). "الخصائص الشخصية والمهنية لمديري المدارس الثانوية في الاردن: دراسة مسحية". دراسات . ١٣ (٦)، ص ص ٨٩-١١٦.

١١- دوجان ، عكاالله. (١٩٨٩). مدى ممارسة المشرفين التربويين ومديري المدارس في محافظة المفرق ولواء جرش لمهام الاشراف التربوي .

١٢- الدويك، تيسير . (١٩٧٩). "المشرف التربوي والمعلم . واقع وتطلعات". رسالة المعلم، ٢٢ (١) ، ص ص ٢٥ - ٢٩ .
١٣- دويك ، تيسير ، حسين ياسين ، محمد عبدالرحمن ومحمد فهمي . (١٩٨٤). أسس الادارة التربوية والاشراف التربوي . دار الفكر للنشر والتوزيع : عمان.
١٤- الرويلي ، موفق ، والقرني علي ، (١٩٨٩). "مؤهلات ووظائف مدير المدرسة دراسة استطلاعية لآراء مديري التعليم بالمملكة العربية السعودية". مجلة كلية التربية. العدد الثالث عشر.
١٥- سينج، جاسوانت (ترجمة صدق حطاب). (١٩٦٦). ناظر المدرسة الناجح. مطبعة حكومة الكويت: الكويت .
١٦- سلامة ، كايد. (١٩٨٩). "القيادة التربوية : مهارة أساسية لمدير المدرسة الفعال". مركز البحث والتطوير التربوي ، جامعة اليرموك : اربد.
١٧- سلامة ، كايد. (١٩٨٧). "مدير المدرسة : مشرف مقيم" مركز البحث والتطوير التربوي ، جامعة اليرموك : اربد .
١٨- سليمان ، عرفات. (١٩٨٤). "دراسة ميدانية لبعض المتغيرات المرتبطة بالادارة المدرسية". مركز البحوث التربوية ، جامعة أم القرى : مكة المكرمة .
١٩- الشامي ، محمد ، وفودة محمد. (١٩٧٩). التجديدات التربوية في الأردن . عمان ، الأردن : وزارة التربية والتعليم .
٢٠- شعلان، محمد ، رضوان محمد ، محمد مصطفى ، وقاسم احمد. (١٩٧٨). الادارة المدرسية والاشراف الفني . مكتبة الانجلو المصرية .
٢١- الطوباسي، عادل. (١٩٨٠). "واقع الادارة المدرسية في الاردن" رسالة دكتوراه غير منشورة ، الجامعة اليسوعيه ، بيروت.
٢٢- عثمان، عدنان. (١٩٧٢). "نظرة في تطوير الادارة التربوية في الاردن". رسالة المعلم ، ٢ (١٥)، ٤٧ - ٥٠ .
٢٣- العشب، عشب محمد. (١٩٩٠). تطور دور مدير المدرسة الاردني منذ الاستقلال وحتى عام ١٩٩٠ : "دراسة تحليلية تاريخية". رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة اليرموك ، اربد.
٢٤- العمري، عبدالله. (١٩٩٢). تصورات مديري التربية والتعليم ومساعديهم والمشرفين التربويين في محافظة اربد لدور مدير المدرسة الثانوية. رسالة ماجسير غير منشورة ، جامعة اليرموك، اربد.

٢٥- عواد، مازن. (١٩٨٥). دراسة تحليل لمعرفة مدى ممارسة مديري المدارس الثانوية في الاردن للمهام الادارية المطلوبة منهم. رسالة ماجستير غير منشورة ، الجامعة الاردنية، عمان.
٢٦- قراقزة، محمود. (١٩٨٧). نحو ادارة تربوية واعية. دار الفكر اللبناني: بيروت.
٢٧- محضر، حسين. (١٩٨٥). الجديد في الادارة المدرسية. دار الشروق : جدة.
٢٨- مرسي ، محمد منير، (١٩٨٨). الادارة التعليمية : اصولها وتطبيقاتها . عالم الكتب: القاهرة.
٢٩- مطاوع، ابراهيم ، وأمينة حسن. (١٩٨٩). الاصول الادارية الحديثة. ط ٢، دار الشروق للنشر والتوزيع : جدة.
٣٠- المنيع، محمد عبدالله ، وسعيد شريف. (١٩٨٢). "دراسة تحليلية للعمل اليومي لمديري المدارس الابتدائية والمتوسطة والثانوية في المملكة العربية السعودية". دراسات تربوية. (٤)، ص ص ٣ - ٥٢.
٣١- وزارة التربية والتعليم (١٩٨١) دليل الادارة والتعليم . عمان .
٣٢- وزارة التربية والتعليم (١٩٨٩) مؤتمر التطوير الاداري . رسالة المعلم (١) ، (٢) ، و (٣) ، ص٧٠-٨٥.

المراجع الأجنبية

1- Azizi K., Izat. (175). "Duties and Responsibilities of the Elementary and Preparatory school principals in Jordan". ph.D. Diss University of Pittsburgh.

2- Clever, W.R. (1981) The principal appreisal in anthropological educational Approach. Eductional Aduinestration Quarterly 18 (1). 114-128.

3- Cross, Nael and Herriot, Rebort E. (1965). Staff Leadership in public schools Inquiry. New York: John Wiley and sons.

4- Cullberson, Jack. (1964). Preparing Educational Lenders for the Seventies. Colombus, Ohio.

5- Hatch-Yap, Carolemae. (1988). Astndy of principals' perceptions of thier role thier educational a duinestration prigrans' perceived effectivenes as related to that role.

6- Griffith. D. (1965). Human Relations in school Administation. New York : Appleton - century - crofts.

7- Martine, Jane. (1991). Perception of effective secondary principal instructional leadership behavior by principals, superintendent and board presidents. Dissertation Abstract International, 51 (7) 2220-A.

8- Mizw, Rita Lewferberg. (1981) The effect of principal behavior upon teachen performance in high-achieving and low-achieving. Dissertation Abstract International, 41 (8) 3152-A.

9- Oberlin, J.K. (1980). perecptions of principals ' behavior and relations in desegregated secondary schools. Dissertation Abstract International, 41 (4) 1370-A.

10- Rosenberg, Max. (1982). "Schools principals should Teach". Phi Delta Kappan. Vol 63, No. 9, p 630.

11- Weg, Herbert. (1966). Handbook for principals; Practical Suggestions for action. New York: McGraw-Hill Book Company.

12- Wynne, Bevious. (1984). "Synthesis of research on the principal as Instructional lender". Educational Leadership. 41 (4), pp. 14-20.

رقم الإيداع بدار الكتب (١٠)
بتاريخ ١٩٩٣/١٢/٢١

UNIVERSITY OF SANA'A

JOURNAL OF FACULTY OF ARTS

NO. 18 1995

UNIVERSITY OF SANA'A

JOURNAL OF FACULTY OF ARTS

N, 18 1995

الأفق للطباعة والنشر - تليفون : ٦١٢٨٤٤ - فاكس : ٦١٢٨٤٥
Horizons Printing & Publishing - Tel. 612844 - Fax 612845